رسالة جامعية



الطائفة الكاثوليكية

وأثرها على العالم الإسلامي

د. محمد بن علي آل عمر الزيلعي


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET



الطائفة الكاثوليكية

وأثرها على العالم الإسلامي

الدكتور

محمد بن علي آل عمر الزيلعي


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ

ح مجلة البيان، ١٤٣٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الزيلعي، محمد علي آل عمر

ملاحم آخر الزمان عند المسلمين وأهل الكتاب وآثارها الفكرية . /

ياسر عبدالرحمن عبدالقادر الأحدي ـ الرياض، ١٤٣١هـ

٥٣٥ ص، سم ١٧× ٢٤

ردمك: ٧-٤-٩٠١٩٩-٦٠٣-٩٧٨

١- الكاثوليك ـ تاريخ ٢- التنصير - العالم الإسلامي أ. العنوان

ديوي ٢٧٩,١٧٠٩ ١٤٣٢/١٩٨

رقم الإيداع: ١٤٣٢/١٩٨

ردمك: ردمك٧-٤-٩٠١٩٩-٦٠٣-٩٧٨

عنوان البحث: الطائفة الكاثوليكيّة، وأثرها على العالم الإسلامي.

مجلس المناقشة:

المشرف على الرسالة: الأستاذ الدكتور محمود بن محمد مزروعة.

المناقش الخارجي: الأستاذ الدكتور علي بن حسن الألمعي.

المناقش الداخلي: الأستاذ الدكتور محمد بن يسري جعفر.



المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، بلغ الرسالة وأدى الأمانة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، فصلِّ اللهم عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

فإن الله ﷻ أرسل نبيه محمداً ﷺ علىٰ فترة من الرسل، وأنزل معه الكتاب ليحكم بالحق بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ملك السماوات والأرض.

فكان الناس فيه فريقين مؤمن وكافر. فأمّا المؤمنون فهم فرقة واحدة على سبيل الحق يهتدون بنور الله ويحتكمون إلى شرعه، فطريقهم نور على نور، إلى أن يبلغوا غاية الأمر ونهايته رضوان الله ﷻ وجنته.

وأما الكافرون فهم على سبل متشعبة متفرقة، يجمعهم الكفر وتفرقهم الطريقة والمنهج، فمنهم الملحد الذي يتعامى عن ربه، ويتخبط في الدنيا على غير هُدى من شرع إلهي، ومنهم الوثني الذي ضل عن ربه فعبد ما لا يُغني ولا يسمن من جوع، ومنهم اليهودي الذي أضله الله على علم وختم على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة، أعماه الكبر والحسد وتخبطه الشيطان حتى أعرض عن الحق، وتمرغ بالباطل وجابه ربه بكل خُلقٍ رذيل وطبع مشين، فاستحق غضب الله ولعنته، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون.

ومنهم النصراني عابد الصليب، اتخذ إلهه هواه حتى عدّ الوثنية ديناً حقاً والشرك توحيداً، وقال في الله قولاً عظيماً، يضاهي بذلك قول الذين كفروا من قبل وضلوا عن سواء السبيل، وزين له الشيطان سوء عمله فرآه حسناً، فإن الله يُضل من يشاء ويهدي من يشاء وما ربُك بظلاّم للعبيد.

والمسلم صاحب دعوة وحق لا يغره كثرة الهالكين ولا قلة السالكين، إذ هو يسير بنور الله ﷻ وهدايته، والمسلم داعية مشفق ناصح، ينصح للخلق رغبة في هدايتهم ونجاتهم، ثم إنه يجب عليه أن يعرف العدو من الصديق ليستبين له الأمر، وليتوقى ما يجب التوقي منه، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[1]. فلا بد مع معرفة المسلم بالإسلام ومنزلته وفضائله من أن يتعرف إلى الباطل وأهله فيشير إليهم بأصبع التحذير.

ولقد تأثر المسلمون قديماً وحديثاً بنار العداوة والكيد والدسائس التي قام بها أهل الكتاب - اليهود والنصارى - منفردين ومجتمعين.

وذلك دفعني لأن أختار الكتابة عن طائفة من الطوائف النصرانية الكبرى، بل هي الأم فيها،

(١)) سورة الأنعام الآية ٥٥.

وهي: الطائفة (الكاثوليكية)، وأثرها على العالم الإسلامي.

والطائفة الكاثوليكية هي أكبر الطوائف النصرانية، وأكثرها تغلغلاً وقدماً في التاريخ النصراني، ويدعي متبعوها أنها أم الكنائس ومعلمتها، بزعم أنّ مؤسسها بطرس أحد حواري النبيّ عيسى عليه السلام وتتمثل في عدة كنائس تتبع كنيسة روما وتعترف بسيادة (بابا روما) عليها، وتسمى بالكنيسة الغربية أو اللاتينية لامتداد نفوذها إلى الغرب اللاتيني خاصة.

وكانت لهذه الطائفة مواقف أثّرت في العالم الإسلامي قديماً، وحديثاً، ومنها أنّها أوّل من سلّت السيوف في وجه الأمة الإسلاميّة، وأقامت الحروب، ومعسكرات التعذيب للمسلمين، فهي أوّل من احتلت أراضي المسلمين في الغرب (بلاد الأندلس العجيبة)، واحتلت أيضاً بلاد المسلمين في الشرق (الأراضي المقدّسة، فلسطين وما حولها)، وعملت في أبناء المسلمين هنا وهناك القتل والذبح والتشريد، وأنّ بابواتها وكنائسها عملوا على نشر كره المسلمين والحقد عليهم بين الشعوب الغربيّة، والذي ما زال أثره إلى اليوم، فهي السبب في وضع حواجز نفسيّة سيئة في نفوس الغربيين بالنسبة للمسلمين لم يستطيعوا التخلّص منها؛ لذا فإنّهم لم يتقبّلوا المسلمين إلاّ بحذر وتوجّس وتقديم الظن السيئ على الحسن إلى يومنا هذا في بدايات القرن الواحد والعشرين، وأنّ الطائفة الكاثوليكيّة أيضاً هي أوّل من حاولت العبث بدين المسلمين وعقولهم عن طريق الغزو الفكري، وذلك بنشر ثقافات ومعلومات وبحوث مزوّرة ماكرة خادعة، انخدع بها بعض أبناء المسلمين، فتحوّلوا من صف دينهم الإسلامي وثقافتهم الإسلاميّة إلى صف أولئك النصارى الحاقدين والماكرين، كما أنّ هذه الطائفة جنّدت أموالها ورجالها ونسائها من خلال بعثات وإرساليات وُجّهت إلى بلاد المسلمين في محاولات خبيثة لإخراج أبناء المسلمين من دينهم الإسلامي، وإدخالهم في الدين النصرانيّ. ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

ومن أسباب اختياري أيضاً للكتابة في هذا الموضوع:

أولاً: محاولة لكشف عوار الديانة النصرانية وما قام به أحبارها وكهنتها من عبث بمعالمها

وأصولها، وفي هذا إظهار لبراءة المسيح عيسى ﷺ مما افتراه عليه النصارى، وفي ذلك تصديقٌ لخبر الله ﷻ عنهم، كما أن الإيمان بخبر الله عنهم يُصبح إيماناً مفصلاً بعد أن كان إيماناً مجملاً.

ثانياً: في اعتقادي أن هذه الدراسة وأمثالها عامل مهم للمسلم يُسهّل له دعوة أصحاب الديانات المنحرفة بإبراز مواضع الانحراف والفساد في ديانتهم، وإبراز بعض خططهم ومكرهم الخبيث الموجّه لأبناء الأمة الإسلاميّة، وحتى يكون المسلم في يقظةٍ من أمره إذا تعامل مع أولئك الماكرين، خاصة إذا علمنا أنّ أولئك النصارى لا يبدؤون بحملاتهم على الأمة الإسلاميّة إلاّ بعد دراسة الإسلام وثقافات المسلمين وتوجّهاتهم، وتاريخهم، فيتعرّفون عن طريق هذه الدراسات إلى أقصر الطرق، وأكثرها تأثيراً، ونجاعةً فيدخلون من خلالها على أبناء المسلمين، وما الدراسات الاستشراقيّة، والاهتمام بعلوم المسلمين عند الغربيين، إلاّ أكبر دليل على ذلك؛ لذا يجب على دعاة المسلمين، وطلاّب علمهم أن يتعرّفوا إلى عدوّهم، من جهة اعتقاداته، وتاريخه، وأساليبه الماكرة، حتى يستطيعوا أن يصلوا إلى أفضل الطرق في مواجهته، وفي كيفيّة التعامل معه.

ثالثاً: وفيها بيان للمسلمين أن منطلقات علاقات الغرب معنا إنما هي منطلقات عقدية، وفكريّة.

أمّا خطة البحث التي سرت عليها فقد تضمّنت، بعد المقدّمة، ثلاثة أبواب، وخاتمة، وهي كالتالي:

الباب الأول: الديانة النصرانية من المسيح عيسى ﷺ إلى الإمبراطور قسطنطين الأول.

وفيه فصلان:

الفصل الأول: عيسى ﷺ ودعوته.

الفصل الثاني: من بداية الانحراف إلى ترسيخه، ودور بولس اليهودي، والإمبراطور قسطنطين في هذا الانحراف.

الباب الثاني: الطائفة الكاثوليكية، والبابوية، تعريفاً، وتاريخاً.

وفيه فصلان:

الفصل الأول: التعريف بالطائفة الكاثوليكية، والبابوية.

الفصل الثاني: البابوية عبر التاريخ.

الباب الثالث: أثر الطائفة الكاثوليكية على العالم الإسلامي.

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الحروب الصليبية قديماً وحديثاً.

الفصل الثاني: الغزو الفكري.

الفصل الثالث: التنصير.

الخاتمة.

وإني لأرجو الله تعالى أن أكون قد وفقت في هذا البحث، فإن كنت قد أصبت فمن الله تعالى وحسن توفيقه، وإن أخطأت فمني ومن الشيطان، وأستغفر الله وأسأله الرشد والسداد والرجوع إلى الحق.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أتوجه بالشكر والتقدير إلى كل من مدَّ لي يد العون والمساعدة في هذا البحث، وعلى رأسهم الوالد الحبيب، الذي حثني على الكتابة في هذا الموضوع، والصبر عليه، حتى تمامه، وأتقدم بالشكر الجزيل إلى شيخي ومشرفي على هذا البحث والذي أولاني باهتمامه واستفدت من آرائه وتوجيهاته، وهو فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور محمود بن محمد مزروعة، وإنّي أدعو الله عز وجل أن يغفر ويرحم فضيلة شيخي، الشيخ (أبو عاصم) موسى بن علي النهاري رحمه الله تعالى والذي استفدت منه في حياته من توجيهاته ومتابعته لهذا البحث، فغفر الله له ورحمه رحمةً واسعةً.

كما أني أتوجّه بالشكر إلى كل من ساعدني بتقديم كتاب أو مشورة أو تصويب أو انتقاد أو ملاحظة لغرض الوصول إلى الحق. فجزاهم الله عني جميعاً الأجر والثواب.

اللهم اجعل هذا العمل خالصاً لوجهك الكريم.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، وصلي اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

محمد بن علي محمد آل عمر الزيلعي.

الباب الأول: الديانة النصرانية من المسيح عيسى عليه السلام إلى الإمبراطور قسطنطين الأول

وفيه فصلان:

الفصل الأول: عيسى عليه السلام ودعوته.

الفصل الثاني: من بداية الانحراف إلى ترسيخه، ودور بولس اليهودي، والإمبراطور قسطنطين في هذا الانحراف.

الفصل الأول: عيسى عليه السلام ودعوته

عرض القرآن الكريم قصة عيسى عليه السلام، من لحظة ولادته إلى نهاية وجوده على الأرض، وبيان دعوته، والمعجزات التي اختصه الله تعالى بها[1].

وذلك على النحو التالي:

أولاً: بيّن القرآن الكريم خلق عيسى عليه السلام، وأنه ولد من أم دون أب، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾[2].

قال ابن جرير في قوله تعالى: ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾: (فإنه جلّ ثناؤه أنبأ عباده عن نسب عيسى، وأنه ابن مريم، ونفى بذلك عنه ما أضاف إليه الملحدون في الله جلّ ثناؤه من النصارى، من إضافتهم بنوّته إلى الله عز وجل، وما قُذفت أمه به المفترى عليها من اليهود)[3].

وقال ابن كثير عن مريم: (قالت في مناجاتها ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ تقول: كيف يوجد هذا الولد مني وأنا لست بذات زوج، ولا من عزمي أن أتزوج، ولست بغياً حاشا لله؟ فقال لها الملك عن الله عز وجل في جواب ذلك السؤال ﴿كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي

---

(١) ولقد رُسمت هذه الصورة وبُيّنت هذه الحقيقة في ثلاث وثلاثين آية من ثلاث عشرة سورة من سور القرآن الكريم.

(٢) سورة آل عمران الآيات ٤٥-٤٧

(٣) تفسير الإمام ابن جرير الطبري، ٣/ ٢٧٠.

هكذا أمر الله عظيم لا يُعجزه شيء، وأكد ذلك بقوله ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي فلا يتأخر شيء بل يُوجد عقب الأمر بلا مهلة كقوله ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ أي إنما نأمر مرة واحدة لا مثنوية فيها فيكون ذلك الشيء سريعاً كلمح بالبصر)[1].

ثانياً: أن عيسى عليه السلام كلمة من الله تعالى ألقاها إلى مريم وروح منه. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[3]، وفي الحديث عن عبادة بن الصامت[4] رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق؛ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل)[5].

قال الحافظ ابن كثير: (... أي إنما هو عبد من عباد الله وخلق من خلقه قال له كن فكان ورسول من رسله وكلمة ألقاها إلى مريم أي خلق بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٢٠ للحافظ ابن كثير.
وانظر قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ سورة مريم الآيات ١٦ ٢١.

(٢) سورة آل عمران الآية ٤٥.

(٣) سورة النساء الآية ١٧١.

(٤) عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي أبو الوليد أحد النقباء، صحابي جليل بدري مشهور، أرسله عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الشام ليعلم أهلها، وهو أول من ولي القضاء بفلسطين، توفي بالرملة سنة ٣٤هـ وله ٧٢ سنة رضي الله عنه وأرضاه. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة ٣/ ٥٠٥، تحقيق: عادل عبد الجواد، وجماعة، وتقريب التهذيب (٣١٥٧) تحقيق: محمد عوامة.

(٥) الحديث أخرجه البخاري ٦/ ٣٤٢ في كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى (لا تغلوا في دينكم)، ومسلم رقم ٢٨ في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، وأحمد في المسند ٥/ ٣١٣.

من روحه بإذن ربه عز وجل فكان عيسى بإذنه عز وجل وكانت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها فنزلت حتى فرجها بمنزلة لقاح الأب والأم والجميع مخلوق الله عز وجل ولهذا قيل لعيسى إنه كلمة الله وروح منه لأنه لم يكن له أب تولد منه وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها كن فكان والروح التي أرسل بها جبريل[(١)].

(وروح منه): أي وكائن من مخلوق من الله تعالى كباقي المخلوقات خلقها الله تعالى جميعاً، فمن للابتداء وليست للتبعيض كما ذهب إلى ذلك النصارى. فروح عيسى عليه السلام كباقي الأرواح صادرة من عند الله خلقها الله وليست جزءاً من الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

فوصف الله تعالى عيسى عليه السلام بأنه منه، أي أنه كائن منه، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[(٢)]، أي: أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه. فكوّن ذلك وأوجده، بقدرته وحكمته، فعيسى عليه السلام من خلق الله تعالى، وليست (من) للتبعيض كما تقوله النصارى عليهم لعائن الله المتتالية بل هي لابتداء الغاية كما في الآية الأخرى، فعيسى مخلوق من روح مخلوقة، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله في قوله ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾[(٣)]، وفي قوله ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾[(٤)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ١/ ٥٢٦.

(٢) سورة الجاثية الآية ١٢.

(٣) سورة هود الآية ٦٤.

(٤) سورة الحج الآية ٢٦. وانظر في ذلك إلى: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٦٥/ ٤٧٥ للحافظ ابن حجر، تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ١ / ٥٢٧.

وبالنسبة لمسألة المضافات إلى الله تعالى: فهي نوعان: ١) إضافة مُلك، ٢) إضافة وصف.

أ) إضافة ملك، هي: كل ما يُضاف إلى الله ويكون عيناً قائمة بنفسها، أو حالاً في ذلك القائم بنفسه، ومن أمثلتها: قوله تعالى: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾، سورة الشمس الآية ١٣، وقوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، سورة الحج الآية ٢٦، وقوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾، سورة مريم الآيات ١٧ - ١٩، فالروح هنا جبريل عليه السلام، فإضافة الناقة والبيت وجبريل عليه السلام إلى الله هنا من إضافة الملك والتشريف لأنها عين قائمة بنفسها. فالمضاف إن كان شيئاً قائماً بنفسه أو حالاً في ذلك القائم بنفسه، فهذا لا

كما أنّ عيسى عليه السلام لم يختص أنه (روح من الله) فقد أطلقت هذه الكلمة على غيره فأطلقت على آدم ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[1] وسمي جبريل روحاً من الله فقال تعالى ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[2] وقد سمي القران الكريم معونة الله تعالى، وتأييده، ونصره للمؤمنين، بالروح منه، قال تعالى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾[3].

ثالثاً: أنه رسول من رسل الله إلى بني إسرائيل خاصة، جاء ليدعو إلى توحيد الله عز وجل وحده لا شريك له.

والآيات في ذلك كثيرة، ومنها:

قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ

يكون صفة الله؛ لأن الصفة قائمة بالموصوف. فالأعيان التي خلقها الله قائمة بأنفسها، وصفاتها القائمة بها تمتنع أن تكون صفات الله، وإنّما هي مخلوقة مملوكة لله.

وقد يعبّر بلفظ المصدر عن المفعول به، فيسمي المعلوم علماً، والمقدور قدرةً، والمأمور أمراً، والمخلوق بالكلمة كلمةً، فيكون ذلك مخلوقاً، ومن أمثلة ذلك: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ سورة النحل الآية ١، والمراد بالأمر هنا المخلوق المكوّن بالأمر، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ سورة آل عمران الآية ٤٥، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ سورة النساء الآية ١٧١، فإذا قيل المسيح (كلمة الله) فمعناه المخلوق بالكلمة، إذ المسيح نفسه ليس كلاما.

ب) أمّا إضافة الوصف إلى الله، مثل علم الله، وقدرة الله، سواء كان إضافة اسميّة مثل أستخبرك بعلمك، أو بصيغة الفعل مثل ﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ سورة البقرة الآية١٨٧، أو الخبر الذي هو جملة اسميّة، مثل ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ سورة البقرة الآية ٢٨٢، فهي قائمة بالله تعالى، قديمة، غير مخلوقة. انظر: الصفات الإلهيّة تعريفها وأقسامها، ص ٢٣ - ٢٨، د. محمد بن خليفة التميمي، موقف ابن تيميّة من الأشاعرة، ٣/ ١٢٠٢ - ١٢٠٣ د. عبد الرحمن بن صالح المحمود، مجموع الفتاوى ١٧ / ١٥١ - ١٥٢، شيخ الإسلام ابن تيميّة، القول المفيد على كتاب التوحيد ١ / ٧٠ - ٧١، للعلامة محمد بن صالح العثيمين.

(١) سورة الحجر الآية ٢٩.

(٢) سورة مريم الآية ١٧.

(٣) سورة المجادلة الآية ٢٢.

يُؤْفَكُونَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿قَالَ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾[4].

رابعاً: وكان عيسى عليه السلام مؤيداً من الله تعالى بالمعجزات، وهي:

١- الكلام في المهد، ٢- إبراء الأكمة، ٣- إبراء الأبرص، ٤- إحياء الموتى بإذن الله، ٥- نزول المائدة من السماء، ٦- تصوير الطين بهية الطير، والنفخ فيه فيصبح حياً بإذن الله تعالى، ٧- الإخبار ببعض المغيبات.

وهذه المعجزات كلها هي بأمر الله تعالى وإذنه.

والآيات التي ذكرت المعجزات لم تغفل هذه الناحية، حيث بيّنت أن هذه المعجزات هي لإثبات نبوة عيسى عليه السلام، وأنّه رسول من عند الله تعالى، وأنّ المعجزات التي جاء بها إنّما تجري كلّها على يديه بأمر الله تعالى وتأييده:

قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ

(١) سورة المائدة الآية ٧٥.

(٢) سورة الصف الآية ٦.

(٣) سورة الزخرف الآيتان ٦٣، ٦٤.

(٤) سورة المائدة الآيتان، ١١٦، ١١٧.

وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾[3].

خامساً: وفي نهاية دعوة المسيح عيسى عليه السلام في الفترة الأولى له على الأرض[4]، رفعه الله إليه، كما ذكر القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ

(١) سورة آل عمران الآية ٤٩.

(٢) سورة المائدة الآية ١١٠.

(٣) سورة المائدة الآيتان، ١١٤، ١١٥.

(٤) أما الفترة الثانية لعيسى عليه السلام على الأرض، فجاء ذكرها أيضاً في القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا﴾ سورة النساء الآية ١٥٩، وروى البخاري ومسلم بسنديهما إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (والذي نفسي بيده ليوشكنّ أن ينزل فيكم ابن مريم عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الحرب، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها. ثم يقول أبوهريرة: واقرؤوا إن شئتم [وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا])، البخاري، كتاب الأنبياء، باب نزول عيسى ابن مريم عليهما السلام (٢ / ٤٩٠، ٣٤٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى عليه السلام حاكماً بشريعة محمد ﷺ، ١ / ١٣٥، ٢٤٢، اعتناء محمد فؤاد عبد الباقي.

(٥) سورة آل عمران، الآية ٥٥.

لَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾[1].

وتُبيِّن هاتان الآيتان أن عيسى عليه السلام لم يُصلب ولم يُقتل، بل لم يصب بأيّ أذى، فإنّ الله عز وجل قد أحاطه برعايته وعنايته، ورفعه إليه، تكريماً و حمايةً، لتخليصه من أيدي الماكرين، وأنّ هناك إنساناً آخر، غير عيسى عليه السلام، قد وقع عليه شبه عيسى عليه السلام، فصلب بدلاً عنه.

ثم إن الناظر لإنجيل (برنابا)[2] يجد أنّه قد وافق هذه الآيات القرآنيّة في أنّ عيسى عليه السلام لم يُصلب ولم يُقتل، فقد جاء فيه أنّه لمّا (دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذي كان فيه يسوع، سمع يسوع دنو جمع غفير، فلذلك انساب إلى البيت خائفاً، وكان الأحد عشر نياماً، فلما رأى الله الخطر على عبده، أمر جبريل وميخائيل ورفائيل وأوديل سفراءه، أن يأخذوا يسوع من العالم، فجاء الملائكة الأطهار، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب، فحملوه ووضعوه في السماء الثالثة، في صحبة الملائكة التي تسبح الله إلى الأبد.

---

(١) سورة النساء الآيتان ١٥٧، ١٥٨.

(٢) برنابا: على أرجع الأقوال أنّه أحد تلاميذ المسيح عيسى عليه السلام، كما صرح بذلك في إنجيله. واسمه (يوسف بن لاوي بن إبراهيم)، من اليهود اللاويين من أبناء قبرص. وكان من أسرة غنيّة، وبعد إيمانه بعيسى عليه السلام تنازل عن جميع ممتلكاته، وبدأ يتبع المسيح عيسى في حِله وترحاله حتى لقّبه الحواريون (برنابا) وهي كلمة آراميّة معناها (ابن الواعظ).
جاء في أعمال الرسل ٤: ٣٦ ٣٧: (وَمِنْ هَؤُلاَءِ يُوسُفُ، الَّذِي دَعَاهُ الرُّسُلُ بَرْنَابَا أَيِ ابْنَ التَّشْجِيعِ، وَهُوَ مِنْ سِبْطِ لاَوِي، وَيَحْمِلُ الْجِنْسِيَّةَ الْقُبْرُصِيَّةَ. فَإِنَّهُ كَانَ يَمْلِكُ حَقْلاً، فَبَاعَهُ وَجَاءَ بِثَمَنِهِ وَوَضَعَهُ عِنْدَ أَقْدَامِ الرُّسُلِ).
وبَرنابا هو الّذي عَرّف التلاميذ بإيمان بولس بعد أن كانوا يخافونه لاضطهاده تلاميذ عيسى عليه السلام، كما جاء في أعمال الرسل (٩ / ٢٦)، فلازمه في دعوته إلى النصرانيّة، إلى أن عرف افتراءه على الله تعالى وعلى رسوله عيسى ففارقه، وبقي برنابا على حذر من بولس ودعوته الإلحاديّة، وقد افتتح انجيله بالرد على افتراءات بولس حيث يقول: (أيّها الأعزاء، إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبيّه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى، مبشرين بتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن الله، ورافضين الختان الذي أمر به الله دائماً، مجوّزين كل لحم نجس، الذين ضل في عدادهم أيضاً بولس الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى)، كان من الرافضين لقرارات مجمع أورشليم المنحرفة في مسألة دخول الوثنيين إلى النصرانيّة، وإلغاء الختان، وجواز أكل اللحم النجس، قتل في بلده قبرص على أيدي اليهود. انظر: دراسات في اليهوديّة والمسيحيّة، ص ٤٠٥ - ٤٠٧، د. محمّد ضياء الرحمن الأعظمي.

ودخل يهوذا بعنف الغرفة التي أُصعد منها يسوع، وكان التلاميذ كلهم نياماً، فأتى الله العجيب بأمر عجيب، فتغيّر يهوذا في النطق، وفي الوجه، فصار شبيهاً بيسوع، حتى إننا اعتقدنا أنه يسوع، أمّا هو فبعد أن أيقظنا، أخذ يفتش أين كان المعلم، لذلك تعجبنا، وأجبنا: أنت يا سيد، هو معلمنا، أنسيتنا الآن؟ أمّا هو فقال مبتسماً: هل أنتم أغبياء، حتى لا تعرفون يهوذا الاسخريوطي؟ وبينما كان يقول هذا دخلت الجنود وألقوا أيديهم على يهوذا؛ لأنه كان شبيهاً بيسوع من كل وجه)[1].

(١) انظر إلى النص في كتاب: الحوار الإسلامي المسيحي ص ٨٣ - ٨٤، بسام داود دعجك.

الفصل الثاني: من بداية الانحراف إلى ترسيخه، ودور بولس اليهودي، والإمبراطور قسطنطين في هذا الانحراف

ويمكن تقسيم هذه المرحلة إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الدعوة إلى النصرانية، وبداية الانحراف.

القسم الثاني: الاضطهادات الرومانية.

القسم الثالث: العصر الذهبي للنصارى، وترسيخ الانحراف في دينهم.

القسم الأول: الدعوة إلى النصرانية[1]، وبداية الانحراف:

يقول الأب جان كمبي: (ابتدأت حياة الكنيسة في أورشليم حوالي السنة الثلاثين يوم العنصرة[2] اثنا عشر رجلاً يحملون البشرى لمواطنيهم)[3].

(نمت الجماعة المسيحية في أورشليم نمواً سريعاً، وانضم تحت لوائها يهود ممن عاشوا في الشتات، ومن مواطني الجليل واليهودية، بل بعض الكهنة العبرانيين. ومن أول الأمر، أطلقوا لقب (كنيسة) على جماعتهم، وقد استنبطوا هذه التسمية من الترجمة السبعينية للعهد القديم، حيث

---

(١) ويسمي مؤرخو الكنيسة مرحلة الدعوة إلى النصرانية (المسيحية) بالعصر الرسولي وعندهم أيضاً هي (بدايات التبشير). انظر: تاريخ المسيحية (فجر المسيحية)، ص٣٢، حبيب سعيد، يا أهل الكتاب تعلوا إلى كلمة سواء، ص١٠٣، رؤوف شلبي، تاريخ العالم ٤/ ٢١٦، نشره: جون. ا. هامرتن.

(٢)) يوم العنصرة: هو اليوم الذي اجتمع فيه الحواريون بقيادة بطرس في أورشليم بعد رفع عيسى ﷺ حوالي السنة الثلاثين الميلادية مع حجاج من اليهود لمناسبة العيد، فقام فيهم بطرس خطيباً كما جاء في أعمال الرسل (٢/ ٢٢)، وقيل إنه في ذلك اليوم دخل في النصرانية من اليهود ثلاثة آلاف نفس، وفي ذلك اليوم ولدت الكنيسة. انظر: دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص٢٤، الأب جان كمبي.

(٣) دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص٢٣، بقلم الأب جان كمبي.

استعملت اللفظة للدلالة على شعب إسرائيل كلّه كجماعة مدعوة من الله) [١].

يقوم الأنبا ديوسقورس: (بعد أن صعد السيد المسيح إلى السماء، لم يترك خليقته التي أتى ليفديها، بدون رعاية، بل اختار اثني عشر تلميذاً، وسبعين رسولاً وقال لهم (أقيموا في مدينة أورشليم، إلى أن تلبسوا قوة من الأعالي) [٢]، (اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعملوهم..) [٣]) [٤].

ثم بيّن الأسقف ديوسقورس انقسام الرسل الإنجيليين بحسب أشهر مناطق تبشيرهم إلى الفرق التالية:

الفرقة الأولى: التي عملت في اليهودية وتخومها، وتتكون من الرسل: بطرس ويعقوب البار ومتياس الذي حل محل يهوذا الأسخريوطي (ولبطرس رسالتان وليعقوب رسالة).

الفرقة الثانية: التي عملت في آسيا الصغرى وما حولها، وتتكون من الرسل فيلبس وبرتولوماوس ويوحنّا، ويُنسب إلى الأخير أنجيل وثلاث رسائل وسفر الرؤيا.

الفرقة الثالثة: التي ذهبت إلى إيران والهند، وتتكون من الرسل يهوذا وسمعان القانوني وتوما (وليهوذا رسالة).

الفرقة الرابعة: التي ذهبت إلى أقاليم أوروبا المختلفة، وتتكون من الرسل أندراوس ويعقوب الكبير وبولس ولوقا الإنجيلي (ولبولس أربع عشر رسالة وللوقا أنجيله وسفر أعمال الرسل) [٥].

---

(١) تاريخ المسيحية (فجر المسيحية)، ص٣٦، بقلم حبيب سعيد.

(٢) لوقا ٢٤: ٤٩.

(٣) متى ٢٧: ١٩ - ٢٠.

(٤) موجز تاريخ المسيحية، ص٤١، الأنبا ديوسقورس أسقف المنوفية.

(٥) ولم يذكر المؤلف الأنبا ديوسقورس أسقف المنوفية، بطرس من ضمن من ذهب إلى أوروبا، علماً بأن كثيراً من الكتب والمراجع النصرانية والتاريخية العامة والكاثوليكية بشكل خاص ذكرت ذهاب بطرس إلى إيطاليا وروما خاصة، بل ذكرت أنه مات فيها ودفن فيها، ولعل عدم ذكر المؤلف الأنبا ديوسقورس دخول بطرس إلى أوروبا يرجع إلى التنافس الحاد والمستهجن بين الطائفة الأرثوذكسية المرقسيّة، ومقرها في الإسكندرية، وبين الطائفة الكاثوليكية ومقرها روما بإيطاليا.

الفرقة الخامسة: التي ذهبت إلى مصر وأثيوبيا بإفريقيا، وتتكون من الإنجيليين متى ومرقس (ولكل منهما أنجيله)[1].

وكانت هذه الخطوة وهي الخروج بدعوة النصرانيّة إلى خارج أراضي بني إسرائيل إلى خارج تخومهم هي بدايات الانحراف في الديانة النصرانية، حيث إن عيسى ﷺ اقتصر في دعوته على بني إسرائيل دون غيرهم من الأمم والشعوب.

والمتتبع للأناجيل يجد ذلك بوضوح وهو قصر دعوة عيسى ﷺ على بني إسرائيل ومن البداية في ذلك أن البشارة بمجيئه قبل مولده تشير إلى أن رعايته ستكون لشعب اليهود فقط، ومن الأدلة في ذلك من كتبهم المقدَّسة:

(وَلَكِنْ فِيمَا هُوَ مُتَفَكِّرٌ فِي هَذِهِ الأُمُورِ إِذَا مَلاَكُ الرَّبِّ قَدْ ظَهَرَ لَهُ فِي حُلْمٍ قَائِلاً: «يَا يُوسُفُ ابْنَ دَاوُدَ لاَ تَخَفْ أَنْ تَأْخُذَ مَرْيَمَ امْرَأَتَكَ لأَنَّ الَّذِي حُبِلَ بِهِ فِيهَا هُوَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ. فَسَتَلِدُ ابْناً وَتَدْعُو اسْمَهُ يَسُوعَ لأَنَّهُ يُخَلِّصُ شَعْبَهُ مِنْ خَطَايَاهُمْ»[2]، (وَأَنْتِ يَا بَيْتَ لَحْمٍ أَرْضَ يَهُوذَا لَسْتِ الصُّغْرَى بَيْنَ رُؤَسَاءِ يَهُوذَا لأَنْ مِنْكِ يَخْرُجُ مُدَبِّرٌ يَرْعَى شَعْبِي إِسْرَائِيلَ»[3]، وفي هذا إشارة واضحة إلى أن دعوة المسيح ستكون لشعب اليهود فقط.

ثم إن المسيح ﷺ عندما أرسل تلاميذه لينشروا دعوته بين اليهود كرر لهم الوصية أن يقصروا الدعوة على اليهود، بل حذَّرهم من دخول مدن الأمم الأخرى، ولو كانوا جيراناً لليهود، جاء في إنجيل متى: (هَؤُلاَءِ الاثْنَا عَشَرَ أَرْسَلَهُمْ يَسُوعُ وَأَوْصَاهُمْ قَائِلاً: «إِلَى طَرِيقِ أُمَمٍ لاَ تَمْضُوا وَإِلَى مَدِينَةٍ لِلسَّامِرِيِّينَ لاَ تَدْخُلُوا. بَلِ اذْهَبُوا بِالْحَرِيِّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ.)[4]، (وَمَتَى

---

(١) موجز تاريخ المسيحية، ص٤٣، للأنبا ديوسقورس أسقف المنوفية وأستاذ التاريخ بالاكليريكية.
وانظر في انتشار الدعوة النصرانية، وخروجها عن دائرة بني إسرائيل في فلسطين، إلى مجمل كتاب: تاريخ الكنيسة الجزء الثاني، جون لوريمر.

(٢) متى ١: ٢٠-٢١.

(٣) متى ٢: ٦.

(٤) متى١٠: ٥-٦.

طَرَدُوكُمْ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ فَاهْرُبُوا إِلَى الأُخْرَى. فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ لاَ تُكَمِّلُونَ مُدُنَ إِسْرَائِيلَ حَتَّى يَأْتِيَ ابْنُ الإِنْسَانِ)[1]، وقال للمرأة الكنعانية: «لَمْ أُرْسَلْ إِلاَّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ»[2].

وكان اختياره ﷺ لتلاميذه من بين اليهود أنفسهم، جاء في إنجيل متى في محاورة بين المسيح وبين أحد تلاميذه، وهو بطرس، (فَأَجَابَ بُطْرُسُ حِينَئِذٍ: «هَا نَحْنُ قَدْ تَرَكْنَا كُلَّ شَيْءٍ وَتَبِعْنَاكَ. فَمَاذَا يَكُونُ لَنَا؟» فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الَّذِينَ تَبِعْتُمُونِي فِي التَّجْدِيدِ مَتَى جَلَسَ ابْنُ الإِنْسَانِ عَلَى كُرْسِيِّ مَجْدِهِ تَجْلِسُونَ أَنْتُمْ أَيْضاً عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ كُرْسِيّاً تَدِينُونَ أَسْبَاطَ إِسْرَائِيلَ الاثْنَيْ عَشَرَ»)[3]، فالمسيح يقول لهم إنهم يدينون أسباط إسرائيل فقط، ولم يقل لهم إنهم يدينون شعوب العالم، وهذه كناية أو إشارة إلى أن رسالته، وهم من بعده، قاصرة على شعب اليهودية المتفرع من الأسباط الإثني عشر.

وكان معروفاً ﷺ عند الناس أنه نبي اليهود وبني إسرائيل، وذلك كما جاء في قصة المجوس التي ذكرها متى في إنجيله أنهم عندما سألوا عنه: (وَلَمَّا وُلِدَ يَسُوعُ فِي بَيْتِ لَحْمِ الْيَهُودِيَّةِ فِي أَيَّامِ هِيرُودُسَ الْمَلِكِ إِذَا مَجُوسٌ مِنَ الْمَشْرِقِ قَدْ جَاءُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ قَائِلِينَ: «أَيْنَ هُوَ الْمَوْلُودُ مَلِكُ الْيَهُودِ؟»)[4]، وكذلك عندما عذّب الرومانُ، ومن معهم من اليهود، الرجلَ الذي اعتقدوا أنه هو عيسى ﷺ: (وَضَفَرُوا إِكْلِيلاً مِنْ شَوْكٍ وَوَضَعُوهُ عَلَى رَأْسِهِ وَقَصَبَةً فِي يَمِينِهِ. وَكَانُوا يَجْثُونَ قُدَّامَهُ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ قَائِلِينَ: «السَّلاَمُ يَا مَلِكَ الْيَهُودِ!»)[5]، حتى إنهم كتبوا على المصلوب الذي

---

(١) متى ١٠: ٢٣.

(٢) متى ١٥: ٢٤-٢٦.

(٣) متى ١٩: ٢٧-٢٨ .

(٤) متى ٢: ١ .

(٥) متى ٢٧: ٢٩.

ظنّوه يسوع: (وَجَعَلُوا فَوْقَ رَأْسِهِ عِلَّتَهُ مَكْتُوبَةً: «هَذَا هُو يَسُوعُ مَلِكُ الْيَهُودِ»[1]، (وَكَذَلِكَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ أَيْضاً وَهُمْ يَسْتَهْزِئُونَ مَعَ الْكَتَبَةِ وَالشُّيُوخِ قَالُوا: «خَلَّصَ آخَرِينَ وَأَمَّا نَفْسُهُ فَمَا يَقْدِرُ أَنْ يُخَلِّصَهَا». إِنْ كَانَ هُوَ مَلِكَ إِسْرَائِيلَ فَلْيَنْزِلِ الآنَ عَنِ الصَّلِيبِ)[2].

أمّا نص النصارى الذي اعتملوا عليه في أن دعوة عيسى ﷺ إلى النّاس كافّة، وهو: (فَتَقَدَّمَ يَسُوعُ وَكَلَّمَهُمْ قَائِلاً: «دُفِعَ إِلَيَّ كُلُّ سُلْطَانٍ فِي السَّمَاءِ وَعَلَى الأَرْضِ فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الأَبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ)[3]. فهو يناقض النصوص المذكورة سابقاً كلها، والتي تثبت أنه كان في حياته يعمل على خلاص اليهود فقط دون غيرهم من البشرية.

يقول عبد الأحد داود الأب ومطران بلدة نصيبين من أعمال العراق في القرن الماضي سابقاً قبل إسلامه في كتابه (الإنجيل والصليب): (فمن هنا تبين جلياً أن الآيات الأخرى المضادة لهذه الآيات إما محرفة أو زائفة. فإذا كان المسيح ينهى تلاميذه من الذهاب حتى إلى جارتهم أمة السامريين الممتزج دمهم بدم اليهود، والذين يصدقون أسفار توراة موسى، فكيف وبأي جسارة يسوغ لمتى مع وجود هذه الآيات والنصوص أن يقول في إنجيله عن لسان المسيح: (اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس)[4].

(ولقد أقر كُتّاب النصارى في العصر الحاضر أن الحواريين وتلاميذ المسيح الأول لم يقولوا بعالمية النصرانية، وأن بولس هو أول من ابتدع القول بتلك العالمية، وأفاض في شرحها في رسائله، والمطلع على تلك الرسائل يتضح له أنه لم يورد دليلاً واحداً ولا كلمة واحدة تنسب إلى المسيح تشير إلى عالمية النصرانية، إنما كان تدليله على هذه العالمية من كلامه هو ومن بنات أفكاره دون أن يبرهن على دعواه بأي دليل، لذلك نرى أحد كتّابهم يقول: (إن المسيح كان نبياً لمعاصريه من

(١) متى ٢٧: ٣٧.

(٢) متى ٢٧: ٤١-٤٢.

(٣) متى ٢٨: ١٨-١٩.

(٤) الإنجيل والصليب، ص ٧١، ٧٢، عبد الواحد داود.

اليهود، ولم يُحاول أن يُنشيء فرعاً خاصاً به من بين هؤلاء المعاصرين أو يُنشيء له كنيسة مغايرة لكنائس اليهود أو تعاليمهم) كما جاء في دائرة المعارف البريطانية (أن أسبق حواريّي المسيح ظلوا يوجهون اهتمامهم إلى جعل النصرانية ديناً لليهود، وجعل المسيح أحد أنبياء بني إسرائيل إلى بني إسرائيل)[١].

ومن بدايات الانحراف ما حصل بين عامي (٥١-٥٥م) حيث انعقد أول مجمع لأتباع عيسى ﷺ، وعلى رأسهم تلامذته في أورشليم (القدس)[٢]، وكان ممن حضر هذا المجمع بطرس وبولس، وناقشوا فيه وضع المسيحيين الجدد الذين هم من أصول وثنية، هل يُلزموا بشريعة التوراة والتي جاء عيسى ﷺ ليتمّها لا لينقضها فجاء في إنجيل متى قول المسيح عيسى ﷺ: (لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء وما جئت لأنقض بل لأكمل. فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل)[٣]، أم أن لهم وضعية مختلفة تناسب وضعيتهم القديمة في وثنيتهم وهذا الذي أيده بولس، (كان القديس بولس منذ بدء المسيحية ينصح لحديثي الإيمان أن يحتفظوا بما كانوا عليه من أحوال قبل إيمانهم بيسوع)[٤].

ووصل هذا المجمع إلى أن نسخ الأحكام العملية كلها في شريعة التوراة، ولم يبقوا إلا على حرمة أربعة أشياء وهي: ما ذبح للأصنام، وعن الدم، وأكل المنخنقة، والزنى، وألغوا فيه الختان وباقي الشرائع.

---

(١) الميزان في مقارن الأديان، ص٢٨٩، المستشار محمد عزت الطهطاوي.

(٢) دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص٢٧، بقلم الأب جان كمبي، مناظرة بين الإسلام والنصرانية ص٣٩٨، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، ص٣١٥، د. محمد ضياء الأعظمي، محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، ص١٤٣، التوحيد والتثليث في حوار المسيحية والإسلام، محمد بن عبدالحميد الحمد ص٩٣، الروم وصلاتهم بالعرب ١/ ٢٩، د. أسد رستم.

(٣) متى ٥: ١٧- ١٨.

(٤) انظر نشرة الفاتيكان سنة ١٩٦٨م بعنوان: (المسيحية عقيدة وعملاً) ص٥٠، نقلاً عن: مناظرة بين الإسلام والنصرانية، ص١٥٨، باعتناء الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض.

ثم أرسل المجمع كتاباً بهذا إلى سائر الكنائس للعمل بمقتضاه، وقد دوّن أعمال هذا المجمع وما حصل فيه من أحداث (أعمال الرسل) فجاء فيه: (... أجاب يعقوب قائلاً أيُّها الرجال الإخوة أسمعوني...أنا أرى أن لا يُثقَّل على الراجعين إلى الله من الأمم. بل يُرسَلُ إليهم أن يمتنعوا عن نجاسات الأصنام والزنا والمخنوق والدم)[1]، وذكر سفر أعمال الرسل ما حصل في هذه المجمع وأنهم أرسلوا بنتائجه إلى الكنائس الأخرى[2].

ويُلاحظ من ذكر أعمال الرسل للمجمع في أورشليم أنه ذكر إلغاء الختان صراحة ولم يتقيد بما لشريعة الختان من أهمية في شرائع التوراة، فقد كان حكم الختان أبدياً في شريعة إبراهيم ﷺ، جاء في سفر التكوين: (وَقَالَ الرَّبُّ لإِبْرَاهِيمَ: «أَمَّا أَنْتَ فَاحْفَظْ عَهْدِي، أَنْتَ وَذُرِّيَّتُكَ مِنْ بَعْدِكَ مَدَى أَجْيَالِهِمْ. هَذَا هُوَ عَهْدِي الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ وَبَيْنَ ذُرِّيَّتِكَ مِنْ بَعْدِكَ الَّذِي عَلَيْكُمْ أَنْ تَحْفَظُوهُ: أَنْ يُخْتَتَنَ كُلُّ ذَكَرٍ مِنْكُمْ تَخْتِنُونَ رَأْسَ قُلْفَةِ غُرْلَتِكُمْ فَتَكُونُ عَلاَمَةَ الْعَهْدِ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ تَخْتِنُونَ عَلَى مَدَى أَجْيَالِكُمْ كُلَّ ذَكَرٍ فِيكُمُ ابْنَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ سَوَاءٌ كَانَ الْمَوْلُودُ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ أَمْ كَانَ ابْناً لِغَرِيبٍ مُشْتَرًى بِمَالِكَ مِمَّنْ لَيْسَ مِنْ نَسْلِكَ. فَعَلَى كُلِّ وَلِيدٍ سَوَاءٌ وُلِدَ فِي بَيْتِكَ أَمِ اشْتُرِيَ بِمَالٍ أَنْ يُخْتَتَنَ، فَيَكُونُ عَهْدِي فِي لَحْمِكُمْ عَهْداً أَبَدِيّاً. أَمَّا الذَّكَرُ الأَغْلَفُ الَّذِي لَمْ يُخْتَتَنْ، يُسْتَأْصَلُ مِنْ بَيْنِ قَوْمِهِ لأَنَّهُ نَكَثَ عَهْدِي)[3].

---

(١) أعمال الرسل ١٥: ١٣، ١٩-٢٠.

(٢) أعمال الرسل ١٥: ٢٢-٢٩: (عِنْدَ ذَلِكَ أَجْمَعَ الرُّسُلُ وَالشُّيُوخُ وَالْجَمَاعَةُ كُلُّهَا عَلَى اخْتِيَارِ رَجُلَيْنِ مِنَ الإِخْوَةِ يُرْسِلُونَهُمَا إِلَى أَنْطَاكِيَةَ مَعَ بُولُسَ وَبَرْنَابَا. فَاخْتَارُوا يَهُوذَا، الْمُلَقَّبَ بَرْسَابَا، وَسِيلا، وَكَانَ لَهُمَا مَكَانَةٌ رَفِيعَةٌ بَيْنَ الإِخْوَةِ وَسَلَّمُوهُمْ هذه الرِّسَالَةَ مِنَ الرُّسُلِ وَالشُّيُوخِ وَالإِخْوَةِ، إِلَى الإِخْوَةِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ غَيْرِ الْيَهُودِ فِي مُقَاطَعَاتِ أَنْطَاكِيَةَ وَسُورِيَّةَ وَكِيلِيكِيَّةَ: سَلاَمٌ! عَلِمْنَا أَنَّ بَعْضَ الأَشْخَاصِ ذَهَبُوا مِنْ عِنْدِنَا إِلَيْكُمْ، دُونَ تَفْوِيضٍ مِنَّا فَأَثَارُوا بِكَلاَمِهِمْ الاضْطِرَابَ بَيْنَكُمْ وَأَقْلَقُوا أَفْكَارَكُمْ. فَأَجْمَعْنَا بِرَأْيٍ وَاحِدٍ عَلَى أَنْ نَخْتَارَ رَجُلَيْنِ قَدْ كَرَّسَا حَيَاتَهُمَا لاسْمِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ نُرْسِلُهُمَا إِلَيْكُمْ مَعَ أَخَوَيْنَا الْحَبِيبَيْنِ بَرْنَابَا وَبُولُسَ. فَأَرْسَلْنَا يَهُوذَا وَسِيلاً، لِيُبَلِّغَاكُمُ الرِّسَالَةَ نَفْسَهَا شِفَاهاً. فَقَدْ رَأَى الرُّوحُ الْقُدُسُ وَنَحْنُ، أَنْ لاَ نُحَمِّلَكُمْ أَيَّ عِبْءٍ فَوْقَ مَا يَتَوَجَّبُ عَلَيْكُمْ. إِنَّمَا عَلَيْكُمْ أَنْ تَمْتَنِعُوا عَنِ الأَكْلِ مِنَ الذَّبَائِحِ الْمُقَرَّبَةِ لِلأَصْنَامِ، وَعَنْ تَنَاوُلِ الدَّمِ وَلُحُومِ الْحَيَوَانَاتِ الْمَخْنُوقَةِ، وَعَنِ ارْتِكَابِ الزِّنَى. وَتُحْسِنُونَ عَمَلاً إِنْ حَفِظْتُمْ أَنْفُسَكُمْ مِنْ هَذِهِ الأُمُورِ. عَافَاكُمُ اللهُ!).

(٣) التكوين ١٧: ٩-١٤.

وقد بقي هذا الحكم في أولاد إسماعيل وأولاد إسحاق عليهما السلام فقد جاء في سفر اللاويين: (وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: أَوْصِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: إِذَا حَمَلَتِ امْرَأَةٌ وَوَلَدَتْ ذَكَراً، تَظَلُّ الأُمُّ فِي حَالَةِ نَجَاسَةٍ سَبْعَةَ أَيَّامٍ، كَمَا فِي أَيَّامِ فَتْرَةِ الْحَيْضِ وَفِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ يُجْرَى خِتَانُ الطِّفْلِ)[1]. واختتن عيسى ﷺ، كما جاء في إنجيل لوقا: (وَلَمَّا تَمَّتْ ثَمَانِيَةُ أَيَّامٍ لِيُخْتَنَ الطِّفْلُ، سُمِّيَ يَسُوعَ، كَمَا كَانَ قَدْ سُمِّيَ بِلِسَانِ الْمَلاَكِ قَبْلَ أَنْ يُحْبَلَ بِهِ فِي الْبَطْنِ)[2].

ولكن هذا المجمع في أورشيلم وبفعل نشاط بولس فيه ألغيت شريعة الختان. ثم أرسل بولس رسالة إلى أهل غلاطية يؤكد هذا الحكم وهو نسخ الختان: (هَا أَنَا بُولُسُ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ خُتِنْتُمْ، لاَ يَنْفَعُكُمُ الْمَسِيحُ شَيْئاً. وَأَشْهَدُ مَرَّةً أُخْرَى لِكُلِّ مَخْتُونٍ بِأَنَّهُ مُلْتَزِمٌ أَنْ يَعْمَلَ بِالشَّرِيعَةِ كُلِّهَا. يَامَنْ تُرِيدُونَ التَّبْرِيرَ عَنْ طَرِيقِ الشَّرِيعَةِ، قَدْ حُرِمْتُمُ الْمَسِيحَ وَسَقَطْتُمْ مِنَ النِّعْمَةِ! فَإِنَّنَا، بِالرُّوحِ وَعَلَى أَسَاسِ الإِيمَانِ، نَنْتَظِرُ الرَّجَاءَ الَّذِي يُنْتِجُهُ الْبِرُّ. فَفِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ، لاَ نَفْعَ لِلْخِتَانِ وَلاَ لِعَدَمِ الْخِتَانِ، بَلْ لِلإِيمَانِ الْعَامِلِ بِالْمَحَبَّةِ)[3].

ويشرح المفسر النصراني وليم باركيلي قول بولس هذا بقوله: (كان بولس يعتبر أن طريق النعمة وطريق الناموس متعارضان تماماً. والخطأ الأساسي الذي يقع فيه من يختار طريق طاعة الناموس، هو أن يظن أن ما يفعله سيكسبه الثواب أمام الله، وطريق الناموس يجعل الخلاص يعتمد على المنجزات البشرية. أما من يختار سبيل النعمة فإنه يلقي بنفسه وخطيئته على رحمة محبة الله. وهنا يُقدِّم بولس الرسول وجهة نظرة في تسلسل منطقي فيقول: أنك لو قبلت الختان فهذا يعني أنك تقبل جزءاً من الناموس، ويتبع ذلك منطقياً أنه يجب عليك أن تقبل الناموس بجملته... فإن من سلك هذا السبيل فإنّه بذلك يكون قد رفض تلقائياً سبيل النعمة، ويكون المسيح بالنسبة له وكأنّه لم يمت أبداً. وكان كل ما يهم بولس هو ذلك الإيمان الحاصل عن طريق المحبة. وهذا يعني

(١) اللاويين ١٢: ١ـ٣.

(٢) لوقا ٢-٢١.

(٣) رسالة بولس إلى غلاطية ٥: ٢-٦ .

بصورة أخرى أن جوهر الدين ليس هو الناموس، ولكن العلاقة الشخصية مع المسيح يسوع... فإيمان المسيحي لا يتأسس أبداً على كتاب، ولكن على شخص، والقوة الدافعة فيه ليست طاعة أيّ ناموس ولكن الحب للمسيح يسوع)[1].

ولا شك أن هذا يؤدي إلى نبذ التمسك بالشريعة بأكملها، فلا التزام ولا تقيد بالشريعة ما دام الإنسان النصراني يحب يسوع ويؤمن بفدائه له وللبشرية، فهذا هو الخلاص الحقيقي عند بولس. وهذا عبث ما بعده عبث بالشرائع المنزَّلة لتحكم حياة الناس ومن خلالها يصل الإنسان إلى ربه. وهذا ما حصل للنصارى حيث تفلتوا من الشرائع والعبادات، وحرَّفوها وبدَّلوها.

علماً بأن عيسى ﷺ بيّن أن الخلاص الحقيقي، هو لمن تمسك بالشريعة وعمل بالوصايا، فجاء في إنجيل متى: (وَإِذَا شَابٌّ يَتَقَدَّمُ إِلَيْهِ وَيَسْأَلُ: «أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ الصَّالِحُ، أَيَّ صَلاَحٍ أَعْمَلُ لأَحْصُلَ عَلَى الْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ؟» فَأَجَابَهُ: «لِمَاذَا تَسْأَلُنِي عَنِ الصَّالِحِ؟ وَاحِدٌ هُوَ الصَّالِحُ. وَلكِنْ، إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ، فَاعْمَلْ بِالْوَصَايَا». فَسَأَلَ: «أَيَّةِ وَصَايَا؟» أَجَابَهُ يَسُوعُ: «لاَ تَقْتُلْ؛ لاَ تَزْنِ؛ لاَ تَسْرِقْ؛ لاَ تَشْهَدْ بِالزُّورِ؛ أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ؛ وَأَحِبَّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ...» قَالَ لَهُ الشَّابُّ: «هَذِهِ كُلُّهَا عَمِلْتُ بِهَا مُنْذُ صِغَرِي، فَمَاذَا يَنْقُصُنِي بَعْدُ؟» فَأَجَابَهُ يَسُوعُ: «إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ كَامِلاً، فَاذْهَبْ وَبِعْ كُلَّ مَا تَمْلِكُ، وَوَزِّعْ عَلَى الْفُقَرَاءِ، فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِي السَّمَاوَاتِ. وَتَعَالَ اتْبَعْنِي)[2].

وذكر أيضاً مسألة أهمية التمسك بالشريعة يعقوب في رسالته: (أَنْتَ تُؤْمِنُ أَنَّ اللهَ وَاحِدٌ؟ حَسَناً تَفْعَلُ! وَالشَّيَاطِينُ أَيْضاً تُؤْمِنُ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ، وَلَكِنَّهَا تَرْتَعِدُ خَوْفاً. وَهَذَا يُؤَكِّدُ لَكَ، أَيُّهَا الإِنْسَانُ الْغَبِيُّ، أَنَّ الإِيمَانَ الَّذِي لاَ تَنْتُجُ عَنْهُ أَعْمَالٌ هُوَ إِيمَانٌ مَيِّتٌ! لِنَأْخُذْ أَبَانَا إِبْرَاهِيمَ مَثَلاً: كَيْفَ تَبَرَّرَ؟ أَلَيْسَ بِأَعْمَالِهِ، إِذْ أَصْعَدَ ابْنَهُ إِسْحَاقَ عَلَى الْمَذْبَحِ فَأَنْتَ تَرَى أَنَّ إِيمَانَ إِبْرَاهِيمَ قَدْ رَافَقَتْهُ الأَعْمَالُ.

---

(١) تفسير العهد الجديد رسالتا غلاطية وأفسس، ص٧٣، ٧٤، وليم باركلي.
وقد ألف النصراني ندره اليازجي كتاب أسماه (رد على اليهودية واليهودية المسيحية) يؤيد قول بولس هذا وينتقد النصراني الذي يتمسك بالشريعة ويرى أن النصراني الصحيح هو الذي يهيم حباً في يسوع المسيح دون التمسك بأحكام الناموس (الشريعة).

(٢) متى ١٩: ١٦-٢١.

فَبالأَعْمَالِ قَدِ اكْتَمَلَ الإِيمَانُ. وَهَكَذَا، تَمَّ مَا قَالَهُ الْكِتَابُ: «آمَنَ إِبْرَاهِيمُ بِاللهِ، فَحُسِبَ لَهُ ذَلِكَ بِرّاً»، حَتَّى إِنَّهُ دُعِيَ «خَلِيلَ اللهِ». فَتَرَوْنَ إِذَنْ أَنَّ الإِنْسَانَ لاَ يَتَبَرَّرُ بِإِيمَانِهِ فَقَطْ، بَلْ بِأَعْمَالِهِ أَيْضاً)[1].

وحصل كذلك في هذا المجمع الملغي للعمل بالشريعة أن أجاز أكل لحم الخنزير، وحجتهم في ذلك أن الذين دخول في ديانتهم النصرانيّة من المتحدّرين من أصول مختلفة كان يصعب عليهم تناول الطعام مع النصارى من أصل يهودي بسبب القوانين اليهودية المتعلِّقة بالأطعمة، مثل: أنّ أكل لحم الخنزير محرم، وكذلك الدم وبعض طرق تهيئة الطعام، وغيرها[2].

علماً بأن تحريم لحم الخنزير مقرر في الشرائع السماوية وجاءت قذارة الخنزير حتى في أناجيل النصارى وهو ما يبين مدى التعارض بين نصوصها في أحكام كثيرة ومنها هذه المسألة.

---

(١) يعقوب ٢: ٢٢.

(٢) دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص٢٧-٢٨، بقلم الأب جان كمبي.
ثم قال هذا المؤلف في ص٢٨، وبعد ذكره أحداث مجمع أورشليم، مؤيداً لقراراته وتوجهاته: (هكذا لم يعد الإيمان المسيحي مرتبطاً باليهودية. لم يعد أحد مجبراً على الانتقال إلى ثقافة أخرى لكي يتبع الإنجيل. فأصبحت الكنيسة فعلاً عالمية).
وكان من أسباب جواز أكل لحم الخنزير أن بطرس كبير الحواريين ورد عنه في أعمال الرسل حادثه تدل على تجويزه لأكل كل ما حرّمته التوراة من الحيوانات ومنها الخنزير: (وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي، بَيْنَمَا كَانَ الرِّجَالُ الثَّلاَثَةُ يَقْتَرِبُونَ مِنْ مَدِينَةِ يَافَا، صَعِدَ بُطْرُسُ نَحْوَ الظُّهْرِ إِلَى السَّطْحِ لِيُصَلِّيَ. وَأَحَسَّ جُوعاً شَدِيداً، فَاشْتَهَى أَنْ يَأْكُلَ. وَبَيْنَمَا الطَّعَامُ يُعَدُّ لَهُ، وَقَعَتْ عَلَيْهِ غَيْبُوبَةٌ، فَرَأَى رُؤْيَا: السَّمَاءُ مَفْتُوحَةٌ، وَوِعَاءٌ يُشْبِهُ قِطْعَةً كَبِيرَةً مِنَ الْقُمَاشِ مَرْبُوطَةً بِأَطْرَافِهَا الأَرْبَعَةِ يَتَدَلَّى إِلَى الأَرْضِ، وَهُوَ مَلِيءٌ بِأَنْوَاعِ الْحَيَوَانَاتِ الدَّابَّةِ عَلَى الأَرْضِ وَالْوُحُوشِ وَالزَّوَاحِفِ وَطُيُورِ السَّمَاءِ جَمِيعاً. وَنَادَاهُ صَوْتٌ: «يَابُطْرُسُ، قُمِ اذْبَحْ وَكُلْ!» وَلكِنَّ بُطْرُسَ أَجَابَ: «كَلاَّ يَارَبُّ، فَأَنَا لَمْ آكُلْ قَطُّ شَيْئاً مُحَرَّماً أَوْ نَجِساً». فَقَالَ لَهُ الصَّوْتُ أَيْضاً: «مَا طَهَّرَهُ اللهُ لاَ تَحْسَبْهُ أَنْتَ نَجِساً!» وَتَكَرَّرَ هَذَا ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ ارْتَفَعَ الْوِعَاءُ إِلَى السَّمَاءِ)، أعمال الرسل ١٠: ٩-١٦.
يقول المفسر النصراني وليم باركلي: (... وقد أصبح بطرس يشعر أن المسيحية تمحو هذه المحرمات. وفي الظهيرة صعد بطرس إلى السطح ليصلي. وكان الناس يصعدون للسطح عادةً للخلوة. فرأى ملاءة كبيرة أمامه وعليها حيوانات مختلفة وجاءه الصوت (اذبح وكل)، لقد كان لليهود قوانين صارمة للأطعمة مذكورة في (لاويين ١١)، وعلى العموم لم يكن مسموحاً لليهودي أن يأكل إلا الحيوانات مشقوقة الظلف والتي تجتر، ولقد صعق بطرس لهذا الأمر واحتج عليه بأنه لم يأكل نجساً ولكن الصوت ناداه (ما طهّره الله لا تدنسه أنت) وحدث هذا ثلاث مرات حتى أنّه لم يكن هناك أي احتمال للخطأ) تفسير سفر أعمال الرسل، ص ١٣٢.
ثم قال: (... وفي أيام الكنيسة الأولى كانت من أهم علامات المسيحية أنها كانت تحطم الحواجز ولا شك أن المسيحية ما زالت تحطم كل الحواجز بين البشر إن أعطيت الفرصة لذلك) ص١٣٥، المرجع السابق.

جاء في القرآن الكريم تحريم الخنزير تحريماً قاطعاً قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[3].

وجاء في التوراة: (وكلم الرب موسى وهارون قائلاً لهم: كلّما بني إسرائيل قائلين... إلا هذه فلا تأكلوها ممّا يجتر وممّا يشُقُّ الظلف... والخنزير لأنه يشقُّ ظلفاً.. فهو نجس لكم)[4]، وجاء أيضاً: (لا تأكل رجساً ما... والخنزير لأنّه يشق الظلف لكنّه لا يجتر فهو نجسٌ لكم. فمن لحمها لا تأكلوا وجثتها لا تلمسوا)[5].

وممّا جاء في أناجيل النصارى في قذارة الخنازير (لا تُعْطُوا القُدْسَ للكِلاَبِ، ولا تَطْرَحُوا دُرَرَكُمْ قُدَّامَ الخَنَازِيرِ)[6]، وجاء فيها أيضاً: (قَدْ أَصَابَهُمْ ما في المَثَلِ الصَّادِقِ كَلْبٌ قَدْ عَادَ إلى قَيْئِهِ،

---

(١) سورة البقرة الآيتان ١٧٢-١٧٣.

(٢) سورة المائدة الآية ٣.

(٣) سورة الأنعام الآية ١٤٥.

(٤) سفر اللاويين ١١: ١-٨.

(٥) سفر التثنيه ١٤: ٣-٨.

(وقد حسبه الفينيقيون والأثيوبيون والمصريون نجساً مع أنهم في مصر كانوا يقدمون خنزيراً ذبيحة في العيد السنوي لإله القمر ولأوزوريس باخوس. ومع ذلك فإنّه كان يتحتم على من يلمس خنزيراً ولو عرضاً أن يغتسل، ولم يكن يسمح لراعي الخنزير أن يدخل الهيكل ولم يكن يتزوج إلا من بنات الرعاة مثله لأنه أحداً لا يرضى أن يزوج ابنته من راعي الخنازير) انظر: مناظرة بين الإسلام والنصرانية، ص٤٣٤.

(٦) متى ٧: ٦.

وخِنْزِيرَةٌ مُغْتَسِلَةٌ إلى مَرَاغَةِ الحَمأَةِ)[١]، ولكن مجمع أورشليم لم يأبه بهذه النصوص القاطعة في التحريم وحلل أكله.

وكانت الطامّة الكبرى التي حلّت بالدين الذي جاء به عيسى ﷺ، هو اعتناق (بولس) له ودخوله فيه.

(بولس) ذلك الرجل اليهودي[٢]، الذي اشتهر بشدة عدائه لأتباع عيسى ﷺ[٣]، والتي كانت قصة دخوله في دين عيسى ﷺ قصة مريبة يحوم حولها كثير من الشك، ويظهر فيها كثير من المكر اليهودي المدروس، علماً بأنّ في رواياتها الثلاث من التناقض ما يجعل وقوعها أقرب إلى الشك منه إلى اليقين[٤].

---

(١) رسالة بطرس الثانية ٢: ٢٢.

(٢) وقد جاء ذلك على لسانه، بقوله: (أَنَا رَجُلٌ يَهُودِيٌّ، وُلِدْتُ فِي طَرْسُوسَ الْوَاقِعَةِ فِي مُقَاطَعَةِ كِيلِيكِيَّةَ، وَلَكِنِّي نَشَأْتُ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ)، أي أورشليم (القدس)، أعمال الرسل ٢٢: ٣، وهو من اليهودِ الفريسيينَ الذين اشتهروا بعدائهمَ لشخصِ وتعاليمِ المسيح عيسى ﷺ، يقول بولس عن نفسه: (وَإِذْ كَانَ بُولُسُ يَعْلَمُ أَنَّ بَعْضَ أَعْضَاءِ الْمَجْلِسِ مِنْ مَذْهَبِ الصَّدُّوقِيِّينَ، وَبَعْضَهُمْ مِنْ مَذْهَبِ الْفَرِّيسِيِّينَ، نَادَى فِي الْمَجْلِسِ: «أَيُّهَا الإِخْوَةُ، أَنَا فَرِّيسِيٌّ ابْنُ فَرِّيسِيٍّ)، أعمال الرسل ٢٣: ٦، ٧.

(٣) ومن النصوص التي تبيّن كره بولس (شاؤول) للمسيحيين، وتعذيبه لهم: (وَفِي ذلِكَ الْيَوْمِ نَفْسِهِ وَقَعَ اضْطِهَادٌ شَدِيدٌ عَلَى الْكَنِيسَةِ الَّتِي فِي أُورُشَلِيمَ. فَتَشَتَّتَ الإِخْوَةُ جَمِيعاً فِي نَوَاحِي الْيَهُودِيَّةِ وَالسَّامِرَةِ، وَلَمْ يَبْقَ فِي أُورُشَلِيمَ إِلاَّ الرُّسُلُ... أَمَّا شَاوُلُ فَكَانَ يُحَاوِلُ إِبَادَةَ الْكَنِيسَةِ، فَيَذْهَبُ مِنْ بَيْتٍ إِلَى بَيْتٍ وَيَجُرُّ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ وَيُلْقِيهِمْ فِي السِّجْنِ) أعمال الرسل ٨: ١ ٣، (أَمَّا شَاوُلُ فَكَانَ لاَيَزَالُ يَفُورُ بِالتَّهْدِيدِ وَالْقَتْلِ عَلَى تَلاَمِيذِ الرَّبِّ. فَذَهَبَ إِلَى رَئِيسِ الْكَهَنَةِ، وَطَلَبَ مِنْهُ رَسَائِلَ إِلَى مَجَامِعِ الْيَهُودِ فِي دِمَشْقَ لِتَسْهِيلِ الْقَبْضِ عَلَى أَتْبَاعِ هَذَا الطَّرِيقِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، حَيْثُمَا يَجِدُهُمْ، لِيَسُوقَهُمْ مُقَيَّدِينَ إِلَى أُورُشَلِيمَ)، أعمال الرسل ٩: ١ ٢، والملاحظ في هذا النص أن لبولس (شاؤول) سُلطة تخوّله تعذيب المسيحيين، ووضع الخطط مع رئيس الكهنة اليهود للقضاء عليهم، وقد يكون دخوله في المسيحيّة جزء من المكر اليهودي المخطط له في مجالسهم الخاصة للعبث بهذه الديانة التوحيديّة، وتحريفها، وهذا ما حصل ونجح فيه بولس (شاؤول) النجاح العجيب.

(٤) وهذه القصة وردت في سفر (أعمال الرسل)، في ثلاثة مواضع منه، وهي كالتالي:
الرواية الأولى: (أَمَّا شَاوُلُ فَكَانَ لاَيَزَالُ يَفُورُ بِالتَّهْدِيدِ وَالْقَتْلِ عَلَى تَلاَمِيذِ الرَّبِّ. فَذَهَبَ إِلَى رَئِيسِ الْكَهَنَةِ، وَطَلَبَ مِنْهُ رَسَائِلَ إِلَى مَجَامِعِ الْيَهُودِ فِي دِمَشْقَ لِتَسْهِيلِ الْقَبْضِ عَلَى أَتْبَاعِ هَذَا الطَّرِيقِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، حَيْثُمَا يَجِدُهُمْ، لِيَسُوقَهُمْ مُقَيَّدِينَ إِلَى أُورُشَلِيمَ. وَفِيمَا هُوَ مُنْطَلِقٌ إِلَى دِمَشْقَ، وَقَدِ اقْتَرَبَ مِنْهَا، لَمَعَ حَوْلَهُ فَجْأَةً نُورٌ مِنَ السَّمَاءِ، فَوَقَعَ إِلَى الأَرْضِ وَسَمِعَ صَوْتاً يَقُولُ لَهُ: «شَاوُلُ! شَاوُلُ! لِمَاذَا تَضْطَهِدُنِي؟» فَسَأَلَ: «مَنْ أَنْتَ يَاسَيِّدُ؟» فَجَاءَهُ الْجَوَابُ: «أَنَا يَسُوعُ الَّذِي أَنْتَ تَضْطَهِدُهُ، صَعْبٌ عَلَيْكَ أَنْ تَرْفُسَ الْمَنَاخِسَ». فَقَالَ وَهُوَ مُرْتَعِدٌ وَمُتَحَيِّرٌ: «يَارَبُّ مَاذَا تُرِيدُ

أَنْ أَفْعَلَ؟» فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «قُمْ، وَادْخُلِ الْمَدِينَةَ فَيُقَالَ لَكَ مَا يَجِبُ أَنْ تَفْعَلَهُ». وَأَمَّا مُرَافِقُو شَاوُلَ فَوَقَفُوا مَذْهُولِينَ لاَ يَنْطِقُونَ، فَقَدْ سَمِعُوا الصَّوْتَ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا أَحَداً. وَعِنْدَمَا نَهَضَ شَاوُلُ عَنِ الأَرْضِ، فَتَحَ عَيْنَيْهِ فَوَجَدَ أَنَّهُ لاَ يُبْصِرُ، فَاقْتَادُوهُ بِيَدِهِ وَأَدْخَلُوهُ إِلَى دِمَشْقَ، حَيْثُ بَقِيَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ لاَ يُبْصِرُ وَلاَ يَأْكُلُ وَلاَ يَشْرَبُ)، أعمال الرسل ٩: ١ - ٩.

الرواية الثانية: (...فَاضْطَهَدْتُ هَذَا الطَّرِيقَ حَتَّى الْمَوْتِ، فَكُنْتُ أَعْتَقِلُ أَتْبَاعَهُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَأَزُجُّ بِهِمْ فِي السُّجُونِ. وَيَشْهَدُ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ وَمَجْلِسُ الشُّيُوخِ عَلَى صِدْقِ كَلاَمِي هَذَا. فَقَدْ أَخَذْتُ مِنْهُمْ رَسَائِلَ إِلَى إِخْوَانِهِمْ فِي دِمَشْقَ لِيُعَاوِنُونِي فِي الْقَبْضِ عَلَى الَّذِينَ هُنَاكَ، لأَسُوقَهُمْ إِلَى أُورُشَلِيمَ فَيَنَالُوا عِقَابَهُمْ. وَلَمَّا وَصَلْتُ إِلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ دِمَشْقَ، وَكَانَ الْوَقْتُ نَحْوَ الظُّهْرِ، أَضَاءَ حَوْلِي فَجْأَةً نُورٌ بَاهِرٌ، فَوَقَعْتُ عَلَى الأَرْضِ، وَسَمِعْتُ صَوْتاً يَقُولُ لِي: شَاوُلُ، شَاوُلُ، لِمَاذَا تَضْطَهِدُنِي؟ فَأَجَبْتُ: مَنْ أَنْتَ يَاسَيِّدُ؟ فَقَالَ: أَنَا يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ الَّذِي أَنْتَ تَضْطَهِدُهُ. وَقَدْ رَأَى مُرَافِقِيَّ النُّورَ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا صَوْتَ مُخَاطِبِي. فَسَأَلْتُ: مَاذَا أَفْعَلُ يَارَبُّ؟ فَأَجَابَنِي الرَّبُّ: قُمْ وَادْخُلْ دِمَشْقَ، وَهُنَاكَ يُقَالُ لَكَ مَا يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَفْعَلَهُ. وَاقْتَادَنِي مُرَافِقِيَّ بِيَدِي حَتَّى أَوْصَلُونِي إِلَى دِمَشْقَ، لأَنِّي لَمْ أَكُنْ أُبْصِرُ بِسَبَبِ شِدَّةِ ذَلِكَ النُّورِ الْبَاهِرِ) أعمال الرسل ٢٢: ٤ - ١١.

الرواية الثالثة: (وَتَوَجَّهْتُ إِلَى مَدِينَةِ دِمَشْقَ بِتَفْوِيضٍ وَتَرْخِيصٍ مِنْ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ، فَرَأَيْتُ، أَيُّهَا الْمَلِكُ، عَلَى الطَّرِيقِ عِنْدَ الظُّهْرِ نُوراً يَفُوقُ نُورَ الشَّمْسِ يَسْطَعُ حَوْلِي وَحَوْلَ مُرَافِقِيَّ، فَسَقَطْنَا كُلُّنَا عَلَى الأَرْضِ. وَسَمِعْتُ صَوْتاً يُنَادِينِي بِاللُّغَةِ الْعِبْرِيَّةِ قَائِلاً: شَاوُلُ، شَاوُلُ، لِمَاذَا تَضْطَهِدُنِي؟ يَصْعُبُ عَلَيْكَ أَنْ تَرْفُسَ الْمَنَاخِسَ. فَسَأَلْتُ: مَنْ أَنْتَ يَاسَيِّدُ؟ فَأَجَابَ: أَنَا يَسُوعُ الَّذِي أَنْتَ تَضْطَهِدُهُ. انْهَضْ وَقِفْ عَلَى قَدَمَيْكَ، فَقَدْ ظَهَرْتُ لَكَ لأُعَيِّنَكَ خَادِماً لِي وَشَاهِداً بِهَذِهِ الرُّؤْيَا الَّتِي تَرَانِي فِيهَا الآنَ، وَبِالرُّؤَى الَّتِي سَتَرَانِي فِيهَا بَعْدَ الْيَوْمِ. وَسَأُنْقِذُكَ مِنْ شَعْبِكَ وَمِنَ الأُمَمِ الَّتِي أُرْسِلُكَ إِلَيْهَا الآنَ، لِتَفْتَحَ عُيُونَهُمْ كَيْ يَرْجِعُوا مِنَ الظَّلاَمِ إِلَى النُّورِ، وَمِنْ سَيْطَرَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى اللهِ، فَيَنَالُوا غُفْرَانَ الْخَطَايَا وَنَصِيباً بَيْنَ الَّذِينَ تَقَدَّسُوا بِالإِيمَانِ بِي) أعمال الرسل ٢٦: ١٢ - ١٨.

ومن هذا التناقض في هذه الروايات الثلاث أنّ المسافرين مع بولس في الرواية الأولى قد سمعوا الصوت ولم ينظروا أحداً، إلا أنّهم في الرواية الثانية نظروا النور ولكنّهم لم يسمعوا الصوت، وفي الرواية الثالثة نجد أنّ المسافرين معه قد رأوا النور، ولم تُبيّن أنّهم قد سمعوا معه صوتاً أو لا، إلا أنّ الرواية ذكرت أنّهم سقطوا جميعاً مع بولس على الأرض، وذلك بخلاف الرواية الأولى التي فيها أنّهم وقفوا صامتين، وخلافاً لما يُفهم من مضمون الرواية الثانية.

وأيضاً أنّ بولس ذكر في الروايتين الأولى والثانية أن المسيح عيسى أمره بالذهاب إلى دمشق لتلقي الرسالة، وفي الرواية الثالثة أن المسيح أعطاه الرسالة فوراً مع الوعد بإنقاذه من اليهود والأمم الأخرى.

وهذه الروايات المختلفة فيما بينها تتكلّم عن حادثة واحدة وقعت مرّة واحدة فقط، فكيف يحصل هذا الاختلاف الشديد في مسألة يستدل بها النصارى على صدق دخول (بولس) شاؤول اليهودي في دينهم، فهذا من الأمر العجيب، وقد قال العلماء: (إنّ الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال).

ولقد أكدت المصادر أن بولس لم يكن تلميذاً من تلاميذ المسيح، فلم يلتق به مدة حياته، ولم يتتلمذ على يديه، ولم يتلق منه أي تعاليم. هذا إلى جانب أنه لم يلتق بأي تلميذ من تلاميذ المسيح في فترته التبشيرية الأولى والتي كانت مدتها ثلاث سنوات، بزعم أنّه تلقى تعليمه من المسيح عيسى مباشرةً في تلك الرؤيا المزعومة[1].

ولذلك ومنذ أن ادعى بولس دخوله في الدين الجديد وإيمانه بالمسيح انقلبت موازين هذه الديانة وتغيرت أحوالها وأخذت صورة جديدة دعت فيها إلى عقائد وتعاليم ومفاهيم جديدة.

يقول (ويلز): (كان القديس بولس من أعظم من أنشؤوا المسيحية الحديثة، وهو لم ير عيسى قط ولا سمعه يُبشِّر الناس، أوتي عقلية عظيمة، وكان شديد الاهتمام بحركات زمانه الدينية، فنقل إلى المسيحية كثيراً من الأفكار)[2].

ويقول (بيري): (لقد كوّن شاؤول المسيحية على حساب عيسى، فهو في الحقيقة مؤسس المسيحية... وقد أدخل على ديانته بعض تعاليم اليهود ليجذب إليه العامة منهم، وأدخل صوراً من فلسفة الإغريق ليجذب إليه أتباعاً من اليونان، فعيسى أصبح ابن الله، واحتلت صورة العذراء

---

(١) جاء في قول بولس لأهل غلاطيه: (مِنْ بُولُسَ، وَهُوَ رَسُولٌ لاَ مِنْ قِبَلِ النَّاسِ وَلاَ بِسُلْطَةِ إِنْسَانٍ، بَلْ بِسُلْطَةِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ وَاللهِ الآبِ الَّذِي أَقَامَهُ مِنْ بَيْنِ الأَمْوَاتِ... وَلكِنْ، لَمَّا سُرَّ اللهُ، الَّذِي كَانَ قَدْ أَفْرَزَنِي وَأَنَا فِي بَطْنِ أُمِّي ثُمَّ دَعَانِي بِنِعْمَتِهِ، أَنْ يُعْلِنَ ابْنَهُ فِيَّ لأُبَشِّرَ بِهِ بَيْنَ الأُمَمِ، فِي الْحَالِ لَمْ أَسْتَشِرْ لَحْماً وَدَماً، وَلاَ صَعِدْتُ إِلَى أُورُشَلِيمَ لأُقَابِلَ الَّذِينَ كَانُوا رُسُلاً مِنْ قَبْلِي، بَلِ انْطَلَقْتُ إِلَى بِلاَدِ الْعَرَبِ، وَبَعْدَ ذلِكَ رَجَعْتُ إِلَى دِمَشْقَ. ثُمَّ صَعِدْتُ إِلَى أُورُشَلِيمَ، بَعْدَ ثَلاَثِ سَنَوَاتٍ، لأَتَعَرَّفَ بِبُطْرُسَ. وَقَدْ أَقَمْتُ عِنْدَهُ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْماً. وَلكِنَّنِي لَمْ أُقَابِلْ غَيْرَهُ مِنَ الرُّسُلِ إِلاَّ يَعْقُوبَ، أَخَا الرَّبِّ إِنَّ مَا أَكْتُبُهُ إِلَيْكُمْ هُنَا، وَهَا أَنَا أَمَامَ اللهِ، لَسْتُ أَكْذِبُ فِيهِ). غلاطيه١: ١، ١: ١٥ ـ ٢٠.

وبعد هذه المدة البسيطة التي مكث فيها بولس عند بطرس (خمسة عشر يوماً)، انطلق ولمدة أربع عشرة سنة (غلاطيه ٢: ١) يدعو فيها بتعاليم لم يستقيها، و لم يتعلمها من المسيح عيسى، حيث إنّه لم يره، ولا من حواري المسيح أو من تلاميذه، وإنّما أخذها بزعمه عن طريق الرؤيا التي أراها في الطريق، وفيه سلمه المسيح في المنام التعاليم كلها التي يدعو إليه الآن، فسلسلة مختصرة إلى المسيح عن طريق المنام، ولفترة بسيطة علّمه المسيح التعاليم كلها، سبحانك هذا بهتان عظيم، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فرد أحد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

(٢) في كتابه (مختصر تاريخ العالم) نقلاً عن الإسلام والفلسفات القديمة، ص١٨٢، أنور الجندي.

والمسيح مكاناً مقدساً احتلته قديماً صورتا (حودس) و (أوزيوس) ووضعتا في كل الكنائس)[1].

ومن الأشياء التي ابتدعها بولس، وحوَّلت الديانة التي جاء بها عيسى ﷺ إلى ديانة مختلفة تماماً عنها، وهو ما جعل كثيراً من الباحثين والمؤرخين يسمونها الديانة البولسية:

فمثلاً: قضية أنّ عيسى ابن الله، جاء ليفدي البشرية من الخطيئة الموروثة من آدم ﷺ. فصلب عيسى لأجل فداء وخلاص البشرية.

يقول ول ديورانت: (ولقد أنشأ بولس لاهوتاً لا نجد له إلا أسانيد غامضة أشد الغموض في أقوال المسيح، أما هذه الأسس فأهمها أن كل ابن أنثى يرث خطيئة آدم، وأن لا شيء يُنجيه من العذاب الأبدي إلا موت ابن الله ليكفّر بموته عن خطيئته)[2].

ويقول أيضاً: (وأضاف بولس إلى هذا اللاهوت بعض آراء صوفية غامضة كانت قد ذاعت بين الناس، من ذلك قول بولس: إن المسيح هو (حكمة الله) و (ابن الله الأول) (بكر كل خليقة)، (فإنه فيه خلق الكل) (الكل به وله قد خلق)، (الذي هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل)، وقد استطاع بولس بهذه التفسيرات كلها أن يغض النظر عن حياة يسوع، وعن أقواله التي لم يسمعها منه مباشرة، واستطاع بذلك أن يقف على قدم المساواة مع الرسل الأولين، الذين لم يكونوا يجارونه في آرائه الميتافيزيقية)[3].

ومن ذلك أيضاً: قوله إن عيسى مات، وقتل على الصليب من أجل فداء البشر، وخلاصهم، وأن موته (تضحية تكفيرية)، ولا شك في أن أتباع عيسى ﷺ كانوا في حيرة من أمرهم كيف يُصلب رسولهم ومُعلِّمهم، وقد جاء في التوراة أن المصلوب ملعون[4]، وهنا برز دور بولس

(١) في كتابة (الأديان العالمية)، المرجع السابق، ص١٨١، أنور الجندي.

(٢) قصة الحضارات، ١١ / ٢٦٤، ٢٦٣، ول ديورانت.

(٣) المرجع السابق ١١/ ٢٦٥، ول ديورانت، ولهذا كان ديورانت يسمي بولس (واضع اللاهوت المسيحي) ١١/ ٢٤٩.

(٤) تثنية ٢١: ٢٣، (لأنَّ المُعلَّق مَلعونٌ من الله).

المُحرِّف اليهودي، الذي ذكر لهم أن عيسى لم يكن موته على الصليب لعنة إلاّ لأجل التكفير عن خطايانا[1]، فعجيب أمر هذا الرجل في تلاعبه بدين أتباع عيسى، والأعجب منه، عقليّات بعض من يدَّعي أنّهم يتبعون عيسى ﷺ، في إيمانهم بكُلِّ ناعق يحرِّف دينه الحق.

ومن بدع بولس في الطقوس التشريعيّة طقس القربان المقدس (العشاء الربّاني الافخارستيا)، وقد اشتقه من قصة العشاء الأخير لعيسى مع حواريه.

(تخيّلَ بولس أن عيسى المسيح، عندما استسلم سلفاً للصلب الذي كان يتوقعه! أمرَ صحابته أن يأكلوا من لحمه ويشربوا من دمه، رمزيّاً، و يجدر الذكرى بهذا المقام أنّ شرب الدم كان من طقوس العبادات الهلنستية[2] الغامضة التي ترمز إلى قهر الموت)[3].

كما أن لبولس آراء في الزواج والمرأة لم يعرفها عيسى ﷺ مطلقاً، أصبحت من أساسيات النصرانيّة[4].

كما أنّ بولس كان أول من نادى بإلغاء الختان وحصل له ما أراد في مجمع أورشليم وبين وسط

---

(1) غلاطية ٣: ١٣ (إِنَّ الْمَسِيحَ حَرَّرَنَا بِالْفِدَاءِ مِنْ لَعْنَةِ الشَّرِيعَةِ، إِذْ صَارَ لَعْنَةً عِوَضاً عَنَّا، لأَنَّهُ قَدْ كُتِبَ: «مَلْعُونٌ كُلُّ مَنْ عُلِّقَ عَلَى خَشَبَةٍ»)

(٢) الهلنستية: أفكار ومعتقدات إغريقية، استقاها الإغريق من الديانات الشرقيّة المختلفة الغنيّة بطقوسها وشعائرها ومعتقداتها الغيبيّة الغريبة، انظر: موجز تاريخ الشرق الأدنى، ص ١٠٠ ١٠٢، د. فيليب حتى.

(٣) المسيحية والإسلام والاستشراق، ص١٤١، محمد فاروق الزين.

(٤) جاء في رسالته إلى كورنثوس الأولى ٧: ١ ٢: (وأما من جهة الأمور التي كتبتم لي عنها فحسب للرجل أن لا يمس امرأة. ولكن لسبب الزنى ليكن لكل واحد امرأته وليكن لكل واحدة رجلها). فقوله (ألا يمس) فيه تنفير شديد من الزواج ولم يأذن به إلا للضرورة الملحة وهي الخوف من الوقوع في الزنى، وقد أغفل الغاية العليا للزواج وهي النسل، انظر: نظام الأسرة بين المسيحية والإسلام (دراسة مقارنة) ١/ ١٦٩ – ١٧٠، د. محمود عبدالسميع شعلان.

أما موقفه من المرأة فهو يقول في رسالته الأولى إلى تيموثاوس ٢: ١٤ ١٥: (وآدم لم يغو لكن المرأة أغويت فحصلت في التعدي ولكنها ستخلص بولادة الأولاد أن ثبتت في الإيمان والمحبة والقداسة مع التعقل)، فهنا بولس يقرر أنه ليس للمرأة الخلاص إلا عن طريق الإنجاب، وهذا ما لم يقله عيسى ﷺ أبداً، انظر: الخديعة الكبرى، د. روبرت كيل تسلر، ترجمة علاء أبو بكر، ص٣، من الفصل الأول.

تلاميذ المسيح[١].

ومن أقواله في ذلك: (هَا أَنَا بُولُسُ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ خُتِنْتُمْ، لاَ يَنْفَعُكُمُ الْمَسِيحُ شَيْئاً)[٢].

ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد بل عمل على إلغاء الناموس (العمل بالشريعة) وقد تدرج بولس في إلغائه الناموس والتخلي عما تأمر به الشريعة.

ففي بداية دعوته دعى بولس إلى أهمية العمل بالشريعة، فمن أقواله في ذلك: (فَلَيْسَ سَامِعُو الشَّرِيعَةِ هُمُ الأَبْرَارُ أَمَامَ اللهِ؛ بَلِ الْعَامِلُونَ بِالشَّرِيعَةِ يُبَرَّرُونَ)[٣]، وأيضاً قوله: (هَلْ نَحْنُ نُبْطِلُ الشَّرِيعَةَ بِالإِيمَانِ؟ حَاشَا، بَلْ إِنَّنَا بِهِ نُثَبِّتُ الشَّرِيعَةَ)[٤].

ثم انتقل بولس إلى المرحلة الثانية من إلغاء تطبيق شريعة التوراة، وهي بداية التشكيك، فقال في رسالته الأولى إلى تيموثاوس: (إِنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ الشَّرِيعَةَ جَيِّدَةٌ فِي ذَاتِهَا، إِذَا اسْتُعْمِلَتِ اسْتِعْمَالاً شَرْعِيّاً)[٥].

ثم انتقل إلى مرحلة ثالثة، وهي مناداته بأن الإيمان بالمسيح يعادل العمل بالشريعة فقال: (أَمَّا الآنَ، فَقَدْ أُعْلِنَ الْبِرُّ الَّذِي يَمْنَحُهُ اللهُ، مُسْتَقِلاً عَنِ الشَّرِيعَةِ، وَمَشْهُوداً لَهُ مِنَ الشَّرِيعَةِ وَالأَنْبِيَاءِ، ذَلِكَ الْبِرُّ الَّذِي يَمْنَحُهُ اللهُ عَلَى أَسَاسِ الإِيمَانِ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ لِجَمِيعِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ. إِذْ لاَ فَرْقَ، لأَنَّ الْجَمِيعَ قَدْ أَخْطَأُوا وَهُمْ عَاجِزُونَ عَنْ بُلُوغِ مَا يُمَجِّدُ اللهَ)[٦].

ثم انتقل إلى مرحلة رابعة أكد فيها كفاية الإيمان بالمسيح (فادياً)، وعدم لزوم العمل بالشريعة (النّاموس)، فقال: (مُتَبَرِّرِينَ مَجَّاناً، بِنِعْمَتِهِ، بِالْفِدَاءِ الذي بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي قَدَّمَهُ اللهُ كَفَّارَةً،

---

(١) انظر ذلك في صفحات قليلة مضت، عن أثر مجمع أورشليم الأول في بدايات تحريف المسيحيّة.

(٢) غلاطية ٥: ٢.

(٣) رومية ٢: ١٣.

(٤) رومية ٣: ٣١.

(٥) تيموتاوس الأولى ١: ٨.

(٦) رومية ٣: ٢١ - ٢٣.

بالإِيمَانِ بِدَمِهِ لإِظْهَارِ بِرِّه من أجْلِ الصفحِ عَنِ الْخَطَايَا السَّالِفَةِ بِإِمْهَالِ الله، لإِظْهَارِ بِرِّه فِي الزَّمَانِ الْحَاضِرِ لِيكونَ بارّاً ويُبرّرَ مَنْ هُوَ مِنَ الإِيمَانِ بِيَسُوعَ. فَأَيْنَ الافْتِخَارُ؟ قَدْ انتفى بِأَيِّ نامُوسٍ؟ أَبِنَامُوسِ الأَعْمالِ، كلاَّ، بل بِناموسِ الإِيمَانِ، إِذاً نَحسِبُ أَنَّ الإنسانَ يتبرَّرُ بالإيمانِ بدونِ أعمالِ النَّاموسِ)[1].

وفي هذه المرحلة لا شك أنّه انحرف انحرافاً كبيراً عمّا قرّرَه في بداية دعوته في أنّ الإيمان يُثبِّتُ العمل بالشريعة، فلا يصلح إيمان إلا بعمل، ولا عمل إلا بإيمان.

ثم انتقل إلى مرحلة خامسة، وفيها يُقرِّرُ أن تطبيق الشريعة لا يفيد الإنسان. فإنه لا يتبرر بأعمالها. فقال: (إِذْ نَعْلَمُ أَنَّ الإِنْسَانَ لاَ يَتَبَرَّرُ بِأعمالِ النَّاموسِ بَلْ بإِيمَانِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ، آمَنَّا نَحْنُ أَيْضاً بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ، لِنَتَبَرَّرَ بإِيمَانِ يسوعَ لاَ بِأَعمَالِ النّاموسِ، لأَنَّهُ بِأعمالِ النّاموسِ لاَ يتبَرَّرُ جسدٌ ما)[2].

ثم ذكر في مرحلة سادسة أنّه إذا كان التبرّر بأعمال الشريعة فلا فائدة إذاً من المسيح ومن صلبه فداء: (لأَنَّهُ إِنْ كانَ بالنَّاموسِ بِرٌّ فالمسيحُ إذاً ماتَ بِلاَ سببٍ)[3]، وقال أيضاً: (قَدْ تَبَطَّلْتُمْ عنِ المسيحِ أيُّها الذينَ تتبرَّرُونَ بالنّامُوسِ سقَطْتُمْ من النِّعْمَةِ فإِنَّنا بالرُّوحِ مِنَ الإيمانِ نتوَقَّعُ رجاءَ بِرٍّ)[4].

ثم في المرحلة الأخيرة قرَّر إبطال العمل بالشريعة وادَّعى أن المسيح هو من قد أبطل شريعة الوصايا بتقديم نفسه للصلب، فقال: (مُبْطِلاً بِجسدِهِ نامُوسَ الوصايا في فَرَائضَ)[5].

يقول المفسر النصراني (وليم باركلي) في تفسيره لهذه الفقرة مؤيداً لتحريف بولس، وإلغائه

(١) رومية ٣: ٢٤ – ٢٨.

(٢) غلاطية ٢: ١٦.

(٣) غلاطية ٢: ٢١.

(٤) غلاطية ٥: ٤ – ٥.

(٥) أفسس ٢: ١٥.

العمل بالشريعة: (وأنَّ ديانة تُؤَسس على كافّة أنواع القواعد والقوانين المتعلقة ببعض الممارسات وبعض العادات والفرائض والذبائح والأيام، لا يمكن أن تُصبح ديانة عامة للجميع. كما قال بولس الرسول: (لأنه غاية الناموس هي المسيح) (روميه ١٠ : ٤)، وكما يقول هنا: (أبطل المسيح ناموس الوصايا بكل فرائضه). لقد أنهى المسيح الفكرة الناموسية كمبدأ ديني. ولكن ماذا وضع في مكانها يا ترى؟ لقد أحل الحب لله والحب للبشر محل الأفكار الناموسية. لقد جاء المسيح ليقول للبشر إنهم لا يستطيعون أن يحصلوا على رضا الله عن طريق حفظ فرائض الناموس، ولكنها يجب عليهم أن يقبلوا حب الله وغفرانه وشركته التي يقدمها لهم مجاناً في رحمته. وأنّ ديانة تتأسس على المحبة لتصلح في الحال لأن تكون ديانة للجميع... إن القواعد والفرائض تضع الحواجز، إلا أن المحبة تزيلها)[1].

لذلك، وبعد هذا العرض المختصر لدور بولس، يُمكن الجزم أنّ هذا التحريف الشديد الذي حصل في الديانة المسيحيّة، والتي جاء بها عيسى ﷺ، كان من مكر بولس (شاؤول اليهودي)، وتخطيطه، فهو الذي أرسى قواعد الديانة النصرانيّة الجديدة، والتي ظهرت بعد رفع عيسى ﷺ بسنين معدودة، فخالفت تماماً ما جاء به عيسى ﷺ.

القسم الثاني: الاضطهادات الرومانية:

حصل لأتباع النصرانيّة ومعتنقيها من الاضطهاد والتعذيب ما يحصل لأي جماعة تدعو إلى دين جديد وأفكار جديدة مختلفة لما يألفه محيطها التي نشأت فيه.

وقد نال نصارى فلسطين الحظ الأوفر من هذه الاضطهادات لوجودهم بين عدوين لدودين، هما: الرومان واليهود.

فاليهود أصيبوا بخيبة أمل بالغة عندما جاءهم عيسى بن مريم يزيّن لهم ملكوت السماوات ويعدهم وعداً حسناً في الدار الآخرة، ويُحقِّر لهم أمر الدنيا، وما فيها من متاع زائل، وهذا مخالف

(١) تفسير العهد الجديد، رسالتا غلاطية وأفسس، ص١٧٢، ١٧٣، وليم باركلي.

لما تربوا عليه بعد تحريفهم لديانة موسى ﷺ، فأدرك رجال السطوة والنفوذ فيهم، ومنهم أعضاء مجلس السنهدرين اليهودي[١]؛ أنّ مكانتهم إلى نهاية، وأنّ نفوذهم سيضيع، فكفروا بعيسى وبما جاءهم به، ونالوا منه ومن دعوته وأتباعه، وراحوا يؤلّبون عليهم شعب الرومان والحكومة، فلقي بذلك النصارى من اليهود عنتاً كبيراً.

ولا شك أن أكبر ضحيّة لهذا الاضطهاد المبكر، هو عيسى ﷺ، ودعوته التوحيدية.

ولكنَّ النصارى لم يستكينوا لهذه الاضطهادات المبكرة في تاريخهم فبدؤوا ينشرون دينهم خارج فلسطين فقامت طوائف نصرانية في أماكن عديدة، حتى وصلت الدعوة النصرانية إلى عاصمة الإمبراطورية ذاتها في (روما).

وهنا أدركت الإمبراطورية الرومانية أنها أمام فرقة دينية ليست كاليهودية متقوقعة على ذاتها وإنما أمام فرقة جديدة لها طموح التوسع والانتشار[٢]، خاصة أن الإمبراطوريّة كانت تعد هذه الجماعة فرقة منفصلة عن اليهودية في بادئ الأمر فلم تعرها انتباهاً في بداية أمرها[٣].

وقد ذهب المؤرخون إلى أنّ أسباب هذه الاضطهادات التي وقع فيها النصارى لـ:

- رفض النصارى لأهم المبادئ التي قامت عليها الدولة الرومانية، وهي تقديس الإمبراطور وتأليهه، وتقديم القرابين لتمثاله، وحرق البخور أمامه في المناسبات العامة. ويعد الرومان (شعباً

(١) مجلس السهندرين اليهودي: هو المجلس الأعظم المكون من كبراء إسرائيل، ويظن أنه نشأ أثناء حكم السلوقيين (حوالي عام ٢٠٠ ق.م) وكان الحاخام الأعظم هو الذي يختار في بادئ الأمر أعضاء المجلس من بين طبقة الأشراف الكهنوت، ويضم المجلس واحداً وسبعين عضواً يدعون لأنفسهم السلطة العليا على اليهود جميعاً أياً كان موطنهم، وكان اليهود المستمسكون بدينهم في كل مكان يعترفون بهذه السلطة. انظر: الدولة والكنيسة، الجزء الثاني (الوثنية المسيحية) ص٢٩، د. رأفت عبدالحميد.

(٢) انظر: موجز تاريخ المسيحية، ص١٤١، للأبناء ديوسقورس، تاريخ الحضارات ٢/ ٤٢١، إشراف: موريس كروزية، أوروبا العصور الوسطى، الجزء الأول (التاريخ السياسي) ص٥٣، د. سعيد عبدالفتاح عاشور.

(٣) تاريخ الحضارات العام ٢/ ٤٢٠، كروزيه، الدولة والكنيسة ٢/ ٣٧، رأفت عبد الحميد، أوروبا العصور الوسطى، الجزء الأول (التاريخ السياسي) ص٥٣، د. سعيد عبدالفتاح عاشور.

وحكومة) هذه الطقوس دليلاً علىٰ الولاء والطاعة وصدق الوطنية[1].

يقول الأسقف و. ر. إنج: (... إن عبادة (روما وأغسطس) التي قامت في كل مكان تقريباً، وخاصة في آسيا، حيث كان المسيحيون أقوى منهم في أي مكان آخر؛ سهّلت إثبات تهمة عدم الولاء بالنسبة للمسيحيين، وذلك بأن يُطلب إليهم تقديم فروض العبادة للإمبراطور أو (روحه الحارسة). وكانت هذه في الواقع هي الطريقة التي أعدم بها أكثر الشهداء)[2].

وقد تكون هذه الأعمال التي رفض النصارى القيام بها لإجلال الإمبراطوريّة؛ قد فُسِّرت بأنها تقويض منهم لقواعد الوحدة الإمبراطورية وتمرد علىٰ النظم السائدة. ولذا عدوا خطراً عاماً علىٰ سلامة الدولة وحاق بهم الاضطهاد من كل جانب[3]، خاصة أن الشعب الروماني كان يرى أن الدولة وسلامتها والإمبراطور هي أساس حضارتهم، يقول ول. ديورانت: (فالروماني كان ينظر إلى دينه علىٰ أنَّه جزء من كيان الحكومة وشعائرها، وكانت الوطنية هي الذروة التي تنتهي عندها مبادئه الأخلاقية العليا. أما المسيحي فكان ينظر إلى دينه علىٰ أنه شيء منفصل عن المجتمع السياسي)[4].

- امتناع النصارى عن الالتحاق بالخدمة العسكرية، ومن ثم عدم دفاعهم عن الإمبراطورية الرومانية في وجه أعدائها[5].

---

(١) الدولة والكنيسة ٢/ ٣٢، د. رأفت عبدالحميد، موجز تاريخ المسيحية، ص١٤١، للأنبا ديوسقورس، تاريخ المسيحية، ص٥٣ بقلم حبيب سعيد، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية ١/ ٢٩٢، إدوارد جيبون، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ص ٢٨، د. السيد الباز العريني، أوروبا العصور الوسطى، الجزء الأول (التاريخ السياسي) ص٥٢ د. سعيد عاشور، تاريخ الحضارات العام ٢/ ٤٢٢ (روما وإمبراطوريتها) إشراف: موريس كروزية.

(٢) الأسقف و. ر. إنج رئيس كاتدرائية القديس بولس بلندن، ومؤلف كتاب (فلسفة أفلوطين) وغيره. انظر: تاريخ العالم، المجلد الرابع، ص١٨٠، نشره: السير جون. ا. هامرتن.

(٣) تاريخ العصر الوسيط في أوروبة، ص٦٨، د. نور الدين حاطوم.

(٤) قصة الحضارة، ١١/ ٣٧١-٣٧٢، ول ديورانت.

(٥) تاريخ الحضارات العام ٢/ ٤٢٢ (روما وإمبراطوريتها) إشراف: موريس كروزية، الدولة والكنيسة ٢/ ٣٦، د. رأفت عبد الحميد، قصة الحضارة ١١/ ٣٧٢، ٣٧٧، ول ديورانت.

- رفض النصارى تولي المناصب العامة في الحكومة الرومانية فعُدَّ ذلك تهرُّباً من تحمل مسؤوليات المجتمع الذي يحويهم [1].

كما أنَّ انتشار اجتماعات النصارى السريّة والليلية الخفية مع بعضهم، زاد الطين بلة، وزاد حدة الريبة والقلق لدى الحكومة الرومانية من هذه الفئة.

يقول إدوارد جيبون: (إن السياسة الرومانية كانت تنظر بأشد القلق والريبة إلى أية رابطة تقوى وسط رعاياها، وكانت الامتيازات تمنح للهيئات الخاصة في أضيق الحدود، وفي تقتير شديد رغم أن الهيئات كانت ذات أهداف خيّرة بعيدة عن الأذى والضرر. ولكن الجمعيات المسيحية التي انفصلت عن العبادة العامة الشائعة بدت ذات طبيعة أقل براءة. فقد كانت غير مشروعة من حيث المبدأ، وربما باتت خطيرة من حيث العواقب، ولم ير الأباطرة أنهم انتهكوا حرمة قوانين العدالة حين حرَّموا حرصاً على سلامة المجتمع هذه الاجتماعات السريّة والليلية) [2].

ثم أنَّه وبشكل عام، فإنَّ النصارى لم يحترموا المجتمع الروماني، ولا تقاليده الموروثة، بل احتقروه، وعزلوا أنفسهم عنه وعن أنشطته المختلفة، فلم يشتركوا في حفلاته العامة، ولم يقيموا مع هذا الشعب أعيادهم [3].

فحرمت الجماعات النصرانية أن يتزوج النصراني بغير النصرانية، والنصرانية بغير النصراني. وكان النصارى يعرضون ما يقع بينهم من مشكلات قانونية على رؤساء كنائسهم لا على موظفي الدولة [4].

حتى أن الذي يعتنق دين النصارى من الرومان يُؤمرُ بهجر عائلته وأقاربه، وأن يشترك في وحدة

---

(١) الدولة والكنيسة، الجزء الثاني (الوثنية والمسيحية)، ص٣٦، الدكتور: رأفت عبد الحميد.
وانظر، أيضاً إلى: تاريخ الحضارات العام٢/ ٤٢٢، روما وإمبراطوريتها، إشراف: موريس كروزية، قصة الحضارة ١١/ ٣٧٢، ول ديورانت.

(٢) اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ١/ ٢٩٣، إدوارد جيبون.

(٣) قصة الحضارة، ١١/ ٣٧٢، ول ديورانت، الدولة والكنيسة، ٢/ ٣٠، د. رأفت عبد الحميد.

(٤) قصة الحضارة ١١/ ٣٧٢، ول ديورانت.

جماعته الجديدة[1]، فاتّهم النصارى لذلك أنهم يعملون على تشتيت شمل الأسر وخراب البيوت وأنهم يبذرون بذور الشقاق فيها[2].

وعلى ما كان يُتهم به النصارى من التعالي والتكبر على بقية أفراد المجتمع، فقد كان النصارى يمتنعون عن تناول الطعام خارج دورهم، وكانوا يظهرون الشماتة إذا ما حلَّ بالإمبراطور مكروه، وما ادَّعوه من تنبؤات صريحة عن الكوارث والمحن التي تنتظر الإمبراطورية[3]، لذلك يقول المؤرخون إنّ معارضة النصرانيّة جاءت من قبل كثيرٍ من الشعب، فقد أهابوا بحكامهم أن يعاقبوا أولئك الملحدين الذين يهينون آلهتهم الإغريقيّة[4].

ولهذا أخذت الحكومة الرومانية تنظم الاضطهادات ضد النصارى؛ لأنها تراهم فئة تهدد أوضاع الإمبراطورية وسلامتها.

وكثير من المؤرخين يذكرون عادة أشهر عشرة اضطهادات، بدايةً من عهد الإمبراطور نيرون سنة ٦٤م إلى أن اعتلى قسطنطين عرش الإمبراطورية، وصدور مرسوم ميلان للتسامح الديني ومنع الاضطهادات سنة ٣١٣م.

ولقد جاءت هذه الاضطهادات عبر القرون الثلاثة على النحو التالي:

- اضطهادات القرن الأول: في عهد الإمبراطورين: نيرون (٥٤-٦٨م)، ودوميتانوس (٨١-٩٦م).

- اضطهادات القرن الثاني: في عهد الأباطرة: تراجان (٩٨-١١٧م)، وهادريان (١١٧-١٣٨)، وماركوس أوريليوس (١٦١-١٨٠م)، وسبتميوس سافيروس (١٩٤-٢١١م).

- اضطهادات القرن الثالث: في عهد الأباطرة: مكسيمينوس (٢٣٥-٢٣٨م)، وديسيوس

(١) الدولة والكنيسة ٢/ ٣٢، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ١/ ٢٩٤.

(٢) قصة الحضارة، ١١/ ٣٧٢.

(٣) الدولة والكنيسة ٢/ ٣٢، د. رأفت عبد الحميد.

(٤) قصة الحضارة، ١١/ ٣٧٢.

(٢٤٩-٢٥١م)، وفاليريان (٢٥٣-٢٦٠م)، ودقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥م)[١].

ولم يشهد القرنان الأولان اضطهاداً شاملاً موجهاً ضد النصارى، فبقيت محصورة في الزمان والمكان، وكان أشدها ما حصل في عهد نيرون سنة ٦٤ م، نتيجة لحريق نشب في العاصمة روما، اتُّهم فيه النصارى، فعذّبوا لذلك، وقيل إن بطرس وبولس ماتا في هذا الاضطهاد، الذي لم يتعد العاصمة روما، وقد عُرِف هذا الاضطهاد في تاريخ الكنيسة باسم"الاضطهاد الأول"[٢].

أمّا دوميتانوس فقد كان ثاني إمبراطور يتابع سياسة العنف علىٰ النصارى، فقد تأثر إلى حد بعيد بالمرسوم الذي أصدره نيرون المتعلّق بتعذيب النصارى[٣]، وكان من أسباب قوة الاضطهاد الثاني في تاريخ الكنيسة، هو نفوذه إلى مناطق أخرى في الإمبراطوريّة، فلم يقتصر علىٰ روما فقط، وقد كان من أسباب هذا الاضطهاد أنه أُشيع في زمن هذا الإمبراطور (دوميتانوس) أن المسيح مزمع أن يعود إلى الأرض ويملك كل العالم، فخاف أن يتم ذلك في عهده، فنصب هذا الاضطهاد للنصارى[٤].

وبعد هذه الاضطهاد بعشر سنوات ومع بداية القرن الثاني كان الاضطهاد في عهد الإمبراطور (تراجان) فقد عهد هذا الإمبراطور إلى ولاته بتتبع النصارى[٥].

---

(١) انظر: موجز تاريخ المسيحية، ص١٤١، ١٤٣، ١٥٠، للأنبا ديوسقورس، تاريخ الكنيسة، ٢/ ١١٧، جون لوريمر.

(٢) دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة ص٥٨، بقلم الأب جان كمبي. تاريخ العالم، ٤/ ١٧٨، نشر: جون. ا. هامرتن.

(٣) تاريخ الحضارات العام، ٢/ ٤٢٢، روما وإمبراطوريتها، إشراف: موريس كروزية.

(٤) تاريخ العالم، ٤/ ١٧٩، نشر: جون.ا. هامرتن، تاريخ الكنيسة، ص١١٧، يوسابيوس القيصري، ترجمة: القمص مرقس داود، الروم، ص٣٤، الدكتور أسد رستم، موجز تاريخ المسيحية، ص١٤٢، للأنبا ديوسقورس أستاذ التاريخ بالأكليركية وأسقف المنوفية.

(٥) انظر: تاريخ الكنيسة، ص١١٧، يوسابيوس القيصري، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ١/ ٣٠٤، إدوار جيبون، قصة الحضارة، ١١/ ٣٧٣، ول ديورانت، الدولة والكنيسة ٢/ ٣٩ د. رأفت عبدالحميد، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص ٥٩، الأب جان كمبي.

يقول الأنبا ديوسقورس: (بدأ القرن الثاني باضطهاد تراجان الذي استخدم الكلوسيوم ميداناً لتعذيب المسيحيين وإلقائهم للوحوش. فطرح في ساحته الكثيرين)[1].

وفي عهد الإمبراطور هادريان كان اضطهاد النصارى مقروناً بمخالفة قوانين الإمبراطورية، فقد أرسل رسالة إلى ولاته، ومما جاء فيها: (... فإذا رغب أهالي الولاية رغبة صادقة في تدعيم شكواهم ضد المسيحيين، برفع قضية ضدهم إلى المحكمة فلستُ أمنعهم من اتخاذ هذا الطريق. ولكني لا أسمح لهم أن يستغلوا مطالب الجماهير وهياجهم... فإذا تقدم إليك أحد باتهام، واستطاع أن يثبت أنَّ أشخاصاً بالذات قد ارتكبوا شيئاً مخالفاً للقانون، فعليك أن تطبق العقوبات المناسبة للجرائم)[2].

وفي عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس، حلّت في الإمبراطوريّة، الكوارث من فيضان، ووباء، وحرب...، فساد الاعتقاد بأنَّ سبب هذه الكوارث هو إهمال آلهة الرومان أو إنكارها، فأصدر بسبب ذلك في عام ١٧٧م مرسوماً يقضي بعقاب الشيع الدينية المخالفة لما عليه الإمبراطور والشعب الروماني، وعلى رأسها النصرانيّة، فهي في نظر الإمبراطور سبب هذه الكوارث، فثارت الجماهير في تلك السنة ثورة عنيفة على النصارى[3].

وقد كان من أعمّ الاضطهادات التي وقعت على النصارى ما كان في عهد الإمبراطور (سبتميوس سافيروس) في سنة ٢٠٣م، فقد امتد إلى أغلب مدن الإمبراطوريّة من روما إلى الإسكندريّة، لذلك يُسمى بـ(الاضطهاد المسكوني الأول) ومع انتشاره وقوته إلا أنه استمر سنة واحدة فقط[4].

---

(١) الكلوسيوم: هو مدرج مستدير أقامه أباطرة الرومان على مساحة كبيرة تتسع لعشرات الآلاف من المتفرجين، وفي وسطه ساحة تدعى (إيرينا) مملوءة بالرمال يُلقى فيها أسرى الحروب أو لمصارعة الوحوش. انظر: موجز تاريخ الكنيسة ص ١٤٣، للأنبا ديوسقورس.

(٢) تاريخ العالم، ٤/ ١٨١، نشر: هامرتن.

(٣) تاريخ الحضارات ١١/ ٣٧٥، ول ديورانت.

(٤) تاريخ الكنيسة، ٢/ ٢٩-٣٠، جون لوريمر.

وكانت من شدة هذا الاضطهاد أن التعميد نفسه كان يعد جريمة تستحق العقاب[1]، ومما يُميِّز هذا الاضطهاد أنه لحق حتى الجنس النسائي من النصارى [2].

أمّا في عهد مكسيمينوس (٢٣٥-٢٣٨م)، فقد اقتصر الاضطهاد على قادة الكنائس، على أساس أنهم هم المسؤولون عن تعليم الإنجيل[3].

وكان الاضطهاد الذي وقع في عهد الإمبراطور ديسيوس الذي جلس على عرش الإمبراطورية سنة ٢٤٩م أعنف من سابقه، وأشمل، فقد كان ديسيوس يكره النصارى كرهاً شديداً، ومن أقواله في ذلك: (أنه يُفضِّل أن يسمع أنَّ هناك منافساً له على العرش من أن يسمع أن أسقفاً جديداً قد قام في روما) [4].

وقد انتهى اضطهاد ديسيوس بموته سنة ٢٥١م، غير أن سياسته سرعان ما عادت من جديد على عهد الإمبراطور فاليريان، خاصة في ٢٥٧م، عندما أصدر مرسوم ضد رجال الكنيسة يمنع فيه العبادة النصرانيّة، ويأمر بتقديم الذبائح للآلة الرومان، ثُمَّ أعقب المرسوم الأول بمرسوم ثان في سنة ٢٥٨م كان أشد ضراوة وقسوة[5].

ثم كان اضطهاد الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥م) آخر الاضطهادات الرومانية التي حلت بالنصارى، وكان أشدها وأعنفها [6].

---

(١) قصة الحضارة، ١١/ ٣٧٦، ول ديورانت.

(٢) موجز تاريخ المسيحية، ص١٤٨، الأنبا ديوسقودس.

(٣) تاريخ الكنيسة، ص٢٧٧، يوسابيوس القيصري، ترجمة القمص: مرقص داود.

(٤) تاريخ الكنيسة، ٢/ ٧٤-٧٧، جون لوريمر، موجز تاريخ المسيحية، ص١٥٠ -١٥٢، للأنبا ديوسقودس، وتاريخ الكنيسة، ص٢٨٦، يوسابيوس القيصري.

(٥) تاريخ الكنيسة، ص٣٠٩-٣١٦، يوسابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة، ٢/ ٧٦-٧٧، جون لوريمر، قصة الحضارة، ١١/ ٣٧٨، ول ديورانت، الدولة والكنيسة، ٢/ ٤٦، د. رأفت عبد الحميد.

(٦) دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص٦٥، الأب جان كمبي، قصة الحضارة، ١١/ ٣٨١، ول ديورانت.

وكان دقلديانوس يرى أن السماح للكنيسة أن تزداد قوة وتركُزاً كان معناه السماح بإقامة حكومة معارضة في داخل الدولة، هو أمر قد ينقلب في أي لحظة فيصبح خطراً سياسياً[1].

قال أسقف قيصريّة فلسطين، مؤرخ الكنيسة الأوّل، يوسابيوس القيصري، المتوفي سنة ٣٤٠م، واصفاً اضطهاد دقلديانوس، فقد لحقه وهو صغير: (في السنة التاسعة عشرة من حكم دقلديانوس في شهر (ديستروس) الذي يسميه الرومان (مارس)، إذ كان عيد آلام المُخلِّص قد قرب، أذيعت أوامر ملكية في كل مكان تأمر بهدم الكنائس إلى الأساس، وحرق الكتب المقدسة في النار، وطرد جميع ذوي المناصب الرفيعة، وحرمان خدم البيت من الحرية إذا أصروا على الاعتراف بالمسيحية.

هذا هو الأمر الأول الصادر ضدنا، وبعد ذلك بوقت قصير صدرت أوامر أخرى تأمر أن يُزج بجميع رؤساء الكنائس في السجن أولاً، وبعد ذلك يلزموا بالذبح للأوثان... فسجن عدد وفير في كل مكان، وامتلأت السجون، في كل الأرجاء المعدة للقتلة واللصوص بالأساقفة والقسس والشمامسة والقرّاء وطاردي الأرواح النجسة، حتى لم يبق فيها مكان للمجرمين)[2].

أسانيد أناجيل النصارى ورسائلهم:

وبعد الكلام عن الاضطهادات الرومانية التي وقعت على أتباع النصرانيّة، وقبل أن أخوض في الحديث عن (العصر الذهبي للنصارى)، أود أن أقف وقفة أعتقد أنها مهمة جداً، وهي أنَّ تلك الفترة العصيبة التي مرت على النصارى قد دونت فيها أناجيلهم وكتبت فيها رسائلهم، خاصة من سنة ٧٠م إلى سنة ١١٠م[3].

---

(١) تاريخ العالم، ٤/ ١٨٦، نشر: جون. ا. هامرتن.

(٢) تاريخ الكنيسة، ص٣٥٣، ٣٥٨، يوسابيوس القيصري.

(٣) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص٧٥، د. موريس بوكاي.
علماً وكما مر ذكره بأنه كان قبل هذا التاريخ اضطهادات متفرقة حتى بدأ أول اضطهاد منظّم بقانون إمبراطوري روماني في سنة (٦٤م) في عهد الإمبراطور (نيرون).
وانظر في تفاصيل تاريخ تدوين أناجيل النصارى ورسائلهم، إلى كتاب بعنوان: الكتاب المقدس سفراً سفراً، للباحث النصراني: عايد هنري، وكذلك إلى كتاب: مدخل إلى الكتاب المقدس، إعداد مجموعة من النصارى، إشراف مكتبة دار الثقافة المسيحيّة.

فهل يمكن إثبات سند متصل لشيء كتب في هذه الفترة العصيبة؟

الحق أن هذه الاضطهادات التي قارنت النصرانية منذ عهودها الأولى جعلت كل عمل يقومون به في شؤونهم الدينية سراً لا جهراً، وفي خفية من العيون المتربِّصة، والأعداء المترقبين، والسرية يحدث في ظلمتها ما يجعل العقل غير مطمئن إلى ما يحدث فيها، فلا مانع من أن يُدس على خبر اجتماعاتها ما لم يجر فيها، وينقل عن أشخاص ما لم يقولوه، ولاسيما إذا كان الظرف مواتياً للتحريف نظراً لقلة النسخ وكثرة الاضطهاد، وهم يذكرون وقائع من قتل وملاحقة ومحاولة إبادة حصلت لهم، ما لو كان صحيحاً لقلت النسخ وانقطع سندها[1].

يقول الشيخ رحمت الله الهندي: (ولأجل الحوادث المذكورة فُقدت الأسانيد المتصلة لكتبهم، ولا يوجد عندهم سند متصل...، وطلبنا مراراً من القسيسين العظام السند المتصل فما قدروا عليه، واعتذر بعض القسيسين في محفل المناظرة التي كانت بيني وبينه [2] فقال: (إنَّ سبب فقدان الإسناد عندنا وقوع المصائب والفتن على المسيحيين إلى مدة ثلاثمائة وثلاث عشرة سنة)، ونحن تفحصّنا كتب الإسناد لهم فما رأينا فيها شيئاً غير الظن والتخمين، وبهذا القدر لا يثبت السند)[3].

خاصة أن الاضطهاد الأخير في زمن دقلديانوس ابتداءً ركَّز أكثر على كتب النصارى المقدسة، فأحرقت، وهُدِّمت الكنائس، ومُنع اجتماع النصارى مع بعضهم[4].

وأهل العقول يُدركون أنّ السند المتصل لكتاب ما، والذي يطمئن إليه العقل معه فيغلب على ظنه أنه صادق النسبة لمن نسب إليه؛ هو أن يروي ثقة عن ثقة مثله، حتى يصل السند إلى من لقي

---

(١) انظر: محاضرات في النصرانية، ص ٤١، الشيخ: محمد أبو زهرة، والكتب المقدسة في ميزان التوثيق، ص١١٧، عبدالوهاب عبدالسلام طويلة.

(٢) هما القسيس فندر، ومساعده القسيس فربخ، انظر: المناظرة الكبرى بين الشيخ رحمت الله والدكتور فندر، ص ٢٧٣، تحقيق د. محمد أحمد ملكاوي.

(٣) إظهار الحق، ٢/ ٦١٦-٦١٧، رحمت الله الهندي، تحقيق د. ملكاوي.

(٤) دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص٦٥، بقلم الأب جان كمبي.

المؤلف، فيقول: سمعته منه، أو تلقيته عنه، أو قرأته عليه، كما ترى في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكون كل راو من تلك السلسلة المتصلة حلقاتها عدلاً ثقة، ضابطاً حافظاً.

وهذا ما لم يكن في كتب النصارى المقدسة، فقد ذاعت بعد سنة ٣٦٤، ومن نسبت إليهم كتابتها كانوا في وسط وآخر القرن الأول، ولم يكن هناك سند متصل موثوق به في الفترة التي بينهما، لذا فالعقل يتشكك في هذه النسبة، ولا يثبت مع الشك كتاب يكون حجة لديانة[1].

---

(١) محاضرات في النصرانية، ص١١٠، فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة.

ومن التنبيهات على التحريفات الخفيّة التي حصلت في كتب النصارى المقدسة عندهم، ما قاله د. موريس بوكاي: (إنّ صحة أي نص، حتى أكثر النصوص احتراماً، قابلة دائماً للنقاش. إنّ المخطوطة المعروفة باسم Codex Vaticons تعطي مثالا على ذلك. فطبعتها المطابقة للأصل التي أعادتها الفاتيكان عام (١٩٦٥م) تحتوي على تنبيه من المصدر نفسه يخبرنا (بأنه بعد مرور قرون على النسخة - القرن العاشر أو الحادي عشر كما يعتقد - حبَّر أحد النُّسَّاخ كل الحروف ما عدا التي رأى أنها خطأ). وهناك عبارات من النص ما زالت فيه الحروف الأولى، وهي بنية اللون، ترى بشكل واضح، وتصر على البقاء وتتباين مع بقية النص الذي كتب بحبر بني غامق. ولا شيء يسمح بتأكيد أن ترميم النص كان أمينا. وبالإضافة إلى ذلك فالتنبيه يحدد ما يلي: (لم نتمكن حتى الآن من أن نميّز بشكل نهائي مختلف الأيدي التي صحّحت المخطوطة ووضعت عليها الحواشي عبر القرون، ولا شك أن عددا من التصحيحات قد عمل ساعة تحبير النص). ومع ذلك فكل كتب التعليم الديني تقدم هذه المخطوطة على أنها نسخة من القرن الرابع)، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص١٠٥، د. بوكاي.

القسم الثالث: العصر الذهبي للنصارى، وترسيخ الانحراف في دينهم:

ويبدأ هذا العصر وهذه الفترة الذهبية للنصارى منذ تربع الإمبراطور قسطنطين على عرش الإمبراطورية الرومانية، وصدور مرسوم (ميلان) سنة ٣١٣م للتسامح مع الأديان.

وقبل أن أبدأ بالحديث عن هذه الفترة، أودّ أن أنبه إلى أنّه قبل أن يبدأ الاضطهاد الأخير للنصارى والذي شنَّه عليهم الإمبراطور دقلديانوس ابتداءً من سنة (٣٠٣م)، كانت هناك فترة هادئة للنصارى ازداد فيها عددهم ودعوتهم لدينهم، واعتنق النصرانيّة وقتئذٍ عدد من الأغنياء، وبُنيت كنائس فخمة، وكانت هذه الفترة في وقت حكم الإمبراطور (جالينوس) فقد أصدر هذا الإمبراطور في سنة (٢٦١م) مرسوم تسامح فعاشت الكنيسة طوال أربعين سنة سلاماً شبه تام[1].

فظلت الكنيسة تنعم في هذه الفترة بالأمن حتى قام الإمبراطور دقليانوس بالمحاولة الأخيرة لاقتلاع النصرانية[2].

الإمبراطور قسطنطين ودوره في الاستتباب السياسي، والانحراف الديني:

التعرف إلى شخصية الإمبراطور قسطنطين مهم جداً لمن أراد أن يبحث في هذه الفترة المهمة في حياة النصارى، بل هو حجر الزاوية في تاريخهم، وتاريخ كنائسهم، حيث يعتقد النصارى أنّ توليه لعرش الإمبراطورية الرومانية فاتحة خير عليهم وعلى ديانتهم وعلى الكنيسة، فقد أنهى هذا الإمبراطور عصور الاضطهادات التي حلت بالنصارى، وأصبحوا منذ عهده في حرية تامة، بل لهم اليد الطولى في الإمبراطورية الرومانية، وأصبح رجال دينهم من آباء وقسس يتمتعون بالمناصب العليا في الدولة، حتى أصبحت رتبة البابا، في العهود التي بعده، في بعض الأوقات متساوية مع رتبة الإمبراطور نفسه، بل في بعضها الآخر أعلى منه.

---

(١) دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص٦٤، للأب جان كُمبي، قصة الحضارة، ١١/ ٣٧٨، ول ديورانت.

(٢) تاريخ العالم، ٤/ ١٨٥، نشر: جون. ا. هامرتن

الإمبراطور قسطنطين:

هو قسطنطين بن قسطنطيوس كلوروس، وأُمه هيلانة [١]. وليس معروفاً على وجه التحديد تاريخ ولادته ولكن ذهب أكثرهم إلى أنه سنة (٢٨٠م)[٢] في سيس [٣].

نشأ قسطنطين في حاشية الإمبراطور دقلديانوس، والتحق بالجيش في الخامسة عشرة من عمره. وأظهر شجاعة وبأساً وحنكة ودراية فَرُقّي إلى رتبة قائد في الجيش في الثامنة عشرة من عمره [٤].

حالة الإمبراطورية الرومانية في وقت نشأة قسطنطين:

الحكومة الرباعية الأولى:

كانت الإمبراطورية الرومانية في وقت نشأة قسطنطين قد اتسعت رقعتها إلى حد أنّ الإمبراطور دقلديانوس لم يستطيع أن يحكمها بنفسه فتنازل عن الانفراد بحكم الدولة وأشرك معه في الحكم صديقه مكسيمان الذي أصبح يُلقب أيضاً بالإمبراطور، وتم اختار رجلين أطلق عليهما لقب (قيصر) لمساعدتهما في حكم الإمبراطورية، وهما: جاليريوس، ووالد قسطنطين (قسطنطيوس).

---

(١) ذهب الإمام ابن القيم الجوزية إلى أن قسطنطين ابن هيلانة ابن شرعي من زواجها من قسطنطيوس، فقال: (قسطنطيوس أبو قسطنطين، كان ديّناً مُبغضاً للأصنام محباً للنصارى فخرج إلى ناحية الجزيرة والرها (مدينة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ) فنزل في قرية من قرى الرها فرأى هناك امرأة جميلة يقال لها هيلانة، وكانت قد تنصرت على يد أسقف الرها، وتعلمت قراءة الكتب فخطبها قسطنطيوس من أبيها فزوَّجها منه، فحبلت منه، وولدت قسطنطين فتربى بالرها وتعلم حكمة اليونان)، هداية الحيارى، ص٥٥٠ تحقيق: د. محمد احمد الحاج.
بينما ذهب ول ديورانت صاحب كتاب قصة الحضارة إلى أن قسطنطين ابن غير شرعي من هيلانة. فقال: (وكان فلافيوس قسطنطين قد بدأ حياته في نايسس ابناً غير شرعي لقسطنطيوس من محظيّته هيلانة، خادمة إحدى الحانات في بيثينيا) ١١/ ٣٨٢.

(٢) انظر: تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ص٤٧ د. السيد الباز العريني، ودليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص٩٤ للأب جان كمبي، والروم، ١/ ٥١ د. أسد رستم.
وذهب بعض الباحثين إلى أن ولادته كانت سنة (٢٧٤م)، ومنهم الأنبا ديوسقورس أستاذ التاريخ بالاكليريكيّة وأسقف المنوفية، في كتابة: موجز تاريخ المسيحية، ص١٦٣.

(٣) سيس ويقال لها ناسيس، ويقال لها (نيش) وهي كرواتيا وصربيا في أيامنا هذه. انظر: دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص٩٤، للأب جان كمبي، والروم وصلاتهم بالعرب، ١/ ٥١، د. أسد رستم.

(٤) الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، ١/ ٥١، د. أسد رستم

فالإمبراطور دقلديانوس (يُسمى أوغسطس)، وكان في الشرق وعاصمته (نيقوميدية) وكانت له الكلمة الأولى على كل الدولة، والإمبراطور مكسيميان يُسمى أيضاً أوغسطس، وكان في الغرب وعاصمته (ميلان)، وجاليريوس يُسمَّى قيصراً، وكان يحكم اليونان ومقدونية، وقسطنطيوس أبو قسطنطين يُسمَّى قيصراً يحكم الجزء الأكبر من بلاد الغال (بريطانيا وإسبانيا وما حولها)[1].

وقد بدأ نظام الحكومة الرباعيّة هذا وطيد الأركان، وذهب المؤرخون إلى أن هذا الثبات لم يكن يعود إلى هذا النظام، وإنّما يعود إلى قوة وسطوة الإمبراطور الأكبر دقلديانوس، والتي وضعت حداً لطموح شركائه[2].

الحكومة الرباعية الثانية والتنازع على الحكم:

في مايو سنة (٣٠٥م) عزم كل من دقلديانوس ومكسيميان أن يتخليا عن منصبيهما لِكبَرهما، ولأن دقلديانوس وضع حداً من السنين إذا وصل إليه الإمبراطور وهو على رأس الحكم يجب عليه أن يتنازل عن الحكم، والمدة هي (عشرون عاماً).

ارتقى قسطنطيوس وجاليريوس المنصب الإمبراطوري في السنة ذاتها (٣٠٥م) فكان الغرب تحت حكم قسطنطيوس، والشرق تحت حكم جاليريوس. وعيَّن الإمبراطوران الجديدان قيصرين جديدين هما: سفيروس على إيطاليا وإفريقية، ومكسيمين على سورية ومصر، علماً بأن سفيروس ومكسيمين من رجال جاليريوس الخاصِّين، فأضحى جاليريوس في حقيقة الأمر يسيطر على ثلاثة أرباع الإمبراطورية الرومانية[3].

وفي سنة ٣٠٦م أي بعد سنة من تولي قسطنطيوس حكم الغرب بمرتبة (أوغسطس) أي إمبراطور

(١) قصة الحضارة، ١١/ ٣٨٢، ول ديورانت، تاريخ أوروبا (العصور الوسطى) ص٣٥ د. السيد الباز العريني، الروم وصلاتهم بالعرب ١/ ٥٢، د. أسد رستم، تاريخ الكنيسة، ٢/ ١١٠، جون لوريمر، موجز تاريخ المسيحية، ص١٦٣، للأنبا ديوسقورس.

(٢) الدولة والكنيسة، الجزء الثاني (الوثنية والمسيحية) ص٦١، د. رأفت عبدالحميد.

(٣) تاريخ أوروبا (العصور الوسطى)، ص٤٤، د. السيد الباز العريني، الروم وصلاتهم بالعرب ١/ ٥٢، د. أسد رستم، الدولة والكنيسة، ٢/ ٦١-٦٥، د. رأفت عبدالحميد، موسوعة تاريخ العالم، ١/ ٣٢٦، وليام لانجر.

تعرضت بريطانيا لغزو من قبائل البربر الخارجين عن الإمبراطوريّة، وعلى رأسهم الأُسكتلنديين، فبادر قسطنطيوس بالتوجه إليها ولحق به ابنه قسطنطين، فأحرز قسطنطيوس انتصارات باهرة، غير أنه لم يلبث أن مات في خروجه هذا سنة ٣٠٦م، فنادى العساكر بابنه قسطنطين إمبراطوراً مكان أبيه.

وبعد أشهر قليلة من ذلك شهدت الإمبراطورية الرومانية حالة من الفوضى، برزت فيها قوة شخصية قسطنطين وبراعته في الناحية العسكرية والسياسية وفيها أيضاً انجذب إلى النصرانية وأصدر مرسوم ميلان للتسامح مع الأديان[1].

وهذه الحالة من الفوضى التي شهدتها الإمبراطورية الرومانية سأذكرها باختصار، وهي: عندما نادى العسكر في بريطانيا بقسطنطين إمبراطوراً بعد موت أبيه، وكردة فعل في إيطاليا، والخوف من إمبراطور الشرق (جاليريوس) أن يكون إمبراطورياً أوحداً في الدولة، نادى العسكر في إيطاليا بماكسنتيوس بن ماكسيميان الإمبراطور السابق إمبراطوراً عليها، وذلك في ٢٨ أكتوبر سنة ٣٠٦م، وفي هذا الوقت عادت شهوة الحكم إلى قلب الإمبراطور السابق ماكسيميان الوالد المستقيل، فأعلن نفسه إمبراطوراً أيضاً، فتنازل الولد لوالده بهذا اللقب وأصبح لقبه قيصراً. فأصبح للدولة الرومانية في ذلك الوقت ثلاثة أباطرة وهم: قسطنطين في بلاد الغال (بريطانيا وما حولها)، وجاليريوس في الشرق، وماكسيميان في إيطاليا، وكذلك ثلاثة قياصرة وهم ماكسنتيوس ابن ماكسيميان في إيطاليا، وسيفروس على إفريقية حيث نُزعت منه إيطاليا بالقوة، ومكسيمين على سورية ومصر.

ذعر جاليريوس من هذه الفوضى حيث كان يعد نفسه المسؤول عن الدولة الرومانية بشكل عام، فطلب من دقلديانوس الإمبراطور الأكبر السابق الذي تنازل عن عرشه لمرضه وكبر سنه أن

---

(١) قصة الحضارة، ١١/ ٣٨٢، ول ديورانت، تاريخ الكنيسة، ٢/ ١١٧، جون لوريمر، تاريخ أوروبا (العصور الوسطى) ص٤٥ د. السيد الباز العريني، المسيح ﷺ في دين الإسلام، ص٤٩، عبدالملك كليب، الدولة والكنيسة، ٢/ ٦٦، د. رأفت عبدالحميد.

يعقد اجتماعاً لحل هذه المشكلة خاصة في ظل ظروف جاليريوس الصحية.

انعقد هذا الاجتماع وقُرِّر فيه، أمور منها:

إجبار ماكسيميان على التنازل، وإبعاد ابنه ماكسنتيوس واعتباره مغتصباً للحكم، والإبقاء على سفيروس ومكسيمين على ما كان عليه من قبل، وإنزال قسطنطين من مرتبة أوغسطس إمبراطور إلى مرتبة قيصر، وتعيين أوغسطس إمبراطور جديد هو فاليريوس ليكينيانوس ليكينيوس.

لم ترق هذه القرارات لكل من قسطنطين وماكسيميان وابنه ماكسنتيوس لأن كل من هؤلاء الثلاثة كان يطمع أن يكون الإمبراطور الأوحد في الغرب.

فأما سفيروس فقد تخلى عنه جنوده وقتلوه سنة ٣٠٧م، ونادى الجنود بماكسنتيوس إمبراطوراً على الغرب في سنة ٣٠٨م، وحصل خلاف بينه وبين أبيه ماكسيميان، ففرَّ الأب هو وعائلته إلى قسطنطين في بلاد الغال ليكون في حِماه، وهناك اعترف ماكسيميان بقسطنطين إمبراطوراً أكبرَ في الغرب وزوّجه بابنته فاوستا.

ولكن ماكسيميان عاد إلى الثورة وحاول أن يحيك المؤامرات لزوج ابنته قسطنطين وحاول أن يجر معه ابنته فاوستا في هذا السبيل، ولكنَّها أفضت إلى زوجها بذلك، وتم اكتشاف المؤامرة وإحباطها في مهدها وأُعدم ماكسيميان سنة ٣١٠م.

لم يكد يمضي على هذه الأحداث عام حتى مات الإمبراطور جاليريوس في مايو ٣١١م فأضحت الإمبراطورية الرومانية تحت سيطرة الأربعة الباقين وهم: قسطنطين، وماكنتيوس، وماكسيميان، وليكينيوس، فأعطى موت جاليريوس إشارة البدء في ذلك الصراع المتوقع بين الأباطرة الأربعة[1].

وكان الصراع في الشرق بين ليكينيوس ومكسيمين، كما أن الصراع في الغرب بين قسطنطين

---

(١) موسوعة تاريخ العالم ١/ ٣٢٦ - ٣٢٧، وليام لانجر، قصة الحضارة ١١/ ٣٨٣، ول ديورانت، تاريخ أوروبا (العصور الوسطى) ص٤٥، الدولة والكنيسة، ٢/ ٦٧-٧٣، د. رأفت عبدالحميد، د. السيد الباز العريني، الروم وصلتهم بالعرب ١/ ٥٢-٥٣، د. أسد رستم.

وماكسنتيوس؛ خاصة أن ماكسنتيوس وجد في مقتل أبيه (ماكسيميان) على يد قسطنطين فرصة لإشعال نيران الحرب ضده [1]، فبدأت نار الحرب تشتعل أولاً بين أباطرة الغرب قسطنطين ضد ماكسنتيوس [2].

قسطنطين ورمز النصرانية في المعركة الفاصلة:

يذكر مؤرخو النصرانية أنه في السابع والعشرين من شهر أكتوبر في عام ٣١٢م حيث كان الإمبراطور قسطنطين يتجهّز لملاقاة عدوه ماكسنتيوس في معركة فاصلة بينهما من ينتصر فيها يصبح الإمبراطور الأوحد للقسم الغربي للإمبراطورية الرومانية؛ رأى الإمبراطور قسطنطين رؤيتين، إحداهما في اليقظة، والأخرى في المنام، بعدهما صار في صف النصرانية.

ففي ظهر يوم المعركة الفاصلة بينه وبين ماكسنتيوس، كما يقول يوسابيوس (قال أي قسطنطين: إنَّه رأى بعينيه صليباً من نور في السماء، فوق الشمس، يحمل هذه الكتابة (أغلب بهذا)، فذُهل أمام هذه الرؤيا، وكذا كل جيشه الذي رافقه في هذه الحملة، وشهد هذه المعجزة.

وعلاوة على هذا قال: إنَّه خامرته الشكوك في داخله في معنى هذه الرؤيا، وبينما هو يتأمل ويُفكر في فحواها أقبل الليل فجأة، ثم ظهر له في نومه مسيح الله بالعلامة نفسها التي رآها في السماء، وأمره بأن يصنع مثالاً لهذه العلامة التي رآها في السماء، وأن يستعملها وقاية له في حروبه كلها مع أعدائه.

وفي الفجر استيقظ، وأنبأ أصدقاءه بالأمر العجيب الذي رآه، ثم استدعى الصُنّاع الذي يعملون في الذهب والأحجار النفيسة، وجلس في وسطهم، ووصف لهم هيئة العلامة التي رآها وأمرهم بأن يصنعوها من ذهب وحجارة كريمة.

وقد صنعت بهذه الكيفية التالية: عمل الصليب من حربة طويلة مغشاة بالذهب يستعرضها

(١) الدولة والكنيسة، ٢/ ٧٨، د. رأفت عبدالحميد.

(٢) قصة الحضارة ١١/ ٣٨٤، ول ديورانت.

قضيب، وفي قمة الكل ثبت إكليل من ذهب وحجارة كريمة، وفي وسط هذا ثبت رمز لاسم المخلص، حرفان يُعبران عن اسم المسيح بحروفه الأولى، فالحرف (أ) يستعرضه الحرف x في وسطه (٢). وفيما كان الإمبراطور يضع هذين الحرفين على قبعته... أمر بأن تُعمل أحرف مثيلات لها لتوضع على رؤوس كل جيشه)[١].

وعندما دارت رحى الحرب انتصر قسطنطين انتصاراً عظيماً، وفر ماكسنتيوس فدخل قسطنطين روما ظافراً، وأصبح إمبراطور الغرب بلا منازع، وهنا اعتقد قسطنطين أنه قد انتصر بواسطة إيمانه بصليب النصارى، فأصدر أمراً برفع الاضطهاد عنهم، ومنح الحرية الدينية لهم، وأظهر لهم أعظم مظاهر الاحترام والإكرام، وعطف عليهم بالقول والفعل، كما أنّه دفع من موارده الخاصة هبات كثيرة لكنائسهم[٢].

وبذلك أحرزت النصرانية انتصارها الأول، وتقرر إقامة تمثال لقسطنطين في روما، وبيمينه الصليب، رمزاً لهذا الانتصار[٣].

أمّا في الشرق فكانت المعارك دائرة بين الإمبراطورين ليكينيوس ومكسيمين، واستطاع ليكينيوس أن يهزم خصمه مكسيمين وينفرد بحكم القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية.

فأصبح في الدولة الرومانيّة إمبراطوران، أحدهما في الغرب وهو قسطنطين والآخر في الشرق وهو ليكينيوس[٤].

مرسوم البراءة والحرية في ميلان في عام ٣١٣م:

استمرت المعاهدة بين الإمبراطورين قسطنطين وليكينيوس وقويت أكثر بعد انتصارهما على

---

(١) حياة قسطنطين العظيم، ص٣٢ - ٣٤ لمؤرخ الكنيسة الأول يوسابيوس القيصري.

(٢) المرجع السابق، ص٤٣، يوسابيوس القيصري.

(٣) تاريخ أوروبا (العصور الوسطى) ص ٤٣، السيد الباز العريني.

(٤) تاريخ الكنيسة، ٢/ ١١٩، جون لوريمر، قصة الحضارة، ١١/ ٣٨٥، ول ديورانت، تاريخ أوروبا (العصور الوسطى)، ص٤٩، د. السيد الباز العريني.

خصميهما وتُوِّجت بزواج ليكينيوس من قسطنطينا أخت قسطنطين.

اجتمع قسطنطين بحليفه ليكينيوس في ميلانو في عام ٣١٣م، وفي أثناء إقامة الاحتفال بمراسيم زواج ليكينيوس بقسطنطينا، أقاما الإمبراطوران اجتماعات انتهت إلى تقرير سياسة معينة اتفق الطرفان على التزامها، وكان من بين الموضوعات التي تناولتها المحادثات بينهما: مسألة معاملة الرعايا النصارى في الدولة، وتعهّدا بمنح الحرية الدينية لكل سكان الدولة شريطة ألا تتعارض هذه الحرية مع الصالح العام للدولة[(١)].

وبهذا المرسوم أصبحت النصرانيّة، ديناً له وزنه داخل الإمبراطوريّة الرومانيّة، بعد ثلاثة قرون من الاضطهاد[(٢)].

---

(١) ومما جاء في مرسوم ميلان بين الإمبراطورين:
عندما حضرنا إلى ميلان في ظروف طيبة، أنا قسطنطين أوغسطس، وأنا ليكينيوس أوغسطس، وتأملنا في كل ما يؤول إلى الخير العام ورفاهية الشعب، اعتزمنا فيما اعتزمناه، أو على الأصح اعتزمنا أول كل شيء، أن نصدر الأوامر التي تعود بالخير على كل واحد من وجوه كثيرة، أي تلك التي تحفظ الإكرام لله، وتقواه أي أننا اعتزمنا منح المسيحيين، وكذا كل الناس الحرية لاتباع الديانة التي يختارونها.
لذلك قررنا، بقصد سليم مستقيم، أن لا يحرم أي واحد من الحرية لاختيار واتباع ديانة المسيحيين، وأن تعطى الحرية لكل واحد لاعتناق الديانة التي يراها ملائمة لنفسه، لكي يظهر لنا الله في كل شيء لطفه المعهود وعنايته المعتادة.
وقد رأيناه مناسباً أن نكتب بأنه قد تركت نهائياً تلك الحالات التي تضمنتها رسالتنا السابقة عن المسيحيين، فيسرنا إلغاء كل ما يبدو قاسياً جداً وغير متفق مع لطفنا، وكل من يريد اتباع ديانة المسيحيين فليسمح له بهذا دون أدنى إزعاج، وأننا منحنا لهؤلاء المسيحيين كامل الحرية لممارسة فرائض ديانتهم.
وطالما كنا قد منحناهم هذا الحق باختيارنا، وأن الحرية ممنوحة أيضاً للآخرين الذين يريدون ممارسة فرائض ديانتهم. ومما يتفق مع الهدوء الشامل في أيامنا أن يكون لكل واحد حرية اختيار وعبادة أي إله يريد. وقد فعلنا هذا لكي لا يظن بأي شكل من الأشكال أننا متحاملون على أية طبقة أو ديانة.
انظر: تاريخ الكنيسة، ص٤٤٤-٤٤٥ (الفصل الخامس من الكتاب العاشر (١٠: ٥)، يوسابيوس القيصري، ترجمة: القمص مرقس داود الدولة والكنيسة،٢/ ١١١، د. رأفت عبد الحميد، وتاريخ العصر الوسيط، ص٦٩، د. نور الدين حاطوم، أوروبا العصور الوسطى،١/ ٥٥، د. سعيد عبدالفتاح عاشور، تاريخ أوروبا (العصور الوسطى)، ص٤٨ ٥١، د. السيد الباز العريني، قصة الحضارة،١١/ ٣٨٥، ول ديورانت

(٢) تاريخ الكنيسة، ص٤٢٨، الفصل الأول من الكتاب العاشر، يوسابيوس القيصري، الدولة والكنيسة، ٢/ ١١٣، د. رأفت عبدالحميد.

تفرد الإمبراطور قسطنطين بحكم الدولة الرومانية:

أضحت الدولة الرومانية يقتسمها إمبراطوران، قسطنطين في الغرب، وليكينيوس في الشرق، ولكن كلا الحاكمين لم يفارقه قط أمله في أن يكون صاحب السيادة وحده علىٰ الدولة جميعها[1]، فحصل بينهما من دواعي الصدام كتنازعهما السيادة علىٰ بعض المناطق الواقعة بين بلاديهما، والمؤامرة التي اشترك في تدبيرها ليكينيوس ضد قسطنطين والقيود التي فرضها ليكينيوس علىٰ النصارى، وطردهم من البلاد والجيش والإدارة، ذلك كله أدى إلى نشوب الحرب بين الإمبراطورين.

وبعد مناوشات حربيّة دارت بينهما، قامت الحرب الفاصلة بينهما في ١٨ سبتمبر من عام ٣٢٤م، هزم فيها ليكينيوس، فانتهت بذلك مكانته كإمبراطور للشرق، وعندها أصبح قسطنطين هو الإمبراطور المتفرد بحكم الدولة الرومانية[2].

يقول الأب جان كمبي بعد ذكره لتفرد قسطنطين بحكم الإمبراطورية الرومانية سنة ٣٢٤م: (ويجوز اعتبار هذا التاريخ البداية الحقيقية للإمبراطورية المسيحية)[3].

وفي واقع الأمر فإن قسطنطين من وقت تفرده بالقسم الغربي من الإمبراطورية في عام ٣١٢م، مروراً بمعاهدة ميلان، ومن ثمّ تفرده بالإمبراطوريّة في عام ٣٢٤م، لم يساو النصرانية بباقي أديان الإمبراطورية فقط، بل تعدى الأمر إلى جعل الدين النصراني يعلو أكثر من أي دين آخر في الإمبراطورية حتى الأديان القديمة فيها.

ومن الأمور التي خصّ بها النصرانية:

- أنه أرسل رسائل خاصة للنصارى في أرجاء الإمبراطورية، ومن أشهر هذه الرسائل: رسالته إلى نصارى فلسطين، يمدح فيها ربهم ونواميسهم المقدسة، ولم يرسل مثل هذه الرسائل إلى باقي

(١) قصة الحضارة، ١١/ ٣٨٥، ول ديورانت.

(٢) تاريخ أوروبا (العصور الوسطى)، ص٤٩، د. السيد الباز العريني، موسوعة تاريخ العالم، ١/ ٣٢٧، وليام لانجر، قصة الحضارة، ١١/ ٣٨٥ - ٣٨٦، ول ديورانت.

(٣) دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص٩٤، الأب جان كمبي.

معتنقي الأديان الأخرى في الإمبراطورية[1].

كذلك أرسل قسطنطين رسائل شخصية إلى أساقفة النصارى مع امتيازات وهدايا مالية[2].

- منح تعويضات للمسيحيين الذين أوذوا أيام الاضطهاد، خاصة في وقت خصمه ماكنتيوس[3].

- أمر بإعادة بناء الكنائس التي هُدِّمت، وبناء كنائس جديدة، وبعث إلى عماله في مختلف الأقاليم يوجههم إلى المساعدة في إقامة الكنائس، وأن لا يبخلوا بشيء في سبيل ذلك حتى من الخزانة الإمبراطورية ذاتها[4].

- في عام ٣١٤ م، وبعد صدور مرسوم ميلان بسنة واحدة دعا قسطنطين أساقفة العالم الغربي إلى اجتماع عقد في فرنسا وتحالف معهم لتوطيد أركان حكمه[5].

- أمر بتعطيل الأعمال يوم الأحد، واعتبره يوم الراحة القانونية[6].

- أمر قسطنطين بتقليد الأساقفة حق السلطة القضائية على معتنقي ديانتهم وأوجب على القضاة المدنيين التصديق على أحكام المحاكم الأسقفية حتى ولو كانت دعاوى مدنية أحد طرفيها نصراني وبذلك زادت سلطات ومكانة الأساقفة في المجتمع[7].

(إن مثل هذه التدابير تتخطى إطار الاقتناع الشخصي. وليس لها من تفسير سوى الرغبة في

---

(١) حياة قسطنطين العظيم، ص٨٠، يوسابيوس القيصري، والدولة والكنيسة، ٢/ ١١٧ د. رأفت عبدالحميد.

(٢) تاريخ الكنيسة، ص٤٢٨ (١٠:٢)، يوسابيوس القيصري.

(٣) تاريخ العالم، ٤/ ١٨٧، نشر: جون. ١. هامرتن

(٤) الدولة والكنيسة (الوثنية والمسيحية) ٢ / ١١٧، د. رأفت عبدالحميد.

(٥) الهرطقة في الغرب، ص١٥، د. رمسيس عوض.

(٦) تاريخ الحضارات العام، الجزء الثاني (روما وإمبراطوريتها) ص٥٦٤، إشراف: موريس كروزيه، وتاريخ العالم، ٤/ ١٨٧، هامرتن. تاريخ المسيحية (فجر المسيحية) ص١٤١، حبيب سعيد.

(٧) تاريخ الحضارات العام، الجزء الثاني (روما وإمبراطوريتها) ص٥٦٤، إشراف: موريس كروزيه، والدولة والكنيسة ٢/ ١١٧، د. رأفت عبدالحميد.

جعل الكنيسة جهازاً رسمياً وإشراكها في حياة وسير الدولة وتقوية الدولة بها لرؤساء الكنيسة من تأثير.. وهكذا فإن الديانة المسيحية، بفعل انقلاب الوضع انقلاباً غريباً وشبه محتوم أصبحت تدريجياً دين دولة بعد أن كانت في الأمس القريب ديناً محرماً»[1].

بهذا كله غدا قسطنطين في نظر الكنيسة ومؤرخيها رسولاً، اختاره الرب لنصرة دينه[2].

(قسطنطين، وبداية ترسيخ الانحراف في مجمع نيقيّة الأول (للسكوني الأوّل ١٩ حزيران - ٢٥ آب ٣٢٥ م):

بعد أن أمِن النصارى من نيران اضطهادات الرومان، وأصبحت لهم الكلمة، بدأت وبطريقة علنيّة ظهور الخلافات الدينيّة فيما بينهم، والتي تمركزت على أمور أساسيّة في العقيدة، خاصة، فيما يتعلّق بشخصيّة المسيح عيسى عليه السلام، وهذه الخلافات كانت منذ الأيام الأولى من دخول بولس في دين المسيح، وتفاقمت مع الأيام، حتى في أوقات الاضطهادات.

وكانت من الأسباب الكبرى في ظهور تلك الخلافات: دخول طوائف متعددة من الوثنيين، الرومان وغيرهم، خاصة أنّهم وجدوا في أقوال بولس الوثنيّة، والتحريفيّة، ما يدعم توجهاتهم المخالفة لما أتى به عيسى عليه السلام.

وجد الإمبراطور قسطنطين هذه الخلافات بين النصارى، ففزع منها خوفاً على وحدة الإمبراطوريّة، فأمر بعقد مؤتمر يضم النصارى في مدينة نقيّة.

وقيل: إن السبب الرئيسي في عقد هذا المجمع، هو قول آريوس الإسكندراني بين سنتي (٣١٣، ٣١٨ أو ٣١٩) في عيسى عليه السلام: إن عيسى ما هو إلا مخلوق، وأنّ الأب هو الله وحده الخالق، وقد كان الأب ولم يكن الابن.

وكان لآريوس أنصار كثيرون، أقوياء، منتشرون في فلسطين، وأسيوط، والقسطنطينيّة،

---

(١) تاريخ الحضارات العام، ٢/ ٥٦٥، كروزيه.

(٢) الدولة والكنيسة، (الوثنية والمسيحية) ٢ / ١٢٥، د. رأفت عبدالحميد.

وغيرها، وهو ما مكّنهم من الجهر بهذه العقيدة، فثارت ثارات بعض المتسين للكنيسة المتبعين لأقوال بولس اليهودي، في أن عيسى الابن في مقام الله الأب، فله الألوهيّة كما للأب، وعلى رأسهم بطريرك الإسكندريّة ألكسندروس، الذي لعن آريوس وطرده من الكنيسة.

أراد قسطنطين أن يُعالج هذا الخلاف بين الاثنين، فأمر بجمع كبار رجالات الكنيسة من كل البلدان، ليتناقشوا فيما بينهم، ويصلوا إلى وحدة عقديّة واحدة، تتحد باتّحادها الإمبراطوريّة، فاجتمع في نقيّة ما لا يقل عن (٢٠٤٨) من الأساقفة، فهال قسطنطين كثرة الآراء فيما يتعلّق بعيسى عليه السلام [1]، وكان من الطوائف المجتمعة من تقول بألوهية عيسى ألوهية تامّة، وهي مقولة بولس، ومعه ٣١٨ أسقفاً من أتباعه.

وكانت هذه المقولة هي أقرب إلى ذهن قسطنطين الوثني، فلمّا انقضى يوم الاجتماع دون أن تصل الطوائف النصرانيّة إلى وفاق بينها فيما هو الاعتقاد الصحيح بعيسى عليه السلام، انفض المجلس دون حلّ، وأمر قسطنطين بعقد جلسة أخرى خص فيها الأساقفة الذين يقولون بألوهيّة عيسى عليه السلام، وفي مُقدّمتهم بطريرك الإسكندريّة ألكسندروس، وعددهم فقط ثمانية عشر وثلاثمائة (٣١٨)، وقيل: إنّه جلس في وسطهم، وأخذ خاتمه وسيفه وقضيبه فدفعه إليهم وقال لهم: قد سلطتكم اليوم على مملكتي لتصنعوا ما ينبغي أن تصنعوا ممّا فيه قوام الدين، فباركوا الملك وقلّدوه سيفه،

---

(١) ومن أشهر الآراء التي حضرت في المجمع: أ) أنَّ المسيح وأمَّه إلهان من دون الله. وهي مقولة البربرانيّة، ويسمّون بالمريميين. ب) إن المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار انفصلت عن شعلة نار، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية عنها. جـ) إن المسيح لم تحمل به مريم تسعةَ أشهر، وإنّما مرَّ في بطنها كما يمر الماء في الميزاب، لأن الكلمة دخلت في أذنها، وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها. د) إن المسيح إنسان خُلق من اللاهوت كواحد منّا في جوهره، وإنَّ ابتداء الابن من مريم، وإنه اصطفي ليكون مخلصاً للجوهر الإنسي، فصحبته النعمة الإلهيّة، وحلّت فيه بالمحبّة والمشيئة، ولذلك سُمّي ابن الله. ويقولون أيضاً: إنّ الله جوهر قديم واحد وأقنوم واحد، ويسمونه بثلاثة أسماء، وهم لا يؤمنون بالكلمة ولا بالروح القدس. وهي مقالة بطريرك أنطاكيّة وأشياعه. هـ) إنّهم ثلاث آلهة لم تزل: صالح وطالح وعدل بينهما، وهي مقالة مرقيون وأصحابه. وإن المسيح له الألوهية التامة، وهي مقالة بولس (الرسول) اليهودي ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر (٣١٨) أسقفاً.

انظر: محاضرات في النصرانيّة، ص ١٥٢، الشيخ محمد أبو زهرة، الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، ص ١٢٣، د. علي عبد الواحد وافي، الكتب السماويّة وشروط صحتها، ص ٣٣٨، عبد الوهاب عبد السلام طويلة.

وقالوا له أظهر دين النصرانيّة.

فقرر المجتمعون ألوهية عيسى، ونفوا القول بأنّه مخلوق وحرَّموا كل من لم يقل بذلك من الأشخاص[1]، وحرّقوا الكتب التي تُخالف هذا الاعتقاد، وقرَّروا الكتب التي تنحو هذا المنحى الوثني التثليثي، وعلىٰ رأسها رسائل بولس اليهوديّ.

عِلماً بأنّ الذين فرضوا القول بألوهيّة المسيح عيسى في مجمع نيقيّة، لم يشكّلوا الأكثرية، بل علىٰ العكس هم الأقليّة، وإنّما الأكثريّة كانوا مع القول بأن عيسى مخلوق، وإنّ الخالق هو الله، وهي مقالة آريوس، وكان عدد أتباعه ومن وافقه علىٰ مقالته تجاوز السبعمائة أسقف، وكانت أكبر طائفة نصرانيّة اجتمعت في نيقيّة في ذلك الوقت[2].

---

(١) نص وثيقة مجمع نيقية الأول (الأول المسكوني) في حزيران ٢٥ آب ٣٢٥ م:
(إعلان إيمان نيقية، ١٩ حزيران ٣٢٥، نص الصيغة التي نقلها أوسابيوس وأثناسيوس وباسيليوس الكبير، ترجمة النص اللاتيني:
نؤمن بإله واحد، أب قدير خالق كُل ما يُرى وما لا يُرى. وبربنا الواحد يسوع المسيح ابن الله المولود الوحيد من الأب، أي من جوهر الإب، إله من إله، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، واحد في الجوهر مع الأب، الذي به خلق كل شيء ما في السماء و ما في الأرض. الذي لأجل خلاصنا، نزل وتجسّد وتأنّس وتألم، وقام في اليوم الثالث، وصعد إلى السماوات، وسيأتي ليدين الأحياء والأموات. وبالروح القدس.
أمّا الذين يقولون: كان زمان لم يكن فيه، وقبل أن يُولد لم يكن، وصار ممّا لم يكن، أو يقولون: إن الله هو من جوهر أو ماهية آخرين، أو أنه قابل للتغيُّر أو التحوّل، فهؤلاء تحرمهم الكنيسة الجامعة). الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٤٤ ـ ٤٥.

(٢) وكان في وقت اجتماع نقيّة، طوائف توحيديّة كثيرة، ولها أتباع كثيرون، ومن أشهر تلك الطوائف التوحيديّة:
أ) الفرقة الآريوسيّة، أتباع أسقف في الكنيسة الإسكندريّة، يُسمى آريوس، ويعدها المؤرخون أكبر فرقة توحيديّة في العهود الأولى للمسيحيّة، وحملت على عاتقها مسألة الرد على الفرق الثليثيّة المنحرفة التي اتبعت أقوال بولس اليهودي.
يقول الإمام ابن حزم عن رئيسها آريوس: (إن قوله هو التوحيد المجرّد وأن عيسى عليه السلام عبد مخلوق، وأنّه كلمة الله تعالى التي بها خلق السماوات والأرض).
وأخذ هذا المذهب يضمحلّ ويتناقص عدد أتباعه بعد أن حكم مجمع نيقيّة سنة ٣٢٥م بطرد رئيسه آريوس من الحظيرة الكنسيّة، وبتكفيره.
ب) الفرقة البوليانيّة، وقيل البولقانيّة، أتباع أسقف الكنيسة الأنطاكيّة في عام ٢٦٠م، يُسمى بولس الشمشاطي، أنكرت هذه الفرقة ألوهيّة عيسى، وأنّه مجرد بشر رسول.

والغريب المريب أن الإمبراطور قسطنطين كان هو المتحكِّم المباشر في آراء المجمع، وهو لا يزال على وثنيّته، فلم يُعمّد ويدخل في دين النصارى في ذلك الوقت وإنما عُمِّد في مرضه الذي مات فيه[1]؛ لذلك لم يقتنع بقولٍ في الألوهية إلاّ ما تربى ونشأ عليه من الوثنيّة، وهو تعدد الآلهة، إرضاءً لنفسه في اعتقاده الوثنيّ، وإرضاءً لغالبيّة شعبه الوثنيين الرومان، فأدخل هذه العقيدة التثليثيّة التعدديّة في دين عيسى التوحيد بقوة السلاح والمُلك في مجمع نقيّة، خاصة أنّ هناك من الذين يدَّعون اتّباع دين عيسى في العصر الأوّل منه، من يقول بتعدد الآلهة والتثليث، وهو بولس (شاؤول اليهودي)، فوافق اعتقاد قسطنطين الوثني مع أقوال بولس أوّل محرِّف لدين النصارى، فترسَّخ الانحراف العقدي في النصرانيّ بقوة السلاح مع الإمبراطور قسطنطين، وبِقِدم التاريخ مع بولس.

يقول الإمام ابن حزم عن رئيسها بولس الشمشاطي: (كان بولس بطريقياً بإنطاكيّة قبل ظهور النصرانيّة يقصد عقيدة التثليث وكان قوله التوحيد المجرّد الصحيح، وأنّ عيسى عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام خلقه الله في بطن مريم من غير ذَكَر، وأنَّه إنسان لا إلهيّة فيه، وكان يقول: لا أدري ما الكلمة ولا روح القدس).

ج) الفرقة الأبيونيّة، وهي أقدم الفرق المسيحيّة التوحيديّة، وهم من اليهود الفلسطنيين الذين دخلوا إلى دين عيسى ﷺ، ولمعرفتهم بأصول بولس اليهودي وعبثه بدين عيسى ﷺ، فقد عادوا قراراته في إلغائه شريعة موسى، فآمنوا بالعمل بالناموس، وأنكروا ألوهيّة عيسى، وأن عيسى ما هو إلا بشراً رسولاً، وكان لهذه الفرقة إنجيل خاص بها مُدوّن باللغة الآراميّة، وقد انقرضت هذه الفرقة في أواخر القرن الرابع الميلادي.

انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل للإمام ابن حزم١/ ٣٩، الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، ص ١٠٨، ١٢٤، ١٢٥، د. علي عبد الواحد وافي، وبتوسّع إلى كتاب: عقائد النصارى الموحدين بين الإسلام والمسيحيّة، الباب الأول من الكتاب من ص ٣٥ إلى ص ٦٨، حسني يوسف الأطير.

(١) حياة قسطنطين العظيم، الفصل الثاني والستون، من الكتاب الرابع، ص ٢٣٥، يوسابيوس القيصري، تعريب القمص مرقس داود.

الباب الثاني: الطائفة الكاثوليكية والبابوية تعريفاً وتاريخاً

وفيه فصلان:

الفصل الأول: التعريف بالطائفة الكاثوليكية وعقائدها، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: التعريف بالطائفة الكاثوليكية.

المبحث الثاني: عقائد الطائفة الكاثوليكيّة.

الفصل الثاني: التعريف بالبابوية، وتاريخها، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: التعريف بالبابويّة.

المبحث الثاني: البابويّة عبر التاريخ.

* * *

الفصل الأول: التعريف بالطائفة الكاثوليكية وعقائدها

وفيه مبحثان:

- المبحث الأول: التعريف بالطائفة الكاثوليكية.
- المبحث الثاني: عقائد الطائفة الكاثوليكية.



المبحث الأول: التعريف بالطائفة الكاثوليكية

الطائفة من الشيء: القطعة منه[١]، أو الجزء منه[٢].

والطائفة من الناس: جماعة منهم[٣]، قال تعالى: (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين)[٤]، وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (الواحد فما فوقه)[٥].

قال مجاهد: الطائفة الرجل الواحد إلى الألف، وقيل الرجل الواحد فما فوقة، وروي عنه أيضاً أنه قال: أقلّه رجل، وقال عطاء: أقلّه رجلان، يقال: طائفة من الناس، وطائفة من الليل، وفي الحديث النبوي (لاتزال طائفة من أمتي على الحق)[٦]، والطائفة: الجماعة من الناس وتقع على الواحد، والطائفة: القطعة من الشيء[٧].

والطائفة الكاثوليكية: مجموعة من النصارى ارتضوا طريقاً معيناً في الاعتقاد والتشريع في الديانة النصرانية تختلف عن مجموعات أخرى في الديانة نفسها.

---

(١) القاموس المحيط مادة (طوف) ص ١٠٧٧، مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصبهاني مادة (طوف) ص ٥٣١ تحقيق: الصحاح للجوهري مادة (طوف) ٤/ ١٣٩٧ تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار.

(٢) لسان العرب لابن منظور مادة (طوف) ٩/ ٢٢٦.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن للأصبهاني مادة (طوف) ص ٥٣١.

(٤) سورة النور الاية ٢.

(٥) الصحاح للجوهري مادة (طوف) ٤/ ١٣٩٧.

(٦) صحيح مسلم، كتاب الأحكام، باب قوله صلى الله عليه وسلّم: (لا تزال طائفة من أُمتي ظاهرين على الحق لا يضرّهم من خالفهم)، ح ١٩٢٠.

(٧) لسان العرب مادة (طوف) ٩/ ٢٢٦.

الكاثوليكية:

أصل كلمة (كاثوليكي)catholiqe هو اللفظ اليوناني katholikas (كاثوليكوس) وتعني العالمي أو العالم، أي أنها الديانة العالمية العامة[١].

ويمثل الكاثوليك أكبر تجمع نصراني في العالم[٢].

ويقود هذه الطائفة (أسقف روما) وهو (البابا) ومقره دولة الفاتيكان، وهو نفسه (أي البابا) رئيس دولة الفاتيكان ومقرها في إيطاليا[٣]، وينسب إليها عامة النصارى في الغرب، وأتباعها هم أكثر النصارى انتشاراً في الأرض، وذلك بسبب الاستعمار الأوروبي وبعثات التنصير[٤].

وتسمى كنيسة الطائفة الكاثوليكية بالكنيسة الغربية اللاتينية؛ لامتداد نفوذها إلى شعوب الغرب اللاتيني الذين يقطنون بلاد إيطاليا وبلجيكا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال وإيرلندا وباقي أوروبا مثل: لتوانيا وبولندا وسلفاكيا وكرواتيا، وكذلك في كثير من دول إفريقيا، وأستراليا، وبعض دول آسيا كدولة الفلبين، كما تسمى أيضاً بالكنيسة الرومانية أو (بكنيسة روما) لأن مقرها في روما بإيطاليا[٥].

---

(١) الفرق والمذاهب المسيحية منذ ظهورها حتى اليوم ص٦٨، سعد رستم، والأسفار المقدسة ص١٣١، د. علي عبد الواحد وافي، ودراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص ٤٦٤، د. محمد ضياء الرحمن الاعظمي.

(٢) الموسوعة العربية العالمية ٢٠/ ١١٧، الموسوعة العبرية الميسرة ٢/ ١٤٨٩، محمد شفيق غربال، وذكر سعد رستم أن عدد أتباع الطائفة الكاثوليكية يقدر بنحو مليار نصراني يمثلون حوالي خمس سكان العالم، الفرق والمذاهب المسيحية ص ٦٨.

(٣) قاموس الكتاب المقدس ص ٨٢٤، موسوعة السياسة ٥/ ١٧٦ - ٢٠٠، د. عبد الوهاب الكيالي، والقاموس السياسي ص ١٧١، أحمد عطية الله، الأسفار المقدسة ص ١٣٦، د. علي عبد الواحد وافي.

(٤) المعجم الموسوعي للديانات والعقائد والمذاهب ٢/ ٦٩٠، تعريف وتصنيف: أ.د سهيل زكار، ودراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص ٤٦٤، د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي، والفرق والمذاهب المسيحية ص ٦٨، سعد رستم.

(٥) الموسوعة العربية الميسرة ٢/ ١٤٩٠، محمد شفيق غربال، والمسيحية ص ١٩٩، د. أحمد شلبي، والأسفار المقدسة ص ١٣٦، د. علي عبد الواحد وافي، وأديان وفرق ص ١٠٠، أمين القضاة وآخرون، ودراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص ٤٦٤، د. محمد ضياء عبد الرحمن الأعظمي، والفرق والمذاهب المسيحية ص

وكذلك تسمى بالكنيسة البطرسية أو الرسولية؛ لأن الكاثوليك يعدون مؤسس هذه الكنيسة هو بطرس، والذي يدعونه بـ (هامة الرسل) وكبير حواريي عيسى ﷺ لذا فهي تدَّعي أنّها الكنيسة العامة و الجامعة وأنّها أم الكنائس ومعلمتها[1].

ولهذا الانتشار وكثرة المنتسبين إليها (توصف الكنيسة الرومانية الكاثوليكية بأنها أقوى مؤسسة دينية وجدت في تاريخ العالم، وهذه الكنيسة مسؤولة عن تنظيم أحوال الكاثوليك في العالم من تعليم الديانة وتأمين الخدمات الطقوسية الدينية وتنظيم أخلاق المؤمنين بها)[2].

يقول إدوارد جيبون: (وكانت كنيسة روما أعظم الكنائس وأضخمها عدداً، كما كانت بالنسبة للغرب أقدم المؤسسات المسيحية التي أخذت عنها كثير من هذه المؤسسات ديانتها)[3].

وأول من استخدم مصطلح (الكاثوليك) هو إغناطيوس الانطاكي[4] سنة ١١٠م، ثُمّ استخدمها اللاهوتي اكليمنت الإسكندري المتوفى سنة ٢١٥م[5]، ولكنّ الاستخدام الرسمي لهذا المصطلح في التعبير عن الكنيسة الرومانية لم يحدث قبل القرن الثالث الميلادي[6].

٨٧، سعد رستم.

(١) المراجع السابقة، والصفحات نفسها.

(٢) جغرافية الأديان ص ١٠٣ دافيد سوفير ترجمة: أحمد غسان سبانو.

(٣)) اختلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ١/ ٢٦٧ إدوارد جيبون، ترجمة محمد علي أبودرة.

(٤) إغناطيوس الأنطاكي، هو (أسقف أنطاكيّة في مطلع القرن الثاني. قُبض عليه في عهد طرايانس ونُقل إلى رومة للتعذيب. وفي أثناء سفره، كتب سبع رسائل وصلت إلينا. أشهرها إلى كنيسة رومة، والباقي إلى كنائس في آسية الصغرى. هذه الرسائل هي شهادة روحيّة ورعويّة. سُمّي بالنورانيّ لأنّه رأى الملائكة النورنيّين يسبّحون الله بين جوقتين، فرتّب ذلك في الكنيسة أسوةً بهم. ولُقّب بثيوفورس، أي حامل الله). جاء في معجم الإيمان المسيحيّ، ص٤٨، تأليف الأب صُبحي حموي اليسوعيّ، أعاد النظر فيه من الناحية المسكونيّة الأب جان كوربون.

(٥) اكليمنت الإسكندري (١٥٠ ٢١٥): ولد سنة ١٥٠م، قيل: إنّه أوّل عالم في النصرانيّة جمع بين علم الكتاب المقدس والفلسفة اليونانيّة وآدابها، رأس مدرسة الإسكندريّة اللاهوتيّة، لم يبق من مؤلفاته إلاّ ثلاثة كتب، (تحريض الأمم للرجوع عن الوثنيّة إلى المسيحيّة)، و(المرشد لتعليم حديثي الإيمان)، و(المتنوعات) وهي مجموعة دراسات فلسفيّة. انظر: دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص ٨٩، الأب جان كمبي.

(٦) الفرق والمذاهب المسيحية منذ ظهور الإسلام حتى اليوم ص ٦٨، سعد رستم.

الكنيسة الكاثوليكيّة ودعوة نسبتها إلى بطرس:

تعتقد الكنيسة الكاثوليكية أنّ مؤسسها الأوّل والحقيقي هو بطرس كبير الحواريين، وأنّه قام بإدارة أمور الجماعة النصرانيّة في روما، وكان أوّل أسقفٍ لها، وأنّه قُتل وصُلب منكوساً في روما[1]، ودُفن فيها، وقبره تحت المبنى الذي فيه الكرسي البابوي في الفاتيكان في روما (كاتدرائية القديس بطرس في الفاتيكان)، وقد كتبت حول قاعدة قبة كنيسة القديس بطرس فقرة وردت في إنجيل متى قيل إنّ عيسى ﷺ خاطب فيها بطرس (وَأَنَا أَيْضاً أَقُولُ لَكَ: أَنْتَ صَخْرٌ. وَعَلَى هَذِهِ الصَّخْرَةِ أَبْنِي كَنِيسَتِي وَأَبْوَابُ الْجَحِيمِ لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا)[2]، أي أنّ لبطرس علواً وشأناً أرفع من باقي الحواريين عندهم، وأنّه قد تمّ على حوائطها نقش أسماء البابوات في سلسلة متصلة غير مقطوعة ابتداء من القديس بطرس حتى الوقت الحاضر[3].

كما يعتقد الكاثوليك أيضاً أنّ (بولس) كان له الدور الكبير في تكوين طائفتهم وكنيستهم وهو أول من أشهرها.

فالكاثوليك يؤمنون بأنّ بطرس وبولس جميعهما كانا عمودين ومؤسسين لكنيستهم في روما، وأنّهما قُتلا على يد الرومان في اضطهاد الإمبراطور نيرون سنة ٦٤م، ودُفنا هناك[4].

---

(١) يذكر الاب كمي أن أوريجانيس قال في القسم الثالث من تفسير التكوين: (ويبدو أن بطرس بشّر اليهود المشتتين في النبط وغلاطية... وأخيراً أتى رومية حيث صُلب ورأسه إلى تحت بعد أن طلب أن يتألم على هذا الشكل). دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة ص ٢٨ بقلم الأب جان كمي، وعلى هذا ذهب النصارى، لأنه على حسب زعمهم لم يكن يرى أنه يستحق أن يأخذ الوضع نفسه الذي أخذه قبله ربه وسيده المسيح يسوع، فأجيب إلى طلبه ومات مقلوبا. انظر: مختصر تاريخ الكنيسة ص ٤٦ أندرو مِلر.

(٢) متى ١٦: ١٨.

(٣) تاريخ أوروبا (العصور الوسطى)، ص ١٥٩، د. السيد الباز العريني، أوروبا المسيحيّة (الألفية الأولى) ١٢/١ يان دويرا تشينسكي ترجمة د. كبرو لحدو، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ٥٠، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

(٤) قيل: إن بُطرس قُتل سنة ٦٤ م، وإنّ بولس قُتل سنة ٦٣ م، أو ٦٧ م، انظر: دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص٣٢، الأب جانِ كُمّي، تاريخ المسيحية، (فجر المسيحية)، ١/ ١٢٣ بقلم حبيب سعيد، موسوعة الأديان في العالم، في الكتاب المسمّى بالمسيحيّة، ص١٢ المشرف العام: جميل مدبك، نشر: دار كريس انترناشيونال.

يقول كل من أندريه إيمار وجانين اوبوآيه (الفرنسيان) في كلامهم عن روما ومكانتها: (لم يكن ممكناً أن تُنافِس هذه المدينة، بسبب أهمِّيتها الواقعية، أية مدينة أخرى، فإنَّ عظمتها التاريخية، المرتبطة بفكرة الإمبراطورية نفسها التي لم يزعزعها غياب الإمبراطور، كانت آخذة في الازدياد، أضف إلى ذلك على الصعيد الديني، أن وجود مدفني القديسين بطرس وبولس، والوعد الذي قطعه المسيح لبطرس مؤسس الكنيسة الرومانية، قد أوليا هذة الكنيسة حقوقاً أخرى)[1].

لهذا فإن الكاثوليك يعتقدون أنّ كنيستهم في روما لها الأسبقية على باقي الطوائف النصرانية، ويعتقدون أيضاً كنيستهم هي الوريث الشرعيّ الوحيد، وذلك عبر سلسلة أسقفيَّة متواصلة تبدأ من بطرس هامة الرسل وكبير حواري يسوع كما يعتقدون، وتستمر عبر خُلفائه من الأباء (الباباوات) بلا انقطاع إلى يومنا هذا، للتفويض والسُّلطان اللذين منحهما يسوع إياه، كما ورد في إنجيل متى: (وَأَنَا أَيْضاً أَقُولُ لَكَ: أَنْتَ صَخْرٌ. وَعَلَى هَذِهِ الصَّخْرَةِ أَبْنِي كَنِيسَتِي وَأَبْوَابُ الْجَحِيمِ لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا! وَأُعْطِيكَ مَفَاتِيحَ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ: فَكُلُّ مَا تَرْبِطُهُ عَلَى الأَرْضِ، يَكُونُ قَدْ رُبِطَ فِي السَّمَاءِ؛ وَمَا تَحُلُّهُ عَلَى الأَرْضِ، يَكُونُ قَدْ حُلَّ فِي السَّمَاءِ!)[2].

يقول المُفَسِّر النصراني وليم كارلي في تفسيره لهذه الفقرة: (إن هذه العبارة من المسيح لبطرس ليست سهلة فقد أعطاه المسيح بعض الامتيازات، وبعض المسؤوليات فالعبارة تشير إلى سلطة فريدة وقوة خاصة لبطرس. ومن ذلك أن يكون بطرس الخادم الأمين للملكوت، الذي معه المفتاح ليفتح باب الملكوت أمام الراغبين في الخلاص. وأنه سيكون مسؤولاً في الكنيسة ليقودها

وجاء في كتاب أوروبا والمسيحيّة الجزء الأوّل، ص ١٤ - ١٥، تأليف يان دوبرانتشينسكي، ترجمة الدكتور كبرو لحدو: أن هناك حفريات أمر بها البابا بيوس الثاني عشر أثناء الحرب العالميّة الثانيّة وما بعدها أثبتت وجود قبر بطرس تحت هضبة الفاتيكان. وذكر ذلك أيضاً الدكتور الخوري بولس في كتابه المحيط الجامع في الكتاب المقدّس والشرق القديم، ص ٢٥٧.

(١) تاريخ الحضارات العام، الجزء الثالث، روما وإمبراطوريتها، ص٦٢٢، إشراف: موريس كروزيه.

(٢) متى ١٦: ١٨ ١٩.

إلى التعاليم الصحيحة والقرارات المهمة)[١].

وورد في إنجيل يُوحنَّا أنَّ المسيح على زعم وافتراء النصارى لمَّا صلبوه، وقام من الأموات وأظهر نفسه للتلاميذ على بحر طبرية وفيهم بطرس فناداه المسيح باسمه (سمعان بن يونان) وقال له ثلاث مرات: (يَاسِمْعَانُ بْنَ يُونَا، أَتُحِبُّنِي؟ فَأَجَابَهُ: نَعَمْ يَارَبُّ. أَنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّكَ! قَالَ لَهُ: ارْعَ خِرَافِي)[٢].

(فأعطاه يسوع الأولويّة الموعود بها[٣]. ولهذا وبعد الصعود، أمسك بطرس بيده قياده الجماعة الأولى[٤]

ولكن هذه العقيدة التي تُنادي بها الطائفة الكاثوليكية، وتزعم من خلالها أنّها هي الرأس، ولها التقدم على باقي الطوائف النصرانية، كما كان لبطرس الرئاسة والزعامة على باقي أتباع المسيح، مرفوضة ومنازع فيها عند باقي الطوائف النصرانية، وذلك لأمور، منها:

أولاً: إنّ النصارى كلهم يزعمون أن بطرس كبير الحواريين هو مؤسس كنائسهم، فهذه الكنيسة الإنطاكيّة تعتقد أن بطرس هو مؤسسها الفعلي، وكذلك الكنيسة الأرثوذكسية المرقسيّة تعتقد أيضاً أن مؤسسها هو بطرس فقد عهد إلى تلميذه مرقس صاحب الإنجيل إلى إنشاء كنيستهم، فلا ميزة للطائفة الكاثوليكية في هذا[٥].

ثانياً: تذهب الطوائف النصرانيّة غير الكاثوليكيّة إلى أن ربّهم يسوع قد أعطى سُلْطة الحل

---

(١) تفسير متى ١ / ٣١٦ - ٣١٨، وليم باركلي، ترجمة الدكتور القس فايز فارس. (بتصرف).

(٢) إنجيل يوحنا، ٢١ / ١٦. ولكن الغريب في بداية هذه القصة أن تلاميذ المسيح لم يعرفوه لمّا تكلم معهم (٢١/ ٤) (وَلَمَّا طَلَعَ الْفَجْرُ، وَقَفَ يَسُوعُ عَلَى الشَّاطِىءِ، وَلكِنَّ التَّلاَمِيذَ لَمْ يَعْرِفُوا أَنَّهُ يَسُوعُ)، ولم يتنبه كاتب هذا السفر إلى هذه النقطة فهي موضع تساؤل كيف يكون معلمهم بل ربهم وخالقهم كما يزعم النصارى ولمّا ظهر لهم لم يعرفوه وشكوا في أمره؟!

(٣) يوحنا ٢١: ١٥ - ١٧، وانظر أيضاً متى ١٦: ٥٨، ٦٩ - ٧٥.

(٤) انظر: المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم، ص ٢٥٧، د. الخوري بولس الفغالي.

(٥) تاريخ أُوروبا (العصور الوسطى)، ص ١٥٧، ١٦١، الدكتور السيد العريني.

والعقد لكل حواريه، وليس لبطرس وحده، فجاء في إنجيل متى: (فَالْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَا تَرْبِطُونَهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ قَدْ رُبِطَ فِي السَّمَاءِ، وَمَا تَحُلُّونَهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ قَدْ حُلَّ فِي السَّمَاءِ. وَأَيْضاً أَقُولُ لَكُمْ: إِذَا اتَّفَقَ اثْنَانِ مِنْكُمْ عَلَى الأَرْضِ فِي أَيِّ أَمْرٍ، مَهْمَا كَانَ مَا يَطْلُبَانِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَكُونُ لَهُمَا مِنْ قِبَلِ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ)[1].

ويقول الأنبا غريغريوس أن: (قول المسيح لبطرس (سأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات...) لا يُعطي القديس بطرس امتيازاً خاصاً؛ لأن المسيح أعطى هذا السلطان نفسه للرسل جميعاً سواء بسواء وبدون تفريق...، وهو سلطان الأسقفية الممنوح من المسيح للأسقف الذي يرعى الكنيسة المبنية على صخرة الإيمان بلاهوت المسيح وأنه ابن الله الحيّ)[2].

ثالثاً: أمّا مسألة أن بطرس هو الصخرة التي بنى عليها المسيح كنيسته، وهذا فيه دلالة على تقدم بطرس على باقي الأتباع الذين اختارهم المسيح، فرد النصارى المخالفون للاعتقاد الكاثوليكي بأمور، منها:

١) إنّ الصخرة عندهم هو المسيح، يقول بولس: (إِذْ شَرِبُوا مِنْ صَخْرَةٍ رُوحِيَّةٍ تَبِعَتْهُمْ، وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الصَّخْرَةُ هِيَ الْمَسِيحُ)[3]، ومعنى الصخرة الإيمان، والإيمان موجود قبل بطرس، فلا يكون بذلك بطرس هو الصخرة[4].

---

(١) متى ١٨: ١٨-١٩.
وخالف النصارى جميعهم أنفسَهم في هذا فقدموا التقديم المطلق لمن هو ليس من رسل الربّ عندهم ولم يلتق بربّهم يسوع، بل أتى بأمور خالف فيها ما ذهب إليه وقاله المسيح ﷺ وبعض الحواريين، هذا الرجل هو اليهودي (شاؤول) الذي سمّى نفسه (بولس) بعد أن تنصّر (وهذا كما مر معنا) فقدمت النصارى هذا الرجل تقديماً أبعد حتى من ربّهم في الناحية التشريعيّة. لذلك ذهب بعض المفكرين المتنورين من النصارى إلى أن هذه الديانة القائمة الآن والتي تُسمي نفسها بالمسيحية بسبب واقعها وحقيقتها، المفروض تُسمي نفسها بالبولسية فهي تطبيق كامل لما قاله بولس من تعاليم وشرائع وليس فيها من تعاليم عيسى ﷺ وما أمر به إلا اسم المسيح فقط.

(٢) اللاهوت المقارن، ص ٢١٦، للأنبا غريغريوس.

(٣) كورنثوس الأولى ١٠: ٤.

(٤) اللاهوت المقارن، ص ٢١٧، للأنبا غريغريوس، رد على اليهودية واليهودية المسيحية، ص ٤٤٤، ندرة اليازجي.

٢) ثُمّ عندهم كيف يكون بطرس هو صخرة الإيمان، وقد قال له المسيح: إنه شيطان وإنه معثرة للإيمان به، وجاء ذلك في إنجيل متى: (فَالتَفتَ وقالَ لِبُطرسَ اذْهَبْ عنّي يا شيطانُ. أنْتَ مَعثرةٌ لِي)[1].

يقول النصراني ندرة اليازجي عندما قارن بين النصين في متى: (إننا نلمس التناقض الحرفي في هذا الكلام عندما يتهم المسيحُ بطرس بأنه معثرة... فكيف يكون بطرس هو الصخرة وكيف يكون معثرة في آن واحد؟ ألا يعني أن بطرس سيُعثّر الكثيرين)[2]، ويدل هذا أيضاً على أنه لا يجوز الأخذ برأيه في أية مسألة كانت ولا يعوّل على أقواله.

٣) أن الصخرة لا تتزعزع، فيقولون كيف يكون بطرس هو صخرة الإيمان وقد تزعزع إيمانه، بل كاد يفقد إيمانه في ربّه، حتى قال له الرب[3]: (وَلكِنّي تَضَرَّعْتُ لأَجْلِكَ لِكَيْ لاَ يَخِيبَ إِيمَانُكَ)[4]، وأنه أنكر يسوع أمام الناس، جاء في إنجيل مرقس: (وَبَيْنَمَا كَانَ بُطْرُسُ تَحْتُ فِي سَاحَةِ الدَّارِ، جَاءَتْ إِحْدَى خَادِمَاتِ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ، فَلَمَّا رَأَتْ بُطْرُسَ يَسْتَدْفِيءُ، نَظَرَتْ إِلَيْهِ وَقَالَتْ: «وَأَنْتَ كُنْتَ مَعَ يَسُوعَ النَّاصِرِيِّ!» وَلكِنَّهُ أَنْكَرَ قَائِلاً: «لاَ أَدْرِي وَلاَ أَفْهَمُ مَا تَقُولِينَ!» ثُمَّ ذَهَبَ خَارِجاً إِلَى مَدْخَلِ الدَّارِ. فَصَاحَ الدِّيكُ وَإِذْ رَأَتْهُ الْخَادِمَةُ ثَانِيَةً، أَخَذَتْ تَقُولُ لِلْوَاقِفِينَ هُنَاكَ: «هَذَا وَاحِدٌ مِنْهُمْ!» فَأَنْكَرَ ثَانِيَةً. وَبَعْدَ قَلِيلٍ أَيْضاً، قَالَ الْوَاقِفُونَ هُنَاكَ لِبُطْرُسَ: «حَقّاً أَنْتَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ، لأَنَّكَ جَلِيلِيٌّ». وَلكِنَّهُ بَدَأَ يَلْعَنُ وَيَحْلِفُ: «إِنِّي لاَ أَعْرِفُ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي تَتَحَدَّثُونَ عَنْهُ». وَصَاحَ الدِّيكُ

---

(١) متى ١٦: ٢٣.

(٢) رد على اليهودية واليهودية المسيحية، ص ٤٤٥ - ٤٤٦، ندرة اليازجي.
لا إله إلا الله محمد عبد الله ورسوله وعيسى عبد الله ورسوله، كيف تكون هذه الأناجيل صحيحة وموحى بها وفيها مثل هذا التناقض في إصحاح واحد وبين فقرتين متجاورتين الإصحاح السادس عشر بين الفقرتين ١٨ و٢٣ منه، أيصح أن يخرج هذا التناقض من رجل عاقل يدرك ما يقول فضلا عن رب وإله. تعالى الله عما يقول الظلمون علواً كبيراً.
وهذا التناقض يعترف به النصارى أنفسهم في كتبهم المقدس، كما مر معنا في إقرار النصراني ندرة اليازجي.

(٣) اللاهوت المقارن، ص ٢١٧، الأنبا غريغريوس.

(٤) لوقا ٢٢: ٣٢.

مَرَّةً ثَانِيَةً فَتَذَكَّرَ بُطْرُسُ مَا قَالَه يَسُوعُ لَهُ: «قَبْلَ أَنْ يَصِيحَ الدِّيكُ مَرَّتَيْنِ، تَكُونُ قَدْ أَنْكَرْتَنِي ثَلاَثَ مَرَّاتٍ». وَإِذْ تَفَكَّرَ بِذَلِكَ أَخَذَ يَبْكِي[1].

علماً بأنّه جاء في إنجيل متى جزاء من يُنكر المسيح: (كُلُّ مَنْ يَعْتَرِفُ بِي أَمَامَ النَّاسِ، أَعْتَرِفُ أَنَا أَيْضاً بِهِ أَمَامَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. وَكُلُّ مَنْ يُنْكِرُنِي أَمَامَ النَّاسِ، أُنْكِرُهُ أَنَا أَيْضاً أَمَامَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ).

ولا شك أن هذا الجزاء على حسب كتبهم المقدسة يقع على بطرس فكيف يكون هو الصخرة[2].

رابعاً: وفي نهاية الأمر يقول النصارى غير الكاثوليك في نقدهم لهذه المسألة الكاثوليكية وهي أن بطرس مؤسس كنيسة الطائفة لكاثوليكية، وأنّه مُقدّم على باقي اتباع يسوع: إنّهم لا يجدون فقرة واحدة صريحة تقول: إن بطرس رئيس للكنيسة عامة، أو أنه رئيس كنيسة روما[3].

---

(١) مرقس ١٤: ٦٦ ٧٢.

(٢) رد على اليهودية واليهودية المسيحية، ص، ٤٣٩ - ٤٤٠، لليازجي.

(٣) الطوائف المسيحية في مصر والعالم، ص ٨٣، ماهر يونان روفائيل.



عقيدة الكاثوليك عقيدة خلقيدونيّة، وسُمِّيت بالخلقيدونيّة نسبةً إلى ما حصل في مجمع خلقيدونيّة من تقرير لأهم عقيدة عند النصارى، وبسببها حصل الخلاف القوي بينهم، فانقسمت الكنيسة النصرانيّة إلى غربيّة كاثوليكيّة وإلى شرقيّة أرثوذكسيّة، وهذه العقيدة (طبيعة ربّهم يسوع) فقد قرّر المجمع الخلقيدوني أنّ ربّهم يسوع شخص له طبيعتان؛ طبيعة إلهية، وأخرى بشرية.

المجمع الخلقيدوني، هو المجمع المسكوني الرابع[1]، والذي عُقد في ٨ تشرين الأوّل إلى مطلع تشرين الثاني عام ٤٥١م، في مدينة خلقدونية، والتي تقع في مواجهة القسطنطينية على الضفة الأخرى لمضيق البسفور، في عهد البابا لاوون الأوّل الكبير (٢٩ أيلول سنة ٤٤٠ - ١٠ تشرين الثاني ٤٦١ م)، ورأس المجمع نائب البابا[2].

عقائد الطائفة الكاثوليكية:

أولاً: عقيدة ألوهيّة المسيح عيسى ﷺ:

يعتقد الكاثوليك في عيسى ﷺ أنه إله ابن إله، فعيسى عندهم هو الله الابن، وليس الله الأب، مع أنّ الأب والابن واحد عندهم[3].

---

(١) يُعد المجمع الخلقدوني (٤٥١م) المجمع المسكوني الرابع عند الكاثوليك، أما عند الأرثوذكس فالمجمع المسكوني الرابع هو مجمع أفسس الثاني عام (٤٤٩م) الذي يُسمى عند الكاثوليك بمجمع (اللصوص).

(٢) دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص١٢٨، الأب جان كُمبي.

(٣) على ضفاف الحقيقة، ص ٣٠٠، للدكتور الكاثوليكي خليل كفوري.

يقول صاحب كتاب الأشعة اللاهوتية: (وموضوع كلامنا هنا شخص الرب الأقدس المخلّص يسوع المسيح، وهو ابن الله كلمة الأب المولود من الأب منذ الأزل، وهو إله حق أزلي أبدي... اتخذ طبيعة الإنسان في مستودع البتول المباركة من جوهرها فكان له الطبيعتان الكاملتان أعني اللاهوت والناسوت... مسيح واحد إله حق وإنسان حق تألم حقاً وصلب ومات وقُبر ليصالح أباه معنا ويكون ذبيحة لا عن الخطيئة الأصليّة فقط بل عن خطايا البشر الفعلية أيضاً)[١].

وجاء القول بألوهية المسيح عيسى ﷺ في نص وثيقة مجمع نيقية الأول (الأول المسكوني) في حزيران ٢٥ آب ٣٢٥ م:

(إعلان إيمان نيقية، ١٩ حزيران ٣٢٥، نص الصيغة التي نقلها أوسابيوس وأثناسيوس وباسيليوس الكبير، ترجمة النص اللاتيني:

نؤمن بإله واحد، أب قدير خالق كُل ما يُرى و ما لا يُرى. وبربنا الواحد يسوع المسيح ابن الله المولود الوحيد من الأب، أي من جوهر الأب، إله من إله، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، واحد في الجوهر مع الأب، الذي به خلق كُل شيء ما في السماء و ما في الأرض...)[٢].

الطبيعتان والمشيئتان في ربهم المسيح:

ذهب الكاثوليك إلى أن المسيح ﷺ اتحدت فيه طبيعتان ومشيئتان متميزتان، وقد تقررت هذه العقيدة بوضوح عند الكاثوليكية في المجمع الخلقيدوني (المسكوني الرابع) [من ٨ تشرين الأوّل إلى مطلع تشرين الثاني ٤٥١ م]، فقد جاء في جلسته الخامسة، في ٢٢ تشرين الأوّل ٤٥١ م: (قانون الإيمان الخلقيدوني، الطبيعتان في المسيح:... ذات المسيح الواحد، ابن، رب، وحيد، معروف في طبيعتين، بلا اختلاط، ولا تحوّل، بلا انقسام ولا انفصال، دون أي إلغاء لاختلاف الطبيعتين

وتأليه المسيح ﷺ عقيدة الفرق النصرانيّة المُثلِّثة كلها، ما عدا شهود يهوه، كما أن هناك كنائس نصرانيّة موحدة.

(١) الأشعة اللاهوتية في مبادئ التعاليم المسيحية، ٧٦، نيافة الدكتور مول.

(٢) الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ١ / ٤٤.

بسبب الاتحاد، بل بالحريّ مع احتفاظ كل طبيعة بخاصيتها متلاقيتين في شخص واحد، في أقنوم واحد، مسيح لا يتجزّأ أو لا يتقسّم في شخصين، بل هو ذات الابن الواحد، وحيد، إله كلمة، الرب يسوع المسيح، كما علّم الأنبياء عنه منذ زمن طويل، وكما علّمنا يسوع المسيح نفسه، ونقله إلينا قانون الآباء)[1].

وقد كتب البابا لاون الأوّل الكبير (٢٩ أيلول سنة ٤٤٠م - ١٠ تشرين الثاني ٤٦١م) رسالة يَذْكُر فيها عقيدة الطبيعتين في المسيح ﷺ، وأنّها هي المعتقد الكاثوليكي الصحيح، استناداً إلى مقرارات المجمع الخلقيدوني، أرسلها في حزيران سنة ٤٥٣م إلى رهبان فلسطين، وفي ١٧ آب سنة ٤٥٨م إلى الإمبراطور البيزنطي لاون الأول)[2].

وقُررت عقيدة الطبيعتين في المسيح ﷺ في وثائق بابويّة عديدة، منها ما جاء في عهد البابا بولس السادس (٢١ حزيران ١٩٦٣م- ٦ آب ١٩٧٨م)، في إعلان من إعلانات مجمع عقيدة الإيمان، في ٢١ شباط ١٩٧٢م[3].

خلاف النصارى في طبيعة ربّهم يسوع المسيح:

موضوع طبيعة ربّ النصارى المزعوم، موضوع خطير في تاريخ الكنيسة، فقد كان سبب انقسامها إلى طائفتين كبيرتين الكاثوليكيّة الغربية، والأرثوذكسيّة المرقسيّة القبطيّة منذ الثلث الأول من القرن الخامس وبسببه انعقد مجمع (أفسس الثاني)، في ٨ أغسطس (آب) عام ٤٤٩م، والذي قرّر عقيدة القول بالطبيعة الواحدة لربّهم يسوع المسيح، عقيدة الكنيسة الأرثوذكسيّة المرقسيّة، والذي رفضته الكنيسة الكاثوليكيّة وأسمته (مجمع اللصوص، ومجمع القراصنة)، وهو ما جعل الكاثوليك يعقدون مجمعاً مضاداً له، وهو مجمع (خلقدونيّة)، في ٨ أكتوبر (تشرين الأول) عام ٤٥١م، وتقرّر فيه عقيدة القول بالطبيعتين لربّهم يسوع المسيح، عقيدة الكنيسة الكاثوليكيّة. ومنذ

---

(١) الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ١ / ١٠٣، ١٠٤.

(٢) الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ١ / ١٠٩، ١١٠.

(٣) الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ٢ / ١٠٨٩.

ذلك الوقت شهدت الكنيسة الانفصال الحقيقي بين الكنيسة الكاثوليكيّة الغربيّة (الخلقدونيّة) ومن سار في فلكها بعد ذلك كالروم الأرثوذكس البيزنطيين والبروتستانت، والكنيسة الأرثوذكسيّة المرقسيّة القبطيّة (اللاخلقدونيّة) ومن سار في فلكها كالسريان اللاّخلقدونيين [1].

وقد ذهبت الكنيسة الكاثوليكيّة في طبيعة ربّه يسوع المسيح إلى أنه (إلهٌ حقٌّ وإنسانٌ حقٌّ، المركَّب من نفسٍ عاقلة ومن جسد، الذي جوهره جوهرُ الأب من حيثُ اللاهوت، وجوهره جوهرنا من حيث الناسوت في طبيعتين، غير مختلطتين، وغير متغيّرتين، ولا منقسمتين، ولا مُنفصلتين، وإن اختلاف الطبيعتين لم يُلغِهِ اتحادُهما، بل بالحريّ احتفظت كلٌّ واحدة بميزاتها، واجتمعت كلُّها في شخصٍ واحد وأقنوم واحد)[2].

أما الكنيسة الأرثوذكسيّة المرقسيّة القبطيّة فقد ذهبت إلى أنّ ربَّهم يسوع المسيح، قد (اتحد لاهوته مع ناسوته بغير اختلاط و لا امتزاج و لا تغيير إذ لم يعد له طبيعتان منفصلتان بعد الاتحاد)[3].

ويقول بابا الكنيسة الأرثوذكسيّة المرقسيّة القبطيّة البابا شنودة الثالث (بابا الإسكندريّة وسائر أقاليم الكرازة المرقسيّة)، في بيان عقيدتهم في طبيعة ربّهم يسوع المسيح: (السيد المسيح هو الإله الكلمة المتجسد، له لاهوت كامل، وناسوت كامل، ولاهوته متحد بناسوته بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير، اتحاداً كاملاً أقنومياً جوهرياً، تعجز اللغة أن تُعبّر عنه، حتى قيل عنه: إنّه سرّ عظيم.

(١) انظر في ذلك، إلى: دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ١ / ١٢٨ - ١٣٠، الأب جان كُمبي، أوروبا والمسيحيّة (الألفيّة الأولى)، ١ / ١٢٢ - ١٣١، يان دوبراتشينسكي، موجز تاريخ المسيحيّة، ص ٢٩٣ - ٣٠٦، الأنبا ديوسقورس أسقف المنوفيّة، تاريخ الفكر المسيحي ٣ / ٢١١ - ٢٩٠، الدكتور القس حنّا الخضري، وفيه أدق التفاصيل في أحداث هذين المجمعين.

(٢) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، ص ١٥٣ - ١٥٥.

(٣) الفروق العقيديّة بين المذاهب المسيحيّة، ص ١٤، للقس إبراهيم عبد السيّد راعي كنيسة مار جرجس بحدائق المعادي.

وهذا الاتحاد دائم لا ينفصل مطلقاً ولا يفترق، نقول عنه في القدّاس الإلهي: (إن لاهوته لم يُفارق ناسوته لحظةً واحدةً ولا طرفة عين).

الطبيعة اللاهوتيّة (الله الكلمة) اتحدت بالطبيعة الناسوتيّة التي أخذها الكلمة (اللوجوس) من العذراء مريم بعمل الروح القدس. الروح القدس طهّر وقدّس مستودع العذراء طهارة كاملة حتى لا يرث المولود منها شيئاً من الخطية الأصليّة، وكوّن من دمائها جسداً اتحد به ابن الله الوحيد. وقد تم هذا الاتحاد منذ اللحظة الأولى للحبل المقدس في رحم السيدة العذراء.

وباتحاد الطبيعتين الإلهيّة والبشريّة داخل رحم السيّدة العذراء تكوّنت منهما طبيعة واحدة هي طبيعة الله الكلمة المُتجسّد)[1].

وقد عقد الأنبا الأرثوذكسي المرقسي (الأسقف العام) غريغوريوس في كتابه (اللاهوت المقارن) فصلاً، في إثبات القول بطبيعة واحدة ومشيئة واحدة لربّهم يسوع المسيح، ورد فيه على العقيدة الكاثوليكيّة في قولها بالطبيعتين، ومِمّا قاله في ذلك:

(إن التعبير القائل بطبيعتين متحدتين للسيد المسيح وهو التعبير الذي تقول به الكنيسة الخلقدونيّة تعبير خطر؛ لأنه يشتمل على معانٍ، أو على الأقل على احتمالات بمعان، تتعارض مع حقائق ديانتنا المسيحيّة:

١) إنّه يتضمن الثنائيّة في السيد المسيح. والثنائيّة نوع من الافتراق والانفصال بين لاهوت السيّد المسيح وناسوته.

٢) إنّه يحمل التصريح بأنّ هناك طبيعتين للسيّد المسيح، كانتا مفترقتين ثُمّ اجتمعتا معاً. وهذا يفتح السبيل للمذهب النسطوري[2] بعينه، وهو المذهب الذي ترفضه الكنائس الخلقيدونيّة،

---

(١) طبيعة المسيح، ص ٧، البابا شنودة الثالث.

(٢) المذهب النسطوري، هو: المذهب القائل: إن المسيح عيسى عليه السلام ذو طبيعتين متميزتين في شخصه، الطبيعة الإلهيّة، والطبيعة البشريّة، طبيعتان متميزتان الواحدة عن الأخرى، وأن يسوع الناصري هو ابن الله، وهو ابن الإنسان، ابن مريم. ومريم ليست هي أصل ومصدر اللاهوت، بل هي والدة الإنسان يسوع الناصري. والمذهب النسطوري أتباع نسطور أسقف القسطنطينيّة في عام ٤٢٨م، ومن أقوال نسطور في أثناء انعقاد مجمع أفسس

نفسها رفضاً باتاً، وتعده هرطقة فاسدة.

٣) إن تعبير (الطبيعتين المتحدتين) تعبير هادم لقضيّة الفداء والخلاص الذي قام به السيد المسيح من أجل الجنس البشري؛ لأنه إذا كانت للسيّد المسيح طبيعتان بعد الاتحاد، فمن المنطقي أنّ عمل الفداء قام به جسد السيّد المسيح؛ لأنه هو الذي وقع عليه الصلب. وعلى ذلك ففداء المسيح ليست له أيّ قوّة على خلاص الجنس البشري، إذ يكون الذي مات من أجل العالم هو إنسان فقط، مع أن الفداء يأخذ قيمته في أن الذي صُلب عنّا هو بعينه الكلمة المتجسّد حقّاً إن اللاهوت لم يتألم بآلام الصليب التي وقعت على ناسوت المسيح، ولكنّ اللاهوت هو الذي أعطى فعل الصلب قيمته غير النهائية لفداء أفراد النوع الإنساني جميعاً.

٤) إن تعبير المتحدتين لا يستطيع أن يُفسّر اعتقاد الكنيسة الكاثوليكيّة والكنائس الأرثوذكسيّة الخلقدونيّة، في أنّ القديسة مريم والدة الإله... فلو كان في المسيح طبيعتان لكانت العذراء والدة الإنسان يسوع فقط...)[1].

الأول، عام ٤٣١م: (لا أدري كيف أدعو الله من كان طفلاً عمره شهران أو ثلاثة. لهذا فإني بريء من دمكم، ولن أكون بينكم من الآن فصاعداً). انظر في ذلك، إلى: دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ١ / ١٢٦ - ١٢٧، الأب جان كمبي، أوروبا والمسيحيّة (الألفيّة الأولى)، ١ / ١١٥ - ١١٧، يان دوبراتشينسكي، تاريخ الفكر المسيحي ٣ / ٣٦ - ٤٢، الدكتور القس حنّا الخضري.

(١) اللاهوت المقارن، ص ٢٣٤، ٢٣٥، للمتنيح الأنبا غريغوريوس، الأسقف العام للدراسات العليا اللاهوتيّة والثقافة القبطيّة والبحث العلمي.

ثانياً: عقيدة التثليث:

عقيدة التثليث عقيدة أساسية جداً في الإيمان النصراني، بل بها يتميّز النصراني عن غيره ممن يدعون أن ديانتهم آتية وموحى بها من السماء، ومع أهمية هذه العقيدة عندهم، فهي القاعدة الأساسية لديانتهم، إلا أنهم يشترطون في الإيمان بها عدم مناقشة العقل فيها، فتؤخذ هكذا مُسلّمة بدون مناقشة أو استدلال عقلي على صحّتها، فهذه العقيدة عندهم (تعليم يسمو على العقل البشري)[1]، وعندهم أن عقيدة التثليث (ليس بموضوع عقائديّ بقدر ما هو موضوع إيمانيّ، هو موضوع إيمان الكنيسة)[2]، فلا يصلح أن يخضع للمناقشة العقلية، أو الاستدلال العقلي.

والغريب العجيب أن هذه العقيدة المحورية عند النصارى لم تكتمل صياغتها إلا في آخر القرن الرابع الميلادي في مجمع القسطنطينية الأوّل (المجمع المسكوني الثاني) في أيّار ـ ٣٠ تموز عام ٣٨١م، حيث إن روح القدس لم يُؤلّه في مجمع نقيه عام ٣٢٥م، حيث اقتصر التأليه فيه على الله وسمّوه الأب، وعلى المسيح عيسى ﷺ وسمّوه الابن، وإنّما أُلّه روح القدس في المجمع الذي بعده، وهو مجمع القسطنطينية الأول عام ٣٨١م، فبقرارات هذين المجمعين تكوّنت عند النصارى فكرة التثليث، الذي يجب على كُلّ نصراني أن يُسلّم بها ولا يُناقشها عقلياً أو يطلب على صحتها دليلاً من أي نوع، فهي عقيلة خارجه عن التصور والعقل البشريين.

وعندما أراد النصارى أن يُوضحوا هذه العقيدة من الناحية العقلية والتفسيرية أتوا بالعجائب، ومن ذلك ما قاله المنصّر الدكتور زكريا استاورو، في شرحه لهذه العقيدة، ومحاولة تبسيطها للعقول: (... في المعمودية نرى الثلاثة أقانيم موجودة، [مرقس ١ : ٩ـ١١][3]، وفي المعموديّة المسيحية قال

---

(١) الفروق العقيدية بين المذاهب المسيحية، ص١٢، القس إبراهيم عبد السيد، راعي كنيسة مار جرجس بحدائق المعادي.

(٢) من أنت أيتها الكنيسة؟ ص ٢٢، الأب فاضل سيداروس.

(٣) ونصه: (وفي تلك الأيام جاء يسوع من ناصرة الجليل واعتمد من يوحنّا في الأردن. وللوقت وهو صاعد من الماء رأى السماوات قد انشقت والروح مثل الحمامة نازلا عليه. وكان صوت من السماوات أنت الحبيب الذي به سررت) مرقس ١: ٩ـ١١.

الرب (عمدوهم باسم (وليس بأسماء) الأب والابن وروح القدس) [متى ١٨: ١٩]، ومثل هذا نجده كثيراً[1]... تذكر أن ١×١×١ = ١، وليس ١+١+١، والروح القدس هو روح الأب [متى ١٠: ٢٠] وروح الابن (ثُمّ بما أنكم أبناءٌ أرسل اللهُ رُوح ابنه إلى قُلُوبكم صارخاً يا أبا الأب) [الرسالة إلى غلاطية ٤: ٦]، وهذا معناه أنه في الأب والابن إذن ١×١×١)[2].

وقُرِّرت عقيدة التثليث في وثائق بابويّة عديدة، منها: في عهد البابا هونوريوس الأوّل (٢٧ تشرين الأوّل ٦٢٥ - ١٢ تشرين الأوّل ٦٣٨ م)، في مجمع طُليطلة الرابع، الذي بدأ في ٥ كانون الثاني ٦٣٣، الفصل الأول منه، (إعلان إيمان بالثالوث وبالمسيح)، وممّا جاء فيه: (إنّنا نعترف على حسب الأسفار الإلهيّة والعقيدة التي تقبّلناها من الآباء القدّيسين، أنّ الأب والابن والروح القدس لهم لاهوت وجوهر واحد. وفي إيماننا بالثالوث المتعدّد الأقانيم وكلامنا على الوحدة في اللاهوت لا نجعل بين الأقانيم اختلاطاً ولا في الجوهر انفصالاً. نقول: إنّ الله لم يصنعه ولم يلده أحد. ونقول: إن الابن لم يصنعه الأب ولكنّه وَلَده. ونعترف بأنّ الروح القدس لم يُصنع ولم يولد ولكنّه ينبثق من الأب والابن)[3].

انشقاق الكنيسة الخلقيدونيّة في مسالة انبثاق أقنوم روح القدس في عقيدة التثليث:

مسألة انبثاق أقنوم الروح القدس، هل: من الأب والابن، كما يعتقد الكاثوليك (الخلقيدونيون)، أو من الأب وحده كما يعتقد الروم الأرثوذكس (الخلقيدونيون)، توافقاً مع الكنيسة الأرثوذكسيّة المرقسيّة القبطيّة (اللاخلقيدونيّة) كانت سبباً رئيساً في انشقاق الكنائس الخلقيدونيّة بعضها عن بعض، بين الكنيسة الكاثوليكيّة الرومانيّة اللاتينيّة والكنيسة الأرثوذكسيّة الرومانيّة اليونانيّة

---

(١) كما في [رسالة بولس الثانية لأهل كورنثوس ١٣: ١٤]، [لوقا ١: ٣٥]، [يوحنّا ١٤: ١٢ـ١٧]، [أعمال الرسل ٤: ٢٩ ٣١]، [رسالة بولس الأولى لأهل كورنثوس ١٢: ٤ـ٦]، [رسالة بولس لأهل أفسس٤: ٤ـ٦]، [الرسالة إلى العبرانيين١٠: ٩ـ١٥]، [يهوذا ٤٠]، [رؤيا يوحنّا٤: ١ـ٥].

(٢) أساسيات مسيحية، ص ٦٠ - ٦١، الدكتور زكريا استاورو.

(٣) الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ١ / ١٦٧.

القسطنطينيّة البيزنطيّة، فقد ظلّت الكنيستان الكنيسة الكاثوليكيّة في روما، والكنيسة الأرثوذكسيّة الرومانيّة في القسطنطينيّة متفقتين في عقائدهما، خاصة في أكبر المسائل منها، وهي القول: إن لربّهم المسيح يسوع طبيعتين ومشيئتين، إلى أن حصل خلاف بينهما في مسألة انبثاق أقنوم الروح القدس، في منتصف القرن التاسع، في عهد فوتيوس بطريرك القسطنطينيّة وبابا روما نيقولاوس الأوّل (من ٨٥٨ إلى ٨٨٦ م)، وفي هذه السنوات وضع بطريرك القسطنطينيّة كتاباً عن الروح القدس هاجم فيه الكنيسة الكاثوليكيّة في الغرب لكونها أضافت لفظة (الابن) في انبثاق روح القدس منذ قانون الإيمان في المجمع القسطنطيني الأوّل (المجمع المسكوني الثاني) في ٣٠ تموز ٣٨١م، وما بعده من المجامع، ولم يخضع الكاثوليك لنداءات كنيسته، مُعتبراً بأن الروح القدس منبثق من الأب والابن، هو إعلان لمبدأين في الثالوث الأقدس في حين أن الأب وحده هو مبدأ الابن والروح؛ لذلك إن كان هناك من إضافة إلى قانون الإيمان فيجب القول: الروح القدس المنبثق من الأب وحده.

وعلى إثر رأي بطريرك القسطنطينيّة في انبثاق روح القدس من الأب فقط دون الابن أمر بابا روما هدريانوس الثاني (١٤ كانون الأول ٨٦٧ - ١٤ كانون الأوّل ٨٧٢م) بعقد مجمع في القسطنطينيّة نفسها، هو الرابع فيها، وهو المجمع المسكوني الثامن (٥ تشرين الأوّل ٨٦٩ - ٢٨ شباط ٨٧٠)، أُصدر فيه بطلان عقيدة بطريرك القسطنطينيّة، وإلقاء الحُرم الكنسي عليه، وتثبيت عقيدة أن روح القدس منبثق من الأب والابن معاً. ولكن وبعد تسع سنوات من ذلك المجمع استطاع بطريرك القسطنطينيّة بعد أن خفت سُلطة البابويّة الرومانيّة الكاثوليكيّة على الإمبراطور البيزنطي أن يعقد مجمعاً في القسطنطينيّة في عام ٨٧٩ م، أبطل فيه قرارات البابويّة الكاثوليكيّة في مجمعهم القسطنطيني الرابع، وأثبت الحرمان الكنسي على بابا روما الكاثوليكي، وثبّت عقيدة أن الروح القدس منبثق من الأب فقط، تابعاً في ذلك عقيدة الكنيسة الأرثوذكسيّة المرقسيّة القبطيّة. وبهذه العقيدة في انبثاق الروح القدس حصل الانشقاق الديني بين القسطنطينيّة البيزنطيّة اليونانيّة

(كنيسة الروم الأرثوذكس)، وبين روما اللاتينيّة الغربيّة (كنيسة الروم الكاثوليك)[1].

ثالثاً: عقيدة الخطيئة الأصلية، أو (الجَدّيّة) الموروثة:

والمقصود بهذه الخطيئة، هي معصية آدم حيث أكل من الشجرة التي نهاه الله عن أكلها، فاستجاب بذلك لوسوسة الشيطان وإغوائه.

فعند النصارى أن معصية آدم هذه أثّرت في ذريته، في البشر جميعهم، من بعده إلى أن افتداهم المسيح منها وخلّصهم من تبعاتها، ولكن هذا الخلاص عندهم متوقف على اعتراف الإنسان بألوهية المسيح، وفدائه للبشرية وتحمله لآلام الصلب من اجلهم.

وأول من نادى بهذا الفهم لهذه العقيدة ونشرها بين أتباع عيسى ﷺ بعد رفعه، اليهودي المتنصّر بولس (شاؤول)[2].

فقد قال في رسالته إلى أهل روميّة (بإنسان واحد دخلت الخطيّةُ إلى العالم وبالخطيّة الموتُ وهكذا اجتاز الموتُ إلى جميع النّاس إذ أخطأ الجميع، فإنه حتى الناموس كانت الخطيّةُ في العالم، على أن الخطيّة لا تُحسب إن لم يكن ناموس، لكن قد ملك الموتُ من آدم إلى موسى وذلك على الذين لم يُخطِئُوا على شبه تعدّي آدم الذي هو مثال الآتي)[3].

وقُرِّرت عقيدة الخطيئة الموروثة في وثائق بابويّة عديدة، منها: رسالة بعثت بها البابوية إلى الكنائس الشرقية التابعة لها بين حزيران وآب سنة ٤١٨م (بُعث بها إلى مصر والقسطنطينية وتسالونيكي وأورشليم)، وفيها: (الرّب آمين في كل أقواله (مزامير ١٤٤، ١٣)، ومعموديّته في حقيقتها وكلماتها، أي بما يجري فيها، بالاعتراف بالإيمان وبمغفرة الخطايا الحقيقة، تحوي الملء

---

(١) انظر إلى: الروم وصلاتهم بالعرب، ٢ / ٩ - ١٢، الدكتور أسد رستم، الطوائف المسيحية في مصر والعالم، ص ٦٨ - ٧٢، ماهر يونان، الأسفار المقدّسة في الأديان السابقة للإسلام، ص ١٣٥، الدكتور علي عبد الواحد وافي.

(٢) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، ص ١٣٤ - ١٣٩.

(٣) رسالة بولس إلى رومية ٥: ١٢-١٤.

نفسه لكل جنس، وكُل سنّ، وكل حالة بشريّة، فلا أحد يصبح حُرّاً إلا إذا كان عبداً للخطيئة ولا يُدعى مخلَّصاً إلا من كان قبلاً سجيناً حقيقياً للخطيئة، كما كُتب: (إن حرّركم الابن كنتم في الحقيقة أحراراً) (يوحنا ٨: ٣٦). فبه نولد ثانية بالروح، وبه نصلب للعالم، بموته مزّق صكّ الموت الذي ورثناه بالتناسل، والذي بآدم دخل فينا جميعاً ونقل إلى كل نفس (رسالة بولس إلى أهل كورنثوس٢، ١٤)، والذي يخضع له كل مولود بلا استثناء قبل أن يحرّر بالمعمودية)[١].

والإيمان بخطيئة آدم عليه السلام في أكله من الشجرة وتأثير هذه الخطيئة على البشر كلهم كما يزعم النصارى ظهر أثره واضحاً في أربع من عقائد النصارى، وهي: عقيدة ألوهية المسيح عليه السلام، وعقيدة الفداء، والمعمودية، والقول بعالمية النصرانية.

فذكر بولس أن الناس لا يستطيعون أن يتخلّصوا من آثار خطيئة آدم (الخطيئة الأصلية) إلا بالإيمان بيسوع المسيح أنه مُخلّصهم وفاديهم، فقال في رسالته إلى أهل غلاطية: (لكنّ الكتاب أغلق على الكلّ تحت الخطيّة لِيُعطى الموعد من إيمان يسوع المسيح للذين يُؤمنون)[٢]، وقال أيضاً في رسالته إلى أهل روميّة (كما هو مكتوب أنّه ليس بارٌّ ولا واحد... الجميع زاغوا وفسدوا معاً، ليس من يعمل صلاحاً ليس ولا واحد... وأمّا الآن وقد ظهر برُّ الله بدون الناموس مشهوداً لهُ من الناموس والأنبياء، برُّ الله بالإيمان بيسوع المسيح إلى كُلِّ وعلى كُلِّ الذين يؤمنون، لأنه لا فرق، إذ الجميع أخطؤوا وأعوزهم مجدُ الله، متبررين مجاناً بنعمتهِ بالفداءِ الذي بيسوع المسيح الذي قدَّمه اللهُ كفارة بالإيمان بدمهِ لإظهار برِّه من أجل الصفح)[٣].

و(لقد اتبعت الكنيسة القديس بولس، فعلّمت دائماً أنّ الشقاء العارم الذي يهبطُ البشر، وميلهم إلى الشرّ وإلى الموت لا يُفهمان بمعزل عن علاقتهم بخطيئة آدم، وبواقع أنه أورثنا خطيئةً نُولد حاملينَ وزرها وهي موت النفس. وانطلاقاً من هذا اليقين العقائدي تمنح الكنيسةُ المعمودية

(١) الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها ١ / ٧٨.

(٢) رسالة بولس إلى أهل غلاطية ٣: ٢٢.

(٣) رسالة بولس إلى أهل رومية ٣: ١٠، ١٢، ٢١، ٢٥.

لمغفرة الخطايا، حتى للأطفال الصّغار الذين لم يرتكبوا خطيئة شخصية)[1].

رابعاً: عقيدتا الصلب والفداء:

وتُسمى عند النصارى (موت يسوع المسيح الخلاصي)، أو (موت يسوع المسيح الفدائي على الصليب).

وهذه العقيدة من أهم العقائد عند النصارى جميعاً، بل يرون أن رسالة أناجيلهم الأربعة وما يلحقها من رسائل تدور حول حدثٍ تاريخي واحدٍ فريدٍ هو موت يسوع على الصليب فداءً لهم وكفّارةً لخطاياهم، قال كاتب الرسالة إلى العبرانيين: (لأنه بقربان واحد قد أكمل إلى الأبد المُقَدَّسينَ)[2]. وعندهم أن في هذا النص تجتمع عبارتان في غاية القوة والأهمية: (أَكمل)، وإلى (الأبد)، وعند النصارى أنهما تُشيران إلى ذبيحة تستوعب احتياجات البشر جميعاً، بل يمتد تأثيرها في اعتقاد النصارى خلال الزمن وعبر الأبدية، زعموا[3].

والنصارى يعتقدون أن عيسى عليه السلام صُلب على عهد بيلاطس البنطي، وتألم، وقبر، ومات، ونزل إلى الجحيم بالصليب، وأتم الخلاص للبشرية كُلِّها[4].

فهم يعتقدون أن الشر الذي تستحقه البشرية بسبب خطيئة آدم ثمّ بسبب أخطائهم الشخصيّة قد وُضع على يسوع المسيح عيسى عليه السلام، وبالمقابل فإن الخير الذي يستحقه يسوع المسيح عيسى عليه السلام قُدّم لمن آمن به ربّاً مُخلِّصاً، فالنصارى يرون أن الله عمل هذا دون أن يُساوم على عدالته الأزليّة الأبدية، فكُلّ هذا عندهم نابع من نعمة الله التي لا تُسبر أعماقها، ولا تُفسر منطقيّاً وعقليّاً

---

(١) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، ص ١٣٣ - ١٣٤.

(٢) الرسالة إلى العبرانيين، ١٠: ١٤.

(٣) المبادلة الإلهية العظمى، ص ٥، ديريك برنس (أحد معلمي كتابهم المقدس في العالم، له أكثر من ثلاثين كتاباً في ذلك).

(٤) الفروق العقيدية بين المذاهب المسيحية، ص ١٤، القس إبراهيم عبد السيد، راعي كنيسة مار جرجس بحدائق المعادي.

علىٰ أساس مبدأ السبب والنتيجة[1].

وقد أقرت المجامع المسكونيّة قرارات في تعليم عقيدتي الصلب والفداء، فهي الأصل في تعاليم النصارى، لذلك لم يخلُ منها قرار من قرارات مجامعهم إمّا عرضاً أو قصداً، ومن أشهر هذه القرارات عندهم ما يلي:

ما في نص وثيقة مجمع نيقية الأول (الأول المسكوني) في حزيران ٢٥ آب ٣٢٥ م:

(إعلان إيمان نيقية، ١٩ حزيران ٣٢٥، نص الصيغة التي نقلها أوسابيوس وأثناسيوس وباسيليوس الكبير، ترجمة النص اللاتيني:

... الذي لأجلنا نحن البشر، ولأجل خلاصنا، نزل وتجسّد وتألم...)[2]. والحديث عن يسوع المسيح عيسى عليه السلام.

وكذا جاء في مجمع القسطنطينية الأوّل (المجمع المسكوني الثاني) في ٣٠ تموز عام ٣٨١م: قانون إيمان القسطنطينية، عن النص اللاتيني: (... الذي لأجلنا نحن البشر ولأجل خلاصنا نزل من السماء وتجسّد... وتأنس، وصُلب عنّا علىٰ عهد بونتيوس بيلاطس، وتألّم ودُفن...)[3].

ومن الوثائق البابويّة في تقرير عقيدتي الصلب والفداء، ما جاء في المجمع التريدنتيني (المسكوني التاسع عشر) (١٣ كانون الأول ١٥٤٥ - ٤ كانون الأول ١٥٦٣م)، والذي ابتدأ انعقاده في عهد البابا بولس الثالث (١٣ تشرين الأول ١٥٣٤م - ١٠ تشرين الأول ١٥٤٩م)، وفي جلسته السادسة (١٣ كانون الثاني ١٥٤٧م) مرسوم في (التبرير)، الفصل الثاني منه بعنوان (تدبير الخلاص وسرّ مجيء المسيح)[4]، ومنها ما جاء في عهد البابا يوحنّا بولس الثاني (١٦ تشرين الأول ١٩٧٨م - ٢ إبريل ٢٠٠٥م)، في رسالة بابوية عامّة (٤ آذار ١٩٧٩م)، الفصل الأول منها بعنوان

(١) المبادلة الإلهيّة العظمى، ص ١٠٩، ديريك برنس.

(٢) الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ١ / ٤٤.

(٣) الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ١ / ٥٧.

(٤) الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ١ / ٣٩١.

(البعد البشري لسرّ الفداء)[1].

خامساً: عقيدة قيامة المسيح ﷺ وصعوده إلى السماء، وجلوسه على يمين الرب أبيه:

يعتقد النصارى المثلّثة، أن المسيح ﷺ بعد صلبه ودفنه على زعمهم قام من بين الأموات في اليوم الثالث وصعد إلى السماوات، وجلس على يمين الله (الأب أبيه)[2].

ويقولون: لأنه لم يكن من الممكن أن يسود الموت عليه، وذلك بعد أن أكمل عمل الفداء الذي أتى من السماء للقيام به[3].

فعند الكاثوليك، وباقي الطوائف النصرانيّة المثلثة، عقيدة قيامة المسيح، ليس إيماناً يُضافُ إلى الإيمان، بل هو جوهر الإيمان عندهم[4]، وتنبني عليه مسائل مهمة في عقيدتهم:

منها: أن قيامته من قبره ورفعه إلى السماء دلالة على أُلوهيته[5] بزعمهم (... ولكنّ سِرَّ بنوّته الإلهية لم ينكشف تماماً للتلاميذ إلاّ في المسيح القائم من الأموات، والمرتفع لدى الله والمُعطى سُلطةً إلهيّةً... كلُّ ألقاب السيادة وأسماء الكرامة، التي عبّرت فيها الكنيسة الأولى عن إيمانها بشخص يسوع المسيح (المسيح، الرب، ابن الله، عبد الله.. إلخ) تستقي قوّتها وتكتسب معناها من الإيمان بالقيامة. فالقيامة هي المصدر الينبوع للعقيدة المُتعلّقة بالمسيح... إن يسوع بارتفاعه إلى السماء، ضابطُ الكون وسيّد العالم الذي يسود الأموات والأحياء (لهذا مات المسيحُ وقامَ وعاشَ لِكَيْ

---

(١) الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ٢ / ١١١٤.

(٢) المسيحية في عقائدها (التعليم المسيحي الكاثوليكي)، ص ٢٣٨، الفروق العقيدية بين المذاهب المسيحية، ص ١٤، القس إبراهيم عبد السيد، راعي كنيسة مار جرجس بحدائق المعادي.

(٣) قيامة المسيح والأدلة على صدقها، ص ٣، بقلم الباحث النصراني عوض سمعان.

(٤) المسيحية في عقائدها (التعليم المسيحي الكاثوليكي)، ص ٢٣٥.

(٥) المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم، ص ٩٩١، الدكتور الخوري بولس الفغالي.
وهذا من الأمور الغريبة عند النصارى في أن عذاب شخص وإهانته وصلبه ودفنه تحت التراب من علامات ألوهيته وربوبيته على الخلق ومسكه زمام أمور الكون، سبحانك هذا بهتان عظيم.

يَسُودَ على الأحياءِ والأمواتِ) [رسالة بولس إلى أهل روميّة ١٤: ٩](١).

ومنها: أن بإثبات قيامة المسيح عندهم من القبر، إثبات القيامة العامة لكل المخلوقات في آخر الزمان، وبدون إثبات قيامته الخاصة لا تثبت عندهم القيامة العامة (٢).

يقول بولس: (ولكنِ الآن قد قامَ المسيحُ من الأمواتِ وصارَ باكُورةَ الرّاقدين. فإنَّه إذِ الموتُ بإنسانٍ، بإنسانٍ أيضاً قيامةُ الأمواتِ)(٣).

بل يذهب النصارى إلى أن قيامة المسيح عليه السلام من قبره، لا يكفل فقط القيامة العامة المقبلة، بل يجعل أيضاً من القيامة أمراً واقعاً آنياً بحيث أن المُعمَّدين يجلسون منذ الآن عن يمين الله(٤).

يقول بولس: (فَدُفِنَّا معَهُ بالمعموديَّةِ للموتِ حتَّى كما أُقيمَ المسيحُ من الأمواتِ بمجدِ الأبِ هكذا نَسْلُكُ نَحْنُ أيضاً في جِدَّةِ الحياةِ، لأنَّهُ إنْ كُنَّا قد صِرْنا مُتَّحدِينَ مَعَهُ بِشِبْهِ مَوْتِهِ نَصيرُ أيضاً بِقِيامتِهِ)(٥).

وقال أيضاً: (... نحنُ أمواتٌ بالخطَايَا أحْيَانَا معَ المسيحِ بالنِّعمةِ أنْتُمْ مُخلَّصُونَ، وأقَامَنَا مَعَهُ وأجْلَسَنَا مَعَهُ في السَّماويَّاتِ في المسِيحِ يسُوع)(٦).

وقال أيضاً: (فإنْ كُنتُمْ قَد قُمْتُمْ معَ المسيحِ فَاطْلُبُوا ما فَوْقُ حيثُ المسيحُ جالسٌ عَنْ يَمِينِ اللهِ)(٧).

ومنها: أنّه كما حمل آدم الموت إلى جميع البشر، صار المسيح بقيامته ينبوع حياة لكل البشر، فقد

---

(١) المسيحية في عقائدها (التعليم المسيحي الكاثوليكي)، ص ٢٣٧ - ٢٣٨.

(٢) المسيحية في عقائدها (التعليم المسيحي الكاثوليكي)، ص ٢٣٤، المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم، ص ٩٩٠، الدكتور الخوري بولس الفغالي.

(٣) رسالة بولس الأولى لأهل كُورِنثُوس ١٥: ٢٠، ٢١.

(٤) المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم، ص ٩٩٠، الدكتور الخوري بولس الفغالي.

(٥) رسالة بولس إلى أهل روميّة ٦: ٤، ٥.

(٦) رسالة بولس إلى أهل أَفَسُس ٢: ٥، ٦.

(٧) رسالة بولس إلى أهل كُولُوسِي ٣: ١.

دشّن المسيح بموته وقيامته حياة جديدة للجميع، فالمسيح هو آدم الجديد عندهم[1].

يقول بولس: (لأنَّه كما في آدمَ يموتُ الجميعُ هكذا في المسيحِ سيحيَا الجميع)[2].

ومما جاء في تعليم البابوية لأهميّة هذه العقيدة، في كتاب التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، ما يلي:

في فصل بعنوان (قوانين الإيمان) أو (الاعتراف بالإيمان المسيحي)، المقال الخامس بعنوان: (يسوع المسيح انحدر إلى الجحيم، في اليوم الثّالثِ قامَ من الموتى)، جاء في مقدمة المقال: (وقانون إيمان الرسل يعترف في مادّةٍ إيمانيّةٍ واحدة بانحدار المسيح إلى الجحيم وقيامته من الموتى في اليوم الثالث؛ لأنه في فصحه فجّر الحياة من أعماق الموت)[3].

وقد أقرت المجامع المسكونيّة الكاثوليكية قرارات في تعليم عقيدة قيامة المسيح من بين الأموات بعد ثلاثة أيّام من دفنه على زعمهم ثُمّ صعوده بعد أربعين يوماً إلى السماء، وجلوسه على يمين أبيه، ومن أشهر هذه الوثائق، مايلي:

ما في نص وثيقة مجمع نيقية الأول (الأول المسكوني) في حزيران ٢٥ آب ٣٢٥م:

(إعلان إيمان نيقية، ١٩ حزيران ٣٢٥، نص الصيغة التي نقلها أوسابيوس وأثناسيوس وباسيليوس الكبير، ترجمة النص اللاتيني:

الذي لأجل خلاصنا، نزل وتجسّد وتأنّس وتألم، وقام في اليوم الثالث، وصعد إلى السماوات، وسيأتي ليدين الأحياء والأموات)[4].

وكذا جاء في مجمع القسطنطينية الأوّل (المجمع المسكوني الثاني) في ٣٠ تموز عام ٣٨١م: (قانون إيمان القسطنطينية، عن النص اللاتيني: (... الذي لأجلنا نحن البشر ولأجل خلاصنا نزل من

---

(١) المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم، ص٩٩٠، ٩٩١، الدكتور الخوري بولس الفغالي.

(٢) رسالة بولس الأولى لأهل كُورِنثُوس ١٥: ٢٢.

(٣) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، ص ٢٠٥.

(٤) الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ١ / ٤٤.

السماء وتجسّد... وتأنس، وصُلب عنّا على عهد بونتيوس بيلاطس، وتألّم ودُفن، وقام في اليوم الثالث بحسب الكتب، وصعد إلى السماوات)[1].

وفي عهد البابا غريغوريوس العاشر (١ أيلول ١٢٧١ـ ١٠ كانون الثاني ١٢٧٦م)، في مجمع ليون الثاني (المسكوني الرابع عشر) ٧ أيّار- ١٧ تمّوز ١٢٧٤، في الجلسة الرابعة منه في ٦ حزيران ١٢٧٤م، ومما جاء فيها: (نؤمن بابن الله، المولودِ من الأب أزليّاً... في طبيعتين، ومن طبيعتين، إلهيّة وإنسانيّة، في وحدةِ شخصٍ واحد، غير قابل الألم والموت بلاهوته، ولكنّه بناسوته تألّم بجسده آلاماً حقيقيّة من أجلنا ومن أجل خلاصنا، مات، ودُفن، وانحدرَ إلى الجحيم، وفي اليوم الثالث قام من بين الأموات، قام بجسده قيامةً حقيقيّة؛ وأربعين يوماً بعد قيامته صعد إلى السماء بجسده المنبعثِ وروحه، وهو يجلس إلى يمين الله الأب، من حيث سيأتي ليدين الأحياء والأموات...)[2].

سادساً: أسرار الكنيسة السبعة:

إن كلمة"سرّ"عند النصارى لها معان، وأكثر هذه المعاني شيوعاً عندهم، أنّ السر يُراد به كُلّ شيء مقدس وغير منظور[3]، (نعمة غير منظورة يحصل عليها النصراني بممارسة طقس ظاهر ذي علاقة بها على يد كاهن شرعي)[4]، واستدلوا على ذلك بنصوص من كتبهم المقدسة، من هذه النصوص: (سرّ الرب لخائفيه)[5]، (لتعرفوا أسرار ملكوت السماوات)[6]،

---

(١) الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ١/ ٥٧.

(٢) الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ١ / ٢٩٤.

(٣) أسرار الكنيسة السبعة، ص ٥، الأرشيد ياكون حبيب جرجس.

(٤) المرجع السابق، ص ٦، الأرشيد جرجس.

(٥) مزامير ٢٥: ١٤.

(٦) متى ١٣: ١١، لوقا ٨: ١٠.

(بالروح يتكلّم بأسرار)[1]، (هذا السرّ عظيم)[2].

وجاء في وثيقة بابويّة في عهد البابا بيوس الثاني عشر (٢ آذار ١٩٣٩ - ٩ تشرين الأول ١٩٥٨م)، بِمُسمّى (الدستور الرسولي) في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٤٧م، تحت عنوان (مادّة سرّ الكهنوت وصورته)، أن أسرار الكنيسة كُلّها من وضع المسيح مباشرة، ومِما جاء فيها: (... إن أسرار الشريعة الجديدة السبعة، أنشأها المسيح ربّنا، والكنيسة لا سُلْطانَ لها علىٰ "جوهر الأسرار" أي علىٰ ما رسم المسيح نفسه، بشهادة مصادر الوحي الإلهي...)[3].

وذهبت أكبر الطوائف النصرانية المُثلّثة (الكاثوليكية والأرثوذكسية) إلى أن عدد أسرار الكنيسة، سبعة أسرار، وهي: سرّ المعموديّة، وسر المسحة المقدسة أو الميرون (التثبيت)، وسر الشكر أو الأفخارستيا (العشاء الربّاني)، وسرّ التوبة أو الاعتراف، وسرّ مسحة المرضى، وسرّ الكهنوت، وسرّ الزواج[4].

ومن الوثائق التي صدرت عن البابوية في ذكر هذه الأسرار، ما صدر في عهد البابا أوجانيوس الرابع [٣ آذار ١٤٣١ - ٢٣ شباط ١٤٤٧م]، في مجمع فلورنسا (المسكوني السابع عشر) [شباط ١٤٣٩- آب ١٤٤٥م]، في وثيقة بعنوان "براءة في الاتّحاد مع الأرمن" في ٢٢ تشرين الثاني ١٤٣٩م)[5].

فالأسرار الكنسيّة السبعة، بموجب التعليم الكاثوليكي، هي علامات الخلاص والنعمة عندهم، وتهبُ النعمةَ بفعل تتميمه السرّ، وهي: صور اللقاء بيسوع المسيح، كما أنها في اعتقادهم

---

(١) رسالة بولس الأولى لأهل كورنثوس ١٤: ٢.

(٢) رسالة بولس لأهل أُفسس ٥: ٣٢.

(٣) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ٢ / ٨٤٧.

(٤) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، ص٣٧٤، والمسيحية في عقائدها (التعليم المسيحي الكاثوليكي)، ص ٣٦١، وأسرار الكنيسة السبعة، ص٦، الأرشيدياكون حبيب جرجس، والفروق العقيديّة بين المذاهب المسيحية، ص ٢٢، القس إبراهيم عبدالسيد، راعي كنيسة مارجرجس بحدائق المعادي.

(٥) الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ١ / ٣٤٩ - ٣٥٣.

تهب لهم محبّة الله، ففيها كما يزعمون الأب نفسُه يشاركهم بيسوع المسيح في الروح القدس، كما أنّ هذه الأسرار السبعة، كما يعتقدون، تُشاركهم في وظائف يسوع المسيح ورسالته"وتُسمى هذه عندهم بالوسم الأسراريّ"، وتُشركهم أيضاً في حياته"وتُسمى هذه عندهم بالنعمة الأسراريّة"[1].

وقد قسّمت الكنيسة الكاثوليكية هذه الأسرار السبعة إلى ثلاث مجموعات، وهي:

المجموعة الأولى باسم: (أسرار التنشئة المسيحية) أو (الأسرار المدخِلة إلى الحياة المسيحية)، وتتكون من: سرّ المعموديّة، وسرّ التثبيت، وسرّ الإفخاستيا، وقد أضحت هذه العلاقة بين هذه الأسرار الثلاثة في المجمع الفاتيكاني الثاني (المسكوني الحادي والعشرون) ١١ تشرين الأوّل ١٩٦٢ -٨ كانون الأوّل ١٩٦٥م، في الجلسة الخامسة العلنيّة في ٢١ تشرين الثاني ١٩٦٤م، تحت عنوان (دستور عقائدي في الكنيسة)، في الفصل الثاني منه، بعنوان (شعب الله)[2].

فعند النصارى أن هذه المجموعة من الأسرار تُرسي ركائز كلّ حياة نصرانيّة، فجاء في خطاب من البابا بولس السادس [٢١ حزيران ١٩٦٣- ٦ آب ١٩٧٨ م] بعنوان "مشاركون في الطبيعة الإلهية"، جاء فيه: (الاشتراك في الطبيعة الإلهيّة الذي هو عطيّة من عطايا نعمة المسيح على البشر، فيه بعض الشّبه مع مصدر الحياة الطبيعيّة ونموّها ودعمها. فالمؤمنون يولّدون بالمعموديّة ولادة ثانية، ويتقوّون بسرّ التثبيت، ويتناولون في الأفخارستيا خبز الحياة الأبديّة. وهكذا بواسطة هذه الأسرار التي تُدخل إلى الحياة المسيحية يحظى المؤمنون،أكثر فأكثر،بثروات الحياة الإلهيّة ويتقدّمون نحو كمال المحبة)[3].

والمجموعة الثانية باسم: أسرار الشفاء، وتتكون من: سرّ التوبة، وسرّ مسحة المرضى.

وعند النصارى أنّ أسرار التنشئة المسيحية وهي تلك التي مر ذكرها تمنح الإنسان حياة المسيح

---

(١) المسيحية في عقائدها (التعليم المسيحي الكاثوليكي)، ص ٣٦٤- ٣٦٥.

(٢) الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ٢ / ٩٣٢.

(٣) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، ص ٣٧٥، والكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ٢ / ٩٠٦.

الجديدة، ولكنّ هذه الحياة، في اعتقادهم، أنّهم يحمِلونها في (آنيةٍ من خزف)[1]، فهي عندهم حياة لا تزال الآن (مستترة مع المسيح في الله)[2]، فهم، كما في اعتقاهم، أنهم لا يزالون في مسكنهم الأرضيّ[3] المُعرَّض للعذاب والمرض والموت، فهذه الحياة التي دخلها النصراني واعتقد من خلالها أنه أصبح من أبناء الله يمكن عندهم أن تَضعُف بل أن تتلف بالخطيئة؛ لذلك قالوا: (إنّ الرب يسوع المسيح، طبيب نفوسنا وأجسادنا الذي غفر للمقعد خطاياه وأعاد إليه صحّة الأبدان، أراد لكنيسته أن تواصل، في قوّة الروح القدس، عمل الشفاء والخلاص حتى لأعضائها أنفسهم. وهذا ما يهدف إليه سرّا الشفاء: سرّ التوبة وسرّ مسحة المرضى)[4].

والمجموعة الثالثة باسم: أسرار خدمة الشركة، وتتكون من: سرّ الكَهَنوت، وسرّ الزواج.

وتعتقد الكنيسة الكاثوليكية أن هدف هذين السرّين خلاص الآخرين، فهما يُخلّصان الفرد، ولكن من خلال خدمة الآخرين، ويخوّلان المؤمنين رسالة خاصّة في الكنيسة، ويساعدان في بناء شعب الله [5].

المجموعة الأولى (أسرار التنشئة المسيحية) أو (الأسرار للدخلة إلى الحياة المسيحية):

أ) سرُّ المعموديّة:

المعمودية عند النصارى ركيزة حياتهم النصرانيّة كلّها، واندماجها في الروح القدس، وهي الباب الذي يوصل إلى الأسرار الأخرى. فبالمعمودية يُعتقون من الخطيئة التي يؤمنون بها، ويولدون ميلاداً ثانياً في إلههم، ويصيرون بها أعضاءً ليسوعهم المسيح، فالمعموديّة هي سرّ الإيمان

---

(١) رسالة بولس الثانية لأهل كورنثوس ٤: ٧.

(٢) رسالة بولس لأهل كولوسي ٣: ٣.

(٣) رسالة بولس الثانية لأهل كورنثوس ٥: ١.

(٤) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، ص ٤٢٩.

(٥) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، ص ٤٥٩.

عندهم، وسرّ ولادتهم الجديدة بعد عتقهم بها من الخطيئة الأصليّة [1].

ومن الوثائق التي صدرت عن البابوية في بيان أهميّة هذا السرّ (المعموديّة)، ما صدر في عهد البابا أوجانيوس الرابع [٣ آذار ١٤٣١ - ٢٣ شباط ١٤٤٧م]، في مجمع فلورنسا (المسكوني السابع عشر) [شباط ١٤٣٩ - آب ١٤٤٥م]، فمما جاء فيه: (المركزُ الأوّلُ بين الأسرار لِلمعموديّة، باب الحياة الروحيّة، فبها نُصبحُ أعضاء المسيح وجسد الكنيسة. وبما أنه بالإنسان الأول دخل الموتُ في الجميع [رسالة بولس إلى أهل روميّة ٥: ١٢]، فلا نستطيع على حدّ ما قال الحقّ دخولَ ملكوت السماوات [يوحنّا ٣: ٥]، إذا لم نولد بالماءِ والروح) [2].

وسُمي هذا السرّ بالمعمودية نظراً إلى الطقس الأساسي الذي يتحقّق به: فالتعميد هو (التغطيس)، أو (التغويص) في الماء يرمز إلى دفن الموعوظ في موت المسيح وخروجه، بالقيامة معه [3]، "خليقة جديدة" [4].

ويُسمَّى أيضاً (غسل الميلاد الثاني والتجديد بالروح القدوس) [5]؛ لأنه يلهم ويُحقّق هذا الميلاد من الماء والروح الذي بدونه (لا يستطيع أحد أن يدخل ملكوت الله) [6].

وعند النصارى أنّ أول من عُمّد هو إلههم المسيح يسوع، وقد تعمّد على يد يوحنّا المعمدان في نهر الأردن [7]، جاء في إنجيل متى (حينئذٍ جاءَ يسُوعُ من الجليلِ إلى الأردن إلى

---

(١) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، ص ٣٧٥.

(٢) الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ١ / ٣٤٩ - ٣٥٣.

(٣) رسالة بولس إلى أهل روميّة ٦: ٣ - ٤، رسالة بولس إلى أهل كولوسي ٢: ١٢.

(٤) رسالة بولس الثانية لأهل كورنثوس ٥: ١٥، رسالة بولس إلى أهل غلاطية ٦: ١٥.

(٥) رسالة بولس إلى تيطس ٣: ٥.

(٦) يوحنّا ٣: ٥.

(٧) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، ص ٣٧٧.

يُوحنّا ليعتمِدَ مِنْهُ)[1].

وتقوم المعموديّة بالماء، وهذا الماء المعتَمَد به يُقدّس، عندهم، عندئذٍ بصلاة استدعاء للروح القدس "في اللحظة ذاتها، أو في ليلة الفصح"، تُطلب فيها الكنيسة إلى الله أن تحلّ على هذا الماء، بواسطة ابنه، قوة الروح القدس، فيولد المعمّدون فيها "من الماء والروح" [يوحنّا ٣: ٥].

يُشار أولاً بالصليب، في مطلع الاحتفال بالمعموديّة، ويقصدون بذلك إشارةً إلى المسيح، والذي يرمز عندهم إلى عقيدتهم في الفداء في أن المسيح على زعمهم استحق لهم نعمة الفداء بصلبه. ثُمّ تُتلى بعض التقاسيم على المرشّح للمعموديّة، ويُمسَح بزيت الموعوظين، أو يضع المحتفل يده عليه، ويَكْفر صراحة بالشيطان.

ثُمّ يلي ذلك الطقسُ الأساسيُّ في المعموديّة، أي التعميد نفسه الذي يعني ويحقّق في اعتقادهم موت الإنسان وولوجه في حياة الثالوث الأقدس، متصوّراً بصورة المسيح في سرّه الفُصحيّ.

وعند الكاثوليك أنّ المعموديّة تتمّ بأعمق معانيها بالتغطيس ثلاثاً على رأس المتعمّد (ولكنّ المعموديّة يُمكن أن تُمنَح، تبعاً لتقليد عريق، بصبّ الماء ثلاثاً على رأس المتعمّد)[2].

وعند الكاثوليك اللاتين، يقول المُعمِّد، وهو يصبّ الماء ثلاثاً على المتعمِّد: (يا فلان أُعمِّدك باسم الأب والابن والروح القدس)، وعند الشرقيين يوجَّه المتعمد جهة الشرق، ويتلو عليه الكاهن عبارة التعميد: (يُعمَّد عبد الله (فلان) باسم الأب والابن والروح القدس)، وعند ذكر كلّ من الأقانيم الثلاثة، يُغطسه في الماء وينتشله[3]، فالماء عندهم بهذه الطريق يُعبّر عن ثمرة المعموديّة المزدوجة التي يُؤمنون بها[4]:

---

(١) متى ٣: ١٣.

(٢) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، ص ٣٨١.

(٣) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، ص ٣٨١.

(٤) المسيحيّة في عقائدها (التعليم المسيحي الكاثوليكي)، ص ٣٧٥.

أولاً: التطهير من الخطيئة[1]، فهي تحلّهم، كما يعتقدون، من رباط مصير الناس جميعهم الوخيم، الذي جعلهم تحت سُلطان الخطيئة الأصلية وتغفر لهم الخطايا الشخصيّة حتى ذلك الحين.

ثانياً: منح الحياة الجديدة[2].

ثمّ بعد ذلك يُمسح المُعَمَّد بزيت مُقَدَّس عندهم يُقدسه الأسقف، وهذه المسحة بذلك الزيت، هي التي تسمّى بسرّ التثبيت، كما سيمر توضيح ذلك، إن شاء الله تعالى، ثُمّ يلبس المُعَمَّد ثوباً أبيضاً، يقول النصارى: يرمز هذا إلى أن المتعمد قد لبس المسيح، ونهض مع المسيح، والشمعة المسرجة أمامه من شمعة الفصح، ترمز إلى أنّ المسيح قد أنار المتعَمد "جديداً"، يُعطى هذه الشمعة مع قول المُعمِّد له: (تقبّل نور المسيح). فالمتعمِّدون بهذه الطريقة، عندهم، هم مُعمَّدون في المسيح هم (نور العالم) [متى ٥: ١٤]، ويصبح المُعمَّد بهذا ابن الله في ابنه الوحيد، وبإمكانه أن يتلو صلاة أبناء الله: الأبانا[3].

---

(١) رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس ٦: ١١، أعمال الرسل ٢٢: ١٦.

(٢) رسالة بولس إلى تيطس ٣: ٥.

(٣) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، ص٣٨٢، المسيحية في عقائدها (التعليم المسيحي الكاثوليكي)، ص ٣٧٤، ٣٧٥.

وهذه الصلاة (أبانا الذي في السماء...) يسمّيها النصارى الصلاة الربانيّة، وهي أساسية عندهم جميعاً، قالوا: إن ربهم يسوع المسيح قد نطق بها مرتين: الأولى في عظته على الجبل، عند الحديث عن الصلاة، دون أن يسأله أحد. وقد دونها متى في الإصحاح السادس من إنجيله، والثانية بعد أن فرغ من الصلاة في إحدى المرات في مكان ما، ورأى بعض التلاميذ في صلاته ما لم يعلموها من قبل، فقالوا له: علمن أن نصلي كما علم يوحنا أيضاً تلاميذه. وقد ذكرها لوقا في الإصحاح الحادي عشر من إنجيله.

لفظ متى في إنجيله في الإصحاح السادس من الفقرة التاسعة إلى الفقرة الثالثة عشر: (فَصَلُّوا أَنْتُمْ مِثْلَ هَذِهِ الصَّلاَةِ: أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، لِيَتَقَدَّسِ اسْمُكَ! لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ! لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ عَلَى الأَرْضِ كَمَا هِيَ فِي السَّمَاءِ! خُبْزَنَا كَفَافَنَا أَعْطِنَا الْيَوْمَ! وَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا، كَمَا نَغْفِرُ نَحْنُ لِلْمُذْنِبِينَ إِلَيْنَا! وَلاَ تُدْخِلْنَا فِي تَجْرِبَةٍ، لَكِنْ نَجِّنَا مِنَ الشِّرِّيرِ، لأَنَّ لَكَ الْمُلْكَ وَالْقُوَّةَ وَالْمَجْدَ إِلَى الأَبَدِ. آمِينَ).

ولفظ إنجيل لوقا في الإصحاح الحادي عشر من الفقرة الثانية إلى الفقرة الرابعة: (فَقَالَ لَهُمْ: عِنْدَمَا تُصَلُّونَ، قُولُوا: أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ! لِيَتَقَدَّسِ اسْمُكَ، لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ. لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذلِكَ عَلَى الأَرْضِ. خُبْزَنَا كَفَافَنَا أَعْطِنَا كُلَّ يَوْمٍ، وَاغْفِرْ لَنَا خَطَايَانَا، لأَنَّنَا نَحْنُ أَيْضاً نَغْفِرُ لِكُلِّ مَنْ يُذْنِبُ إِلَيْنَا، وَلاَ تُدْخِلْنَا فِي تَجْرِبَةٍ لكِنْ نَجِّنَا مِنَ الشِّرِّيرِ).

وقُرِّر سرّ المعموديّة وبيان أهميته في وثائق بابويّة عديدة، منها: ما جاء في المجمع التّريدنتيني (المسكوني التاسع عشر) ١٣ كانون الأول ١٥٤٥ - ٤ كانون الأول ١٥٦٣م، الذي بدأ في عهد البابا بولس الثالث (١٣ تشرين الأول ١٥٣٤ - ١٠ تشرين الثاني ١٥٤٩م)، في الجلسة السابعة من المجمع في ٣ آذار ١٥٤٧م، (مرسوم في الأسرار)، وفيه (قوانين في شأن سرّ المعموديّة)[1]، وما جاء في المجمع الفاتيكاني الثاني (المسكوني الحادي والعشرون) ١١ تشرين الأوّل ١٩٦٢ - ٨ كانون الأوّل ١٩٦٥م، في الجلسة الخامسة العلنيّة في ٢١ تشرين الثاني ١٩٦٤م، تحت عنوان (دستور عقائدي في الكنيسة)، في الفصل الأول منه، بعنوان (سرُّ الكنيسة) تحت الجزئية المسمّاة (الكنيسة جسد المسيح السرِّي)[2].

ب) سرّ التثبيت، أو سرّ المسحة بالزيت المُقدس، الميرون:

فأهميّة سرّ التثبيت عند النصارى، أنّه يطبع في نفس المُعمَّد ختماً روحيّاً لا يُمحى، وهو عندهم علامةُ الانتماء الكامل في المسيح والتطوّع لخدمته على الدوام، وأنّه امتداد وتقوية بقدرة الروح القدس في المعموديّة، فهو مرتبطٌ ارتباطاً وثيقاً بالمعموديّة، فبه تقوى وتُكمَّل؛ لذلك لا يجوزُ عندهم تقبّل سرّ التثبيت إلاّ مرّةً واحدةً، على غرار سرّ المعموديّة[3].

فسرّ التثبيت، هو عبارة عن وضع يد الأسقف على جبين المُعمَّد، ثم مسحه بزيت مُقدّس عندهم، يُباركه الأسقف، وهو المقصود بالميرون، كما جاء في بعض وثائق البابوية، ومنها ما جاء في عهد البابا إنّوشنتيوس (انوسنت) الثالث (٨ كانون الثاني ١١٩٨ - ١٦ تمّوز ١٢١٦)، في رسالة إلى باسيليوس أسقف ترنوفو (بلغاريا)، ٢٥ شباط ١٢٠٤م، بعنوان (خادم سرّ التثبيت)، وممّا جاء فيها: (بالميرون الذي يوضعُ على الجبهة يُراد وضعُ الأيدي، ويُقال له أيضاً التثبيت؛ لأنّ الروح

---

(١) الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ١ / ٤٠٩ - ٤١٠.

(٢) الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ٢ / ٩٢٨.

(٣) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، ص ٣٩٢، والمسيحيّة في عقائدها، ص ٣٨٤.

القُدس يُعطي به للإنماء والتّقوية)[1]، وقبلها مباشرة صلاةٌ يتلوها الأسقف وهو باسط يديه، يرى النصارى أنّها صلاة تُمثّل توضيحاً لمفهوم السرّ الشامل، وكلماتها:

(أيّها الأب الفائق الصلاح، أبو ربّنا يسوع المسيح، انظرْ إلى هؤلاء المُعمَّدين الذين نضع أيدينا عليهم: لقد أعتقتَهم من الخطيئة بالمعموديّة ووهبتَهم أن يُولَدوا ثانية من الماء والروح. أفض الآن عليهم روحك القدوس، حسب وعدك. أعطهم ملء الروح الذي نزل على ابنك يسوع: روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، روح المعرفة والمحبة البنويّة. املأهم من روح مخافة الله، بيسوع ربّنا)[2].

وهناك وثائق بابوية ترى أن الزيت الممسوح به لا يُقدِّسه إلا الأسقف، فهو الخادم الأصيل لسرّ التثبيت، ومن هذه الوثائق:

في عهد البابا أنستاسيوس الأوّل (٢٧ تشرين الثاني ٣٩٩ - ٤٠٢ م)، في مجمع طُليطلة الأول، في أيلول ٤٠٠م، وثيقة بعنوان (صُنع الميرون)[3]، وما جاء في عهد البابا إنّوشنتيوس (انوسنت) الثالث (٨ كانون الثاني ١١٩٨ - ١٦ تمّوز ١٢١٦)، في رسالة إلى باسيليوس أسقف ترنوفو (بلغاريا)، ٢٥ شباط ١٢٠٤م، بعنوان (خادم سرّ التثبيت)[4]، وكذلك أيضاً في عهد البابا اكليمنضوس السادس (٧ أيار ١٣٤٢ - ٦ كانون الأوّل ١٣٥٢م)، في رسالة بابوية إلى ميخيتار، جاثليق الأرمن ٢٩ أيلول ١٣٥١، جزء منها بعنوان (مادة التثبيت وخادمه)[5].

---

(١) الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ١ / ٢٦٩.

(٢) المسيحيّة في عقائدها (التعليم المسيحي الكاثوليكي)، ص ٣٨٦.

(٣) الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ١ / ٦٦.

(٤) الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ١ / ٢٦٩.

(٥) الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ١ / ٣٢٦.

جـ) سرّ الإفخارستيّا:

فهذا السرّ، له قداسة عالية عند النصارى، ومن أهميته عندهم:

أولاً: أنّه منبع الحياة النصرانية والكنسيّة وذروة العبادات التي يرفعها الناس إلى المسيح، وبه إلى الأب في الروح القدس[1]، ومن الوثائق البابويّة في هذا، ما جاء في عهد البابا لاون الثالث عشر (٢٠ شباط ١٨٧٨ - ٢٠ تمّوز ١٩٠٣م)، في رسالة بابويّة عامة في ٢٨ أيار ١٩٠٢م، بعنوان (المسيح الإفخارستيّا حياة الإنسان)، تحت عنوان فرعي (الصلة بين الإفخارستيّا والكنيسة وشركة القديسين)[2]، وما جاء في إحدى وثائق المجمع الفاتيكاني الثاني (المسكوني الحادي والعشرين) ١١ تشرين الأوّل ١٩٦٢- ٨ كانون الأوّل ١٩٦٥م، في عهد البابا بولس السادس (٢١ حزيران ١٩٦٣- ٦ آب ١٩٧٨م)، في الجلسة الثالثة العلنيّة، ٤ كانون الأوّل ١٩٦٣م، دستور في الليتورجيّا المقدَّسة، في الفصل الأوّل: مبادئُ عامّة لأجل إحياء الليترجيّا وتطويرها، في الجزء الأوّل منه، بعنوان: طبيعة الليترجيّا وأهميّتها في حياة الكنيسة، تحت عنوان فرعي (الليترجيّا أوج حياة الكنيسة ومنبعها)[3].

ثانياً: أنّ الإفخارستيا عندهم علامةٌ سابقة لوليمة العرس السماويّة، واستعجال للاشتراك في الوليمة السماويّة وتذوّق مسبّق للمجد الآتي[4]، ومن الوثائق البابويّة في ذلك ما جاء في المجمع الفاتيكاني الثاني (المسكوني الحادي والعشرون) (١١ تشرين الأوّل ١٩٦٢ - ٨ كانون الأوّل ١٩٦٥م)، في عهد البابا بولس السادس (٢١ حزيران ١٩٦٣- ٦ آب ١٩٧٨م)، في الجلسة الثالثة العلنيّة في ٤ كانون الأوّل ١٩٦٣م، في الفصل الثاني بعنوان (سرُّ الإفخارستيّا)، وتحت عنوان

(١) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، ص ٤٠٢، ٤٠٣.

(٢) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ٢ / ٧٢٣.

(٣) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ٢ / ٩١١.

(٤) المسيحيّة في عقائدها (التعليم المسيحي الكاثوليكي)، ص ٣٩٠، ٣٩١، التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، ص ٤٢٤.

فرعي (القُدّاس والسرّ الفصحيّ)، وقد جاء فيها: (إنّ مُخلّصنا وَضعَ، في العشاءِ الأخيرِ، ليلة أُسْلِمَ ذبيحةَ جسدِه ودمِه الإفخارستيّة لكي تستمّر بها ذبيحةُ الصليب على مرّ الأجيال، إلى أن يجيءَ، ولكي يُودعَ الكنيسةَ، عروسَه الحبيبةَ ذِكرى مَوتِه وقيامته: سرَّ تقوى، وعلامةَ وَحدةٍ، ورِباطَ مَحبّةٍ، وولِيمةً فَصحيّةً يؤكل فيها المسيحُ، وتمتلِئ فيها النفسُ بالنعمة، ونُعطى عربونَ المجدِ الآتي)[1].

ثالثاً: في الإفخارستيا يحتفل النصارى بالتحرير الفُصحي من قوّة الموت وبعطيّة الحياة الجديدة الأبديّة، فالإفخارستيا عندهم هي أكثر من مجرَّد طعام إنها "ذبيحة التسبيح"، كما في رسالة بولس إلى العبرانيين: (فَبالْمَسِيحِ، رَئِيسِ كَهَنَتِنَا، لِنُقَرِّبْ لِلهِ دَائِماً ذَبِيحَةَ الْحَمْدِ وَالتَّسْبِيحِ، أَي الثِّمَارَ الَّتِي تُنْتِجُهَا أَفْوَاهُنَا الْمُعْتَرِفَةُ بِاسْمِهِ)[2]، فهي تُمثّل عندهم ذبح ربّهم المسيح على الصليب (ذبيحة الصليب)، أي: تجعلها ماثلة أمامهم لأنها تُذكرهم بها، وتؤتيهم ثمار ذبح ربّهم على الصليب، وهي (الفداء، التدبير الخلاصي)[3]، ومن الوثائق البابويّة في ذلك ما جاء في عهد البابا بيوس الثاني عشر (٢ آذار ١٩٣٩ - ٩ تشرين الأوّل ١٩٥٨م)، في رسالة بابويّة عامة في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٤٧م، بعنوان (العناصر الأساسيّة التي تتألف منها الليتورجيا)، وتحت عنوان فرعي (جوهر الذبيحة الإفخارستيّة)، وممّا جاء فيها: (فذبيحة القدّاس ليست مجرّد ذكرى بسيطة لآلام يسوع المسيح وموته، بل هي ذبيحة حقيقية، بالمعنى الصحيح، بها يفعل الكاهن الأعظم بذبيحة غير دمويّة، ما فعل على الصليب، بتقديم ذاته للأب الأزلي ذبيحة مرضية جدّاً)[4].

رابعاً: يعتقد النصارى أنّ في الإفخارستيا وحدة الجسد السرّي، فهي التي تصنع الكنيسة. فالذين يتناول الإفخارستيّا عندهم يتّحدون بربّهم المسيح اتّحاداً وثيقاً. ومن ثمّ، فالمسيح ربّهم يجعلهم

(١) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ٢ / ٩٢٣.

(٢) عبرانيين ١٣: ١٥.

(٣) المسيحيّة في عقائدها (التعليم المسيحي الكاثوليكي)، ص ٣٩١، ٤٠٠، التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، ص ٤١٢.

(٤) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ٢ / ٨٤٣.

متّحدين بجميع المؤمنين به رباً وفادياً في جسد واحد، أي الكنيسة، ففي المناولة الإفخارستيّة عندهم تُجدِّد وتُقوّي وتُعمّق هذا الاندماج في الكنيسة الذي تحقق لهم بسرّ المعموديّة[1]. فجاء في تعليم الكنيسة: (بالمعموديّة دُعينا إلى أن نكون جسداً واحداً، وبالإفخارستيّا تتحقق هذه الدعوة، كما جاء في كلام بولس: (أَلَيْسَتْ كَأْسُ الْبَرَكَةِ الَّتِي نُبَارِكُهَا هِيَ شَرِكَةُ دَمِ الْمَسِيحِ؟ أَوَ لَيْسَ رَغِيفُ الْخُبْزِ الَّذِي نَكْسِرُهُ هُوَ الاشْتِرَاكُ فِي جَسَدِ الْمَسِيحِ؟ فَإِنَّنَا نَحْنُ الْكَثِيرِينَ رَغِيفٌ وَاحِدٌ، أَيْ جَسَدٌ وَاحِدٌ، لأَنَّنَا جَمِيعاً نَشْتَرِكُ فِي الرَّغِيفِ الْوَاحِدِ)[2]، وجاء ذلك في وثيقة بابوية، في عهد البابا بيوس الرابع (٢٥ كانون الأول ١٥٥٩- ٩ كانون الأول ١٥٦٥م)، في متابعة للمجمع التريدنتيني، الجلسة ٢٢ في ١٧ أيلول ١٥٦٢م، بعنوان (تعليم وقوانين في شأن ذبيحة القدّاس)، في الفصل السابع، تحت عنوان (الماء الممزوج بالخمر)[3].

وهذا الاتحاد بالمسيح الذي يعتقده النصارى مرتبط ارتباطاً شديداً بمغفرة الخطايا، فالإفخارستيا لا تستطيع أن تضمهم إلى المسيح ربّهم، من دون أن تطهرهم من خطاياهم السالفة، وتحفظهم من خطاياهم الآتية[4].

ولسرّ الإفخارستيا تسميات متعددة، منها: مائدة الرّب، وكسر الخبز، والذبيحة المُقدّسة، والقُدّاس[5].

والمناولة في الاحتفال الإفخارستيّ بالخبز والخمر هو الأساس في هذا السرّ، وهو صلبه، وقاعدته، ولا يكون إلاّ بهما.

---

(١) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، ص ٤٢١.

(٢) رسالة بولس الأولى لأهل كورنثوس ١٠: ١٦، ١٧، التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، ص ٤٢١.

(٣) الكنيسة الكاثولكيّة في وثائقها، ١/ ٤٤٢.

(٤) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، ص ٤٢١، ٤٢٢، المسيحيّة في عقائدها (التعليم المسيحي الكاثوليكي)، ص ٣٩٨، ٤٠٠، ٤٠٢.

(٥) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، ص ٤٠٤.

جاء في تعليم الكنيسة: (في صُلب الاحتفال بالإفخارستيا، نجد الخبز والخمر اللذين يتحوّلان، بكلمات المسيح واستدعاء الروح القدس، إلى جسد المسيح ودمه. وتستمرّ الكنيسة، طاعتها لأمر الرب، في تجديد ما صنعه في عشيّة آلامه، تذكاراً له، إلى أن يعود في مجده:« أخذ خبزاً...».«أخذ الكأس المملوءة خمراً». عندما يصير الخبز والخمر سرّيّاً جسد المسيح ودمه، فهما لا ينفكّان يرمزان، في الوقت نفسه، إلى جودة الخليقة. وهكذا في صلاة التقدمة، نشكر للخالق عطيّة الخبز والخمر، ثمرة جهد الإنسان. ولكنّنا نشكر له أوّلاً «ثمرة الأرض»،«وثمرة الكرمة»، وهما من عطايا الخالق. وترى الكنيسة في قربان ملكي صادق، الملك الكاهن، الذي (قَدَّمَ خبزاً وخمراً) [تكوين ١٤ : ١٨] صورة مسبقة لقربانها[١].

والكنيسة تؤمن بأنَّ يسوع المسيح يحضر حضوراً حقيقياً أثناء إقامة سرّ الإفخارستيا، وذلك في أشكال الخبز والخمر، وتعتقد أن هذا الإيمان مرتكز على قول مرقس في إنجيله: أن يسوع المسيح قال:«هذا هو جسدي، هذا هو دمي»، (وَبَيْنَمَا كَانُوا يَأْكُلُونَ، أَخَذَ يَسُوعُ رَغِيفاً، وَبَارَكَ، وَكَسَّرَ، وَأَعْطَاهُمْ قَائِلاً: «خُذُوا: هَذَا هُوَ جَسَدِي». ثُمَّ أَخَذَ الْكَأْسَ، وَشَكَرَ، وَأَعْطَاهُمْ، فَشَرِبُوا مِنْهَا كُلُّهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: «هَذَا هُوَ دَمِي»)[٢].

وتعتقد الكنيسة أن استحضار ربهم الابن يسوع المسيح في الحفل الإفخارستيّ ليس عملاً سحرياً أو آليّاً. بل يتم من خلال صلاة استدعاء ربّهم الروح القدس وهي الصلاة الثانية في المحفل، والتي تُرفع باسم يسوع المسيح إلى ربهم الله الأب. وكلمات هذه الصلاة التي يقرؤها الكاهن: (أرسلْ روحَك القدّوس على هذه القرابين وقدّسها، لكي تصيرَ لنا جسدَ ودمَ ابنك يسوع المسيح ربّنا)[٣].

(١) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، ص ٤٠٥.

(٢) مرقس ١٤: ٢٢ ٢٤.

(٣) المسيحيّة في عقائدها (التعليم المسيحي الكاثوليكيّ)، ص ٣٩٤، التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، ص٤١٠.

وقد أكدت البابوية في وثائق متعددة هذه العقيدة، ومن ذلك: ما جاء في عهد البابا غريغوريوس السابع (٢٢ نيسان ١٠٧٣ - ٢٥ آيار ١٠٨٥ م)، في مجمّع رومة، في ١١ شباط ١٠٧٩م، وثيقة تحت عنوان (حضور المسيح في الإفخارستيا)، وممَّا جاء فيها: (... أنّ الخبز والخمر اللذين على المذبح، قد تحوّلا جوهرياً، بسرِّ الصلاة المُقدَّسة وبأقوال فادينا، إلى جسد سيّدنا يسوع المسيح الحقيقي والذاتيّ والمحيي، وإلى دمه، وأنّهما، بعد التقديس، جسدُ المسيح الحقيقيّ، الذي ولدَ من العذراء، والذي، وهو المُقدَّمُ لخلاصِ العالم، رُفع على الصليب، والذي يجلس إلى يمين الأب، وكذلك دمُ المسيح الحقيقي الذي سال من جَنْبه، لا بطريقة التّصوّر المجازيّ وقوّةِ السرّ، بل بطبيعته الخاصّة وفي حقيقة الجوهر)[1].

المجموعة الثانية، المسمّاة (أسرار الشفاء)، والتي تتكون من سرّين، وهما: سرّ التوبة، وسرّ مسحة المرضى:

أ) سرّ التوبة، (الاعتراف، أو المصالحة):

يعتقد النصارى أنّ هذا السرّ هبة ومنحة من الله الأب إلى من آمن بفداء الله الابن، ثُمّ وقع في خطايا يوميّة، قد تُبعله عن الشراكة مع الله الابن[2]، وجاء هذا في رسالة بابويّة بتاريخ ١١ حزيران ٤٥٢ م، بعنوان (سرّ التوبة)، عقب المجمع الخلقيدوني الذي اختتمت أعماله في مطلع تشرين الثاني ٤٥١ م، وفي عهد البابا لاون الأوّل الكبير (٢٩ أيلول سنة ٤٤٠ -١٠ تشرين الثاني ٤٦١ م)، ومِمّا جاء فيها: (إنّ رحمة الله المُتعدِّدة الأشكال قد عالجت خطايا البشر مُعالجة تجعل رجاء الحياة الأبديّة يعود، لا بنعمة المعموديّة فحسب، وإنّما بدواء التوبة أيضاً، فيستطيع الذين دنّسوا مواهب الولادة الجديدة، إذا ما أقرّوا بذنوبهم، أن يبلغوا إلى نيل مغفرتها...)[3].

كما أنّ هذ السرّ عندهم يمنحهم صفح الله الأب، ويُعيد الشركة معه، ومع الله الابن، ويُحقق

(١) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٢٤٣.

(٢) المسيحيّة في عقائدها (التعليم المسيحي الكاثوليكي)، ص ٤١١.

(٣) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ١٠٧.

المصالحة بين الخطاة وبين الكنيسة)[1]، ومن الوثائق البابوية في بيان ذلك ما جاء في المجمع الفاتيكاني الثاني (المسكوني الحادي والعشرون) ١١ تشرين الأوّل ١٩٦٢- ٨ كانون الأوّل ١٩٦٥م، في الجلسة الخامسة العلنيّة، ٢١ تشرين الثاني ١٩٦٤، تحت عنوان (دستور عقائدي في الكنيسة)، في الفصل الثاني، بعنوان (شعبُ الله)، وتحت عنوان فرعي منه (ممارسة الكهنوت المُشترك في الأسرار)، ومِمّا جاء فيها: (إنّ الذين يقبلون على سرِّ التوبة يُصيبون من رحمةِ الله مغفرةَ الإهانةِ التي أهانوه بها، ويتصالحون في الوقت نفسه مع الكنيسة التي جرحوها بخطيئتهم، والتي تسعى بمحبتها ومثالها وصلاتها في سبيل توبتهم...)[2].

والله الأب عند النصارى، هو وحده يملك سلطان مغفرة الخطايا، جاء في مرقس (من يقدِر أن يغفر الخطايا إلاّ الله وحده)[3]، وقد نقل هذا السلطان إلى الله الابن يسوع المسيح، فهو يقول عن نفسه كما عند مرقس (إنّ لابن الإنسان سُلطاناً على الأرض أن يغفر الخطايا)[4]، ويمارس هذا السلطان الإلهي كما عند مرقس (مغفورةٌ لك خطاياك)[5]، وقد أعطى هذا السلطان للناس، وذلك على ما ورد في إنجيل متى (... فلمّا رأى الجموع تعجّبُوا ومجّدوا اللهَ الذي أعطى النَّاسَ سُلطاناً مِثلَ هذا)[6].

وترى الكنيسة أنّها الوارثة الحقيقية لهذا السلطان، وهو مغفرة الخطايا، وذلك من خلال (سرّ التوبة)، ولأنها تزعم أنّها الوارثة لكل ما كان خاصاً برسل الله الابن وتلامذته. جاء في تعليم الكنيسة: (لقد أعطى الرب الرسل ما له من سُلطان خاصّ على مغفرة الخطايا، وأعطاهم أيضاً

---

(١) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، ص ٤٣٤.

(٢) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٩٣٥.

(٣) مرقس ٢: ٧.

(٤) مرقس ٢: ١٠.

(٥) مرقس ٢: ٥، لوقا ٧: ٤٨.

(٦) متى ٩: ٨.

السلطة لإجراء مُصالحة الخطاة مع الكنيسة. هذا الطابع الكنسي في مهمّتهم ينعكس خصوصاً في الكلمة التي وجّهها المسيح رسمياً إلى سمعان بطرس: (سأُعطيك مفاتيح ملكوت السماوات. فما ربطَته في الأرض رُبط في السماوات، وما حللته في الأرض حُلّ في السماوات) [متى ١٦: ١٩]. مهمة الربط والحل هذه التي أُعطيت لبطرس، قد أُعطيت أيضاً لهيئة الرسل متّحدين برئيسهم [متى ١٨: ١٨؛ ٢٨: ١٦- ٢٠][1]، وتعني لفظتا الحلّ والربط: أنّ من تعزلونه من شركتكم يُعزَل من شركته مع الله، وأنّ من تقبلونه ثانيةً في شركتكم، يقبله الله أيضاً في شركته. فالمصالحة مع الكنيسة لا تنفصل عن المصالحة مع الله)[2].

وجاء هذا التعليم الكنسي في علة وثائق بابويّة، وهو أن الكنيسة الوارثة الحقيقيّة لمغفرة الخطايا، ومن هذه الوثائق: بتاريخ ١٣ أيار ٤٩٥م، في مجمع منعقد بروما، في عهد البابا جيلازيوس الأوّل (١آذار٤٩٢ - ٢١ تشرين الثاني ٤٩٦م)، بعنوان (سُلْطان الكنيسة لمغفرة الخطايا)[3]، وبتاريخ ٩ تشرين الثاني ١٥١٨م بعنوان (الغفرانات)، عقب المجمع اللاتراني الخامس (المسكوني الثامن عشر) ٣ أيّار ١٥١٢ - ١٦ آذار ١٥١٧م، في عهد البابا لاون العاشر (١١ آذار ١٥١٣ - ١ كانون الأوّل ١٥٢١م)، في الرد على مارتن لوثر في إنكاره لمسألة مغفرة الخطايا بواسطة الكنيسة والبابا[4]، في آخر جلسة من جلسات المجمع التريدنتيني (المسكوني التاسع عشر) الطويل بتاريخ ٤ كانون الأوّل ١٥٦٣م، في عهد البابا بيوس الرابع (٢٥ كانون الأول ١٥٥٩- ٩ كانون الأوّل

(١) والنصّان من متى، هما: ١٨: ١٨ (فَالْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَا تَرْبِطُونَهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ قَدْ رُبِطَ فِي السَّمَاءِ، وَمَا تَحُلُّونَهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ قَدْ حُلَّ فِي السَّمَاءِ)، ٢٨: ١٦ - ٢٠ (وَأَمَّا التَّلاَمِيذُ الأَحَدَ عَشَرَ، فَذَهَبُوا إِلَى مِنْطَقَةِ الْجَلِيلِ، إِلَى الْجَبَلِ الَّذِي عَيَّنَهُ لَهُمْ يَسُوعُ. فَلَمَّا رَأَوْهُ، سَجَدُوا لَهُ. وَلَكِنَّ بَعْضَهُمْ شَكُّوا، فَتَقَدَّمَ يَسُوعُ وَكَلَّمَهُمْ قَائِلاً: دُفِعَ إِلَيَّ كُلُّ سُلْطَانٍ فِي السَّمَاءِ وَعَلَى الأَرْضِ. فَاذْهَبُوا إِذَنْ، وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ، وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ؛ وَعَلِّمُوهُمْ أَنْ يَعْمَلُوا بِكُلِّ مَا أَوْصَيْتُكُمْ بِهِ. وَهَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ إِلَى انْتِهَاءِ الزَّمَانِ).

(٢) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، ص ٤٣٥.

(٣) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ١١٩.

(٤) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٣٧٨.

١٥٦٥م، مرسوم في شأن الغفرانات[١].

وتعتقد الكنيسة أنّ الإقرار بالذنب للكاهن هو جزء جوهريّ في سرّ التوبة، فهي تُعلّم أن (على التائبين أن يعدّدوا، في الاعتراف، كُلّ الخطايا المميتة التي يتذكّرونها، بعد محاسبة للنفس متقنة، حتى وإن كانت هذه الخطايا حميمة جداً...)[٢].

وذهبت الكنيسة إلى أنّه لا يُمكن للتائب الاستغناء عن الاعتراف بالذنب، وقد جاء هذا في وثيقة من وثائق المجمع التريدنتيني (المسكوني التاسع عشر) في الجلسة الرابعة عشرة منه، في ٢٥ تشرين الثاني ١٥٥١م، تحت مُسمّى (تعليم في سرّ التوبة) في الفصل الخامس عن (الاعتراف)، وممّا جاء فيه: (... أنّ الاعتراف الكامل بالخطايا هو من وضع الربّ[٣]، وأنّه حق إلهيّ ضروريّ على جميع الذين سقطوا بعد المعموديّة...)[٤].

ب) سرّ مسحة للمرضى:

وتعتقد الكنيسة أنّ أفضل وسيلة أسراريّة للعناية بخلاص المرضى، هي: سرّ مسحة المرضى[٥]، وأنّ (الكنيسة تؤمن وتعترف بوجود سرّ من الأسرار السبعة، يهدف خصوصاً إلى مساندة المبتلين بالمرض، وهو مسحة المرضى)[٦].

(١) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٤٥٦.

(٢) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، ص ٤٣٨.

(٣) أي من كلام عيسى في اعتقادهم، جاء ذلك في رسالة يعقوب ٥: ١٦ (لِيَعْتَرِفْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ لأَخِيهِ بِزَلاَّتِهِ، وَصَلُّوا بَعْضُكُمْ لأَجْلِ بَعْضٍ، حَتَّى تُشْفَوْا. إِنَّ الصَّلاَةَ الْحَارَّةَ الَّتِي يَرْفَعُهَا الْبَارُّ لَهَا فَعَّالِيَّةٌ عَظِيمَةٌ)، وفي رسالة يوحنّا الأولى ١: ٩ (وَلكِنْ، إِنِ اعْتَرَفْنَا لله بِخَطَايَانَا، فَهُوَ جَدِيرٌ بِالثِّقَةِ وَعَادِلٌ، يَغْفِرُ لَنَا خَطَايَانَا وَيُطَهِّرُنَا مِنْ كُلِّ إِثْمٍ)، وفي إنجيل لوقا ٥: ١٤أ (...فَأَوْصَاهُ: «لاَ تُخْبِرْ أَحَداً، بَلِ اذْهَبْ وَاعْرِضْ نَفْسَكَ عَلَى الْكَاهِنِ، وَقَدِّمْ لِقَاءَ تَطْهِيرِكَ مَا أَمَرَ بِهِ مُوسَى، فَيَكُونَ ذلِكَ شَهَادَةً لَهُمْ)، و١٧: ١٤ - ١٦ (فَرَآهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: «اذْهَبُوا وَاعْرِضُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الْكَهَنَةِ!» وَفِيمَا كَانُوا ذَاهِبِينَ، طَهُرُوا، فَلَمَّا رَأَى وَاحِدٌ مِنْهُمْ أَنَّهُ قَدْ طَهُرَ، عَادَ وَهُوَ يُمَجِّدُ الله بِصَوْتٍ عَالٍ، وَخَرَّ عَلَى وَجْهِهِ عِنْدَ قَدَمَيْهِ مُقَدِّماً لَهُ الشُّكْرَ).

(٤) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٤٢٣.

(٥) التعليم المسيحي الكاثوليكي (المسيحيّة في عقائدها)، ص ٤٢٥.

(٦) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، ص ٤٥٢.

ومِمّا جاء في وثائق الكنيسة الكاثوليكية من الإيمان والاعتراف بهذا السرِّ: في عهد البابا لاون الرابع (١٠ نيسان ٨٤٧ - ١٧ تمّوز ٨٥٥م)، في مجمع بافيه، عام ٨٥٠م، بعنوان (سرِّ مسحة المرضى)[١]، وكذلك في وثيقة من وثائق المجمع التريدنتيني (المسكوني التاسع عشر) في الجلسة الرابعة عشرة منه، في ٢٥ تشرين الثاني ١٥٥١م، تحت مُسمًّى (تعليم في سرِّ مسحة المرضى)[٢].

في اعتقاد الكنيسة أن سرّ مسحة المرضى تكمن أهميّته في أُمور عديدة، منها: الاتّحاد بآلام المسيح: فهذا السرّ يُعطي المريض من القوة والموهبة ما يُمكّنه من الاتحاد بآلام المسيح اتّحاداً أوثق.

جاء في وثيقة من وثائق المجمع الفاتيكاني الثاني (المسكوني الحادي والعشرون) ١١ تشرين الأوّل ١٩٦٢ - ٨ كانون الأوّل ١٩٦٥م، في الجلسة الخامسة العلنيّة، ٢١ تشرين الثاني ١٩٦٤، تحت عنوان (دستور عقائدي في الكنيسة)، في الفصل الثاني، بعنوان (شعبُ الله)، وتحت عنوان فرعي منه (ممارسة الكهنوت المُشترك في الأسرار)[٣]، ومنها: تأهب للعبور الأخير: يُسمّى هذا السرّ (بسرّ المتنقلين، أو المائتين)، فهو على اعتقاد الكنيسة: يمنح حُجّة، للمشرفين على النزوح من هذه الحياة.

جاء ذلك في وثيقة من وثائق المجمع التريدنتيني (المسكوني التاسع عشر) في الجلسة الرابعة عشر منه، في ٢٥ تشرين الثاني ١٥٥١م، تحت مُسمًّى (تعليم في سرِّ مسحة المرضى) في (الفصل الثالث)[٤].

وتعتقد الكنيسة أنّها الوريثة الحقيقة لهذه السرِّ من ربّها يسوع، خاصة مع قوله الذي ذكره متى في إنجيله (اشفوا مرضى)[٥]، ورسالة يعقوب في الحث على ذلك أيضاً، وفيها: (وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ

(١) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٢١٩.

(٢) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٤٢٩.

(٣) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ٢ / ٩٣٥.

(٤) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٤٣١.

(٥) متى ١٠: ٨.

مَرِيضاً، فَلْيَسْتَدْعِ شُيُوخَ الْكَنِيسَةِ لِيُصَلُّوا مِنْ أَجْلِهِ وَيَدْهُنُوهُ بِزَيْتٍ بِاسْمِ الرَّبِّ. فَالصَّلاَةُ الْمَرْفُوعَةُ بِإِيمَانٍ تَشْفِي الْمَرِيضَ، إِذْ يُعِيدُ الرَّبُّ إِلَيْهِ الصِّحَّةَ. وَإِنْ كَانَ مَرَضُهُ بِسَبَبِ خَطِيئَةٍ مَا، يَغْفِرُهَا الرَّبُّ لَهُ)[١].

وذهبت الكنيسة إلى أنّ الذين يُعطَون هذا السرّ هم الذين بهم مرض ثقيل، أو الضعف الناتج عن الشيخوخة، في وضع صحّيّ يبدأ بتهديد حياتهم[٢]، ثُمّ إنّ الكنيسة أخذت تقصر مسحة المرضى على المشرفين على الموت؛ ولهذا سُمّيت (بالمسحة الأخيرة)[٣]، جاء ذلك في وثيقة من وثائق المجمع التريدنتيني (المسكوني التاسع عشر) في الجلسة الرابعة عشرة منه، في ٢٥ تشرين الثاني ١٥٥١م، تحت مُسمّى (تعليم في سرّ مسحة المرضى) في (الفصل الثالث)، (... ومن المُقرّر أيضاً أن تُعطى هذه المسحة للمرضى، ولاسيّما أولئك الذين هم في خطر شديد يُنذر بنهاية الحياة)[٤].

وعلى ما جاء في وثيقة بابويّة صادرة في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٧٢ باسم (الدستور الرسولي) في (مسحة المرضى المقدسة)، في أعقاب المجمع الفاتيكاني الثاني، في عهد بابا روما بولس السادس (٢١ حزيران ١٩٦٣ - ٦ آب ١٩٧٨م)، قد قرّر اعتماد القواعد التالية، في الطقس الروماني: (يُمنح سرّ مسحة المرضى للمرضى المخطرين، فيُدهَنون على جبهتهم ويديهم بزيت مبارك حسب الأصول زيت زيتون أو أيّ زيت آخر مستخرج من النبات مع القول مرّة واحدة: (بهذه المسحة المقدّسة، يشدّدك الربّ العظيم الرحمة بنعمة الروح القدس، ويُخلّصك وينهضك، بعد أن يُحرّرك من خطاياك)[٥].

---

(١) رسالة يعقوب ٥: ١٤-١٥.

(٢) التعليم المسيحي الكاثوليكي (المسيحيّة في عقائدها)، ص ٤٢٧.

(٣) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، ص ٤٥٢.

(٤) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٤٣١.

(٥) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، ص ٤٥٣، التعليم المسيحي الكاثوليكي (المسيحيّة في عقائدها)، ص ٤٢٦.

وللمجموعة الثالثة المُسمّاة: (أسرار خدمة الشركة)، وتتكون من: سرّ الكَهَنوت، وسرّ الزواج:

أ) سرّ الكهنوت:

وهذا السرّ في تعليم الكنيسة (هو السرّ الذي يكفل استمرار الرسالة التي وكلها المسيح إلى تلاميذه حتى منتهى الأزمنة، فهو سرّ الخدمة الرسوليّة، ويتضمن ثلاث رُتَب: الأسقفيّة، والكهنوت، والشمّاسيّة، وهو لا يُمنح إلا مرة واحدة، كما هي الحال في المعموديّة والتثبيت؛ لأنّه وسمٌ روحيٌّ لا يُبلى، ولا يُمكن، من ثَمَّ، أن يتكرّر، ولا أن يُمنَح بطريقة وقتيّة)[1].

وجاء في وثيقة من وثائق المجمع التريدنتيني (المسكوني التاسع عشر) الطويل من ١٣ كانون الأوّل ١٥٤٥ - ٤ كانون الأوّل ١٥٦٣م، وهي من وثائقه في عهد بابا روما بيوس الرابع (٢٥ كانون الأول ١٥٥٩- ٩ كانون الأول ١٥٦٥م)، في الجلسة الثالثة والعشرين منه، في ١٥ تمّوز ١٥٦٣م، تحت مُسمًّى (تعليم وقوانين في سرِّ الكهنوت)، في الفصل الثالث (سرِّيّة الكهنوت)[2].

وإن ممارسة الخدمة بوسامة سرّ الكهنوت في الكنيسة الكاثوليكيّة موزّعة على درجات ثلاث: أساقفة، وكهنة، وشمامسة[3].

جاء في وثيقة من وثائق المجمع الفاتيكاني الثاني (المسكوني الحادي والعشرون)، في الجلسة الخامسة العلنيّة، ٢١ تشرين الثاني ١٩٦٤، تحت عنوان (دستور عقائدي في الكنيسة)، في الفصل الثالث، بعنوان (نظامُ السُّلطةِ في الكنيسةِ ولا سيَّما الأسقفيّة)، وتحت عنوان فرعي منه (الأساقفة خلفاء الرسل)، ومِمّا جاء فيها: (... فهكذا إذن تسلَّمَ الأساقفةُ خِدمة الجماعة الراعويّة يُعاونُهم الكهنةُ والشمامسة، ويرئِسون، بالنيابة عن الله، القطيعَ الذين هم رُعاتُه، بسلطة التعليم، وكهنوت العبادة المُقدّسة)[4].

(١) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، ص ٤٦٠، ٤٧٢.

(٢) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٤٤٦.

(٣) التعليم المسيحي الكاثوليكي (المسيحيّة في عقائدها)، ص ٤٣٢.

(٤) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ٢ / ٩٤٣.

ووظيفة الأسقف تحتلّ المرتبة الأولى بين الخِدَم المختلِفة التي تُمارَس في الكنيسة، فترى الكنيسة أنّ الأساقفة بتسلسُلِهم في خلافة متصلة من بداية العهد الكنسي، فسائل ينتقل بها الزرع الرسولي، كما جاء ذلك في وثيقة من وثائق المجمع الفاتيكاني الثاني (المسكوني الحادي والعشرون) ١١ تشرين الأوّل ١٩٦٢ - ٨ كانون الأوّل ١٩٦٥م، في الجلسة الخامسة العلنيّة، ٢١ تشرين الثاني ١٩٦٤، تحت عنوان (دستور عقائدي في الكنيسة)، في الفصل الثالث، بعنوان (نظامُ السُّلطةِ في الكنيسة ولا سيّما الأسقفيّة)، وتحت عنوان فرعي منه (الأساقفة خلفاء الرُّسل)[1].

وتعتقد الكنيسة أنّ وظيفة الأساقفة الرعائيّة انتقلت إلى الكهنة، وإنّما بدرجة أقلّ، فقد أقيم هؤلاء في الكهنوت أعواناً للأساقفة، وبحكم اتحاد الكهنة بالدرجة الأسقفيّة، فهم يشتركون مع الأساقفة في السلطة التي يبني ربّهم المسيح بها جسده ويُقدِّسه ويسوسه، لذلك فإنّ كهنوت الكهنة يُعطى بواسطة سرٍّ خاص يَسِمُهُم بوَسْم مميَّز، بمسحة ربّهم الروح القدس، فيُصيّرهم على شبه ربّهم المسيح بكونه الكاهن الأعظم، ويُمكّنهم ذلك من العمل باسمه فيُكرّزوا بالإنجيل، ويكونوا رعاة لأهل ملّتهم، ويُقيموا لهم شعائرهم الدينيّة، ولكنّهم لا يملكون مهمة الحبريّة العليا، وهم أيضاً يخضعون للأساقفة في مُمارسة سُلْطتهم، إلاّ أنّهم متّحدون معهم في الكرامة الكهنوتيّة، كما ورد ذلك في وثيقة من وثائق المجمع الفاتيكاني الثاني (المسكوني الحادي والعشرون) ١١ تشرين الأوّل ١٩٦٢ - ٨ كانون الأوّل ١٩٦٥م، في الجلسة الخامسة العلنيّة، ٢١ تشرين الثاني ١٩٦٤، تحت عنوان (دستور عقائدي في الكنيسة)، في الفصل الثالث، بعنوان (نظامُ السُّلطةِ في الكنيسة ولا سيّما الأسقفيّة)، وتحت عنوان فرعي منه (الكهنة في علاقاتهم بالمسيح والأساقفة والشعب المسيحي)[2].

وفي الدرجة الدنيا من درجات الرُّتب المُقدّسة، يوجد الشمامسة، والذين رُسِموا لا بقصد

---

(١) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ٢ / ٩٤٣.

(٢) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ٢ / ٩٥٣، التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، ص ٤٦٧.

الكهنوت بل بقصد الخدمة.

ويشترك الشمامسة اشتراكاً واضحاً في أعمال الكنيسة، فمن صلاحيّاتهم أن يُعاونوا الأسقف والكهنة في إقامة أسرار الكنيسة، ولا سيّما الاحتفال بالإفخارستيا وتوزيعها، وأن يحضروا عقد الزواج ويُباركوه، ويُعلنوا الإنجيل ويعظوا، ويرأسوا صلاة الجنازة...، كما ورد ذلك في وثيقة من وثائق المجمع الفاتيكاني الثاني (المسكوني الحادي والعشرون) ١١ تشرين الأوّل ١٩٦٢- ٨ كانون الأوّل ١٩٦٥م، في الجلسة الخامسة العلنيّة، ٢١ تشرين الثاني ١٩٦٤، تحت عنوان (دستور عقائدي في الكنيسة)، في الفصل الثالث، بعنوان (نظامُ السُّلطةِ في الكنيسة ولا سيّما الأسقفيّة)، وتحت عنوان فرعي منه (الشمامسة)[(١)].

في الكنيسة الكاثوليكيّة ترتبط سيامة الأسقف والكاهن، باستثناء الشمامسة، باعتناق العزوبيّة، بالتزام الحياة من دون زواج، وتعتقد الكنيسة أنّ ذلك لأجل ملكوت السماوات[(٢)].

ب) سرّ الزواج:

جاء في تعليم الكنيسة أنّ (عهد الزواج الذي به تقوم بين رجل وامرأة شركة تشمل الحياة كلّها، وتهدف، من طبيعتها، إلى خير الزوجين وإلى إنجاب البنين وتربيتهم، قد رقّاه المسيح الربّ، بين

---

(١) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ٢ / ٩٥٥، التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، ص ٤٦٨- ٤٦٩.

(٢) جاء في إنجيل متى: في حواريين يسوع وتلامذته، وممّا جاء فيه: (... فَقَالَ لَهُ تَلاَمِيذُهُ: «إِنْ كَانَتْ هكَذَا حَالَةُ الرَّجُلِ مَعَ الْمَرْأَةِ، فَلاَ يُوافِقُ أَنْ يَتَزَوَّجَ!» فَأَجَابَهُمْ: «هَذَا الْكَلاَمُ لاَ يَقْبَلُهُ الْجَمِيعُ، بَلِ الَّذِينَ أُنعِمَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ. فَإِنَّ بَعْضَ الْخِصْيَانِ يُولَدُونَ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ خِصْيَاناً، وَبَعْضُهُمْ قَدْ خَصَاهُمُ النَّاسُ، وَغَيْرُهُمْ قَدْ خَصَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْ أَجْلِ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقْبَلَ هَذَا، فَلْيَقْبَلْهُ»).
وانظر أيضاً في الوثائق البابويّة التالية:
أ) وثيقة من وثائق المجمع التريدنتيني (المسكوني التاسع عشر) الطويل (١٣ كانون الأول١٥٤٥ - ٤ كانون الأول١٥٦٣م)، في الجلسة الرابعة والعشرين ١١ تشرين الثاني ١٥٦٣م، تحت عنوان (تعليم وقوانين في سرّ الزواج)، الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٤٥١.
ب) وثيقة في عهد البابا بيوس الثاني عشر (٢ آذار ١٩٣٩- ٩ تشرين الأوّل ١٩٥٨م) في الدستور الرسولي بعنوان (قيمة الزواج والبتوليّة) بتاريخ ٢٥ آذار ١٩٥٤م، الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ٢ / ٨٧٠.

المعمّدين، إلى كرامة سرّ)[1]، وكذا جاء في وثيقة من وثائق المجمع التريدنتيني (المسكوني التاسع عشر) الطويل (١٣ كانون الأول ١٥٤٥ - ٤ كانون الأول ١٥٦٣م)، في الجلسة الرابعة والعشرين ١١ تشرين الثاني ١٥٦٣م، تحت عنوان (تعليم وقوانين في سرّ الزواج)[2].

وتعتقد الكنيسة أنّ بسرّ الزواج يُعطى أتباعها القوة ويتبادلون الصفح، ويحمل بعضهم أثقال بعض، ويخضع بعضهم لبعض، كما جاء في رسالة بولس إلى أهل أُفسس[3].

جاء في وثيقة بابويّة في عهد بابا روما يوحنّا بولس الثاني (من ١٦ تشرين الأوّل ١٩٧٨ - ٢ أبريل ٢٠٠٥م)، سُمِّيت بالإرشاد الرسولي في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٨١م، تحت عنوان (الزوجان شاهدان للخلاص) ما يلي: (... فالأزواج إذن، بالنسبة إلى الكنيسة، تذكيرٌ مستمرٌّ بما حدث على الصليب. إنهم شهود أحدهم للآخر وللأولاد على الخلاص الذي يجعلهما السرُّ شريكين فيه. فالزواج، ككُلّ سرّ، استذكار لحدث الخلاص...)[4].

والعروسان في نظر الكنيسة الكاثوليكيّة، هما اللذان يمنحان السرّ أحدهما الآخر بإعلان إرادتهما الزواج (قول"نعم"؛ الرّضى)، (أقبَلُكِ زوجةً لي...)، (أقبلكَ زوجاً لي...).

فالكاهن أو الشمّاس الذي يحضر حفلة الزواج، يتقبّل رضى الزوجين باسم الكنيسة، ويمنحهما بركة الكنيسة.

فتعتقد الكنيسة أنّ ميثاق الزوجين يندمج في الميثاق القائم بين الله والبشر، فالمحبّة الإلهيّة هي التي تحتضن هذا الزواج، ثُمّ إن حضور الخادم الكنسي والشاهدين، في اعتقاد الكنيسة، يعبّر

---

(١) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، ص ٤٧٧.

(٢) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٤٤٩.

(٣) ومن هذه الرسالة البولسيّة: (لِذَلِكَ لاَ تَكُونُوا أَغْبِيَاءَ، بَلِ افْهَمُوا مَا هِيَ مَشِيئَةُ الرَّبِّ. لاَ تَسْكَرُوا بِالْخَمْرِ، فَفِيهَا الخَلاعَةُ، وَإِنَّمَا امْتَلِئُوا بِالرُّوحِ، مُحَدِّثِينَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً بِمَزَامِيرَ وَتَسَابِيحَ وَأَنَاشِيدَ رُوحِيَّةٍ، مُرَنِّمِينَ وَمُرَتِّلِينَ بِقُلُوبِكُمْ لِلرَّبِّ؛ رَافِعِينَ الشُّكْرَ كُلَّ حِينٍ وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ لِلهِ وَالآبِ، بِاسْمِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ؛ خَاضِعِينَ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ فِي مَخَافَةِ الْمَسِيحِ). إلى أهل أفسس ٥: ١٧ ٢١.

(٤) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ٢ / ١١٢٨.

بطريقة مرئيّة عن أن الزواج هو حقيقة كنسيّة، فيُجدر أن يُحتفل به في إطار ليترجيّ علنيّ[1].

جاء في وثيقة من وثائق المجمع التريدنتيني (المسكوني التاسع عشر) الطويل (١٣ كانون الأول ١٥٤٥ - ٤ كانون الأول ١٥٦٣م)، في الجلسة الرابعة والعشرين ١١ تشرين الثاني ١٥٦٣م، تحت عنوان (قوانين في شأن إصلاح الزواج)[2].

حكم تعدّد الزوجات في الكنيسة الكاثوليكيّة:

تُحرِّم الكنيسة مسألة تعدّد الزوجات، فجاء في تعليمها: (المساواة في الكرامة الشخصيّة التي يجب الاعتراف بها للمرأة وللرجل، في نطاق الحُبّ المتبادَل والكامل، تُظهِر بوضوح وحدةَ الزواج التي ثبّتها السيد المسيح، وتعدّد الزوجات ينقض هذه المساواة في الكرامة، ويُناقض الحبّ الزوجيّ في وحدانيّته ومُطلقيّته)[3].

جاء في وثيقة من وثائق المجمع التريدنتيني (المسكوني التاسع عشر)، في الجلسة الرابعة والعشرين ١١ تشرين الثاني ١٥٦٣م، تحت عنوان (قوانين في شان سرّ الزواج): (إذا قال أحدٌ بأنّه يحقّ للمسيحيين أن يتخذوا عدّةَ زوجاتٍ معاً، وأن ذلك لم يمنعه أيُّ شرعٍ إلهيّ فليكن محروماً)[4].

(١) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، ص ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٨٠، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٧، التعليم المسيحي الكاثوليكي (المسيحيّة في عقائدها)، ص ٤٣٩ - ٤٤١.

(٢) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٤٥٣.

(٣) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، ص ٤٨٩.

(٤) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٤٥٠.

حكم الطلاق في الكنيسة الكاثوليكيّة:

تحرّم الكنيسة الكاثوليكيّة الطلاق، وذلك بسبب أن من عناصر الزواج الأساسيّة عندهم (أمانته التي لا تنحل)[١].

وتُعلّم الكنيسة أنّه (قد علّم المسيح، بلا مواربة، في كرازته، المعنى الأصيل لاتّحاد الرجل والمرأة، كما أراده الخالق منذ البدء: فالسّماح بتطليق المرأة، في شريعة موسى، ما كان سوى تساهل أمته)[٢]. فاتّحاد الرجل والمرأة في الزواج لا يقبل الانفصام؛ لأنّ الله نفسه قد أقرّه (فلا يُفرّق الإنسان ما جمعه الله) [متى ١٩: ٦].... هذا الاتّحاد الحميم، بصفته عطاءً مُتبادَلاً بين شخصين، وإذا انضاف إليه خير البنين، يقتضي من الزوجين أمانةً تامّة، وارتباط الواحد بالآخر ارتباطاً لا ينفصم)[٣].

ومن وثائق البابويّة في تقرير منع الطلاق، وثيقة من وثائق المجمع التريدنتيني (المسكوني التاسع عشر) الطويل (١٣ كانون الأول ١٥٤٥ - ٤ كانون الأول ١٥٦٣م)، في الجلسة الرابعة والعشرين ١١ تشرين الثاني ١٥٦٣م، تحت عنوان (تعليم وقوانين في سرّ الزواج)[٤]، وكذلك ما جاء في وثيقة بابويّة في عهد بابا روما يوحنّا بولس الثاني (من ١٦ تشرين الأوّل ١٩٧٨ - ٢ إبريل ٢٠٠٥م)، سُمّيت بالإرشاد الرسولي في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٨١م، تحت عنوان (الزوجان شاهدان للخلاص)[٥].

ولم تُثبت الكنيسة الكاثوليكيّة الطلاق بين أتباعها إلاّ في حالة الخيانة الزوجيّة (الزنى)، ومن وثائق البابويّة في هذه المسألة، ما جاء في عهد البابا إسكندر الثاني (٧ أيلول ١١٥٩ - ٣٠ آب

---

(١) التعليم المسيحي الكاثوليكي (المسيحيّة في عقائدها)، ص ٤٤٦.

(٢) كما في إنجيل متى: (... فَسَأَلُوهُ: «فَلِمَاذَا أَوْصَى مُوسَى بِأَنْ تُعْطَى الزَّوْجَةُ وَثِيقَةَ طَلاَقٍ فَتَطَلَّقُ؟» أَجَابَ: «بِسَبَبِ قَسَاوَةِ قُلُوبِكُمْ، سَمَحَ لَكُمْ مُوسَى بِتَطْلِيقِ زَوْجَاتِكُمْ. وَلَكِنَّ الأَمْرَ لَمْ يَكُنْ هَكَذَا مُنْذُ الْبَدْءِ») ١٩: ٧،٨.

(٣) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، ص ٤٨٠، ٤٨٩.

(٤) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٤٤٩.

(٥) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ٢ / ١١٢٨.

١١٨١م)، في المجمع اللاتراني الثالث (المسكوني الحادي عشر) (٥ - ١٩ أو ٢٢ آذار ١١٧٩م)، في الجلسة الثالثة (١٩ أو ٢٢ آذار)، بعنوان (رابط الزواج)، وفيها: (أنّه لا يجوز للرجل أن يُطلّق امرأته إلا لِزنى [متى ٥: ٣٢[1]، ١٩: ٩[2]])[3]، وكذلك في وثيقة بابوية في عهد البابا انّوشنتيوس (انوسنت) الثالث (٨ كانون الثاني ١١٩٨ - ١٦ تمّوز ١٢١٦م)، في رسالة إلى أسقف طبريا، أوائل ١٢٠١م[4]، وكذلك ما جاء في وثيقة بابويّة في عهد بابا روما بيوس الحادي عشر (٦ شباط ١٩٢٢ - ١٠ شباط ١٩٣٩م) بعنوان (الطلاق) في ٣١ كانون الأول ١٩٣٠م[5].

سابعاً: عقيدتهم في مريم البتول، أم عيسى عليه السلام، المُصطفاة والمُطهّرة:

أ) عقيدة أنّ مريم (والدة الإله):

يعتقد الكاثوليك أن مريم، هي العذراء، (والدة الإله)، اختارها الرّب (الله الأب)، لتكون أُماً لابنه (الله الابن)، كما أنّها عندهم أيضاً هي أمّ لكل من يؤمن بأن مولودها (الله الابن) نزل وصُلب فداءً للبشريّة، أي أنّها أم للنصارى المُثلثة[6]، وقد أطلق عليها لوقا في إنجيله (أمّ الرّب)[7]، و(أم

---

(١) (... أَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ مَنْ طَلَّقَ زَوْجَتَهُ لِغَيْرِ عِلَّةِ الزِّنَى، فَهُوَ يَجْعَلُهَا تَرْتَكِبُ الزِّنَى. وَمَنْ تَزَوَّجَ بِمُطَلَّقَةٍ، فَهُوَ يَرْتَكِبُ الزِّنَى).

(٢) (... وَلكِنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ الَّذِي يُطَلِّقُ زَوْجَتَهُ لِغَيْرِ عِلَّةِ الزِّنَى، وَيَتَزَوَّجُ بِغَيْرِهَا، فَإِنَّهُ يَرْتَكِبُ الزِّنَى. وَالَّذِي يَتَزَوَّجُ بِمُطَلَّقَةٍ، يَرْتَكِبُ الزِّنَى).

(٣) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٢٥٤.

(٤) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٢٦٥.

(٥) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ٢ / ٨٠٣.

(٦) التعليم المسيحي الكاثوليكي، (المسيحيّة في عقائدها)، ص ١٨٩، ١٩٤.

(٧) (وَلَمَّا سَمِعَتْ أَلِيصَابَاتُ سَلاَمَ مَرْيَمَ، قَفَزَ الْجَنِينُ دَاخِلَ بَطْنِهَا. وَامْتَلأَتْ أَلِيصَابَاتُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ، وَهَتَفَتْ بِصَوْتٍ عَالٍ قَائِلَةً: «مُبَارَكَةٌ أَنْتِ بَيْنَ النِّسَاءِ! وَمُبَارَكَةٌ ثَمَرَةُ بَطْنِكِ! فَمِنْ أَيْنَ لِي هَذَا: أَنْ تَأْتِيَ إِلَيَّ أُمُّ رَبِّي؟ فَإِنَّهُ مَا إِنْ وَقَعَ صَوْتُ سَلاَمِكِ فِي أُذُنَيَّ حَتَّى قَفَزَ الْجَنِينُ ابْتِهَاجاً فِي بَطْنِي: فَطُوبَى لِلَّتِي آمَنَتْ أَنَّهُ سَيَتِمُّ مَا قِيلَ لَهَا مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ) لوقا ١: ٤١ ـ ٤٥.

ابن الله)[1].

وكانت هذه العقيدة، وهي أنّ مريم (والدة الإله، أو، أُمّ الله)، قد تقررت في الأيام الأولى للنصرانيّة المُثلِّثة، في مجمع أفسس الأول (المسكوني الثالث) ٢٢ حزيران - أيلول ٤٣١، في جلسة الكيرلّيسيين الأولى، في رسالة كيرلّس الإسكندري الثانية إلى نسطوريوس، والتي كُتبت بين ٢٦ كانون الثاني، و٢٤ شباط سنة ٤٣٠م، وتُليت على المجمع وأثبتها آباؤهم، تحت مُسمّى (تجسّد ابن الله)[2].

وجاء في تعليم الكنيسة الكاثوليكيّة: (أنّ لقب التكريم "والدة الإله" نُلاقيه للمرّة الأولى في صلاة تعودُ إلى حوالي السنة ٣٠٠م، وحتى اليوم لا نزال نتلو الصلاة ذاتها: (يا والدة الإله القدّيسة، لقد لجأنا إلى حنانك وحمايتك، فلا تُعرضي عن ابتهالاتنا في المحن، بل نجّينا في كُلّ وقت من جميع المخاطر، أيتها العذراء المباركة والجديرة بالمديح، يا سيّدتنا وشفيعتنا ونصيرتنا، قودينا إلى ابنك، توسّطي بنا لدى ابنك، ضعينا أمام ابنك)[3].

ومن خلال هذه العقيدة، في أنّ مريم هي والدة الإله، جعل النصارى مريم باب الخلاص لجميع الذين ينتمون إلى ربّهم يسوع المسيح، الذي حملت به، فأساس مهام مريم، عندهم، هي، قيادتها لهم

---

(١) جاء في إنجيل لوقا: (وَفِي شَهرِهَا السَّادِسِ، أُرسِلَ المَلاكُ جِبْرَائِيلُ مِنْ قِبَلِ الله إِلَى مَدِينَةٍ بِالجَلِيلِ اسْمُهَا النَّاصِرَةُ، إِلَى عَذْرَاءَ مَخْطُوبَةٍ لِرَجُلٍ اسْمُهُ يُوسُفُ، مِنْ بَيْتِ دَاوُدَ، وَاسْمُ العَذْرَاءِ مَرْيَمُ. فَدَخَلَ المَلاكُ وَقَالَ لَهَا: «سَلامٌ، أَيَّتُهَا المُنْعَمُ عَلَيهَا! الرَّبُّ مَعَكِ: مُبَارَكَةٌ أَنتِ بَيْنَ النِّسَاءِ». فَاضْطَرَبَتْ لِكَلامِ المَلاكِ، وَسَاءَلَتْ نَفْسَهَا: «مَا عَسَى أَنْ تَكُونَ هَذِهِ التَّحِيَّةُ!» فَقَالَ لَهَا المَلاكُ: «لا تَخَافِي يَامَرْيَمُ، فَإِنَّكِ قَدْ نِلْتِ نِعْمَةً عِنْدَ اللهِ! وَهَا أَنْتِ سَتَحْبَلِينَ وَتَلِدِينَ ابناً، وَتُسَمِّينَهُ يَسُوعَ. إِنَّهُ يَكُونُ عَظِيماً، وَابْنَ العَلِيِّ يُدعَى، وَيَمْنَحُهُ الرَّبُّ الإِلهُ عَرْشَ دَاوُدَ أَبِيهِ، فَيَمْلِكُ عَلَى بَيْتِ يَعْقُوبَ إِلَى الأَبَدِ، وَلَنْ يَكُونَ لِمُلكِهِ نِهَايَةٌ».
فَقَالَتْ مَرْيَمُ لِلمَلاكِ: «كَيفَ يَحْدُثُ هَذَا، وَأَنَا لَسْتُ أَعْرِفُ رَجُلاً؟» فَأَجَابَهَا المَلاكُ: «الرُّوحُ القُدُسُ يَحِلُّ عَلَيْكِ، وَقُدْرَةُ العَلِيِّ تُظَلِّلُكِ. لِذلِكَ أَيضاً فَالقُدُّوسُ المَوْلُودُ مِنكِ يُدْعَى ابْنَ الله) ١: ٢٦ ٣٥.
وكذلك جاء في رسالة رسولهم بولس إلى أهل غلاطيّة، قوله: (ولكنْ لمّا جاء ملءُ الزمانِ أرسلَ اللهُ ابْنَهُ مولُوداً من امرأة) ٤: ٤.

(٢) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٨٧.

(٣) التعليم المسيحي الكاثوليكي، (المسيحيّة في عقائدها)، ص ١٩٥.

إلى ربّهم يسوع المسيح ابنها؛ لذلك هي تُدعى في الكنيسة بألقاب مختلفة، فهي: المحامية، والنصيرة، والظهيرة، والشفيعة، والوسيطة "وسيطة كل النعم"[1]، ويظهر هذا بنوع خاصّ في الجزء الأخير من صلاة (السلام عليك يا مريم) المشهورة جداً عند النصارى: (يا قدّيسة مريم، يا والدة الإله، صلّي لأجلنا نحن الخُطأة، الآن وفي ساعة موتنا)[2].

ب) عقيدة بتوليّة مريم الدائمة:

فالكنيسة الكاثوليكيّة تُثبتُ هذه العقيدة، أنّ مريم بقيت بتولاً ليس قبل الولادة وحسب، بل في الولادة، وبعد الولادة، وأثبت هذه العقيدة المجمع القسطنطيني الثاني (المسكوني الخامس) ٥ أيار - ٢ حزيران ٥٥٣، في الجلسة الثامنة، منه بمُسمًّى (قوانين) في ٢ حزيران ٥٥٣م، تحت عنوان (الحكم بالحرم على الفصول الثلاثة)[3].

جـ) عقيدة الحبل بلا دنس:

فهذه العقيدة كاثوليكيّة خاصة، ومن أهمّ العقائد المريميّة عند الكاثوليك.

ظهر الخلاف بين الكاثوليك في الإيمان بهذه العقيدة في عهد بابا روما سيكستوس الرابع (٩ آب ١٤٧١ - ١٢ آب ١٤٨٤م)، فقد كان هذا البابا يؤيّد هذه العقيدة ضد بعض الدومنيكان الكاثوليك، وقد نشرت البابويّة وثيقة تأييد البابا سيكستوس لهذه العقيدة، في دستور بعنوان

---

(١) كما جاء ذلك في وثيقة بابويّة في عهد بابا روما لاون الثالث عشر (٢٠ شباط ١٨٧٨ - ٢٠ تموز ١٩٠٣)، بعنوان (مريم وسيطة النِّعم) بتاريخ ٢٢ أيلول ١٨٩١ م، انظر: الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ٢ / ٦٩١.

(٢) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، ص ٢٩٩، ٣٠٠، التعليم المسيحي الكاثوليكي، (المسيحيّة في عقائدها)، ص ١٩٦.

(٣) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ١٤٧.

وعقيدة أم مريم (والدة الإله، أو أم الله)، وعقيدة (بتوليّة مريم الدائمة) عند الكاثوليك وباقي الطوائف الخلقيدونية، هما أيضاً عن الأرثوذكس الأقباط وباقي الطوائف اللاخلقيدونيّة، وخالف في ذلك البروتستانت فأنكروا عليها لقب أم الله، اكتفاءً بأنها أم المسيح، كما أنكروا دوام بتوليتها بعد ولادتها، بل بالغت بعض الطوائف البروتستنتيّة في تحقيرها رضي الله عنها. انظر: الفروق العقيديّة بين المذاهب المسيحيّة، ص٣٢، ٣٣، القس إبراهيم عبد السيد، راعي كنيسة مار جرجس بحدائق المعادي، الطوائف المسيحيّة في مصر والعالم، ص ٨٣، ماهر يونان.

(الحبَل بمريم بلا دنس) في تاريخ ٤ أيلول ١٤٨٣م، ثُمّ جدّد بابا روما إسكندر السابع (٧ نيسان ١٦٥٥ - ٢٢ أيّار ١٦٦٧م) تأيد المقام البابوي لهذه العقيدة في رسالة بابويّة مختصرة في كانون الأوّل بعنوان (الحبل الطاهر بمريم)، ولكنّ الخلاف داخل الطائفة الكاثوليكيّة في شأن هذه العقيدة لم يُحلّ إلاّ في عهد البابا إكليمنضوس الحادي عشر (٢٣ تشرين الثاني ١٧٠٠ - ١٩ آذار ١٧٢١م)، في دستور نُشر في ٦ كانون الأوّل ١٧٠٨، وثبتت هذه العقيدة رسمياً على كُلّ الكاثوليك، وحُدّدَ معناها في عهد البابا بيوس التاسع (١٦ حُزيران ١٧٤٦ - ٧ شباط ١٨٧٨م) في براءة بابويّة من شقين، الشق الأوّل بعنوان (سموّ مريم عموماً)، والشق الثاني بعنوان (تحديد الحبل الطاهر)، بتاريخ ٨ كانون الأوّل ١٨٥٤م[١].

وتُفسّر الكنيسة الكاثوليكيّة، هذه العقيدة، بأنَّ المقصود أنّ مريم كانت، منذ اللحظة الأولى لتكوينها، حُرّة من الخطيئة الأصليّة. فلم يُحبَل بها كسائر النّاس في حالةٍ من البعد عن الله، بل أحاطت بها منذ البدء محبّةُ الله ونعمتُه؛ لذلك عاشت أيضاً في حياتها الشخصيّة اللاحقة من دون أيّ خطيئة شخصيّة، إنّها كُلّيّة القداسة منذ البدء، فائقة القداسة على كُلّ صعيد[٢].

عِلماً بأن الكنيسة الكاثوليكيّة تعترف (أن هذه العقيدة (الحبل بلا دنس) لا يتضمّنها الكتاب المقدس إلاّ على نحو غير مباشِر وبوجه استنتاجي، فهي نتاج نظرة إيمانيّة شاملة للشهادات الكتابيّة في مريم ولمكانتها في تاريخ الخلاص، وليس من أقوال كتابيّة خاصّة)[٣].

---

(١) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٣٧٠، ٣٧٣، ٤٨٣، ٦٠٥، ٦٠٦.

(٢) التعليم المسيحي الكاثوليكي، (المسيحيّة في عقائدها)، ص ٢٠٥.
وتنكر الكنيسة الأرثوذكسيّة المرقسيّة القبطيّة اللاخلقيدونيّة ومن تبعها من الكنائس؛ عقيدة الحبل بلا دنس، يقول الأنبا غريغوريوس الأسقف العام في الكنيسة الأرثوذكسيّة، في كتابه اللاهوت المقارن، ص٣٥٦: (إننا معشر الأرثوذكس ننكر على الكاثوليك اعتقادهم بأن القديسة مريم قد حُبل بها بلا دنس، فالعذراء لم يُحبل بها بلا دنس، ولكنّها حبَلت بالمسيح بلا دنس، بعد أن حلّ الروح القدس عليها وطهّر أحشاءها لحلول كلمة الله فيها...).

(٣) التعليم المسيحي الكاثوليكي، (المسيحيّة في عقائدها)، ص ٢٠٣.

د) عقيدة انتقال مريم بجسدِها إلى السماء:

تُعلِّم الكنيسة الكاثوليكيّة في شأن هذه العقيدة، بقولها: (... أخيراً فإنّ العذراء الطاهرة، بعد أنْ عصمها الله من كُلّ صلة بالخطيئة الأصليّة، وطوت شوط حياتها الأرضيّة؛ نُقِلت جسداً وروحاً إلى مجد السَّماءِ، وأعلنها الرّبُّ سُلطانةَ الكون بذلك أكثر ما يكون الشبه بابنها، ربّ الأرباب، وقاهر الخطيئة والموت)[1].

وتعترف الكنيسة الكاثوليكيّة (أن هذه العقيدة لا ترتكز على شهادات كتابيّة مباشرة؛ إلاّ أن التقليد يشهد لهذه الحقيقة الإيمانيّة منذ القرن السادس، أوّل الأمر في روايات أسطوريّة ليس لها أيّ قيمة تاريخيّة، ولكنّها تُعبّر عن اعتقاد إيمانيّ. وقد وافقت الكنيسة على هذا الاعتقاد الإيمانيّ على مرّ الأجيال، كما يظهر من خلال عيد "انتقال مريم العذراء إلى السماء" في ١٥ آب، والذي انتشر منذ القرن الخامس الميلادي. فهي ليست عقيدة جديدة في مضمونها، وإنّما تقليد يعود إلى أجيال كثيرة، متأصّل في مجمل الكتاب المُقدّس الذي يتضمّنه، وإن كان على نحو غير مباشر)[2].

وقد ثبتت هذه العقيدة ووجب الإيمان بها على الكاثوليك كُلّهم، في عهد بابا روما بيوس الثاني عشر (٢ آذار ١٩٣٩ - ٩ تشرين الأوّل ١٩٥٨م)، بدستور رسولي في ١ تشرين الثاني ١٩٥٠م، بعنوان (تحديد انتقال مريم إلى السماء)، ومِمَّا جاء فيه: (... لا بدّ خُصوصاً من التذكّر أن مريم، منذ القرن الثاني، يقدِّمها الآباء القدّيسون كحواء الجديدة، الخاضعة بلا ريب لآدم الثاني، ولكنّها وثيقة الاتحاد به... أمّ الله الجليلة القدر، المتحدة منذ الأبد بيسوع المسيح، بطريقة سريّة، الطاهرة تماماً في حبَلِها، والعذراء النقيّة جدّاً في أمومتها الإلهيّة، الرفيقة الكريمة للفادي الإلهي الذي أحرز ظفراً كاملاً على الموت وعواقبه، قد حصلت أخيراً، كتتويج أسمى لامتيازاتها، على أن تُحفظ من فساد القبر، ومثل ابنها، بعد الغلبة على الموت، أن تُرفع بالجسد والنفس إلى المجد في أعلى السماوات،

(١) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، ص ٢٩٩.

(٢) التعليم المسيحي الكاثوليكي، (المسيحيّة في عقائدها)، ص ٢٠٦.

لتشرق هناك كملكة إلى يمين ابنها ملك الدهور الذي لا يموت.

بسلطان ربّنا يسوع المسيح والرسولين المغبوطين بطرس وبولس، وبسلطاننا الخاص، نُثبت، ونُعْلِن ونُحدِّد، كعقيدة أوحى بها الله، أنّ مريم أمّ الله الكليّة الطهر، مريم الدائمة البتوليّة، بعد أن أنهت حياتها على الأرض، قد رُفِعت بجسدِها ونفسها إلى المجد السماوي.

وبالتالي إذا تجرّأ أحدٌ، لا سمح الله، ووضع بإرادته موضع الشكّ ما حدّدناه، فليعلم أنّه تخلّى كُليّاً عن الإيمان الإلهي والكاثوليكي)[1].

ثامناً: عقيدة المطهر:

هي عقيدة كاثوليكيّة خاصة، مفهومها عندهم، أنّ (المطهر) مكان تذهب إليه نفوس الأموات التي لها بعض الهفوات والخطايا الصغيرة وبعض السيئات، أي أنّها لم تطهر بأعمالها في الحياة التطهير الكامل بالحسنات، ولم تمتلئ كُليّاً من محبّة الله، وتبلغ سعادتها الكاملة بطاعة الله، فلم تُوصِلْهم أعمالهم المختلطة من الخير والشر إلى الشراكة الحقيقية والقداسة الضروريّة لدخول ملكوت السماوات مع الملائكة والقديسين؛ لأجل ذلك فإنَّ الله يجعل هذه النفوس تنال التطهير والتنقية قبل الدينونة الأخيرة العامة، فيُعذّبها بنار مُطهِّرة ومُنَقِّية ومُقدِّسة في مكان ليس هو جهنّم الذي يدخلها الذين كفروا بالرب يسوع المسيح وبفدائه للبشرية، وإنّما هو دون ذلك فيه عذاب يُسمّى (عذاب المحبّة المُنَقِّي)، وبعد انتهاء فترتهم تلك ينتقلون إلى ملكوت السماء مع ربّهم يسوع والملائكة والقديسين والمؤمنين.

لذلك كان من تعليم الكنيسة الكاثوليكيّة لأتباعها الأحياء أن يُساعدوا هؤلاء الأموات لكي يتجاوزوا فترة (المطهر) بأسرع وقت عن طريق أفعال الخير المُقدَّمة لهم عن طرق الصلاة والصدقات والغفرانات وأعمال التوبة وخصوصاً عن طريق الذبائح المُقدَّمة في الاحتفالات الإفخارستيّة[2].

---

(١) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ٢ / ٨٦٧.

(٢) التعليم المسيحي الكاثوليكي، (المسيحيّة في عقائدها)، ص ٤٨٠ - ٤٨٢، التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، ص ٣١٧، ٣١٨، الطوائف المسيحيّة في مصر والعالم، ص ٧٢، هاني يونان روفائيل.

وكان من تعليم الكنيسة في ذلك قولها: (لنمُدّ لهم العون ونذكرهم. إن كان أبناء أيوب قد تطهّروا بذبيحة أبيهم[1]، لِمَ نشكّ بأنّ تقادمنا لأجل الراقدين تجلب لهم بعض التعزية؟ فلا نتردّد إذن في مُساعدة الذين رحلوا وتقدمة صلواتٍ لأجلِهم)[2].

وكذلك من تعليمها أيضاً: (ثمّة مكانٌ للتنقية، والأنفس الموجودةُ هناك تؤازرُها صلاةُ المؤمنين، ولا سيّما ذبيحةُ الهيكل المرضيّةُ لدى الله)[3].

وقد أثبتت الكنيسة الكاثوليكيّة عقيدة (المطهر) وحُدِّدت معناها في عدة مجامع كاثوليكيّة، من أهمها:

١) مجمع ليون الثاني (المسكوني الرابع عشر) ٧ أيّار - ١٧ تمّوز ١٢٧٤م، في عهد البابا غريغوريوس العاشر (١ أيلول ١٢٧١ - ١٠ كانون الثاني ١٢٧٦م).

في الجلسة الرابعة، ٦ حزيران ١٢٧٤م، من ضمن ما نُقش فيها، مسألة (مصير الموتى)، فجاء في بيان هذه المسألة: (لئِن ماتوا في البرارة، بعد توبةٍ حقيقيّةٍ، وقبل القيام بالتكفير المُثمِر عمّا اقترفوه وأهملوه، فنفوسهم تُطهَّر بعد الموت بعقوباتٍ مُطهِّرة ومُبرِّرة... وفي سبيل تخفيف هذه العقوبات تنفعُ شفاعاتُ المؤمنين الأحياءِ، أي ذبيحة القُدّاس، والصلوات، والصَّدقات وأعمال البرّ الأخرى التي اعتاد المؤمنون أن يعملوها لمؤمنينَ آخرينَ بحسب أنظمةِ الكنيسةِ.

في شأن نفوس الذين بعدَ نيلهم المعموديّة المُقدّسة، لم يقترفوا أيّ خطيئة، والذين أيضاً بعد اقترافهم الخطيئة تطهَّروا، سواءٌ كانوا بعدُ في الجسد، أو تعرَّوا منه، فنفوسهم تُقبَلُ حالاً في السماءِ.

في شأن الذين يموتون في حال الخطيئة المُميتة، أو مع الخطيئة الأصليّة وحدها، فنفوسُهم تنحدر

---

(١) سفر أيوب ١ / ٥.

(٢) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، ص ٣١٨.

(٣) التعليم المسيحي الكاثوليكي (المسيحيّة في عقائدها)، ص ٤٨١.

حالاً إلى جهنّمَ حيثُ تنال عقوباتٍ غيرَ متساويةٍ)[1].

٢) مجمع فلورنسا (المسكوني السابع عشر) ٢٦ شباط ١٤٣٩ - آب ١٤٤٥، في عهد البابا أوجانيوس الرابع (٣ آذار ١٤٣١ - ٢٣ شباط ١٤٤٧م).

في وثيقة من وثائقة بمُسمًّى (براءة في الاتحاد مع اليونانيين) ٦ تمّوز ١٤٣٩م، في جزء منها بعنوان (مصير الموتى)، وممّا جاء فيها: (كذلك إذا كان الذين يتوبونَ توبةً صحيحة، يموتون في محبّة الله، قبل التكفير عن خطاياهم التي اقترفوها بالفعل أو بالإهمال، بثمارٍ جديرة بتوبتهم، فإن نفوسهم تتطهّر بعد موتهم بآلام تطهيريّة، ولكي يتخلّصوا من مثل هذه الآلام تفيدهم معوناتُ المؤمنين الأحياء، من قدّاساتٍ، وصلوات، وصدقات، وأعمال تقوى أُخرى يقوم بها عادةً المؤمنون من أجل مؤمنين آخرين بحسب قرارات الكنيسة.

وتقوى الذين بعد تقبّلهم المعموديّة لم يتلطخوا قطّ بالخطيئة، وكذلك نفوس الذين بعد تلطّخهم بالخطيئة، سواء كانوا بعدُ في أجسادهم أو تعرَّوا منها، تطهّروا على ما سبق القول، هذه النفوس تُقبلُ حالاً في السّماء وتُشاهدُ اللهَ الثالوث والواحد في ذاته كما هو، مشاهدةً واضحةً، ولكن على درجاتٍ، وفق استحقاقِ كُلٍّ منها.

أمّا نفوسُ الذين يموتون في حال الخطيئة المميتة أو الخطيئة الأصليّة فقط، فإنّها تنحدر حالاً إلى الجحيم، ولكنّها تُعاقبُ بعقوباتٍ غير متساوية)[2].

٣) المجمع التريدنتيني (المسكوني التاسع عشر) الطويل ١٣ كانون الأوّل ١٥٤٥ - ٤ كانون الأوّل ١٥٦٣م، في الجلسة الخامسة والعشرين، المنعقدة بتاريخ ٣ و ٤ كانون الأوّل ١٥٦٣م، في أحد مواضيعها، بعنوان (مرسوم في المطهر) بتاريخ ٣ كانون الأوّل ١٥٦٣م[3].

٤) المجمع الفاتيكاني الثاني (المسكوني الحادي والعشرون) ١١ تشرين الأوّل ١٩٦٢ - ٨ كانون

---

(١) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١/ ٢٩٥.

(٢) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٣٥٠.

(٣) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٤٥٣.

الأوّل ١٩٦٥م، جلسة في عهد البابا بولس السادس (٢١ حزيران ١٩٦٣ - ٦ آب ١٩٧٨م)، وهي الجلسة الخامسة العلنيّة بتاريخ ٢١ تشرين الثاني ١٩٦٤م، دستور عقائدي في الكنيسة، في الفصل السابع، بمُسمًّى (طابع كنيسَة الأرض الأسخطولوجيّ واتحادُها بكنيسة السَّماء)، في موضوعين، الموضوع الأوّل بعنوان (علاقات كنيسة الأرض بكنيسة السماء)، والموضوع الثاني بعنوان (توجيهات رعائية)[١].

وكانت تبرّر الكنيسة الكاثوليكيّة إيمانها بهذه العقيدة (المطهر)، بقولها: (هذا لا يعني أن يسوع المسيح لم يفعل، بآلامه وموته، ما كان كافياً لخلاصنا. بل بالحريّ فعل أكثر ما يجب فعله، وتركَ لنا أن نُشاركَ في تحقيق عمله الخلاصيّ، بحيثُ يُتاحُ لنا أن نعملَ بعضَ الشيء عِوضاً من الآخرين ولأجل خلاصهم)[٢].

إلاّ أنّ عقيدة المطهر قد رفضتها الكنيسة الأرثوذكسيّة المرقسية، وكذلك الروم الأرثوذكس البيزنطيون، والطائفة البروتستنتيّة.

وقد كتب البابا شنودة الثالث بابا الإسكندريّة وسائر أقاليم الكرازة المرقسيّة كتاباً، ذكر فيه بطلان هذه العقيدة، وأنّها ضد عقيدة كفّارة المسيح وفدائه لخطايا كل البشر ابتداءً من خطيئة آدم الأولى، وضد عقيدة الخلاص، فدم المسيح هو الذي طهّر كل النصارى من أخطائهم علىٰ حسب اعتقادهم، وأن عقيدة المطهر عند الأرثوذكس، أيضاً، ضد سرّ التوبة (الاعتراف)، وضد سرّ الكهنوت، المانحين للمغفرة، وأن الكتاب المقدّس كله، من أوّل سفر التكوين إلىٰ آخر سفر الرؤيا، لا تجد فيه عبارة المطهر، ولم تُعرف عند الكاثوليك علىٰ حسب قوله إلاّ في القرن الثالث عشر، ولم تثبت إلاّ في القرن الخامس عشر[٣].

ويقول الأنباء غريغوريوس (الأسقف الأرثوذكسي العام)، في رده علىٰ عقيدة المطهر: (ولكنّنا

---

(١) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ٢ / ٩٦٩، ٩٧١.

(٢) التعليم المسيحي الكاثوليكي (المسيحيّة في عقائدها)، ص ٤٨٢.

(٣) لماذا نرفض المطهّر؟ البابا شنودة الثالث، ص ١٧ ١٨، والنظر إلى مجمل الكتاب.

لا نؤمن بنار تتطهّر فيها أرواح الموتى، ذلك أنّ ناراً مهما تكن صورتها لن تقوى على تطهير النفس من خطاياها، وإلاّ يكون موت المسيح عن حياة العالم عبثاً ولغواً وباطلاً. وإنّما التطهير بدم المسيح الفادي واستحقاقاته الخلاصيّة بالكفّارة والفداء الذي قام به عن طريق الصليب. وليس لنا من حاجة إلى مطهر آخر لأن دم المسيح يطهرنا من كل خطيئة، وكما أن الأرواح الآن تنتظر يوم الدينونة العام، فلن ينالها عذاب من نار إلا بعد أن تتلبّس بأجسامها بعد القيامة والحساب)[1].

تاسعاً: عصمة البابا:

منذ بداية تكوين كراسي الكنائس النصرانيّة احتل كرسي روما مكانة استثنائية بينها، ويرجع ذلك إلى أمرين مهمين، أولهما: زعم أساقفتها أن كُرسيّهم أسسه الحواري بطرس، ورسول النصارى بولس[2]، ثانيهما: أن روما عاصمة الإمبراطوريّة الرومانيّة في عهودها الأولى، فلها مكانة سياسيّة كبيرة بين مناطق العالم في ذلك الوقت.

وهناك وثائق بابويّة قديمة قدَّمت الكرسي الروماني، ومن ذلك ما جاء في عهد البابا يوليوس الأوّل (٦ شباط ٣٣٧ - ١٢ نيسان ٣٥٢م)، في رسالة إلى الكرسي الإنطاكي بعنوان (أوّليّة الكرسي الروماني)، وكانت الرسالة في سنة ٣٤١م[3].

وكذلك ما قُرِّر في مجمع سرديقة في بلغاريا عام ٣٤٣م، تحت إشراف مندوبي البابا يوليوس الأوّل، وجاء فيه ترتيب الكنائس، وأوّليّة الكرسي الروماني عليها، بل وجوب الرجوع إليه إذا حصل خلاف فيما بينها[4].

وفي عهد البابا سيريوس (كانون الأوّل ٣٨٤، وقيل كانون الثاني ٣٨٥ - ٢٦ تشرين الثاني

---

(١) اللاهوت المقارن، ص ٣٥٦، الأنبا غريغوريوس، أسقف عام للدراسات اللاهوتيّة والثقافة القبطيّة والبحث العلمي.

(٢) وقد ناقشت هذه المسألة في الباب الأول من هذا البحث.

(٣) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٤٦.

(٤) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٤٧.

٣٩٩م)، في رسالة بابوية بتاريخ ١٠ شباط ٣٨٥م، تحت عنوان (أوّليّة أسقف روما وسلطته العقيديّة)[١].

وفي عهد البابا أوشينتيوس الأوّل (٢١ كانون الأوّل ٤٠٢ - ١٢ آذار ٤١٧م)، في رسالة مزدوجة إلى أساقفة مجمع قرطاجة، وأساقفة مجمع ميلاف، في تاريخ ٢٧ كانون الثاني ٤١٧م، بعنوان (أوّليّة الكرسي الروماني)[٢].

وقد ذكرت البابويّة ترتيب الكراسي الكنائسيّة، أو كما يُسمّونها (الكراسي الرسوليّة) بعد كُرّسيّها، ومن ضمن وثائقها في ذلك ما ورد في عهد هادريان (هدريانوس) الثاني (١٤ كانون الأوّل ٨٦٧ - ١٤ كانون الأوّل ٨٧٢م)، أثناء انعقاد المجمع القسطنطيني الرابع (المسكوني الثامن) (٥ تشرين الأوّل ٨٦٩ - ٢٨ شباط ٨٧٠م)، في الجلسة العاشرة، من جلساته، في ٢٨ شباط ٨٧٠، تحت مُسمًّى عام (قوانين)، ثُمّ مسمّى خاص بالوثيقة (أوّليّة الكرسي الروماني بين الكراسي البطريركيّة)، ومِمّا جاء فيها: (... أوّلاً بابا رومة القديمة الجزيل القداسة، ثمّ بطريرك القسطنطينيّة، ثُمّ بطاركة الإسكندريّة وإنطاكيّة وأورشليم...)[٣].

وأيضاً ما ورد في عهد البابا انوسنت (إنّوشنتيوس) الثالث (٨ كانون الثاني ١١٩٨ - ١٦ تمّوز ١٢١٦م)، أثناء انعقاد المجمع اللاتراني الرّابع (المسكوني الثاني عشر) (١١ - ٣٠ تشرين الثاني ١٢١٥م)، في الفصل الخامس من مقرراته، تحت عنوان (كرامة البطريرك، أوّليّة الكرسيّ الروماني)، ومِمّا جاء فيه: (فيما نُجدِّد الامتيازات القديمة للكراسي البطريركيّة، وبموافقة المجمَع العام المقدَّس، نأمر بما يلي: بعد الكنيسة الرومانيّة التي، بتدبير الربّ، تملك أوّليّة السلطة العاديّة على جميع الكنائس الأخرى، على أنّها أُمّ جميع المسيحيّين ومُعلِّمتهم، يكون لكنيسة القسطنطينيّة المركز الأوّل، ولكنيسة الإسكندريّة المركز الثاني، ولكنيسة أنطاكيّة المركز الثالث، ولكنيسة

(١) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٦٣.

(٢) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٧٣.

(٣) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٢٣٤.

أورشليم المركزُ الرابع)[1].

وتعاظمت عند الكاثوليك هذه الأولويّة للكرسي الروماني إلى أن تحوّلت إلى سلطان مقدّس للأسقف الجالس علىٰ ذلك الكرسي، أسقف روما أو (بابا الكاثوليك)، وفي مقدّمة هذا السلطان المقدّس العصمة البابويّة، ومغفرة الخطايا.

ومن أوّل الوثائق البابويّة في ذلك، ما كان في عهد البابا زوسيموس (١٨ آذار ٤١٧ - ٢٦ كانون الأوّل ٤١٨م)، في رسالة بابويّة من البابا مباشرة إلى مجمع قرطاجة في ٢١ آذار ٤١٨م، بعنوان (سلطان أسقف روما العقيدي)، وممّا جاء فيها: (وإن كان تقليد الآباء قد أقرّ للكرسي الرسولي بسلطان لم يتجرأ معه أحد علىٰ منازعة حكمه، وحفظ ذلك دائماً بقوانين وقواعد، وأظهر النظام الكنسي النافذ إلى اليوم بشرائعه، لاسم بطرس، الذي يتنزّل هو نفسه منه الاحترام اللائق... بطرس إذن أصل ذلك السلطان، بحيث أثبتت جميع مراسيم الأولين اللاحقة أن الشرائع والأعراف البشريّة والإلهيّة تثبّت الكنيسة الرومانيّة التي لا تجهلون أنّنا نسوسها ونملك سلطان اسمها...)[2].

وكذلك جاء في عهد البابا بونيفاتيوس الأوّل (٢٩ كانون الأوّل ٤١٨ - ٤ أيلول ٤٢٢م)، في رسالة بابويّة من البابا مباشرة إلى روفس أسقف تسالية في ١١ آذار ٤٢٢م بعنوان (أوّليّة الكرسي الروماني)، جاء فيها: (... لقد وجّهنا إلى مجمع كورنتس كتابات يفهم بها جميع الإخوة إنه ينبغي

---

(١) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٢٨٠.
علماً بأنّ هناك وثيقة بابويّة، اختلف في تحديد تاريخها، إلاّ أنّهم رجّحوا أنّها كُتبت في عهد البابا جيلازيوس الأوّل (١ آذار ٤٩٢ - ٢١ تشرين الثاني ٤٩٦م)، تحت عنوان (أوّليّة الكرسي الروماني)، وفي عام ٤٩٥م، أغفلت هذه الوثيقة الكرسي الكنسي في القسطنطينيّة، واعترفت فقط بالكرسي الروماني، ثمّ الإسكندري، ثمّ الأنطاكي، وممّا جاء فيها: (... فالأول إذن هو كرسيّ القديس بطرس، الكنيسة الرومانيّة، التي لا كَلَف فيها ولا غضن ولا شيء مثل ذلك، أمّا الكرسي الثاني فقد قُدّس في الإسكندريّة على اسم المغبوط بطرس على يد التلميذ والإنجيلي مرقص، والكرسيّ الثالث للقديس بطرس شرف في إنطاكيّة إذ إنّه سكن فيها قبل مجيئه إلى روما). انظر: الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ١٢١.

(٢) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٧٥.

ألاّ يكون حكمنا موضوع نقاش، فما أُذن قط إعادة النظر في مارسمه الكرسي الرسولي)[1].

وجاء ذلك بوضوح في المجمع المسكوني الرابع، مجمع خلقيدونيّة (من ٨ تشرين الأوّل إلى مطلع تشرين الثاني ٤٥١م) في عهد البابا لاون الأوّل الكبير (٢٩ أيلول سنة ٤٤٠ –١٠ تشرين الثاني ٤٦١م)، فقد صرّح الآباء المجتمعون في المجمع، بقولهم (تكلّم بطرس بفم لاون)، فقد جاء من أقوال البابا لاون في العظة الرابعة من عظاته، قبل المجمع: (... قيل لبطرس: (سأعطيك مفاتيح ملكوت السموات) فمن المؤكّد أن حق ممارسة هذا السلطان قد انتقل أيضاً إلى باقي الرسل، وامتد التأسيس الذي نشأ من هذا الوعد إلى جميع أمراء الكنيسة...)[2].

وجاء ذلك أيضاً في رسالة بابوية من لاون الأوّل الكبير إلى ثيوذورس أسقف فريجوس بفرنسا في ١١ حزيران ٤٥٢م بعنوان (سرّ التوبة)، ومِمّا جاء فيها: (وصلاح الله يُجري المعالجة على هذا الوجه: بأن لا تُنال المغفرة من الله إلاّ بتضرعات الكهنة. لقد نقل (الوسيط بين الله والنّاس الإنسان المسيح يسوع) [رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس ٢: ٥] إلى رؤساء الكنيسة هذا السلطان، ليمنحوا التوبة للخطأة المعترفين، ويقبلوهم)[3].

وكذلك في عهد البابا أكليمنت (أكليمنضوس) السادس (٧ أيار ١٣٤٢ - ٦ كانون الأوّل ١٣٥٢م)، وثيقة بابويّة، عبارة عن رسالة من البابا إلى ميخيتار، جاثليق الأرمن، في ٢٩ أيلول ١٣٥١م، ومِمّا جاء فيها: (... هل آمنت وتؤمن بأن الحبر الرومانيّ وحده يستطيع إنشاء القوانين العامّة المقدّسة ومنح الغفرانات الكاملة...)[4].

وقد شُدِّد وأُكِّد على أولويّة الكرسي الروماني وعلى سلطان البابا المُقدَّس في المجمع الفاتيكاني الأوّل (المسكوني العشرون) من ٨ كانون الأوّل ١٨٦٩ إلى ٢٠ تشرين الأوّل ١٨٧٠م، فقد جاء

(١) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٧٩.

(٢) دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص ١٣٤، ١٣٥، الأب جان كُمبي.

(٣) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ١٠٧.

(٤) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٣٢٥.

ذلك في الجلسة الرابعة بتاريخ ١٨ تمّوز ١٨٧٠م، تحت عنوان (الدستور العقديّ الأوّل في كنيسة المسيح، في أربعة فصول منها، الفصل الأول بعنوان (إنشاء الأوّليّة الرسوليّة في القديس بطرس)، والفصل الثاني (ديمومة أوّليّة بطرس)، والفصل الثالث بعنوان (سلطان أوّليّة الحبر الرومانيّة وطبيعتها)، والفصل الرابع بعنوان (السلطان التعليمي للحبر الروماني).

ومِمَّا جاء في الفصل الثالث: (... لذلك، فاعتماداً على شهادات الكتب المُقدّسة الواضحة، وانسجاماً مع المراسيم التي حدّدها بصراحة سلفاؤنا، الأحبار الرومانيّون، والمجامع العامة، نُجدِّد تحديد مجمع فلورنسا المسكوني، الذي فرض على المؤمنين أن يؤمنوا (بأنّ الكرسيّ الرسوليّ المقدّس، والحبر الروماني؛ لهما الأوليّة على المسكونة كلها، وأنّ الحبر الروماني نفسه هو خليفة بطرس المغبوط، رئيس الرسل ونائب المسيح الحقيقي، رأس الكنيسة جمعاء، أبو جميع المسيحيّين ومعلِّمهم. وأنّ ربّنا يسوع المسيح قد منحه، في شخص بطرس المغبوط؛ السلطان الكامل لرعاية وإدارة وسياسة الكنيسة الجامعة، كما ورد في أعمال المجامع المسكونيّة وفي القوانين المقدّسة...).

ومِمَّا جاء في الفصل الرابع: (... لذلك نتمسك بأمانة التقليد الوارد منذ بدء الإيمان المسيحيّ لمجد الله مُخلِّصنا، ورفع شأن الديانة الكاثوليكيّة وخلاص الشعب المسيحيّ، ونعلم بموافقة المجمع المُقدّس كعقيدة أوحى بها الله.

إن الحبر الروماني، عندما يتكلَّم رسميّاً (من على المنبر)، أي عندما يحدد، وهو يقوم بمهمته كراعٍ ومُعلِّم لجميع المسيحيّين، بسلطانه الرسوليّ الأسمى، فإنّه من واجب الكنيسة جمعاء التمسك بعقيدته في موضوع الإيمان أو الأخلاق، فهو يتمتّع، بفعل العون الإلهيّ، الذي وعد به في شخص القديس بطرس، بتلك العصمة التي أراد الفادي الإلهيّ أن تكون للكنيسة عندما تُحدِّد عقيدة في الإيمان والأخلاق. وبالتالي، تكون تحديدات الحبر الروماني هذه غير قابلة للإصلاح بذاتها، وليس

بفعل موافقة الكنيسة)[1].

فتلك الوثائق البابويّة تربط أوّليّة ولاية البابا ربطاً وثيقاً بعقيدة عصمة وظيفته، فأوّليّة وظيفة بطرس وعصمتها في اعتقاد الكاثوليك، هي أساس أوّليّة البابا، وأساس عصمته.

---

(١) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٦٤٤ ٦٥١.

وهناك ترجمة أخرى لتلك الأسطر من الفصل الرابع من الجلسة العاشرة في المجمع الفاتيكاني الأوّل، ذُكرت في كتاب المسيحيّة في عقائدها (التعليم المسيحي الكاثوليكي)، ترجمها إلى العربيّة المطران كيرلس سَليم بسترس (رئيس أساقفة بعلبك وتوابعها للرّوم الملكيين الكاثوليك)، وفيها: (إن الحبر الرومانيّ، عندما يتكلّم بسلطانه التعليميّ الأعلى (من على السدة)، أي عندما يُمارس وظيفته كراعٍ ومعلّم لجميع المسيحيّين، فيعلن بقرار مطلق، بسلطانه الرسوليّ الأعلى أنّ عقيدةً ما في الإيمان أو الأخلاق يجبُ اعتناقها من قبل الكنيسة جمعاء، فإنّه يتمتّع، بفضل العون الإلهيّ الذي وُعد به في شخص القدّيس بطرس؛ بالعصمة التي شاء الفادي الإلهيّ أن يمُدّ بها كنيسته لكي تحدّدَ تحديداً مُطلقاً التعليمَ المتعلقَ بشؤون الإيمان والأخلاق. وإنّ قرارات الحبر الرومانيّ النهائيّة هذه لا تقبل التعديل، وذلك بقوّة ذاتها، لا بقوّة قبول الكنيسة لها)، ص ٣٤٤.

وقد استغلّ بعض الباباوات هذه العقيدة في قداسة كرسيّه، إلى محاولة الجمع بين السلطة الدينيّة والسلطة الدنيويّة، ومن أوائل هؤلاء البابا سيماخوس (٢٢ تشرين الثاني ٤٩٨ - ١٩ تموز ٥١٤ م)، فجاء في رسالة بعثها إلى الإمبراطور أنستاسيوس الأوّل (بين سنتي ٥٠٦ و ٥١٢ م)، عنوانها (السلطان الأسمى المزدوج على الأرض)، وممّا جاء فيها: (لنقارن إذن جلال الإمبراطور وجلال الحبر: إنّهما يختلفان فقط بمقدار كون الأوّل يُعنى بالشؤون البشريّة والثاني يُعنى بالإلهيّة. أنت أيّها الإمبراطور، قد نلت المعموديّة من الحَبْر، وأخذت منه الأسرار، ومنه تطلب الصلاة، وترجو البركة، وتسأل الكفّارة. وبالجملة، أنت تتولى الإنسانيّات، وهو يجعلك تُشارك في الإلهيّات. فكرامته إذن مساوية إن لم تكن أسمى...) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ١٢٨.

ومنهم أيضاً البابا انوسنت (إنوشنتيوس) الثالث (٨ كانون الثاني ١١٩٨- ١٦ تموز ١٢١٦ م)، فجاء في رسالة بعثها إلى القنصل أشربوس من فلورنسا في ٣٠ تشرين الأوّل ١١٩٨م، بعنوان (السلطة العليا المزدوجة على الأرض)، وممّا جاء فيها: (كما أنّ الله، خالق الكون كلّه، جعل في فلك السماء نيّرين كبيرين، الأكبر لسلطان النهار، والأصغر لسلطان الليل، كذلك جعل في فلك الكنيسة الجامعة التي تُدعى (سماء) رتبتَين عظيمتين، كُبرى، كما للنهار، ترعى النفوس، وأخرى أصغر منها، كما لليالي، ترعى الأجساد، وهما السلطة الحبريّة والسلطة الملكيّة.

وإلى ذلك، فكما أنّ القمر يتلقّى النّور من الشمس، وهو في الحقيقة أصغر منها، سواء كان في حجمه أو في صفته، وسواء كان في منزلته أو في أثره، يتلقّى السلطان الملكيّ من السلطة الحبريّة رونقَ رُتبته؛ فمقدار ما يُثبت عليها نظره يتألّق بنور أعظم، وبمقدار ما يميل عنها بنظره يفقدُ رونقه)، الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١/ ٢٥٧.

وعلى رأس هؤلاء الباباوات، الذين استغلوا العقيدة في قداسة كراسيهم الكنسيّة للجمع بين السلطتين الدينيّة والدنيويّة، البابا غريغوريوس السابع (٢٢ نيسان ١٠٧٣ - ٢٥ أيار ١٠٨٥ م).

وقد تكلّمت على مسألة محاولة بعض الباباوات الكاثوليكيين في الجمع بين السلطتين الدينيّة والدنيويّة، وضربت أمثلة فيها نوع تفصيل على ذلك في الباب الأوّل من البحث، وأحببت هُنا أن أربط بين اعتقادهم في قداسة كراسيهم، ومحاولة مطالبة بعضهم استغلالاً لهذه العقيدة بامتلاك السلطة الدنيويّة أيضاً.

إلاّ أنّ المجمع الفاتيكاني الثاني (المسكوني الحادي والعشرون) ١١ تشرين الأوّل ١٩٦٢- ٨ كانون الأوّل ١٩٦٥م، وإن كان قد أثبت أوليّة الحبر الروماني، وعصمته، وذلك في جلسته الخامسة العلنيّة بتاريخ ٢١ تشرين الثاني ١٩٦٤م، تحت مُسمّى (دستور عقائدي)، في الفصل الثالث (نظام السُّلطة في الكنيسة ولا سيّما الأسقفيّة)، ومِمّا جاء فيه: (وهذا المجمع المُقدّس، الذي يترسَّمُ خطواتِ المجمع الفاتيكاني الأوّل، يُعلِّمُ ويُعلِنُ معه أنّ يسوع المسيح الراعي الأبدي قد بنى الكنيسةَ المُقدّسةَ بإرساله الرسلَ كما أنّهُ هو نفسه قد أرسله الأب [إنجيل يوحنّا ٢٠: ٢١]، وأراد أن يكونَ خلفاؤُهم، أي الأساقفة، رُعاةً في كنيسته إلى منتهى الدهر. ولكن، لكي يكفلَ للأسقفيّة نفسِها الوَحدةَ وعدمَ التجزُّؤ جعل الطوباوي بطرسَ على رأسِ الرسل الآخرين، وجعل فيه المبدأَ والأساس الدائمَ المنظورَ لوَحدةِ الإيمان والشركة.

وهذا التعليمُ العقائديّ بشأن أوّليّة الحبر الروماني وسُلطانِه التعليميّ المعصوم، من حيثُ إنشاؤُهما واستمرارُهما وقوتُهما وغايتُهما، يتبنّاه المجمع المُقدّس، ويُعلِنُه ثانيةً على جميع المؤمنين عقيدةً إيمانيّةً ثابتةً)[1].

فإنّه أدرج عقيدة عصمة البابا "الحبر الروماني" في إطار أوسع، إطار مسؤوليّة الهيئة الأسقفية جمعاء وعصمتها في التعاليم الكنسيّة، في العقيدة والأخلاق.

فالهيئة الأسقفيّة، بالاتحاد مع البابا، وليس بمعزل عنه، أيضاً لها هذه القداسة، لها السلطان الأعلى والكامل على الكنيسة كُلِّها.

جاء في جلسته الخامسة العلنيّة بتاريخ ٢١ تشرين الثاني ١٩٦٤م، تحت مُسمّى (دستور عقائدي)، في الفصل الثالث (نظام السُّلطة في الكنيسة ولا سيّما الأسقفيّة)، تحت عنوان (الهيئة الأسقفيّة ورأسها) : (... بيد أن الهيئة الأسقفيّة، أو الجسم الأسقفيّ، لا سلطانَ لها ما لم نتصوّرها متحدةً بالحبر الروماني خليفةِ بطرس، اتحادَها برأسها محتفظاً بسُلطانه الرئاسيّ الأعلى كاملاً على الجميع

(١) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ٢ / ٩٤٢.

سواء كانوا رُعاةً أو مؤمنين. ذلك الحبر الروماني، بِحُكم مُهمّته كنائب للمسيح وراع للكنيسة كلّها، يملك في الكنيسة السُلطانَ الكاملَ الأعلى الجامع، وله أن يُمارسَه على الدوام وبدون ما قيد. وأمّا الهيئةُ الأسقفيّةُ التي تَخلفُ الهيئةَ الرسوليةَ في سُلطانِ التعليم والتدبير الرعوي، بل فيها يستمرّ الجسمُ الرسوليّ على الدوام، هي أيضاً، بالاتحاد مع الحبر الروماني رئيسها وليس أبداً بمعزلٍ عن هذا الرئيس؛ تملكُ السلطانَ الأعلى والكاملَ على الكنيسةِ كُلِّها، وإنّما لا يُمكنُ أن تُزاولَه إلا بموافقة الحبر الروماني. فالربُّ قد جعل من سمعانَ وحدَه صخرةً لكنيسته، وله وحدَه سلَّمَ مفاتيحَها [متى ١٦: ١٨، ١٩]، وأقامَه راعياً لقطيعه كلّه [يوحنّا ٢١: ١٥ وما بعده]، بيد أنّ مُهمةَ الحلّ والربطِ التي أُعطيت لبطرس [متى ١٦: ١٩] قد أُعطيت أيضاً، ولا شك، لهيئة الرسل متّحِدين برئيسهم؛ وهذه الهيئةُ المؤلّفةُ من عديدين تُعبّرُ عن التنوع والشمول في شعب الله، وبتجمّعها تحت رأسٍ واحدٍ تعبّرُ عن الوحدة في قطيعِ المسيح)[1].

كما أنّه جاء في الجلسةِ الخامسة نفسها، وفي الفصل الثالث نفسه، تحت عنوان فرعي (وظيفة الأساقفة التعليميّة)، ومِمَّا جاء: (... ولئن يكن الأساقفة لا يتمتعون، منفردين، بامتياز العصمة، فإنّهم، على ذلك وإن كانوا منتشرين في العالم ولكن مُتّحِدين فيما بينهم ومع خليفةِ بطرس بِرباط الشركة إذا اتفقُوا على التعليم، بوجه صحيح، بأنَّ عقيدة تتعلّقُ بالإيمان والآداب تلزمُ بوجهٍ مُطلق، فتعليمُهم إذّاك تعليمُ المسيح يعبّرون عنه بِعصمة.

إن هذه العصمة التي شاء الفادي الإلهي أن يَمُدَّ بها كنيستَه لكي تُحدِّدَ التعليم المُتعلّق بشؤون الإيمان والآداب، إنّما تتسعُ اتساعَ مُستودعِ الوحي الإلهي بالذات الذي يجب الحفاظ عليه بقداسة، وعرضِه بأمانة. وهذه العصمة يتمتّعُ بها الحبر الروماني، رئيس هيئة الأساقفة... لذلك يُقال بحقٍ في التحديدات التي يلفظها إنّها بقوةِ ذاتها لا بقوةِ قَبولِ الكنيسة لها، لا تقبل التعديل؛ لأنّها صدرت بمعُونةِ الروح القدس التي وُعدَ بها في شخص القديس بطرس، ولا يعوزُها من ثم موافقةُ الغير،

(١) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ٢ / ٩٤٥.

ولا يُمكن أن تكونَ موضعَ استئنافٍ إلى محكمةٍ أخرى. ذلك بأنَّ الحبرَ الروماني لا يُصدرُ الحُكمَ بصفةِ كونه شخصاً منفرداً، وإنّما يَعرضُ عقيدةَ الإيمان الكاثوليكيّ ويذودُ عنها بصفة كونِه للكنيسةِ الجامعة هو المُعلِّم الأعلى الذي يستقرُ فيه، بصفةٍ فريدة، امتيازُ العصمة الذي هو امتيازُ الكنيسة بالذات. والعصمة التي وُعدت بها الكنيسةُ مستقرة أيضاً في هيئةِ الأساقفة عندما تُمارسُ سُلْطانَها التعليمي الأعلى بالاتحاد مع خليفة بطرس)[١].

استغلّ كثير من الباباوات، خاصة بابوات العصور الوسطى، إيمان الشعوب الغربيّة الكاثوليكيّة بهذه العقيدة، عقيدة عصمة منزلتهم الأسقفيّة، وما يترتب عليها من مغفرة الخطايا، فأصدروا أوراقاً لمن أراد من أولئك المتبوعين فيها البشرى لهم بمغفرة خطاياهم، والوعد لهم بالخلاص والسعادة الأبديّة، سمّوها (صكوك الغفران)، مقابل مبلغٍ من المال تُدفع للكنيسة، أو خدمة معيّنة يقومون بها للكنيسة كالدفاع عنها مثلاً، أو توجيههم لقتال أعدائها، كقتال المسلمين إبّان الحروب الصليبية مثلاً، وتنفيذ مطامعها الدنيويّة.

تقول كارين آرمسترونغ: (الغفران عُرف كاثوليكيّ مُعقّد اتسم ببالغ الأهميّة أثناء الحملات الصليبيّة. فعن طريق بعض الإجراءات المُعيّنة، كان الباباوات يمنّون على الكاثوليك بوسيلة للتخفيف من العقوبة المؤقتة التي ستنزل بهم نتيجة الذنوب والخطايا التي ارتكبوها في الحياة الدنيا...)[٢].

وهناك وثيقة بابويّة ردت على اعتراضات مارتن لوثر في منحها صكوك غفران لمن طلبها من أتباعها النصارى، وهذه الوثيقة كُتبت في أعقاب المجمع اللاتراني الخامس (المسكوني الثامن عشر) ٣ أيار ١٥١٢ - ١٦ آذار ١٥١٧م، وفي عهد البابا نفسه، لاون العاشر (١١ آذار ١٥١٣ - ١ كانون الأوّل ١٥٢١ م)، تحت مُسمّى (جواب على مقالات مارتن لوثر) في ٩ تشرين الثاني

(١) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ٢ / ٩٤٩.

(٢) الحرب المُقدّسة (الحملات الصليبيّة وأثرها على العالم اليوم)، ص ٦٨٩، كارين آرمسترونغ.

١٥١٨، بعنوان (الغفرانات)، ومِمَّا جاء فيها: (الحبر الرومانيُّ، خليفة بطرس، الذي أُلقيت إليه سلطةُ المفاتيح، ونائب المسيح يسوع على الأرض، بقوّة سلطة المفاتيح التي تفتح ملكوت السماوات ينزعها ما يحول دون ذلك في المؤمنين، أعني الخطيئة وعقوبة الخطايا الفعليّة: الخطيئة بسرّ التوبة، والعقوبة الزمنيّة، على حسب العدالة الإلهيّة، بغفران الكنيسة، فالحبر الرومانيُّ يستطيع، لأسباب سديدة، أن يمنح هؤلاء المؤمنين، أعضاء المسيح برابط المحبّة، في هذه الحياة أو في المَطهر، غفراناتٍ مستمدّة من فيض استحقاقاتِ المسيح والقدّيسين. فعندما يمنح بسلطته الرسوليّة الغفران للأحياء والأموات، يوزّع، على عادته، كنزَ استحقاقاتِ يسوع المسيح والقدّيسين، جاعلاً الغفران بالحلّ (الاعتراف)، أو على سبيل التوسُّل.

ولهذا فجميع الذين نالوا هذا الغفرانَ، سواء كانوا أحياءً أو أمواتاً، قد تحرّروا من العقوبة الزّمنيّة، الناجمة، بموجب العدل الإلهي، عن خطاياهم الحاليّة بقدر الغفران الممنوح أو المكتَسب.

وإنّنا نقرّر، بسلطتنا الرسوليّة وبمضمون هذه الرسالة أنّه هكذا يجب أن يكون التفكير والوعظ تحت طائلة الحرم المسبق)[١].

فهذه العقيدة لا شك أنّها مهزلة في تاريخ الديانات، وفي اعتقادات النّاس وسعيهم للخلاص.

فإذا كان الرسل والأنبياء على جلالة قدرهم عند الله تعالى، لا يستطيعون القيام بهذا الفعل مغفرة خطايا البشر ففيه تعدٍّ واضح لبعض خصائص الرب سبحانه، فكيف بأولئك الباباوات، الذين لو وضعناهم في ميزان الدين الحق لرأينا مدى كفرهم وشركهم بالله تعالى، فهم رأس فئة من الناس في التاريخ يزعمون أنّ لله ولداً وشريكاً، هو عيسى عليه السلام، تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً.

ثُمّ (ما بالك حين يكون الأمر لا عن نية حقيقية في التوبة يعلمُها البابا، بل عن مبلغ من المال؟! بل ما بالك والمال في أكثر الأحيان ليس مدفوعاً لله على سبيل الصدقة للفقراء والمساكين، مِمّا يقبله

(١) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٣٧٨.

الله من المؤمنين ويحط به من خطاياهم، وإنّما هو لشراء الصك كما تشتري أي سلعة معروضة في الأسواق، والمال يذهب إلى خزائن البابوات والكرادلة حتى يكتنزوا بالذهب والفضة التي يكتنزونها، ولا يذهب إلى مستحقيه من الفقراء والمساكين؟!

ومع أنّها مهزلة مضحكة ومكشوفة فقد ظلت قائمة في المجتمع الأوروبي مجتمع الظلمات فترة غير قصيرة من الوقت، واتسع نطاقها وكثرت أرباحها حتى فاضت عن مطامع قداسة البابا، فتنازل عن شيء من الفائض لكبار أعوانه، فصرّح لهم بإصدار صكوك لحسابهم، استرضاء لهم واستعانة منه بهم في جلائل الأعمال)[1].

وقد كانت عقيدة عصمة البابا، وما تعلّق بها من إصدار البابويّة لصكوك الغفران، السبب الأعظم في خروج فئة من النصارى الغربيين على طاعة البابويّة، وما تدعو إليه من علوّ منزلتها وعِظم سلطانها.

وقد ظهر شأن هذه الاعتراضات، في القرن الرابع عشر الميلادي (عصر النهضة الأوروبيّة)، منذ ظهور الفيلسوف الانجليزي وليم أوكهام (١٢٨٠ - ١٣٤٩م)، فكان يُنادي بأنّ البابوات والمجامع المُقدّسة غير معصومة، مع أنّه كان يحترم سُلّطتها الدينيّة، يقول عنه مارتن لوثر: (لا شك أنّه القائد، بل هو أمهر فلاسفة العصر الوسيط)[2].

ثُمّ تبعه في ذلك معاصرة الفيلسوف الإيطالي مارسيليوس البادوفي (١٢٩٠ - ١٣٤٣م)، فقد هاجم سُلّطة البابويّة المعصومة، وحقها الإلهي المزعوم بعنف، وأكثر حِدّة من أوكهام، فقد كان فيلسوفاً أكثر منه لاهوتياً.

وكان يُنادي بأن بطرس لم يكن في رتبة أعلى من باقي الرسل، وأن دور البابويّة ونظامها الإكليروسي منحصرٍ في القيادة الدينيّة، وتعليم العقيدة الموجودة في الكتاب المقدّس[3].

---

(١) مذاهب فكريّة معاصرة، ص ٦٥، ٦٦، للأستاذ الكبير محمد قطب.

(٢) تاريخ الكنيسة، ٤ / ٦٥، الدكتور القس جون لوريمر، ترجمة عزرا مرجان.

(٣) المرجع السابق، ٤ / ٦٦، لوريمر.

ثُمّ تتابع دور المعترضين من النصارى الغربيين علىٰ عقيدة العصمة البابويّة، حتى حلّ زمن انفصلت فيه مجموعة كبيرة منهم عن البابويّة، وطائفتها الكاثوليكيّة، وكوّنوا طائفة جديدة سُمّيت الطائفة المنشقة، أو الطائفة (البروتستانتيّة)، وعلىٰ رأس أولئك رجل يُدعى مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦م)[١]، وذلك في بداية القرن السادس عشر الميلادي.

وجد ماران لوثر، في قضية الغفرانات، فرصة ينتهزها لإعلان اعتراضه على البابويّة، فرفض عصمة البابا، والغفرانات التي تصدرها الكنيسة، وسمّى ذلك بالاطمئنان الكاذب الذي تدّعيه البابويّة لتلك الصكوك، فقد كان يؤمن برأي بولس أن الإنسان يبرّر بالإيمان بمعزل عن أعمال الشريعة[٢]، وقد كان يُناقش كثيراً حول مسألة تكدّس الأموال في خزائن البابويّة وكنائسها بسبب بيع تلك الصكوك، وقد صرّح في عام ١٥١٩ بقوله: (أكاد لا أشك في أنّ البابا هو المسيح الدجّال)[٣].

ولا أشك في أنّ هذه الثورة علىٰ عقيدة عصمة البابا، وما ترتب عليها من بيع صكوك لمغفرة الخطايا، كانت بسبب احتكاك الغرب النصراني بالشرق الإسلامي طوال قرنين من الزمن من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر في فترة الحملات الصليبية علىٰ الأمة الإسلامية، فكان نتاج هذا الاحتكاك تنوير العقليّة النصرانيّة، ومن ثمّ اكتشافها أخطاء كنسيّة ضخمة كانت

---

(١) مارتن لوثر: وُلد في ١٠ نوفمبر سنة ١٤٨٣م في مدينة أيسليين بمقاطعة ساكس الألمانية، في عائلة فقيرة، عاش طفولة خشنة، وآمن كثيراً بالقصص الحافلة بالشياطين. في سنة ١٥٠٥م على أثر صدمة نفسيّة سبَّبها خوفه من الموت والهلاك، دخل دير نسّاك القديس أوغسطينيس في ايرفورت، وعاش فيه عيشة الناسك الخشنة، وعقب إتمام الدراسات الفلسفيّة واللاهوتيّة رُسّم كاهناً. بدأ لوثر منهجه في الاعتراضات على البابويّة وتوجهاتها في ٣١ / ١٠ / ١٥١٧م. انظر: دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص ٢٣١، الأب جان كُمْبي، وتاريخ الكنيسة، ٤ / ١٠٠، ١١١، الدكتور القس جون لوريمر.

(٢) روميّة ٣: ٢٤ - ٢٨، غلاطيّة ٢: ١٦، وانظر في هذه المسألة صفحات التمهيد من هذه الرسالة ٣٤.

(٣) دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص ٢٣١، ٢٣٢، الأب جان كُمْبي. وانظر بأكثر تفصيلاً إلى كتاب: تاريخ الكنيسة، ٤ / ١١٣ - ١٤٣، الدكتور القس جون لوريمر، أوروبا والمسيحيّة، الجزء الثالث بعنوان (تمزّق الكنيسة)، من ص ٢٥٣ إلى ص ٢٦٦، يان دوبراتشينسكي، ترجمة: الدكتور كبرو لحدو.

الكنيسة تُعلّمها لهم، ومن هذه الأخطاء عقيدة عصمة البابا، وما يترتب عليها من أمور تقديسيّة مزعومة[1].

عاشراً: تقديس الصور والتماثيل (الإيقونات)[2]:

تعتقد الطائفة الكاثوليكيّة بوجوب تقديس صور ربّهم المسيح، ووالدته، وقدّيسهم، وإكرامها، وتعليقها، والوقوف أمامها.

فهي عندهم علامة للحب، ووسيلة للذكرى، تقوّي العبادة؛ لأنها تشرك العين في العبادة، وتُذكّر الإنسان بمشاهد تقوّيه مهمة.

كتمثال ربّهم المصلوب، فيرون أنّه يُذكّرهم بسرّ الفداء، وصور القيامة والصعود والبشارة، وصور العذراء المختلفة... يعتقدون في هذا كلّه ترسيخاً لمبادئ إيمانهم، وفضائل قدّيسهم، وتشجيعهم على الاقتداء بهم ليشاركوهم في مجدهم الذي يعتقدونه[3].

كما أنّهم يرون أنّ هذه الصور والتماثيل (الإيقونات) لغة للتعليم، خاصة لتعليم الأطفال والبسطاء، فهي (لها دور تعليمي مهم فالطفل يرى مثلاً الصليب وصور المسيح المصلوب فيسأل عنها وتكون بداية لمعرفة المسيح)[4].

وقد وردت وثائق بابويّة في الحث على إكرام الصور والتماثيل لقدّيسيهم، من أوائل تلك الوثائق، ما كُتبت في عهد البابا غريغوريوس الأوّل الكبير (٣ أيلول ٥٩٠ - ٢٠ آذار ٦٠٤م)، في رسالة إلى سيرينوس أسقف مرسيليا في تشرين الأوّل سنة ٦٠٠ م[5]، وجاء فيها: (لقد بلغنا... أنّك حطمت

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلتُهُ بالاستعمار الغربي، ص ١٩، الدكتور محمد البهي.

(٢) الإيقونة: لفظ يوناني، معناه الصورة أو الرسم، وهو يستعمل في المصطلحات الدينيّة للإشارة إلى صورة القديسين. انظر: الروم وصلاتهم بالعرب، ١ / ٣٠٢، الدكتور أسد رستم.

(٣) على ضفاف الحقيقة، ص ٤٨٤، للدكتور خليل كفوري.

(٤) الطوائف المسيحيّة في مصر والعالم، ص ١٦٩، ماهر يونان رفائيل.

(٥) وقد كان الجدل والصراع قائماً منذ القرن الرابع الميلادي حول مسألة تقديس وإكرام الصور والتماثيل (الإيقونات)، فقد حرّم مجمع كاثوليكي محلي، وهو مجمع ألفيرة في إسبانيا، حرّم إقامة الصور في الكنائس، وظهر

صور القدّيسين، مستنداً إلى شبه عذر بأنّها يجب ألاّ تُعبَد. إنّنا نثني كُلّ الثناء علىٰ تحريمك عبادتها، ولكنّنا نلوم علىٰ تحطيمها... فعبادة صورة شيء، وشيء آخر التعلّم ممّا ترويه الصورة ما يجب أن نَعبد؛ لأنّ ما تُمثّله الأسفار لمن يعرف القراءة تحقّقه الصورة للسذّج الذين ينظرون إليها، إذ يرى فيها الجهّال ما يجب أن يتمسّكوا به، ويقرأ فيها من لا يعرف الحروف؛ لذلك تقوم الصورة بالنسبة إلى الشعوب خصوصاً مقام القراءة. فإذا أراد أحد أن يصنع صوراً لا تمنعه أبداً...»[1].

ثُمّ إنّ أهم المجامع في إظهار عقيدة تقديس الصور والتماثيل (الإيقونات) بالنسبة للكاثوليك، كان مجمع نيقيّة الثاني (المسكوني السابع) ٢٤ أيلول - ٢٣ تشرين الأوّل ٧٨٧م، في عهد البابا أدريان (أدريانوس) الأوّل (٩ شباط ٧٧٢ - ٢٥ كانون الأوّل ٧٩٥ م) فقد كان انعقاده علىٰ إثر صراع قوي بين فريقين، فريق مؤمن بتقديس الإيقونات، وآخر يمنع ذلك، والحزبان متمثّلان في طائفة الروم الأرثوذكس، حزب مع الطائفة الكاثوليكيّة وهم المؤيدون، والآخر ضد ذلك[2].

في نفس القرن الأسقف القبرصي ابيفانيوس وكان من المعارضين لتقديس الصور، فقد مزّق ستاراً في الكنيسة لأنه كان يحمل صورة ربّهم يسوع وبعض قدّيسيهم، كما أنّه في القرن الخامس ظهر منع تكريم الصور في بعض كنائس سورية، وفي القرن السادس ضجّت كنائس إنطاكيّة مستنكرة إكرام الإيقونات، وفي هذا القرن أيضاً حرَّم أسقف مرسيليا إقامة الإيقونات في الكنائس، فأرسل إليه البابا غريغوريوس الأوّل الرسالة المدوّنة في المتن أعلى الصفحة. انظر: الروم وصلتهم بالعرب، ١ / ٣٠٤.

(١) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ١٦٤.

(٢) ويُقسّم المؤرخون هذا الصراع إلى مدتين، الأولى: من سنة ٧٢٦ حتى سنة ٧٨٠، وتنتهي بالمجمع المسكوني السابع (نقيّة الثاني)، والمدة الثانية: من سنة ٨١٣ حتى سنة ٨٤٣م أي قبل انعقاد المجمع المسكوني الثامن (القسطنطينيّة الرابع).

ففي سنة ٧٢٥ أو ٧٢٦م أصدر الإمبراطور البيزنطي لاوون الثالث أمره بحضر تكريم الإيقونات، فتمّ إنزال تمثال ربّهم يسوع من على باب القصر الإمبراطوري، فاعترض عليه البطريرك جرمانوس، ولكن بدون فائدة، فاندلعت ثورة على قرارات الإمبراطور في حظر تكريم الإيقونات اشتركت فيها النساء اشتراكاً فعليّاً، فكان رد الإمبراطور عنيفاً فسقط عدد من القتلى. وفي سنة ٧٣٠ أصدر لاوون أمراً أشدّ من الأوّل فقاومه البطريرك جرمانوس واحتج عليه، فأهانه لاوون وعزله ونصب مكانه بطريرك يؤيّده في عقيدته بمنع إكرام الإيقونات. وهنا أرسل له بابا الكاثوليك غريغوريوس الثاني (١٩ أيار ٧١٥ - ١١ شباط ٧٣١م) رسالة في سنة يوضّح له العقيدة الصحيحة في ذلك، وهي وجوب إكرام الإيقونات (الصور والتماثيل)، فلم يهتم الإمبراطور برسالة البابا، فعقد البابا الذي خلفه، وهو غريغوريوس الثالث (١٨ أذار ٧٣١ - ٢٨ تشرين ٧٤١ م) مجمعاً محليّاً في سنة ٧٣٢م حرّم مكافحي الإيقونات، فأصدر الإمبراطور أوامره بقطع كل صلة للكنائس الخاضعة لسلطته الإداريّة

عن سلطة بابا روما الدينيّة. ثُمّ جاء بعده ابنه الإمبراطور قسطنطين الخامس إلى منصّة الحكم عام ٧٤١م، فشرع في اضطهاد محبّي الإيقونات، وعقد مجمعاً في سنة ٧٥٤م فأوجب إخراج الإيقونات من الكنائس والبيوت وقطع كل أسقف أو كاهن أو شماس وقضى على كل راهب أو علماني يقول بالإيقونات أن يُحاكم أمام المحاكم المدنيّة بتهمة معاداة الله والمعتقدات الموروثة عن الآباء.
وفي سنة ٧٧٥م توفي قسطنطين الخامس فخلفه ابنه لاوون الرابع، وكان أيضاً معادياً للإيقونات، وبعد خمس سنين خلفه ابنه قسطنطين السادس وله من العمر خمس سنين، فتولت أمه ايرينه زمام الحكم باسمه وكانت من محبّي الإيقونات، ونجحت في تغيير البطريرك إلى أحد مؤيديها في عقيدة إكرام الإيقونات، وهو طراسيوس، وفي عهده اجتمع المجمع المسكوني السابع (نيقيّة الثاني) في عام ٧٨٧م بعناية بابا روما أدريان الأوّل.
وفي جلسته الثانية قرئت رسالة بابا روما إلى أساقفة المجمع خاصة البطريرك طراسيوس، وفيها الأمر بإعادة الإيقونات، وفي الجلسة الثالثة قرئت رسالة البطريرك إلى المجتمعين، وأجاب عن أسئلتهم في مسألة الإيقونات، وفي الجلسة الرابعة اعترف آباء المجمع بوجوب تكريم الإيقونات وقبّلوها، وألغوا قرارات مجمع عام ٧٥٤م والتي حرّمت الإيقونات، وفي الجلسة السابعة كتب اعتراف الإيمان وحدّد فيه المجمع وجوب تقبيل الإيقونات والسجود الإكرامي لها. وبهذا انتهت الفترة الأولى من الصراع الذي أنشأه بعض إمبراطورات الدولة الرومانيّة في القسطنطينيّة.
والفترة الثانية كانت من سنة ٨١٣ حتى سنة ٨٤٣م أي قبل انعقاد المجمع المسكوني الثامن (القسطنطينيّة الرابع)، في ٥ تشرين الأوّل ٨٦٩ - ٢٨ شباط ٨٧٠ م.
فبدأت الفترة الثانية في الصراع منذ عهد الإمبراطور لاوون الخامس ابن نيقفور الأوّل (٨١٣ - ٨٢٠ م) فقد كان معادياً أشد من أبيه لتكريم الإيقونات، بل كان يرى أنّ ما حلّ بالدولة الرومانيّة من ضعف، وما أحدق بها من خطر إنّما نشأ عن العودة إلى تكريم الإيقونات. وأعاد قرارات مجمع عام ٧٥٤م في منع تكريم الإيقونات. وفي ربيع عام ٨١٥م أمر بإلقاء القبض على البطريرك نيقيفوروس وكان من محبّي الإيقونات، وعيّن بدلا عنه ثيودوتوس.
ثُمّ كان عهد خليفته ميخائيل الثاني عام ٨٢٠م، فخفف الضغط على محبّي الإيقونات، فصدر أوامره بمنع كل مشادة حول الإيقونات، واستدعى من المنفى جميع المبعدين بسبب الإيقونات في عهد لاوون الخامس منذ عام ٨١٣م، خاصة عندما قامت ثورة لصالح محبّي الإيقونات عام ٨٢١م، وهو جعل الإمبراطور يقف محايداً. ثُمّ كان عهد خليفته، ثيوفيلوس الأوّل (٨٢٩ - ٨٤٢ م)، وكان من أعداء الإيقونات، وعيّن بطريركاً على الكرسي القسطنطيني من مبغضي الإيقونات اسمه يوحنّا الكاتب. ثُمّ كان عهد خليفته، ابنه ميخائيل الثالث (٨٤٢ - ٨٦٧ م)، وقد استلم الإمبراطوريّة وهو ابن السادسة من العمر، فكانت وصيّته أمه ثيودورة، وقد كانت من محبّي الإيقونات، واختارت في مجلس الوصاية مستشارين يؤمنون معها بالإيقونات، وأبعدت يوحنّا الكاتب من سدة البطريركيّة، وعيّنت بدلا عنه متوذيوس وكان من مناصري الإيقونات.
دعت ثيودورة مع بطريركها الجديد إلى مجمع عام ٨٤٣م، فوافق المجمع على قرارات المجمع المسكوني السابع، وبعد انتهاء المجمع من السنة نفسها في أوّل أحد من الصوم الكبير نُصبت الإيقونات المكرّمة في كنيسة الحكمة، وأصبح ذلك اليوم، وما زال عند معتقدي عقيدة تقديس الصور والتماثيل (الإيقونات) عيداً سنوياً لرفعها وانتصارها لتمجيد الإيقونات. وبعد المجمع أصدر البطاركة الثلاثة في المشرق (خريستيفورس الإسكندري، وأيوب الانطاكي، وباسيليوس الأورشليمي) بياناً مشتركاً بوجوب حماية الإيقونات وتكريمها.
انظر: الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، ص ٣٠٢ - ٣٢٧، الدكتور أسد رستم. وبتوسع إلى كتاب (حرب في الكنائس) للدكتور أسد رستم.

وكانت من أهم جلسات المجمع في شأن الإيقونات، الجلسة السابعة، بتاريخ ١٣ تشرين الأول ٧٨٧م، بعنوان (تحديدات في شأن الأيقونات المُقدَّسة)، ومِمَّا جاء فيها: (إنّنا، ونحن سائرون على الطريق الملكيّة، ومعتمدون على التعليم الإلهيّ الملهم لآبائنا القديسين، ولتقليد الكنيسة الكاثوليكيّة، الذي نعلمُ أنّه من الروح القدس الساكنِ فيها، نُقرِّر هذا بكلّ ما أمكن من الدِّقة والصحّة: كما هو الأمر بالنسبة إلى تمثيل الصليب الثمين والمحيي، فلتوضَع الإيقوناتُ المُكرّمة والمُقدّسة، المصنوعةُ من فسيفساء أو من مادة أخرى لائقة، في كنائس الله المقدّسة، على الأشياء والألبسة المكرّسة، على الجدران والألواح، في المنازل وعلى الطرقات: إيقونة ربّنا وإلهنا ومخلّصنا يسوع المسيح، وإيقونة سيّدتنا المُنزَّهة عن الدنس والدة الله القديمة، وإيقونات الملائكة الجديرين بالاحترام، وجميع القدِّيسين والأبرار.

إذ كُلّما رأيناهم مُمثَّلين في الإيقونة، وحدَّقنا في إيقوناتهم، حَمَلَنا ذلك على أن نتذكَّر ونُحبَّ النماذجَ الأصليّة، وأن نُقدِّم لهم التحيّات والإكرام، لا العبادةَ الحقيقة الخاصة بإيماننا، التي تليق بالطبيعة الإلهيّة وحدَها، ولكن كما يجري بالنسبة إلى تمثيل الصليب المجيد المحيي، والأناجيل المُقدّسة، وكُلِّ الأشياء الأخرى المكرَّسة. ويُكرِّمون بالتبخير وإضاءة الأنوار على عادة تقوى الأقدمين، إذ إن الإكرام الذي تُكرّم به الإيقونة يعود إلى النموذج الأصلي، وهكذا يُثبّت تعليمُ الآباء القديسين، وتقليدُ الكنيسة الكاثوليكيّة.

إن الذين يتجرّؤون على أن يُفكّروا أو يُعلِّموا بخلاف ذلك، أو يزدروا تقاليدَ الكنيسة، جرياً على منهاج الهراطقة الملاعين، أو أن ينبذوا أحدَ الأشياء المُكرّسة المُقدّمة للكنيسة، من أناجيل، وتمثيل للصليب، ولوحةٍ أو ذخائرَ مُقدّسة لشهيد، أو أن يتخيّلوا أساليبَ ملتوية وخادعة ليهدموا بعض ما في تقاليد الكنيسة الكاثوليكيّة الشرعيّة، أو أيضاً لكي تُباح الأشياءُ المُقدّسة لاستعمال غريب، هؤلاء جميعاً، إذا كانوا أساقفة أو مِن الإكليروس فنأمر بحَطِّهم، وبإقصائهم إذا كانوا

رهباناً أو علمانيين)[1].

وجاء أيضاً في الجلسة الثامنة منه، في آخر يوم لانعقاده، ٢٣ تشرين الأوّل ٧٨٧م، تحت عنوان (عن الإيقونات، وناسوت المسيح، وتقليد الكنيسة)، وممَّا جاء فيها: (نقبل الإيقونات المكرّمة. ومن لا يرون ذلك نخضعهم للحُرم... من لا يقبل أن يُرسَم بالإيقونات ما جاء في الإنجيل فليكن مُبسَلاً. من لا يقبل هذه الإيقونات التي صُنعت على اسم الرّب وقدّيسيه، فليكن مُبسَلاً...)[2].

ومن هذه الوثائق البابويّة أيضاً، ما كان في مجمع القسطنطينيّة الرابع (المسكوني الثامن) ٥ تشرين الأوّل ٨٦٩ - ٢٨ شباط ٨٧٠ م، في الجلسة العاشرة، في اليوم الأخير من انعقاده، تحت مُسمّى (قوانين)، بعنوان فرعي (تكريم الإيقونات)، وجاء فيها: (نرسم أنّ الإيقونات لربّنا يسوع المسيح محرِّر جميع الناس ومُخلّصهم، يجب أن يكون لها الإكرام نفسه الذي لكتاب الأناجيل المُقدّسة.

فكما أنّنا بالكلام الذي يتألف من مقاطع يتضمّنها الكتاب نصل كلُّنا إلى الخلاص، كذلك بالتأثير الذي تُحدثه هذه الإيقونات بألوانها، يجني الجميع - علماء كانوا أو جُهلاء - فائدة مِمَّا يقع تحت أنظارهم، فما يُقال بالمقاطع، تُعلِنه الكتابة التي بالألوان وتُعلي شأنه.

ومن اللائق، انسجاماً مع العقل والتقليد الأقدم، وبسبب الشرف، إذ يُرجَع إلى الأمثلة نفسها، أن تُكرّم الإيقونات وأن تُجَلّ مثل كتاب الأناجيل المُقدّسة وصورة الصليب الثمين.

فمن لا يُكرّم إذن إيقونة المسيح المُخلّص لن يرى هيئته عندما يأتي في مجدِ أبيه، ليُمَجّد القدّيسين [رسالة بولس الثانية لأهل تسالونيكي ١ : ١٠]، فليكن غريباً عن شركته وعن مجده.

ويكون كذلك لمن لا يُكرّم إيقونة مريم أمّه الطاهرة ووالدة الإله. ونرسم أيضاً إيقونات الملائكة القديسين، كما يُمثّلهم الكتاب الإلهي بالكلام. نُكرّم ونُجلّ أيضاً إيقونات الرسل الجديرين بالكثير من المديح، والأنبياء والشهداء، والرجال القديسين وجميع القديسين.

---

(١) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٢١٢.

(٢) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٢١٤.

والذين لا يسلكون هكذا فليُبسِلهم الأبُ والابن والروح القدس)[1].

وكذلك في المجمع التريدنتيني (المسكوني التاسع عشر) الطويل ١٣ كانون الأوّل ١٥٤٥ - ٤ كانون الأوّل ١٥٦٣م، في جلسته الخامسة والعشرين بتاريخ ٣ و ٤ كانون الأوّل ١٥٦٣م، بقرار طويل (مرسوم في الدعاء إلى القديسين وإكرامهم وذخائرهم، وفي الإيقونات) بتاريخ ٣ كانون الأوّل ١٥٦٣م، ومِمّا جاء فيه: (المجمع المُقدّس يأمر جميع الأساقفة وسائر من أُسندت إليهم مُهمّةُ التّعليم والإرشاد بأن يبذلُوا قصارهم في تلقين المؤمنين، وفق مسلك الكنيسة الكاثوليكيّة والرسوليّة الذي سلكتهُ منذ فجر المسيحيّة، ووفقَ الشعورِ العامّ للآباء القدّيسين، وقرارات المجامع المُقدّسة.

تكريم الذخائر، واستعمال الإيقونات:

والذين يقولون بأنّه يجب أن لا تُكرّم ذخائر القديسين، أو أنّه من العبث أن يُكرِّمها المؤمنون هي وسائر التذكارات المُقدَّسة... هؤلاء جميعاً يجب أن يُشجَبوا والكنيسة قد شجبتهُم قديماً ولا تزال تشجُبهم اليوم.

وإلى ذلك يجب اقتناءُ وحفظ إيقونات المسيح، والعذراء مريم والدة الإله، وسائر القديسين، ولا سيّما في الكنائس، وتقديمُ الإكرام الواجب لها؛ لا أنّنا نعتقد أنّ فيها بعض الألوهية، أو بعض القوّة التي تدعو إلى تكريمها، أو أننا نُريد أن نسألها شيئاً، أو أن نضع ثقتنا في الإيقونات كما كان يفعل قديماً الوثنيّون الذين كان رجاؤهم في الأصنام، ولكنّ التكريم الذي نحوطها به يعود إلى المُثُل الأصيلين الذين تُمثّلهم هذه الإيقونات. وهكذا فمن خلال الإيقونات التي نُقبّلها، والتي أمامنا نكشف عن رؤوسنا ونركع، نعبد المسيح ونُكرّم القديسين الذين تُمثّلهم. هذا ما حددته قراراتُ المجامع، ولا سيّما مجمع نيقية الثاني، ضد محاربي الإيقونات.

وليُعلّم الأساقفةُ بعنايةٍ أنّه بتاريخ أسرارِ فدائنا مُمثّلة في رسوم أو فيما أشبه ذلك يزداد الشعب

---

(١) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٢٣٢.

علماً وثباتاً في حقائق الإيمان التي يجب أن يتذكرها ويُجلّها دائماً. وإنه ليُجنَى ثمرٌ عظيم من جميع الإيقونات المُقدَّسة، لا لأن الشعب يتثقفُ منها الحسناتِ والمواهب التي يقدِّمها له المسيح فقط، ولكن لكون مُعجزات الله التي تجري على يد القدّيسين والقدوة الخلاصيّة التي يُقدّمها هؤلاء أيضاً تُصبح ماثلةً أمام عيون المؤمنين.... وإذا علّم أحدٌ أو رأى خلافَ هذه القرارات: فليكن محروماً)[1].

وعقيدة تمجيد الصور والتماثيل (الإيقونات)، كما أنها عقيدة الطائفة الكاثوليكيّة، وآخر ما انتهت إليه طائفة الروم الأرثوذكس اليونانيين، كذلك هي عقيدة طائفة الأرثوذكسيّة المرقسيّة القبطيّة. وخالف في هذه العقيدة الطوائف البروتستانتيّة، فهم يرون أنّ هذه العقيدة ضد الوصيّة التي ذُكرت في التوراة[2]، وهي: (لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما مِمَّا في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهنّ ولا تعبدهنّ)[3].

---

(١) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٤٥٣ - ٤٥٥.

(٢) اللاهوت المقارن، ص ١٧٠، للبابا شنودة الثالث بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسيّة.

(٣) خروج ٢٠: ٤، ٥، تثنية ٥: ٨، ٩.

الفصل الثاني: التعريف بالبابوية، وتاريخها

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: التعريف بالبابويّة.

المبحث الثاني: البابويّة عبر التاريخ.



المبحث الأول: التعريف بالبابوية

(بابا) لفظ قيل إنه يوناني الأصل مأخوذ من كلمة (باباس)، ومعناه الأب (pope)[1]، وقيل بل مأخوذ من الكلمة القبطية (بي بابا) أي الأب، وأنّ أول ظهور لهذا اللقب كان في مصر، ثم نُقل إلى صاحب كرسي بطرس الرسول في روما[2].

يُقال عنه في اليونانية (بترياركْ) (patiach)[3]، فهذه اللفظة مركبة من كلمة (بتريا) ومعناها (العشيرة) وكلمة (أرشيس) ومعناها (الرئيس)[4].

والبابوية رتبة أُسقفية وسلطوية، يتقلدها أسقف روما في الطائفة الكاثوليكية بصفته المسؤول الأول فيها، ويُدعى البابا أو الحبر الأعظم، فهو يُمثّل قمة الهيكل الإداري والروحي في الكاثوليكية، ويُختار البابا من بين أعلى درجات رجال الدين النصراني، والمعروفين بالكرادلة، وأنّه يُنتخب مدى الحياة، ويُمكنه أن يستقيل، ولكن لا يُمكن أن يُقال، يُخاطبه النصارى الكاثوليك بكلمة (قَدَاسَتك)، ويصف نفسَه في الوثائق الرسميّة بخادم خدّام الرب، ويرتدي زيّاً دينيّاً مميزاً، يُسمّى الرداء الكهنوتي، ويعيش البابا في قصره في الفاتيكان معظم أيّام السنة، ويرحل في الصيف إلى فيلا بابويّة في مدينة (كاستل جاندولفو) في جبال الألب جنوب شرقي روما[5].

---

(١) الروم١/ ٩٦، د. أسعد رستم، تاريخ أوروبا في العصور الوسطي ص٥١، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

(٢)) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب ٢/ ٩٨١، الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

(٣) دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص٤٦٥، د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي.

(٤) الروم ١/ ٩٦، د. أسعد رستم.

(٥) قاموس الكتاب المقدس، ص٨٢٤، موسوعة السياسة ١/ ٤٥٨، د. عبد الوهاب الكيالي، الموسوعة العربية الميسرة ١/ ٢٩٦، محمد شفيق غربال، القاموس السياسي، ص ١٧١، أحمد عطية الله، الفرق والمذاهب المسيحية، ص ٧٧، سعد رستم، الموسوعة العربية العالمية ٢٠/ ١١٨، / ٧٦.

طريقة انتخاب البابا:

كان البابوات يُنتخبون عن طريق جميع المنخرطين في السلّم الكهنوتي وغيرهم من الأتباع، وليس الكرادلة فقط، وكان للملوك والأباطرة والأمراء وغيرهم من القادة العلْمانيين دور كبير ومؤثّر في اختيار من يجلس على كرسي البابويّة، وغيرها من الوظائف الدينيّة في الكنيسة، وهذا ما كان يعترض عليه ويُحاربه المصلحون في الكنيسة ويُسمُّونه (بالسِّيمونيّة)[1].

ولكن بدءاً من عهد البابا نقولاس الثاني (٦ كانون الأوّل ١٠٥٨ - ٢٧ تموز ١٠٦١م) قد وُضعت طريقة تُبيّن كيفيّة إجراء انتخابات اختيار البابا الجديد، ومن أهمّ معالم هذه الطريقة: أنّه ليس للملوك والأباطرة فضلاً عن غيرهم من العلْمانيين دخل في هذه الانتخابات، ثُمّ إنّ هذه

(١) وقد صدرت وثائق بابويّة كثيرة في محاربة (السيمونيّة)، ومحاولة القضاء عليها، وقد بدأت محاربة فساد التعيينات في الكنيسة في عهد البابا لاون الأوّل الكبير (٢٩ أيلول سنة ٤٤٠ - ١٠ تشرين الثاني ٤٦١م) فصدرت وثيقة بهذا في مجمع خلقيدونيّة (المسكوني الرابع) [من ٨ تشرين الأوّل إلى مطلع تشرين الثاني ٤٥١م] في الجلسة السابعة، وقيل في الجلسة الخامسة عشرة من جلساته، تحت عنوان عام (قوانين)، ومُسمًّى خاص (السيمونيّة)، ثُمّ توالت الوثائق البابوية لمحاربة فساد التعيينات هذه، ومن أهم الوثائق في ذلك ما كان في عهد البابا نيقولاس الثاني (٦ كانون الأوّل ١٠٥٨ - ٢٧ تموز ١٠٦١م)، أثناء انعقاد مجمع لاتراني محلي في نيسان ١٠٦٠م، وثيقة بعنوان (الرّسامات السيمونيّة)، ومّما جاء فيها: (نُقرّر أن لا يُعامَل السيمونيّون بأيّ نوعٍ من الرحمة فيما يتعلق بالحفاظ على رتبتهم؛ إنّنا بعكس ذلك نحكم عليهم بما تفرضه القوانين وقرارات الآباء القدّيسين من عقوبات، ونُقرّر، بما لنا من سُلطة رسوليّة، أنّه لا بد من حط درجتهم)، وأيضاً ما قرّر في المجامع المسكونيّة اللاترانيّة الأربعة، اللاتراني الأوّل (المسكوني التاسع) [١٨- ٢٧ آذار (٦ نيسان؟) ١١٢٣م)، في عهد البابا كاليكستوس الثاني (٢ شباط ١١١٩ - ١٣ كانون الأوّل ١١٢٤م)، وثيقة عامة بعنوان (السيمونيّة، التبتّل، التّوليّة)، وممّا جاء فيها: (جرياً على مثَل الآباء القدّيسين، وتجديداً لواجب وظيفتنا، نمنع بسلطة الكرسي الرسولي، منعاً لا حدودَ له، أن يُرسمَ أحدٌ أو يُرَقّى بالمال في كنيسة الله. إذا حصل أحدٌ في الكنيسة، بهذه الطريقة، على رسامة أو ترقية، فليكن محروماً كُلّياً من الرُّتبة التي حصل عليها)، وفي اللاتراني الثاني (المسكوني العاشر) افتتح في ٤ نيسان ١١٣٩م، تحت عنوان عام (قوانين)، ومُسمًّى خاص (السيمونيّة والربا)، وذلك في عهد البابا إنوشنتيوس الثاني (١٤ شباط ١١٣٠ - ٢٤ أيلول ١١٤٣م)، وفي اللاتراني الثالث (المسكوني الحادي عشر) [٥ - ١٩ (٢٢؟) آذار ١١٧٩م)، في الجلسة الثالثة، في اليوم الأخير من انعقاده، تحت عنوان عام (فصول)، ومُسمًّى خاص (السيمونيّة)، وذلك في عهد البابا إسكندر الثاني (٧ أيلول ١١٥٩ - ٣٠ آب ١١٨١ م)، وفي اللاتراني الرابع (المسكوني الثاني عشر) [١١ - ٣٠ تشرين الثاني ١٢١٥م] في الفصل ٦٣ وثيقة بعنوان (السّمونيّة)، وذلك في عهد البابا إنوسنت (إنّوشنتيوس) الثالث (٨ كانون الثاني ١١٩٨ - ١٦ تموز ١٢١٦م). انظر: الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، المجلد الأوّل، ص ١٠٥، ٢٤١، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٣، ٢٨٣.

الانتخابات قاصرة فقط علىٰ رتبة الكرادلة في الكنيسة دون غيرها من الرتب الكنسيّة الأخرى، والتي هي أصغر منها، ولا شك، والكرادلة المخصصون لاختيار البابا الجديد هم كرادلة العاصمة روما، وضواحيها، وبعد ذلك يجتمع بقيّة كرادلة الكنيسة الكاثوليكيّة المنتشرون، مع الأساقفة لإقرار ذلك الاختيار، ثُمّ يُعرض الأمر علىٰ بقيّة المنخرطين في السُلّم الوظيفي في الكنيسة، وعلىٰ باقي عامة الشعب الكاثوليكي للموافقة علىٰ الاختيار، علىٰ أنّ اختيار البابا الجديد يجب أن يكون من رجال كنيسة روما ما دام يوجد فيها الشخص المناسب لتولّي المنصب البابوي، فإذا لم يُوجد جاز اختيار البابا من كنيسة أخرى غير كنيسة روما.

أمّا إذا حدث ما عكّر صفو الجو في مدينة روما بحيث انتشر الفساد، وتعذّر إجراء انتخاب حر لاختيار بابا جديد، فإنّه يجوز للكرادلة ورجال الكنيسة الباقين وبعض العلْمانيين الثقات الانتقال إلى مكان آخر يرونه مناسباً لإجراء عمليّة الانتخاب.

ثُمّ كانت هناك بعد ذلك تغييرات جديدة في طريقة الانتخاب في عهد البابا إسكندر الثاني (٧ أيلول ١١٥٩ - ٣٠ آب ١١٨١م)، أثناء انعقاد المجمع اللاتراني الثالث (المسكوني الحادي عشر) ٥ - ١٩ آذار ١١٧٩م، وتركّزت حول مسألة أن كرادلة الكنيسة الكاثوليكيّة جميعاً لهم حق اقتراع متساو، وليس فقط كرادلة كنيسة روما، وأنّ البابا يتطلّب أغلبيّة الثلثين.

ثُمّ كانت خطوات أخرى في انتخاب البابا الجديد قُرِّرت في عهد البابا غريغوريوس العاشر (١ أيلول ١٢٧١ - ١٠ كانون الثاني ١٢٧٦م)، أثناء انعقاد مجمع ليون الثاني (المسكوني الرابع عشر) ٧ أيّار - ١٧ تمّوز ١٢٧٤م، وكان الهدف من هذه التغييرات منع تأخير انتخاب بابا جديد، ونصّت علىٰ قيام جميع كرادلة الكنيسة الكاثوليكيّة في اليوم العاشر لوفاة البابا دون انتظار من لم يحضر منهم في الموعد المُحدَّد بالاجتماع في قاعة مُغلقة للتشاور، علىٰ أن يقطعوا اتصالاتهم بالعالم الخارجي، وأن لا تكون القاعة مُقسّمة بجدران أو ستائر، وإذا لم تسفر المشاورات عن اتفاق خلال الأيام الثلاثة الأولى، تُقدّم للكرادلة وجبة طعام واحدة يومياً خلال الأيام الخمسة التالية، وبعدها لا

يُقدّم لهم سوى الخبز، والخمرة، والماء. وبعد اختيار شخص مُعيّن يُسأل عن قبوله للمنصب، فإذا استجاب، يُسأل عن الاسم الذي يختاره، ويُعلن الاسم لكل الكرادلة، ثُم يُعلِن أكبر الكرادلة سناً الاختيار إلى الجمهور، ويُقام تتويج رسمي للبابا فيما بعد[1].

ومقرّ البابا دولة الفاتيكان في روما عاصمة إيطاليا.

التعريف بدولة الفاتيكان:

- الاسم الرسمي لدولة الفاتيكان باللغة الإيطالية: ستاتو ديللاسيتا دل فاتيكانو[2].

- ورئيس هذا الدولة هو الحبر الأعظم للطائفة الكاثوليك (البابا).

- تقع دولة الفاتيكان ضمن مدينة روما. وتُعد أصغر دولة في العالم إذ لا تتعدى مساحتها (١١٠ أفدنة) منفصلة عن بقية مدينة روما بأسوار، تضم كاتدرائية القديس بطرس والقصر البابوي، والقصور الفاتيكانية حيث المكاتب والكنائس، وعدداً من المباني الأخرى والحدائق. والفاتيكان قلب الكنيسة النابض، وهو حرم مقدس عند الطائفة الكاثوليكية وباقي الطوائف النصرانية الأخرى. ويتسم البلاط البابوي الذي يديره الكرادلة بفخامة مقرونة بتقشف. ويقوم علىٰ حراسته حرس سويسري. ويحوي الفاتيكان متاحف عظيمة، وكنائس تبلغ غاية الروعة والجمال وخاصة كنيسة سيستين. ومكتبة الفاتيكان المؤسسة في القرن الخامس عشر من أقدم مكتبات العالم وأنفسها، وتحتوي علىٰ أكثر من خمسين ألف مخطوط، وما يُقارب من أربعمائة ألف كتاب مطبوع، كثير منها نادر. ويُضاف إلى ذلك بعض المباني التابعة للفاتيكان في مدينة روما نفسها، والقصر الصيفي الخاص بالبابا[3].

---

(١) أوروبا والمسيحيّة، ٢ / ٢٨١، يان دوبراتشينسكي، ترجمة: د. كبرو لحدو، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ١٧٤، الأب جان كُمبي، اضمحلال الإمبراطوريّة الرومانيّة وسقوطها، ٣ / ٢٦٢ - ٢٦٤، إدوارد جيبون، ترجمة: د. محمد سليم سالم، أوروبا العصور الوسطى، الجزء الأوّل (التاريخ السياسي)، ص ٧١٢ - ٧١٤، الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، الموسوعة العربيّة العالميّة، حرف الباء / ٧.

(٢) القاموس السياسي، ص ٨٤٥، أحمد عطية الله، الموسوعة العربيّة العالميّة، حرف الغين، والفاء، ١٧ / ١٦٥.

(٣) موسوعة السياسة ٤/ ٤٤٠،د. الكيالي، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب٢/ ١١٠٦، الموسوعة العربية

وأصبح الفاتيكان دولة مستقلة معترف بها دولياً بعد أن وقّع البابا بيوس الحادي عشر (٦ شباط ١٩٢٢- ١٠ شباط ١٩٣٩م)، وموسيليني رئيس الحكومة الإيطالية معاهدة لاتيران في ١١ فبراير عام ١٩٢٩م، والتصديق عليها في ٧ يونية من العام نفسه[1].

وليس لشعب الفاتيكان نشاط اقتصادي تستمد منه الدولة ميزانيتها العامة، ولكن المعاهدة السابق تضمنت منح الفاتيكان تعويضات قدرها (٧٥٠ مليون ليرة) نقداً أو مليار ليرة بمستندات على الحكومة[2].

وتتمتع دولة الفاتيكان، كونها دولة مستقلة، بكافة حقوق التمثيل على المستوى الدولي، ويشرف على هذا التمثيل (مجلس القضايا الكنسية).

ولها تمثيل سياسي في (٥٦) دولة، فلها حق تبادل المبعوثين مع الدول الأخرى ومن بينها إيطاليا، وحق عقد اتفاقيات دولية خاصة وتنظيم ممارسة ممثلي الكنيسة الكاثوليكية في البلاد الأجنبية للأعمال المتعلقة بالشؤون الدينية، ولكن في المعاهدة السابقة نفسها معاهدة لاتيران ١٩٢٩م التي قُرر فيها حقوق دولة الفاتيكان، منعت تلك المعاهدة البابا من الاشتراك في المؤتمرات السياسية الدولية أو إبرام معاهدة تحالف، أو التدخل في المنازعات التي تقوم بين الدول ما لم يطلب إليه الطرفان المتنازعان التوسط للتوفيق بينهما باعتبار ما له من النفوذ الأدبي والروحي على العالم النصراني.

أي أن البابا لا يتمتع إلاّ باختصاصات معينة قصد منها المحافظة على مصالح الطائفة الكاثوليكية. فلا يحق للبابا وممثليه أن يشتركوا في مؤتمرات سياسية. كما أن سلطة البابا على الفاتيكان لا تمتد إلى القضاء في الجرائم التي تُرتكب في دولته الفاتيكان بل يُترك أمر ذلك إلى الحكومة الإيطالية.

ويُطلق على مندوب الباب الذي يمثله في الدولة الأجنبية اسم (القاصد الرسولي)، وهو يُعادل مرتبة (السفير)، وبالنسبة للدول الكاثوليكية يتقدم القاصد الرسولي غيره من السفراء دون اعتبار

الميسرة ١/ ١٢٦١، لغربال، القاموس السياسي، ص ٨٤٥، أحمد عطية الله، الموسوعة العربية العالمية، ١٧/ ١٦٥.

(١) موسوعة تاريخ العالم، ٧/ ٢٥٩٥، وليام لا نجر، الموسوعة العربية العالمية، ١٧ / ١٦٥، موسوعة السياسة ٤/ ٤٤٠، د. الكيالي.

(٢) القاموس السياسي، ص ٨٤٥، أحمد عطية الله، موسوعة تاريخ العالم، ٧/ ٢٥٩٦ وليام لا نجر.

الأقدمية. ويلي القاصد الرسولي في مرتبة مبعوثي البابا مرتبة (وكيل القاصد الرسولي) وهو يُعادل درجة الوزير أو المبعوث فوق العادة، ومبعوثو البابا يتمتعون بالحصانات الدبلوماسية أسوة بغيرهم من الممثلين السياسيين.

ومن جهة أخرى، تتمثل كذلك مختلف الدول بواسطة سفراء لدى دولة الفاتيكان تبعاً للقوانين مرعية الإجراء دولياً. ويرتكز الفاتيكان دوماً على أن التزامه بهذا التمثيل هو لتأكيد (استقلال الكنيسة عن مختلف الدول والحكومات في عملها مع الكنائس المحلية من أجل السلام والعدالة) كما أعلن البابا بولس السادس في خطاب ألقاه في ٥/ ١٠/ ١٩٦٥م من على منبر الأمم المتحدة[1].

---

(١) موسوعة السياسة، ٤/ ٤٤٠ و ٤٤٢، د. عبد الوهاب الكيالي، القاموس السياسي، ص١٧١، ٨٤٥، أحمد عطية الله.

المبحث الثاني: البابوية عبر التاريخ

والبابوية أقوى المؤسسات الدينية في العالم الغربي إجمالاً لدرجة أنها في بعض فترات التاريخ ألحقت السلطة الزمنية بالسلطة الروحية وذلك في العصور الوسطى بالذات، إلا أنها ابتداءً من القرن الرابع عشر تناقص سلطانها الزماني بشكل كبير، واكتفت بالسلطة الروحية، وذلك بسبب ظهور أمور كثيرة غيرت أحوالها، ومن ذلك ظهور الانشقاقات الداخلية في الكنيسة الكاثوليكية، بل في القصر الفاتيكاني ذاته، وظهور الروح القومية في أوروبا، والنظريات الفلسفية والعلمية المصادمة لآراء الكنيسة الكاثوليكية، وكذلك ظهور الثورات العلمانيّة التي طالبت فصل الحياة عن التعاليم الكنسيّة، حتى وصلت البابويّة في القرن الثامن عشر الميلادي إلى أضعف درجاتها ليس من الناحية الزمنية فحسب بل حتى من الناحية الروحية، وضعف السلطان البابوي حتى في مقره الرئيسي وهو إيطاليا. وهذا ما سأتعرض إليه في هذا الفصل إن شاء الله.

وأبتدئ بذكر أسباب علو شأن البابوية في العالم الغربي خاصة في العصور الوسطى:

السبب الأول: الناحية الروحية:

تلك الناحية القائمة على الاعتقاد بأن الجالس على كرسي روما هو خليفة القديس بطرس، وقد قالت أناجيل النصارى إنّ ربّهم يسوع قدّمه على باقي تلاميذه وأتباعه وجعله أساساً تُبنى عليه كنيسته، وأعطاه مفاتيح السماوات، وأنّ ما يربطه أو يحله في الأرض يكون مربوطاً أو محلولاً في السماء، جاء في إنجيل متى: (وَأَنَا أَيْضاً أَقُولُ لَكَ: أَنْتَ صَخْرٌ. وَعَلَى هَذِهِ الصَّخْرَةِ أَبْنِي كَنِيسَتِي وَأَبْوَابُ الْجَحِيمِ لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا وَأُعْطِيكَ مَفَاتِيحَ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ: فَكُلُّ مَا تَرْبِطُهُ عَلَى الأَرْضِ،

يَكُونُ قَدْ رُبِطَ فِي السَّمَاءِ؛ وَمَا تَحُلُّهُ عَلَى الأَرْضِ، يَكُونُ قَدْ حُلَّ فِي السَّمَاءِ)[1]، و (وادعى أساقفة روما أنهم ورثوا كل المزايا المنسوبة الى شخص القديس بطرس وإلى منصبه)[2].

لذلك فإن قوة الناحية الروحية للبابوية جعلت لها سلطة زمنية وكلمة نافذة في العالم الغربي بأسره، ليس على الشعوب النصرانية الغربية فقط، بل حتى على الأباطرة، حيث إنّ الزعامة الروحيّة على اعتقاد البابويّة، ومن يؤيّدها لا تكتمل إلاّ إذا أيّدتها زعامة دنيويّة؛ لذلك تدخل البابوات في السياسة، فأصبحوا بذلك رقماً صعباً، وفعّالاً في العلاقات الدوليّة.

فتاريخ النزاعات بين البابوية والأباطرة في العصور الوسطى بيّنت عجز الأباطرة في إخضاع البابوية وإدخالها تحت سيطرتهم في كثير من المواجهات بينهم، فالبابويّة كانت تستند في نزاعاتها مع الأباطرة إلى قوة نفوذها الروحي، وما للدين في تلك الأوقات من سلطة كبيرة في قلوب النّاس، وحسبها أنّها كانت تُنادي بأنّها خليفة ربّهم يسوع في الأرض، وأن بيدها سلطان الحل والعقد، ومفاتيح الجنة والنار، وملكوت السماوات.

السبب الثاني: منح الإمبراطور قسطنطين الأوّل القسم الغربي من إمبراطوريته للبابوية، وذلك عندما نقل عاصمته إلى القسطنطينيّة في الشرق:

يقول هـ. سانت موس: (والقصة الشهيرة التي حدثت بين الإمبراطور قسطنطين والبابا سلفستر ظلّت طوال العصور الوسطى تؤلف مظهراً أساسياً من مظاهر الجدل والدفاع عن مدعيات البابا، وتؤكد القصة أنّ قسطنطين الأكبر لم يتنازل فقط عن قصر اللاتيران الخاص به للبابا، ولم يعطه فحسب حق السيادة على الغرب؛ بل وهبه كذلك التاج والأرجوان؛ تمشّياً مع وظيفته المقبلة، على حين أن رجال الإكليروس التابعين له صار لزاماً عليهم منذ تلك اللحظة أن يحلّوا محل مجلس

---

(١) متى ١٦: ١٨ ١٩.

(٢) اضمحلال الإمبراطورية الرومانية، ١/ ٧٦٢، إدوارد جيبون.

السناتو بروما، مثلما احتل أتباعه من الأساقفة مناصب حُكّام الأقاليم)[١].

وقد عملت هذه المنحة الصبغة القانونية للتوسع في السلطة البابوية، وكانت العمود السحري الذي ترتكز عليه السلطة البابوية الروحية والدنيوية، ولهذا فإن البابا هادريان الأول (٩ شباط ٧٧٢ - ٢٥ كانون الأوّل ٧٩٥م) أرسل رسالة إلى الإمبراطور الألماني (شارلمان) شارل الكبير، يحضه فيها على تقليد سخاء قسطنطين وإحياء اسمه، حيث إنّ الإمبراطور قسطنطين ترك للبابوية السيادة المطلقة الدائمة على روما، وإيطاليا، والولايات الغربية جميعها[٢].

ولهذا يقول إدوارد جيبون: (كان لروما سيدان: أما الإمبراطور فقد حكم حكماً غير مستقر مستنداً إلى حق الفتح، أما البابا فقد أسس سيادته على قاعدة مريحة ناعمة، ولكنها أكثر صلابة، قوامها الرأي والعادة. فقد كان هناك اعتقاد عام بأن قسطنطين وهب للبابوات سلطة زمنية في روما)[٣].

السبب الثالث: قيام الإمبراطور قسطنطين بنقل عاصمة الإمبراطورية الرومانية من روما القديمة على ضفاف التيبر في إيطاليا إلى روما الجديدة (القسطنطينية) شيَّدها على ضفاف البسفور، وذلك في القرن الرابع الميلادي.

فهذه الخطوة من الإمبراطور قسطنطين كان لها أثرها في التاريخ الأوروبي ولمدة ألف سنة تالية،

---

(١) ميلاد العصور الوسطى، ص ٣٤٢، هـ. سانت موس (بتصرف).

(٢) تاريخ العالم، ٤/ ٥٤٢، ٥٤٨، جون. ا. هامرتن، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ٢/ ٣٨١، إدوارجيبون، أوروبا والمسيحية (الألفية الاولى)، ص ٢٣٦، يان دوباتشينسكي، ترجمة د. كبرو لحدو.
ومما جاء في رسالة البابا هادريان الأوّل إلى الإمبراطور شارلمان (بما أنه في أيام البابا المغبوط سلفستر وهب الإمبراطور التقي قسطنطين إلى كنيسة روما الكاثوليكية المقدسة سلطاناً فائقاً على كل الأصقاع الغربية؛ لذلك نلتمس منك الآن أن تعمل على إنهاء تلك الكنيسة المقدسة وإبهاجها ورفع مستواها أكثر فأكثر، حتى يقول جميع الناس الذي يسمعون: يحفظ الله الملك ويسمعنا في يوم ندعوه، فعليك أن ترد إلينا في أيامك كل هذه الأملاك التي منحها الملوك والأشراف وخائفو الله المختلفون إلى بطرس الرسول وإلى كنيسة الله الرومانية الرسولية المقدسة)، انظر: مختصر تاريخ الكنيسة، ص ٢٢٥، أندرو ملر.

(٣) اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ٣/ ٢٥٩، جيبون.

فلولاها لما استطاعت البابوية الوصول لما وصلت إليه من مجد وعظمة في العصور الوسطى، ثُمّ أنّها سنحت للبابويّة ا ستمرار الاتصال بمفاخر روما وتاريخها[1].

وقد أخذت البابوية تنظم كنائسها وفق التنظيمات الإدارية الإمبراطورية، خاصة أن نائب الإمبراطور في القسم الغربي من الإمبراطورية فضّل الإقامة في مدينة ميلان أكثر من الإقامة في العاصمة القديمة (روما)، وهذا أعطى بدوره البابويّة الشهرة والحرية في الفكر والتنظيم[2].

ثم إن هذه الخطوة تُبيّن لنا لماذا لم تحظ الكراسي الكنسية الكبرى في الشرق (القسطنطينية، والقدس، والإسكندرية، وأنطاكية)، وخاصة كرسي القسطنطينية من الناحية الزمنية السياسية ما حظي به كرسي روما.

فالإمبراطور الروماني الذي أقام في القسطنطينية تعامل مع الكنائس الشرقية ما درجت تسميته بـ (بابوية القيصر) أي: أنه عمل على الجمع بين السلطتين السياسية والدينية فتدخل في شؤون الكنائس، ولم يترك لأساقفتها الحرية في الفكر والتنظيم خاصة فيما بين القرنين السادس والثامن الميلاديين، أما في القسم الغربي من الإمبراطورية فإن نائب الإمبراطور لم يستطع أن يسيطر على الكنيسة، ولا على الشؤون السياسية هناك، فقد أصبح ضعيفاً، وهو ما أعطى بابا روما استقلالاً عملياً فاستطاع أن يفرض هيمنته على كل الكنائس في العالم الغربي من الإمبراطورية بحرية تامة، وفي مأمن من تدخل الإمبراطورية فيما يقوم به[3].

ثم إن المؤرخين ذهبوا إلى أن من أهم أسباب ضعف الإمبراطورية الرومانية في قسمها الغربي وهو ما أتاح للبابوية الحركة والتنظيم؛ هو انشغال الرومان بحربهم في الشرق مع الجيوش

---

(١) تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ٢٦، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ العالم، ٤/ ٥٤٢، إشراف: جون. ا. هامرتن.

(٢) العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، ص ٩٩، د. عادل زيتون.

(٣) تاريخ الحضارات العام، ٢/ ٦٢٣، (روما وإمبراطوريتها) إشراف: موريس كروزيه، وتاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ٤٨، ٤٩، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

الإسلامية الطموحة[1]، صرفهم عن مراقبة مكانتهم في القسم الغربي من الإمبراطوريّة، وهو ما أتاح للبابويّة هناك محاولة الانفراد بالسيطرة علىٰ الأوضاع السياسيّة والدينيّة.

السبب الرابع: انهيار قوة الإمبراطورية الرومانية في الغرب بسبب هجوم البرابرة[2] من جرمان وغيرهم المتكرر في أواخر القرن الخامس الميلادي، وهو ما جعل البابوية وكنائسها تظهر في صورة القوة الوحيدة التي يمكنها إنقاذ ما يمكن إنقاذه من تراث الماضي.

فأصبح البابا وقساوسته بمنزلة الزعماء الطبيعيين الذين التفت حولهم الناس وسط الأزمة الحادة التي أحاطت بهم[3]، فلم يستطع أحد أن يقنع هؤلاء الغزاة علىٰ التفاوض في روما إلاّ البابا انوسنت (أوشنتيوس) الأول (٢١ كانون الأوّل ٤٠٢ - ١٢ آذار ٤١٧م) مع الغزاة الجرمان عام ٤١٠م، والبابا لاون الأوّل (٢٩ أيلول سنة ٤٤٠ - ١٠ تشرين الثاني ٤٦١م) مع الغزاة المغول ٤٥٢م، وهذا زاد البابوية رفعة عند الشعوب الأوروبية عامة وعند الإيطاليين خاصة[4].

---

(١) وكانت بداية تلك المواجهات في موقعة مؤتة سنة (٨ هـ ٦٢٩ م) ثم جد الجد في موقعة اليرموك (١٣ هـ - ٦٣٦م) وفيها حلت هزيمة قوية بالجيوش الرومانية النصرانية على يد الجيوش الإسلامية. وقد أنهك المسلمون الإمبراطورية الرومانية في عقر دارها، فما وافت سنة (٦٤٢م) حتى فتح المسلمون قبادوقيا، ثم بلغوا فريجيا في عام (٦٤٦م)، ولم يلبث المسلمون أن أصبح عندهم قوة بحرية خطيرة فغزوا قبرص سنة (٦٤٨م)، وأنزلو هزيمة كبرى بالأسطول الروماني في موقعة ذات الصواري سنة (٦٥٥م) على الشواطئ الجنوبية لآسيا الصغرى. ونفذوا إلى أنقرة عام (٦٥١م)، وفتحوا أرمينية عام (٦٦٦م)، وكذلك خلقيدونية الشهيرة، ثم تعرضت العاصمة الرومانية نفسها (القسطنطينية) على مدى خمس سنوات لهجمات الفتح الإسلامي العظيم (٦٧٣ - ٦٧٨) من البر والبحر، ولم يصد الروم تلك الهجمات إلا بمشقات عظيمة، وفي عام (٧١٧) حدث حصار القسطنطينية العظيم من قبل الجيش الإسلامي.

(٢) البرابرة: لا يقصد مؤرخو هذه الفترة من التاريخ الأوروبي بلفظ البرابرة المعنى المرادف للفظ (همجية أو وحشية)، وإنما المقصود بها مرحلة من التنظيم الاجتماعي القبلي، الذي لم يرق بعد إلى مرحلة الاستقرار المدني وإقامة الدول ذات الحدود الثابتة. فالمجتمع البربري يعتمد على أساس رابطة الدم أكثر من اعتماده على رابطة المواطنة بين أفراده. انظر: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص٥٥، د. سعيد عاشور.

(٣) العلاقات السياسية والكنيسة، ص ٩٩، د. عادل زيتون، وتاريخ أوروبا في العصور الوسطى ص ٩٣ د. سعيد عاشور.

(٤) أوروبا والمسيحية، ١/ ١١٠، يان دوبرا تشينسكي، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ص ٩٩، د. السيد الباز العريني.

(وبينما كان سلطان الرومان ينهار في غرب أوروبا كانت الكنيسة تُشيد نظاماً كُتب له أن يُعَمّر بعد زوال الإمبراطورية. وكانت هذه الكنيسة تعد نفسها لليوم الذي تغدو فيه وارثة للتقاليد الرومانية)[1].

السبب الخامس: وقوف بعض ملوك الغرب في صف البابوية ضد أعدائها بعد سقوط الإمبراطور الرومانية القديمة، فاستفادت البابوية من ذلك استفادة عظيمة في تدعيم مركزها في العالم الغربي.

(ولا يخفى أن مبرر وجود إمبراطور غربي من وجهة النظر البابوية كان حماية مصالح الكنيسة بالسلاح في غرب أوروبا، وكان فوق كل شيء حماية العاصمة العريقة عاصمة أوغسطس، وقسطنطين، والكرسي المُقدّس والمسكوني للقديس بطرس وخلفائه)[2].

ومن أوائل من زاد البابوية قوة خارج روما ملك الفرنجة الساليين (وهم قوم من الجرمان قرب الحوض الأدنى من نهر الراين) كلوفيس (٤٨١ - ٥٠٧م) فقد تعمّد على المذهب الكاثوليكي عام ٤٨٢م، وكان مسيطراً على أجزاء من إسبانيا وما حولها، ثم استطاع أن يسيطر على أجزاء من فرنسا شمال نهر اللّوار، وما حوله، فأصبحت تلك المناطق كلها[3] تحت سيطرة البابوية من الناحية الدينية، وتظهر لنا أهمية هذه السيطرة إذا عرفنا أن معظم حُكّام الغرب في ذلك الوقت كانوا على

وفسر بعض المؤرخين موافقة الغزاة التفاوض مع البابا وعدم العبث بالكنيسة ومقدراتها بأن ذلك راجع إلى اعتقاد هؤلاء الغزاة أن رجال الدين جماعة من السحرة وأنهم إذا مسوهم بسوء ربما يصبون عليهم لعنتهم وتحل عليهم الكوارث والويلات، فهؤلاء الغزاة وقفوا (خشوعاً واحتراماً أمام أضرحة الرسل) فسَلِم كل من استطاع اللجوء إلى الكنائس، وبغض النظر عن كونهم نصارى أو غيرهم. انظر: العلاقات السياسية والكنيسة، ص ٩٩، د. عادل زيتون، تاريخ العالم، ٤/ ٥٤٥، جون. ا. هاموتن، أوروبا والمسيحية، ١/ ٩٩، يان دوبرا تشينسكي.

(١) تاريخ العالم، ٤/ ٢٤٥، جون. ا. هامرتن.

(٢) ميلاد العصور الوسطى، ص ٣٤٣، هـ. سانت موس، ترجمة: عبد العزيز جاويد.

(٣) والمناطق هي: البلاد الواقعة بين جبال البيرنيه ونهر اللوار مع جزء من إقليم بروفانس وجزء من إسبانيا، وكذلك المنطقة التي تقع بين نهر السوام ونهر اللوار، وكذلك الشمال والشمال الشرقي من فرنسا إلى ما وراء نهر الراين، انظر في ذلك: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ص ٧٧، ٨٠، د. نور الدين حاطوم.

المذهب الأريوسي، وهو المذهب المنافس وبقوة في ذلك الوقت للمذهب الكاثوليكي. بينما كان الملك كلوفيس في حينها الملك الكاثوليكي الوحيد بين ملوك الغرب، وبذلك اعتبرته البابوية زعيم الكاثوليك وحاميهم الرسمي[1].

ثم إنّه من الأحداث المهمة إن لم يكن الأهم في التاريخ البابوي بشكل خاص، وفي التاريخ الأوروبي بشكل عام؛ هو تحالف البابويّة مع الأسرة الكارولنجية الجرمانية، وكانت الفائدة الكبرى من هذا التحالف تكوين الإمبراطورية الرومانية المقدسة بين ألمانيا وإيطاليا في عهد الإمبراطور شارلمان (شارل الكبير) ابتداءً من سنة ٨٠٠م.

ولا شك أنّ هذا التحالف كوّن للبابوية سلطة زمنية سياسية قوية جداً قد لا تكون البابوية من قبل تحلم أن تصل إليها؛ لذلك ذهب بعض المؤرخين إلى أن هذا الحدث التاريخي هو الذي يفصل بين تاريخ أوروبا الحديث وتاريخ أوروبا القديم[2].

جاء في كتاب ميلاد العصور الوسطى لسانت موس: (حدث في عيد الميلاد من عام ٨٠٠م أنّه بينما شارلمان ينهض في أثناء إقامة القُدّاس، من ركوعه على ركبتيه أمام قبر القديس بطرس بروما، أن وضع البابا على رأسه تاجاً[3]، وحيّاه أهل روما بصيحات مدوية قائلين: (إلى شارل أوغسطس الذي توّجه الله، إمبراطور الرومان العظيم المحب للسلام، نتمنى له النصر والعمر الطويل).. فوقف محارب أوروبا الأول يفرض وصايته الدفاعية على المسيحية الغربية... ولا شك في أن تلك

---

(١) موسوعة تاريخ العالم، ٢/ ٤٠٣-٤٠٤، إصدار: وليام لانجر، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ص٧٥ – ٨٠، د. نور الدين حاطوم، ميلاد العصور الوسطى، ص ١١٥ – ١١٦، هـ. سانت موس، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ص ١٢٢ – ١٢٤، د. السيد الباز العويني.

(٢) تاريخ العالم، ٤/ ٥٤٩، جون. ا. هامرتن.

(٣) وهذه الطريقة التي تم بها تتويج شارلمان جعلت التاج الإمبراطوري يبدو في صورة منحة من البابا، وهي العقيدة التي أصبحت لها شأن كبير في النزاع بين الإمبراطورية والبابوية فيما بعد، وسأذكر إن شاء الله بعض هذه المواقف في الصفحات القادمة.

السياسة كانت من أروع اللحظات في تاريخ البابوية)[1].

ولهذا عدَّ المؤرخون القرن الثامن الميلادي قرناً متميزاً في تاريخ بروز البابوية بوصفها قوة سياسية ورئيسية في الغرب الأوروبي، فقد تلقت الدعم من الإمبراطوريّة الجديدة، ليس فقط ضد المنشقّين عن البابويّة في الغرب، بل حتى ضد أباطرة الإمبراطوريّة القديمة (الإمبراطوريّة البيزنطيّة) في الشرق[2].

السبب السادس: الإرساليات والبعوث التنصيرية، التي أرسلها البابوات إلى أرجاء أوروبا كافة، كان لها دور كبير في توسيع نفوذ الكنيسة الرومانية؛ لأن كل قطر كسبته تلك البعوث الكاثوليكية، كان - من ثم - كسباً للبابوية، وتوسيعاً لدائرة نفوذها[3].

فهذه إسبانيا انطوت تحت مظلة البابوية بعدما اتخذ ملكها ريكارد (٥٨٦-٦٠١م) الكاثوليكية عقيدة قومية، وكانت علاقته القويّة والحميمة بالبابا غريغوريوس الأوّل الكبير (٣ أيلول ٥٩٠ - ١٢ آذار ٦٠٤ م) سبباً لنفوذ سلطة الكنيسة في إسبانيا، إذ بلغ سلطان البابا وأساقفته في إسبانيا أن طغى علىٰ سلطان الملكيّات نفسها، ليس في الأمور الدينيّة فحسب بل حتى في الشؤون العلمانيّة[4].

ومن أعظم الانتصارات التي حققتها البابوية من خلال البعوث التنصيرية: أنها استطاعت أن تُدخل تحت لوائها جزر الممالك الأنجلوسكسونية السبع، والتي سُمِّيت (بريطانيا)، حيث أوفدت لها البابوية فريقاً تنصيرياً بقيادة المُنصِّر أوغسطين سنة ٥٩٦م، وكان ذلك في عهد البابا

---

(١) ميلاد العصور الوسطى، ص ٣٤٦، هـ. سانت موس.

(٢) العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، ص١٠٢، د. عادل زيتون، أوروبا والمسيحية، ١/ ٢٣٧-٢٤١، دوبراتشينسكي، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص١٦٠-١٦٤، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

(٣) تاريخ المسيحية، المسيحية الوسطى، ٢/ ٣٥، جاد المنفلوطي.

(٤) ميلاد العصور الوسطى، ص ٣٢٧، ٣٢٦، هـ. سانت موس.

غريغوريوس الأوّل الكبير[١].

فـ(البابوية احتفظت بالسيطرة العليا على الكنيسة في إنجلترا، فظل الأنجلوسكسون لا يعرفون شيئاً عن الكنيسة الشرقية أو عن الإمبراطورية، وصاروا أينما ولّوا وجوههم لا يجدون أمامهم سوى روما والبابوية)[٢].

وقد نجحت البعثة التنصيرية التي أرسلتها البابوية إلى ألمانيا والأراضي المنخفضة (هولندا) بقيادة المُنصِّر بونيفاس في عام ٧٢٢م[٣]، وقاد هذا المُنصِّر أيضاً بعثة تنصيرية كاثوليكية ناجحة إلى فرنسا[٤]؛ لذلك أعطاه البابا لقب (القديس بونيفاس)[٥].

وكذلك نجحت البعثة التنصيرية الكاثوليكية إلى الدانمارك سنة ٨٢٦م، وإلى السويد سنة ٨٢٩م، وإلى النرويج سنة ٩٣٨م[٦].

وهكذا استطاعت البابوية فرض سيطرتها على القسم الغربي عن طريق البعوث والإرساليات التنصيرية.

السبب السابع: اهتمام البابوية وكنائسها في الأقاليم بأعمال العطف والإحسان إلى الآخرين

---

(١) وهذه الممالك السبع، هي: مملكة (كنت) التي تألفت من قبائل الجوت، وممالك أسكس، وسسكس، ووسكس التي كان أهلها من السكسون، وممالك أنجليا الشرقية، ومرسيا، ونورثمبرلاند، وكان أهلها من الأنجلز.
وقد استمرت الحروب والمنازعات بين هذه الممالك السبع حتى استطاع (اثلبرت) ملك كنت (٥٦٠- ٦١٦ م) أن يفرض سيادته عليها جميعاً. وكان قد تزوج هذا الملك أميرة فرنجيّة كاثوليكية اسمها (برتا)، في الوقت الذي وصل إلى إنجلترا المنصِّر أوغسطين الصغير مبعوثاً من البابا غريغوريوس الأوّل.
انظر: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ٩٠، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، موسوعة تاريخ العالم ٢/ ٤١٤، وليام لانجر، ميلاد العصور الوسطى ص٢٩٠، ٣٢٩ سانت موس، مختصر تاريخ الكنيسة، ص١٩٧، أندرو ملر.

(٢) تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ٩٠، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

(٣) تاريخ العالم، ٤/ ٥٤٧، جون. ا. هامرتن.

(٤) ميلاد العصور الوسطى، ص ٣٣٠، هـ. سانت موس.

(٥) مختصر تاريخ الكنيسة، ص٢٠٦، أندرو ملر.

(٦) أوروبا والمسيحية، ص ٣٠٧، ٣١٠، يان دوبراتشينسكي.

من صدقات للفقراء والمعوزين، وبناء المستشفيات، وغيرها، وهو ما أكسبها رفعة عظيمة عند الشعوب الغربية خاصة في وقت كان يسوده النظام الإقطاعي.

فـ (في العصور الوسطى لم تكن الحكومات تقدم للشعوب أي خدمة من الخدمات الاجتماعية أو الصحية، أو أي شيء من الخدمات التي تُقدمها الحكومات لرعاياها في أيامنا الحاضرة)[1].

أمّا الكنائس فقد برزت في تلك الأعمال الخيّريّة، فقد كان من مهام الأساقفة، والتي قربتهم إلى حُبِّ الناس؛ أنّهم كانوا يتفقدون المرضى، ويُصلّون على المحتضرين، ويدفنون الموتى، ويبنون المستشفيات، ويفتدون أسرى الحروب، وكانت الصدقات التي تُدفع للكنائس يتمّ توزيعها على الفقراء والمحتاجين والأرامل والأيتام عن طريق الأساقفة[2].

فلم تلبث هذه الأعمال أن زادت من نفوذ الأساقفة في أقاليمهم، وهو ما أوجد طبقة من سواد الفقراء مستعدة لتنفيذ مشيئة رجال الدين[3]؛ لأن الناس كانوا ينظرون إليهم على أنهم يمثلون البر والتقوى[4].

وهذه الأسباب أُرجّح أنها أهم الأسباب التي جعلت للبابوية الرفعة في العالم الغربي إبّان العصورالوسطى.

وهنا أذكر بعض المواقف لبعض البابوات الذين نادوا أن السلطة البابوية سلطة عالمية حتى على الأباطرة والملوك أنفسهم وليس فقط على الشعوب النصرانية.

وكان من أوّل البابوات الذين تجيش في مخيلاتهم فكرة الزعامة العالمية للبابوية؛ هو البابا أنوسنت (أوشيتيوس) الأول (٢١ كانون الأوّل ٤٠٢ - ١٢ آذار ٤١٧م) الذي طالب بأن تدين

---

(١) تاريخ المسيحية، المسيحية في العصور الوسطى، ص ٩١، جاد المنفلوطي.

(٢) تاريخ العالم، ٤/ ٣٥٢، جون. ا. هامرتن، وتاريخ الحضارات العام، (روما وإمبراطوريتها)، ٢ / ٦١٥، موريس كروزيه.

(٣) تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ٤٦، د. سعيد عاشور.

(٤) تاريخ المسيحية، المسيحية في العصور الوسطى، ص ٣٢، جاد المنفلوطي.

جميع كنائس الغرب لكرسيه بالطاعة وأن تسير كلها بطريقة موحّدة دقيقة لا تحيد عنها، وفق الطقوس المتبعة في روما[1].

ثُمّ كان أبرز البابوات في إيمانه بعالميّة وعلوّ السلطة البابويّة، البابا لاون الأوّل الكبير (٢٩ أيلول سنة ٤٤٠ ١٠ تشرين الثاني ٤٦١م)، الذي أتم المظاهر الأولى للسلطة البابوية، ويُعد أوّل من افتتح العصر الذهبي في تاريخ البابوية، حيث أكد بوضوح سلطة البابا بوصفه ممثل المسيح على الأرض انطلاقاً من الحق البطرسيّ، فقد ظل متمسكاً به، ونادى أنّه حق موروث للبابوية، وهو أنّ الصفة الروحية تربط بين البابوات وشخص القديس بطرس، ونسب كل ما يفعله البابوات أو يقولونه إلى بطرس أمير الرسل، وكانت من أقوال البابا لاوون الأوّل في ذلك: (فما أصبنا في فعل شيء أو في صدور قرار، وما حصلنا عليه من شيء من رحمة الله، بما درجنا كل يوم على تأديته من صلوات وتوسلات، ليس إلاّ من عمل بطرس ومن خلاله، ذلك الذي تتركز قوته في مقره، والذي تفوق سلطته كل شيء)[2]، كما أعلن رفضه لما توصل إليه مجمع خلقدونية (٤٥١م) بالنسبة لمساواة أسقف القسطنطينية (أسقف عاصمة الإمبراطورية الرومانية الجديدة) لأسقف روما بنفس الامتيازات، محتجاً أن كنيسة القسطنطينية ليس لها أصل رسولي، أي لم يؤسسها أحد من تلاميذ المسيح[3].

كما نادى (أنّ سلطة روما سلطة أبدية، وأنّ بابل العظيمة قد زالت لتفسح الطريق أمام مدينة الرب (روما) التي يجب أن يكون ملكها خالداً)[4].

وهذا البابا جيلازيوس الأوّل (١ آذار ٤٩٢ - ٢١ تشرين الثاني ٤٩٦م) كان يدعو إلى أنّ

---

(١) تاريخ العالم، ٤/ ٥٤٥، ٥٤٦، جون. ا. هامرتن.

(٢) تاريخ أوروبا (العصور الوسطى)، ص١٦٢، ١٨١، د. السيد الباز العريني، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ٥١، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

(٣) العلاقات السياسة والكنيسة بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، ص ١٠١، د.عادل الزيتون.

(٤) تاريخ العالم، ٤/ ٥٤٦، جون. ا. هامرتن.

البابوية يجب أن تستقل عن الإمبراطورية وينادي بالنظرية البطرسية، وأنّ العالم يتولاه قوتان: القوة الروحية، والقوة الزمنية، وللقوة الروحية السيادة على القوة الزمنية لأنها أداة تخليص الإنسان[1]، وجاء ذلك في رسالة وجّهها إلى الملك أنسطاسيوس الأوّل عام ٤٩٤م، بعنوان (السلطان الأسمى المزدوج على الأرض)[2].

وقد أخذت البابويّة صبغتها العالمية القوية التي ميزتها طوال العصور الوسطى في عهد البابا جريجوري (غُريغوريوس) الأوّل الكبير (٣ أيلول ٥٩٠ - ١٢ آذار ٦٠٤ م)، حيث بدأت عظمته أشدّ ما تكون وضوحاً في النواحي التنصيريّة والسياسية والإدارية، فحكومته في روما كانت أقرب إلى الحكومة الدنيوية منها إلى الحكومة الدينية، ذلك أنّه أخذ ينظم وسائل الدفاع ضد أعداء البابويّة، أو من أراد أن يغزو الشعب الروماني؛ كإعداد الجند وتحصين الأسوار وشحن القلاع، بل توجيهات الهجمات، وفي حالات أخرى كان هو الذي يفاوض الأعداء ويعقد معهم الهدنات أو الصلح[3]، فقد كان يعتمد على أفانين الدبلوماسية، ويعمد بكل حرص وعناية إلى إنشاء الائتلافات وتكوين العُصَب والاتحادات، فأهدافه تجاوزت إيطاليا، فقد اتصل بالقوى الحاكمة جميعها في الغرب، وفي إسبانيا وثّق علاقاته مع البيت المالك، وكان نفوذه الشخصي معترفاً به في أرجاء فرنسا كلها، واستطاع ادخال إنجلترا في حظيرة البابوية، ومراسلاته مع مجموعة منوعة من ملوك الفرنجة تدل على معرفته الوثيقة بالأحوال السائدة في سائر الأبروشيات، وإلمامه بالأحداث السياسية، وفي وقته زاد التوتر بين البابوية والإمبراطورية البيزنطية؛ لاعتقاده الدائم أن البابا فوق الوالي، وأن الكنيسة فوق الدولة[4].

---

(١) موسوعة تاريخ العالم، ٢/ ٤٠١، وليام لانجر، العلاقات السياسية والكنيسة، ص ١٠١، د. عادل زيتون.

(٢) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ١١٨.

(٣) كما كان موقفه مع الجيوش اللمبّارديّة، فقد استطاع أن يعقد هدنه معهم سنة ٥٩٢م، ثُمّ استطاع أن يعقد صُلحاً نهائياً مع ملكهم (أجيولف) سنة ٥٩٨م، أنهى به الحروب المتواصلة التي استمرت ثلاثين سنة من الغزو اللمباردي لإيطاليا. انظر: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ١١٦، ١١٧، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

(٤) ميلاد العصور الوسطى، هـ. سانت موس، ص ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، بتصرف.

ومن الفترات الحاسمة في تاريخ البابوية تلك التي اقترنت بظهور شخصيات قوية تولت دفة الأمور: أمثال الباباوان جريجوري (غُريغوريوس) الثاني (١٩ أيار ٧١٥ - ١١ شباط ٧٣١م)، وجريجوري (غُريغوريوس) الثالث (١٨ أذار ٧٣١ - ٢٨ تشرين ٧٤١م).

ففي عهد البابا غُريغوريوس الثاني انفصلت عُرى البقية الباقية من تبعية روما للعاصمة الرومانية الجديدة (القسطنطنية)، وذلك على إثر عقيدة تقديس الإيقونات، فإن الإمبراطور ليو الايسوري (٧١٧-٧٤١) حرَّم تقديس الأيقونات على النصارى كلهم في العالم، فاعترض البابا غُريغوريوس الثاني على هذا القرار، وأخذ يخاطب الإمبراطور بلغة لم يسبقه إلى استخدامها أحد من البابوات السابقين حتى أنّه أعلن الحرمان الكنسي على الإمبراطور، وقطع كل صلة للتبعية بين كرسيه وعاصمة الإمبراطور القسطنطينية[١].

وفي عهد البابا غُريغوريوس الثالث حاولت البابويّة أن تستقل تماماً عن الإمبراطوريّة البيزنطيّة، فما كان من الإمبراطور ليو الايسوري إلا أن جهز أسطولاً ضخماً للقبض على البابا غُريغوريوس الثالث، ومحاولة استرداد نفوذ الإمبراطورية في إيطاليا، ولكن فشلت هذه الحملة وتحطم الأسطول الإمبراطوري في البحر الأدرياتي، فاضطر هذا الإمبراطور ومن بعده من الأباطرة ترك البابوات وشأنهم، في حين لم يعد للنائب الإمبراطوري في ميلان نفوذ يذكر[٢].

ولم تقبل الكنيسة أن تخضع لملك من ملوك الغرب في ذلك الوقت إلا للإمبراطور شارلمان مؤسس الإمبراطوريّة المقدسة لأنها ترى أهليته لذلك، وهو أيضاً ينظر إلى إمبراطوريّته نظرة دينية، ولكن بعد وفاته عملت الكنيسة على إبراز أهميتها وتحقيق سموها بعد خضوعها لشخص شارلمان، فهذا البابا ستيفن الرابع في سنة ٨١٦م أنكر شرعية تتويج لويس ابن شارلمان في حياة

(١) ومما قاله البابا غُريغوريوس الثاني للإمبراطور ليو: (... فيا للأسف على التغيير، ويالجسامة الفضيحة، إنك الآن تتهم الكاثوليك بالوثنية، وإنك بهذه التهمة إنما تظهر جهلك وبعدك عن التقوى. وقد اضطررنا إلى أن نستخدم خشونة الأسلوب والحجج لكي يتفق مع هذا الجهل...). انظر إلى كتاب: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ٢/ ٣٧٢، إدوارد جيبون.

(٢) تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ص ١٢٢ - ١٢٣، د. سعيد عبد الفاتح عاشور.

أبيه، وقام بتتويجه مرة أخرى بيده، وما هذا التتويج بيد البابا إلاّ تاكيداً لحق البابوية في منح التاج للإمبراطور.

ثم لما قامت ثورة ابني لويس ضده أبيهم سنة ٨٣٣م تهيأت الفرصة للبابا جريجوري (غُريغوريوس) الرابع لكي يؤكد فيها سلطان البابوية وسموها على الإمبراطوريّة باسم الوساطة بين الابنين الثائرين وأبيهما، وكان يؤكّد لهم أنّ أوامره وآراءه ليست أقل قُدْسيّة من الأوامر الإمبراطورية، فيقول: (يجب أن لاتنسوا أن الحكومة الروحية التي يهيمن عليها البابا أعلى قدراً من السلطة الإمبراطورية التي لا تعدو أن تكون زمنية ومؤقتة)[1]، ويتساءل (أليس ما للبابا من سلطة على الروح تسم على السلطة الإمبراطورية التي تنتمي إلى هذه الدنيا)[2].

وقد أكد هذه الفكرة بعد ذلك البابا نيقولا الأول (٢٤ نيسان ٨٥٨ - ١٣ تشرين الثاني ٨٦٧م)، والذي تمسك في آرائه ومسلكه تجاه الإمبراطورية بمبدأ سمو البابوية على الإمبراطورية، وقد أرسل في توضيح ذلك برسالة بابويّة إلى الإمبراطوريّة بتاريخ ٢٨ أيلول عام ٨٦٥م[3]، كما أنّه لم يعترف بأن الإمبراطور البيزنطي إمبراطوراً رومانياً؛ لأن الإمبراطورية الرومانية عنده لا توجد إلا حيث يريد البابا، وقد أظهر في خطاباته للملوك أنّه السيد الآمر الذي تجب طاعته، فالحاكم الذي لا يطيع أوامر الكنيسة الرومانية وتعليماتها يعد عاصياً ويستحق اللعنة والحرمان، فما توفّي إلاّ بعد أن رفع عالياً سلطة البابويّة في العالم الغربي[4].

ولا يشك الناظر إلى تاريخ البابويّة في أن فكرة علو السلطة البابويّة بلغت غايتها عندما تولى أمورها البابا جريجوري (غُريغوريوس) السابع (٢٢ نيسان ١٠٧٣ - ٢٥ أيّار ١٠٨٥م) المشهور

(١) المرجع السابق، ص ٢٩٣، سعيد عبد الفتاح عاشور.

(٢) انظر إلى: تاريخ أوروبا (العصور الوسطى) ص ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٩ د. السيد الباز العريني، تاريخ العالم، ٤/ ٥٥٠، جون. ا. هامرتن، تاريخ العصر الوسيط في أوروبة ص ١٨٩، ٢٠١، د.نور الدين حاطوم.

(٣) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٢٢٥.

(٤) تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ص ٢٩٣، د. سعيد عبد الفاتح عاشور، تاريخ العصر الوسيط في أوروبة ص ٢٢٠ د. نور الدين حاطوم.

باسم (هيلدبراند).

فقد وضع وثيقةً من نقاط عدة تُبين علو مكانة البابا وشرف قراراته، وأنّ له الرئاسة المطلقة الذي لا يمكن أن يقاضيه أحد، ولا يمكن الاعتراض علىٰ أحكامه[1]، وكان من أهداف البابا غُريوريوس السابع أن يمحو أي تدخل علماني في التعيينات الكنسيّة، فكان محارباً للسيمونيّة، فقطع علىٰ الملوك تدخّلاتهم في ذلك، والذي كان يعده الملوك من أثمن حقوق التاج الموروثة إن لم يكن أثمنها جميعاً، توارثوه عبر أجيال طويلة، ومن هنا كان علىٰ البابا غُريغوريوس أن يواجه معضلات كبيرة في علاقاته مع ملوك الغرب.

وكانت أقوى مواجهة تعرض لها البابا غُريغوريوس السابع بسبب توجهاته وأهدافه تلك مع الإمبراطور الألماني هنري الرابع، فقد رفض الإمبراطور التنازل عن حقه في تعيين الأساقفة،

(١) ومن بنود هذه الوثيقة: ١) أن الكنيسة الرومانية إنّما أقامها الله وحده، ٢) ما من أحد سوى بابا روما، جدير باتخاذ لقب المسكوني العالمي،٣) للبابا وحده الحق، وفقاً لما تقتضيه الأحوال، أن يسن القوانين الجديدة، وأن يُنشئ أبروشيات جديدة، وأن يشيد الأديرة، وله أن يُقسّم الأبروشيه الوفيرة الثروة إلى أبروشيات عديدة، أو يجعل من الأبروشيات الفقيرة أبروشية واحدة، ٤) وللبابا وحده أن يستخدم العباءة الإمبراطورية، ٥) وينبغي على كل الأمراء ألاّ يخضعوا إلا للبابا وحده، ٦) وينبغي ألاّ يُذكر في الكنائس إلاّ اسمه وحده، ٧) وما يتخذه لنفسه من اسم إنّما يخصه دون سواه، ٨) وللبابا وحده السلطة في عزل الأباطرة، ٩) وللبابا الحق في أن ينقل الأساقفة من منصب ديني إلى منصب ديني آخر، كلما اقتضت الحاجة إلى ذلك، ١٠) وله الحق في أن يرسم من يشاء من رجال الدين، من بين هيئة رجال الكنيسة، ١١) ولا يعقد سينود عام (مجمع) إلاّ بأمر البابا، ١٢) ولا يعد ما يتخذ من قرار في السينود (المجمع) كنسياً، دون أن يقر ذلك البابا، ١٣) وما يصدره البابا من قرار ليس بوسع أحد أن يلغيه، بينما جاز للبابا إلغاء قرارات غيره من الناس، ١٤) ليس بوسع أحد من الناس أن يحاكم البابا، ١٥) ينبغي أن يُرفع إلى كنيسة روما (أي إلى البابا) القضايا المهمة كُلّها، من أيّة كنيسة من الكنائس، ١٦) إن كنيسة روما معصومة من الخطأ، وذلك وفقاً لناموس الأناجيل المقدسة، ١٧) أضحى لبابا روما، الذي جرت رسامته وفقاً لقوانين الكنيسة، القداسة المستمدة من صفات القديس بطرس الرسول، وذلك وفقاً لما أورده القديس أينوديوس أسقف بافيان من أسانيد والتي أقرها كثير من الآباء القديسين، كما ورد في مقرارات البابا سيّماكوس، ١٨) بمقتضى أمر البابا وإذنه يجوز للرعايا أن يتهموا حكامهم وأمراءهم، ١٩) للبابا أن يعزل الأساقفة أو يعيدهم إلى وظائفهم، دون أن يدعو السينود (المجمع) للانعقاد، ٢٠) وللبابا السلطة في أن يحل الرعايا من يمين الولاء التي بذلوها للحكام والأمراء الأشرار.

انظر: تاريخ أوروبا العصور الوسطى ص٤٦٢، ملحق رقم٢٢ أ، د. السيّد الباز العريني، وتاريخ العصر الوسيط في أوروبة ص٦٨٠، د. نور الدين حاطوم، أوروبا والمسيحية، ٢/ ٥٠، يان دوبراتشينسكي، ترجمة د. كيرو لحدو، مختصر تاريخ الكنيسة ص١٩٢، اندرو ملر، والمسيحية (مقارنة الأديان) ص ٢١٢، د. أحمد شلبي.

ورؤساء الأديرة، واستمر يأمر بتلك التعيينات ومنح الرسامات، ومن أشهر من عيّنهم في تلك الفترة أسقف ميلان، كما أنه قام بأعمال أخرى من اختصاصات الكنائس، فأغضبت تلك الأعمال البابا غُريغوريوس السابع فأرسل إلى الإمبراطور هنري الرابع يدعوه إلى المثول أمامه في روما بلا أدنى تأخير لكي يجيب عن التهم الموجهة إليه جميعها أمام المحكمة البابوية ومجمع رجال الإكليروس، مهدداً إياه إذا رفض أو تباطأ فسيوقع علية حكم التحريم، وحدد له يوم ٢٢ فبراير من عام ١٠٧٥م يوم مثوله أمام المحكمة، رفض الإمبراطور الامتثال لأوامر البابا، فما كان من البابا غُريغوريوس السابع إلا أنْ دعى إلى مجمع في الفاتيكان سنة ١٠٧٦م قرر فيه توقيع قرار الحرمان على الإمبراطور هنري الرابع، وعزله من منصبه، وتحرير رعاياه وأتباعه جميعهم من أيمان الطاعة والتبعية التي أقسموها له، ونجح البابا في ذلك نجاحاً كبيراً فانقلبت ألمانيا والممالك التابعه له على الإمبراطور، وساد البلاد التعاسة والشقاء وسفك الدماء وأصبح الشعور العام ضد الإمبراطور المخلوع هنري الرابع.

وهكذا تلفتَ الإمبراطور هنري الرابع حوله فلم يجد من يعتمد عليه من الدوقات والأمراء، بل بعض هؤلاء أمهلوا الإمبراطور مدة أقصاها إلى شهر فبراير ١٠٧٧م، إن لم يغفر له البابا فسوف ينصبون ملكاً غيره على البلاد.

فما كان من الإمبراطور هنري الرابع إلا أن استسلم وخضع لإرادة البابا فرحل إلى البابا، وكان لزاماً عليه أن يعبر طريقاً جبلياً وعِراً حتى يصل إلى القلعة البابويّة في مدينة كانوسا، وقد كان البرد قاسياً، وبقي الإمبراطور ثلاثة أيام واقفاً على الجليد أمام أبواب القلعة الموصدة في وجهه، حتى تعطّف البابا وسمح له بالمثول بين يديه، فدخل الإمبراطور على البابا حافي القدمين مرتدياً ثوباً من ثياب الرهبان المصنوعة من الصوف، فلما وجد نفسه أمام البابا ارتمى بين قدميه قائلاً له: (اغفر لي أيها الأب المقدس) فغفر له البابا بعد أن فرض عليه شروطاً قاسية، وسلّم الإمبراطور بكل ما

تطلبه البابوية بدون قيود وكان ذلك في ٢٢ يناير عام ١٠٧٧م [١].

وبهذا بلغت كبرياء هيلدبراند البابا غُريغوريوس السابع ذروتها وتجاوزتها، وكان من الطبيعي أن يحدث هذا الإذلال أثره لا في نفس هنري فحسب بل في الرأي العام الأوروبي بأسره[٢]، فترك فيه آثار استياء كبيرة[٣].

وبعد البابا غُريغوريوس السابع بفترة وجيزة اعتلى العرش البابوي البابا أوروبان (أوروبانوس) الثاني (١٢ آذار ١٠٨٨- ٢٩ تمّوز ١٠٩٩م)، الذي أعلن التزامه بتعاليم غُريغوريوس السابع ومبادئه، ولكن هذا الالتزام اتخذ طابعاً أكثر دبلوماسية، وقد اقترن اسم البابا أوروبان الثاني بالحملة الصليبية الأولى على بيت المقدس، فهو المخطط الأكبر لها، والمنادي لقيامها ضد المسلمين في مجمع كليمنت سنة ١٠٩٥م، وما توفي إلاّ بعد أن أصبح أكبر رأس في العالم النصراني دون منازع، وذلك بعد دخول جيوشه بيت المقدس بأسبوعين[٤].

---

(١) دليل إلى قراءة تأريخ الكنيسة ص١٧٥، الأب جان كمبي، مختصر تاريخ الكنيسة ص٢٤٧ -٢٥٠، أندرو ملر، تاريخ العالم ٤/ ٥٥٤، ٧٤٠-٧٤١ جون.ا. هامرتن، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ص ٣١٠-٣١٥، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، موسوعة تاريخ العالم ٢/ ٥٦٨-٥٧٠، وليم لانجر، قصة الحضارة ١٤/ ٣٩٧-٤٠٠، ول ديورنت، أوروبا والمسيحية ٢/ ٥٣-٥٤، يان دوبرا تشينسكي.

(٢) تاريخ العالم ٤/ ٥٥٤، جون.ا. هامرتن.

(٣) تاريخ أوروبا العصور الوسطى ص ٣١٤، د. سعيد عاشور.

(٤) العلاقات السياسية والكنيسة ص ١٠٦-١٠٧، د. عادل زيتون، وموسوعة تاريخ العالم ٢/ ٦٠٢-٦٠٣، وليام لانجر، تاريخ العالم ٤/ ٧٤٢-٧٤٨، جون.ا.هامرتن، ومختصر تاريخ الكنيسة ص ٢٥٨، اندروملر، وتاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ٣١٩، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

وفي السنوات من ١١٥٤ إلى ١١٥٩م تولى العرش البابوي البابا أدريان الرابع وقد نجح في أوّل سنة من ولايته في القضاء على أعنف وأقوى حركة ثورية فكريّة جابهتها البابوية في تلك الأوقات[١].

ثُمّ إنّه حصلت مواجهة بينه وبين الإمبراطور فردريك الأول (برباروسا) عام ١١٥٧م، والسبب في تلك المواجهة أنّ كلاً منهما يعتقد أنّ له سلطة ومكانة أعلى من الآخر. فالإمبراطور فردريك الأول يعتقد أن السيادة للقانون لا للمنصب الكهنوتي والصفة الروحية، وأن إمبراطوريته مستمدة من الله، وأنّها البديل الزمني (الدنيوي) للبابوية، وهذه الآراء أغضبت البابا أدريان الرابع كثيراً فهي تُسقط حقوق البابوية وسلطانها الذي جاهد من أجل إظهارها وتثبيتها البابوات السابقون، فبعث إلى الإمبراطور يُبين له خطأ اعتقاده وأنّ مكانة الإمبراطور لا يصح أن تُقارن بأي حال من الأحوال بمكانة الأسقف، فالإمبراطور سلطته ليستْ مستمدة من الله مباشرة وإنما مستمدة من البابا، وفي نهاية الأمر خضع الإمبراطور لما ذهب إليه البابا، ومرت الأزمة بينهما بهدوء بدون مواجهة حقيقية[٢].

---

(١) وكانت هذه الثورة تدعو إلى الحرية المدنية والفصل التام بين الكنيسة والدولة، وأن القوة الزمنية للبابوية يجب أن تسقط وتُعطى للحكام المدنيين. فالكنيسة والبابوية في نظر زعيم هذه الثورة (أرنولد أوف بريشيا) لما فقط الناصية الروحية وأن مملكتها ليست في هذا العالم كما جاء في إنجيل يوحنا ٣٦: ١٨، فنشرت هذه الحركة موجات احتجاجية على البابوية في إيطاليا وألمانيا. ولكن البابا أدريان الرابع استطاع أن يقضي على هذه الاحتجاجات ويعيد الأمر إلى سابق عهده من الهدوء والخضوع للبابوية، وذلك بعد أن استطاعت السلطة البابوية القبض على رأس هذه الحركة (أرنولد) وإقامة حد القتل فيه وذلك في عام ١١٥٥م. انظر: مختصر تاريخ الكنيسة ص ٢٧٧-٢٧٩، اندرو ملر، وموسوعة تاريخ العالم، ٢/ ١٠٥، وليام لانجر.

(٢) قصة الحضارة، ١٥/ ١٧٣ ديورانت، تاريخ أوروبا (العصور الوسطى) ص٥٣٨-٥٣٩ د.السيد الباز العريني، الفكر السياسي الأوروبي في العصور الوسطى، ص٤٦-٤٧، د.رأفت عبد الحميد، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ٣٣٤-٣٣٥، د.سعيد عبد الفتاح عاشور، مختصر تاريخ الكنيسة ص ٢٨٠، اندرو ملر.
يقول أندرو ملر: (إزاء هذه الحالة لم يكن من فردريك إلا أن يتمشى مع القائلين بأن الماضي يُعزز حُجة البابا... وعلى ذلك قام فردريك في صبيحة اليوم التالي ولعب دور الابن البار للكنيسة بأن نزل من على ظهر جواده. بينما كان أدريان مُقبلاً وقبض باليد الواحدة على اللجام وبالأخرى على الركاب حتى نزل البابا من على الجواد. وبذلك عادت الصداقة الظاهرية إلى مجاريها، وتقدم الأب الروحي وبجانبه الابن المطيع إلى المدينة المقدسة). انظر: مختصر تاريخ الكنيسة، ص ٢٨٠.

توفي البابا أدريان الرابع سنة ١١٥٩م فخلفه الكاردينال (رولاند) الذي تلقب باسم إسكندر الثالث (٧ أيلول ١١٥٩ - ٣٠آب ١١٨١م)، والذي ظلّ في منصب البابوية قرابة اثنين وعشرين عاماً (١١٥٩-١١٨١م) حرص طوالها على التمسك بمصالح البابوية وحقوقها، وهو ما جعل النزاع بين البابوية والإمبراطورية يتخذ مظاهر العنف التي كانت في عهد البابا غُريغوريوس السابع، فقد ظلّ الإمبراطور فردريك الأول (بربروسا) متمسّكاً بآرائه السابقة في علو مكانة الإمبراطورية، وأن ملكها مستمد من الله وله الأحقية في الإشراف على السلطة الروحية (البابوية وكنائسها). فما كان من البابا إسكندر الثالث في أول ما تسلّم فيه العرش البابوية إلاّ أن أصدر قرار الحرمان الكنسي ضد الإمبراطور عام ١١٥٩م، وأحلّ رعيته من يمين الولاء له، وجدد ذلك ثانية سنة ١١٦٣م، وهذا القرار كان مؤثراً في مسيرة الإمبراطور فردريك الأول لأن البابوية في ذلك الوقت قد ازداد سلطانها في العالم الغربي، وقد ناصر البابوية في هذا القرار (الحرماني الكنسي ضد فردريك الأول ونزع ولاء الطاعة من الشعب له) ملوك الغرب وعلى رأسهم ملوك إنجلترا وفرنسا؛ وذلك لأن ملوك الغرب كانوا في خوف شديد من تطبيق الإمبراطورية الرومانية (بين ألمانيا وإيطاليا) فكرة السياسة العالمية، هذا بالإضافة الى ازدياد نفوذ أمراء الأقطاع، وتحالفهم مع البابوية في كثير من الأحيان ضد الإمبراطور.

هذا كله جعل الصراع يسير في صالح البابا إسكندر الثالث. ولهذا اضطر الإمبراطور فردريك الأول لأن يخضع للبابا وعملت بينهما معاهدة (أناني) في أكتوبر سنة ١١٧٦م وأعاد إلى الكنيسة ما سبق أن انتزعه منها من أملاك، وفي ٢٤ يوليه سنة ١١٧٧م أعلن فردريك الأول خضوعه للبابا إسكندر الثالث بأن قدم بنفسه إلى البندقية، فاجتمع به خارج كنيسة القديس مرقص، حيث هرع إلى البابا بعد أن نزع الرداء الإمبراطوري، وركع عند قدميه، فاغرورقت عينا البابا بالدموع ثم

أقامه وعانقه وقاده إلى الكنيسة [1].

وفي القرن الثالث عشر بلغت البابوية أوج مجدها فهو نهار البابوية الساطع، فقد اعتلى فيه عرش البابوية البابا انوسنت (انوشنتيوس) الثالث (٨ كانون الثاني ١١٩٨- ١٦ تمّوز ١٢١٦م)، وقد كان يمتاز بشخصية قوية ونافذة مكّنته من تحقيق كل ما كانت تطمع فيه البابوية من سمو في ضوء مبادئ غُريوريوس السابع، وإسكندر الثالث فحصل بالكامل على ما كان هو الشغل الشاغل لجميع الباباوات لعصور عدة، ألا وهو: الرياسة الكهنوتية، والسيادة الملكية، والسيطرة على جميع ملوك الغرب[2].

أطلق البابا انوسنت الثالث على نفسة لقب وكيل المسيح (vica)[3]، ومن أقواله: (نحن خلفاء أمير الرسل ولسنا نوّاباً عنه، بل لسنا نوّاباً لأحد من بني البشر حتى الرسل ولكنّا نواب يسوع المسيح نفسه)[4]، كما أنّه أرسل رسالة إلى قنصل فلورنسا في (٣٠ تشرين الأوّل ١١٩٨م) بعنوان (السلطة العليا المزدوجة على الأرض)، شبّه فيها البابوية بالشمس والإمبراطورية بالقمر الذي يستمد ضوءه من شمس البابويّة [5].

ومن العوامل التي ساعدت هذا البابا على الظهور، وفرض إرادته في العالم الغربي بل حتى على عاصمة الإمبراطوريّة في الشرق (القسطنطينية) أنّه لم يواجه خصماً يتمتع بقدرات وطاقات مماثلة لقدراته وطاقته، فلم يكن هناك إمبراطور قوي على رأس الإمبراطورية الغربية يتحدى البابا، بل

---

(١) الفكر السياسي الأوروبي في العصور الوسطى، ص ٤٨-٤٩، رأفت عبد الحميد، تاريخ أوروبا العصور الوسطى ص ٥٤٥، ٥٤٦ د. السيد الباز العريني، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ص ٣٣٦-٣٤٢ د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

(٢) مختصر تاريخ الكنيسة، ص ٣٠٥، اندرو ملر، وتاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ٣٤٨، د.سعيد عبد الفتاح عاشور.

(٣) أوروبا والمسيحية، ٢/ ١٦٧، يان دوبرا تشنيسكي، ترجمة د. كبرو لحدو.

(٤) الفكر السياسي الأوروبي في العصور الوسطى، ص ٥٢، د. رأفت عبد الحميد.

(٥) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٢٥٧.

إن الإمبراطوريّة كانت خاضعة تماماً للبابويّة، فبعد وفاة الإمبراطور هنري السادس ابن فردريك الأول كان وريثه الشرعي ابنه فرديك الثاني، وكان عمره لايتجاوز الأربع سنوات فكانت الوصاية عليه من جهة أمه الإمبراطورة كونستانس، ولكنّها توفّيت في السنة نفسها التي تولى فيها انوسنت الثالث عرش البابوية سنة ١١٩٨م، فأوصت أن يخلفها البابا في الوصاية على الإمبراطور الصغير، خاصة أنّه قد نجح في إنهاء الحرب الأهليّة التي قامت في ألمانيا معقل الإمبراطوريّة بعد وفاة الإمبراطور هنري السادس[1].

كما أنّ البابا انوسنت الثالث استطاع أن يتحكم في الحياة الشخصيّة لملك فرنسا (فليب أوغسطس)، في أمور زواجه وطلاقه، ذلك الملك، الذي ضاعف ممتلكات فرنسا، وكانت له صولات وجولات في العالم الغربي، وكان من المشاركين في الحملة الصليبية الثالثة على بلاد المسلمين[2].

(١) تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص٣٤٨-٣٥١، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا والمسيحية، ٢/ ١٦٧-١٦٩، يان دوبراتشنيسكي، الفكر السياسي الأوروبي في العصور الوسطى، ص ٥٦-٦٠، د. رأفت عبد الحميد، مختصر تاريخ الكنيسة، ص٣١١، ٣١٥، اندرو ملر، قصة الحضارة، ١٥/ ٢٧٨ - ٢٨٨، ول ديورانت.

(٢) وذلك في شأن طلاقه من بنت ملك الدانمارك صاحب الحظوة عند البابا، وزواجه من بنات أحد الدوقات، فعندما رفض الملك الانصياع لأمر البابا أرسل له البابا انوسنت الثالث أحد كرادلته ويدعى بطرس مندوباً له إلى فرنسا، مزوداً بسلطة وضع ممتلكات الملك كلها تحت الحرمان البابوي في حالة عناده. فلما رفض الملك طلب البابا في هذا الشأن الخاص جداً بحياته، وامتنع من الخضوع لطلب البابا قام الكادرينال بطرس وهو لابس ملابس الحداد ونطق بحكم الحرمان على أراضي فرنسا وممتلكاتها جيعها. فانقطعت من تلك اللحظة المراسم الدينية جيعها... فأصاب الناس في فرنسا حالة ثورية دينية واجتمعوا حول الكنائس وصمموا أن لا يُحرموا من مراسمهم الدينية، فارتاع الملك من ثورة الشعب وأخذ يصيح في اكليروس الكنيسة الفرنسية ويهدد أنه سيعتنق دين محمد صلى الله عليه وسلم (الإسلام) ويصير مُسلماً، ويردد ما أسعد صلاح الدين، فليس له بابا فوقه. ولكن هذا التهديد لم يجعل البابا في روما يلين فما كان من هذا الملك إلا أن خضع لأمر البابا انوسنت الثالث في حضور أشراف فرنسا. انظر: مختصر تاريخ الكنيسة، ص ٣١٦-٣١٨، اندروملر، أوروبا والمسيحية، ٢/ ١٦٩، يان دوبرا تشينسكي.

كما أنّه نجح في إخضاع ملك إنجلترا يوحنّا أخي الملك السابق ريتشارد قلب الأسد لسلطته، بقوة الحرمان الكنسي عليه، وعلى شعبه، وذلك بسبب تعيينات كنسيّة حصل الخلاف فيها بينهما، بل لقد وصل الأمر بالبابا إلى أنّه هدد ملك إنجلترا بتسليم عرشه لعدوه اللّدود ملك فرنسا[1].

أما فرصته للتحكم في القسطنطينية فكانت عند نهاية الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٣-١٢٠٤م)، والتي تحول مسارها من بيت المقدس إلى القسطنطينية العاصمة البيزنطية، فعندما احتلها الصليبيون أمر بانتخاب بطريرك كاثوليكي لاتيني لكرسيّها، وخلع بطريقها الأرثوذكسي البيزنطي يوحنا العاشر، وأمر أيضاً بملاحقة الأساقفة البيزنطيين الأرثوذكسيين، وتعيين أساقفة لاتنيين كاثوليكيين، حيث إنّه يهدف إلى ضمان الولاء لروما والاعتراف بسيادة البابا على الكنيسة البيزنطيه الأرثوذكسية، وبهذا تحكم البابا انوسنت الثالث في الوضع الديني والسياسي للعاصمة الرومانية (القسطنطينية)، واستمر هذا الوضع السيئ للكنيسة الأرثوذكسية الخاضعة للسلطة البابوية في روما إلى أن سقطت الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية سنة ١٢٦١م[2].

---

(١) فقد اختار ملك إنجلترا أسقفاً اسمه جون دي جراي رئيساً لأساقفة كانتربري، واختار البابا شخصاً آخر وهو الأسقف ستيفن لانجتون، فحصلت بهذا منازعة شديدة بين الملك والبابا، وهو ماجعل الملك يهدد بقطع كل علاقة بين إنجلترا والبابوية وأن يطرد كل إكليروس الكنيسة الإنجليزية، وعند هذا التهديد من ملك إنجلترا أعلن البابا انوسنت الثالث حكم الحرمان في حق الملك يوحنا وإنجلترا جميعها، فأصبحت المملكة محرومة، وإذا بالمراسيم الدينية فيها كافة معطلة.. ثم أعقبه البابا بمرسوم آخر وهو أنه حلّل رعايا الملك جميعهم من واجب الولاء له، واستمر هذا الوضع ما لا يقل عن أربع سنوات تضجر فيها الشعب الإنجليز من الملك، وأقاموا ثورات داخلية ضده لانتزاع الملك منه أو لإجباره للخضوع للبابا. ولكن الملك يوحنا واصل عناده وتكبّره. وهنا أصدر البابا مرسوماً آخر فيه يأمر بعزل ملك إنجلترا. وتسليم التاج الإنجليزي لملك فرنسا (فليب أوغسطس) فتأهب ملك فرنسا لغزو إنجلترا مناصرة البابا انوسنت الثالث له، وهنا أدرك ملك إنجلترا خطورة موقفه حيث إن شعبه لم يقف معه حتى بعض جنود جيشه. فخضع أخيراً الملك يوحنا لمندوبي البابا وجثى على ركبتيه ووضع تاجه الملكي عند أقدام المندوب الأكبر للبابا، وسلم لما يريده البابا بلا قيد ولا شرط، وكان هذا التسليم المهين أمام أعين الشعب الإنجليزي الذي فرح بعودته لحظيرة البابوية. انظر: مختصر تاريخ الكنيسة، ص ٣١٨، ٣٢٢، اندرو ملر.

(٢) العلاقة السياسية والكنيسة بين الشرق البيزانطي والغرب اللاتيني ص ٣٩٢، ٣٩٣، د. عادل زيتون، أوروبا والمسيحية ٢/ ١٧٧، ياندوبراتشينسكي، ترجمة: د.كبرو لحدو.

وبهذا فعلاً وصلت البابوية في عهد البابا انوسنت الثالث إلى أعلى سيادتها من الناحية الروحية الدينية، ومن الناحية الزمنية السياسية.

وها هو البابا غُريغوريوس (جريجوري) التاسع (١٩آذار ١٢٢٧- ٢٢ آب ١٢٤١م)، الذي واصل متابعة المسيرة العالمية الروحية والزمنية للبابوية؛ فأصدر قرار الحرمان ضد الإمبراطور فردريك الثاني، وأحلّ رعايته من يمين الولاء له، وذلك في أول عهده بالبابوية في التاسع والعشرين من سبتمبر ١٢٢٧م بحجة مماطلته في الخروج بحملة صليبية ضد المسلمين، كان قد تعهد بها من قبل في عهد البابا انوست الثالث في سنة ١٢١٥م، و أعاد الإمبراطور تعهّده بها أيضاً في عهد البابا هونوريوس الثالث (١٨ تموز ١٢١٦- ١٨ آذار ١٢٢٧م)، ولكنّه لم يفعل.

ورغم أن الإمبراطور فردريك الثاني في العام التالي من صدور قرار الحرمان الكنسي عليه، أي في سنة ١٢٢٨م قام بحمله صليبية إلى العالم الاسلامي، وحقق خلالها بالاتفاق مع سلطان مصر الملك الكامل الأيوبي ما فشل في تحقيقه قوّاد الحملة الثالثة (جده فردريك الأول، وفليب أغسطس ملك فرنسا، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا)، إلاّ أن البابوية لم ترض عنه واتهمته بالإلحاد وانتهزت فرصة غيابه في الأراضي المقدسة لتشيع بين الناس نبأ وفاته ولتدفع بجيوشها للاستيلاء على أملاكه في إيطاليا، ولما عاد انتهى الأمر بالطرفين على وضع معاهدة سان جرمانو عام ١٢٣٠م.

انتظر الإمبراطور فردريك الثاني الفرصة المواتية للانتقام من البابا غُريغوريوس التاسع، وهذا ما حصل له حيث عزز مكانته في ألمانيا وإيطاليا، وبدأ في سنة ١٢٣٧م يُحرّض أهل روما على الثورة ضد البابا فلما انكشف الأمر للبابوية في سنة ١٢٣٩م عاد الصدام بينهما مرّة أخرى، فأمر البابا بعقد مجمع ديني في روما يشترك فيه كبار أساقفة الغرب لإنزال اللعنة بالإمبراطور، وفعلاً

لبى دعوة البابا فريق من أساقفة شمال إيطاليا وفرنسا وإسبانيا واجتمعوا في ربيع سنة ١٢٤١م في جنوى استعداداً للإبحار منها الى روما، إلاّ أنّ الإمبراطور مع حلفائه بقوتهم البحرية استطاعوا أنْ يتصيدوا السفن التي فيها الأساقفة وهو ما أدّى إلى غرق بعضها وأسر بعضها لدى الإمبراطور ففشل مشروع البابا ضد الإمبراطور، ولم ينقذ هؤلاء الأساقفة من قبضة الإمبراطور سوى تهديد لويس التاسع ملك فرنسا بإعلان الحرب على الإمبراطور وعندئذٍ أطلق فردريك الثاني سراحهم، وتزامنت هذه العمليّة مع وفاة البابا غُريغوريوس التاسع[1].

وقد أعقب البابا جريجوري التاسع في منصب البابوية سلستين الرابع ولكنه توفي في العام نفسه (سنة ١٢٤١م)، فلم يبق سوى سبعة عشر يوماً، وتعذر القيام بانتخاب خلف جديد لفترة تقارب السنتين بسبب دسائس الإمبراطور فردريك الثاني، فعمّت الفوضى روما، حتى انتخب الكاردينال الجنوي سينيبالد فيشي لمنصب البابا باسم انوسنت (إنوشنتسيوس) الرابع في ٢٥ حزيران ١٢٤٣م (وفاته في ٧ كانون الأوّل ١٢٥٤م)، وكان من المقربين للإمبراطور فردريك الثاني، ولكنه فور استلامه عرش البابوية بدأ هجومه على فردريك الثاني حتى قال المؤرخون: كان البابا انوسنت الرابع هو السبب المباشر لتحطيم أسرة الإمبراطور فردريك الثاني (الأسرة الهوهنشتاوفنية) العريقة في الملك[2].

فقد أصدر البابا الحرمان الكنسي على الإمبراطور، كما أنّه أصدر قرار عزله من منصبه كإمبراطور، على أن يُختار من يحل محله في هذا المنصب، فأحس فردريك بخطورة هذا القرار فأصدر نداء إلى ملوك أوروبا وحكامها، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً من أجله واكتفوا بإظهار العطف المقرون بالحرص والتحفظ الشديدين، على الرغم من أن هؤلاء الملوك كانوا يواجهون الخطر

---

(١) الفكر السياسي الأوروبي في العصور الوسطى ص ٦٠-٦٢، د. رأفت عبد الحميد، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ٣٥٣-٣٥٨، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا والمسيحية ٢/ ٢١٧-٢١٨، يان دوبراتشينسكي، مختصر تاريخ الكنيسة ص ٣٧٠ - ٣٧٢، اندرو ملر.

(٢) موسوعة تاريخ العالم، ٢ / ٦١١، وليام لانجر، الفكر السياسي الأوروبي في العصور الوسطى، ص ٦٣، د. رأفت عبد الحميد.

نفسه في بلادهم نتيجة لازدياد نفوذ البابا ورجالاته.

وضع هذا القرار البابوي الإمبراطور فردريك الثاني في موضع حرج وصعب عليه تماماً حيث إنّ البابا دعا إلى شن حملة صليبية على فردريك الثاني، ومنح المشاركين فيها الغفران. فانهزم الإمبراطور وأتباعه في مواجهات حربيّة مع القوات البابويّة، ومنها في ألمانيا، وفي ليتوانيا في عام ١٢٤٦م، وفي المملكة الصقلية حيكت مؤامرات استهدفت حياة فردريك نفسه وكاد في مرة أن يُقتل بالسم. وفي الشمال الإيطالي في بارما فوجئ فردريك بثورة قوية في سنة ١٢٤٧م، حيث استطاع أهالي المدينة إحراز انتصار كبير على القوات الإمبراطورية. وفي عام ١٢٥٠م توفي الإمبراطور فردريك الثاني، وقد توالت عليه المصائب والنكبات من كل جهة، فتنفست البابوية والبابا انوسنت الرابع الصعداء، وبموت الإمبراطور فردريك الثاني انتهت من الوجهة العملية الإمبراطورية الرومانية المقدسة (بين ألمانيا و إيطاليا)، خاصة أن البابا انوسنت الرابع عمل على تفتيت الإمبراطورية بين ولدي الإمبراطور فردريك الثاني[1].

لقد حققت البابوية في العصور الوسطى سموها وسيادتها وما كانت تطمح إليه من وقت ما ترك الإمبراطور قسطنطين الأول روما وانتقل إلى عاصمة إمبراطوريته الجديدة القسطنطينية سنة ٣٣٠م، وذلك بصورة تكاد تكون كاملة السلطة من الناحية الدينية والروحية، ومن الناحية الزمنية السياسية في العالم الغربي إلى الحد الذي دفع آخر الباباوات الذي قيل عنهم الباباوات العظام، البابا بونيفاسالثامن (٢٤ كانون الأوّل ١٢٩٤ - ١١ تشرين الأوّل ١٣٠٣م) إلى مخاطبة فيليب الرابع ملك فرنسا (١٢٨٥ - ١٣١٤ م) بقوله: (اسمع أي بني وصايا أبيك... ولتأخذ جماع قلبك بتقاليد السيد، الذي يحتل على الأرض مكان الرب)[2].

---

(١) تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ٣٥٩، ٣٦٠، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، والفكر السياسي الأوروبي في العصور الوسطى، ص ٦٣، ٦٤، د. رأفت عبد الحميد، أوروبا والمسيحية ٢ / ٢٤٩، يان دوبراتشينسكي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص ١٧٦، الأب جان كمبي، قصة الحضارة ١٥ / ٢٩٥ - ٢٩٧، ول ديورانت.

(٢) الفكر السياسي الأوروبي في العصور الوسطى، ص ٦٦، د. رأفت عبد الحميد.

ثم بدأت مكانة البابوية تتهاوى من عليائها من وقت موت البابا بونيفاس الثامن سنة ١٣٠٣م، وتركها روما، وانتقالها إلى أفينون الفرنسية عام (١٣٠٥م)، فكانت بداية القرن الرابع عشر الميلادي بداية انهيار السلطة البابوية الروحية بشكل عام، وبداية تلاشي سلطتها الزمنية، ثُمّ كانا القرنان الخامس عشر والسادس عشر المرحلة الحقيقيّة لتفكك الوحدة النصرانيّة تحت سلطة البابويّة بالمعنيين الروحي الديني، والزمني السياسي معاً، وكان، ولا شك، لهذا أسباب، بعضها داخلية من مركز البابوية والكنيسة، وبعضها أسباب خارجية.

ومن أهم هذه الأسباب التي أدت إلى ضعف مكانة البابوية وضعف سلطتها:

السبب الأول: وهو سبب عام جاء أثره ونتيجته عبر القرون الوسطى التي كانت فيها البابوية في قمة عزها ومجدها، وهذا السبب هو: (تسلط البابوية ورجالاتها المتزايد عبر القرون الوسطى على الملوك والشعوب)، وهو ما سبب حالات من الهيجان، والثورة على البابوية، ولكن أكثر هذه الحالات تبقى مخفية ومستورة خوفاً من بطش البابوية وردة فعلها الذي يكون في بعض الأوقات طائشاً، وعقاباً غير مناسب للفعل أو للذنب.

ومن ذلك، ما حصل في العالم الغربي من الاستهجان والاستنكار العام لموقف البابا غُريغوريوس السابع الغليظ من الإمبراطور هنري الرابع عام ١٠٧٧م، فقد أثار موقف البابا استياء نسبة كبيرة من الرأي العام في العالم النصراني، فعاب كثيرون من النصارى على البابا شدته وقسوته، وهو عندهم رجل الدين الأوّل، والأب الروحي الذي يجب أن يتحلى بروح التسامح والعفو عند المقدرة[1].

ثم إن هذا البابا تسلط على الشعب الألماني حتى قامت فيها بينهم حرب أهلية، ولم يلبث الشعب أن اتهموه بكونه سبب هذه الحرب، وحمّلوه مسؤولية الدماء الكثيرة التي سفكت[2].

---

(١) تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص٣١٤، د.سعيد عبد الفتاح عاشور، مختصر تاريخ الكنيسة، ص٢٥١، اندرو ملر.

(٢) تاريخ العالم، ٤ / ٥٥٤، جون. ا. هامرتن.

كما أنّ الشعوب الغربيّة لا شك أنّها حست بظلم عظيم يقع عليها و(يشعرون بفظاعة النير البابوي)[1] بسبب أنّ البابا انوسنت الثالث أصدر قرار الحرمان الكنسي على الشعب الفرنسي والشعب الإنجليزي بأكمله لأجل خلاف بينه وبين ملك فرنسا فيليب اوغسطين لأجل مسألة زواج خاصة بالملك، وبينه وبين ملك إنجلترا يوحنا أخي الملك السابق ريتشارد قلب الأسد لأجل تعيين أسقف في وظيفة كنسيّة.

لذلك فإن النفسية في العالم الغربي النصراني ظلت تعاني تمزقاً رهيباً وكراهية شديدة ما تزال آثاره ممتدة إلى زماننا هذا بسبب هذه الصراعات والمنافسات التي يرون أن ضحيتها الأساسية هي شعوبهم.

السبب الثاني: انتقال مركز البابوية من روما في إيطاليا إلى مدينة افينون في فرنسا، وهو ما أفقد البابويّة هيبتها أمام الشعوب الغربيّة النصرانيّة، وذلك لبعدها عن مصدر قوتها، ورفعتها عندهم، وهي روما المكان الذي قام فيه بطرس، ومات فيه، (أي موضع الكرسي الرسولي للقديس بطرس)، في اعتقاد الشعوب النصرانيّة الغربيّة.

ويسمى المؤرخون الفترة التي كانت البابوية فيها بفرنسا بـ (الأسر البابلي للبابوية) والذي استمرت من سنة ١٣٠٥م إلى سنة ١٣٧٧م، أي اثنتين وسبعين سنة [2].

وكان هذا الانتقال بسبب النتيجة التي وصلت إليها المواجهة القوية بين ملك فرنسا فيليب الرابع الملقب بالجميل وبين البابا بونيفاس الثامن، والذي انتهى إلى انتصار ملك فرنسا على البابا وإذلاله عندما أرسل إليه ثلاثمائة فارس بعضهم من الأُسر الإيطالية التي كان بينها وبين البابا مواقف كره وشحناء فاستطاع هؤلاء الجنود أن يصلوا إلى البابا في قصره وأن يذلوه ويأسروه

---

(١) مختصر تاريخ الكنيسة، ص ٣١٨، اندرو ملر.

(٢) موسوعة تاريخ العالم، ٣ / ٢٧٥، وليام لانجر، أوروبا العصور الوسطى، الجزء الأول (التاريخ السياسي)، ص ٥١٠، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

وينهبوا محتويات قصره[1]، وما استطاع البابا بونيفاس الثامن أن يفلت من أيدي الجنود إلا بفضل ثورة الأهالي عليهم فعاد إلى روما ودمه يغلي بنار الانتقام لهذه المذلة التي أصابته ولكنّه مات سريعاً بعد إفلاته من الأسر، وفي هذه اللحظات بدأ انهيار البابوية بانهيار وموت آخر باباواتها العظام بونيفاس الثامن في ١١ تشرين الأوّل عام ١٣٠٣م.

استغل فيليب ملك فرنسا هذا الانهيار البابوي والاضطرابات التي حصلت في إيطاليا كلها وروما بالأخص، وبقاء الكرسي البابوي شاغراً ولمدة عام كامل، وعدم تدخل ملوك أوروبا لإنقاذ البابوية من هذا الانهيار لفرحهم به أصلاً بسبب ضغوطات البابوية عليهم سابقاً، فعمل الملك فيليب خطوات متسارعة لنقل البابوية إلى فرنسا لكي يبقيها تحت سيطرته (وتكون أحد خُدّامه المطيعين) فانتُخب في ذلك الوقت – على غير إجماع من الكرادلة، وبسبب تدخل فيليب ملك فرنسا – رئيس أساقفة بوردو الفرنسية باسم كليمنت (اكليمنضوس) الخامس (٥ حزيران ١٣٠٥– ٢٠ نيسان ١٣١٤م)، وبدل من أن يُتوج في روما الإيطاليّة اختار تتويجه في ليون الفرنسيّة، ونقل مركز البابوية إلى مدينة افينون الفرنسيّة، وبذلك أصبحت البابوية فرنسية، ولم تعد روما في تلك الأوقات عاصمة النصارى في أوروبا، فحصل الفصل بين البابوية وبين كرسي القديس بطرس في روما الذي استمدت البابوية أهميتها وعلو مكانها منه.

وبهذا ضعف النفوذ البابوي في العالم الغربي في تلك الفترة وجعلها تتعرض لمعارضة شديدة من جانب الملوك والأمراء – خاصة إنجلترا – الذين لم يتصوروا أن تنتقل البابوية إلى فرنسا، وكان همهم فقط إضعافها وهي باقية في مقرها الرئيس في روما، كما أنّها حُرِمت من موارد مالية كبيرة

(١) (فجميع ما في القصر نهب وسلب، وقد كانت الثروة عظيمة لدرجة أنه لو جمعت أموال ملوك العالم كله لما ساوت الذخائر التي وجدها الجنود وسلبوها. حتى غرفة البابا الخاصة تجردت من محتوياتها). مختصر تاريخ الكنيسة، اندرو ملر، ص ٣٧٥.

جداً اعتادت عليها في روما، ومن ذلك أن إنجلترا ألغت حق البابا في ملء الوظائف الكنسية الشاغرة في إنجلترا، وامتنعت أيضاً عن دفع الجزية السنوية التي كانت تدفعها للبابوية، كما أن بعض أعضاء البرلمان الإنجليزي طالب بحق الدولة في مصادرة ممتلكات البابوية في إنجلترا وعدم التقيد بها والخضوع لها[1].

السبب الثالث: الانشقاق الديني العظيم داخل البابوية، والذي هز عرشها ومكانتها في قلوب النصارى في العالم الغربي. ابتدأ الانشقاق سنة ١٣٧٨م، وانتهى سنة ١٤١٧م، حيثُ أصبح على عرش البابوية ثلاثة بابوات، بابا في روما بإيطاليا سنة ١٣٧٨م، وبابا في افينون بفرنسا سنة ١٣٧٨م، ثم أصبح هناك باب ثالث في مدينة بيزة بإيطاليا سنة ١٤٠٩م[2].

---

(١) مختصر تاريخ الكنيسة، ص ٣٧٤ - ٣٧٦، اندرو ملر، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص ٢٠٦، ٢٠٨، الأب جان كمبي، تاريخ الكنيسة ٤ / ٣١، د. القس جون لوريمر، ترجمة: عزرا مرجان، أوروبا العصور الوسطى، الجزء الأول، التاريخ السياسي، ص ٥١٠ - ٥١٤، ٤٨٣، ٤٨٤، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا والمسيحية، ٣ / ٥ - ٧، يان دوبرا تشينسكي، ترجمة: د. كبرو لحدو.

(٢) فقد كان بعض باباوات أفينون يحسّون أن وضعهم غير طبيعي، فعلى الرغم من المزايا التي حصلوا عليها في فرنسا من الهدوء والبعد عن المشكلات السياسية والانشقاقات الداخلية، إلا أن طبيعة الوظيفة البابوية ارتبطت دائماً بمدينة روما، لذا فكر هؤلاء الباباوات بجدّية في العودة إلى روما، حيث هي مدينة القديس بطرس في اعتقادهم، هذا فوق ما عانوه من ضغط أغلبية الرأي العام الأوروبي النصراني بطلب العودة إلى مقرهم الطبيعي في روما، فبدأ البابا غريغوريوس (جريجوري) الحادي عشر (٣٠ كانون الأوّل ١٣٧٠ - ٢٦ آذار ١٣٧٨م) برحلة إلى روما فدخلها في السابع عشر من كانون الثاني سنة (١٣٧٧م)، ولكنه لم يقم في قصر اللاتيران القصر الإمبراطوري البابوي على مدار مئات من السنين، بل اختار الفاتيكان مقراً لإقامته، وأصبح بهذا مقراً لإقامة خلفائه من بعده إلى اليوم، وكان يقصد من هذه الرحلة زيارة كرادلته هناك ليبث في أمر الانتقال معهم، ولكن قُدّر لهذا البابا أن يموت في روما، وعندئذ أدرك أهالي روما معضدين بأغلبية الرأي العام الأوروبي أن فرصتهم سانحة فاحتشدوا حول قصر الفاتيكان وتعالت صيحاتهم مطالبين بأن يكون البابا رومانيا وأن تكون إقامته في روما، وفعلاً اقتحم الناس مجلس الكرادلة - المكوّن من ستة عشر كاردينالا لم يكن بينهم سوى أربعة إيطاليين وهم يعلنون أحد هؤلاء الإيطاليين أن يكون البابا الجديد فاختير الكاردينال تيبالديشي، واختار لنفسه اسم (أوروبان السادس) (١٣٧٨ - ١٣٨٩م) وذلك في السابع من نيسان سنة ١٣٧٨م، وبعدما هدأ الوضع غادر قسم من الكرادلة روما سراً، وكان أغلبهم من الفرنسيين، وعندما وصلوا إلى فرنسا وبتشجيع من الملك الفرنسي كارل الرابع أعلنوا إلغاء الانتخابات التي جرت في روما، وأنّ البابا أوروبان السادس غير شرعي، وانتخبوا لمنصب البابا المضاد الكردينال الفرنسي روبيرت الجنيفي والذي اختار لنفسه اسم كلمنت السابع (١٣٧٨ - ١٣٩٤م). وعلى هذا الوجه بدأ الانشقاق الديني الأكبر والأخطر في البابوية بوجود سلسة من الباباوات في روما وأخرى في افينون.

ولم يقف الانشقاق عند هذا الحد بأن يصبح في العالم الأوروبي النصراني باباوان بل كبرت رقعة هذا الانشقاق وأصبح في العالم الأوروبي ثلاثة باباوات، وذلك عندما فكر بعض الكرادلة في إيجاد حل للموقف فعقدوا مجمعاً في مدينة بيزة الإيطاليّة سنة (١٤٠٩م) وقرروا عزل كل من بابا روما وبابا افينون وانتخاب باب جديد يحل محلهما جميعاً. ولكن لم يوافق كل من البابوين في روما وافينون على التخلي عن منصبه. وبذلك صار في العالم الغربي النصراني ثلاثة باباوات.

الباباوات أثناء الانشقاق الأكبر:

باباوات روما: أوروبان السادس (١٣٧٨ - ١٣٨٩ م)، وبو نيفاس التاسع (١٣٨٩ - ١٤٠٤ م)، وانوسنت السابع (١٤٠٤ - ١٤٠٦ م)، وجريجوري الثاني عشر (١٤٠٦ - ١٤١٥ م).

باباوات افينون: كلمنت السابع (١٣٧٨ - ١٣٩٤م)، وبندكت الثالث عشر (١٣٩٤ - ١٤٢٢م).

باباوات مجمع مدينة بيزة الإيطالية: إسكندر الخامس (١٤٠٩ - ١٤١٠م)، وحنا الثالث والعشرون (١٤١٠- ١٤١٥م).

أراد الملك سيحسموند ملك هنغاريا عندما اعتلى عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة (ألمانيا وإيطاليا) (١٤١١ - ١٤٣٧م) أن يضع حداً لهذا الانشقاق الديني الخطير ليس على الوحدة النصرانية في العالم الغربي فحسب بل حتى على الناحية السياسية فيها، فدعا لعقد مجمع ديني عام في كونستانسيا، واستطاع أن يجلب الموافقة على عقد هذا المؤتمر من البابا المنتخب في مجمع بيزة حنا الثالث والعشرين، وبابا روما جريجوري الثاني عشر فانعقد هذا المجمع المسكوني الذي يعد رقمه السادس عشر من المجامع العامة بل هو من أعظم هذه المجامع وأخطرها ليس في العصور القديمة فقط وإنما في تاريخ النصرانية في العالم الغربي والذي بدأ في كانون الأول عام (١٤١٤م) واستمر أربعة أعوام وشارك في أعماله: خمسة بطاركة، وثلاثون كاردينالاً، وثلاثة وثلاثون من رؤساء الأساقفة، ومائة وخمسون أسقفاً، ومائة وخمسون من رؤساء الأديرة، وثلاثمائة من حملة الدكتوراه في اللاهوت، وخمسة آلاف من الرهبان، وثلاثة عشر ألفاً من القسس، ومائة وخمسون من الأمراء والكونتات، وواحد وسبعون بارونا، وألف وخمسمائة من الفرسان، وألفا ممثل عن سبع وثلاثين جامعة. ولم يكن مناقشة هذا الانشقاق بالأمر الهين عليهم فاستمرت المناقشات لمدة طويلة لوجود تيارات معارضة وبدأ البت الفعلي وبصورة جدية في موضوع الانشقاق في أوائل سنة (١٤١٥م) فأدين في هذا المجمع العام بابا بيزة حنا الثالث والعشرون وعزل عن منصبه سنة (١٤١٥م). أما بابا روما جريجوري الثاني عشر فقد اختار أسلم الطرق وأشرفها فاستقال من منصبه وبهذا لم يبق سوى بابا افينون بندكت الثالث عشر الذي أظهر تمسكا بوظيفته بعد أن زال منافساه من طريقه، ولكن المجمع عزله سنة (١٤١٧م) وانتخب المجمع الكاردينال الإيطالي كولونا الذي اختار لنفسه اسم (مارتن الخامس) (١٤١٧ - ١٤٣١م) وأعيد إلى روما كرسي البابوية.

وبهذا انتهى الانشقاق الذي طوح بمركز البابوية في قلوب النصارى وعقولهم في العالم الغربي أجمع.

انظر: أوروبا والمسيحية ٣/ ٧٢ -٧٩، ١١١ - ١١٣، يان دوبرا تشينسكي، أوروبا والعصور الوسطى، الجزء الأول، التاريخ السياسي، ص ٥١٤ - ٥١٩، د. سعيد عاشور، موسوعة تاريخ العالم، ٣/ ٧٧٨ - ٧٨١، وليام لانجر، تاريخ الكنيسة، ٤ / ٣٢ - ٣٤، د. القس جون لوريمر، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ٣/ ٢٩١،٢٩٠، إدوارد جيبون، دليل إلى قراءة الكنيسة، ص٢١٠ـ ٢١١، الأب جان كُمبي، مختصر تاريخ الكنيسة، ص ٣٩٩ ٤٠١، ادرو ملر.

فقد سبّب هذا الانشقاق الديني انهيار المركز البابوي، فأصبحت سلطة البابا المستمدة في اعتقاد كثير من النصارى من سلطة القديس بطرس كبير حواريي المسيح عيسى ﷺ موضع جدل ونقاش وشكوك اجتاحت النصارى في العالم الغربي، حيث إنّ كلاً منهم كان يلقى الحرم الكنسي على الآخر، ولهذا ظهر بعض المفكرين المعاصرين لتلك الأحداث من نادى بوجوب إعادة النظر في حقيقة منصب البابوية وأهمية البابا ومصدر سلطته، وأنّ التنظيم الكنسي وعلى رأسهم البابا إنما هو من صنع البشر، وهذا يُبيّن أنّ البابوية مرت بظروف دقيقة أفقدتها هيبتها وعظمتها القوية في قلوب أتباعها في الغرب الأوروبي[(١)].

السبب الرابع: عدم اهتمام بعض الباباوات والقسس ومسؤولي الكهنوت بالأمور الكنسية الروحية وانصرافهم عنها بأمور الدنيا من جمع الأموال وامتلاك الأراضي، والبحث عن الجاه والمنصب، مع فساد بعضهم الأخلاقي.

فالجشع والظلم وحب الترف سيطرت علىٰ رجال الكنيسة، فكان همّهم في الدرجة الأولى السهر علىٰ مصالحهم الدنيويّة واستيفاء الرسوم العائدة لهم وتحصيل النذور، يتنافسون في الوجاهة والعظمة مع الملوك وأعرق الأمراء وأكبر الإقطاعيين، أمّا الفتور الديني فكان الطابع الأعمّ لأغلبهم، وبرز الانحطاط الخلقي والروحي أكثر ما برز في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، والنصف الأوّل من القرن السادس عشر، فأصبحت حياة رجال الكنيسة فاسدة، وعاراً علىٰ دينهم، فأديرتهم وأماكن عباداتهم أصبحت عشاً للخرافة والجهل، وأوكاراً للفجور والفسق والإباحيّة، فزرعوا الشك والتشكك في نفوس اتباعهم من النصارى الغربيين[(٢)].

---

(١) أوروبا العصور الوسطى، الجزء الأول، التاريخ السياسي، ص ٥١٦، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، ص ٨٨، د. عبد الحميد البطريق، و د. عبد العزيز نوار، أوروبا والمسيحية، ٣/ ٧٦، يان دوبراتشينسكي، ترجمة: د. كبرو لحدو، مختصر تاريخ الكنيسة ص ٣٩٩، اندرو ملر.

(٢) مختصر تاريخ الكنيسة، ص ٣٦٣ - ٣٦٤، اندرو ملر، تاريخ الكنيسة، ٤/ ٣٥، د. القس جون لوريمر، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، ص ٨٨، د. عبد الحميد البطريق و د. عبد العزيز نوار، أوروبا العصور الوسطى، الجزء الأول، التاريخ السياسي، ص ٥٢٠، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ الحضارات العام، الجزء الرابع (القرنان السادس عشر والسابع عشر)، ص ٧٠، رولان موسنييه، إشراف: موريس كروزيه.

وفي الوقت الذين كان فيه كثير من البابوات يدفعون المبالغ الطائلة لازدهار النهضة الفنية وتشجيع كبار الفنانين على اتخاذ روما محراباً لفنونهم، ومن أشهرهم البابا يوليوس الثاني (٣١ تشرين الأوّل ١٥٠٣ - ٢١ شباط ١٥١٣م)، والبابا لاون العاشر (١١ آذار ١٥١٣ - ١٦ آذار ١٥٢١م) [١]؛ فإن الجماهير ترزح تحت أثقال الكنيسة وأعبائها المالية المرهقة، وكان الملوك والأباطرة ورجال الدين الصغار يحسون بذلك أيضاً ويتحينون الفرصة لإعلان احتجاجهم، ومن الذين تضجروا من ذلك، وأعلنوا احتجاجهم الملك لويس التاسع ملك فرنسا، الذي كتب إلى البابا رسالة احتجاجية خطيرة (بالنسبة لعصرها) قال فيها: (أن الذي يشتد في إدرار الأضراع لابد من أن يصيب الدم حلماتها) [٢].

ولعل أسوأ مظهر من مظاهر ابتزاز الأموال هو التوسع في بيع صكوك الغفران وهو ما أثار المعارضة والجدل [٣].

يقول الكاتب الكاثوليكي المعاصر، دايفيد نولز: (كانت بابوية دنيوية، كانت مركزاً لبلاط غني، عالمي، فاسد، وعاجز عن تقديم قيادة روحية فعّالة وإرشادات للكنيسة، وحقاً كان هذا البلاط يغوص منحدراً إلى أدنى درك في القيم الأخلاقية) [٤].

كما أن الفساد الأخلاقي لبعض رجال الكنيسة، ومنهم بعض البابوات زاد مركز البابوية انهياراً وسقوطاً في قلوب الناس في العالم الغربي، و (يسجل التاريخ عدداً كبيراً من البابوات الذين قضوا حياتهم منهمكين في الفواحش والرذائل، أو أنهم غضوا الطرف عن مغامرات

---

(١) التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، ص ٣٥، ٣٦، د. عبد الحميد البطريق و د. عبد العزيز نوار، الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، ١ / ٣٧٥.

(٢) العلمانية ص ١٤٣، د. سفر بن عبد الرحمن الحوالي.

(٣) التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، ص ٩٣، د. عبد الحميد البطريق و د. عبد العزيز نوار.

(٤) تاريخ الكنيسة، ٤ / ٣٥، د. القس جون لوريمر.

الكرادلة والأعوان الكبار الجنسية)[1].

فمثلاً كان البابا بندكت التاسع، والذي اعتلى الكرسي البابوي سنة ١٠٣٢م، من أسبق البابوات فسقاً، حتى إن البابا المتأخر عنه فكتور الثاني، والذي اعتلى الكرسي البابوي سنة ١٠٥٥ م، يقول شاهداً على أخلاقه السيئة: (كانت مخيفة جداً وإنني أرتعش بمجرد ذكرها)، وهذا البابا انوسنت (إنوشنتيوس) الثامن (٢٩ آب ١٤٨٤ - ٢٥ تموز ١٤٩٢م) قد أنجب ولدين من عشيقة له لم يتزوجها، كما أنّه في وقت ولايته البابويّة كان يغض الطرف عن كثير من كرادلته المشهورين بالفسق والفجور، ومن أبرز البابوات المشهورين بالمفاسد والرذائل البابا إسكندر السادس، الذي اعتلى الكرسي البابوي سنة ١٤٩٢م، كان له خمسة من الأبناء عن طريق علاقاته المُحرّمة، أربعة ذكور، ومكّن أحدهم ويُدعى (سيزر) من منصب كنسي، وابنة واحدة مشهورة بالفساد والانحلال، وهذا البابا لاوون العاشر (١١ آذار ١٥١٣ - ١ كانون الأوّل ١٥٢١م) متهم بارتكاب فاحشة اللواط، وكذلك البابا بولس الثالث (١٣ تشرين الأوّل ١٥٣٤ - ١٠ تشرين الثاني ١٥٤٩م) كان مشهوراً بعلاقاته النسائيّة المحرَّمة، وكان له أولاد من تلك العلاقات[2].

(ومن يدقق في السجلات الرسمية والصكوك والوثائق الكنسية؛ تَعتريه الدهشة لكثرة ما تقع منه العين على الدعاوى والقضايا المقامة على رجال الدين لأخلاقهم الفاسدة وتصرفاتهم السيئة. فالسكر والعربدة يأتي في مقدمة هذه الموبقات... وكم من الأحكام صدرت على كهنة أو رجال من الاكليروس لاستخدامهم فتيات أو شابات مشكوك بفضائلهن)[3].

السبب الخامس: افتقاد البابوية لحليف قوي من الملوك يدافع عنها وتحتمي تحت مظلته كما حصل من قبل ابتداءً من عهد قسطنطين الكبير إلى باقي الأباطرة والملوك وعلى رأسهم شارلمان

(١) المسيحية (النصرانيّة)، ص ٣٥٩، ساجد مير.

(٢) المرجع السابق ص ٣٥٩ - ٣٦٨، ساجد مير.

(٣) تاريخ الحضارات العام، الجزء الرابع (القرنان السادس عشر والسابع عشر)، ص ٧١، رولان موسنييه، إشراف: موريس كروزيه.

العظيم، والذين كانوا حلفاء أوفياء للبابويّة.

والسبب الأكبر لافتقاد البابوية لهذا الحليف القوي من الملوك؛ طغيانها وتسلطها عليهم أيام عزها ومجدها، فقد عملت على إذلال بعضهم أمام شعبه كما مر ذكر بعض المواقف في صفحات سابقة وهو ما جعل هؤلاء الملوك والأمراء يتخلون عنها، ويناصرون بعضهم ضدها، بل يعملون ابتداءً على إذلال البابوية كلما سنحت الفرصة لهم بذلك.

وكان أول ملك استطاع أن ينجح في مواجهته ضد البابوية هو ملك فرنسا فيليب الرابع (١٢٨٥ - ١٣١٤م)، وكان هذا الصراع أمام أعين ملوك أوروبا، وكان بعضهم أقوياء كملك إنجلترا إدوارد الأول، ولكن لم يشاؤوا أن يتدخلوا فيه لمصلحة البابا طمعاً منهم في أن تنكسر شوكة البابوية المتسلطة منذ زمن قديم، ولم يشاؤوا أيضاً أن يتدخلوا فيه لمصلحة ملك فرنسا خوفاً على سمعتهم أمام شعوبهم النصرانية، فكانت النتيجة أن هُزمت البابويّة، وخضعت ليس لملك فرنسا بل لباقي ملوك القارة الأوروبيّة في مواجهاتها كلها، فليس لها من يحميها من هؤلاء الملوك المعاندين، حتى قرارات الحرمان الكنسي التي كانت تصدرها لم تنفع شيئاً معهم، والسبب في ذلك أنها صادرة من بابويّة ضعيفة، ليست تلك البابويّة التي كانت في أيّام عزّها ومجدها، لدرجة أن بعض البابوات وصلوا إلى مرحلة كبيرة من الانهزام الداخلي، فسلّم بعضهم أمر إدارة الكنيسة إلى الملوك أصحاب السلطات الزمنية الحقيقية[1].

فالإمبراطورية الرومانية المقدسة، والتي انحصرت في ألمانيا فقط قد كان وضعها في عصر النهضة من أسوأ أوضاع الدول الأوروبية قد قطعت كل علاقة فيما بينها وبين البابوية عندما أصدر الإمبراطور شارل الرابع سنة ١٣٥٦ مرسومه الذهبي حيث ألغى كل حق للبابوية في

---

(١) التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، ص٦٣، د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، والتاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، ص٩٢، د. عبد الحميد البطريق، ود. عبد العزيز نوار، وأوروبا العصور الوسطى، الجزء الأول، التاريخ السياسي، ص٥٨٨، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، وتاريخ عصر النهضة الأوروبية، ص١٩٦، د. نور الدين حاطوم.

انتخاب الإمبراطور وأن هذا الانتخاب مسألة داخلية للأمة الألمانية ليس للبابوية أو غيرها حق فيه، وبهذا انقطع آخر الخيوط التي كانت تقيد الإمبراطورية بإرادة البابوية [1].

وفي فرنسا أصدر الملك شارل السابع في عام ١٤٣٨م مرسوماً ملكياً ألغى فيه سلطة البابا على شؤون الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية. وبدأ هو ومن خلفه من الملوك يصدرون الأوامر بتعيين الأساقفة وغيرهم من رجال الكنيسة في بلادهم.

وفي إسبانيا، في عهد فردناند وايزابيلا أصبح من حق التاج تعيين رجال الكنيسة، وقد صدر أول مرسوم بذلك في عام ١٤٤٢م، وصدرت الأوامر بتحريم استئناف الأحكام التي تصدرها المحاكم الدينية في إسبانيا أمام المحكمة العليا في روما [2].

وقد حدث حادث خطير مهين قضى على البقية الباقية لمكانة البابوية في العالم الغربي، وهو أنه في عام ١٥٢٧م عندما كان الجيش الإسباني المحاصر لإيطاليا قد تأخر عليه صرف رواتبه من الحكومة الإسبانية فما كان منه إلا أن هجم على روما وأسر البابا كلمنت السابع (١٥٢٣ - ١٥٣٤م)، فتعرضت روما بذلك لأقسى ما عرفته في تاريخها من سلب ونهب [3].

وهذا نابليون بونابرت الملك الفرنسي، وقبل أن يتصادق مع البابوية قام في عام ١٧٩٧م بغزو إيطاليا واقتحم روما وذلّ البابوية في عقر دارها، فابتز المال والأسلاب من الفاتيكان، وأجبر البابوية أن تتنازل عن كل قطعة أرض أخذتها من فرنسا وعلى رأسها مدينة افينون، بل استطاع أن يسيطر على كثير من أراضي البابوية حول إيطاليا وبعض المناطق المجاورة كجنوة، وجمهورية

---

(١) سمي هذا المرسوم بالمرسوم الذهبي لأن الخاتم الذي ختم به حفظ بعد ذلك في صندوق من الذهب.
انظر: أوروبا العصور الوسطى، الجزء الأول، التاريخ السياسي، ص ٥٩٢ - ٥٩٣، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

(٢) التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، ص ٩٢، د. عبد الحميد البطريق، و د. عبد العزيز نوار.

(٣) التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، ص ٧٥، د. عبد الحميد البطريق، و د. عبد العزيز نوار، موسوعة تاريخ العالم ٤ / ١٠٦٢، وليام لانجر.

الألب الشمالية، وهما من أنفس الأقاليم والمقاطعات البابوية، ومنح لكل منها دستوراً على غرار الدستور الفرنسي وحصنت كقلاع أمامية للجمهورية الفرنسية [1].

وفي نهاية المطاف جاء دور الدولة القومية الإيطالية التي ألغت تماماً أي تدخل للبابوية في الشؤون الإيطالية، وذلك في عام ١٩٢٩م في معاهدة لاتيران حيث أصبحت البابوية فقط مسؤولة عن (دولة الفاتيكان) التي لا تتعدى مساحتها (١١٠ أفدنة) داخل مدينة روما، وألغت حق البابوية من الاشتراك في المؤتمرات السياسية الدولية أو إبرام معاهدة تحالف مع الدول الأخرى.

السبب السادس: ظهور حركات نصرانية معادية للبابويّة ومراتبها الكنسيّة (الإكليروسيّة)، وعلى رأس هذه الحركات تأثيراً على مكانة البابويّة؛ الحركة البروتستانتيّة.

من أوائل هذه الحركات المُعادية للبابويّة، حركة تسمى بـ (الوالدنسيين) ظهرت في جنوب فرنسا في نهاية القرن الثاني عشر، حوالي سنة ١١٧٧م، زعيمها يُدعى (بطرس والدو)، فقد هاجم رجال الدين الكاثوليكي وما أصبحوا فيه من ثروة وترف مما يتعارض مع رسالة القديسين وتعاليم النصرانية، وأعلن أن فعل الطقوس الدينية لا تحتاج إلى وساطة رجال الكنيسة، فأثارت حركته بذلك في وجه البابوية مشكلات كثيرة لا حصر لها؛ لأن هذه الحركة انتقلت في أكثر من مكان في العالم الغربي، بل أنها وصلت إلى شمال إيطاليا، قرب مقر البابوية [2].

ثم إن تدهور مركز البابوية السياسي (الزمني) منذ القرن الرابع عشر زاد من نمو الحركات المعادية لها، وازدياد عدد اتباعها [3].

وكان من أخطر الحركات والتي أضعفت من مكانة البابوية في العالم الغربي تلك التي قام بها الإنجليزي يوحنّا (جون) ويكليف (١٣٢٨ - ١٣٨٤م، دارس علم اللاّهوت في جامعة

---

(١) تاريخ أوروبا في العصر الحديث (١٧٨٩ - ١٩٥٠م)، ص٤٩ هـ أ. ل. فشر، تعريب: أحمد نجيب هاشم، وديع الضبع.

(٢) تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ٢٢٢ - ٢٢٣، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

(٣) أوروبا العصور الوسطى، الجزء الأول، التاريخ السياسي، ص ٥٢١، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

أكسفورد)، فقد وقف وقفة شديدة ضد البابوية ونظامها الاكليروسي وتسلطها، و مِمَّا ساعده في ذلك أنّ دولته إنجلترا كانت تكره البابوية لما وجدته منها من مذلة وخزي في سقوط ملكها يوحنا أخي ريتشارد قلب الأسد (١١٩٩ - ١٢١٦م) على وجهه عند أقدام كاهن أجنبي أي غير انجليزي وهو البابا انوسنت الثالث، فسرت بذلك روح عدائية نحو البابويّة في طبقات الأمة الإنجليزية كلها.

ثُم إنّه أقنع الملك الإنجليزي إدوارد الثالث في عام ١٣٦٦م، بعدم دفع الجزية التي كانت مقررة على إنجلترا للبابوية، وفي عام ١٣٧٤م اقنع البرلمان الإنجليزي بأن هناك مساوئ كبيرة في السماح للبابوية بالاحتفاظ بحق التعيين في الوظائف في كنيسة إنجلترا، هذه المساوئ عائدة على الحكومة والكنيسة الوطنية نفسها، ومن أخطرها ضعف الولاء للوطن.

وفي نهاية جهوده في تحطيم مكانة البابوية في إنجلترا أنه استغل انقسام البابوية - بابا في روما وآخر في افينون - ونادى من مكانه في كنيسة إنجلترا أنهما لا يصلحان أن يكونا خليفة المسيح وحكم عليهم بأنهما ضدان للمسيح، ولاقى هذا الحكم عطفاً كبيراً من جانب شعب إنجلترا، وبهذا قضى يوحنا ويكليف على البقية الباقية من مكانة البابوية في إنجلترا، خاصة أنها جاءت من رجل دين ذي مكانة عالية في كنيسة إنجلترا [١].

وقد تبنّا الدكتور يوحنا هس (١٣٧٣- ١٤١٥م) من جامعة براغ في دولة بوهيميا (شوسلفاكيا) آراء يوحنّا ويكليف في البابوية، ونادى بها، ونجح في ذلك نجاحاً كبيراً، فأصبحت دولة بوهيميا وكنائسها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر منفصلة تماماً عن البابوية [٢].

ثم قام رجل يُدعى آرازمس الروتردامي (١٤٦٦ - ١٥٣٦م) من روتردام الهولندية بمعارضة البابوية، فقد قضى سنوات طويلة في أحد الأديرة هناك ثم انتقل إلى فرنسا وإنجلترا وإيطاليا

(١) مختصر تاريخ الكنيسة، ص ٣٨٧ - ٣٩١، اندرو ملر، تاريخ الكنيسة، ٤ / ٥١ - ٥٣، الدكتور القس جون لوريمر، ترجمة: عزرا مرجان، أوروبا العصور الوسطى، الجزء الأول: التاريخ السياسي، ص ٥٢٢ - ٥٢٥، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

وألمانيا، وسعى إلى تأليب الرأي العام ضد البابوية وما فيها من مفاسد، واتهمها بالجشع وحب المال وإشعال الحروب بين دول أوروبا حتى تتزعمها جميعاً، واتهمها أيضاً بإهمال الروح والفكر الحر، وقام بترجمة للكتاب المقدس، وقد قيل: إنّه كان لهذه الترجمة أثرها في تخليص الفكر الديني الأوروبي من سيطرة البابوية ورجالاتها في الكنائس؛ لذلك يعد المؤرخون حركته حلقة اتصال بين حركة النهضة وحركة الإصلاح الديني في أوروبا[1].

ثم قامت الحركة الكبرى المضادة للبابوية وللطائفتها الكاثوليكية والتي سُمِّيت بالبروتستنتية، أي المحتجة، ويسميها أتباعها بحركة (الإصلاح الديني)، والتي ابتدأت على يد مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦م) في ألمانيا، وجون كلفن (١٥٠٩- ١٥٦٤م) في سويسرا، والتي كان لها الدور الواضح والقوي في إضعاف سلطة البابويّة الروحيّة في العالم الغربي، وتمزيق وحدة الكنيسة الكاثوليكيّة، حتى قيل: (إنّها توقفت أن تكون كنيسة المسيح في الأرض)[2].

يقول الأب جان كمبي: (قام في مطلع السادس عشر، أناس صمّموا على الشروع في إصلاح الكنيسة. ولكن، على أثر سوء التفاهم وأعمال العنف المتبادلة بين الطرفين، أدى ذلك الإصلاح، مع الأسف إلى تمزق الكنيسة الغربية، وفي أواخر القرن السادس عشر ظهرت ملامح جديدة لجغرافية دينية ما زالت قائمة إلى أيامنا)[3].

السبب السابع: تغيّر العقلية الأوروبية والمجمع الأوروبي عما كان عليه في العصور الوسطى، خاصة اهتمامه بالناحية الدنيوية، فكان هذا التغيّر في مجالات عديدة في الحياة الأوروبية، أهمها ما حصل في المجال السياسي، ومجال الفكر والثقافة.

ففي مجال السياسة ظهرت دول غربيّة تتطلع إلى الاستقلال التام بذواتها رافضة أي تبعية

(١) موسوعة تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، القسم الثاني من الجزء الأول، ص ٤٢٣، د. مفيد الزيدي، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، ص ٨٩، د. عبد الحميد البطريق، و د. عبد العزيز نوار.

(٢) تاريخ الكنيسة، ٤ / ٣٣٨، د. القس جون لوريمر، ترجمة عزرا مرجان.

(٣) دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، الأب جان كمبي، ص ٢٢٣.

لغيرها لا دينية ولا دنيوية، فاتخذت ملامح الدول العصرية بالمعنى الشائع في أيامنا: فهناك العاهل القوي، والمالية، والجيش، فوطدت الملوك سلطتهم في المجالات جميعها، ومنها المجال الديني فانتزعوا حق تعيين الأساقفة ورؤساء الأديرة جميعهم، كما أنّهم سعوا أن يكون صالح الدولة يبدو أكثر أهمية من صالح الكنيسة، في اعتقاد شعوبهم، وأنّ واجب الفرد نحو دولته ووطنه ينبغي أن يسبق واجبه نحو كنيسته[1].

وعلى إثر ذلك قامت ثورات وطنية تمردية مقاومة لسلطة البابوية، وكنائسها ورجالها، ومن أعنف هذه الثورات في ذلك الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م، فكانت ثورة جمعت بين السلاح والفكر[2].

---

(١) دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص ٢٢٣ - ٢٢٤، الأب جان كمبي، وأوروبا العصور الوسطى، الجزء الأول، التاريخ السياسي، ص ٥١٠، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

(٢) الثورة الفرنسية: حدث تاريخي مهم في حياة أوروبا المسيحية. نبذت من خلاله الدين وفصلته عن الحياة وأظهرت العلمانية. وتضافرت عدة عوامل على حدوث هذه الثورة:

١- فساد دين الكنيسة وهيمنته على مرافق الحياة جميعها. فلا يستطيع الأوروبي أن يفكر إلا بما يلقنه إياه رجال الدين. ولا يفكر إلا بما يسمح له رجال الدين أن يفكر فيه، وعلى النحو الذي يسمحون له به. ولا يتعلم إلا بما يسمح له رجال الدين بتعلمه. ولرجال الدين فوق ذلك نفوذ على أموال الأوروبيين وعلى أجسادهم وأرواحهم، فكانت الكنيسة قائمة على نظام الاسترقاق الإقطاعي؛ فهو أبشع وأظلم النظم الاجتماعية في التاريخ. فما كان من الأحرار الأوروبيين إلا أن يعتقدوا أنه يجب عليهم أن ينسلخوا من هذا الدين الباطل المهيمن على العقول والجيوب والأرواح إن أرادوا أن يتقدموا ويتحضروا ويعيشوا، خاصة أنهم يرون من حولهم وعلى مقربة منهم؛ دين آخر يقدم المنهج الصحيح للحياة الدنيا (الدين الإسلامي الخاتم). دين يعمل للآخرة من خلال العمل في الدنيا، بإقامة المنهج الرباني الذي يأمر بالعدل والقسط، فتتنور به القلوب والعقول والأرواح. ولكن أوروبا - بدافع العصبية الصليبية - أعرضت عن هذا الدين واتجهت إلى الجاهلية الإغريقية والرومانية، تنتقم بها من الكنيسة ودينها الفاسد.

٢- انتشار الفكر اللاديني ومدارسه المختلفة، التي تؤدي جميعها إلى تقويض الدين واجتثاث مبادئه من النفوس. ومن أشهرها:

أ- مدرسة ذات طابع علمي عام. وأبرز الأمثلة عليها الكتاب الموسوعيون الذين كتبوا دائرة المعارف بزعامة (ديدرو)، فهم كما يقول عنهم ويلز (يناصبون الأديان عداوة عمياء).

ب- مدرسة ذات طابع اجتماعي وسياسي. ويرأس هذا الاتجاه (روسو) صاحب كتاب (العقد الاجتماعي) الذي أطلق عليه (إنجيل الثورة الفرنسية) و (مونتسكيو) صاحب (روح القوانين).

ج- مدرسة ذات طابع فلسفي هدام. فهم ينادون بفصل الدين عن الدولة، وكانت فكرتهم اللادينية أوسع مما

(وفي زمن الثورة الفرنسية بدت البابوية ضعيفة منهوكة كما بدت كأنما هي غير ضرورية للمجتمع)[١].

وكانت الثورة الفرنسيّة سبباً مهماً في انتشار الثورات على البابويّة وكنائسها في أوروبا كُلّها، يقول الأب جان كمبي: (بعد تصدّعات الثورة الفرنسية، قام عالَم جديد خارج أسوار الكنيسة: إنه مجتمع الصناعة والمدينة، عالَم التّيارات الفلسفية الحديثة، عالم العلوم الطبيعية والتاريخية، راح هذا العالم الغريب عن الكنيسة يُحارب تقاليد تنقلها الكنيسة منذ عصور)[٢].

وكذلك الثورة الوطنيّة في إيطاليا عام ١٨٦٠م، فقد أثّرت على سلطة البابويّة في إيطاليا نفسها[٣].

تصوره (ميكافيلي)، فالدين عندهم يجب أن يلغى ليحل محله (الدين الطبيعي أو القانون الطبيعي). ومن أكثر الرواد لهذه الفكرة العلمانية واعتبارها منهج للحياة؛ هو: الفيلسوف اليهودي (سبينوزا)، وورثها عنه (فولتير) ومن بعدهم الألماني (كانت) خاصة في كتابه (الدين في حدود العقل وحده).

٣- القوى الشيطانية الخفية (اليهود). استغل اليهود احتياج الشعوب الأوروبية للمال للوقوف أمام سلطان الكنيسة. فتغلغل المال اليهودي في منظمات الثورات الأوروبية، وخاصة في منظمات الثورة الفرنسية المختلفة كالجمعية التأسيسية ونادي اليعاقبة وبلدية باريس، وأن ينفثوا تلك الشعارات التي رددتها الجماهير ببلاهة لا سيما الشعار اليهودي (الحرية والإخاء والمساواة). حصل هذا العبث اليهودي للثورة؛ لا لأن اليهود دبروا الأحداث - كما يزعمون في البروتوكولات - ولا لأن تراكم التخطيط عبر القرون قد آتى ثماره آخر الأمر كما يرى أمثال وليم كار في كتابه (أحجار على رقعة الشطرنج) وسبيريدوفيتش في كتابه (حكومة العالم الخفية)... ولكن لأن أوروبا هي التي استحمرت نفسها أمامهم.

وبهذا تمخضت الثورة الفرنسية على نتائج بالغة الأهمية، فقد ولدت لأول مرة في تاريخ أوروبا المسيحية دولة جمهورية لا دينية تقوم فلسفتها على الحكم باسم الشعب (وليس باسم الله)، وعلى حرية التدين بدلاً من الكثلكة، وعلى الحرية الشخصية بدلاً من التقيد بالأخلاق الدينية، وعلى دستور وضعي بدلا من أحكام الكنيسة. وكانت هذه الثورة فاتحة عصر جديد في التاريخ الأوروبي، إذ توالت بعدها الثورات كالبراكين في أنحاء القارة الأوروبية.

انظر: العلمانية ص ١٦٥-١٧٦ د. سفر عبدالرحمن الحوالي، ومذاهب فكرية معاصرة ص ٧٩-٩٢، ٤٤٥-٤٦١ للشيخ محمد قطب، وموسوعة السياسة ١ / ٩١٣، د. عبدالوهاب الكيالي، وأحجار على رقعة الشطرنج ص ٧٥-١٠١ وليام غاي كار.

(١) موسوعة تاريخ العالم، ٤ / ١٢١٩، وليام لانجر.

(٢) دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص ٣٣٩، الأب جان كمبي.

(٣) تاريخ أوروبا في العصر الحديث (١٧٨٩ - ١٩٥٠م)، ص ١٠، ٢٤٥، هـ. أ. ل. فيشر.

وفي مجال الفكر والثقافة، فقد ظهرت نظريات علمية وآراء فلسفية، وتدفقت علوم جديدة احتضنتها جامعات أوروبا الناشئة في ذلك الوقت. وعلى أثر هذا ظهرت روح النقد فتناولت كل الأنظمة التي اعتادتها الشعوب الغربيّة، وفي مقدمتها الأنظمة الدينية، فتسلط المفكرون على نظام الكنيسة فبدؤوا يتعرضون لمبادئ النصرانيّة، ومناقشة عقائدها، فقام بعض الفلاسفة يناقشون الكنيسة في بعض العقائد التي تعدها أساس الديانة، فصرّحوا أن الكنيسة إنّما تطلب من العقل فوق ما يتحمل، فمثلاً: كيف استطاع آدم، الكائن المحدود، أن يهين الله إهانة غير محدودة؟ كيف يمكن التصديق أن الجنس البشري بكليته أصبح مذنباً بفعل خطيئة الإنسان الأولى؟ كيف يمكن للطفل الذي يخلق اليوم أن يكون مسؤولاً عن خطيئة ارتكبت قبله بآلاف السنين؟ كيف يمكن تصوّر إله واحد في ثلاثة أقانيم؟ وإله يتجسد؟ وإنسان يقوم من بين الأموات؟ وكذلك سخروا بالكتب المقدسة وبرواياتها الغريبة، الجارحة، بعيدة الفهم والتصديق، كما أنهم أخذوا على تعاليم الكنيسة أنها تعارض الطبيعة وتؤدي بالإنسان إلى الفقر وتعذيب النفس وترك العمل المثمر، ونسبوا إليها تصرّفات غير إنسانيّة، فالنصرانيّ يبتهج بوفاة ولده بقصد أنّه يربح السعادة الأزلية، ويترك قريبه يموت بدون أية مساعدة حتى لا يتغيب عن حضور القُدّاس، واتهموها بإلحاق الضرر بالمجتمع، فالأديرة ملاجئ للكسالى تحرم الدولة من الفلاحين والصناعيين والتجار، والبتولية الكنسية تمنع تكاثر البشر وتحرم الجسم الاجتماعي من المنتجين والمستهلكين والجنود، وإرسال المال إلى البابا يفقر الأمة، والكنسيون يعفون من الضرائب في حال أنهم يمتلكون أراضي واسعة الأطراف فيحرمون الدولة من موارد وفيرة، كما أن آراء الكنيسة الدينية عندهم تُقسم المواطنين، فتضعف الدولة بهذه الخلافات الدينيّة، ثُمّ إنّ تاريخ الكنيسة عندهم ليس سوى سلسلة طويلة من الاضطرابات والحروب، وسفك الدماء.

وغيرها من المناقشات و الأُطروحات التي وُجهت للبابويّة وكنائسها، وكانت النتيجة الحتميّة أنّها فقدت مكانتها بفعل هذه المجادلات الكبيرة، والتي عالجت أدق عقائد الإيمان في الساحات

العامة؛ فحمل ذلك الناس حتى أعمقهم جهلاً علىٰ إصدار حكمه فيها[1].

وبسبب هذه التغيّرات في العقليّة الأوروبيّة الغربية، وموقفها من البابويّة، وكنائسها الكاثوليكيّة في العالم الغربي؛ حصل التغيّر المنتظر في علاقتهما، وهذا ما صرّح به البابا بيوس الثاني عشر (٢ آذار ١٩٣٩- ٩ تشرين الأوّل ١٩٥٨م)، عندما قال: (... ما يُسمّى بالغرب أو العالم الغربي تعرّض إلى تغيّرات عميقة، فالعقلانيّة والليبراليّة قادتا إلى دولة القرن التاسع عشر، إلى سياسة تقوم علىٰ القوة وإلى الحضارة العلمانيّة. والتغيّر فيما يخص العلاقة بين الغرب والكنيسة الكاثوليكيّة أصبح حتمياً)[2].

وبعد هذه الزلازل التي واجهتا البابوية في العالم الغربي وأسقطتها من عليائها، منذ عهد قسطنطين الكبير في القرن الرابع إلى القرن الرابع عشر الميلادي؛ انكفأت البابوية علىٰ ذاتها واكتفت في العهود المتأخرة بالإشراف علىٰ جزء من نصارىٰ العالم ينتسبون إليها يُسمون بالكاثولكيين.

---

(١) التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، ص ٧٥، د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، تاريخ الحضارات العام، القرن الثامن عشر، (عهد الأنوار)، ٥ / ٩٠ - ٩٢، تأليف رولان موسينيه، وارنست لابروس، إشراف موريس كروزيه.

(٢) الإسلام والمسيحيّة (من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم)، ص ١٣١، أليكسي جورافسكي، ترجمة: الدكتور خلف محمد الجراد.

الباب الثالث: أثر الطائفة الكاثوليكية على العالم الإسلامي

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الحروب الصليبية قديماً وحديثاً.

الفصل الثاني: الغزو الفكري.

الفصل الثالث: التنصير.

الفصل الأول: الحروب الصليبية قديماً وحديثاً

إن المطّلع على التاريخ الغربي الأوروبي يجد الكره والحقد الصليبي على الأمة الإسلامية منذ أن استقام أمر المسلمين في الفتوحات الدولية المبكرة من تاريخهم المبارك.

وقد كان للبابوية ورجال كنائسها وأتباعها من المنصِّرين الدور الأساس في إذكاء الحقد الصليبي بين العساكر والشعوب الأوروبية على الإسلام والمسلمين[1].

ومن أوائل باباوات روما الذين حملوا لواء نشر الكره والحقد الصليبي على الأمة الإسلامية هو البابا هادريان (أدريانوس) الأول (٩ شباط ٧٧٢ - ٢٥ كانون الأول ٧٩٥م) عندما حث الإمبراطور شارلمان عام ٧٧٨م على مواجهة المسلمين في الأندلس[2].

وهذا البابا لاون (ليو) الرابع (١٠ نيسان ٨٤٧ - ١٧ تمّوز ٨٥٥م) قد نادى في عام ٨٤٨م أنّ كل من حارب المسلمين ومات في الدفاع عن الصليب فله الخلاص (وهكذا ربط ليو الرابع بين الحرب ضد المسلمين ومفهوم الخلاص)[3]، وهو ما جعل لندائه وطلبه قتال المسلمين صدى عظيماً في نفوس نصارى الغرب، وذلك عندما تمكن المسلمون من إحكام السيطرة على جزيرة صقلّية بقيادة الفقيه المجاهد أسد بن الفرات وخلفائه من القادة المغاوير محمد بن أبي الجواري وإبراهيم

---

(١) علماً بأن النصارى الذين لم يصل إليهم التأثير البابوي الكاثوليكي كنصارى المشرق عاشوا في ظل الحكومة الإسلامية وبين ظهراني المسلمين فترات هي من أزهى فترات النصارى في العالم أجمع، والتاريخ يشهد بهذا.

(٢) العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، ص ٥١، د. جوزيف نسيم يوسف، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ص ١٥٧، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

(٣) الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية (دراسة عن الحملة الصليبية الأولى)، ص ٢١، د. قاسم عبده قاسم.

بن عبد الله بن الأغلب، وحاذى بعدها المسلمون الشاطئ الإيطالي الغربي، ورست قواتهم عند مصب نهر التيبر، حيث تقع روما؛ فانتفض بابا روما ليو الرابع لهذا النصر الإسلامي وعمل على تعبئة عامة النصارى ضد المسلمين، وهو ما كان لهذه التعبئة الأثر السيئ في قلوب نصارى الغرب جهة المسلمين [1].

وارتفعت نبرات العداء ضد الإسلام والمسلمين في عهدي البابوين يوحنا الثامن (١٤ كانون الأوّل ٨٧٢ - ١٦ كانون الأوّل ٨٨٢ م)، وإسكندر الثاني (١ تشرين الأوّل ١٠٦١ - ٢١ نيسان ١٠٧٣ م)، فيوحنا الثامن ألحّ وشدّد في سنة ٨٧٦م على الإمبراطور شارل الأصلع للقيام بحملة ضد المسلمين، وبين له أنه بدون هذا الهجوم على المسلمين قد تتعرض (الديانة المسيحية والمجد الإمبراطوري للخطر)[2].

وفي معرض إجابة بابا روما يوحنا الثامن عن سؤال طرحته مجموعة من الأساقفة حول ما إذا كان أولئك الذين يموتون في حروبهم ضد المسلمين ودفاعاً عن الديانة النصرانية سينالون الغفران، أجاب البابا بأنّه من المؤكد أن أولئك سينالون الغفران[3].

وهذا البابا إسكندر الثاني حث النصارى في سنة ١٠٦٠م على قتال المسلمين، وفي سنة ١٠٦٣م منح المحاربين النصارى الذين يقاتلون مسلمي الأندلس غفراناً وإعفاءً من التوبة، وعدّ قتالهم للمسلمين بمنزلة تكفير عن خطاياهم، وفي ذلك الوقت أرسل خطاباً إلى أسقف مدينة ناربون الإسبانيّة يستثني فيه ذبح المسلمين من التحريم الكنسي العام للقتل، كما وضح بخطاباته مساندته للنصارى في حروبهم ضد المسلمين، وأرسل خطاباً إلى رجال الكنيسة في مدينة فولتيرنو الإسبانيّة كشف فيه عن المكاسب الروحية التي يمكن للمشاركين في الحرب أن يحصلوا عليها، إذ يقول:

---

(١) الحروب الصليبية، ص١٧، ارنست باركر، فتح صقلّية، ص٧٢ - ٧٣، ٨٦ - ٨٧، د. شوقي أبو خليل.

(٢) الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية (دراسة عن الحملة الصليبية الأولى) ص٢١، دكتور قاسم عبده قاسم.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٢، د. قاسم عبده قاسم.

(بتأكيد بابوي نحث أولئك الذين قرروا الذهاب إلى إسبانيا على أن يولوا جل انتباههم لإنجاز مهمتهم بنصيحة مقدسة، فإننا بسلطة الحواريين المقدسين، بطرس وبولس، نعفيهم من توبتهم ونمنحهم الغفران لخطاياهم، على حين تصحبهم صلواتنا)[1].

وتمكّن الشعور بكره المسلمين والحقد عليهم في قلوب نصارى أوروبا في عهد بابا روما غريغوريوس (جريجوري) السابع (٢٢ نيسان ١٠٧٣- ٢٥ أيار ١٠٨٥م)، وظهر هذا الشعور عملياً في الحملة الصليبية الأولى (أول حملة صليبية مرقمة في التاريخ ضد المسلمين) عندما دعا إليها بابا روما أوروبان الثاني في عام ١٠٩٥م، حيث يظهر فيها وفيما بعدها من الحملات أن (الباباوات واصلوا تشجيع هذه المفارز الكنسية)[2].

فجريجوري السابع هو المبتكر الحقيقي لفكرة الحرب المقدسة في العصور الوسطى ضد الإسلام والمسلمين؛ فهو لم يتحدث مثل أسلافه من الباباوات عن الحروب الدفاعية ولكن تحدث عن الحروب الهجومية من أجل توسيع رقعة العالم النصراني، (لقد وصف بأنه أحد الذين ساهموا في الصياغة الأساسية للأيديولوجية الصليبية)[3].

فقد دعا هذا البابا جريجوري السابع من بداية عهده عام ١٠٧٣م؛ عامة الناس في أنحاء أوروبا إلى تشكيل ميليشيا دعاها (فرسان القديس بطرس) تكون مرتبطة بالبابا، وقد طلب في عام ١٠٧٤م من هذه الميليشيات السير شرقاً نحو بيزنطة والهجوم على المسلمين الذين كان ينعتهم دائماً بالكفار، وتحرير الروم من أيديهم، وأي شخص من جنوده يموت في هذه الحملة سوف يُثاب ثواباً أبدياً، وبعد أن يقهروا المسلمين في آسيا الصغرى يجب عليهم أن يزحفوا على فلسطين

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٣، د. قاسم عبده قاسم، الحروب الصليبية ص١٨ ارنست باركر، ترجمة: السيد الباز العريني.

(٢) الحرب المقدسة، ص ٩٩، كارين آرمسترونغ، ترجمة: سامي الكعكي.

(٣) الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، ص ٢٥، د. قاسم عبده قاسم.

ويحرروا بيت المقدس،[1] فقد أرسل هذا البابا في ٢ فبراير سنة ١٠٧٤م نداء إلى الشعوب النصرانيّة لقتال المسلمين، ثُمَّ أتبعه بنداء آخر في أول من مارس سنة ١٠٧٤م يحثّهم فيه على القدوم لنجدة الإمبراطورية اليونانية (البيزنطية) التي يهددها المسلمون الذين تقدموا إلى أسوار القسطنطينية.

وأرسل خطاباً بتاريخ ٧ ديسمبر سنة ١٠٧٤م إلى الإمبراطور هنري الرابع الألماني، يخبره بأنه مستعد بنفسه للسير لإنقاذ البيزنطيين وتخليص الضريح المقدس، وأن يقوم الإمبراطور برعاية شؤون الكنيسة في غيابه[2].

وقد عمل بفاعلية للحث على إرسال تعزيزات عسكرية إلى الأندلس المسلمة لحرب المسلمين والهجوم على ديارهم هناك[3].

فهذه الأعمال التي قام بها بابا روما (جريجوري السابع) والنداءات التي أرسلها إلى أتباع كنسيته في العالم الغربي والشعوب الأوروبية وحكامهم لتحريضهم على قتال المسلمين جعلت الكره والحقد الصليبي على الإسلام والمسلمين في ازدياد وصعود حتى يمكن القول: إن أوروبا كرَّست قواها كلها لمحاربة الإسلام والمسلمين في كل مكان يستطيعون فيه ذلك، ومنه بدأت وولدت فكرة الحروب الصليبية المرقّمة تاريخياً على بلاد المسلمين وخاصةً الأراضي المقدسة.

ثم كان التطبيق العملي للكره الأوروبي والحقد الصليبي على الإسلام والمسلمين في عهد البابا أوروبان الثاني (١٢ آذار ١٠٨٨ - ٢٩ تموز ١٠٩٩ م)؛ لذلك عد المؤرخون نداء أوروبان الثاني في عام ١٠٩٥م إلى شن حرب أوروبية صليبية عامة على المسلمين واحتلال أراضيهم خاصة أرض فلسطين المباركة هو أول قيام لحرب صليبية هجومية حقيقيّة على البلاد الإسلامية، والتي

(١) الحرب المقدسة، ص ٩٩ - ١٠٠، كارين آرمسترونغ، ترجمة: سامي الكعكي.
ولكن ظروف هذا البابا جريجوري السابع (هيلدبراند) من حروبه مع ملوك أوروبا وطمعه في التوسع الإقطاعي وطلبه للسلطة الزمنية حالت دون توجه هذه الحملة إلى الشرق الإسلامي.

(٢) الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، ص ٢٦، د. قاسم عبده قاسم.

(٣) تلك الحروب التي يُسميها التاريخ الغربي بحرب الاسترداد في إسبانيا. انظر الحروب الصليبية (صراع الشرق والغرب)، ص ٣٤، رنيه كروسيه، ترجمة: أحمد ايش.

عُنون لها بالحملة الصليبية الأولى وتبعها حملات صليبية على البلاد الإسلامية منظمة ومرقمة بدأت من عام ١٠٩٥م إلى عام ١٢٩١م.

فالهجمات الصليبية المنظمة على العالم الإسلامي، والتي يسميها المؤرخون (بالحروب الصليبية في القرون الوسطى)؛ كان للكنيسة الكاثوليكية في الغرب، وعلى رأسها البابوية الدور الفعَّال في توجيهها والسيطرة عليها، فهي التي دعت إليها وأمدتها بتأييدها المادي والمعنوي، وهي التي شجعت المحاربين من الأجناس والفئات كافة على الاشتراك فيها مقدِّمة التسهيلات اللازمة كافة لكل من ينخرط فيها، ويحمل الصليب، وهي التي سمحت للجماعات الرهبانية العسكرية القيام بالدور الموكول إليها في الأراضي المقدسة، وكان يمثلها في كل حملة صليبية مندوب بابوي يُعيَّن من قِبَلِها[1].

إن تلك الهجمات الصليبية أتاحت للبابوية الفرصة العظيمة لنفث حقدها الصليبي الدفين على الإسلام والمسلمين فحاولت جاهدة بكل ما أُوتيت من وسائل أن تُجيِّش الغرب النصراني ضد الأمة الإسلامية، فقد تمسكت بدعوى نشرتها في العالم النصراني بأسره وعلى مدى عقود طويلة من السنين أنَّ كل من يشترك في هذه الحملات سوف ينال الخلاص الأبدي والغفران التام عن آثامه وخطاياه وهو ما جعل لندائها بين الشعوب النصرانية الأثر البعيد.

(١) العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، ١/ ٦٨، دكتور جوزيف نسيم يوسف.

الحملة الصليبية الأولى

أول تلك الحملات الصليبية المنظمة والمرقمة على العالم الإسلامي كانت في عهد بابا روما أوروبان الثاني، فقد دعا هذا البابا إلى عقد مجمع ديني كنسي عام في مدينة كلير مونت الفرنسية، وقد انعقد هذا المجمع في ١٨ نوفمبر / تشرين الثاني من عام ١٠٩٥م واستمرت مداولاته حتى يوم ٢٧ من الشهر نفسه، وشارك في أعماله ما يزيد عن ٢٥٠ من رعاة الأسقفيات في العالم الغربي أكثرهم من رجال الدين الفرنسيين.

وكانت اللحظة التي أعطت هذا المجمع مكانته الخاصة في التاريخ في نهاية يومه التاسع الموافق ٢٧ من نوفمبر سنة ١٠٩٥م، ففي ذلك اليوم اجتمع العدد الغفير من رجال الدين والعلمانيين وطبقات الشعب الأغنياء والفقراء في قطعة أرض فضاء خارج مقر انعقاد المجمع للاستماع إلى خطبة البابا أوروبان الثاني، فقام هذا البابا بإلقاء خطاب حماسي شديد اللهجة أظهر فيه حقده الدفين على الإسلام والمسلمين وذكر أن المسلمين وعلى رأسهم السلاجقة باتوا خطراً على الوجود المسيحي (النصراني) في الشرق وأن الحجاج النصارى إلى الأماكن المقدسة يتعرضون إلى مضايقات من المسلمين بل إلى القتل والتعذيب وأنهم انتهكوا حرمة الكنائس المقدسة في الأراضي المقدسة واستولوا على مدينة أنطاكية وهي عندهم مدينة القديس بطرس، وفي كلمات أخرى مثيرة للمشاعر ناشد بابا روما أوروبان الثاني في هذه الخطبة الشعوب المسيحية كلها أغنيائها وفقرائها فرسانها وجنودها وشبابها لمساعدة إخوانهم النصارى في الشرق وإنقاذ القبر المقدس من عبث المسلمين، وذكر أنَّ هذه الحرب على الأمة الإسلامية إنما هي (إرادة الله)، وما انتهى البابا من

خطابه الحماسي المتطرف الإرهابي ضد الأمة الإسلامية حتى كانت الصيحة الكبرى التي أطلقتها الجماهير التي استمعت لخطابه، هي (إن الله يريدها) (volt Lo Des)[1].

تلك الصرخة التي تجاوبت أصداؤها على مر القرون ضد الأمة الإسلامية والمسلمين في كل مكان، ولم يكد البابا أوروبان الثاني يفرغ من خطبته التي دعا فيها لمحاربة المسـلمين، حتى جثا أدهمار أسقف بوي الفرنسيّة أمام قدمي البابا راجياً أن يكون له شرف المساهمة في الحرب المقدسة ضد المسلمين؛ وبذلك صار ذلك الأسقف أول من افتتح قائمة المتطوعين، واختاره البابا أوروبان الثاني مندوباً بابوياً في الحملة الأولى [2].

ثم تبعه الكونت ريموند الرابع أمير مدينة تولوز الفرنسيّة مخبراً البابا استعداده التام، ومن معه من الفرسان لتلبية النداء والسير في ركابه نحو الأراضي المقدسة [3].

وقد بذل البابا أوروبان الثاني جهوداً متواصلة لحشد الإمكانيات، من خلال التحركات الواسعة التي بذلها في الأراضي الأوروبيّة، فلم يكتف بما قاله في مدينة كليرمونت، وإنما أخذ يتنقل بين المدن والبلدان داعياً للحرب الصليبية، فعقد في كثير من المدن الأوروبيّة مجامع متعدِّدة مصطحباً معه الأمير الفرنسي ريموند الرابع، وذلك من ديسمبر ١٠٩٥ إلى يوليه ١٠٩٦م؛ وهو ما يثبت أن هذا الأمير قام مع البابا بدور جذري في الإعداد للحملة الصليبية المنظمة الأولى، حيث إنّه هو الذي نبه البابا إلى ضرورة الاعتماد على مساندة قوة بحرية لتنفيذ مشروع الحرب الصليبية، فأرسل البابا أوروبان الثاني مبعوثين إلى جنوى طالباً مشاركتها في المشروع الصليبي الكبير فاستجاب الجنويّون لدعوة البابا فأعدوا اثنتي عشرة سفينة حربية، وناقلة كبيرة لمساندة الحملة، كما أنه قام

---

(١) أوروبا والمسيحية، الجزء الثاني (المرحلة الصليبية)، ص٦٩، يان دوبرا تشينسكي، تاريخ الحملات الصليبية، ١/ ١٩ - ٢٠، إتش. إ. ماير، مختصر تاريخ الكنيسة، ص ٢٥٨ - ٢٥٩، أندرو ملر.
هذه العبارة (volt Lo Des) باللغة اللاتينية، وترجمتها بالفرنسية (velt le Die)، انظر: الحروب الصليبية صراع الشرق والغرب، ص ٣٦، رنيه كروسيه، ترجمة: أحمد ايبش.

(٢) الحركة الصليبية، ١/ ١٠٦، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

(٣) نبلاء ودراويش (تاريخ الحروب الصليبية)، ص ٦٥، د. إسماعيل نوري الربيعي.

بإرسال دعوات مكتوبة أخرى إلى باقي المدن والممالك الغربية النصرانية [1].

وبعد تجوال كبير عاد البابا أوروبان الثاني إلى إيطاليا في أواخر سنة ١٠٩٦م بعد أن تأكد من نجاح مشروعه الصليبي؛ إذ أقبل بعض الأمراء وكثير من الناس على المشاركة في الحركة الجديدة، ليس فقط من البلدان القريبة مثل فرنسا وإيطاليا وإسبانيا بل أيضاً من البلدان البعيدة مثل: اسكتلندا والدانمارك وغيرهما[2].

هذا بالإضافة إلى الجهود الحثيثة التي بذلها القساوسة في مختلف أنحاء الغرب الأوروبي الذين توجهوا بكل ثقلهم نحو الحث على ضرورة المساهمة في هذه الحرب، تحت دعوى قدسيتها، من خلال المواعظ التي كانوا يلقونها على رعاياهم[3].

على رأس هؤلاء الدعاة رجل فرنسي متطرف يُدعى (بطرس الناسك) ويُدعى أيضاً (بطرس الصغير)، (طوبته الكنيسة ورفعته إلى مصاف القديسين بعد تلك الحملة)[4].

ذكر المؤرخون الغربيون النصارى أنه في سنة ١٠٩٣م زار هذا الرجل (بطرس الناسك) بيت القدس، فوجد أن المسلمين يحكمون الأراضي المقدسة فأوعز إليه شمعون بطريرك أورشليم (بيت المقدس) أن يُكلِّم البابا في شأن نصارى المشرق فوعده بطرس بأنه سيحرك أوروبا الحربية لتقوم بجانبه ضد المسلمين[5].

---

(١) تاريخ الحملات الصليبية، ١/ ٢٠ - ٢١، إتش ماير، الحركة الصليبية، ١/ ١٠٧، د. سعيد عاشور.

(٢) الحركة الصليبية، ١/ ١٠٧، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

(٣) نبلاء ودراويش (تاريخ الحروب الصليبية)، ص ٦٥، د. إسماعيل نوري الربيعي.

(٤) أوروبا المسيحية، الجزء الثاني ص ٧٥، (المرحلة الصليبية) يان دوبرا تشينسكي، ترجمة: د. كبرو لحدو.

(٥) وقيل: إنّ بطرس هذا سمع صوت ربه (يسوع) وهو واقف بجانب الهيكل يناديه قائلاً له: (قم يا بطرس وأعلن ضيقات شعبي هو ذا قد جاءت الساعة لإنقاذ عبيدي واسترداد الأماكن المقدسة). وإن مثل هذه الروايات والأساطير قد ذاعت في الغرب طوال عصر الحروب الصليبية وفيها من إثارة الشعور والهمم الشيء الكثير، حتى أن الشعراء كانوا يكسون قصصهم في تلك العصور باللون الصليبي الذي كان يقوم على دعامتين هامتين هما الحرب والدين. انظر: مختصر تاريخ الكنيسة، ص ٢٥٨، أندرو ملر، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، ١/ ٥٥، د. جوزيف نسيم يوسف.

وقد كان بطرس الناسك من الذين ساعدوا البابا أوروبان الثاني وعملوا على نشر دعوته في العالم الغربي بشكل كبير جداً[1].

أخذ يتنقل من مكان لآخر حاثاً الأمير والحقير والغني والفقير في الكنائس والطرقات في الميادين والأسواق، وقد ضرب على كل وتر حساس: عزة النفس، ومحبة الإخوة النصارى في الشرق خاصة في الأراضي المقدسة، وكراهية المسلمين الكفار الملاحدة، وتدنيس الأراضي التي شرفها الفادي (وفي وقت قصير رجع إلى البابا مؤكداً له أن أقواله قوبلت بحماس شديد في كل مكان، حتى إنه بالكاد استطاع أن يمنع السامعين من تقلد السلاح في الحال والسير وراءه إلى الأراضي المقدسة)[2].

وفي الوقت الذي كان بطرس الناسك ماضياً في دعوته في الغرب الأوروبي ظهر زعيم آخر من زعماء العامة اسمه والتر الملقب بالمفلس [3].

وصار السباق واضحاً بين بطرس الناسك ووالتر المفلس في الدعوة إلى الحملة الصليبية ضد المسلمين[4].

---

(١) فخرج بطرس الناسك يجوب إيطاليا وفرنسا وما حولها من أقاليم (يقال في وصفه إنه كان قصير القامة، نحيف القوام قمحي اللون، ولكن ذا عينين كأنهما من نار أخذ يجول ممتطياً بغلاً بصليب في يده، حاسر الرأس وعاري القدمين، مرتدياً ثوباً طويلاً وممتطياً بحبل، وفوق الكل عباءة ناسك من أشد الأقمشة خشونة). مختصر تاريخ الكنيسة ص ٢٥٨، أندرو ملر.

(٢) مختصر تاريخ الكنيسة، ص ٢٥٨، أندرو ملر.

(٣) الحركة الصليبية، ١/ ١٠٩، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

(٤) نبلاء ودراويش (تاريخ الحروب الصليبية)، ص ٨٢، د. إسماعيل نوري الربيعي.
وانقسمت الحملة الصليبية الأولى إلى قسمين، القسم الأول ويشمل الحملة الشعبية أو حملة العامة، والقسم الثاني يشمل حملة الأمراء أو الحملة النظامية.
والحملة الشعبية كانت بمنزلة طلائع للحملة النظامية فهي خمسة جموع ضمت الفقراء والفلاحين والرهبان رجالاً ونساءً حتى الأطفال من الفرنسيين والإيطاليين والألمان وغيرهم وعلى رأس هذه الحملة بطرس الناسك ووالتر المفلس في يوليو عام ١٠٩٦م، ثم تبعتهم الحملة النظامية من الأمراء والفرسان في شهر أغسطس عام ١٠٩٦م، وتكونت من خمسة جيوش اتفقت على الالتقاء والتجمع في القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، فكان جيش بقيادة الأمير هيو كونت فرماندو شقيق فيليب ملك فرنسا وصل القسطنطينية في شهر نوفمبر ١٠٩٦م،

لقد استطاعت البابوية ودعاتها في عهد أوروبان الثاني التأثير على الغرب الأوروبي في زيادة الحقد الصليبي على العالم الإسلامي، بل هاجمته في قلب أراضيه الإسلامية واستولت على بقعة غالية من موطنه بيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين.

ولقد نجحت البابويّة في توحيد الصف الكاثوليكي النصراني بالرغم من تعدد لغات شعبه واختلاف عاداته وسلوكياته، ولم تكن لتنجح البابوية في عهد بابا روما أوروبان الثاني في فكرتها الصليبية تلك (لو لم تكن متوافقة مع حركة المجتمع، هذا التوافق بين الفكر والواقع، بين التبرير الأخلاقي للحرب وحركة المجتمع)[1]؛ حيث إن البابوية في القرن الحادي عشر قد بدأت بحركات كاثوليكية لإحياء الدين النصراني في الغرب الكاثوليكي، وعلى رأس هذه الحركات: الحركة الكلونية والتي تربى فيها البابا أوروبان الثاني نفسه.

وجيش ثان بقيادة جودفري بوايون دوق اللورين السفلى وشقيقه بلدوين ووصل القسطنطينية في ديسمبر ١٠٩٦م، وجيش ثالث مكون من نورمان جنوب إيطاليا وكانت بقيادة الأمير بوهيموند بن جويسكاريد ووصلت الحملة النورمانية إلى القسطنطينية في إبريل عام ١٠٩٧م، وجيش رابع بقيادة الأمير ريموند الرابع الصنجيل كونت تولوز، ومركيز بروفانس، ويرافقه المندوب البابوي ادهيهار أسقف بوي، ووصل إلى القسطنطينية أواخر شهر أبريل ١٠٩٧م، وأخيراً وصل الجيش الفرنسي في شهر مايو ١٠٩٧م بقيادة روبرت أمير نورماندي وصهره إيتين (ستيفن) أمير بلو.

استطاع بلدوين بشطر من جيش أخيه في شهر مارس سنة ١٠٩٨م من امتلاك الرُّها وتأسيس أول إمارة صليبية فيها، وفي ٢٨ يونيه ١٠٩٨م تمكن الجيش الصليبي من السيطرة على أنطاكية فتكونت بهذا إمارة صليبية ثانية، ثم تابع الصليبيون زحفهم جنوباً إلى بيت المقدس، واحتلوا في طريقهم العديد من المدن على الساحل الشامي وتمكنوا أخيراً من اقتحام بيت المقدس واستباحته، وأحدثوا بالمسلمين فيها مذبحة رهيبة ثم اختاروا (جود فري) حاكماً على بيت المقدس في ٢٢ يوليو ١٠٩٩م.

ويبدو أن الصليبيين لم يصادفوا صعوبات كبيرة في الاستيلاء على بقية مدن فلسطين لما كان فيه المسلمون من تفكك وانحدار في ذلك الوقت حيث كان المسؤول عن المسلمين حينها الدولة الفاطمية الشيعية، فاستولى الصليبيون على بيت لحم واللد والرملة ويافا فأسرع أهالي نابلس إلى الاستسلام وأرسلوا وفداً إلى الصليبيين يدعونهم لتسلم المدينة، وحصل ذلك في أواخر شهر يوليو سنة ١٠٩٩م.

انظر إلى: العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى ص٨٥ _ ٩٢، الدكتور عادل زيتون، الحروب الصليبية، ص ٢٥ - ٣٨، أرنست باركر، وبتوسع إلى: الحركة الصليبية في العصور الوسطى ١/ ١١٥- ٢١٧، الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور.

(١) الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، ص٢٨، د. قاسم عبده قاسم.

لذلك كان الغرب النصراني في ذلك الوقت يغزو قلب العالم الإسلامي ولأول مرة في تاريخه الصليبي، وهو مفعم بالتدين العدواني للحروب المقدسة عنده، هذا التدين الذي سيطبع بطابعه كل أوجه تعامل نصارى الغرب مع مسلمي الشرق، بل مع المسلمين كُلّهم في بقاع الأرض في المستقبل.

كان هذا البابا أوروبان الثاني من وقت اعتلائه الكرسي البابوي عام ١٠٨٨م، وهو يعمل على توجيه الفرسان والمتطوعين الغربيين لحرب المسلمين في الأندلس المسلمة [١]، فقد شدد على أن (أي شخص يريد القيام بحج تكفيري إلى أورشليم عليه أن يستعيض عن ذلك بفترة من العمل من أجل حروب الاسترداد الإسبانية)[٢].

والذي يظهر لمتتبع الأحداث في ذلك الوقت أن الحملة الصليبية الأولى هي انعكاس عدواني انتهازي للغرب الصليبي وللبابا أوروبان الثاني لما حصل للجيوش الصليبية من تقدم في حروبها ضد المسلمين على أرض الأندلس المسلمة، فتجسّر الغرب الصليبي للهجوم على المسلمين في مواطنه الأصلية لتفككهم السياسي وتصارعهم المذهبي لوجود الدولة الفاطمية العبيدية الشيعيّة، وتفكك الحاجز الأول لأراضي المسلمين وهي الدولة السلجوقية.

وقد ربط عُمدة المؤرخين أبو الحسن ابن الأثير بين حروب النصارى ضد المسلمين في الأندلس بحروبهم ضد المسلمين في الشام والأراضي المقدسة بنشوة الانتصار الغربي الصليبي على المسلمين في ذلك الوقت فقد قال: (كان ابتداء ظهور دولة الفرنج واشتداد أمرهم وخروجهم إلى بلاد الإسلام واستيلائهم على بعضها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة فملكوا مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس، ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها، وتطرقوا إلى أطراف إفريقية ملكوا منها شيئاً، فلما كان سنة تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام)[٣].

---

(١) يُسميها المؤرخون الغربيون حروب الاسترداد الإسبانية.

(٢) الحرب المقدسة: ص ١٠٣، كارين آرمسترونغ، ترجمة: سامي الكعكي.

(٣) الكامل في التاريخ، ٩/ ١٣، أحداث سنة ٤٩١هـ لأبي الحسن ابن الأثير الجوزي.

ثم كان بابا روما باسكال الثاني (١٤آب ١٠٩٩ - ٢١كانون الثاني ١١١٨م) خليفة البابا أروبان الثاني، فقد عمل هذا البابا على تقوية الممالك الصليبية في العالم الإسلامي خاصةً المملكة الصليبية ببيت المقدس، مع عمله في تقوية نصارى الأندلس في مواجهة المسلمين هناك، فقد أقنع ملك النرويج سيجورد بتكوين حملة صليبية تتجه إلى مساعدة الصليبين في الأندلس ثم تتجه بعدها إلى بيت المقدس، فقامت هذه الحملة الصليبية النرويجية بتنفيذ ذلك المشروع الصليبي، وكانت بقيادة ملكها سيجورد وانطلقت في خط سيرها المرسوم لها عام ١١٠٧م بموافقة البابا باسكال الثاني، وقد تكونت هذه الحملة الصليبية النرويجية من أسطول بحري ضخم يتكون من سبعين سفينة تحمل على ظهرها أعداداً ضخمة من المقاتلين بلغت عشرة آلاف مقاتل، ووصلت الحملة إلى شمال غرب الأندلس في خريف عام ١١٠٨م، وخاضت معركة حربية مع المسلمين هناك وتمكن الملك من إخضاع قلعة حصينة لحكمه في مدينة Cintna وهي الآن جزء من البرتغال وعملوا على تنصير المسلمين بالقوة في تلك المدينة وقتلوا كل الذين امتنعوا عن الدخول في النصرانية[١].

وقد انتصر في مواقع كثيرة من بلاد الأندلس المسلمة من أهمها لشبونة، (ومن المفيد أن نلاحظ أن ذلك الملك النرويجي عمل على محاربة المسلمين في الأندلس سواء كان ذلك في غرب الأندلس أو في الجزائر الشرقية، كما حاربهم فيما بعد في بلاد الشام عندما وصل إلى مملكة بيت المقدس الصليبية على نحو عكس الارتباط الوثيق بين الحركة الصليبية في غرب البحر المتوسط وشرقه)[٢].

وصلت الحملة النرويجية إلى جزيرة صقلية جنوب إيطاليا - التي انتزعها النورمان من المسلمين عام (١٠٩٠م/ ٤٨٤هـ) - وقد استقبلت بالحفاوة وزودت من نصارى صقلية بالمؤنة الكافية لمواصلة سيرها إلى بلاد الشام، وصلت هذه الحملة الصليبية النرويجية إلى ميناء يافا في صيف عام

(١) وتكشف هذه الحادثة عن الطابع التنصيري في سياسة ذلك الملك النرويجي سيجورد شأنه في ذلك شأن غيره من ملوك الغرب الأوروبي في توسيع رقعة العالم النصراني Chistendom بزيادة عدد معتنقيها حتى بالوسائل القسرية، وليس بخاف أن الجانب التنصيري كان من أهم أهداف الحملات الصليبية قديماً وحديثاً من وقت شروع النصارى في الخروج من قارتهم الأوروبية ودخولهم إلى الحلبات الدولية.

(٢) الحروب الصليبية (دراسة تاريخية ونقدية)، ص ١٩، محمد مؤنس عوض.

(١١١٠م / ٥٠٤هـ) استقبلها ملك مملكة بيت المقدس الصليبية بلدوين الأول وتعمد الملك النرويجي سيجورد في مياه نهر الأردن[١].

ولا شك في أن هذه الحملة الصليبية النرويجية إحدى حلقات الدعم العسكري الأوروبي للوجود الصليبي في بلاد الشام.

فقد تمكنت هذه الحملة الصليبية النرويجية مع عساكر المملكة الصليبية في بيت المقدس من انتزاع بعض المدن والمراكز الساحلية في المنطقة، والتي لا تزال آنذاك تحت قبضة المسلمين ابتداءً من مدينة صيدا، وقد كسبت المملكة الصليبية في بيت المقدس غنائم ضخمة، ومكاسب كبيرة انتزعتها من أيدي المسلمين بفضل تلك الحملة الصليبية النرويجية، ووقوف البابا باسكال الثاني مع هذا التعاون الصليبي بعضه مع بعض في محيط إسلامي يتمتع بكثافة سكانية عالية ولكنهم في ذلك الوقت غُثاءٌ كغثاء السيل، فامتلكت تلك المملكة الصليبية رقعة شاسعة من الأرض، امتدت من بيروت حتى العريش الواقعة علىٰ حدود مصر باستثناء أقل القليل من المناطق التابعة للمسلمين كعسقلان وصور[٢].

وهذا الضعف الذي عاشه المسلمون في تلك الفترة زاد من أطماع الصليبيين في باقي بلاد الشام ثم مصر بطريقة كان لها أثرها الكبير علىٰ مسار الصراع الصليبي الإسلامي فيما بعد هذه الحملة الصليبية.

وهذه الحملة الصليبية النرويجية المدعومة من البابا باسكال الثاني حملة من سلسلة حملات صليبية قادمة من الغرب الصليبي إلى الأراضي المقدسة وما حولها وإلى بلاد الأندلس المسلمة في ذلك الوقت.

---

(١) حيث إن لمياه نهر الأردن قداسة عالية عند النصارى لعقيدتهم أن يوحنا المعمدان قد عمّد المسيح عيسى ﷺ بمياه ذلك النهر. انظر: متى ٣: ١٣ - ١٧.

(٢) انظر: الحروب الصليبية، دراسات تاريخية ونقدية، ص ٧ - ٤١، محمد مؤنس عوض، تاريخ الحروب الصليبية، ٢/ ١٥٠ - ١٥١، ستيفن رنسيمان.

وبعد أن اطمأن الغرب الصليبي وعلى رأسه البابوية على وضع النصارى في الشرق الإسلامي، والأراضي المقدسة بعد الحملة الصليبية الأولى، وما تبعها من حملات صغيرة متعاونة، ووجود الفرسان الصليبيين (الداوية، والتيتونية، والأسبتارية) في منطقة الأراضي المقدسة، ودفاعها عن الممتلكات الصليبية النصرانية هناك؛ اتجه الغرب الصليبي النصراني ليحل بثقله كله في المناطق الإسلامية في الأندلس ويهاجم المسلمين هناك.

وكذلك البابا كاليكستوس (كالكستس) الثاني (٢ شباط ١١١٩ - ١٣ كانون الأوّل ١١٢٤م)، والبابا إنّوشنتيوس (أنوسنت) الثاني (١٤ شباط ١١٣٠ - ٢٤ أيلول ١١٤٣م)، فقد أعلنا كما أعلن البابوات من قبلهم الحروب الصليبية ضد المسلمين في الأندلس. وأصبح في عهودهم من المألوف أن يأذنوا لملوك الإسبان استعمال أموال الكنائس لمحاربة المسلمين هناك، كما أن البعثات الصليبية الواردة من شمال أوروبا (إنجلترا وألمانيا وهولندا) أصبحت تُعين الإسبان في حروبهم ضد المسلمين في الأندلس.

فأصبحت الجيوش الصليبية النصرانية تتألف من جناحين، الجناح الأيمن متوجه إلى الأندلس المسلمة لقتال المسلمين هناك، وبهذا تعرضت الأندلس لغزو واستيطان من قبل جميع نصارى أوروبا، أما الجناح الأيسر للجيوش الصليبية النصرانية فكان متوجهاً لقتال المسلمين على امتداد البحر المتوسط والشام والأراضي المقدسة خاصة[1].

ومن أشهر ملوك النصارى الإسبان ألفونسو الأول ملك مملكة أرغون والذي كان يُسمى بـ (المحارب) (١١٠٤م - ١١٣٤م)، (٤٩٨هـ - ٥٢٨هـ)، الذي تكاتفت معه البابوية فقد حثت نصارى أوروبا لمساعدته في حروبه ضد المسلمين في الأندلس، فقد أسس هذا الملك الصليبي منظمات دينية عسكرية في مملكة أرغون قامت بنفس الدور الذي قامت به منظمات فرسان الداوية

(١) تاريخ الحروب الصليبية، ٢/ ٤٠١، ستيفن رنسيمان، حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة، ص ٦٦، د. جميل عبد الله المصري.

والاسبتارية في بلاد الشام[1].

أخذ ألفونسو (المحارب) من وقت أن كان ولي عهد لمملكة أرغون يشن حملاته العسكرية في جوف الأندلس، ثم شرق الأندلس وجنوبها، وذلك بمساعدة حملات صليبية من أوروبا وعلى عين البابوية، وبهذا تأثرت سياسة الملك ألفونسو الأول (المحارب) بالروح الصليبية الدينية، والتي هدفت إلى طرد المسلمين من بلاد الأندلس، والوصول إلى مملكته - خاصة - حتى ساحل البحر المتوسط، ثم قيادته لحملة صليبية متجهة إلى الأراضي المقدسة لمساعدة الممالك الصليبيين هناك، وأيضاً إرساله لحملة صليبية إلى جنوب فرنسا لحماية أملاك بعض الصليبين ومصالحهم أثناء غيابهم في الأراضي المقدسة[2] سقطت كثير من المدن الإسلامية في بلاد الأندلس في أيدي الصليبيين[3]، بعدما استتب لهم الأمر في بلاد الشام والأراضي المقدسة بعد انتصارهم على المسلمين في الحملة الصليبية الأولى وتكوينهم لممالكهم الصليبية في بلاد الشام.

---

(١) العلاقات الإسلامية المسيحية في إسبانيا (عهد الملك ألفونسو الأول)، ص ٧، د. نادية موسى صالح.
يقول المؤرخ ابن الأثير عن ألفونسو الأول: (كان أشد ملوك الفرنج بأسا، وأكثرهم تجردا لحرب المسلمين وأعظمهم صبرا)، الكامل في التاريخ،١١/ ٣٤، وعُرف الفونسو الأوّل في المصادر الإسلامية بابن ردمير، انظر: العلاقات الإسلاميّة المسيحيّة في إسبانيا، د. نادية موسى صالح، ص ٩.

(٢) العلاقات الإسلامية والمسيحية في إسبانيا (عهد الملك ألفونسو الأول) ص ١٠، د. نادية موسى صالح، أوروبا العصور الوسطى، الجزء الأول، التاريخ السياسي، ص ٥٤٩، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

(٣) فاستطاع الصليبيون أن يستولوا على طليطلة من أيدي المسلمين عام ١٠٨٥م في آخر عهد البابا جريجوري السابع. واستولوا على سرقسطة المسلمة عام ١١١٨م في عهد البابا باسكال الثاني، ومن نتائج سقوط سرقسطة انهيار كثير من المدن الإسلامية واستيلاء الصليبيين عليها من أهمها مدينة تطلية وطرسونه، وقد انهزم المرابطون المسلمون في معركة كتندة عام (١١٢٠م/ ٥١٤هـ)، وعلى إثر انتصار الصليبين بقيادة ألفونسو الأول (المحارب) سقطت مدن إسلامية كثيرة منها مدن كتندة ودروقه وقلعة أيوب وبعض المدن الواقعة على نهري شلون وشلوقة، وفي عهد البابا أنوسنت الثاني خاصة في عام ١١٣٢م شن الصليبيون حملات متواصلة على المسلمين في بلاد الأندلس المسلمة بلغت ذروتها في سنة ١١٤٧م في عهد البابا أوجانيوس الثالث أثناء استعداده للحملة الصليبية الثانية إلى بلاد الشام والأراضي المقدسة حتى وصلت إلى أبواب قرطبة المسلمة.
انظر: تاريخ الحروب الصليبية، ٢/ ٤٠١، ستيفن رنسيمان، أوروبا العصور الوسطى، الجزء الأول (التاريخ السياسي) ص ٥٤٥ - ٥٥٠، د. سعيد عبد الفتاح عاشور. وانظر بتوسع: العلاقات الإسلامية المسيحية في إسبانيا، الفصل الثالث والرابع (بالتفصيل)، د. نادية موسى صالح.

وبهذا لم تحل سنة ١١٤٥م وهي سنة وصول خبر فتح المسلمين لبعض المدن التي استولى عليها النصارى الصليبيون من أيدي المسلمين وعلى رأسها المملكة الصليبية في الرها إلى آذان البابا أوجانيوس الثالث (١٥ شباط ١١٤٥- ٨ تمّوز ١١٥٣م) حتى سارت الأمور على نحو يروق للصليبيين في بلاد الأندلس المسلمة[١].

تلك السنة ١١٤٥م، والتي تمكنت فيها الجيوش الصليبية من كثير من المدن الإسلامية في الأندلس هي السنة نفسها التي أزعجت الغرب الصليبي وعلى رأسها البابوية من وصول خبر أوضاعهم السيئة في بلاد المشرق الإسلامي حيث تمكن المجاهد المسلم عماد الدين زنكي من فتح المملكة الصليبية وإسقاطها في الرها وحصونهم المجاورة لها في عام (٥٣٩هـ/ ١١٤٤م)[٢].

(١) تاريخ الحروب الصليبية، ٢/ ٤٠٢، ستيفن رنسيمان، ترجمة: د. السيد الباز العريني.

(٢) الكامل في التاريخ، ٩/ ٣٣١، (أحداث سنة ٥٣٩هـ)، العلامة ابن الأثير الجزري.



الحملة الصليبية الثانية

دفع نبأ سقوط الرها - هي الآن مدينة أورفه التركيّة - البابا أوجانيوس الثالث إلى الدعوة إلى شن حملة صليبية جديدة[1]، فقد كانت أوّل إمارة أسسها الصليبيون في بلاد المسلمين، فجاء سقوطها إيذاناً بترنح البناء الصليبي في المنطقة الذي نجحت الحملة الصليبية الأولى في إقامته، لذلك أدركت البابوية أنها إن لم تسارع إلى ترميم ذلك البناء ومساندته فإنه لن يلبث أن ينهار[2]، غير أن الاستجابة لنداء البابا أوجانيوس الثالث من جهة الشعوب الأوروبية ابتداءً كانت مخيبة لآمال البابوية[3]؛ لأن سقوط مملكتهم في الرها أضعفت روحهم المعنوية في بداية الأمر فانهارت دعامة من دعائمهم الصليبية في المشرق الإسلامي فأفقدتهم الثقة في نفوسهم وبين صفوفهم[4]، وهذه الأمور السلبية التي وجدها البابا أوجانيوس الثالث في نفوس صليبّي الغرب جعلته ينشط في دعوته للحرب الصليبية ضد المسلمين وإذكاء الحقد والكراهية ضدهم في قلوب نصارى الغرب كافة.

عمد البابا إلى إرسال مبعوثيه في عموم أوروبا لإثارة حماسهم ومشاعرهم الصليبية ضد المسلمين، وكان الأبرز في مجال تلك الدعوة الأسقف برنارد أسقف دير كليرفو في فرنسا[5]، (وكان برنارد

---

(١) أوروبا والمسيحية، الجزء الثاني (المرحلة الصليبية) ص١١٣، يان دوبرا تشينسكي، الحروب الصليبيّة (صراع الشرق والغرب)، ص ٦٥، رنيه كروسيه.

(٢) الحركة الصليبية، ١/ ٤٨٥، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

(٣) الحرب المقدسة (الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم) ص ٢٥٣، كارين آرمسترونغ، تاريخ الحملات الصليبية ١/ ١٣٥، إتش. إ. ماير.

(٤) الجهاد ضد الصليبين في الشرق الإسلامي، ص ٢٣٨، مسفر بن سالم الغامدي.

(٥) مختصر تاريخ الكنيسة، ص ٢٦٥، أندرو ملر، تاريخ الحروب الصليبية، ٢/ ٤٠٦، ستيفن رنسيمان، نبلاء

رجلاً ذا نفوذ هائل وشهرة عظيمة، أخذ يجوب البلاد متنقلاً من مكان إلى مكان، مصوراً بكل ما أُوتي من فصاحة وبيان آلام المسيحيين في الشرق ورجاسات أعدائهم - أي المسلمين - في الأراضي المقدسة ذاكراً بعض الانتصارات التي حازتها جيوشهم هناك)[١].

وكان أول ما قام به أنه: (خاطب حشداً كبيراً من البارونات الفرنسيين في مدينة فيزيلية يوم ٣١ آذار / مارس ١١٤٦م، وأقنعهم بأن سقوط الرها ليس بكارثة، بل هو جزء من خطة الرب المقدَّرة، لا بل إن الرب سمح لزنكي أو حتى دفعه إلى الاستيلاء على الرها كي يمنح المسيحيين فرصة مذهلة، ولسوف يكون مع شعبه في حملته الصليبية الجديدة، التي هي تجل للحب الإلهي وأحد أعظم الأحداث شأناً في التاريخ الخلاصي، وعندما أنهى برنارد خطابه في حضور الملك (لويس السابع) في فيزيله حدثت جلبة مقدسة فخرّ الملك ساجداً على ركبتيه وتناول شارة الصليب وتبعه في ذلك حشد هائل جداً من كل طبقات المجتمع حتى إن المخزون من شارات الصليب الجاهزة نفذ بسرعة اضطر معه برنارد إلى تمزيق ردائه إلى شرائط ومناولتها للحشود الصاخبة)[٢].

ويقول رنسيمان في هذا التفاعل الصليبي لقتال المسلمين في ديارهم الإسلامية بعدما أنهى برنارد خطبته الشهيرة في فيزيليه الفرنسية: (ولم يلبث سامعوه أن وقعوا تحت سحر بيانه فأخذ الناس يصيحون طالبين الصلبان، إذ هتفوا (أعطونا الصلبان) ولم يمض إلاَّ وقت قصير حتى نفذ كل القماش الذي سبق إعداده، لتخاط منه الصلبان، وعندئذ خلع القديس برنارد أرديته الخارجية، وطلب تقطيعها وحياكتها صلباناً، وظل برنارد ومساعدوه حتى المساء، يخيطون الصلبان لأولئك

ودراويش (تاريخ الحروب الصليبية) ص ١٠٦، د. إسماعيل نوري الربيعي.

(١) مختصر تاريخ الكنيسة، ص ٢٦٥، أندور ملر.

(٢) وقد علّلت كارين آرمسترونغ هذا التفاعل مع خطاب برنارد: (أن في ذلك الوقت كان برنارد أقوى شخصية في أوروبا، فكان ملك فرنسا طوع بنانه، وكان البابا عضواً في أخويته الدينية، وقدرٌ كبير من قوته ونفوذه كان يُعزى في الواقع إلى فصاحته الكاريزمية، وقد كتب معاصر له يقول: إن مظهره الروحي ونحوله الشديد كانا كفيلين بإقناع جمهوره حتى قبل أن ينبس ببنت شفة). انظر: الحرب المقدسة (الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم)، ص ٢٥٣، كارين آرمسترونغ، ترجمة: سامي الكعكي.

الذين ازداد عددهم، والذين وطنوا أنفسهم على الاشتراك في الحرب الصليبية) [١].

وكان أول من استجاب لنداءات البابا أوجانيوس الثالث والأسقف برنارد هو ملك فرنسا لويس السابع وعدد كبير من أشراف مملكته [٢].

وطيلة أسابيع تلت يوم الحملة المشهور ٣١آذار / مارس ١١٤٦م تنقل الأسقف برنارد ومعه بعض رجالات البابوية معهم خطابات من البابا أوجانيوس الثالث إلى كل فرنسا وما استطاعوا أن يصلوا إليه من أرجاء أوروبا، وكان من أشهر أيام تطواف هذه الحملة البابوية لحث أوروبا على حملة صليبية جديدة منظمة ضد المسلمين في سنة ١١٤٦م، حيث انعقد مؤتمر لنبلاء الإمبراطورية الألمانية في سبيرا الألمانية، وكان الأسقف برنارد ومن معه في الحملة البابوية تلك موجودين في ذلك المؤتمر، فألقى الأسقف برنارد موعظة حماسية ألهبت مشاعر الحضور وخاصة الإمبراطور الألماني كونراد الثالث فقرر الاشتراك في تلك الحملة الصليبية، كما أقرت في الوقت ذاته حملة صليبية أخرى على المسلمين السلاف تلبية لرغبة أصحاب النفوذ الألمان [٣].

وبعد أن اتضحت معالم هذه الحملة الصليبية الجديدة من ناحية العدة والعتاد اجتمع البابا أوجانيوس الثالث بقادتها وجنودها وناشدهم عاداً إياهم أبناءه المخلصين في ولائهم للصليب أن يدافعوا عن الأرض التي ظفر بها الآباء الشجعان، وأنه يدعوهم بوصفهم مسيحيين للحرب من أجل الكنيسة في الشرق، لينالوا غفران الخطايا، ويعملوا على تعزيز مكانة النصرانية في العالم.

وقد ذهب هذا البابا في مسألة الغفران الكنسي للمشاركة في هذه الحملة الصليبية أبعد مما ذهب إليه سلفه أوروبان الثاني في الحملة الصليبية الأولى قبل خمسين سنة، وقد طمأن البابا أوجانيوس الثالث المشاركين في هذه الحملة الصليبية على المسلمين وأكد لهم حماية الكنيسة لزوجاتهم وأطفالهم وممتلكاتهم، كما قد تم إعفاء المشاركين في هذه الحملة من دفع فوائد عن الأموال التي اقترضوها

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية، ٢/ ٤٠٧، رنسيمان، ترجمة: د. السيد الباز العريني.

(٢) مختصر تاريخ الكنيسة، ص ٢٦٥، أندرو ملر.

(٣) أوروبا والمسيحية، المرحلة الصليبية ٢/ ١١٤، يان دوبرا تشينسكي، ترجمة: د. كبرو لحدو.

من قبل[1].

انطلقت الحملة الصليبية الثانية عام ١١٤٧م متجهة إلى المشرق الإسلامي، وهي تتألف من جيشين كبيرين أكثر جنودهما من أكبر ثلاث دول في الغرب الأوروبي (فرنسا وألمانيا وإيطاليا)، ويقودهما أكبر عاهلين في العالم الكاثوليكي؛ هما: كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا[2].

ثم تبعهم جيش صليبي ثالث أكثره من الجنود الإنجليز، وكان يتأهب للسير بحراً إلى فلسطين فغادرت السفن إنجلترا في السنة نفسها ١١٤٧م، واتجه هذا الجيش الإنجليزي إلى سواحل البرتغال لمساعدة ملك البرتغال ألفونسو هنري في قتاله ضد المسلمين، وفعلاً اشترك هذا الجيش مع الجيش البرتغالي، وبدؤوا حصار لشبونة العاصمة الإسلامية المحلية، فاستبسل المسلمون في الدفاع عن مدينتهم، ولم يستسلموا إلا بعد محاصرة دامت أربعة أشهر بشرط الإبقاء على حياة رجالها المسلمين وأمتعتهم، ولم يلبث الصليبيون أن نقضوا هذه الشروط وانغمسوا في إجراء مذبحة رهيبة بالمسلمين، وبعدها أصبحت لشبونة منذ ذلك الحين عاصمة المملكة البرتغالية الناشئة[3].

وكما أن الصليبيين الوافدين من إنجلترا وما جاورها ساهموا في قتال المسلمين وطردهم من لشبونة، فكذلك ساعد الصليبيون القادمون من فرنسا كونت برشلونة (وبروفانس ديموند برنجار) في قتاله ضد المسلمين، كما هي الحال في أغلب الحملات الصليبية التي تستطيع أن تجمع بين قتال المسلمين في الغرب وقتالهم في الشرق.

هذا في حين مدّ فرسان الداوية والاسبتارية نشاطهم إلى وادي نهر أبرو بإسبانيا فضلاً عن

---

(١) تاريخ الحملات الصليبية، ١/ ١٣٧ - ١٣٨، إتش. إ. ماير، تعريب: د. محمد فتحي الشاعر.

(٢) الحركة الصليبية، ١/ ٤٨٩، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، مختصر تاريخ الكنيسة، ص ٢٦٥، أندرو ملر.

(٣) تاريخ الحروب الصليبية، ٢/ ٤١٥ - ٤١٦، ستيفن رنسيمان، ترجمة: د. السيد الباز العريني، أوروبا العصور الوسطى، الجزء الأول، التاريخ السياسي، ص ٥٥٠، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

الشام، ولم تلبث هيئة الرهبان السسترشيان أن أقامت لها مركزاً سنة ١١٤٩م في إسبانيا حيث كونوا قوة حربية للدفاع عن مكتسباتهم الصليبية ضد أي هجمة إسلامية متوقعة هذه من جهة، ومن جهة أخرى القيام بهجمات ابتدائية ضد المدن والأقاليم الإسلامية [١].

وبعد أن أنهى الجيش الإنجليزي مهمته في مساعدة ملك البرتغال باستيلائه على مدينة لشبونة الإسلامية؛ واصل زحفه نحو فلسطين للحاق بالحملة الصليبية الثانية هناك.

أتت الحملة الصليبية الثانية إلى الشرق لاسترداد الرها من أيدي المسلمين، ولتثبيت دعائم الإمارات الصليبية وحصونها الباقية في الشرق، والتي ضُغطت من هجمات المسلمين عليها، خاصة من جهة عماد الدين زنكي، وولديه سيف الدين غازي، ونور الدين محمود.

ولكن هذه الحملة الصليبية باءت بالفشل فلم يكن المسلمون على الحالة نفسها التي كانوا عليها أثناء الحملة الصليبية الأولى قبل خمسين سنة - من سنة ١٠٩٩م إلى سنة ١١٤٨م - من وجود صراعات مذهبية وانشقاقات عسكرية، بل كانوا في حالة جيدة من الاستعداد لمواجهة أي حملة صليبية جديدة آتية من الغرب أو من الشرق، خاصة استعدادات القائد المسلم نور الدين محمود زنكي الذي كان في قمة حماسه الديني فعمل على توحيد المسلمين ضد النصارى الصليبيين، وكان يؤمن أن الوحدة في العقيدة هي أساس الوحدة السياسية؛ فاتخذ إجراءات صارمة ضد الشيعة، وشجع كل فكرة يمكن أن تساعد في العمل على النهوض بالمذهب السني وتعميقه [٢].

ففشلت هذه الحملة الصليبية الثانية وعجزت عن تحقيق أي هدف من أهدافها، يقول أندرو ملر: (إن تاريخ الحملة الصليبية الثانية في الأراضي المقدسة لهو أكثر إيلاماً وأشد خزياً، ففي عام ١١٤٩م رجع كونراد ولويس إلى أوروبا بأفراد قلائل من الجيش العرمرم الذي كان معهما، فما الذي حلّ بالآخرين؟ إن عظام هؤلاء المساكين كانت تُرى ملقاة على رمال الطرق والصحاري

(١) أوروبا العصور الوسطى، الجزء الأول، التاريخ السياسي، ص ٥٥٠، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

(٢) تاريخ الحملات الصليبية، ١/ ١٥٥، إتش. إ. ماير، تعريب: د. محمد فتحي الشاعر (بتصرف).

التي مروا فيها، فمليون من الأنفس البشرية ذهبت ضحية في بحر سنتين أو أقل، وارتفعت أصوات التذمر والحنق ضد برنارد بصفته الكاهن الذي كان السبب في هذه الحملة المشؤومة بواسطة وعظه ونبوءاته ومعجزاته»[1].

ويعد فشل الحملة الصليبية الثانية نقطة تحول في تاريخ الصليبيين في جزء مهم من بلاد المسلمين، إذ إن سقوط الرها أتم المرحلة الأولى في الإفاقة الإسلامية[2]، ثم تبعها الانهيار الكبير للصليبيين في هذه الحملة الفاشلة بالمقاييس كلها، فأدت إلى عكس النتائج التي رمت إليها، فانحطت هيبة الصليبيين ومكانتهم بالشام وازداد نفوذ المسلمين وارتفعت روحهم المعنوية، واتضح للمسلمين أن خشيتهم من الصليبيين ما كانت إلا أوهاماً كاذبة، وعلموا تماماً أن الصليبيين أضعف من أن يقوموا بجهد جدي ضدهم[3]، بشرط تجمعهم تحت راية الجهاد في سبيل الله وتوحيد صفوفهم من الناحية العقائدية والسياسية وهذا ما نجح فيه المجاهد المسلم نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي؛ لذا نجح رحمه الله في فتح ما تبقى في يد الصليبيين من إمارة الرها، وما حولها.

وفي سنة (٥٤٣هـ/ ١١٤٨م) التقى نور الدين محمود بجموع الصليبيين الذين كانوا يريدون قصد حلب والبلاد التابعة لها، فالتقى بهم بمكان اسمه (يغري) واقتتلوا قتالاً شديداً أجلت المعركة عن انهزام الصليبيين، وقتل كثير منهم، وأسر جماعة من مقدميهم، ولم ينج من الصليبيين إلا القليل، وأرسل من الغنيمة والأسارى إلى أخيه سيف الدين غازي بالموصل وإلى الخليفة

(١) مختصر تاريخ الكنيسة، ص ٢٦٥، أندور ملر.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية، ٢/ ٤٦٧، ستيفن رنسيمان، تعريب: د. السيد الباز العريني.

(٣) الحركة الصليبية، ١/ ٤٩٦، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

العباسي المقتفي لأمر الله والسلطان السلجوقي مسعود بن محمد بن ملكشاه[1]، ثم وجه جهوده نحو الإمارة الصليبية في أنطاكية وذلك في سنة (٥٤٤هـ/ ١١٤٩م)، وقد انتصر نور الدين على أمير أنطاكية ريموند في ٢٩ يونيه سنة ١١٤٩م وأوقع في الجيش الصليبي مقتلة عظيمة وقد كان من جملة القتلى ريموند نفسه وعلي بن وفا زعيم الباطنية الذي كان مرافقاً للصليبيين[2].

أمام هذا الفشل العريض الذي حلّ بالحملة الصليبية الثانية وانتصارات الجيش الإسلامي وفتحه لمعاقل الصليبيين اهتزت البابوية وكل الغرب الأوروبي، وهو ما حدا بالنصارى إساءة الظن بكل حركة صليبية، وترتب على ذلك أن ضاعت سدى جهود البابا أوجانيوس الثالث والأسقف برنارد في الإعداد لحملة صليبية جديدة سنة ١١٥٠م[3].

ومن أهم المنظمات الدينية العسكرية التي حث هذا البابا على تكوينها في إسبانيا لقتال المسلمين هي منظمة القديس جوليان في سنة ١١٥٢م، والتي تحول اسمها في عام ١٢١٨م إلى منظمة القنطرة بعد أن استولى الصليبيون في الأندلس على بلدة القنطرة الواقعة على نهر تاجه من أيدي المسلمين[4].

ومن الباباوات الذين كانت لهم جهود واضحة في حث الصليبيين على قتال المسلمين في الغرب

---

(١) مكان هذه المعركة المذلة للصليبيين اسمه (يغري) وقيل (بغراس)، وهي مدينة في لحف جبل اللكام بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ على يمين القاصد إلى أنطاكية من حلب، وقد أكثر الشعراء من مدح نور الدين على إثر هذه المعركة، ومما مُدح به قول الشاعر ابن القيسراني:

وكيف لا يثنى على عيشنا الـ	محمود والسلطان محمود
وصارم الإسلام لا ينثني	إلا وشلو الكفر مقدود
مكارم لم تك موجودة إلا	ونور الدين موجود
وكم له من وقعة يومها	عند الملوك الكفر مشهود

انظر: الكامل في التاريخ، ٩/ ٣٥٦، أحداث سنة (٥٤٣هـ) لابن الأثير، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، ص ٢٥٦، مسفر بن سالم الغامدي، الحركة الصليبية، ١/ ٤٩٦، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

(٢) الحركة الصليبية، ١/ ٤٩٧ - ٤٩٨، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

(٣) الحروب الصليبية، ص٧٧، أرنست باركر، ترجمة: د. السيد الباز العريني.

(٤) أوروبا العصور الوسطى، (التاريخ السياسي)، ١/ ٥٥٠، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

والشرق البابا إسكندر الثالث (٧ أيلول ١١٥٩- ٣٠ آب ١١٨١م)، والذي يعد من أطول باباوات روما اعتلاء لعرش البابوية، وكان هذا البابا - إسكندر الثالث - من أشد باباوات روما اهتماماً بالمنظمات الدينية العسكرية وتوجيهها لقتال المسلمين في الشرق والغرب؛ فقد اهتم اهتماماً خاصاً بالمنظمات الدينية العسكرية في الأراضي المقدسة، وعلى رأسها وأقواها الاسبتارية والداوية والتيوتونية.

كما نشأت في عهده منظمات دينية عسكرية في بلاد الأندلس الإسلامية لبث الرعب والقلق في قلوب المسلمين، ومن أخطر هذه المنظمات في قتال المسلمين هناك منظمة (سنتياجو) الذي وضع بذرتها البابا إسكندر الثالث، واشتد عودها وقويت في عهد البابا إنّوشنتيوس (إنوسنت) الثالث (٨ كانون الثاني ١١٩٨ - ١٦ تمّوز ١٢١٦م)[١].

ويرجع اهتمام البابويّة لإنشاء مثل هذه المنظمات الدينية العسكرية إلى ضمان ولائها الديني والسياسي الحربي لمقامها، وتوجهات بابواتها.

ولسوء علاقة البابا إسكندر الثالث مع الإمبراطور فردريك بربروسيا (الأول) فقد فشلت حملة أراد أن ينظمها في عام ١١٦٩م متجهة إلى فلسطين، وكانت هذه الحملة يعقد عليها النصارى في الأراضي المقدسة آمالاً عريضة لكبح جماح التقدم الإسلامي[٢].

إلاّ أنّ هناك شائعات انتشرت في فلسطين أن البابا إسكندر الثالث يعزم توجيه حملة صليبية إليها عام ١١٧٧م بقيادة لويس السابع ملك فرنسا وهنري الثاني ملك إنجلترا، غير أنه لم يصل إلى فلسطين في سبتمبر ١١٧٧م إلاّ أمير واحد من الغرب، هو فيليب فلاندر، ولكن كان معه عدد كبير من الأتباع، وكان مساعداً قوياً للصليبيين في قتالهم ضد المسلمين[٣].

---

(١) أوروبا العصور الوسطى، ١/ ٥٥٠، تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ص ٢٨٧، د. خاشع المعاضيدي.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية، ٣/ ٦٢٠، ستيفن رنسيمان: ترجمة د. السيد الباز العريني.

(٣) المرجع السابق، ٣/ ٦٦٨ - ٦٧١، ستيفن رنسيمان.

ومن أجرأ الهجمات الصليبية تلك التي قام بها مغامر فرنسي ذاع صيته في أنطاكية اسمه (رُنو دي شايتون)، فقد استطاع أن يتحكّم في الطريق الواصل بين سورية ومصر وذلك في عام ١١٨١م، كما أنّه في العام نفسه أغار على قافلة الحج المتوجهة إلى مكة وسلبها، ثم أنشأ أسطولاً بحرياً عام ١١٨٢م، هدف به أن يهجم على مكة والمدينة، فأجج بذلك العمل معاني السخط البالغ في ضمائر الأمة الإسلامية، فسارع إليه المجاهد المسلم صلاح الدين يوسف الأيوبي وألحق به خسائر فادحة، ثم انطلق فحاصر الصليبيين في إمارة الكرك والتي تقع إلى الجنوب الشرقي من البحر الميت وذلك في كانون الأول من عام ١١٨٤م[١].

وبهذا ضاقت الحال على الصليبيين في الشام بتكاتف المسلمين تحت قيادة القائد صلاح الدين، ففي السنة التي حاصر فيها صلاح الدين إمارة الكرك أرسل الصليبيون وفداً رفيع المستوى إلى أوروبا يتكون من هرقل بطريرك بيت المقدس، وأرنولد توروجا رئيس رهبان فرسان الداوية، وروجر مولين رئيس رهبان فرسان الاسبتارية؛ من أجل حشد القوى لمواجهة الظروف غير المواتية التي باتوا يعانونها، والخسائر المتلاحقة، التي صارت تواجههم، وقد تمكن الوفد من مقابلة البابا لوسيوس الثالث (١ أيلول ١١٨١ - ٢٥ تشرين الثاني ١١٨٥)، وشرحوا له الموقف المتدهور، وقابلوا أيضاً الإمبراطور الألماني فردريك بربروسا الأول ووعد الوفد بإرسال حملة صليبية لإنقاذ الصليبيين في الشام، إلا أن تفاقم المشكلات بين البابوية والإمبراطور حال دون إرسال تلك الحملة المقررة[٢].

وكانت القاضية التي خاف منها الصليبيون من أن تحل بهم، وقد حلّت، واهتزت لها أركان البابوية ذعراً وهلعاً والعالم الغربي الصليبي من ملوك وأمراء وشعوب ألا وهي انتصار القائد

(١) الحروب الصليبية (صراع الشرق والغرب)، ص٧٣، رنيه كروسيه، ترجمة: أحمد إيبش، الحروب الصليبية، ص ٨٢، أرنست باركر، ترجمة: د. السيد الباز العريني.

(٢) نبلاء ودراويش (تاريخ الحروب الصليبية)، ص١٢٣، د. إسماعيل نوري الربيعي، تاريخ الحملات الصليبية، ١/ ١٨٧، إتش. إ. ماير، تعريب: د. محمد فتحي الشاعر.

المسلم صلاح الدين يوسف الأيوبي في معركة حطين الشهيرة (ربيع الآخر ٥٨٣هـ / مايو ١١٨٧م) والتي مهدت للمسلمين التقدم بثبات نحو بيت المقدس واسترداده من أيدي الصليبيين، وكان دخول صلاح الدين فاتحاً منتصراً إلى بيت المقدس في السابع والعشرين من شهر رجب عام ٥٨٣هـ - الموافق لـ ١٢ أكتوبر من عام ١١٨٧م.

(كانت حطين أعظم من مجرد نصر حربي أحرزه المسلمون، لقد كانت في حقيقة أمرها بشيراً بنجاح المسلمين في القضاء على أكبر حركة استعمارية شهدها العالم في العصور الوسطى)[1].

وأيضاً فإن معركة حطين أزالت الرهبة التي صنعها الصليبيون لأنفسهم في قلوب المسلمين، فقد نتج عن هذه المعركة العظيمة أسر ملك الإمارة الصليبية لبيت المقدس جاي لوزجنان وأمير الكرك - الذي فشل في مهاجمة مكة والمدينة والذي كان يعترض قوافل الحجاج من جهة الطريق بين سورية ومصر، قتله صلاح الدين بيده بعد ما وقع في الأسر - ومقدم فرسان الداوية ومجموعة من فرسانه وكذلك مجموعة من فرسان الإستبارية، وكثر القتل والأسر في الصليبيين، فكان من يرى القتلى لا يظن أن المسلمين أسروا أحداً، ومن يرى الأسرى لا يظن أن المسلمين قتلوا أحداً[2].

ويرى بعض المؤرخين الغربيين أن صمود الإمارات الصليبية قرابة قرن من الزمان لم يكن وليد قوتها بقدر ما كان نتيجة ضعف القوى الإسلامية وتفككها في منطقة الشرق الأدنى وبخاصة في مصر والشام[3].

أوصل جوزياس رئيس أساقفة صور المبعوث الرسمي للصليبيين إلى البابا أروبان الثالث (٢٥ تشرين الثاني ١١٨٥ - ٢٠ تشرين الأوّل ١١٨٧م) خبر فتح القائد المسلم صلاح الدين بيت

---

(١) الحركة الصليبية، ٢/ ٦٣٧، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

(٢) الكامل في التاريخ، ١٠/ ١٤٨، أحداث سنة (٥٨٣هـ)، لابن الأثير الجزري.

(٣) الحركة الصليبية، ٢/ ٦٣٧، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

المقدس وإسقاطه المملكة الصليبية هناك[1]، فكان وقوع الخبر على البابا أوروبان الثالث كالصاعقة فمات كمداً في ٢٠ أكتوبر عام ١١٨٧م [2].

اعتلى عرش البابوية بعد أوروبان الثالث جريجوري الثامن ١١٨٧م، والذي توفي بعد شهرين من هذا التنصيب أي في ١٧ ديسمبر سنة ١١٨٧م وفي هذه الفترة الوجيزة من بابويته عمل جاهداً لجمع القوى الصليبية في العالم الغربي وحثها على غزو المسلمين في ديارهم والاستيلاء مرة أخرى على بيت المقدس.

فأرسل منشوره البابوي إلى حكام الغرب الأوروبي وشعوبهم يدعوهم إلى بذل الجهود كلها لإعداد حملة صليبية ثالثة متجهة إلى الأراضي المقدسة، وأعلن في هذا المنشور البابوي فرض هدنة بين حكام الغرب المتحاربين فيما بينهم ولمدة سبع سنين، ومنح الغفران لكل من يشارك في هذه الحملة الصليبية الجديدة، كما دعا النصارى جميعاً إلى صوم كل يوم جمعة لمدة خمس سنين، والامتناع عن تناول اللحم يومي الأربعاء والسبت، وفرض على نفسه وأهل بيته وجميع الكرادلة وأسرهم - زيادة على ما فرضه - صيام كل يوم إثنين[3].

ووزعت البابوية مع المنشور البابوي لبعث الروح الصليبية القتالية في نفوس نصارى الغرب لوحة كبيرة بها صورة مدينة بيت المقدس وكنيسة القيامة وفيها ما قالوا إنه قبر السيد المسيح، وصوروا عليه فرساً عليه فارس مسلم وقد وطئ هذا القبر، وكان رجال الكنيسة يحملون هذه الصورة وينادون بالويل فهاجت خلائق لا يحصى عددهم [4].

---

(١) أوروبا والمسيحية، (المرحلة الصليبية)، ٢/ ١٥١، يان دوبرا تشينسكي.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية، ٣/ ٢١، ستيفن رنسيمان.

(٣) تاريخ الحروب الصليبية، ٣/ ٢٢، ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٤٧، د. محمود سعيد عمران، أوروبا والمسيحية (المرحلة الصليبية) ٢/ ١٥١، يان دوبرا تشينسكي، نبلاء ودراويش (تاريخ الحروب الصليبية)، ص ١٢٤، د. إسماعيل نوري الربيعي.

(٤) تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٤٧، د. محمود سعيد عمران.



الحملة الصليبية الثالثة

توفي البابا جريجوري الثامن بعد توجيه هذا المنشور البابوي، فخلفه على البابوية إكليمنضوس (إكليمنت) الثالث في ٢٠ ديسمبر عام ١١٨٧م - ١١٩١م، قام البابا الجديد بنشاط ملحوظ لبث الروح الصليبية للدعوة إلى الحملة الجديدة، فأرسل رئيس أساقفة صور جوزياس إلى شمال الألب، وأرسل الكاردينال الألباني هنري للتوفيق بين ملك إنجلترا وملك فرنسا وتسوية الخلافات بينهما وحثهما على المشاركة في هذه الحملة الجديدة، ونجح في ذلك فأعلن الملكان انضمامهما للحملة الصليبية وسط ابتهاج شعبي وذلك في الحادي والعشرين من يناير عام ١١٨٨م، كما أن رئيس أساقفة كانتربري بلدوين قام بنشاط شُبّه بالنشاط الذي قام به برنارد في الحملة الصليبية الثانية، وفي ألمانيا كان الإقبال شعبياً للمشاركة في هذه الحملة، وأعلن الإمبراطور الألماني فردريك بربروسيا (الأول) في أبريل عام ١١٨٩م المشاركة في هذه الحملة الصليبية، وبهذا حظيت هذه الحملة الصليبية الثالثة بقيادات لم تتوافر لأي حملة أخرى - قبلها ولا بعدها - فقد خرج الإمبراطور الألماني فردريك الأول، والملك الفرنسي فيليب أوغسطس، والملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد في زعامة هذه الحملة(١).

ولكن نتائج هذه الحملة الصليبية الكبيرة كانت مخيبة لأمال البابوية والشعوب الصليبية من ورائها؛ فما استطاعت الاستيلاء على بيت المقدس، وأقصى ما نجحت فيه هو نزع عكا من أيدي المسلمين، وتقوية المدن الساحلية التي احتلها الصليبيون من قبل والممتدة من عكا إلى يافا، وقيام

---

(١) تاريخ الحملات الصليبية، ١/ ١٨٩، إتش. إ. ماير، تاريخ الحروب الصليبية ص ١٤٧ - ١٤٨، د. محمود سعيد عمران، مختصر تاريخ الكنيسة، ص٢٦٦، أندرو ملر، تاريخ الحروب الصليبية، ٣/ ٢٣، رنسيمان، أوروبا والمسيحية، ٢/ ١٥١، دوبرا تشينسكي.

هدنة بين الصليبيين والمسلمين لمدة ثلاث سنوات بوقف القتال فيما بينهم وأن يسمح للنصارى بزيارة بيت المقدس وللمسلمين استخدام الشريط الساحلي الواقع تحت سيطرة الصليبيين[1].

أدت نتائج الحملة الصليبية الثالثة الضئيلة إلى إقناع الإمبراطور الألماني هنري السادس (١١٩٠ - ١١٩٧م) للقيام بحملة صليبية جديدة، وتأكدت هذه المحاولات عندما استطاع هذا الإمبراطور فرض سيطرته على جنوب إيطاليا وصقلية عام ١١٩٤م في عهد البابا سلستين الثالث (١١٩١ - ١١٩٨م)، فتوجه جزء من قواته نحو صيدا وبيروت ليتم احتلالها في تشرين الأول/ أكتوبر ١١٩٧م، إلا أن وفاة الإمبراطور هنري السادس في ٢٨ سبتمبر ١١٩٧م أفشل هذه الحملة وعطلها[2].

وفي فترة تلك الأحداث الواقعة في الأرض المقدسة وما حولها كانت هناك مواجهات قوية في بلاد الأندلس المسلمة بين المسلمين والصليبيين، حيث إن الصراع بينهما دخل في مرحلة حساسة وحاسمة وقوية فلم يعد الصراع (مجرد حروب محلية متفرقة بين زعماء الفريقين، وإنما أصبح صراعاً عاماً شاملاً بين حضارتين متباينتين، وديانتين مختلفتين، ظلا يتقاسمان النفوذ ويتنازعان السيادة على ذلك الركن الجنوبي الغربي من أوروبا طوال عدة قرون)[3].

فهذا الخليفة الموحدي أبو يوسف يعقوب المنصور يواجه ملك البرتغال دون بيدرو ابن ألفونسو هنريكي ومن معه من أساطيل الصليبيين الألمان والإنجليز، فكان الصراع بين الجيش الإسلامي، والجيوش الصليبيّة سجالاً ولمدّة عامين (٥٨٥ - ٥٨٦هـ/ ١١٨٩م - ١١٩٠م)، حتى تمكّن المسلمون من وقف تقدّم جيوش النصارى غرب الأندلس في عام

---

(١) قصة الحضارة، ١٥ / ٤٦، ول ديورانت، مختصر تاريخ الكنيسة، ص ٢٦٦، أندرو ملر، موسوعة تاريخ العالم، ٢/ ٧٠٢، وليام لانجر.

(٢) نبلاء ودراويش (تاريخ الحروب الصليبية)، ص ١٢٨ ١٢٩، د. إسماعيل الربيعي، تاريخ الحروب الصليبية، ٣/ ١٧٧ ١٨٠، ستيفن رنسيمان، تاريخ أوروبا (العصور الوسطى) ص ٥٤٩، د. السيد الباز العريني، تاريخ الحملات الصليبية، ١/ ٢٠٥، إتش. إ. ماير.

(٣) أوروبا العصور الوسطى، الجزء الأول (التاريخ السياسي)، ص ٥٥١، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

٥٨٧هـ ١١٩١م[١].

هدأت الحروب في الأندلس بضعة أعوام بعد انتصار الخليفة الموحدي أبي يوسف على جيوش النصارى المشترك إلا أن الكنيسة في قشتالة في عام ١١٩٥م، وعلى رأسها أسقفها (مارتن دي بسيرجا) في طليطلة شرعت في زرع الحقد والبغض وتأجيج صدور النصارى الإسبان ضد المسلمين، وعمل هذه الأسقف على الإعداد لحملة صليبية كبيرة في الأندلس ضد المسلمين بالتنسيق مع القوة السياسية والعسكرية النصرانية الحاكمة في قشتالة وما حولها وعلى رأسهم الملك ألفونسو الثامن وبتأييد من البابا في روما سلستين الثالث.

توجهت هذه الحملة الصليبية لتدمير مدن المسلمين وقراهم وسبي المسلمين العزل رجالاً ونساءً وقتل قسم كبير منهم وزحفت هذه الحملة الصليبية إلى أقصى جنوب الأندلس وهم يتابعون العبث والتخريب.

وعندما تمكنت هذه الحملة الصليبية من بعض المدن الإسلامية أراد ملك قشتالة ألفونسو الثامن أن يستمر في حروبه مع المسلمين ويصل إلى أبعد من ذلك فطلب العون من ملكي ليون ونبارة، واستنفر ملوك المقاطعات الإسبانيّة، وكذلك باقي الدول الأوروبيّة، واستصرخ البابا في روما سلستين الثالث، فقدمت إليه جيوش من فرنسا وألمانيا وهولندا وغيرها من الديار الأوروبية يقودها فرسان ذوو خبرة عسكرية طويلة وتجربة ماهرة في الحروب ضد المسلمين حتى قُدِّرت القوات الأوروبية بـ (مئة وخمسين ألف جندي).

في هذا التجمع الصليبي النصراني المخيف على وضع المسلمين في الأندلس تأهب أبو يوسف يعقوب المنصور لملاقاة هذه الجيوش الصليبية دفاعاً عن المسلمين فدوت صيحات الجهاد الإسلامي في بلاد الأندلس الإسلامية وفي أنحاء المغرب جميعها من مدينة سلا على المحيط

---

(١) الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود، ص ٢٦٣، د. عصام محمد شبارو، موقعة الأرك، ص ٤٨، د. شوقي أبو خليل، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص ٢٨٧، د. خليل إبراهيم السامرائي وآخرون.

الأطلسي حتى برقة شرقاً على حدود مصر؛ ضد النصارى الذين غدوا خطراً على الإسلام، وزادت الحميةَ الإسلامية لمقابلة الصليبيين النصارى الأخبارُ التي وصلت من الأراضي المقدسة عن سلسلة انتصارات صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين، فأحيت هذه الأخبار قلوب المسلمين في الأندلس والمغرب وطهرت قلوبهم وتعلقوا بالشهادة في سبيل الله.

قاد أمير الموحدين أبو يوسف المنصور هذا الجيش الإسلامي لمواجهة الجيوش الصليبية النصرانية وهو يعلم أن الجيوش الصليبية تفوق جيشه بثلاثة أضعاف ولكن حب رفع راية الإسلام عالية والدفاع عن المسلمين وأعراضهم ألغت كل هواجس الخوف من كثرة الأعداء؛ فقابلهم في موقع يسمى (الأرك) وهو حصن على بعد عشرين كيلو متر إلى الشمال الغربي من قلعة مشهورة تسمى (رباح) وهي نقطة الحدود بين قشتالة والأندلس، وفي صباح يوم التاسع من شعبان عام (٥٩١هـ/ ٨ يوليه ١١٩٥م) كانت موقعة الأرك الفاصلة والحاسمة بين الجيش الإسلامي والجيوش الصليبية انتصر فيها الموحدون المسلمون على النصارى الصليبيين وألحقوا بهم هزيمة منكرة ذكرتهم بمعركة حطين على أرض فلسطين وعاد أبو يوسف المنصور إلى إشبيلية، فدخلها دخول الفاتحين يوم الأحد السابع والعشرين من شعبان عام (٥٩١هـ/ ١١٩٥م)، وهذا ما شجعه في أوائل سنة (٥٩٢هـ/ ١١٩٦م) بغزوة جديدة في قلب الأراضي النصرانية، فانطلق فاتحاً عدة حصون وقلاع، حتى وصل إلى أبواب طليطلة عاصمة مملكة قشتالة فتحصّن ألفونسو وجيشه بعاصمته ولم يجرؤ أن يحارب المسلمين في ميدان مكشوف نظراً لهبوط معنويات جنده بعد موقعة الأرك، واستطاع القائد المجاهد الموحدي أبو يوسف يعقوب المنصور أن يفرق بين ممالك النصارى بعقد أحلاف معها وهو ما اضطر ملك قشتالة ألفونسو الثامن إلى طلب هدنة مع المسلمين ولمدة عشر سنوات[1].

---

(١) تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي، ص ٣٧٤ - ٣٨٣، د. علي محمد الصلابي، الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود، ص ٢٦٢ - ٢٦٦، د. عصام محمد شبارو، موقعة الأرك ص ٤٨ - ٦٧، د. شوقي أبو خليل، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص ٢٨٦ - ٢٨٨، د. خليل إبراهيم السامرائي وآخرون، أوروبا العصور الوسطى، ١/ ٥٥١، التاريخ السياسي، د.سعيد عبد الفتاح عاشور.

وهذه الهزائم المتتالية التي لحقت بالصليبيين في المشرق والمغرب على أيدي المسلمين ابتداء من موقعة حطين في عام (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) ومروراً بفشل الحملة الصليبية الثالثة الضخمة والتي اشترك فيها ملوك النصارى الكبار (الإيطالي والفرنسي والإنكليزي) عام (١١٨٩ - ١١٩٢م) والتي لم تف بآمال البابوية، وكذلك فشل الحملة الصليبية التي قام بها الإمبراطور الألماني هنري السادس عام ١١٩٧م، والهزائم المتتالية للصليبيين في الأندلس وعلى رأسها هزيمتهم في موقعة الأرك عام (٥٩١هـ/ ١١٩٥م)، وخضوع ملحوظ لملوك النصارى في الأندلس لدولة الموحدين خاصة ما بين سنتي (١١٩٥- ١١٩٨م)؛ هذا كله أشعل نار القهر والعداوة والحقد في قلب البابوية وكنائسها والشعوب الصليبية على الأمة الإسلامية.

في ذلك الوقت المشحون بالعداوة لكل ما هو إسلامي اعتلى العرش البابوي إنّوشنتيوس (انوسنت) الثالث (٨ كانون الثاني ١١٩٨ - ١٦ تموز ١٢١٦م)، وهو يحمل في قلبه كل الكره والعداوة للمسلمين في كل مكان.

(كان أنوسنت صليبياً متعصباً، شرع بالتخطيط لحملة صليبية جديدة بغية الاستيلاء مرة أخرى على بيت المقدس من أيدي المسلمين)[1].

كما كان له الريادة في إثارة حماسة الصليبيين في الأندلس المسلمة بعد خفوتها في قلوب النصارى هناك بسبب انتصارات المسلمين عليهم، وقد شجع أنوسنت الثالث جماعات عديدة من الدول الغربيّة للمشاركة في الحروب ضد المسلمين في الأندلس، كما كان له الفضل في تقوية أشهر منظمة دينية حربية واجهت المسلمين في الأندلس وهي منظمة (سنتياجو)، كما أنه عمل على تقوية الطابع الديني الصليبي للحروب في الأندلس وجعلها لا تقل أهمية في نظر الغربيين الأوروبيين عن الحروب الصليبية في الأراضي المقدسة في المشرق[2].

---

(١) الحروب المقدسة، ص ٤٥٥، كارين آرمسترونغ، ترجمة: سامي الكعكي.

(٢) أوروبا العصور الوسطى، ١/ ٥٥٠، ٥٥١، التاريخ السياسي، د. سعيد عبد الفتاح عاشور. تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ص ٢٨٧، د. خاشع المعاضيدي وآخرين.

(فانوسنت الثالث، طوال بابويته الحافلة بالأحداث جعل الحرب الصليبية هدفه الأساسي وحاول أن يعيد لها ما اشتهرت به من قبل من أساس ديني وأن يخضعها لإشراف البابا وتوجيهه)[1].

فبابا روما أنوسنت الثالث يعد من أشهر المتعصبين لديانته النصرانية وأبغضهم كرهاً ومقتاً للإسلام والمسلمين[2].

وعندما انتخب أنوسنت الثالث بابا في عام ١١٩٨م اتخذ من قوة الكرسي البابوي منعطفاً مصيرياً وكان هذا المنعطف هو إلزام النصارى جميعهم بالحرب ضد المسلمين باسم المسيح عليه السلام، وعد ذلك واجباً، وأنه من على كرسيه البابوي سيوجه هذه المعارك ضد الإسلام والمسلمين في المشرق والمغرب، وعد جميع ملوك أوروبا رجالاً تابعين للكرسي البابوي فقط؛ حيث جعل نفسه الرئيس الأعلى والأب الروحي الديني والدنيوي للنصارى في ذلك العصر[3].

أول عمل قام به أنوسنت الثالث لمقابلة المسلمين في المشرق والمغرب أنه سوى مشكلات الممالك الأوروبية كافة ليسودها السلام كي يتمكن من تسخير القوى الأوروبية كافة في مواجهة المسلمين؛ ليمحوا عن الصليبيين آثار هزيمتهم في معركة حطين في بيت المقدس وفي معركة الأرك في الأندلس، فأرسل كتاباً إلى نصارى البندقية يطلب منهم أن لا يبيعوا أو يتبادلوا مع المسلمين المواد الاستراتيجية كالسفن والسلاح والحديد وغير ذلك من المواد ذات التأثير الفعال في الحروب وإلاّ تعرضوا لغضب الكنيسة وتوقيع أشد العقاب عليهم[4].

كما أنه كتب في عام ١١٩٩م إلى بطريرك بيت المقدس (إيمار موناكو) يطلب منه تقريراً مفصلاً

---

(١) الحروب الصليبية، ص ٩٦، أرنست باركر، ترجمة: الدكتور السيد الباز العريني.

(٢) تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، السياسة الصليبية للبابا أنوسنت الثالث، ص ٦، د. عبد اللطيف عبد الهادي السيد.

(٣) مفاتيح أورشليم القدس (حملتان صليبيتان على مصر)، ص ٥٠ ٥١، ريمون ستانبلوي.

(٤) تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٠٥ - ٢٠٦، د. محمود سعيد عمران.

عن الحالة في بلاد الشام مع تدعيم هذا التقرير بالبيانات كافة التي تتعلق بالحكام المسلمين وطبيعة العلاقات بين بعضهم، كما طلب الشيء نفسه في عام ١٢١٣م من الداوية والاسبتارية، ويبدو أن هذه التقارير كانت ترسل إليه من آن لآخر، وتشتمل هذه التقارير على معلومات على جانب كبير من الأهمية تضمنت النواحي السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والعسكرية الخاصة بالمسلمين[١].

ثم إن أنوسنت الثالث أمر بإرسال الجنود والمغامرين من جميع الفئات المحكوم عليهم في جرائم حرب إلى الأراضي المقدسة، وشجعهم على نهب وسرقة كل ما هو نفيس من المسلمين، ووعد بمنحهم البركات ودخول الجنة إن قاموا بأعمال النهب والسرقة والإغارة على المسلمين[٢].

واستعمل بصورة واضحة الأساقفة والديريين وكبار رجال الكنيسة في تحريك الشعوب الأوروبية ضد المسلمين، كما أنه اهتم بضمان وقوف المدن التجارية الكبرى كجنوى والبندقية وبيزة إلى جانبه وفي خدمة دعواه، ومع أنه كان يرفض الاعتراف بمكانة العلمانيين الكبار من رجال السياسة إلا أنه لم يستطع أن يتجاهل ضرورة مساهمتهم المالية في الحملة الصليبية الرابعة والحملات الأخرى التي ينوي إنشاءها، كما أنه أعلن أنَّه هو وكرادلته وكوادره الكهنوتية سوف يدفعون العُشر من دخولهم في سبيل تجهيز تلك الحملات الصليبية، ويلاحظ أن هذه هي أول ضريبة مالية رسمية في تاريخ الكنيسة[٣].

---

(١) والجانب الخطير في هذه التقارير هو الجانب العسكري، فتحدث عن بعض البلدان المصرية والمسافة بين بعضها، ومما تناولته هذه التقارير مدينة دمياط بالتفصيل عن عدد أبراجها وأسوارها وبرج السلسلة وكيفية دخول السفن إلى دمياط التي كانت مفتاح مصر آنذاك. انظر: المرجع السابق، ص ٢٠٦، د. محمود عمران.

(٢) مفاتيح أورشليم القدس (حملتان صليبيتان على مصر)، ص ٥١، ريمون ستانبلوي.

(٣) في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب (السياسة الصليبية للبابا أنوسنت الثالث) ص ١٤ ١٥، د. عبد اللطيف عبد الهادي السيد.



الحملة الصليبية الرابعة

ولم يكد يحل ربيع سنة ١٢٠٠م حتى تم الإعداد لحملة صليبية جديدة، وتركز الإعداد الكبير في فرنسا؛ لذلك تعد الحملة الصليبية الرابعة كالحملة الصليبية الأولى حملة فرنسية في معظمها فأعضاؤها البارزون من الأمراء الفرنسيين[١].

وأشهر دعاة هذه الحملة الصليبية من الوعاظ: فولك نيللي الرحّالة الذي طالما سعى لإثارة حرب صليبية وهو أكبر مبشر للبابا في فرنسا، وكذلك مارتن رئيس دير بايريس كان له الأثر الأكبر في ألمانيا، كما كان لأسقف أوتون وأسقف هالبرشتات أثر كبير في إثارة الحماسة الصليبية ضد المسلمين في شمال إيطاليا ثم الأراضي المنخفضة (هولندا)[٢].

وقلد البابا أنوسنت الثالث إمرة هذه الحملة الصليبية رجلاً يدعى بونيفاس دومونفرا، وهذا الرجل من عائلة صليبية حاقدة على المسلمين، فأبوه كان قد استقر في بيت المقدس في آخر أيامه وكانت له جهود صليبية ضد المسلمين، وأخوه وليم كان مربياً لملك بيت المقدس الصغير بالدوين الخامس، وأخوه الآخر كونراد قاد المقاومة الصليبية في مدينة صور بعد هزيمة الصليبيين في موقعة حطين[٣].

وبعد مداولات بين أمراء الحملة وقاداتها مع البابا أنوسنت الثالث اقتنعوا جميعاً أن يتجهوا بها إلى مصر أولاً ثم بيت المقدس بعد ذلك، واختارت هذه الحملة أن تتوجه إلى مصر أخذاً برأي الملك ريتشارد قلب الأسد الإنجليزي وملك بيت المقدس الأسبق قبل سقوطها في معركة حطين،

---

(١) الحروب الصليبية، ص ٩٦، أرنست باركر، ترجمة: الدكتور السيد الباز العريني.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية، ٣/ ١٩٩ ٢٠٠، ستيفن رنسيمان، ترجمة: الدكتور السيد الباز العريني.

(٣) الحرب المقدسة، ص ٤٥٦، كارين آرمسترونغ، ترجمة: سامي الكعكي.

حيث إنهما عدّا أن مصر مركز المقاومة الحقيقي ضد الصليبيين بالشام والمخزن الكبير الذي استمد منه الأيوبيون مواردهم البشرية والمادية في محاربة الصليبيين، هذا فضلاً عن أن إعادة توحيد الدولة الأيوبية تحت زعامة الملك العادل الأيوبي جعل من الخطورة على الصليبيين أن يتوجهوا نحو حصار بيت المقدس، فيعرّضوا أنفسهم للوقوع بين فكي الكماشة، أي بين قوات العادل التي تخرج من مصر وتلك التي تنفذ من دمشق[1].

على أن مهاجمة مصر لابد من توجيهها عن طريق البحر، وذلك لأن سوريا كانت بأيدي المسلمين، ومن ثم تعد الحملة الصليبية الرابعة حملة بحرية، شأنها في ذلك شأن الحملة الصليبية الثالثة[2].

ولكن هذه الحملة الصليبية انحرفت وجهتها من مصر إلى القسطنطينية؛ وذلك بسبب ثورة نشبت في القسطنطينية أطاحت بالإمبراطور إسحاق الثاني فلجأ ابنه إلكسيوس إلى الغرب طالباً المساعدة من البابا أنوسنت الثالث وإعادته إلى عرش أبيه عارضاً في مقابل ذلك إخضاع الكنيسة الشرقية للبابوية وتقديم عشرة آلاف جندي للمساهمة في حملتهم على مصر ومن ثم بيت المقدس.

وقد لقيت مهاجمة بيزنطة (القسطنطينية) التأييد من معظم كبار المسؤولين الأوروبيين وفي مقدمتهم البابا أنوسنت الثالث نفسه على هذا المشروع طالما أنه يحقق فكرة البابوية العالمية في توحيد الكنيستين الشرقية والغربية تحت سيادة الكرسي البابوي الكاثوليكي في روما بعد قطيعة بينهما من سنة ١٠٥٤م[3].

---

(١) الحركة الصليبية، ٢/ ٧٣٤، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، ص ١٨١، د. علي عبد الحليم محمود، موسوعة التاريخ الإسلامي، ٥/ ٧٦٦، د. أحمد شلبي.

(٢) الحروب الصليبية، ص ٩٧، ارسنت باركر، ترجمة: الدكتور السيد الباز العريني.

(٣) تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢١٦ - ٢١٧، د. محمود سعيد عمران، الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، ص ١٨١، د. علي عبد الحليم محمود.

اتجهت الحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية واستولت عليها في الثالث عشر من إبريل عام ١٢٠٤م، وقامت بتخريبها والعدوان على أهلها ونهبها، حتى قيل: (ليس لنهب القسطنطينية مثيل في التاريخ)[١].

وتمنى في وقتها النصارى البيزنطيون أن لو كانت القسطنطينية قد وقعت في أيدي المسلمين، ولم تقع في أيدي النصارى الغربيين[٢].

كتب الإمبراطور الروماني اللاتيني الجالس على العرش البيزنطي (بلدوين فلاندر) إلى البابا أنوسنت الثالث يعلمه بفتح القسطنطينية وبارتقائه عرشها ويؤكد خضوعه للسدة البابوية في روما[٣].

وبهذا صارت هذه الحملة الصليبية الموجهة أصلاً إلى بلاد المسلمين للاستيلاء على بيت المقدس، عنواناً لزوال الإمبراطورية البيزنطية، وأضيفت كإحدى الإمارات إلى ما بيد الصليبيين في الشام وبقوا فيها أكثر من نصف قرن (١٢٠٤ـ ١٢٦١م)؛ وبهذا أصبحت كراهية النصارى الأرثوذكس اليونانيين للنصارى اللاتين الكاثوليك عنصراً جوهرياً في الوعي الوطني البيزنطي الأرثوذكسي.

ولهذا فضل كثير من الأرثوذكس اليونانيين الخضوع للمسلمين الأتراك لما يجدونه عند المسلمين من تسامح وحرية في ممارسة شعائرهم النصرانية من أن يخضعوا للنصارى الكاثوليك[٤].

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية، ٣/ ٢٢٢، ستيفن رنسيمان، ترجمة: الدكتور السيد الباز العريني.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢١٧، د. محمود سعيد عمران، الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، ص ١٨١، د. علي عبد الحليم محمود، أوروبا والمسيحية، ٢/ ١٧٧، (المرحلة الصليبية) يان دوبرا تشنسكي.

(٣) الروم وصلاتهم بالعرب، ٢/ ١٨٠، د. أسد رستم.

(٤) أوروبا وفلسطين (من الحروب الصليبية حتى اليوم)، ص ٤٨، الدكتور بشارة خضر، موسوعة تاريخ الحروب الصليبية، ص ٨٦، د. مفيد الزايدي.
يقول ستيفن رنسيمان: (وفي تلك الأثناء انغرست بذور الكراهية بين العالمين المسيحي في الشرق والغرب. فما كان لدى البابا أنوسنت من آمال رائعة، وما ادعاه الصليبيون من مفاخرات خادعة بأنهم أنهوا الانشقاق، ووحدوا الكنيستين كل ذلك لم يتحقق... إن الحركة الصليبية زادت في مرارة العلاقات بينهما). تاريخ الحروب الصليبية، ٣/ ٢٣٥، ترجمة: الدكتور السيد الباز العريني.

لم يستفد البابا أنوسنت الثالث من هذه الحملة في حروبه ضد المسلمين والاستيلاء على بيت المقدس من أيديهم، فبدأت فكرة التجهيز لحملة صليبية خاصة متجهة إلى بيت المقدس تراوده منذ عام ١٢٠٨م[١].

وكان هذا البابا يُحرِّض الصليبيين في الشام لقتال المسلمين إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً؛ فلم تنقطع المناوشات والحروب الصغيرة بين الصليبيين والمسلمين في تلك الفترة، فكان الفرسان الأسبتارية يقومون بهجمات متكررة على مدينة حمص خاصة بين سنتي (١٢٠٤ـ١٢٠٥م)، حتى استطاع الملك العادل الأيوبي في ردّ تلك الهجمات الصليبية على مدينة حمص وأوقفها وذلك في عام (١٢٠٧م / ٦٠٤هـ)[٢].

كما استولى بعض قراصنة الصليبيين من قبرص على عدة سفن مصرية وأسروا ما فيها فغضب الملك العادل الأيوبي فخرج إليهم ورد ما اغتصبوه وذلك في سنة (١٢٠٧م - ٦٠٤هـ)، ثم هدد مملكة الصليبيين في عكا وطرابلس وكثرت مناوشاته ضدهم، فطلب الوصي على مملكة الصليبيين في عكا بوهيمند الرابع صاحب طرابلس من العادل الأيوبي الصلح لمدة ست سنوات (١٢١١ - ١٢١٧م) فوافق العادل الأيوبي على هذه الهدنة.

على أنّ حنا دي إبلين قد عمل على ألاّ يُضيِّع سنوات الهدنة مع المسلمين سدى وإنما أخذ يعمل على تصفية مشكلات الصليبيين الداخلية، ويُمنّيهم بمشروعه لغزو مصر، كما أنّه أرسل الرسل إلى البابا أنوسنت الثالث يطلب منه إعداد حملة جديدة بحيث تصل إلى الشرق عند انتهاء الهدنة[٣].

---

(١) الحروب الصليبية، ص ١٠٤، أرنست باركر، ترجمة: الدكتور السيد الباز العريني.

(٢) الحركة الصليبية، ٢/ ٧٤٥ - ٧٤٦، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، ص ١٨٣، د. علي عبد الحليم محمود.

(٣) الحركة الصليبية، ٢/ ٧٤٥ - ٧٥٢، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، ص ١٨٢، ١٨٣، د. علي عبد الحليم محمود.

حملة الأطفال:

في تلك الفترة قامت الدعوة إلى حملة صليبية في الغرب عام ١٢١٢م، وهذه الحملة تعد من أغرب الحملات التي شهدها تاريخ الحركة الصليبية، وهي (حملة الأطفال) أو (حملة الصبيان) ولا شك أنّ هذه الحملة الغربية تُبيّن بوضوح إلى أيِّ مدى وصلت الكراهية والحقد عند الغرب ضد المسلمين، فالتأجيج الديني الصليبي الذي استخدمته البابوية ضد الإسلام والمسلمين قد عمّ أوروبا كلها، وأثّر على فئات المجتمع الغربي على اختلاف طبقاته وأعماره.

وتتلخص هذه الحملة في أن غلاماً يدعى ستيفان في الثانية عشرة من عمره من فندوم الفرنسية، قال: إنّ المسيح قد جاءه في رؤيا وكلّفه بحمل الصليب إلى الأرض المقدسة، وكان لأقواله الغريبة تأثير على طبقة الأولاد من عمره في أعظم نواحي أوروبا، فاجتمع حوله العدد الكبير منهم بلغ الثلاثين ألفاً من الأطفال تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثانية عشرة، وزاد هذا العدد إلى أن وصل إلى التسعين ألفاً، وأخذوا يسيرون إلى فلسطين متوقعين أنهم سيقهرون المسلمين بترتيل الأناشيد وترديد الصلوات.

ولكن سرعان ما تلاشت وحدة هذه المجموعة بعد وقت قصير من خروجها من فندوم الفرنسية، فمات كثير منهم جوعاً وتعباً، وآخرون منهم ذهبوا ضحية لغدر أصحاب السفن من أبناء دينهم النصارى الذين وعدوهم بتوصيلهم إلى شواطئ فلسطين خاصة تجار مرسيليا الفرنسية فنُقل باقي الصبية على متن سبع سفن انطلاقاً من مرسيليا، وبعد مرور سنة شاع في أوروبا خبر غرق اثنتين من السفن، بينما تم بيع بقية الصبية في أسواق النخاسة في مصر والجزائر وباقي دول شمال إفريقيا[1].

يقول أندرو ملر: (هكذا كان هوس ذلك الزمان وجنونه، حتى أنّه بدلاً من منع تلك الحركة

---

(١) أوروبا والمسيحية، ٢/ ١٩٧، (المرحلة الصليبية)، يان دوبرا تشينسكي، ترجمة: د. كبرو لحدو، مختصر تاريخ الكنيسة، ص ٢٦٧، أندرو ملر، الحركة الصليبية، ٢/ ٧٥٣، ٧٥٤، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، نبلاء ودراويش (تاريخ الحروب الصليبية)، ص ١٤٤، ١٤٥، د. إسماعيل نوري الربيعي.

أعلن البابا أن غَيرة هؤلاء الغلمان أخجلت برود الآباء وجمودهم)[1].

ثم إن البابا أنوسنت الثالث بدأ دعوته لطلب انعقاد المجمع الكنسي المسكوني الثاني عشر (اللاتيراني الرابع ١١ - ٣٠ تشرين الثاني ١٢١٥م) مزامنة مع طلبه الإعلان عن حملة صليبية جديدة متجهة إلى الأراضي المقدسة ومصر، وكانت تلك الدعوات في عام ١٢١٣م[2].

استمرت بذلك دعاية البابا أنوسنت الثالث المعادية للإسلام، وهذه المرة من خلال تركيزه على حث جهود العامة من الناس، واستنهاض الهمم للمشاركة في الحملة الصليبية، داعياً فيها النصارى جميعهم من مختلف الفئات والطبقات، حتى إنه لم يتورع عن استخدام الخرافة والادعاء بأن الإسلام سينتهي في غضون سنوات قليلة مُحرِّفاً بعض نبوءات العهد القديم[3].

افتتح المجمع المسكوني اللاتيراني الرابع في أواخر سنة ١٢١٥م بعدد ضخم من المشتركين من أساقفة ورؤساء أديرة، تحدث البابا أنوسنت الثالث في الجلسة الأولى عن أحوال النصارى في بيت المقدس وتمكّن المسلمين منهم، ثم نهض بعده بطريرك بيت المقدس يتكلم عن ضرورة تدخل جيش صليبي قوي لكسر شوكة المسلمين، وبعد كلمته بادر المجتمعون في المجمع إلى تأكيد ضرورة إرسال حملة صليبية إلى بلاد المقدس، والتأكيد من جديد على ما يُبذل للصليبيين من حقوق وامتيازات، وإلى تدبير تمويل الحملة، ورأوا أن الأفضل أن تجتمع الحملة في صقلية كيما تبحر إلى الشرق في أول يونيه سنة ١٢١٧م، وتكون الوجهة مباشرة إلى مصر فهي بوابة بلاد المقدس[4].

ولكي يضمن البابا أنوسنت الثالث تنفيذ هذه القرارات، وقيام الحملة في الموعد المحدد؛ قام بإرسال الدعاة والمبشرين للدعوة إليها في أرجاء أوروبا كافة، فبرز في فرنسا الأسقف جاك

---

(١) مختصر تاريخ الكنيسة، ص ٢٦٧، أندرو ملر.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٢٧، د. محمود سعيد عمران.

(٣) نبلاء ودراويش (تاريخ الحملة الصليبية)، ص ١٤٥، د. إسماعيل نوري الربيعي.

(٤) تاريخ الحروب الصليبية، ٣/ ٢٥٧، ستيفن رنسيمان، أوروبا والمسيحية، ٢/ ١٩٣، يان دوبرا تشينسكي، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٢٧ - ٢٣٠، د. محمود سعيد عمران.

دي فتري الذي يعد أشهر من قام بالدعوة للحملة، حتى عيّنه البابا أسقفاً لمدينة عكا في عام ١٢١٦م، وخلفه في فرنسا سيمون أسقف مدينة صور سابقاً، كما شارك في الدعوة إلى الحملة في فرنسا الكاردينال جريفاس والذي ركّز جهوده في طبقة البارونات الفرنسيين، ودعوة ملك فرنسا فيليب أوغسطس وابنه لويس، كما أن رئيس الآباء الدومينيكان شارك بنفسه للدعوة إلى هذه الحملة الصليبية، وبرز في ألمانيا بعض الأساقفة ورؤساء الأديرة، وكان أعظمهم جهداً أسقف بادبنورن بألمانيا الأسقف أوليفر سكولاستك، فأعجب البابا بجهده فعيّنه كاتباً للمندوب البابوي في الحملة، وقام ستيفن لانجتون رئيس أساقفة كانتربري في إنجلترا بجهود كبيرة في تعبئة الشعب الإنجليزي للمشاركة في هذه الحملة، كما طاف الدعاة والوعّاظ أوروبا كلها لحث الشعوب النصرانية الصليبية في المشاركة في قتال المسلمين والاستيلاء على بيت المقدس.

وكان القول المشترك بين هؤلاء الدعاة والوعاظ الصليبيين في دعوتهم أن القوة الإلهية قد وعدتهم بالنصر على المسلمين واسترداد بيت المقدس من أيديهم، وأن البابا نفسه سيتوجه على رأس هذه الحملة، كما أظهرت الكنائس الكاثوليكية في أوروبا الأقوال بقصص خرافية وأساطير ونشرتها بين الشعوب الأوروبية؛ لتحريك شعورهم الديني الصليبي ضد المسلمين وهو ما يبين كيف كانت البابوية وكنائسها في ذلك الوقت متسلطة على عقول الشعوب الأوروبية ومصائرها تُحرّكها كيف شاءت.

ولقوة هذه التعبئة الصليبية ضد المسلمين، والحث على قتالهم كان البابا أنوسنت الثالث واثقاً من النصر على المسلمين، والاستيلاء على بيت المقدس فكتب إلى السلطان العادل الأيوبي يُحذّره مما سوف يحل عليه وعلى المسلمين، ويطلب منه أن يتنازل بهدوء عن بيت المقدس، فلا يزال معه فسحة من الوقت[1].

ومع قوة البابا أنوسنت الثالث في أوروبا وهيمنته حتى على ملوكها إلا أنه لم يتحقق له حلمه الذي طالما سعى إليه وطمع به، وهو استيلاؤه على بيت المقدس من أيدي المسلمين، فمات محطم القلب منكوداً بسبب تمسك المسلمين ببيت المقدس الشريف.

(١) تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٣٢ - ٢٣٦، د. محمود سعيد عمران، وتاريخ الحروب الصليبية، ٣/ ٢٥٨، ستيفن رنسيمان، وأوروبا والمسيحية، ٢/ ١٩٧، يان دوبرا تسينسكي.

أما بالنسبة لجهود أنوسنت الثالث في قتال المسلمين في الأندلس الإسلامية، فهذا البابا كان شديد العداوة للمسلمين أينما كانوا، فلم تكن تسنح له الفرصة إلا انتهزها في دعوة النصارى لقتال المسلمين، فقد دعا الممالك الصليبية في الأندلس لطرح عداواتها جانباً وأن تجتمع وتوحد كلمتها لتتمكن من احتلال أراضي المسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية (الأندلس).

فدعا إلى حملة صليبية موحدة في عام ١٢١١م ضد المسلمين، ونجحت جهود هذا البابا أنوسنت الثالث في نفخ روح الحقد في النصارى على المسلمين، فطلب من أساقفة جنوب فرنسا أن يعظوا رعاياهم بأن يسيروا بأنفسهم وأموالهم لمؤازرة ملك قشتالة ألفونسو الثامن، وأعلن البابا أن كل من يشارك في هذه الحملة الصليبية ضد المسلمين سيُمنح الغفران التام.

اجتمع في طليطلة عاصمة قشتالة في مطلع عام (٦٠٩هـ / ١٢١٢م) حشود هائلة من الصليبيين، ومنهم جنود من مملكة أراغون والبرتغال ومن مدينة ليون وفرسان رباح وفرسان سنتياغو الإسبانيتين وفرسان الداوية والاسبتارية المقدسيتين وبعض أساقفة فرنسا وإيطاليا وأساقفة قشتالة بقيادة ملك قشتالة ألفونسو الثامن.

التقى هذا الحشد الهائل من الصليبيين مع الجيش الإسلامي قرب بلدة تولوسا في حصن أموي يُسمى (العقاب) في ١٥ صفر ٦٠٩هـ - الموافق لـ ١٧ تموز - يوليو ١٢١٢م فدارت معركة من أعنف المعارك أسفرت عن انتصار ذلك الحشد الهائل من الصليبيين على الجيش الإسلامي، جعل الخليفة الموحدي أبا عبد الله محمد الناصر يفرّ مهزوماً نحو إشبيلية ثم يعبر مضيق جبل طارق نحو مراكش.

بدأت وطأة النصارى تشتد بعد معركة العقاب على المسلمين، وتسهلت لهم مع تفكك المسلمين وعدم اجتماع كلمتهم أن يحتلوا الأراضي الإسلامية، ويسقطوا الإمارات الإسلامية إمارة تلو الأخرى[1].

(١) معركة العقاب، ص ٢٨ - ٣٥، ٣٩ - ٤٨، د. شوقي أبو خليل، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي، ص ٣٩٧ - ٤٠٥، د. علي محمد الصلابي، الأندلس ص ٢٦٧ - ٢٦٩، د. عصام محمد شبارو، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢١٣، د. محمود سعيد عمران.



الحملة الصليبية الخامسة

تولى العرش البابوي بعد أنوسنت الثالث الكاردينال سينسيو سافيللي باسم هونوريوس الثالث (١٨ تموز ١٢١٦ - ١٨ آذار ١٢٢٧م)، وكان الهدف الأول الذي وضعه البابا الجديد نصب عينيه هو وضع الحملة الصليبية التي دعا إليها المجمع اللاتيراني الرابع حيز التنفيذ [١].

تحركت الحملة الصليبية الخامسة قاصدة مصر للأسباب التي ذكرت في الحملة الرابعة في أواخر سنة ١٢١٧م، وتجمعت القوات الصليبية القادمة مع القوات الصليبية التي كانت في عكا، وتوجهت مجتمعة إلى دمياط في مصر في ٢٧ مايو سنة ١٢١٨م، وكان زعيم الحملة حنا دي برين ملك مملكة بيت المقدس في عكا، وكان معه المندوب البابوي الكاردينال بلاجيوس بعد أن تم الاتفاق مع ملك سلاجقة الروم بمهاجمة حلب.

وقد استطاعت الجيوش الصليبية من احتلال قلعة برج السلاسل المسؤولة عن حماية مدينة دمياط (قفل الديار المصرية) في ٢٥ آب / أغسطس عام ١٢١٨م، وفي ذلك الوقت وصلت تعزيزات بحرية مشتركة من إيطاليا وفرنسا وإنجلترا وإسبانيا.

وبهذا تمكن الصليبيون من إحكام السيطرة على دمياط ودخولها في ٥ تشرين الثاني - نوفمبر عام ١٢١٩م [٢].

كانت الجيوش الصليبية في حالة أكثر استعداداً واستقراراً من الجيش الإسلامي، حيث إن مصر كانت تحت حكم السلطان العادل الأيوبي الذي لم يلبث أن مات في مطلع هذه الحملة وآل

---

(١) أوروبا والمسيحية، ٢/ ١٩٩، يان دوبرا تشينسكي.

(٢) الحركة الصليبية، ٢/ ٧٦٢، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، نبلاء ودراويش (تاريخ الحروب الصليبية) ص ١٤٨، د. إسماعيل نوري الربيعي، الحروب الصليبية، ص ١٠٨، أرنست باركر.

الحكم بعده في مصر إلى ابنه الكامل، ولكن الملك الكامل قابل في مطلع عهده ألواناً من المصاعب كان لها أثر كبير في إضعاف قوة المسلمين، ومنها: أن المغول كانوا قد بدؤوا زحفهم تجاه العالم الإسلامي في ذلك الوقت فأسقطوا خوارزم وبلاد ما وراء النهر ومعظم بلاد فارس، وبدؤوا يوغلون تجاه بغداد، وهو ما قسَّم الجهود الإسلامية وفتّ في عضد المسلمين، يضاف إلى ذلك أن الصليبيين اتصلوا بملك الحبشة النصراني ليتعاون معهم في ضرب الإسلام والمسلمين عن طريق غزو الحجاز [1].

فزع الملك الكامل من دخول الصليبيين إلى دمياط فعرض عليهم الصلح بأن يقدم الكامل للصليبيين صليب الصلبوت (الصليب الذهبي) الذي كان صلاح الدين رحمه الله قد أنزله من فوق قبة الصخرة عقب استردادها، وأن يسلم لهم بيت المقدس بذاته ويُطلق كل أسير صليبي عنده، على أن يخرجوا من دمياط ولا يصيبوا أي مدينة مصرية بأذى.

فانقسم قادة الحملة الصليبية بين موافق لهذه الشروط وعلى رأسهم قائدها الملك حنّا دي برين، ومعارض لهذه الشروط وعلى رأسهم المندوب البابوي الكاردينال بلاجيوس. وتغلّب القسم المعارض على القسم الموافق فاتجهت الحملة تجاه القاهرة [2].

في هذه الأثناء تحركت بعض القوات الإسلامية تجاه مصر لمساعدة الكامل في مقابلته مع الصليبيين وعلى رأسهم أخواه ملك دمشق الأشرف موسى، والملك المعظم عيسى فاجتمع الإخوة الثلاثة أبناء العادل الأيوبي وعملوا على مواجهة الصليبيين الزاحفين على القاهرة.

استطاع الجيش الإسلامي المتحد أن ينتصر على الجيوش الصليبيّة، فأرسل الصليبيّون إلى السلطان الكامل في ٢٨ أغسطس سنة ١٢٢١م يعرضون استعدادهم لترك دمياط والجلاء

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي، ٥/ ٧٦٩، د. أحمد شلبي، الحركة الصليبية، ٢/ ٧٦٢، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ص ٢٢٨، د. علي حبيبه.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية، ٣/ ٢٨٦، ستيفن رنسيمان، موسوعة التاريخ الإسلامي، ٥/ ٧٧٠، د. أحمد شلبي، الحروب الصليبية، ص ١٠٩، أرنست باركر.

عن البلاد، مقابل السماح لهم بالخروج من المأزق الذي وقعوا فيه وتركهم يعودون إلى بلادهم سالمين[1].

يقول ستيفن رنسيمان: (انتهت الحملة الصليبية بالفشل، بعد أن أضحت قريبة من النجاح)[2].

قبيل الحملة الصليبية الخامسة نشطت في القارة الأوروبية حركة التنصير التي وجهتها البابوية منذ عهد البابا أنوسنت الثالث إلى الخارجين عن التعاليم الكاثوليكية من النصارى في أوروبا، إلا أنه ظهرت مجموعة من المنصرين اعتقدوا أن تنصير المسلمين في الشام سوف يُسهّل أمر الحروب الصليبية.

ومن أشهر هؤلاء المنصرين وأجرئهم رئيس الرهبنة الفرنسيسكانية فرنسيس الاسيزي الذي طمع في تنصير السلطان الكامل الأيوبي، فعندما دخل على الكامل الأيوبي سمح له الكامل ببسط رسائله الإنجيليّة بشرط ألا يتعرض بسوء للنبي محمد صلى الله عليه وسلم ولا لدينه الإسلام[3].

ولم يكتف فرنسيس ألاسيزي بهذه الخطوة التي عملها بل إنه أرسل مجموعة من الرهبان الفرنسيسكان لتنصير المسلمين في إسبانيا وإفريقيا، ومجموعة أخرى أشد حماسة إلى الأراضي المقدسة في فلسطين وما حولها[4].

وهكذا ظهرت فكرة التنصير معاونة لفكرة الاستعمار لضرب المسلمين في عقيدتهم ودينهم واحتلال أراضيهم ابتداءً من وقت الحملة الصليبية الخامسة خاصة منذ عام ١٢١٩م.

حمّل البابا هونوريوس الثالث الإمبراطور فردريك الثاني فشل الحملة الصليبية الخامسة وذلك

---

(١) الحركة الصليبية، ٢/ ٧٧٥، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٦٤، ٢٦٥، د. محمود سعيد عمران، نبلاء ودراويش (تاريخ الحروب الصليبية) ص ١٤٩، ١٥٠، د. إسماعيل نوري الربيعي، الحركة الصليبية، ص ٢٢٨، د. علي حبيبه.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية، ٣/ ٣٠١، ستيفن رنسيمان.

(٣) الحرب المقدسة، ص ٤٨١ - ٤٨٣، كارين آرمسترونغ، أوروبا والمسيحية، ٢/ ٢١٠، يان دوبرا تشينسكي.

(٤) الحرب المقدسة، ص ٤٨٥، كارين آرمسترونغ.

بسبب تقاعسه عن اللحاق بها، وطالبه أن يقوم بحملة جديدة إلى الأراضي المقدسة، كما أنّ البابا هونوريوس الثالث عمل على توطيد صلة الإمبراطور فردريك بإيزابيلا ابنة حنا دي برين وريثة مملكة بيت المقدس؛ بزواج الإمبراطو بها، وتم ذلك الزواج في سنة ١٢٢٥م، واتخذ الإمبراطور لقب ملك بيت المقدس؛ حيث إنه من حقوق زوجته، وأخذ يمين الولاء من أمراء الإقطاع بالمملكة الصليبية [١].

وبدأ فردريك حملته ملكاً لبيت المقدس في خريف سنة ١٢٢٧م، غير أن حُمّى تفشت في معسكر جيشه قبل أن ينطلق مبحراً إلى الأراضي المقدسة فامتنع عن السير حتى يتشافى الجيش، في هذه الأثناء توفي البابا هونوريوس الثالث وتولى بعده العرش البابوي الكاردينال هوغولين ديكونتي دي سيفني ابن شقيقة البابا السابق أنوسنت الثالث وصديق فرنسيس ألاسيزي، باسم غريغوريوس (جريجوري) التاسع (١٩ آذار ١٢٢٧ - ٢٢ آب ١٢٤١م).

(١) الحروب الصليبية، ص ١١٢، أرنست باركر، الحروب الصليبية صراع الشرق والغرب، ص ١٣، رنيه كروسيه.



الحملة الصليبية السادسة

أصدر البابا جريجوري التاسع قرار الحرمان الكنسي علىٰ الإمبراطور فردريك الثاني معتقداً بأنه يعمد مرة أخرى إلى الكذب وعدم السير إلى الأراضي المقدسة [1].

فاضطر الإمبراطور فردريك الثاني لأن يسير بالحملة الصليبية في صيف عام ١٢٢٨م إلى الأراضي المقدسة وشجعه علىٰ ذلك وصول أخبار مؤكدة من وجود خلافات ومنازعات حصلت في البيت الأيوبي بين السلطان الكامل وأخيه المعظم عيسى، كما أنّ السلطان الكامل لما علم بقدوم الإمبراطور فردريك الثاني طلب منه المساعدة ضد أخيه الملك المعظم عيسى ومن معه من الأتراك الخوارزمية.

ووجه الخطورة في النزاع الذي حصل بين السلطان الكامل وأخيه المعظم عيسى أن كليهما استعان بقوى خارجية، فاستنجد المعظم عيسى علىٰ أخيه بالأتراك الخوارزمية في حين استنجد السلطان الكامل بعدو المسلمين النصراني الإمبراطور فردريك الثاني.

استغل الإمبراطور هذا التشتت في العالم الإسلامي وهذا الهوان من السلطان الكامل الأيوبي فقايضه علىٰ أن يساعده علىٰ أخيه في الشام وألاّ يهجم علىٰ مصر بشرط أن يُسلِّم القدس وغيرها من المدن التي استردها المسلمون من الصليبيين في عهديْ صلاح الدين والعادل الأيوبيين، فوافق السلطان الكامل الأيوبي علىٰ ذلك وسلّمه القدس، وبيت لحم، والناصرة، وذلك فضلاً عن إقطاع تبنين جنوب لبنان في الجليل الأعلىٰ والأرباض الداخلية لمدينة صيدا علىٰ الشاطئ الفينيقي علىٰ أن تكون في الوقت نفسه هُدنة سِلم ولمدة عشر سنوات، وكانت تلك المقايضة قد أبرمت في يافا في

---

(١) أوروبا والمسيحية، ٢/ ٢١٤ - ٢١٥، يان دوبرا تشينسكي، تاريخ الحروب الصليبية، ٣/ ٣١٦، ستيفن رنسيمان، الحروب الصليبية، ص ١١٣، ارنست باركر.

ربيع الأول (٦٢٦هـ/ فبراير١٢٢٩م)[١].

وهكذا استولى الصليبيون على بيت المقدس بسهولة تامة، وهي المدينة التي أجهد المسلمون أنفسهم في عهد صلاح الدين باستردادها منهم، فدخلها الإمبراطور فردريك الثاني في ١٩ مارس سنة ١٢٢٩م، وعندما نودي في القدس بخروج المسلمين وتسليمها للصليبيين؛ وقع في المسلمين الضجيج والبكاء وعظم ذلك عليهم [٢].

كما أنّ البابا جريجوري التاسع أوصى المماليك الصليبية في الأندلس باستغلال ضعف السلطة المركزية للمسلمين (دولة الموحّدين) وتناحر عناصرها وتمزق شمل المسلمين وظهور طوائف وإمارات لا تقوى بمفردها على مقابلة النصارى، فحثّهم على احتلال أراضي المسلمين والهجوم عليهم من الجهات جميعها، فمملكة الأرغون من الشرق، وقشتالة من الشمال، والبرتغال من الغرب، فاتحدت مملكة قشتالة مع ليون لمواجهة المسلمين تحت قيادة ملكهم فرناندو الثالث الملقب (بالقديس) فسقطت إمارة بياسة وأبرة الإسلاميّة سنة (١٢٣٥م / ٦٣٣هـ) في أيدي الصليبيين كما أن أكبر هزة حصلت للمسلمين باحتلال فرناندو الثالث قرطبة سنة (٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م)، فقرطبة كانت حاضرة الخلافة الأموية في الأندلس، كما أن سقوط قرطبة من أهم العوامل التي عجلت بانهيار نفوذ الموحدين في الأندلس، وما لبث الإسبان النصارى أن حوّلوا جامع قرطبة الشهير إلى كنيسة عرفت باسم سانتا ماريا العظمى، و في عام (١٣٠٠م) أعلن النصارى أن الجامع أثر قومي يجب الحفاظ عليه.

وبعد قرطبة تتابع سقوط حواضر الأندلس في أيدي الصليبيين، بلنسية عام (٦٣٦هـ / ١٢٣٩م) ومرسية (٦٤١هـ/ ١٢٤٣هـ)، ثم كانت قاصمة الظهر التي حلّت بالمسلمين لما استولى

---

(١) مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص٩٣ - ١٠٠، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، نبلاء ودراويش (تاريخ الحروب الصليبية) ص١٥٥،١٥٦، د. إسماعيل نوري الربيعي، الحروب الصليبية صراع الشرق والغرب، ص٨٤، رنيه كروسيه، تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٨٢ - ٢٩٤، د. محمود سعيد عمران.

(٢) مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص١٠٩، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٩٥، د. محمود سعيد عمران.

الصليبيون على إشبيلية عام (٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م) و بها انهارت دولة الموحدين الإسلامية وكان ذلك في عهديْ البابا جريجوري التاسع (١٢٢٧م - ١٢٤١م) والبابا أنوسنت الرابع (١٢٤٢م - ١٢٥٤م).

وبهذا سقطت الممالك الإسلامية في بلاد الأندلس الخضراء ولم تبق إلا مملكة غرناطة التي أصبحت نقطة إسلامية في بحر صليبي نصراني، تقاوم اعتداءات الصليبيين وهجومهم طيلة قرنين ونصف القرن، حتى غرقت سنة (٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م)، وضاعت معها الأندلس نهائياً[1].

نعود إلى وضع المسلمين والصليبيين في الأراضي المقدسة في عهد البابا جريجوري التاسع، فقبل أن تنتهي الهدنة التي أُبرمت بين السلطان الكامل الأيوبي والإمبراطور فردريك الثاني؛ دعا البابا جريجوري التاسع لحملة صليبية جديدة دفاعية عن بيت المقدس تحسباً لهجوم إسلامي، فكان أول من استجاب لهذه النداءات البابوية البارونات الفرنسيين، فكانت حملة خاصة بهم (الحملة الفرنسية)، وصلت إلى عكا في أول سبتمبر عام ١٢٣٩م بقيادة ثيوت الرابع فحدثت بينهم وبين جيش العادل الثاني الأيوبي منازلة قرب غزة انتصر فيها المسلمون، وكان ذلك في ١٣ نوفمبر سنة ١٢٣٩م - ٦٣٧هـ.

ثم في ١١ أكتوبر سنة ١٢٤٠م لحقتهم حملة بريطانية بقيادة ريتشارد كورنوول أخي هنري الثالث ملك إنجلترا وقد استطاعت هذه الحملة أن تقوي جانب الصليبيين في حماية بيت المقدس وتحصين عسقلان، وعادت إلى الغرب في أوائل مايو سنة ١٢٤١م[2].

وكان القضاء النهائي على حكم الصليبيين لبيت المقدس في شهر صفر من عام ٦٤٢هـ الموافق

---

(١) الأندلس، ص ٢٧١ - ٢٧٤، عصام محمد شبارو، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص ٢٩٠، ٢٩١، د. خليل إبراهيم السامرائي وآخرون، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي، ص ٤١٧، ٤١٨، د. علي محمد الصلابي.

(٢) الحركة الصليبية، ٢/ ٨١٦ - ٨٢٢، د. سعيد عاشور، والحروب الصليبية صراع الشرق والغرب، ص ٨٦ - ٨٧، رنيه كروسيه، أوروبا والمسيحية، ٢/ ٢٣١، دوبرا تشينسكي، ومصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ١٠٨ - ١١١، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

لـ يوليو من عام ١٢٤٤م علىٰ يد الجيش الإسلامي المكوّن من الأتراك الخوارزمية في عهد سلطان مصر نجم الدين الصالح أيوب، ثم القضاء علىٰ باقي القوات الصليبية حول بيت المقدس في شهر أكتوبر من عام (١٢٤٤م - ٦٤٢هـ) علىٰ يد القائد المسلم ركن الدين بيبرس والأتراك الخوارزمية في موقعة غزة الثانية والتي سميت لقوتها علىٰ الصليبيين بـ(حطين الثانية) حيث لم يقم للصليبيين بعدها قيام عسكري حقيقي علىٰ بيت المقدس إلا بعد الحرب العالمية الأولىٰ [(١)].

(هُزمت الفرنج بصلبانها وراياتها العالية، علىٰ رؤوس أطلاب المسلمين، وكانت كؤوس الخمر دائرة بين الجيوش فنابت كؤوس المنون عن كؤوس الزرجون، فقتل من الفرنج في يوم واحد زيادة عن ثلاثين ألفاً، وأسروا جماعة من ملوكهم وقسوسهم وأساقفتهم... وبعثوا بالأسارىٰ إلىٰ الصالح أيوب بمصر، وكان يومئذٍ يوماً مشهوداً وأمراً محموداً، ولله الحمد)[(٢)].

---

(١) الحركة الصليبية، ٢/ ٨٢٦، ٨٢٧، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٠٣، د. محمود سعيد عمران، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ١١٣، ١١٤، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، موسوعة التاريخ الإسلامي، ٥/ ٧٧٧، د. أحمد شلبي، الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، ص ١٩٢، د. علي عبد الحليم محمود، تاريخ الحروب الصليبية، ٣/ ٣٩١، ستيفن رنسيمان.

والهجمات الصليبية على العالم الإسلامي لم تنته عند دخول النبي إلى الشام في (١٩١٧م)، بل لم تنته بعد تمكن النصارى من تسليم بيت المقدس لليهود في (١٩٤٨م / ١٣٦٧هـ)، فالهجمات الصليبية من جهة النصارى مستمرة على العالم الإسلامي وإن اختلفت في بعض صورها عن المجابهات والتدخلات العسكرية، وأبرزها عمليات التنصير والغزو الفكري من استشراق وتغريب، ولا شك أن هذه ما زالت مستمرة وتقوم عليها مؤسسات نصرانية بميزانيات ضخمة (عمل مؤسسي لتنفيذ هذه الهجمات).

أما لو أردنا أمثلة معينة من تلك الهجمات فأقرب مثال لذلك ما عملته المنظمة التنصيرية (رابطة الرهبان لنشر الإنجيل) المدعومة بأموال هائلة من الفاتيكان من جمع أكثر من مليون توقيع للهجوم على النبي محمد صلى الله عليه وسلم في حملة أسمتها (مليون ضد محمد) في آخر عام ٢٠٠٥م، ثم ما قامت به الدول النصرانية مجتمعة (كاثوليكية وبرونستانتية) ابتداءً من الدانمارك والنرويج ثم إسبانيا وإيطاليا وغيرها بمساعدة من الاتحاد الدولي الأوروبي في رسم النبي محمد صلى الله عليه وسلم برسومات فيها السخرية والاستهزاء والاحتقار الذي يرفضه صاحب أدنى عقل ومروءة، وذلك في عام (٢٠٠٦م) الموافق لـ(١٤٢٦هـ).

(٢) البداية والنهاية، ٧/ ١٧٦، للحافظ ابن كثير، تحقيق: د. أحمد أبو ملحم وآخرون.

لم يقف الأمر عند مجرد ضياع بيت المقدس من أيدي الصليبيين وانهزامهم في غزة وتنكيل الجيش الإسلامي بهم؛ بل أخذ المسلمون في توجيه الضربات الشديدة إلى باقي الممتلكات الصليبية اللاتينية بسورية. ففي عام ٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م أرسل الصالح نجم الدين أيوب الأمير فخر الدين يوسف إلى طبرية وعسقلان، فنازلها وأخذهما من الصليبيين، الأولى في ٧ يونيو ١٢٤٧م، والثانية في أكتوبر من العام نفسه، وهدم ما استجده الصليبيون بها من القلاع والحصون[1].

---

(١) العدوان الصليبي على مصر، ٢/ ٥٠، د. جوزيف نسيم يوسف.

الحملة الصليبية السابعة

اهتزت البابوية والغرب الصليبي الأوروبي من فتح المسلمين لبيت المقدس واستردادها من أيديهم فقام البابا إنّوشنتيوس (أنوسنت) الرابع (٢٥ حزيران ١٢٤٣ - ٧ كانون الأوّل ١٢٥٤م) بالدعوة إلى مجمع كنسي عقد في مدينة ليون ٢٨ يونيو - ١٧ يوليو، وقد حضر هذا المجمع واليران أسقف بيروت، والبرت دي رزاتو بطريرك أنطاكية اللاتيني الكاثوليكي، وراهب من جماعة الرهبان الدومنيكان يدعى أرنولف، وتناول هذا المجمع مسألة فلسطين، فبعد أن تحدث البابا أنوسنت الرابع عن مكانة بيت المقدس في دينهم وقلوبهم وما فيها من آثار مقدسة يجب ألاّ تكون تحت سلطة المسلمين؛ قام أسقف بيروت (واليران) يسرد ما أوقعه المسلمون من خسائر فادحة علىٰ الصليبيين وكنائسهم في بيت المقدس وغيرها من البلاد التي كان يمتلكونها، ثم قام الراهب أرنولف يقرأ علىٰ الحاضرين في المجمع الخطابات التي كان يحملها معه من نبلاء فلسطين النصارى وكبار رجالها الصليبيين، وكانت هذه الرسائل تتضمن وصفاً لقوة المسلمين وضعف الصليبيين، فبدا علىٰ الحاضرين في المجمع التأثر الواضح من تلك الأخبار.

وبعد انتهاء الزائرين من عرض هذه الأخبار أصدر البابا أنوسنت الرابع المراسيم البابوية لحض النصارى علىٰ الاشتراك في حملة جديدة ضد المسلمين، ووعد كل من يشارك في هذه الحملة الصليبية بالغفران التام عن خطاياه والتكفير عن آثامه وذنوبه[١].

ثم عقد في العام نفسه ١٢٤٥م مجمعاً كبيراً في باريس حضره المندوب البابوي إلى فرنسا أدون دي شاترو مع ملك فرنسا لويس التاسع وكبار رجال مملكته ورجال الدين الفرنسيين من أساقفة

---

(١) مفاتيح أورشليم القدس (حملتان صليبيتان على مصر)، ص ٢٢١، ريمون ستا نبلوي، العدوان الصليبي على مصر، ٢/ ٥٤، ٥٥، د. جوزيف نسيم يوسف، تاريخ الحروب الصليبية، ٣/ ٤٤٠، ستيفن رنسيمان.

ورؤساء أساقفة ورؤساء أديرة، عاهد فيه الملك الفرنسي البابوية أن يرأس هذه الحملة دفاعاً عن الأرض المقدسة[1].

وسُمّيت هذه الحملة الصليبية باسمه (حملة لويس التاسع) لاهتمامه بها من بدايتها إلى نهايتها وسُمّي على إثرها بالقديس لويس، فاختص بها الفرنسيون أكثر من غيرهم من الغربيين لاهتمام ملكهم بها فعرفت بالحملة الصليبية الفرنسية[2].

وقد توقعت البابوية أن ينهض ملك فرنسا لويس التاسع بعبء هذه الحملة ضد المسلمين؛ لما في تربيته الخاصة من عداوة متأصلة ضد كل ما هو إسلامي، حيث إن أمه الملكة بلانش ابنة ملك قشتالة ألفونسو التاسع الذي جعل همه الأكبر قتال المسلمين وعداوتهم في بلاد الأندلس، وقد اشتهرت بتمسكها بعقيدتها النصرانية وكرهها للمسلمين[3]؛ وذلك بسبب تلك الحروب التي عاصرتها منذ صغرها بين أبيها وملوك النصارى ضد ملوك المسلمين في الأندلس.

فاعتمدت البابوية في هذه الحملة على ملك فرنسا؛ لفقدان أملها في الإمبراطور فردريك الثاني صاحب الحملة السادسة؛ لعلمها بكبر الصداقة فيما بينه وبين المسلمين في مصر والشام؛ لذلك فإن البابا أنوسنت الرابع قد ألقى عليه الحرمان الكنسي[4].

وبعد أن تحدد قائد هذه الحملة الصليبية دعا البابا أنوسنت الرابع الملوك والأمراء والنبلاء وكبار تجار المدن الذين لن يذهبوا بأنفسهم مع الحملة؛ إلى أن يمدوا الفرق الصليبية بالمصاريف اللازمة لمدة ثلاث سنوات كل حسب مورده، وذلك للخلاص من خطاياهم، كما دعا أنوسنت الرابع رجال الكنيسة أن يساهموا بجزء من عشرين من دخل الكنائس لمدة ثلاث سنوات، أما الكرادلة

---

(١) العدوان الصليبي على مصر، ٢/ ٥٨، د. جوزيف نسيم يوسف.

(٢) مفاتيح أورشليم القدس، ص ٢٢٧، ريمون ستا نبلوى، ترجمة: عايدة الباجوري.
وبسبب اهتمام ملك فرنسا لويس التاسع بهذه الحملة فقد عدّها بعض المؤرخين العلمانيين بأنها (حركة توسع فرنسية في العصور الوسطى) انظر: الحركة الصليبية، ٢/ ٨٣٢، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

(٣) العدوان الصليبي على مصر، ص ٣٤، د. جوزيف نسيم يوسف.

(٤) الحركة الصليبية، ٢/ ٨٣٣، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

فيدفعون العشور، ويعفى من هذا كله من يشترك في الحملة من رجال الكنائس، وقد هدد البابا أنوسنت الرابع بحرمان كل من يخالف هذه التعليمات، وكانت هذه الأموال تجمع بواسطة عمّال البابا مباشرةً. كذلك أصدر أنوسنت الرابع قانوناً بأن يكون الصليبيون المشتركون في الحملة في أمان من مطالب دائنيهم على الديون المستحقة عليهم لمدة ثلاث سنوات[1].

وبعد أن تم إعداد الحملة الصليبية تحرك الملك الفرنسي لويس التاسع مع حملته من باريس إلى ميناء اجمورت جنوبي فرنسا في ١٢ يونيو ١٢٤٨م، ومروا على مدينة ليون حيث قابلهم البابا أنوسنت الرابع هناك، فحصلت الحملة منه على البركة البابوية وصكوك الغفران، ثم وصلت الحملة إلى ميناء النمسون جنوبي قبرص في السابع عشر من سبتمبر من السنة نفسها ١٢٤٨م قاصداً بذلك الهجوم على مصر أولاً ثم منها إلى بيت المقدس[2].

أبحرت الحملة الصليبية في مايو سنة ١٢٤٩م - ٦٤٧هـ إلى دمياط، ووصلت هناك في الشهر نفسه ولكثرة عدد الصليبيين دبَّ الخوف في قلوب أهالي دمياط والعساكر المسلمين هناك فتركوا المدينة خالية فدخلها الصليبيون بدون مقاومة تذكر وهكذا تعمل الهزيمة النفسية تذل صاحبها قبل النزال الحقيقي فعمل الصالح أيوب على ترتيب الجيش الإسلامي، وبثّ الحماسة الدينيّة في قلوبهم، وعمل مع علماء المسلمين في مصر على نشر حب الجهاد في سبيل الله ضد أعداء الله النصارى، فكانت الخطب والمواعظ الدينية التي تُلقى من فوق منابر المساجد في أيام الجمع من أهم وسائل الحث على الجهاد في سبيل الله ضد أعداء الله، ومن أمثلته: ذلك الكتاب الذي قُرئ في الجامع الأزهر يوم الجمعة ٢٥ شعبان ٦٤٧هـ/ ٣ ديسمبر ١٢٤٩م.

رفعت هذه الحملة الشعبية الجهادية في مصر من روح الملك الصالح أيوب وجنوده لترتيب

---

(١) العدوان الصليبي على مصر، ص ٦٢، د. جوزيف نسيم يوسف، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٠٦، ٣٠٧، د. محمود سعيد عمران.

(٢) مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ١١٧، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، العدوان الصليبي على مصر، ص ٦٤، د. جوزيف نسيم يوسف، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٠٧، د. محمود سعيد عمران.

وضعهم، خاصة أن الصليبيين قد بقوا في دمياط ما يقارب خمسة أشهر وهو ما جعل في الوقت كفاية للمسلمين لإعداد العدة من جديد[1].

في ذلك الوقت العصيب على المسلمين توفي الملك الصالح أيوب، إلا أنّ زوجته شجرة الدر أنقذت الموقف إذ أخفت موته إلا عن بعض قادته، وأخذت ترتب الأوضاع وتدبر الأمور وتُصدِّر الأوامر باسمه ريثما يصل ابنه وولي عهده توران شاه من الجزيرة الفراتية إلى القاهرة.

التقى الجيش المسلم، مع الجيوش الصليبيّة في مدينة المنصورة، فانتصر المسلمون، وأحاطت الصعاب بالملك لويس التاسع، والتي جعلته قبل أن يتراجع إلى دمياط يفتح باب المفاوضات مع المسلمين، على أساس ترك دمياط مقابل إعادة بيت المقدس إلى الصليبيين.

أراد لويس بهذا العرض أن يضرب عصفورين بحجر واحد فيسترد بيت المقدس في الوقت الذي يضمن لجيشه النصراني انسحاباً آمناً وخروجاً سلمياً من مصر.

ولكن المسلمين رفضوا هذا العرض، فلما أدرك الصليبيون عدم جدوى الأمر مع المسلمين وضعف موقفهم؛ تشتت جيشهم وهرب معظمه إلى دمياط. ولم يترك المسلمون الصليبيين يتراجعون بسهولة. وإنما تعقبوهم وأنزلوا بهم كثيراً من الخسائر، ووقع الجيش الصليبي بأجمعه تقريباً بين أسرى وقتلى، وكان من جملة الأسرى الملك لويس التاسع نفسه الذي سيق مكبلاً بالأغلال إلى المنصورة.

وقد طالب الملك توران شاه الأيوبي بمبلغ ضخم من المال مقابل فداء الجيش الصليبي، على أن يكون تسليم دمياط للمسلمين ثمناً لفداء الملك لويس التاسع، وأن يكون هدنة بينهم لمدة عشر سنوات وفيها لا يقصد الملك لويس التاسع شواطئ الإسلام مرة أخرى في هذه الهدنة.

---

(١) يرى المؤرخون أن تأخر الملك لويس التاسع وحملته في دمياط هذه المدة من أكبر الأخطاء التي وقعوا فيها وهو ما جعل المسلمين يلتقطون أنفاسهم ويعيدون ترتيب أمورهم لمواجهة النصارى. انظر: العدوان الصليبي على مصر، ٢/ ١٢٤، ١٢٥، د. جوزيف نسيم يوسف، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ١١٩، ١٢٠، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

أقلع أخيراً الملك لويس التاسع في شهر صفر ٦٤٨هـ - مايو / أيار ١٢٥٠م مع من بقي من الصليبيين في دمياط إلى عكا حيث ظل هناك أربع سنوات إلى إبريل ١٢٥٤م قضاها في تنظيم الإمارات الصليبية، وعقد تحالفاً مع الإسماعيلية ضد المسلمين في الشام، وتقرب من المغول لأجل ذلك، ولكن تلك التحالفات لم تفده شيئاً في ضرب المسلمين في الشام ومصر، فغادر عكا وهو مدفوع بعصبية مجنونة ضد المسلمين يتحين الفرصة الملائمة للعودة لقتالهم مرة أخرى وهذا ما حصل له في الحملة الصليبية الثامنة التي كانت وجهتها إلى تونس [١].

اهتزت البابوية وعلى رأسها البابا أنوسنت الرابع من هزيمة لويس التاسع وفشل حملته الصليبية، وآثر أن ينتظر رجوع الملك الفرنسي من المشرق الإسلامي للتداول معه في كيفية الاستعداد مرة أخرى لمحاربة المسلمين، خاصة أن البابا أنوسنت الرابع كانت علاقاته مع كثير من ملوك أوروبا سيئة وأكثرها سوءاً مع الأقوى منهم الإمبراطور فردريك الثاني، ولكنّ الملك الفرنسي لويس التاسع آثر البقاء في عكّا وما حولها من الممالك الصليبية حتى يرتب أوضاعها ويزيل الخلافات القائمة بينها ويعمل على المساعدة في تحصينها ضد أي اعتداء من المسلمين؛ لذلك لم يصل إلى مملكته فرنسا إلا بعد وفاة البابا أنوسنت الرابع في عام ١٢٥٤م [٢].

وفي العام نفسه اعتلى العرش البابوي الكاردينال رينالدو كونتي باسم البابا إسكندر الرابع (١٢ كانون الأوّل ١٢٥٤ - ٢٥ أيار ١٢٦١م)، ولكنه كان ضعيف الشخصية ليس له حزم من سبقه ولا طموحاته السلطوية فعمل على التقارب مع ملوك الغرب الذين ظهر عليهم التضجر

---

(١) مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص١١٩ - ١٢٦، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، موسوعة التاريخ الإسلامي، ٥/ ٧٨٠ - ٧٨٣، د. أحمد شلبي، موسوعة تاريخ الحروب الصليبية، ص٩١، ٩٢، د. مفيد الزيدي، تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٠٧ - ٣١٥، د. محمود سعيد عمران، وانظر بالتفصيل إلى كتاب: العدوان الصليبي ضد مصر (هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور) للدكتور: جوزيف نسيم يوسف، ففيه أدق التفاصيل التاريخية في شأن هذه الحملة من بدايتها إلى أن خُتمت بالفشل الذريع، وأيضاً كتاب مفاتيح أورشليم القدس (حملتان صليبيتان على مصر، ١٢٠٠ - ١٢٥٠) ريمون ستا نبلوي، ترجمة: عايدة الباجوري.

(٢) الحركة الصليبية، ٢/ ٨٥٨، ٨٥٩، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا والمسيحية، ٢/ ٢٥١، ٢٦٤، يان دوبرا تشينسكي، تاريخ الحروب الصليبية، ٣/ ٤٨٠، ستيفن رنسيمان، الحروب الصليبية، ص ٨٩، رنيه كروسيه.

من السلطة البابوية.

توفي هذا البابا في مايو/ آيار عام ١٢٦١م ولم يدع إلى حملة صليبية إلى بيت المقدس، ثُم انتخب مجلس الكرادلة بعده بطريرك القدس الفرنسي يعقوب بنتاليون باسم البابا أوروبان الرابع وذلك في سبتمبر / أيلول ١٢٦١م.

ولأن أوروبان الرابع كان بطريرك القدس فهو أعلم بوضعية الصليبيين فيها، فكان الإعداد لحملة صليبية جديدة ضرورة ملحة في نظره خاصة أنه قد ظهرت قوة للمسلمين جديدة هي قوة الدولة المملوكية (دولة المماليك).

ولكن طلبه من ملوك الغرب لشن حملة صليبية جديدة ضد المسلمين ذهب أدراج الرياح فلم يستجب له أحد منهم حتى الملك الذي سُمِّي بالملك القديس لويس التاسع ملك فرنسا لم يستجب للبابا، ومن أكبر أسباب هذا الرفض وجود الحروب بين ملوك الغرب بعضهم مع بعض؛ لذا لم يأمن بعضهم بعضاً.

عمل هذا البابا محاولة صلح بين ملوك الغرب، فابتدع لذلك عيداً في النصرانية يسمى (عيد التجلي)، وهو عندهم بداية عمليات طويلة لعودة يسوع إلى الناس بعد أن عزل عنهم وأغلق عليه في أعماق المعابد المظلمة.

توفي البابا أوروبان الرابع بعد أن فشل في تحقيق ما رغب فيه وهو إرسال حملة صليبية جديدة إلى بيت المقدس بعد ثلاث سنوات بحثٍ عن قائد من الغرب ليرأس هذه الحملة، توفي في تشرين الأول / أكتوبر من سنة ١٢٦٤م[١].

اعتلى بعده العرش البابوي رئيس أساقفة ناربون في فرنسا الكاردينال غوي فولكوي الفرنسي باسم إكليمنوس (كليمنت) الرابع (٥ شباط ١٢٦٥ - ٢٩ تشرين الثاني ١٢٦٨م).

في تلك الفترة التي اجتاحت فيها أوروبا موجة عدم الثقة بين ملوك دولها، والاهتمام بمصالحهم

(١) أوروبا والمسيحية، ٢/ ٢٦٤ - ٢٦٩، دوبرا تشينسكي، تاريخ الحروب الصليبية، ٣/ ٥٠٠، رنسيمان.

الوطنية، مع بدايات ضعف ملحوظ في مركز البابوية في الغرب، كانت دولة المماليك تحصد الانتصار تلو الانتصار على الممالك الصليبية في أرض الشام، بل مما زاد في قوة الدولة الإسلامية المملوكية وارتعاد المماليك الصليبية منها وازدياد الحسرة على البابوية وإيقانها من أن فقدان مكانتها على أرض الشام وحول بيت المقدس بات وشيكاً وقريباً؛ أن الدولة الإسلامية المملوكية انتصرت على الدولة المغولية الوثنيّة، وكسرت شوكتها في المعركة الحاسمة، معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م.

تلك الدولة المغولية التي عملت البابوية لمد الجسور معها طمعاً في تنصيرها حتى تكون سداً لها وللمماليك الصليبية ضد المسلمين، خاصة أن المجال كان مفتوحاً وسهلاً للبابوية لتنفيذ هذا المخطط للقضاء على الأمة الإسلامية وهو أن (أمّ) هولاكو القائد الأكبر للمغول كانت نصرانية وكذلك زوجته المحظية عنده كانت نصرانية[١].

فقد أرسل البابا أنوسنت الرابع في سنة ١٢٤٥م وفداً إلى المغول طمعاً في تنصيرهم للتشاور معهم في مواجهة المسلمين، وكذلك فإن الملك لويس التاسع دخل في مفاوضات قوية مع المغول في عامي ١٢٤٨/ ١٢٤٩م طمعاً في مساعدته ضد المسلمين[٢].

يقول ستيفن رنسيمان في هذا الأمل البابوي وهو معاونة المغول للنصارى في قتالهم ضد المسلمين: (... فلما انسحب المغول إلى روسيا في السنة التالية، عاد العالم المسيحي في الغرب إلى أوهامه وأفكاره الكاذبة... إذ إن كل فرد كان يؤثر أن يتذكر بأن المغول قاتلوا المسلمين، وبأن الأميرات المسيحيات تزوجن في الأسرة الإمبراطورية المغولية. فقد لا يكون خاقان المغول الأكبر مسيحياً، غير أنه كان مأمولاً أن يوطن نفسه على الحرص على مساندة العقيدة المسيحية إزاء قوى الإسلام... فظهور حليف قوي في الشرق جعل الفرصة فيما يبدو ناضجة للدعوة إلى حملة صليبية

---

(١) الحركة الصليبية، ٢/ ٨٨١، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا والمسيحية، ٢/ ٢٥٦، دوبرا تشينسكي.

(٢) الحروب الصليبية، ص ١٢٦، أرنست باركر.

جديدة، وكان المحارب الصليبي المتحمس جاهزاً)[1].

وقد جاءت ثمار هذا التحالف والتعاون بين النصارى والمغول، ومنها ما أظهره المغول أثناء هجومهم على العراق والشام من الاهتمام بالنصارى والمحافظة على كنائسهم وممتلكاتهم بخلاف تعاملهم مع المسلمين فقد دأبوا في المدن التي احتلّوها على ذبح أهلها من المسلمين وهدم مساجدهم وتخريبها وقتلوا كثيراً من علمائهم وفقهائهم، في الوقت ذاته لم يمسوا أي أسقف أو قسيس أو راهب من النصارى بسوء.

ففرح النصارى بهذا النصر المغولي على المسلمين، ووجدوا فيه فرصة طيبة للثأر من الإسلام والنيل من المسلمين، وعدوا تلك الهجمة المغولية حملة صليبية جديدة أتت لنصرتهم على المسلمين[2].

إلا أن هذا التحالف بين المغول والنصارى ضد المسلمين انكسر وتلاشى عندما انتصر المسلمون بقيادة المظفر قُطز على المغول في معركة عين جالوت - قرية بين بيسان ونابلس في فلسطين - في ٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠م / ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨هـ.

فكان انتصار المماليك في هذه المعركة نصراً للإسلام والمسلمين. فقد أنقذ الله المسلمين بهذا النصر من خطر عظيم يُعد من الأخطار العظيمة التي تعرّض لها المسلمون في تاريخهم، بل جعل هذا النصر المغول يعتنقون الدين الإسلامي؛ فسُدّ بذلك باب عظيم في وجه البابوية والصليبية لو نجحت في استغلاله لأصبح الأمر خطيراً على الأمة الإسلامية.

واصل الظاهر بيبرس ما بدأه المظفر قُطز من الفتوحات الإسلامية وإعادة ما سلبه النصارى الصليبيون من أيدي المسلمين من مدن وممالك ومعاقل، فاستخلص من النصارى ما بين سنتي ١٢٦٥م - ١٢٦٨م أكثر الممالك التي استولى عليها النصارى، وأخيراً توّج الظاهر بيبرس أعماله الجهادية ضد الصليبيين بفتح أنطاكية وما حولها من القلاع الصليبية، وكان ذلك في سنة ١٢٦٨م،

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية، ٣/ ٤٣٧ ٤٣٨، ستيفن رنسيمان.

(٢) الحركة الصليبية، ٢/ ٨٩٤ ٨٩٥، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

فانهار بفتح المسلمين لأنطاكية البناء الضخم الذي بناه الصليبيون في الشرق منذ عام ١٠٩٧م[١].

زلزلت انتصارات المسلمين هذه الكيان البابوي في روما وكنائسه في العالم الغربي، فبدا للبابوية أن تاريخ حروبها لأجل الأراضي المقدسة منذ عام ١٩٠٥م، وما خسرته من رجال وأموال قد يذهب أدراج الرياح إن لم تقم مرة أخرى وبقوّة للوقوف في وجه المسلمين.

ولكن عبثاً حاولت إثارة ملوك الغرب للقيام بحملة صليبية ضد المسلمين توقف بها انتصاراتهم وتحافظ بها على كيان وجودهم في الأراضي المقدسة، حيث إنه لم يبق لها في أرض الشام إلا عكا وطرابلس.

وكان أول من استجاب لنداء بابا روما كليمنت الرابع في إنفاذ حملة صليبية إلى الأراضي المقدسة جيمس الأول ملك أرغون والذي كان يُقاتل المسلمين في الأندلس، وكان ذلك في سنة ١٢٦٩م إلا أن حملته الصليبية باءت بالفشل؛ لأن القسم الأكبر منها وعلى رأسه الملك جيمس نفسه غادر إلى برشلونة بسبب إعصار قوي فرّق بين سفن هذه الحملة، وما واصل السير إلى عكا إلا جزءٌ من الحملة على رأسه ولدا الملك سانخيز وبيدرو ولكنهما ما لبثا أن غادرا عكا دون أن يخوضا أية معركة ضد المسلمين[٢].

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٢٧ - ٣٣٠، د. محمود سعيد عمران، الحركة الصليبية، ٢/ ٩٠٨ - ٩١٣، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، الحروب الصليبية، صراع الشرق والغرب، ص ٩٢، رنيه كروسيه، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ١٩٦ - ١٩٩، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

(٢) أوروبا والمسيحية، ٢/ ٢٧٦، يان دوبرا تشينسكي، الحروب الصليبية، ص ١٢٨، أرنست باركر، تاريخ الحروب الصليبية، ٣/ ٥٦٧، ستيفن رنسيمان.



الحملة الصليبية الثامنة

ثم قامت الحملة الصليبية الثامنة من الناحية الترقيمية وعلى رأسها الملك الفرنسي لويس التاسع بعد عشرين سنة من حملته الصليبية السابعة أي من عام ١٢٥٠م إلى ١٢٧٠م، فتحركت هذه الحملة من فرنسا في السابع والعشرين من تموز / يوليو سنة ١٢٧٠م متجهة هذه المرة إلى تونس، لأنه كان يطمع في أن يساعده سلطانها المستنصر الحفصي على الدولة المملوكية لقوة علاقته بالنصارى.

وصلت سفن الحملة الصليبية أمام السواحل التونسية في السابع عشر من آب / أغسطس ١٢٧٠م فخاف سلطان تونس من هذه العملية، فهو لا يريد أن يساعد النصارى على أبناء ملته المسلمين في الأراضي المقدسة، فأغلق أبواب الدولة وأسوارها في وجه الجيش النصراني، فاضطر الجيش النصراني لأن يُعسكر في خرائب قرطاجة القديمة فقد كانت أسوار الدولة منيعة لا يستطيع الجيش اختراقها، آملاً أن يعود سلطان تونس إلى صفاء مودته للنصارى، ولكن هيهات.

أدت حرارة الصيف إلى تفشي مرض الطاعون في صفوف الجيش النصراني؛ فتوفي الملك على إثر إصابته به وكان ذلك في الخامس والعشرين من آب / أغسطس ١٢٧٠م، ففشلت الحملة الصليبية وهي ما زالت في المهد، دون أن يتمّ فيها تحقيق أي شيء، فهي أسرع حملة صليبية مُرَقّمة من الاستعداد ومن ناحية الفشل (١).

كان الظاهر بيبرس يتتبع أخبار هذه الحملة، ويخشى أن يكرر لويس التاسع قصة المنصورة في الحملة السابعة ولذلك اهتم بتحصين الثغور، فلما تأكد الظاهر بيبرس من فشل هذه الحملة ووفاة

---

(١) نبلاء ودراويش، تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٧٤، ١٧٥، د. إسماعيل نوري الربيعي، أوروبا والمسيحية، ٢/ ٢٧٧، يان دويرا تشينسكي، الحروب الصليبية، ص ١٢٩، أرنست باركر، الحروب الصليبية، صراع الشرق والغرب، ص ٩٢، رنيه كروسيه.

قائدها الملك لويس التاسع؛ عاد إلى الشام في شتاء عام ١٢٧١م ليهاجم إمارة طرابلس الصليبية، ففتح في طريقه عدّة حصون أقامها الصليبيّون حول طرابلس، إلاّ أنّه توقف عن التقدم نحو الإمارة الصليبيّة في طرابلس عندما وصلت إليه أخبار قدوم حملة صليبيّة جديدة إنجليزية بقيادة الأمير إدوارد والذي أصبح فيما بعد مَلِك إنجلترا إدوارد الأول وصلت هذه الحملة إلى عكا في مايو سنة ١٢٧١م.

كان عدد المشاركين من الجنود الصليبيين في هذه الحملة لا يرقى إلى الحملات الثمانية السابقة منذ عام ١٠٩٥م، إلا أن أهميتها تكمن في أن أعلىٰ منصب اكليروسي بعد البابا كان مشاركاً فيها، وهو الكاردينال ثيالوبالدو فيسكونتي البيجي، وقد كان ذا شخصية متميزة في مجلس الكرادلة، ولكنه عاد من فلسطين بعد معرفته باختياره بابا باسم غريغوريوس (جريجوري) العاشر (١ أيلول ١٢٧١ - ١٠ كانون الثاني ١٢٧٦م).

لحقت بهذه الحملة الإنجليزية حملة قبرصية وحملة من إمارة طرابلس، كما أن الأمير إدوارد استعان ببعض القوات المغولية، ولكن هذا الجمع الخليط فشل في مقابلة الظاهر بيبرس في حرب حقيقية، فعقد الأمير الإنجليزي هدنة مع الظاهر بيبرس مدتها عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام، فعاد الأمير الإنجليزي إلى الغرب سنة ١٢٧٢م محمّلاً بفشل حملته هذه؛ وهو ما وضح للبابوية أنها أصيبت بانتكاسة حقيقية في ملوكها وقادتها جعلتهم لا يستطيعون مواجهة القوات الإسلامية[١].

لذلك يقول أحد المؤرخين النصارى متحسراً: (ويعتبر إدوارد آخر محارب صليبي، جاء من الغرب فكل المحاولات التي بذلها القديس لويس، وشارل أمير انجو، وجيمس ملك أرجونه، والأمير إدوارد الانجليزي؛ لم تسفر إلا عن احتفاظ بيبرس بما أحرزه من ممتلكات)[٢].

---

(١) الحركة الصليبية، ٢/ ٩١٦ ٩١٧، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، الحروب الصليبية، ص ١٣٠، أرنست باركر، أوروبا والمسيحية، ٢/ ٢٧٧، يان دوبرا تشينسكي، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٣٠ ٣٣٣، د. محمود سعيد عمران، تاريخ الحروب الصليبية، ٣/ ٥٧١ ٥٧٩، ستيفن دنسيمان.

(٢) الحروب الصليبية، ص ١٣٠، أرنست باركر.

لم يفقد البابا جريجوري العاشر مطلقاً اهتمامه بفلسطين وبمواصلة العداء والقتال ضد المسلمين في ظل هذه الانتكاسات والتراجعات للروح الصليبية في قلوب ملوك أوروبا وشعوبها، إذ استمر في بث الدعوات لاتخاذ الصليب والقتال في الأراضي المقدسة، كما أنه أرسل رجالاً كنسيين ليقوّي من عزائم الصليبيين في الأندلس لمواجهة المسلمين والقضاء على البقية الباقية من المسلمين هناك، فقد كان وضعهم مختلفاً تماماً عما هو في أرض الشام، فقد دعا إلى عقد مجمع في ليون (الثاني) المسكوني الرابع عشر (٧ أيّار - ١٧ تمّوز ١٢٧٤م)، وشهد هذا المجمع عدد كبير من الأساقفة من الغرب والشرق، وعلى رأس الشرقيان بولس سيجني أسقف طرابلس، ووليم بوجيه مقدم الفرسان الداوية، وبعض أمراء الغرب، كما شهده رسل من قبل إمبراطور الدولة البيزنطية، ومن قبل خان المغول، وأقسموا جميعاً أن يشتركوا في حرب صليبية متحدة ضد الأمة الإسلامية تُزلزل كيانها، ليس على أرض الشام فحسب، ولكن تتجه إليهم حتى في مصر للقضاء على الخليفة والخلافة هناك.

وبعد انتهاء المجمع الديني في ليون استمر البابا جريجوري العاشر في مثابرته، بأن سعى لحمل أمراء أوروبا على تنفيذ ما أصدره المجمع من قراءات قوية، ففي سنة ١٢٧٥م وعد ملك فرنسا فيليب الثالث ابن لويس التاسع بالاشتراك في هذه الحملة، وفي الوقت نفسه حاول البابا أن يُهيئ الأرض المقدسة لقدوم الحملة الصليبية، فأمر بإصلاح الحصون وعمارتها في الماليك الصليبية هناك وأرسل إليها عدداً كبيراً من العساكر المعروفة بجودة تدريبها.

غير أن البابا جريجوري العاشر هلك في ١٠ يناير سنة ١٢٧٦م؛ وبموته انطوت المشروعات كلها وفشلت الحملات الصليبية.

علماً بأنه برز في مجمع ليون رأي فيلهلم الطرابلسي الدومينكاني عاش في عكا سنوات طويلة وفيه يرى ضرورة القيام بأعمال تنصيرية موجهة للمسلمين فهي أولى وأنفع من القيام بحملات حربية في هذه الأوقات؛ وذلك لقوة المسلمين وتماسكهم، وضعف النصارى الصليبيين وتفككهم، وقد

كان لهذا الرأي مناصرة في هذا المجمع[1].

وبموت البابا جريجوري العاشر انتهى المشروع البابوي القديم، والذي يهدف إلى الاستيلاء على بيت المقدس وما حوله من الأراضي، وأن يضعف القوة الإسلامية حتى لا تهدد الكيانات النصرانية، مع الأمل الكاثوليكي البابوي الذي كان يسعى إليه كل باباوات روما في أغلب الحملات الصليبية وهو التسلط على الكنيسة الأرثوذكسية الرومانية البيزنطية والكنيسة الأرثوذكسية المرقسية في الإسكندرية.

ثُمَّ إن هذا الفشل الكاثوليكي البابوي أثار تساؤلات في الغرب الأوروبي حول سلامة الإيمان النصراني، فأين ربّهم المُثلّث الذي يعبدونه؟ ولماذا سمح للمسلمين أن يتسلّطوا على الأرض التي وُلد فيها؟ لماذا لم يُخرج هؤلاء المسلمين الذين كفروا به، ولم يُؤمنوا بأنّه إله وُلد من رحم امرأة؟ [2].

في تلك الأوقات من الاضطرابات الصليبية واصل السلطان قلاوون ما بدأه الظاهر بيبرس في مقارعة الصليبيين فتمكّن من فتح أقوى إمارة صليبية وهي طرابلس في إبريل عام ١٢٨٩م، ثم توجّه إلى آخر معاقلهم في عكا وحاصرهم هناك، إلا أن مرضه وموته عام ١٢٩٠م عطّل هذه

(١) تاريخ الحروب الصليبية، ٣/ ٥٨٤ - ٥٨٦، ستيفن رنسيمان، الحروب الصليبية، ص ١٣٠، ١٣١، أرنست باركر، أوروبا والمسيحية، ٢/ ٢٨١ - ٢٨٤، ٢٨٩، يان دوبرا تشينسكي.

(٢) وهناك قصيدة كتبها في تلك الأوقات فارس من فرسان الداوية في عكا فاقد الثقة بربّهم المولود من رحم امرأة: (غضب وحزنٌ يقيمان في قلبي، ومن شدتهما أكاد لا أجرؤ على البقاء حياً. يبدو أن الرب شاء أن يُعين الأتراك على حسابنا... آه، واحسرتاه على مملكة الشرق التي فقدت الكثير الكثير بحيث لن تقوم لها قائمة بعد اليوم... إنّ كل من يريد أن يحارب الأتراك لا بد أن يكون معتوهاً؛ لأن يسوع المسيح توقف هو نفسه عن محاربتهم، لقد انتصروا ولسوف ينتصرون. ذلك أنهم يدفعوننا كل يوم نحو الهاوية، وهم على يقين من أن الرب أخلد إلى النوم الآن من بعد يقظة، ومحمد يتحدث من موقع قوة). انظر: الحرب المقدسة (الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم)، ص ٥٢٩، ٥٣٠، كارين آرمسترونغ، ترجمة: سامي الكعكي.

يقصد ذلك الفارس الصليبي بالأتراك أي المماليك حيث إنهم من الترك، فقد أكثر من شرائهم الملك الأيوبي نجم الدين أيوب، وكوّن منهم فرقاً حربية متعددة بحرية وبريّة للحفاظ على المملكة من الانقسام الداخلي والهجوم الخارجي. مكّن الله لهؤلاء المماليك الملك في الأرض فنصر بهم الإسلام والمسلمين. انظر: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص١٦٦، ١٦٧، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

المهمة لمدة عام كامل، فقام بعده ابنه السلطان الأشرف خليل بتحرير عكا عام ١٢٩١م، بينما تم إخراج الصليبيين من باقي المدن دون قتال يذكر فتم تسليم صور في شهر آيار / مايو، وصيدا في شهر حزيران / يونيو، والقلعة البحرية وبيروت في تموز / يوليو، وطرسوس في آب / أغسطس من السنة نفسها ١٢٩١م[1].

ويسقوط رأس المعاقل الصليبية في عكا انطوت صفحة مريرة كتبتها البابوية ضد المسلمين في الأراضي المقدسة على مدى أكثر من قرنين من الزمان ولم تستطع الاستمرار في تدوينها، بينما استمر عداء البابوية في تلك الأوقات للمسلمين في الأندلس.

لكن الحلم البابوي الصليبي في مهاجمة المسلمين في الأراضي المقدسة، واحتلال بيت المقدس أخذ وقتاً طويلاً كي يخمد، ولمدة مئتي سنة أخرى من طرد الصليبيين عام ١٢٩١م من عكا، وإلى آخر البابوات الذين تمنّوا مقابلة المسلمين عسكرياً البابا بيوس الثاني (١٩ آب ١٤٥٨ - ١٤ آب ١٤٦٤م) ظهرت طلائع لحملات صليبية[2]، لكن أياً من هذه لم تتمخض عن شيء، ولم يستطع

---

(١) نبلاء ودراويش (تاريخ الحروب الصليبية)، ص١٧٥، ١٧٦، د. إسماعيل نوري الربيعي، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٣٦ - ٣٤١، د. محمود سعيد عمران، الحركة الصليبية، ٢/ ٩٢١ - ٩٣٦، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، الحروب الصليبية، صراع الشرق والغرب، ص ٩٣، ٩٤، رنيه كروسيه، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ٢١٥ - ٢٢٠، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

(٢) ومن أهم المشاريع الصليبية التي كانت تطمح البابوية في نجاحها ضد المسلمين:
أ) في عهد البابا نيقولا الرابع والذي شهد طرد رجاله وعساكره من بيت المقدس، فمات عام ١٢٩٢م كمداً وحسرةً على ضياع السلطة البابوية على الأراضي المقدسة التي بناها البابوات من قبله، وعلى إثر فتح المسلمين لطرابلس في عام ١٢٨٩م شرع البابا نيقولا الرابع في الدعوة إلى حملة صليبية لحماية عكا والقلاع الصليبية من حولها، فلم يستجب له في أوروبا كلها إلا البنادقة الإيطاليون، فاتجهت الحملة الإيطالية إلى عكا في صيف عام ١٢٩٠م، وكان أثر هذه الحملة الإيطالية سيئاً على المملكة الصليبية في عكا فسببت هذه الحملة وقتلها الفلاحين المسلمين في عكا تحرك السلطان قلاوون وبعده ابنه السلطان الأشرف خليل لصد عدوان هذه الحملة الصليبية، ففتح المسلمون عكا وباقي القلاع والمدن التي كانت في أيدي الصليبيين في عام ١٢٩١م.
ب) الحملة الصليبية المزوّرة في عام ١٣٠٧م، والتي خدع بها ملك فرنسا فيليب الرابع (الجميل) البابا كليمنت الخامس ومقدم الفرسان الداوية ومقدم الفرسان الاسبتارية. ولم يكتشف البابا كليمنت الخامس كذب ملك فرنسا إلا بعد أن حصل الملك الفرنسي على أموال طائلة من البابوية، وكنائسها، وبعد أن قطعت البابوية في الدعوة لها شوطاً كبيراً.

ج) الحملة الصليبية التي توجهت إلى الإسكندرية في عام ١٣٦٥م بقيادة ملك قبرص، وقد اهتم البابا أوروبان الخامس بهذه الحملة منذ عام ١٣٦٣م؛ فقد دعا إليها البابا وعين كاردينالاً مندوباً عنه فيها، واشترك فيها عدد من نبلاء فرنسا وإسكتلنده وبعض الفرسان من الاسبتارية، وبلغ عدد سفنها خمساً وستين ومئة سفينة ووصلت إلى الإسكندرية يوم ٩ أكتوبر سنة ١٣٦٥م، وكانت تريد بعد احتلالها الإسكندرية أن تتجه إلى الأراضي المقدسة؛ لأنه ليس للصليبيين هناك قاعدة ساحلية، وقد استطاعت الحملة أن تحتل الإسكندرية وعملت في أبنائها المسلمين القتل والذبح؛ حتى إن المؤرخين قالوا: ما أجراه الصليبيون من قتل في الإسكندرية لم يضارعه سوى ذلك الذي حدث سنة ١٠٩٩م في بيت المقدس (الحملة الصليبية الأولى).

وكان في ذلك الوقت قد بدأ الضعف ينخر في الدولة المملوكية، ولكن الصليبيين لم يستطيعوا أن يتقدموا عن الإسكندرية فمكثوا فيها حتى أخرجهم المسلمون منها في ١٣٦٩م، وتعد هذه الحملة الصليبية أقوى الحملات ضد المسلمين بعد استرجاع عكا من الصليبيين عام ١٢٩١م، ففشلت هذه الحملة القبرصية في هدفها وهو انتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين، فأصيبت البابوية بالذهول لهذه النتائج المخزية بالنسبة لها.

د) وفي سنة ١٣٦٦م أي بعد احتلال الإسكندرية عام ١٣٦٥م قام البابا أوربان السادس بالدعوة إلى حملة صليبية مساعدة لتلك التي استولت على الإسكندرية لمساعدتها في التحرك إلى بيت المقدس، وتولى هذه الحملة أماديوس السادس كونت سافوي ابن عم شقيق للإمبراطور البيزنطي يوحنا الخامس، ولكن الإمبراطور البيزنطي طلب منها أولاً مساعدته في حربه ضد المسلمين الأتراك؛ وهكذا فقدت هذه الحملة مؤنتها وقوتها عند مضيق الدردنيل بسبب قتالها المسلمين الأتراك ففشلت هذه الحملة ولم تستطع المواصلة إلى الإسكندرية لمساعدة الحملة الصليبية القبرصية هناك والانطلاق سوياً إلى بيت المقدس، وكان فشلها في عام ١٣٦٧م.

هـ) وفي عام ١٣٩٠م فشلت حملة صليبية قادها لويس الثاني دوق بوربون وهدف فيها إلى مهاجمة تونس ولكن هذه الحملة انقلبت إلى فاجعة حلت بالنصارى الصليبيين من جرّاء كثرة القتل فيهم.

و) وفي عام ١٣٩٥م أصدر بابا روما بونيفاس التاسع وبابا أفينون بنيدكت الثالث عشر في وقت الانشقاق البابوي مرسومين يوصيان فيهما بإثارة حرب صليبية ضد الجيش الإسلامي التركي المتربص بالصليبيين ومنعهم من التقدم إلى الأراضي المقدسة، فاجتمع في ٢٠ إبريل سنة ١٣٩٦م أكبر حشد صليبي في ذلك الوقت لمواجهة المسلمين ناهز عدد العساكر فيه مئة ألف عسكري من ألمانيا وفرنسا وإنجلترا وإسبانيا وإيطاليا مع أسطول بحري من الفرسان الاسبتارية وبعض البنادقة والجنويين. وتقابل هذا الجيش المجمع مع الجيش الإسلامي بقيادة بايزيد العثماني في معقل نيكوبوليس على نهر الدانوب، فوقعت معركة قوية انتصر فيها المسلمون على الصليبيين، وتعد هذه الحملة أكبر الحملات الصليبية عدداً وأكثرها أسىً وفاجعة على الصليبيين وذكرتهم بالفواجع التي وقعت عليهم من المسلمين في الماضي.

ز) ثم كان عهد آخر الباباوات الذين دعوا إلى حملة صليبية حربية ضد المسلمين متجهة إلى بيت المقدس سنة ١٤٦٤م، وهو البابا بيوس الثاني والذي كان يُسمى (البابا الصليبي)، فقد أعلن في اجتماع المجلس الكنسي في الثاني والعشرين من أيلول سنة ١٤٦٣م بأنه بنفسه سيقود حملة صليبية ضد المسلمين، وفي ١٨ يوليه سنة ١٤٦٤م أقام قدّاساً احتفاليا في باسيليقا (كنيسة) القديس بطرس، قام فيه البابا بخياطة الصليب على صدره، وتوجه ومن معه من الجنود إلى البندقيّة، ولكن تفجّر خلاف قوي بين جنود حملته الفرنسيين والإسبانيين وهو ما أصاب البابا بالحزن العميق بسبب خلافات عساكره مع بعضهم، وفي اليوم الذي وصل إليه البابا بيوس الثاني مع حملته إلى البندقية في ١٤ أغسطس عام ١٤٦٤م توفي البابا قهراً على وضع الصليبيين المزيل وقوة المسلمين وعزتهم، وبموته

الغرب السيطرة على بيت المقدس إلاّ مع إقامة الانتداب البريطاني على فلسطين عام ١٩٢٠م، ولكنها لم تُسلَّم للبابوية والصليبية ولكنّها سُلِّمت لليهودية العالمية، وأُعلنت دولة اليهود على ثرى فلسطين الطاهر عام ١٩٤٨م الموافق ١٣٦٧هـ.

سقوط غرناطة:

بعد انتكاسة البابوية، والصليبية، وفشلها في محاربة المسلمين في حملة البابابيوس الثاني عام ١٤٦٤م، وكان قبلها بسنوات قليلة عام ١٤٥٣م قد انتصر المسلمون بقيادة محمد الفاتح على النصارى وفتح القسطنطينية؛ أصابت البابوية والدول الغربية الصليبية نوبة كبيرة من الحقد والكراهية على المسلمين وعزموا الأمر على الانتقام من المسلمين في أي مكان كانوا، ووجد الصليبيون فرصتهم السانحة لهذا الانتقام في ضعف المسلمين في الأندلس في آخر أيام مُلك بني الأحمر في غرناطة. حيث كانت الانقسامات الداخلية والعداوات ظاهرة بين حُكّام بني الأحمر، وموالاة بعضهم للصليبيين.

في هذه الظروف التي وقع فيها المسلمون اتحد الصليبيون لمواجهتهم، وبدأ هذا الاتحاد وتوحيد الكلمة بعرش المملكتين الصليبيتين الكاثوليكيتين مملكة أرغون بقيادة الملك فرديناند، ومملكة قشتالة بقيادة الملكة إيزبيلا ابنة يوحنا الثاني قشتالي، وقد كان للقسس وأساقفة الكنيسة الكاثوليكية دور عظيم في هذا الاتحاد، وزاد الاتحاد قوة بزواجهما، فأصبح هناك عرش واحد متحد يحمل معاني الحقد والكراهية للمسلمين.

حاصر الجيش الصليبي بقيادة فرديناند مملكة غرناطة المسلمة ولمدة تجاوزت سبعة أشهر ابتداءً

انهارت الحملة الصليبية قبل مواجهة المسلمين في ساحة المعركة، وفي ذلك يقول المؤرخ النصراني ستيفن رنسيمان متحسراً: (لقد حدث منذ نحو أربعة قرون أن أرسل البابا أوربان الثاني بدعوته للحرب الصليبية الألوف من الرجال ليخاطروا بحياتهم في الحرب المقدسة. أما الآن فإن كل ما استطاع البابا الذي اتخذ الصليب أن يحشده لم يتجاوز عدداً قليلاً من المأجورين، الذين تخلوا عن واجبهم، قبل أن تتحرك الحملة، لقد ماتت الروح الصليبية).
ولكن في حقيقة الأمر وبدليل الواقع والتوجهات أن الحروب الصليبية ضد الأمة الإسلامية لم تمت ولكن تعددت أشكالها واتجاهاتها فمنها الحروب المباشرة، ومنها الغزو الفكري المتمثل في الاستشراق والتغريب، وهذا ما سيظهر إن شاء الله في هذا البحث الذي أسأل الله فيه التوفيق والإعانة.
انظر: تاريخ الحروب الصليبية، ٣/ ٧٢١، ٧٨٠، ستيفن رنسيمان، أوروبا والمسيحية، الجزء الثالث (تمزّق الكنيسة)، ص ٩، ٥٧ - ٦٠، ١٦٧، ١٧٣، ٢٠١، ٢٠٢، يان دوبرا تشينسكي، الحروب الصليبية، ص ١٣٦ - ١٤١، أرنست باركر، الحروب الصليبية صراع الشرق والغرب، ص ١٦٣ - ١٦٦، رنيه كروسيه.

من ١٢ جمادى الثانية سنة ٨٩٦هـ - الموافق ٢٣ نيسان / إبرايل سنة ١٤٩١م حتى اشتد الجوع وفتك المرض بالمسلمين داخل أسوار غرناطة، فوافقوا على تسليم غرناطة للصليبيين بشروط[1]،

---

(١) وكان عدد شروط تسليم غرناطة للصليبيين سبعة وستين شرطاً، ومن هذه الشروط: تأمين الصغير والكبير من المسلمين في نفسه وأهله وماله، وإبقاؤهم في أماكنهم ودورهم وإقامة شريعتهم على ما كانت، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وألا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحداً، ولا يطلع نصراني للسور، ولا يتطلع على دور المسلمين، ولا يدخل مسجداً من مساجدهم، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمناً في نفسه وماله، ولا يُمنع مؤذن ولا مصلٍ ولا صائم ولا غيره من أمور دينه، وأن يوافق على الشروط كلها صاحب روما ويضع خط يده.

ولكن هيهات للصليبيين الحاقدين والنصارى الماكرين أن يحافظوا على هذه الشروط بل إنها نُقضت تماماً بل جُوزي المسلمون الذين بقوا في الأندلس بأخس أنواع الجزاء من مطاردة وقتل وتعذيب وتنصير بالقوة بل وضعت لهم محاكم خاصة سُميت بمحاكم التفتيش، حتى لقد قال المؤرخ الغربي بروسكوت: (بأنها أفضل مادة لتقدير مدى الغدر الإسباني فيما تلا من العصور).

وهذا ما فطن إليه فارس الأندلس في ذلك الوقت موسى بن أبي غسّان عندما هبّ معترضاً على هذا التسليم للنصارى فقال للملك أبي عبد الله الصغير ومن معه في قصر الحمراء: (لا تخدعوا أنفسكم ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم، إن الموت أقل ما نخشى، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها، وتدنيس مساجدها، وتخريب بيوتنا، وهتك نسائنا وبناتنا، وأمامنا الجور الفاحش، والتعصُّب الوحشي والسياط والأغلال، وأمامنا السجون والأنطاق والمحارق، أما أنا فو الله لن أراه. أي لا يرى التسليم للصليبين).

يقول الشاعر عدنان مراد بك يصف موقف موسى بن أبي غسّان من تسليم غرناطة للصليبيين:

أنا لن أقرّ وثيقةً فرضَتْ وأخضعَ للعدا
ما كان عذري إن جبنتَ وخفت أسبابَ الرَّدى
والموتُ حقٌ في الرقاب أطالَ أم قصرَ المدى
إني رسمتُ نهايتي بيدي، ولن أتردَّدا
كنتُ الحسامَ لأمتي واليومَ للوطن الفدا
أنا لن أعيشَ العُمرَ عبداً، بل سأقضي سيِّدا

انظر: مصرع غرناطة، ص ٦٥ - ٩٢، د. شوقي أبو خليل، الأندلس، ص ٢٨٨ - ٢٩١، د. عصام محمد شبارو، تأريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي، ص ٤٤٥ - ٤٥٢، د. علي محمد الصلابي، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص ٢٩٩ - ٣٠٣، د. خليل إبراهيم السامرائي وآخرون، موسوعة التاريخ الإسلامي، ٤/ ١٢٣ - ١٢٦، د. أحمد شلبي.

وأقف وقفة مختصرة مع محاكم التفتيش (التحقيق) الكاثوليكيّة التي وضعت للمسلمين في بلاد الأندلس، فأقول: قد بدأت تلك المحاكم، أو ما يُسميها الكاثوليك (الديوان المقدس) قبيل سقوط غرناطة آخر المدن الإسلاميّة هناك، وذلك عندما أصدر البابا سيكتوس الرابع (٩ آب ١٤٧١ - ١٢ آب ١٤٨٤م) في عام ١٤٧٨م أوامره البابويّة بإنشاء هذه المحاكم على غرار ما كانت عليه في إيطاليا، وفي شهر أغسطس من عام ١٤٨٣م عيّن البابا سيكتوس الرابع الكاهن الدومينيكي (توماس دو تور كويمارا) أول رئيس لمحاكم التفتيش الكاثوليكيّة في الأندلس ضد المسلمين، فبدأ بتكوينها في إشبيليو وقرطبة وغيرهما من البلدان الإسلاميّة في الأندلس والتي احتلها النصارى،

ثمّ كانت محاكم التفتيش ضد المسلمين بكل معانيها الوحشيّة لما سقطت غرناطة - آخر قلاع المسلمين في إسبانيا - سنة (٨٩٧هـ - ١٤٩٢م)، وكان ذلك نذيرًا بسقوط صرح الأمة الأندلسية المسلمة الديني والاجتماعي، وتبدد تراثها الفكري والأدبي، وكانت مأساة المسلمين هناك من أفظع مآسي التاريخ؛ حيث شهدت تلك الفترة أعمالاً بربرية وحشية ارتكبتها تلك المحاكم؛ لتطهير إسبانيا من آثار الإسلام والمسلمين، وإبادة تراثهم الذي ازدهر في هذه البلاد زهاء ثمانية قرون من الزمان.

هاجر كثير من مسلمي الأندلس إلى الشمال الإفريقي بعد سقوط مملكتهم؛ فرارًا بدينهم وحريتهم من اضطهاد النصارى الكاثوليك هناك، فعادت تلك المنطقة إلى دينها القديم، أما من بقي من المسلمين فقد أجبر على التنصر أو الرحيل، وأفضت هذه الروح النصرانية المتعصبة إلى مطاردة المسلمين العزل وظلمهم وترويعهم، انتهى بتنفيذ حكم الإعدام ضد أمة ودين على أرض إسبانيا.

نشطت محاكم التفتيش في ارتكاب الفظائع ضد المسلمين، وحتى ضد الموريسكيين (المسلمين المتنصرين ظاهريًا)، فكان الموريسكيون بالرغم من دخولهم في النصرانية يتعلقون سرًا بالإسلام، وكثير منهم يؤدون شعائر الإسلام خفية، وكانوا يحافظون على لغتهم العربية فصدرت عشرات القرارات التي تحول بين هؤلاء المسلمين ودينهم ولغتهم وعاداتهم وثقافتهم، فقد أحرق الكردينال «خمينيث» عشرات الآلاف من كتب الدين والشريعة الإسلامية، وصدر أمر ملكي يوم (٢٢ ربيع أول ٩١٧هـ/ ٢٠ يونيو ١٥١١) يلزم السكان المسلمين الذي تنصروا حديثًا أن يسلموا سائر الكتب العربية التي لديهم، وكانت لوائح الممنوعات ترد تباعًا، وحوت أوامر غريبة منها: حظر الختان، وحظر الوقوف تجاه القبلة، وحظر الاستحمام والاغتسال، وحظر ارتداء الملابس العربية، ومنع التخاطب باللغة العربية، وانتهت بفرض التنصير الإجباري على المسلمين، فحمل التعلق بالأرض وخوف الفقر كثيرًا من المسلمين على قبول التنصر ملاذًا للنجاة، ورأى آخرون أن الموت خير ألف مرة من أن يصبح الوطن العزيز مهدًا للكفر، وفر آخرون بدينهم، وكتبت نهايات متعددة لمأساة واحدة هي رحيل الإسلام عن الأندلس.

ولم تفلح مساعي الموريسكيين في الحصول على دعم خارجي فعال من الدولة العثمانية أو المماليك في مصر، رغم حملات الإغارة والقرصنة التي قام بها العثمانيون والجزائريون والأندلسيون على السفن والشواطئ الإسبانية، ودعم الثوار الموريسكيين.

واستمرت محاكم التفتيش في محاربة هؤلاء المسلمين طوال القرن السادس عشر الميلادي.

وبعد مرور أربعة قرون على سقوط الأندلس أرسل نابليون حملته إلى إسبانيا وأصدر مرسوماً سنة ١٨٠٨م بإلغاء دواوين التفتيش في المملكة الإسبانية.

* من أساليب التعذيب في محاكم التفتيش ضد المسلمين:

- الجلد: وقد كان المتهم يساق إلى مكان عام عارياً تماماً وينفذ فيه الجلد، وغالباً ما كان يموت تحت وطأة الجلد، فإن نفذ وكتبت له الحياة يعيش كوضع المحكوم بالبراءة من حيث الإعاقة ونبذ المجتمع له.

- الإعدام: وهو الحكم الأكثر صدوراً عن محاكم التفتيش؛ ويتم الإعدام حرقاً وسط ساحة المدينة.

- التعذيب بالحرارة والنار: فيخضع المتهم للكيّ بالحديد الساخن، بل إنه في بعض الحالات يتعرّض لتقطيع لحم جسده بواسطة القضبان الحديديّة الساخنة الملتهبة حتى الموت، وكذلك استعمل في تعذيب المتهم الماء المغلي والزيت المغلي، والرصاص الذائب والساخن.

- التعذيب بالماء: وكان أبسط استعمال للماء في التعذيب هو إجبار الضحيّة على شرب كميات كبيرة من الماء. في البداية يكون شرب الماء راحة للضحية من التعذيب السابق الذي تعرَّض له ولكن عند إجباره على شرب المزيد من

الماء يتنفخ الضحية انتفاخاً كبيراً مما يُسبِّب له الكثير من الألم، كما أنّه توضع قطعة قماش فوق فم وأنف الضحية، ويتمُّ سكب الماء فيها ودفع القماشة داخل فم الضحية وصولاً إلى حلقه بحيث لا يعود قادراً على التنفس.

وهناك أساليب تعذيب أخرى تُعبِّر عن ساديّة وأنواع غير معتادة من التعذيب في كتاب مثير للاهتمام عنوانه (مفتاح إلى البابوية والكثلكة) Popey to Key Maste A. ولنستمع إلى هذه القصة التي يرويها لنا أحد ضباط الجيش الفرنسي الذي دخل إلى إسبانيا بعد الثورة الفرنسية (كتب (الكولونيل ليموتسكي) أحد ضباط الحملة الفرنسية في إسبانيا قال: « كنت سنة ١٨٠٩ ملحقاً بالجيش الفرنسي الذي يقاتل في إسبانيا وكانت فرقتي بين فرق الجيش الذي احتل (مدريد) العاصمة وكان الإمبراطور نابليون أصدر مرسوماً سنة ١٨٠٨م بإلغاء دواوين التفتيش في المملكة الإسبانية.

أخذنا حملة لتفتيش أحد الأديرة التي سمعنا أن فيها ديوان تفتيش، فأذنت للضابط بالبحث، فأمر الجنود أن يرفعوا السجاجيد الفاخرة عن الأرض، فنظرنا فإذا باب قد انكشف، كان قطعة من أرض الغرفة، يُفتح بطريق ماكرة بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جانب رجل مكتب رئيس الدير. أخذ الجنود يكسرون الباب بقحوف البنادق، فاصفرت وجوه الرهبان، وعلتها الغبرة.

وفُتح الباب فظهر لنا سُلَّم يؤدي إلى باطن الأرض فهبطت على درج السلم يتبعني سائر الضباط والجنود، شاهرين سيوفهم حتى وصلنا إلى آخر الدرج، فإذا نحن في غرفة كبيرة مرعبة، وهي عندهم قاعة المحكمة، في وسطها عمود من الرخام، به حلقة حديدية ضخمة، وربطت بها سلاسل من أجل تقييد المحاكمين بها. وأمام هذا العمود كانت المصطبة التي يجلس عليها رئيس ديوان التفتيش والقضاة لمحاكمة الأبرياء. ثم توجهنا إلى غرف التعذيب وتمزيق الأجسام البشرية التي امتدت على مسافات كبيرة تحت الأرض. رأيت فيها ما يستفز نفسي، ويدعوني إلى القشعريرة والتقزز طوال حياتي. رأينا غرفاً صغيرةً في حجم جسم الإنسان، بعضها عمودي وبعضها أفقي، فيبقى سجين الغرف العمودية واقفاً على رجليه مدة سجنه حتى يموت، ويبقى سجين الغرف الأفقية ممداً بها حتى الموت، وتبقى الجثث في السجن الضيق حتى تبلى، ويتساقط اللحم عن العظم، وتأكله الديدان، ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من جثث الموتى فتحوا نافذةً صغيرة إلى الفضاء الخارجي. وقد عثرنا في هذه الغرف على هياكل بشرية ما زالت في أغلالها. كان السجناء رجالاً ونساءً، تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة عشرة والسبعين، وقد استطعنا إنقاذ عدد من السجناء الأحياء، وتحطيم أغلالهم، وهم في الرمق الأخير من الحياة. كان بعضهم قد أصابه الجنون من كثرة ما صبوا عليه من عذاب، وكان السجناء جميعاً عرايا، حتى اضطر جنودنا إلى أن يخلعوا أرديتهم ويستروا بها بعض السجناء. أخرجنا السجناء إلى النور تدريجياً حتى لا تذهب أبصارهم، كانوا يبكون فرحاً، وهم يقبّلون أيدي الجنود وأرجلهم الذين أنقذوهم من العذاب الرهيب، وأعادوهم إلى الحياة، كان مشهداً يبكي الصخور. ثم انتقلنا إلى غرف أخرى، فرأينا فيها ما تقشعر لهوله الأبدان، عثرنا على آلات رهيبة للتعذيب، منها آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم البشري، كانوا يبدؤون بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر والرأس واليدين تدريجياً، حتى يهشم الجسم كله، ويخرج من الجانب الآخر كتلة من العظام المسحوقة، والدماء الممزوجة باللحم المفروم، هكذا كانوا يفعلون بالسجناء الأبرياء المساكين، ثم عثرنا على صندوق في حجم جسم رأس الإنسان تماماً، يوضع فيه رأس الذي يريدون تعذيبه بعد أن يربطوا يديه ورجليه بالسلاسل والأغلال حتى لا يستطيع الحركة، وفي أعلى الصندوق ثقب تتقاطر منه نقط الماء البارد على رأس المسكين بانتظام، في كل دقيقة نقطة، وقد جُنّ الكثيرون من هذا اللون من العذاب، ويبقى المعذب على حاله تلك حتى يموت. وآلة أخرى للتعذيب على شكل تابوت تثبت فيه سكاكين حادة. كانوا يلقون الشاب المعذب في هذا التابوت، ثم يطبقون بابه بسكاكينه

وعلى أن يلزم المندوب البابوي الصليبيين بالوفاء وكان ذلك في ٢١ محرم سنة ٨٩٧هـ - الموافق ٢٥ تشرين الثاني / نوفمبر عام ١٤٩١م، فدخلها النصارى في ٢ كانون الثاني في يناير عام ١٤٩٢م.

غادر أمير غرناطة أبو عبد الله محمد الصغير (ابن الحُرّة) الملقب (بالخائن) غرناطة ليقيم في البشرات المُطلّة على غرناطة، وما أن وصلها حتى شاهد قصر الحمراء وقد ارتفعت فوقه الصلبان والأعلام النصرانية، فبكى ملكه المفقود، فنظرت إليه والدته عائشة الحُرّة، وهي تخاطبه قائلة: (ابك مثل النساء مُلكاً لم تحافظ عليه مثل الرجال).

وبسقوط غرناطة سقطت الأندلس نهائياً، ليخسر المسلمون أهم موقع استراتيجي وحضاري يمثل البوابة الغربية للقارة الأوروبية.

وهكذا انتهت الحروب الصليبية القديمة التي أجهدت البابوية نفسها في توجيهها ضد المسلمين

وخناجره. فإذا أغلق مزق جسم المعذب المسكين، وقطعه إرباً إرباً. كما عثرنا على آلات كالكلاليب تغرز في لسان المعذب ثم تشد ليخرج اللسان معها، ليقص قطعة قطعة، وكلاليب تغرس في أثداء النساء وتسحب بعنف حتى تتقطع الأثداء أو تبتر بالسكاكين. وعثرنا على سياط من الحديد الشائك يُضرب بها المعذبون وهم عراة حتى تتفتت عظامهم، وتتناثر لحومهم.

وبعد هذا يتبيّن أن محاكم التفتيش تمثّل أحد أسوأ فصول التاريخ الغربي دموية تجاه المسلمين.

ولذلك كان من الطبيعي ألا يتوقف المؤرخون والمستشرقون الغربيون عندها إلا نادراً في محاولة منهم لتجاوز وقائعها السوداء، بل نجدهم في حالات أخرى كثيرة يحاولون وضع التبريرات لها بادعاء أنها كانت أخطاء غير مقصودة ارتكبها القساوسة في محاولتهم للحفاظ على المسيحية بعد خروج المسلمين من الأندلس، وأن الإسلام عندهم هو المسؤول عن تلك المحاكم؛ لأنه دفع بالمسيحيين إلى استنباط محاكم التفتيش ليصدوا مدده في الغرب!

على أي حال، فإن السواد الذي غطى تاريخ محاكم التفتيش لم تستطع السنوات أن تزيله من ذاكرة التاريخ العالمي، وحتى الكنيسة عينها لم تعد قادرة على تجاهل مسؤوليتها المباشرة عن الفظائع التي ارتكبت بحق المسلمين من خلال تلك المحاكم؛ ولهذا نجد أنه مثلاً في أواسط العام ٢٠٠٢م قدمت مجموعة مكونة من ٣٠ مؤرخاً من مختلف أنحاء العالم مشروع قرار إلى البابا بولس الثاني حول إمكان اعتذار الكنيسة الكاثوليكية عن محاكم التفتيش وجرائمها بحق المسلمين، وجاء مشروع المؤرخين الغربيين من بين التحضيرات النصرانية لاستقبال الألفية الثالثة للميلاد.

انظر: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، ص ٢٩٥ - ٣٠٢، للشيخ محمد الغزالي، قادة الغرب يقولون دمّروا الإسلام أبيدوا أهله، ص ٩ - ١٥، جلال عالم، قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام، ٧٩ - ٨٦ د. توفيق الطويل، تاريخ التعذيب، ص ٦٩ - ١٠٩، براين اينز، ترجمة: مركز التعريب والترجمة، محاكم التفتيش.. من ينصف المسلمين من جرائمها؟ بقلم: عبد الرحمن حمادي، مجلة الجندي المسلم، العدد (١٢٠)، تاريخ ١/ ٧/ ٢٠٠٥م.

في كل من الأراضي المقدسة، وما حولها من بلاد الشام (الشرق الأدنى)، وفي بلاد الأندلس (الغرب)، وكانت نتائجها مختلفة.

انتهت الحروب الصليبية في القرنين الرابع عشر، والخامس عشر الميلاديين الموجهة إلى بلاد المسلمين في الأراضي المقدسة (قلب العالم الإسلامي) بالفشل الذريع، فطهّر المسلمون تلك البلاد المباركة الطاهرة ومقدساتهم من دنس الصليبيين، فعادت البابوية ومن تبعها من النصارى إلى روما الإيطالية وأفينون الفرنسية وأوروبا يجرّون أذيال الهزيمة، ولم يستطيعوا أن يُقيموا دولة نصرانية في قلب العالم الإسلامي، فتحول الحلم البابوي الذي كانت تتمنى البابوية تطبيقه على أرض الواقع إلى كابوس يزعجها على مر السنين.

أما الجانب الآخر من طرفي النزاع بين الصليبيين والمسلمين في الغرب (الأندلس) فانتهى في القرن الخامس عشر الميلادي باحتلال النصارى أراضي المسلمين هناك، ومن أكبر الأسباب في هزيمة المسلمين على أرض الأندلس أنهم كانوا متفككي الروابط الأخوية والدينية مع بعضهم، مع ميل بعض المسلمين إلى الغرب النصراني في بعض عاداته وتقاليده، كما أن بُعد المسلمين هناك عن قلب العالم الإسلامي قد يكون من أسباب هزيمتهم حيث كانوا في وسط نصراني كبير وبجانب مصدر الحروب الصليبية ومنطلقها البابوية؛ فالبابوية كانت ترى أن الأندلس قطعة من قلب العالم النصراني الغربي يجب أن تعود إليه؛ فالوضع في الأندلس جعل الكفتين غير متعادلتين؛ لذلك تفوق الصليبيون على المسلمين.

ومع هذا فإن العالم النصراني الصليبي لم تخمد جذوة الحقد في نفسه نحو المسلمين، بل ظلت نار الحقد والكراهية تأكل قلوب الصليبيين في الغرب والشرق ينتظرون الفرصة السانحة للثأر والانتقام وضرب الأمة الإسلامية، حتى مع سقوط البابوية في قلوب النصارى وحياتهم.

فإن هذه العقيدة الصليبية وهي كره الإسلام والمسلمين والخوف منهم والحذر في التعامل معهم، والتي عملت البابوية وكنائسها جاهدة في ترسيخها في عقول الشعوب الأوروبية النصرانية

وقلوبهم؛ ظلت تعمل عملها في كل وقت وزمان يتعامل فيه النصارى مع المسلمين، حتى في أشد الأوقات والأزمنة علمانية في حياة النصارى، وفي وقت وزمان لم يكن للبابوية وكنائسها وزن عند شعوب أوروبا النصرانية، فضلاً عن حُكّامها.

فإن الدول النصرانية تتعامل بالعلمانية بعد سقوط مكانة البابوية وكنائسها في أوروبا، إلا مع المسلمين، فإنها تتحول إلى صليبية دينية وبعقلية الحروب الصليبية، والتي لم تستطع أن تتخلص منها في عقلها الباطني، وفي نفسيات أعلى رجالها (اللادينيين) العلمانيين، وفي أزمنة تعد هي أزمنة التطبيق الصريح للعلمانية، وفصل الدين عن شؤون الحياة، وظهور الاحتقار العلني للبابوية وكنائسها وشعاراتها الدينية، وذلك بعد الثورة الفرنسية عام ١٧٩٨م وخلال القرن الثامن عشر وما بعده إلى يومنا هذا بدايات القرن الحادي والعشرين، وظهور المذاهب الفلسفية الإلحادية في كُلِّ شيء في شؤون الحياة الغربية إلا في التعامل مع الإسلام والمسلمين؛ لتأصل هذه النظرية الصليبية في عقولهم؛ لذلك هم لم يستطيعوا التعايش مع المسلمين إلا بصعوبة بالغة، وبلغة تنصير المسلمين أو تمييع أوامر الدين الإسلامي في قلوب من تعايش معهم من المسلمين، فظهرت على إثر ذلك العلمنة بين المسلمين.

ومع انتهاء الحروب الصليبية القديمة لم يمتنع الصليبيون من التقدم في البلدان الإسلامية واحتلالها ونفث سمومهم الحاقدة في الأمة الإسلامية من جهة الغرب والشرق، إلا أنهم وجدوا قوى إسلامية تحد من أطماعهم الصليبية، فقد واجهوا في جهة المغرب بعد احتلالهم أراضي المسلمين في إسبانيا، وعندما أرادوا التقدم في أراضي المسلمين في شمال المغرب العربي؛ دولاً إسلامية متماسكة منعت الصليبيين من التقدم، ومن أشهر هذه المعارك معركة وادي المخازن عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م.

انتصر الجيش الإسلامي على الجيوش الصليبية الكاثوليكية في هذه الحملة الكبيرة وهو ما

أوقف بعد ذلك طمع الصليبيين في الأراضي الإسلامية في جهة المغرب[1].

أما في جهة المشرق العربي فكانت الدولة الإسلامية العثمانية بالمرصاد للحركات الصليبية، بل إنها وصلت إلى مرحلة من القوة أن غزت الأراضي الصليبية ونشرت الإسلام في ربوعها، فأضحى العالم النصراني الشرقي خاضعاً لحكم المسلمين، حيث كان المسلمون يجتازون نهر الدانوب ففتحوا رودس الصليبية عام ١٥٢٣م، وفتحوا جزيرة قبرص الصليبية سنة ١٥٧٠م[2].

فأقام العثمانيون أكبر (دولة إسلامية عرفها التاريخ في قرونه المتأخرة، امتدت على ثلاث قارات هي: آسيا، وأوروبا، وإفريقيا، فاستطاعوا إزالة الدولة البيزنطية من الوجود، واستولوا على البلقان، ودقوا أبواب فيينا عاصمة الإمبراطورية النمساوية على نهر الدانوب ووصلوا جنوب روسيا وساحل بحر الأدرياتيك وهددوا روما نفسها مركز البابوية، فبسطت بذلك لواء الإسلام على ما يُعرف اليوم بدول أوروبا الشرقية، واليونان، وجزر البحر المتوسط، وأجزاء من إيطاليا والنمسا)[3].

---

(١) خرج الجيش الصليبي المكوّن من جنود من ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وعلى رأسهم الجيش البرتغالي بقيادة ملك البرتغال سبستيان يوحنا الثالث، فأبحرت السفن الصليبية من ميناء لشبونة باتجاه المغرب يوم ٢٤ حزيران / يونيو سنة ١٥٧٨م، فوصلت قادس ثم طنجة حتى وصلوا إلى مدينة تطاوين على بعد نحو ثمانية عشر ميلاً من المضيق وستة أميال من البحر لم يستطع الجيش الإسلامي المغربي مقابلتهم لكثرة عددهم حتى نجحت التعبئة العامة للشعب المغربي فقام المشايخ والعلماء في حث الناس على الجهاد في سبيل الله ورد عدوان الصليبيين فتمكنت القوى الشعبية من شحذ همة الجيش الإسلامي بقيادة الملك عبد الملك المعتصم بالله، فتقابل الجيشان في مكان بالقرب من مدينة (القصر الكبير) المغربية، يُسمى وادي المخازن، وبدأ القتال صباح الإثنين ٣٠ جمادى الآخرة ٩٨٦هـ - ٤ آب/ أغسطس ١٥٧٨م، وكان يوماً مشهوداً في التاريخ الإسلامي ثبت الجيش المنظم مع عامة الشعب ضد الجيوش الصليبية التي كانت تشرف عليها البابوية. انظر: معركة وادي المخازن، ص٤٥، ٧٥، د. شوقي أبو خليل.

ولا شك أن من أهم أسباب نجاح المسلمين في هذه المعركة الفاصلة في منع تقدم الصليبيين إلى الديار الإسلامية، ما وجده المسلمون من آلام وما أحسُّوا به من خزي وعار جرّاء سقوط غرناطة، وضياع الأندلس من أيديهم، ووحشية محاكم التفتيش الصليبية، فصور جرائمها التي ارتكبت في حق المسلمين ما تزال ماثلة في الأذهان.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية، ٣/ ٧٨١، ستيفن رنسيمان.

(٣) حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة، ص ١٠٨، د. جميل عبد الله المصري.

وهكذا، وبعد أن (انتهى بالنسبة للمسيحية كل استعمار لها في آسيا الإسلامية ١٢٩١م، وبأقل من قرن فيما بعد، كانت آسيا الإسلامية نفسها هي التي تقوم بغزو المسيحية)[١].

كما أنّ معظم الدول العربية والإسلامية دانت لهذه الخلافة الإسلامية العثمانية؛ لذلك فإن ظهور هذه الدولة الإسلامية كان عزاً للمسلمين وسداً منيعاً في وجه الصليبيين والحد من أطماعهم في عقول المسلمين وفي بلدانهم وأراضيهم، بعد أن كان العالم الإسلامي على وشك أن يقع بين فكي كماشة الصليبيين من المشرق والمغرب.

خطورة سقوط الخلافة العثمانية الإسلامية:

وبعد هذه المواجهات القوية بين الصليبية الأوروبية بقسميها (الكاثوليك والبروتستانت)[٢] وعلى رأسهم البابوية وبين الأمة الإسلامية؛ أدرك الصليبيون، وساد الاعتقاد فيهم أن هذه المواجهات لا تجدي نفعاً في ظل وجود قوة إسلامية متماسكة، فعملوا على تكوين خطة متكاملة لنفث كرههم وصليبيتهم في الأمة الإسلامية وإضعافها، فكانت هذه الخطة المُحكمة التي نجحت أوروبا في تطبيقها على الأمة الإسلامية، والمكوّنة من ثلاثة بنود، وهي:

- إضعاف الدولة الإسلامية المُوحدة وتشويه صورتها وتمزيقها، وهي الدولة العثمانية.
- كشف طرق بحرية جديدة لتطويق العالم الإسلامي وحصاره.
- غزو العالم الإسلامي، ولكن من الناحية الفكرية وضرب أصوله وقواعده فكرياً وبث أفكار ومبادئ تجعل المسلمين يبتعدون عن دينهم الإسلامي.

مع العمل المتواصل لإدخال النصرانية وبثها بين الشعوب الإسلامية في كل مرحلة من مراحل هذه الخطة المتزامنة والمتصلة فيما بينها.

---

(١) الحروب الصليبية (صراع الشرق والغرب)، ص ١٦٣، رنيه كروسيه.

(٢) فقد أخذ البروتستانت عقيدة المواجهة ضد المسلمين بعد ضعف السلطة البابوية من الناحية السياسية في أوروبا فضلاً عن خارجها، فالعقيدة التي عملت البابوية في تنميتها في قلوب النصارى وعقولهم وهي كره المسلمين والعمل على تحجيمهم ما فتئت تعمل عملها في أوروبا النصرانية، ومنهم البروتستانت (وعلى رأسهم أمريكا) التي غُذيت بكره المسلمين من جهتين من جهة البابوية الكاثوليكية، ومن جهة اليهود.

فكانت أهم المهمات للدول الصليبية الأوروبية هي إسقاط الخلافة الإسلامية التي عملت على توحيد الصف الإسلامي ابتداءً من شبه الجزيرة العربية وفلسطين وسورية ومصر وإيران والعراق وتونس والجزائر حتى حدود المغرب وأذربيجان وأرمينيا وشبه جزيرة الأناضول وشبه جزيرة البلقان وأوروبا الشرقية حتى جنوب فيينا وأبواب لينجراد بما في ذلك بلجراد وصربيا والجبل الأسود وكوسوفو والسنجق والبوسنة والهرسك[1]، أي: أن الصف الإسلامي حوى أجزاء كبيرة من إفريقيا وآسيا وأوروبا، وبهذه القوة والتماسك لم يستطع الغرب النصراني الصليبي أن يعبث بالأمة الإسلامية، ولم تستطع البابوية أن تعمل على تنفيذ حلمها في ضرب الدين الإسلامي، والتسلط على أراضيه المقدسة.

لذلك عمل النصارى جاهدين وماكرين ومستغلين كل طريقة يستطيعون من خلالها ضرب هذه الدولة الإسلامية وتمزيقها ومن ثم تمزيق العالم الإسلامي حتى يتسنى لهم الوصول إلى مطامعهم الدينية والاقتصادية فيه.

فسلكت الصليبية الغربية في سبيل تقطيع أوصال الخلافة الإسلامية العثمانية وإضعاف كيانها مسالك عدة، منها:

أ) القيام بثورات وحروب صليبية متواصلة ضد الخلافة، خاصة في أطرافها البعيدة عن عاصمتها وذلك لتشتيت قوتها وإضعافها عسكرياً.

ومن أمثلة تلك الثورات والحروب الصليبية:

١. العمليات الحربية المتتالية التي قامت بها الدولة البرتغالية بموافقة وتأييد تام من البابا نيقولا الخامس على المغرب الأقصى والشمال الإفريقي، ومن أهم هذه العمليات ما قام به الأمير البرتغالي هنري الملاح عام ١٤٥١م، واحتل في هذه العملية ميناء سبتة المغربي وميناء أغادير، ومدن متعددة في تلك المنطقة.

---

(١) أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ: (الدولة العثمانية) ١/ ١ ٢، د. جمال عبد الهادي مسعود، و د. وفاء محمد رفعت جمعة، وعلي أحمد لبن.

وقد حاول هذا الأمير البرتغالي الالتفاف حول العالم الإسلامي، فقد كان شديد التعصب للنصرانية عظيم الحقد على المسلمين، وقد كان مؤيداً تأييداً كاملاً من البابوية في روما[1]، قال عنه البابا نيقولا الخامس: (إن سرورنا العظيم إذ نعلم أن ولدنا هنري أمير البرتغال، إذ يترسم خطى والده العظيم الملك يوحنا، وإذ تلهمه الغيرة التي تملك الأنفس كجندي باسل من جنود المسيح، قد دفع باسم الله إلى أقاصي البلاد وأبعادها عن مجال علمنا، كما أدخل بين أحضان الكاثوليكية الغادرين من أعداء الله وأعداء المسيح مثل العرب والكفرة)[2].

وقد تمكنت الدولة الإسلامية العثمانية من استرداد بعض الموانئ الإسلامية في إفريقيا من الدولة البرتغالية، مثل: مصوع وزيلع ومقديشو وممبسة، فمُنيت الدولة البرتغالية بخسائر عظيمة وصُدت بعيداً عن الممالك الإسلامية، فنجحت الدولة الإسلامية العثمانية في درء الخطر البرتغالي على العالم الإسلامي[3].

٢. الثورة التي قامت ضد الخلافة الإسلامية في المجر والنمسا عام ١٥٤٩م، وقد كان للقسيس مارتوزي من الكنيسة الكاثوليكية النمساوية الدور الأساسي في قيامها[4].

٣. الحرب الصليبية التي أعلنها البابا بيوس الخامس (١٥٦٦ - ١٥٧٢م) ضد الخلافة الإسلامية العثمانية والتي استعادت الصليبية على أثرها النفوذ البحري على السواحل الإيطالية وما حولها، فقد تجمع حشد من الصليبيين لمواجهة القوة الإسلامية البحرية، وكانت القوات الصليبية مكوّنة من ١٢سفينة بابوية، و٧٠ سفينة إسبانية، و١٤٠سفينة بندقية، و ٩ سفن تابعة للرهبان المالطيين، تقابلت مع الجيش الإسلامي العثماني في مكان يُدعى ليبانتو عند مدخل خليج كورنث في ١٧ جمادى الأولى سنة ٩٧٩هـ - الموافق ٧ أكتوبر عام ١٥٧١م.

---

(١) الدولة العثمانية (عوامل النهوض وأسباب السقوط)، ص ١٩٢، ١٩٣، د. علي محمد الصلابي.

(٢) دراسات متميزة في العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٥٨، د. يوسف الثقفي.

(٣) الدولة العثمانية (عوامل النهوض وأسباب السقوط) ص ١٩٦، ١٩٧، د. علي محمد الصلابي.

(٤) تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط، ص ٩٦، وديع أبو زيدون.

وكانت نتيجة هذه المعركة انكسار البحرية الإسلامية العثمانية، فهي بداية انحسار النفوذ العثماني في البحر المتوسط.

وكان لهذا الانتصار طعم خاص في نفس البابوية ونفوس الدول الصليبية خاصة المشاركة في هذه المعركة، حتى إن البابا بيوس الخامس ألقى خطاباً في كنيسة القديس بطرس مجد فيه قائد القوات الصليبية (دون جون شارلكان) والذي كان له دورٌ مشهودٌ عند البابوية عندما ساعد في إخراج البقية الباقية من المسلمين من إقليم غرناطة.

ظل العالم النصراني الصليبي ومؤرخوه يُنوّهون بهذا النصر البحري، حتى إن القواميس المدرسية الحديثة لا تذكر ثغر ليبانتو إلا وتذكر معه دون جون على أنه أنقذ النصرانية من خطر المسلمين الذي كان يحيق بهم[1].

٤. استغلت فرنسا هزيمة الأسطول العثماني في معركة ليبانتو، وبدأ ملكها شارل التاسع في التحرك ضد الدولة الإسلامية العثمانية من جهة المغرب الإسلامي[2].

وهكذا تجمعت الدول الصليبية في القارة الأوروبية وأقامت أكثر من واحد وثلاثين حرباً صليبية ضد الخلافة الإسلامية العثمانية[3]، حتى وصلت إلى مبتغاها وهدفها وهو إنهاك القوة الإسلامية، ولهذا تمكّن الفرنسيون مع ضعف الخلافة الإسلامية العثمانية من إقامة أول هجوم حربي صليبي صريح على ولاية عربية إسلامية في التاريخ الحديث، وهي مصر، فكانت الحملة الصليبية الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨م - ١٢١٣هـ فتحاً لملف الحروب الصليبية في العصر الحديث بشكل جِدّي ومُؤثّر موجه إلى قلب العالم الإسلامي بعد ما توقفت هذه الحروب الصليبية

---

(١) الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ ١٩١٤م)، ص ١٦٨، د. محمد أنيس، تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط، ص ١٤٣ ١٤٤، وديع أبو زيدون، الدولة العثمانية (عوامل النهوض وأسباب السقوط)، ص ٢٨٠ ٢٨٣، د. علي محمد الصلابي.

(٢) الدولة العثمانية (عوامل النهوض وأسباب السقوط)، ص ٢٨٣، د. علي محمد الصلابي.

(٣) الدولة العثمانية (١٧٠٠ ١٩٢٢م) ص ١٦٤، دونالدكواترت، تعريب: أيمن أرمنازي.

الموجهة إلى الأراضي المقدسة من وقت طرد الصليبيين من عكّا عام ١٢١٩م.

ب) إشاعة العصبية القومية داخل دولة الخلافة:

ومن أقوى هذه العصبيات القومية أثراً في إضعاف الخلافة الإسلامية العثمانية؛ القومية الطورانية داخل تركيا، والقومية العربية داخل البلاد العربية.

ولا شك أن إشاعة العصبية القومية كان هدفاً أساسياً للصليبية الغربية؛ فدولة الخلافة الإسلامية العثمانية لو بقيت على ما هي عليه من تجميع أقوام عديدين في وحدة متماسكة متينة على أساس دين واحد وهو دين الإسلام، والذي يرى أن الجهاد في سبيله، والدعوة إلى اعتناقه من أساسياته؛ يصعب والحال هذه أن تنتصر الدول الصليبية الغربية على المسلمين.

لذلك أصبح تفتيت هذا الكيان المتماسك والمؤسس على ولاءٍ واحد وهو العقيدة الإسلامية (لا إله إلا الله) مطلباً أساسياً وضرورياً للدول الصليبية خاصة أنه دخل معها في الأمنية اليهودية العالمية.

وليس هناك أجدر لتفتيت هذا الكيان الموحد من الدعوة إلى القوميات المختلفة التي يجمعها، فإن فكرة القوميات تشتت وحدته وتمزق قوته بذهاب كل قوم بقوميتهم؛ فتعددت بذلك الولاءات بدلاً من توحيدها في ولاء واحد تحت راية الإسلام (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

ولو نظرنا إلى القومية العربية مثلاً لوجدنا أنها ولدت من رحم غير إسلامي، فأوائل دعاتها كانوا من غير المسلمين، بل كانوا من النصارى لتنفيذ المخطط النصراني الصليبي العالمي والمشترك مع اليهودية العالمية ضد الخلافة الإسلامية وتفتيتها.

بدأت (فكرة القومية العربية ببداية فترة المدارس التبشيرية (التنصيرية) والجمعيات الأدبية والعلمية النصرانية سنة ١٨٣٤م إلى سنة ١٨٦٨م على أيدي النصارى، ونصارى العرب هم أول من حمل فكرة القومية العربية ونشرها لمصلحتهم ولغبن المسلمين ومضرتهم)[1].

---

(١) فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام، ص ١٤٤، د. صالح بن عبد الله العبود.

يقول سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز في بيان خطورة هذه الفكرة: (إن الدعوة إلى القومية العربية تفرق بين المسلمين، وتفصل بين المسلم العجمي عن أخيه العربي، وتفرق بين العرب أنفسهم لأنهم كلهم ليسوا يرتضونها...، وأنها سلم إلى موالاة كفار العرب وملاحدتهم من أبناء غير المسلمين واتخاذهم بطانة والاستنصار بهم على أعداء القوميين من المسلمين...، وأن الدعوة إليها والتكتل حول رايتها يفضي بالمجتمع ولا بد إلى رفض حكم القرآن؛ لأن القوميين غير المسلمين لن يرضوا تحكيم القرآن، فيوجب ذلك لزعماء القومية أن يتخذوا أحكاماً وضعية تخالف حكم القرآن حتى يستوي مجتمع القومية في تلك الأحكام)[1].

ويرى بعض المؤرخين أن الذي ساعد على نجاح القومية العربية ظهور القومية الطورانية في تركيا، وعداؤها لمقومات الخلافة الإسلامية العثمانية، ومن أهمها: عداؤهم للغة العربية، والتي استمرت اللغة الرسمية في الخلافة الإسلامية العثمانية بوصفها لغة القرآن الكريم حتى أواخر عهدها حين عمد الاتحاديون أصحاب جمعية الاتحاد والترقي أو تركيا الفتاة الذين تسنّموا عرش الدولة العثمانية إلى تتريك كل الشعوب الخاضعة للدولة، ومن أهمها الشعب العربي، فجعلوا التركية اللغة الرسمية، وجعلوا من شروطهم فيمن يتولى أعمال الدولة أن يكون على معرفة باللغة التركية، وهذا نص أحد قوانينهم في ذلك: (يشترط على التبعة العثمانية معرفة التركية التي هي اللغة الرسمية لأجل تقاليد مأموريات الدولة).

وزاد الاتحاديون المشبوهون على ذلك فسلبوا اللغة العربية الروافد التي كانت تمدها فأغلقوا المدارس، واستولوا على الأوقاف، التي كانت محبوسة عليها، ولم يبق في هذا الظلام نور ينبثق من الجوامع والمعاهد في العواصم الإسلامية [2].

فكان لهذا الاتجاه التعصبي الذي سلكه الاتحاديون الأتراك والذين نشؤوا على أعين يهودية

---

(١) نقد القومية العربية، ص ٢٦٨، سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز.

(٢) صحوة الرجل المريض أو (السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الإسلامية)، ص ٢٠٠، د. موفق بني المرجة.

وصليبية عالمية لهدف تفتيت الخلافة الإسلامية العثمانية الموحّدة؛ رد فعل سيئ لدى الشعوب العربية الإسلامية الأخرى والذين رفضوا محاولة التتريك هذه.

(وقد ساعد ذلك على إذكاء الروح القومية بين العرب، خاصة في الوقت الذي ظهرت فيه نهضة فكرية ثقافية عربية، استهدفت تبصير العرب بتاريخهم وأمجادهم قبل البعثة النبوية والإسلام ودعوتهم إلى التمسك بأهداب قوميتهم)[1].

فكيف للخلافة الإسلامية العثمانية والتي تحوّلت بفعل أيدٍ خفية ماكرة حاقدة على الإسلام والمسلمين؛ إلى دولة تركية علمانيّة تحاول التسلط على الشعوب التي تحكمها ليس باسم الإسلام ولكن باسم قوميتهم الخاصة (التركية)؛ أن تبقى سداً منيعاً ضد الصليبية العالمية وأطماعها في هدم الإسلام وإذلال المسلمين ونهب بلادهم بشكل عام وأراضيهم المقدسة بشكل خاص؟! هيهات.

ثم لو نظرنا إلى الكشوفات الجغرافية والتي قامت بها البحرية الصليبية خاصة التابعة للبرتغال وإسبانيا لوجدنا أنها أعادت الروح الصليبية جذعة للبابوية والدول الغربية.

وكان من أهم أهداف هذه الكشوفات البحرية بالنسبة للصليبية، هو:

١. تطويق العالم الإسلامي والالتفاف على الخلافة الإسلامية وإضعافها تمهيداً لضربها من الداخل وتمزيق الأمة الإسلامية مترامية الأطراف براً وبحراً.

٢. البحث عن طريق تجاري لا يمر بديار يتحكم فيها المسلمون لضربهم تجارياً واقتصادياً وهو ما يؤدي في المستقبل إلى ضعفهم عسكرياً.

٣. نشر النصرانية في تلك البلاد المكتَشفة، وتوسيع نطاق الدعوة إلى النصرانية، ليتمكنوا من مواجهة الأمة الإسلامية سريعة الانتشار[2].

---

(١) تاريخ العرب الحديث من الغزو العثماني إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، ص٣٤٣، د.حلمي محروس إسماعيل.

(٢) الكشوف الجغرافية، دوافعها وحقيقتها، ص٢٤، ٢٥، محمود شاكر، حاضر العالم الإسلامي، ص٧٩، د.

لذلك عندما ظهرت هذه الكشوف الجغرافية بالنسبة للنصارى فرحت بها البابوية فرحاً شديداً واهتمت بمعاونة الدول التي برعت فيها وهي البرتغال والإسبان ومكافأتها، فقد أصدرت البابوية مراسيم عديدة تُخوِّل ملوك البرتغال وإسبانيا الحق في ملكية كل إقليم جديد، كما أنّ البابويّة وصفت في مراسيمها الإسلام بأنه طاعون، وطالبوا ببذل الجهود لتنصير سُكان المناطق التي اكتشِفت والتي ستُكتشف فيما بعد، والحيلولة بينهم وبين إصابتهم بطاعون الإسلام علىٰ زعمهم كما أن البابوية أصدرت وعوداً بالعفو والمغفرة يوم القيامة للمشاركين في هذه الرحلات الكشفية[1].

كما أن البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧م - ١٤٥٥م) أشرف بنفسه علىٰ خطة تُنفّذ مع الكشوف الجغرافية لضرب المسلمين ضربة أخيرة، والقضاء علىٰ الإسلام قضاءً مبرماً، كما أنه أرسل مرسوماً بابوياً إلىٰ ملك البرتغال في عام ١٤٥٤م تضمن ما يُعرف باسم (خطة الهند) تقوم علىٰ إعداد حملة صليبية نهائية تشنها أوروبا الكاثوليكية علىٰ الإسلام، كما أنه اتصل بملوك الدول الأوروبية يطالبهم بتمويل الحملة الصليبية البرتغالية بالأموال والرجال والعَتاد ليتم تطويق البلاد الإسلامية بنجاح.

ثم إنّ بابا روما إسكندر السادس (١٤٩٢ - ١٥٠٣م) في عام ١٤٩٤م - ٨٩٤هـ؛ عمد في اجتماع صليبي إلىٰ خريطة للكرة الأرضية، ورسم فيها خطّاً رأسياً يقطع المحيط من الشمال إلىٰ الجنوب، لتوزيع الأراضي بين المكتشفين الأوروبيين، وفي ذلك الوقت كان التنافس علىٰ أشده بين إسبانيا والبرتغال، فأقام البابا إسكندر السادس بينهما معاهدة في عام ١٤٩٤م عرفت بمعاهدة توردسيلاس[2].

جميل عبد الله المصري، الاستعمار في جنوب شرقي آسيا، ص ٣٣، د. فايز صالح أبوجابر.

(١) واقع العالم الإسلامي، ص ١٩٠، سعيد عبد الحكيم زيد.

(٢) واقع العالم الإسلامي، ص ١٩٠، ١٩١، سعيد عبد الحكيم زيد، حاضر العالم الإسلامي، ص ٨٢، ٨٣، د. جميل بن عبد الله المصري.

الكشوفات الجغرافية البحرية الكاثوليكية:

فانطلقت الدول الصليبية في الكشوفات الجغرافية البحرية بإذن وشد أزر من البابوية الحاقدة علىٰ الإسلام والمسلمين؛ لتطويق الأمة الإسلامية وإضعاف قوتها عسكرياً واقتصادياً ونشر النصرانية.

يقول القائد الصليبي البحري (البوكرك) الذي خلف فاسكودي جاما والذي كان السبب في توطيد دعائم الإمبراطورية البرتغالية: إنه يريد إنجاز مشروعين من مشروعاته قبل موته، وهما:

- تهديم المدينة المنورة في شبه جزيرة العرب، ونبش قبر الرسول صلىٰ الله عليه وسلم، وأخذ كنوزه حيث كان يتصور أن ضريحه مليء باللآلئ والمجوهرات شأن الفاتيكان، وسرقة رفاة الرسول صلىٰ الله عليه وسلم وجعلها رهينة حتى يتخلىٰ المسلمون عن الأماكن المقدسة في فلسطين.

- تحويل مياه نهر النيل إلى البحر الأحمر ليحرم مصر من ري أراضيها، ومن المعلوم أن مصر كانت في ذلك الوقت من أهم الدول الإسلامية.

وقد ألقى البوكرك هذا خطاباً يقطر حقداً علىٰ المسلمين قبل هجومه الثاني علىٰ مدينة ملقا في شبه جزيرة الملايو عام ٩١٧هـ / ١٥١١م، جاء فيه: (الأمر الأول هو الخدمة الكبرى التي سنقدمها للرب عندما نطرد المسلمين من هذه البلاد، وتخمد نار هذه الطائفة المحمدية، حتى لا تعود للظهور بعد ذلك أبداً، وأنا شديد الحماسة لمثل هذه النتيجة... إذا استطعنا تخليص ملقا من أيديهم فستنهار القاهرة، وستنهار بعدها مكة)[١].

وقد فتح المجالَ لهذه الكشوفات الجغرافية وتجديد الأطماع الصليبية نشاطُ فاسكو دي جاما عام ١٤٩٧م (أستاذ البوكرك) والذي اكتشف رأس الرجاء الصالح عام ٩٠٣هـ / ١٤٩٧م ووصل موزمبيق شمالاً وممبسه وماليندي في عدة موانئ أخرى، وقد تفاجأ هذا الصليبي فاسكو دي جاما أن هذه الموانئ جميعها موانئ إسلامية وهو ما ألهب حقده الصليبي علىٰ الأمة الإسلامية،

---

(١) الكشوف الجغرافية، دوافعها وحقيقتها، ص٢٨، ٢٩، محمود شاكر، واقع العالم الإسلامي، ص ١٩٤، سعيد عبد الحكيم زيد.

وقد أغرى هذا الصليبي البرتغالي دي جاما حاكمَ ماليندي بالمال فأمده بملاح مسلم عربي هو شهاب الدين أحمد بن ماجد ليساعده في رحلته الاستكشافية الحاقدة علىٰ الأمة الإسلامية في غفلة من المسلمين، خاصة الملاح المسلم ابن ماجد الذي كان من المفترض أن يكون واعياً لما يُخطَّط له الصليبي الحاقد فاسكو دي جاما، ولكن سبحان الله.

لما وصل دي جاما إلى الهند بمساعدة ابن ماجد تفاجأ هذا الصليبي أن المحيط الهندي آنذاك كان بحراً إسلامياً خالصاً؛ فازداد حقده الصليبي علىٰ الأمة الإسلامية وتفوقها.

وفي إحدى رحلاته أغرق سفينة في خليج عمان تنقل الحجاج من الهند إلى مكة، وعلىٰ ظهرها مائة حاج حيث أعدمهم جميعاً، وعندما نزل إلى مدينة كيلوا في شرق إفريقيا هدّم ثلاثمائة مسجد كانت في المدينة [1].

فكانت رحلات فاسكو دي جاما صليبية واضحة، تتخفى وراء العلم والاستكشاف فقد قال عندما وصل كاليكوت (مالقيوط): (الآن طوقنا رقبة الإسلام، ولم يبق إلا جذب الحبل فيختنق)[2].

يقول المؤرخ الإنجليزي (برِستاج): (إن الهدف الرئيسي لرحلة (داجاما) والذين مولوا اكتشافاته أن يواصلوا الحروب الصليبية ضد العرب، ويثني جناح دار الإسلام استراتيجياً واقتصادياً ويتصل بدولة الأحباش المسيحية بحلفٍ معها يُهاجم العالم العربي الإسلامي من الجنوب وتغتصب تجارة البهارات في جزر الهند الشرقية من العرب ويُسيطر علىٰ المحيط الهندي)[3].

وقد أعلن ملك البرتغال في ذلك الوقت عمانويل الأول عن أهداف الحملات البرتغالية: (إن الغرض من اكتشاف الطريق البحري إلى الهند هو نشر النصرانية والحصول على ثروات الشرق)[4].

---

(١) الكشوف الجغرافية دوافعها وحقيقتها، ص ٢٦، ٢٧، محمود شاكر، واقع العالم الإسلامي، ص ١٩٢، ١٩٣، سعيد عبد الحكيم زيد.

(٢) واقعنا المعاصر، ص ١٨٩، محمد قطب، حاضر العالم الإسلامي، ص ٨٢، د. جميل عبد الله المصري.

(٣) الاستعمار في جنوب شرقي آسيا، ص ٣٣، د. فايز صالح أبو جابر.

(٤) الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، ص ١٩٣ د. علي محمد الصلابي.

ويظهر الحقد الصليبي جلياً على الأمة الإسلامية في الرسائل المتبادلة بين ملك البرتغال عمانوئيل الأول وملكة الحبشة النصرانية إليني.

جاء في إحدى هذه الرسائل من الحبشيّة إلى البرتغالي قولها: (باسم الله والسلام على عمانوئيل سيد البحر وقاهر المسلمين القساة الكفرة، تحياتي إليكم ودعواتي لكم، لقد وصل إلى مسامعنا أن سلطان مصر جهز جيشاً ضخماً ليضرب قوتكم ويثأر من الهزائم التي ألحقها به قوادكم في الهند[1]، ونحن على استعداد لمقاومة هجمات الكفرة بإرسال أكبر عدد من جنودنا في البحر الأحمر وإلى مكة أو جزيرة باب المندب، وإذا أردتم نسيّرها إلى جدة أو الطور طور سيناء، وذلك لنقضي قضاءً تاماً على جرثومة الكفر، ولعله قد آن الوقت لتحقيق النبوءة القائلة بظهور ملك مسيحي يستطيع في وقت قصير أن يبيد الشعوب الإسلامية المتبربرة)[2].

ولم تكن الروح الصليبية أقل ظهوراً عند الإسبان منهم عند البرتغاليين أقوى دولتين صليبيتين تمتلكان أسطولاً بحرياً في تلك الأوقات، فقد تلقى الإسبان المساعدات من أوروبا، حيث نجد معظم ملاّحيها ليسوا من الإسبان، وإنما من باقي دول أوروبا التي كانت تمدهم بكامل إمكانياتها حيث كانت إسبانيا على تماس مباشر مع المسلمين وفي حرب دائمة معهم.

وكانت مهمة الإسبان الالتفاف على المسلمين من ناحية الشرق، بينما كانت البرتغال قد تحركت نحو الجنوب لإتمام عملية التطويق[3].

(أعطت إسبانيا المعلومات اللازمة لبحارتها القادمين إليها من بقية الدول الأوروبية، والمدربين على القتال في مدارس خاصة، وقد شُحنوا حقداً على المسلمين، ومُلئوا غيظاً من ضلال معلومات

---

(١) تعد ملكة الحبشة النصرانية المسلمين في مصر والهند أمة واحدة وهذا شيء طبعي؛ فرابط العقيدة هو الأصل.

(٢) الكشوف الجغرافية دوافعها وحقيقتها، ص٣١، محمود شاكر، واقع العالم الإسلامي، ص ١٩٤، ١٩٥، سعيد عبد الحكيم زيد.

(٣) الكشوف الجغرافية، ص ٣٢، محمود شاكر.

التاريخ التي ألقيت عليهم مشوّهة مغلطة)[1].

فهذا الملاح الجنوي (خرستوف كولومبس) الذي يعمل لصالح الدولة الإسبانية ابتدأ عام ٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م رحلاته الاستكشافية عابراً مضيق جبل طارق والمحيط الأطلسي، واستطاع أن يصل إلى الشواطئ الشرقية لآسيا ثم وصل إلى جزر البحر الكاريبي الذي اعتقد أنها جزء من ساحل الهند، بيّن الملاح الذي أبحر بعده وهو (أمريكو فسبوتشي) الفلونسي الأصل والذي يعمل لصالح الإسبان أن هذه الأرض التي اكتشفها كولومبس ليست هي ساحل الهند إنّما هي أرض جديدة عُرفت بعد ذلك باسمه (أمريكا) وكان ذلك في ٩٠٧هـ/ ١٥٠١م.

فكان كولومبس يُعلن في رحلاته أنه يستخدم ثروات الشرق التي ستقع بين يديه لاستخلاص بيت المقدس من أيدي المسلمين[2].

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٣، محمود شاكر.

(٢) التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، ص ٤٧، أ. د. عبد الحميد البطريق، و د. عبد العزيز نوّار، حاضر العالم الإسلامي، ص ٨٢، د. جميل عبد الله المصري.

وذكر المؤرخ العلامة محمود شاكر في كتابه (الكشوف الجغرافية) أن المسلمين عرفوا أمريكا ووصلوا إليها قبل أن يصل إليها الملاح الصليبي الجنوي الإسباني خرستوف كولومبس، ومن الأدلة في ذلك:

١) جاء في مجلة المقتطف ١٣٤٥هـ - شهر آب ١٩٢٦م مقالة ملخصة عن مقالة لبرتن كلين في مجلة (العالم اليوم) (day to word) ١٣٤٥هـ - شهر شباط ١٩٢٦م، ويتكلم فيها عن كتاب عنوانه: إفريقية وكشف أمريكا لمؤلفه ليوفينر، ويذكر فيها أن كلمات عربية موجودة في لغات هنود أمريكا، ويقول المؤلف: إن أقدم هذه الكلمات يعود لعام ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م أي قبل قرنين من وصول كولومبس إلى أمريكا، وقال أيضاً: إن هناك بعض العمران العربي مثل بناء الأزد وبناء المائة.

٢) جاء في مجلة المقتطف أيضاً عام ١٣٦٥هـ - عدد شباط ١٩٤٥م مقال لانستاس الكرمي يقول فيه: (وقد اتجهت بعض الأبحاث العلمية الحديثة إلى القول بأن المسلمين عرفوا أمريكا قبل كولومبس، وأشار أصحاب هذه النظرية إلى وجود كلمات عربية في لغة هنود أمريكا، وإلى أن كولومبس وجد في رحلته الثالثة زنوجاً وذهباً إفريقياً في جزر الهند الغربية (أمريكا)، وأن مدنية بعض الجماعات الهندية الغربية في أمريكا تشبه المدنية الإسلامية إلى حد كبير)، ولربما كان التشابه هو الذي جعل كولومبس يظن أنه وصل إلى جزر الهند.

٣) أكد الدكتور هوي لزلي أستاذ علم النبات بجامعة بنسلفانيا وهو من أصل صيني، أكد في محاضرة ألقاها في الجمعية الشرقية الأمريكية في مدينة (فيلادلفيا) وقد استند في بحثه إلى وثائق محفوظة في الصين، ويعود عهدها إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين أن المسلمين قد وصلوا إلى السواحل الشمالية لأمريكا الجنوبية من الطرف الغربي للعالم الإسلامي وبالتحديد من الدار البيضاء، وقد وصل الدكتور هوي لزلي إلى هذا الرأي بعد أن أنفق ثمانية أعوام في تتبع انتشار المحاصيل الزراعية والحيوانات في شتى أنحاء العالم.

وهذا ماجلان الملاّح الصليبي الآخر برتغالي الأصل عمل لصالح البلاط الإسباني، غادر إشبيلية في أيلول ٩٢٦هـ / ١٥١٩م، وطاف حول أمريكا الجنوبية، ومرّ من أقصى جنوبها من ممر أرض النار الذي عرف فيما بعد باسم مضيق ماجلان ودخل المحيط الهادي، ووصل أخيراً إلى جُزر عرفت فيما بعد باسم جزر الفلبين تخليداً لملك إسبانيا آنذاك فيليب الثاني.

وما أن وصل ماجلان إلى تلك الجزر، حتى فاحت رائحته الصليبية وملأت الجو بحقدها البغيض الذي يحمل معه روائح جثث الموتى الكثيرة التي لاقى أصحابها حتفهم بأيدي الصليبية.

اتفق ماجلان مع ملك إحدى الجزر وتُسمى (سِيْبو) ويدعى (هومابون) أن يساعده في إخضاع باقي الجزر تحت ملكه، وتكون جميعاً تحت التاج الإسباني على أن يدخلوا جميعاً في الديانة الكاثوليكية فوافق (هومابون).

ولكن ماجلان اصطدم بملك مسلم يدعو (لابو لابو) ملك جزيرة (مَكْتامْ)، فلمّا علم ماجلان أنه من المسلمين ثار حقده الصليبي وصب جام غضبه على السكان المسلمين، فأمر جنوده الصليبيين

وقد أيد هذه النظرية كل من الدكتور (لين شنج يانج) أستاذ التاريخ واللغة الصينية بجامعة هارفارد، والدكتور (ريتشارد رودلف) رئيس المؤتمر المذكور، وقال: (والآن ينبغي على الأساتذة العرب أن يتابعوا دراسة تاريخهم، وليبدؤوا من هذه المنطقة).

٤) عثر مدير متحف البرازيل قبل نهاية القرن التاسع عشر على صخرة إلى جوار مدينة ريودي جانيرو، عليها نقوش قريبة الشكل من الحروف العربية القديمة.

٥) يقول رفيق العظم: (وصل المسلمون إلى أمريكا قبل معرفتها من قبل الأوروبيين بأزمنة طويلة فقد أخبرني ثقة أنه بينما كان جالساً يوماً مع جماعة من الأفاضل عند الدكتور فانديك الشهير في بيروت، جاءه البريد ففتحه، وأخذ يتصفح الكتب، فأظهر من واحد منها اندهاشاً عظيماً، ثم أبرز للجماعة صورة فوتوغرافية وردت ضمن ذلك الكتاب، فإذا بها رسم محراب اكتشف في إحدى الخرائب في أمريكا وعليه آيات قرآنية مكتوبة بالخط الكوفي القديم).

هذا كله يدل على أن المسلمين قد وصلوا إلى أمريكا قبل معرفة الأوروبيين لها بفترة طويلة وأنهم قد أثّروا فيها، ونشروا دينهم وحضارتهم، وأن الصليبيين قد أبادوا المسلمين، وطمسوا آثارهم كلها تقريباً، وما اكتشف منها الآن فهو ضمن خرائب فعلتها أيديهم.

وأمام هذا علينا أن نطلق كلمة التوسع الأوروبي في أمريكا وجنوب إفريقية بدلاً من كلمة الكشوف الجغرافية، وآثار ذلك التوسع بدلاً من آثار الكشوف.

انظر: الكشوف الجغرافية دوافعها وحقيقتها، ص ٥١ - ٥٥، محمود شاكر، واقع العالم الإسلامي، ص ١٩٧، سعيد عبد الحكيم زيد.

بمطادرة النساء المسلمات، وسطوا على طعامهم وأضرموا النار في أكواخهم فرأى ماجلان الفرصة مناسبة لإظهار قوته وأسلحته الحديثة للقضاء على المسلمين وترهيب بقية أمراء الجزر الأخرى، فتقابل مع الجيش الإسلامي البدائي وتحدث مع ملكهم (لابو لابو) قائلاً: (إنني باسم المسيح أطلب إليك التسليم، ونحن العِرق الأبيض أصحاب الحضارة أولى منكم بحكم هذه البلاد)، فأجابه السلطان المسلم: (إن الدين كله لله، وإن الإله الذي أعبده هو إله جميع البشر على اختلاف ألوانهم)، ثم هجم على ماجلان، وقتله بيده، وشتت شمل جنوده الصليبيين، ورفض تسليم جثته للإسبان، ولا يزال قبره هناك في جزيرة (سيبو) شاهداً على ذلك[1].

فأرسلت الدولة الإسبانية حملات صليبية لتلك الجزر انتقاماً من المسلمين واحتلالاً لها، وتركّزت تلك الحملات الصليبية الإسبانية وتتابعت منذ عام ١٥٦٥م.

وقد كان الإسلام قد تأصل دينياً هناك، وخاصة في الجزر الجنوبية مثل جزيرة (بَلَوان) وجزيرة (مِنْدَنَاو) كبيرة الحجم وأرخبيل جُزر سُولُوا إلى الغرب منها، وقد دامت الحرب الصليبية الإسبانية على المسلمين هناك أكثر من مائة عام، شابهت حروبهم مع العرب المسلمين في الأندلس، ولهذا ألقوا على المسلمين هناك اسم (المُور) وكأنهم أيضاً عرب، وما زال هذا الاسم (المور) يطلق على الأقلية المسلمة التي تسكن الجزر الجنوبية والتي نجت من الهلاك على أيدي الإسبان من قبل ومن الحكومات الفلبينية الكاثوليكيّة فيما بعد[2].

فكان من نتائج هذه الرحلات الصليبية الاستكشافية أن الملوك الكاثوليك عملوا على تثبيت ملكيتهم لهذه الأراضي الجديدة، يقول المؤرخ النصراني فيشر: (لا يمكن القول بأن الدافع لاكتشاف العالم الجديد لا يتعدى الرغبة في الحصول على التوابل والذهب، إذ اختلطت

(١) الكشوف الجغرافية، دوافعها وحقيقتها، ص ٣٤ - ٣٧، محمود شاكر، واقع العالم الإسلامي، ص ١٩٥، سعيد عبد الحكيم زيد، الاستعمار في جنوب شرقي آسيا، ص ٣٧، ٣٨، د. فايز صالح أبو جابر.
وللأسف، فإن مقررات التاريخ في الدول العربية الإسلاميّة لا تذكر هذه الحادثة أبداً عند ذكرها لموت ماجلان، بل إنّها تدّعي أنّه قُتل أثناء حرب أهليّة قامت في الفلبين أراد الإصلاح فيها.

(٢) الاستعمار في جنوب شرقي آسيا، ص ٣٨، د. فايز صالح أبو جابر.

المشاعر الدينية بالمطامع الاقتصادية، ففي الفاتيكان وخصوصاً لدى الفرنسيسكان الذين كانت مشروعاتهم التبشيرية تمتد إلى العالم بأسره كانت مشروعات البرتغال والإسبان تثير أكبر قسط من الاهتمام، لا لأنها ستكون وسيلة إلى تنصير الوثنيين فحسب، بل ستفضي أيضاً إلى شن هجوم على المسلمين من ناحية الشرق، وكان المعروف أن نجاشي الحبشة مسيحي، وكان المعتقد أنه لا تزال توجد في الهند نتيجة لبعثة القديس ثوما؛ دولة مسيحية يحكمها عاهل يُعرف بالخان الأكبر، وكان يداعب أوروبا الكاثوليكية أمل كبير في أن تتلقى من هؤلاء الملوك المسيحيين الشرقيين البعيدين مساعدة فعّالة في حرب صليبية ضخمة أخيرة تشنها على المسلمين، تلك هي الخطة التي رسمها البابا نيقولا الخامس منذ عام ١٤٥٤م في مرسوم بابوي أرسله إلى ملك البرتغال)[١].

وهكذا طمع الصليبيون بعد أن أحاطوا بالعالم الإسلامي، بوصول ماجلان إلى الفلبين شرقاً، ملتقياً النفوذ الإسباني بالبرتغال في أقصى المشرق من العالم الإسلامي، فحاولت البرتغال ثم إسبانيا ثم فرنسا من أتباع الكنيسة الكاثوليكية ثم دخل مع الكاثوليك في خط الصليبية وتزعمها سياسياً بعد ذلك إلى يومنا هذا البروتستانت ابتداءً بإنجلترا ثم أمريكا، بضرب العالم الإسلامي من داخله، وقد نجح كثير من خطواتهم في ذلك، حاولت الدول التابعة للبابوية الكاثوليكية في قرون مضت بعدما أحاطوا بالأمة الإسلامية بالاتصال مع الحبشة الأرثوذكسية، للقيام بغزو بحري إلى كل من موانئ عصب، ومصوع، وسواكن، على أمل غزو الحجاز، وهدم قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وبالفعل قامت البرتغال بحملة دخلت البحر الأحمر، ووصلت إلى ينبع، وتحطمت إثر عاصفة هوجاء، وأمام هذا التحدي الصليبي عجز المماليك عن مواجهتهم؛ لذلك توجه السلطان سليم العثماني إلى الشام ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م، فضمها إلى الدولة العثمانية، ثم ضم مصر عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٧م، وامتدت الدولة العثمانية وانتصبت ترد كيد الصليبيين، ولكن دون

---

(١) التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، ص ٦٠،ا. د. عبد الحميد البطريق و د. عبد العزيز نوار.

أن تستطيع استعادة سيطرة المسلمين على البحار [1].

ثم إن البعوث الدينية التنصيرية سارت جنباً إلى جنب مع تلك الحركات الاستعمارية الاحتلالية[2].

فالحروب الصليبية والتنصير والتي كانت ولا تزال يحمل التاريخ لنا صوراً منها هي الدوافع الحقيقة الأولى وراء وصول العالم الغربي الصليبي إلى ما وصل إليه من اكتشافات جغرافية في تلك الأوقات.

ثمّ إذا نظرنا إلى الركن الثالث في الخطة الصليبية لتفتيت وحدة الأمة الإسلامية وهو غزوها فكرياً لوجدنا العجب العجاب في تضافر الصليبيين في هذه المسألة، والتي أتت بنتاجها في تشتيت وحدة المسلمين وتفرق كلمتهم واختلاف توجهاتهم وتصوراتهم ليس في مواجهتهم مع الغرب الصليبي النصراني فحسب بل حتى في تمسكهم بالعقيدة الإسلامية[3].

ولا شك أنه كان للغزاة فكرياً أقصد بهم المستشرقين من مستشاري وزارات المستعمرات أو الخارجية أو الحربية أو من المستشرقين المستقلين الذي دفعتهم صليبيتهم الحاقدة في كره الإسلام والمسلمين؛ الجزء الأكبر في دفع الروح الصليبية الحربية (الاستعمارية) للجنود الصليبيين.

ومن هؤلاء المستشرقين الحاقدين على الأمة الإسلامية المستشرق الفرنسي (هانوتو) مستشار وزارة المستعمرات الفرنسية في مطلع القرن الماضي الذي كتب مقالاً نشرته صحيفة (المؤيد) الصادرة آنذاك ومما جاء فيه:

أنه ليس للمسلمين أصالة في الثقافة وليست لهم قيم ذاتية.

على المسلمين أن يأخذوا بالحضارة الأوروبية الآريّة المسيحية.

الخطر كمين في اتحاد المسلمين ضد الأوروبيين؛ فديار المسلمين يعتبرها (دار حرب)؛ فالخطر في

---

(١) حاضر العالم الإسلامي، ص ٨٥، د. جميل عبد الله المصري.

(٢) وهذا ما سيمر معنا دراسته في فصل التنصير في هذا البحث إن شاء الله.

(٣) وهذا إن شاء الله ما سأفصّل فيه القول في فصل الغزو الفكري من هذه الرسالة.

الداخل والخارج.

كما يعيد هذا المستشرق الفرنسي إلى الأذهان بواعث الحروب الصليبية محرّضاً على استرداد بيت المقدس من المسلمين الذين ينعتهم بالبرابرة؛ ولهذا لم يكن مُستَغْرباً موقف القائد العسكري البريطاني اللنبي في القدس، والقائد العسكري الفرنسي غورو في دمشق إزاء التعبئة النفسية الصليبية الحاقدة التي شحنت بها نفوس جنود الاحتلال الصليبي ضد المسلمين، إضافة إلى الموروثات الصليبية الحاقدة كقصيدة (رولان) الشهيرة التي يقول فيها: (إن فرسان شارلمان قد أسقطوا الأصنام الإسلامية)[1].

ونتيجة لبعد المسلمين عن الإسلام وظهور الأفكار الغربية إما الصليبية أو الإلحادية بين المسلمين، وعودة الطلبة من أبناء المسلمين المبتعثين إلى الجامعات الغربية خاصة الفرنسية إلى ديارهم الإسلامية وقيامهم بنشاط ملموس ومدعوم من الدول النصرانية الصليبية لمحاولة التوفيق بين الإسلام والحضارة الغربية، أي تمييع المفاهيم الإسلامية ونقل الحضارة الغربية الصليبية إلى أبناء المسلمين، مع تكالب الغرب الصليبي عسكرياً على الخلافة الإسلامية العثمانية وإضعافها عسكرياً، ابتدأ من ذلك الوقت منتصف القرن الثاني عشر الهجري، (منتصف القرن الثامن عشر الميلادي) ومطلع القرن الثالث عشر الهجري (القرن التاسع عشر الميلادي) عهد الحروب الصليبية الجديدة على العالم الإسلامي، والذي سُمِّي بالاستعمار وذلك تزويراً للتاريخ؛ أي دخول الدول الصليبية إلى العالم الإسلامي بقصد إعماره والعمل على تطويره على ما يزعمون!

بدأت الحروب الصليبية الحديثة (الاستعمار) وهي أشدُّ خُبثاً وأدهى مكراً؛ فقد أراد المحارب الصليبي الحديث أن يقنع المسلم المحتلة أراضيه أنه أنفع له من نفسه تقدماً وحضارةً ومعيشةً فإذا أراد أن يعيش عيشة حضارية مرَفهة فعليه أن يتبع هذا الصليبي في أقواله وأفعاله فإن لم يرض بدينه النصراني فلا أقل من أن يرتضي بتوجهاته في الحياة أخلاقياً وفكرياً ويرضى بنظرياته

(١) صحوة الرجل المريض، ص ٢٦١، د. موفق بني المرجه.

وفلسفاته الحياتية.

وبهذا تركت الحروب الصليبية الحديثة (الاستعمار) كثيراً من المجتمعات الإسلامية في عاداتها وتقاليدها مسخاً بعيدةً عن المنهج الإسلامي في كثيرٍ من أُمور الحياة من التحاكم بغير شرع الله، والخلل في عقيدة الولاء والبراء، والتعامل مع الكفار خاصة إذا كان نصرانياً صليبياً، ونزع حجاب المرأة، و عدم الغَيرة على الأعراض والمحارم، والتعامل بالربا بشكل رسمي ومحمي من الحكومات، وغيرها من أمور أتت بها المجتمعات الإسلاميّة على شكل مخالف لما أتى به المنهج الإسلامي وذلك بفعل مكر الصليبي الخبيث وعلى رأس تلك الأمور زلزلة العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين، نسألُ الله أن يعيدنا ويُعيدَ المجتمعات الإسلامية إليه عوداً حميداً، آمين.

بدأت الدول الصليبية بحروبها الجريئة في العصر الحديث إلى قلب العالم الإسلامي بعد ما بدأ الضعف والهُزال يدبان في جسم الخلافة الإسلامية العثمانية، فكانت أول الدول الصليبية في تلك الخطوات هي الدولة الفرنسية عندما احتلت مصر وسوريا.

فقد تمكن الجيش الفرنسي بقيادة نابليون بونابرت من دخول الإسكندرية في ليلة ٢ يولية سنة ١٧٩٨م / ١٢١٣هـ ثم انطلق تجاه القاهرة، وفي يوم ٢٤ يولية دخل بونابرت بقواته القاهرة، واتخذ مقره في قصر محمد بك الألفي بالأزبكية، ووزع منشوراً أعده من قبل، أوضح فيه أسس سياسته إزاء الشعب المصري المسلم، وحاول إقناعهم أنّه إنما جاء لتأديب حُكّامهم الظلمة، وأنه يكن المودة والاحترام للشعب المصري، وللإسلام و لحضارة مصر العظيمة، وأضاف بونابرت أنه يعتزم وضع أساس حكومة وطنية يدير شؤونها (العلماء والفضلاء) وبذلك (تصلح أحوال الأمة كلها) ومما جاء في المنشور الفرنسي النابليوني: (... يا أيها المصريون قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح، فلا تُصدقوه وقولوا للمفترين أنني ما قدمت إليكم إلاّ لأخلص حقكم من أيدي الظالمين)[1].

(١) تاريخ العرب الحديث من الغزو العثماني إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، ص ١٠٥، ١٠٦، د. حلمي محروس إسماعيل.

كان الفرنسيون خاصة والغربيون عامة يُدركون أن السر في قوة المسلمين يتمثل في جانبين مهمين: الأول هو تمسكهم بدينهم الإسلامي، والثاني: وحدة بلادهم في ظل حكومة إسلامية مطاعة مهابة.

فسعى رجال الحملة الفرنسية إلى زعزعة الدين في نفوس بعض الشيوخ وطلبة العلم الشرعي الإسلامي بعرض نماذج من الحضارة الغربية عليهم[1].

أما العامل الثاني وهو الرامي إلى تمزيق وحدتهم فقد بدا واضحاً في سعي الفرنسيين لتجنيد قوة مُسلّحة من نصارى مصر قادها معلمهم (يعقوب) لمساعدة الحملة في ضرب الثورة الشعبية الإسلامية التي قادها العلماء، والوقوف أمام قوات الخلافة العثمانية الإسلامية[2].

كما أن الفرنسيين نجحوا في استثارة العناصر القبطية النصرانية في مصر على معاونة الحملة الفرنسية ضد أبناء وطنهم المسلمين المصريين وهو ما يدل على سقوط ادعاء الوحدة الوطنية أمام العقيدة والدين في عرف النصارى فكونت فرقة عسكرية قبطية بقيادة النصراني القبطي (المعلم يعقوب) الذي يعده التاريخ المصري الحديث من أكبر من خانوا بلدانهم لصالح الأجنبي المعتدي، وكانت هذه الفرقة القبطية ترتدي زيّاً مشابهاً لزي الجنود الفرنسيين، وقلد الفرنسيون هذا القبطي (يعقوب) رتبة آغا، ثم رتبة لواء (جنرال) ومنحوه رسمياً لقب القائد العام للفيالق القبطية بالجيش الفرنسي.

ورغم المقاومة الشديدة والحركة الجهادية بقيادة علماء الأزهر إلا أن الفرنسيين تمكّنوا من احتلال مصر وعملوا فيها بوحشية كبيرة من سلب ونهب وقتل، وانتهكوا الجامع الأزهر واقتحموه وقاموا بتمزيق المصاحف...

وبعد احتلال القاهرة واصل نابليون احتلاله لبقية مدن مصر واحتل بعد ذلك غزة والرملة ويافا، وقد حاول احتلال عكا، ولكن يقظة أهلها بقيادة (أحمد باشا الجزار) حالت بين فرنسا

(١) أي العمل على تأصيل حركة من حركتي الغزو الفكري (التغريب)، فالغزو الفكري يقوم على حركتين: الاستشراق، والتغريب، فهما مرتبطان بالاستعمار ارتباطاً عضوياً، وهذا إن شاء الله ما سأذكره في فصل الغزو الفكري من هذا البحث.

(٢) الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، ص ٣٢٧، ٣٢٨، د. علي محمد الصلابي.

وبين ما تشتهي[١].

(كانت هذه الغزوة الفرنسية أول غزو أوروبي صليبي لولاية عربية من ولايات الدولة العثمانية في التاريخ الحديث، وعلى الفور أعلن السلطان سليم الثالث الجهاد الديني ضد الفرنسيين الصليبيين (١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م)، واستجاب لدعوته المسلمون في الحجاز والشام وشمال إفريقيا)[٢].

واللافت لنظر الصليبيين أنه رغم ضعف الدولة العثمانية وتسلط بعض حُكّامها في الآونة الأخيرة على بعض بلدان المسلمين؛ إلا أنه ما زال الشعور الإسلامي متحد تحت ظل الخلافة الموحّدة وإن كانت هزيلة، وهذا ما اتضح لهم تماماً عندما احتلت الدولة الصليبية الكاثوليكية الكبرى فرنسا دولة مصر الإسلامية فهب لنجدتها المسلمون كلهم من الشام إلى الحجاز وإفريقيا بل إن الذي قتل قائد القوات الفرنسية المحتلة (كليبر) هو السوري من مدينة حلب سليمان الحلبي؛ لهذا اجتمعت الدول الصليبية جميعها بقسميها (الكاثوليك والبروتستانت) لتفتيت الخلافة الإسلامية العثمانية إلى دول لها حدود وأعلام تُنادي بوطنيتها أكثر من إسلامها، وتنادي بمصالحها الخاصة وتعمل في المقام الأول لها إن لم يكن الأخير أيضاً في بعضها فكان المؤتمر الصليبي الذي عُقد في فيينا عام ١٨١٥م[٣]، ثم تأكدت نتائجه في توزيع الدول الإسلامية على الدول الصليبية في المؤتمر الصليبي الذي عُقد في برلين عام ١٨٨٤م، والذي استمر عاماً كاملاً في مناقشاته وأُطروحاته بين الدول الصليبية[٤].

وكانت أكثر الدول الصليبية في تلك الفترة تهيؤاً للنزول إلى الميدان واحتلال أراضي المسلمين خاصة في إفريقيا ومنها إلى تطويق قلب العالم الإسلامي والوصول إلى الأراضي المقدسة في فلسطين ثم إلى الحجاز للقضاء على الأمة الإسلامية تماماً وهذا أمل بابوي صليبي قديم؛ هي فرنسا حيث

(١) الدولة العثمانية، ص ٨٦، د. جمال عبد الهادي وآخرون، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، ص ٣٢٨، ٣٢٩، د. علي محمد الصلابي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ٣١٣ - ٣٢٨، د. أحمد شلبي، تاريخ العرب الحديث من الغزو العثماني إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، ص ١٠٩، د. حلمي محروس إسماعيل.

(٢) الدولة العثمانية، ص ٨٦، د. جمال عبد الهادي وآخرون.

(٣) تاريخ أقطار المغرب العربي السياسي الحديث والمعاصر، ص ١٣، د. أحمد إسماعيل راشد.

(٤) تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ص ١٠٣، د. جعفر عباس حميدي.

إنه كان لها منذ عام ١٩٣٣م مستوطنة عند مصب نهر السنغال اهتمت بالناحية التنصيرية وإرسال البعثات التنصيرية إلى تلك البلاد الإسلامية ومن أول الدول التي دخلت إليها هذه البعثات التنصيرية الفرنسية هي ساحل العاج منذ عام ١٦٣٧م[1].

انطلقت فرنسا واحتلت الجزائر عام ١٨٣٠م، وأعلنت في عام ١٨٦٤م أن السنغال مستعمرة فرنسية، وفرضت حمايتها على تونس سنة ١٨٨١م ثم احتلتها، وبسطت نفوذها على ساحل العاج في عام ١٨٩١م، وفي عام ١٨٩٤م تقدم الفرنسيون إلى النيجر، ثم غينيا، ثم أعلنت أن موريتانيا جزء لا يتجزأ عن السنغال فأعلنت حمايتها عام ١٩٠٣م، ثم احتلتها في عام ١٩٠٨م، واحتلوا تشاد في عام ١٩٠٦م، وتقاسموا هم والإسبان المغرب (جمهورية الريف) في عام ١٩١٢م، ومن قبل تلك السنين وفي عام ١٨٨٢م استولت فرنسا على ميناء صغير قرب مدينة هرر ثم توغلت في الداخل واحتلت المناطق كلها حتى وصلت جيبوتي عام ١٨٨٨م، وفي عام ١٨٩٦م، وضعت هذه المناطق تحت إدارة واحدة عُرفت باسم الصومال الفرنسي واتخذت جيبوتي مقراً للحاكم الفرنسي.

أما دولة إيطاليا مقر البابوية فاحتلت ميناء عصب عام ١٨٨٢م، ثم مصوّع عام ١٨٨٥م، وفي عام ١٨٨٩م بسطت حمايتها على الصومال واحتلت ليبيا عام ١٩١١م[2].

والحسرة أن أغلب تلك الدول كانت إسلامية خالصة؛ لذلك أول ما برزت فيها المقاومة كانت مقاومة إسلامية تعد قبول الخضوع للصليبيين خضوعاً للكفار؛ لذلك عمدت إلى مقاومتهم بحماس

---

(١) المرجع السابق، ص ٩٠، د. جعفر عباس حميدي.

(٢) في تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ص ٢٤ - ٣٠، د. محمد علي القوزي، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ص ٨٠ - ٩٥، د. جعفر عباس حميدي.

وذكري لهذه الدولتين ليس للحصر ولكن لأنها أشهر الدول الكاثوليكية في ذلك الوقت وإلا هناك الإسبان والبرتغال أيضاً، ثم إني لم أذكر الدولة الصليبية العظمى في تلك الأوقات، والتي كان لها اليد الطولى في احتلال أرض فلسطين، وهي الدولة البريطانية لأنها لم تكن كاثوليكية ولم تكن خاضعة للبابوية، ولكنها نجحت في عمل لم تنجح فيه البابوية ودولها الكاثوليكية وهو احتلال أرض فلسطين والسيطرة على بيت المقدس ولكنها سلمته لليهودية العالمية لاعتقادها الديني؛ فرئيس وزرائها لويد جورج (جورج السادس) ووزير خارجيتها آرثر جيمس بلفور كانا بروتستنتيين أتباع (اليهودية المسيحية) أو كما تُسمى (الصهيونية المسيحية) أو (الأصولية المسيحية).
انظر: عقيدة اليهود في الوعد بفلسطين، ص ١٢٢ - ١٣٠، محمد بن علي آل عمر.

وإصرار زائدين كان يفتقر إليهما معظم من لا يدينون بالإسلام في مواجهتهم الصليبيين[1].

وقد عمدت الدول الصليبية المحتلة في إفريقيا إلى العمل نفسه الذي عملته عندما احتلت جنوب شرقي آسيا فقد تحول كثير من الناس في تلك المناطق إلى النصرانية، فبعدما كان المسلمون هم الأكثرية أصبح عددهم أقل من النصارى مع مرور السنين[2].

والشعوب التي لم تستطع الدول الصليبية تحويل أغلبها إلى نصارى واستمرت فيها الأغلبية للمسلمين جعلت الصليبية الحاكم الوطني عليها من النصارى بعد خروجها منها أو بعد الاستقلال المزعوم، أو جعلته من المسلمين لكنّه رهن إشارتها أكثر من النصراني.

حتى بدأ عصر خروج الدول الصليبية من الدول المحتلة (عهد الاستقلال الوطني الظاهري) بعد الحرب العالمية الثانية في النصف الثاني من القرن العشرين، بعدما حققت الصليبية كل ما تطمح إليه من وقف الزحف الإسلامي في آسيا وإفريقيا فضلاً عن أوروبا، وإدخال النصرانية في الدول الإسلامية فضلاً عن الدول الوثنية، ونهب خيراتها وثرواتها، بل نهب رجالها ونسائها إمّا أحراراً عن طريق الغزو الفكري، أو عبيداً وسخرةً إلى أوروبا، وتم هذا الاستقلال المزعوم بعد تكوين المنظمة الصليبية العالمية الخاضعة تماماً لليهودية العالمية (عصبة الأمم) التي تحولت إلى (هيئة الأمم المتحدة)، وذلك لأمور، من أهمها:

١. تمكين اليهود من احتلال أرض فلسطين المسلمة والمحافظة على هذا التمكين.
٢. إلغاء الجهاد الإسلامي، والذي أقلق الدول الصليبية قروناً وقروناً.
٣. تمييع أي تجمع أو هيئة إسلامية وحصر قيامها على أمور لا تصطدم بالتفوق الصليبي ولا تنقص من أحقية اليهود فيما يريدونه من أرض فلسطين المسلمة.

خرجت الدول الصليبية من أراضي المسلمين وهي ترى أن هذه الدول الإسلامية تتخطى

---

(١) تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ص ٩٢، د. جعفر عباس حميدي.

(٢) وهذا ما سأقف معه إن شاء الله في فصل مستقل عن التنصير من هذا البحث.

خُطاها فيما تريده منها، وما هو مشاهد للعيان في حال الأمة الإسلامية بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليوم أبلغ من كل تعبير ووصف وضرب أمثلة.

حتى بدأ نظام القطب الواحد في منتصف التسعينيات وتفردت دولة صليبية كبرى في الوضع العالمي وإن لم تكن خاضعة للبابوية فليست هي كاثوليكية وإنما بروتستنتية إنجيلية أصولية خاضعة لليهودية العالمية، وأقصد أمريكا فجمعت بين السوأتين في مواجهتها للإسلام والمسلمين، فبعد أن استنزفت أمريكا المسلمين فكرياً واقتصادياً استأنفت الكره عليهم عسكرياً[1].

ثم إن البابوية ودولها الكاثوليكية لم تُسلِّم مهمة الحرب ضد الإسلام والمسلمين للدولتين الخارجتين عن نطاقها وعقيدتها (أمريكا وبريطانيا)، ولكن المسألة بالنسبة للكاثوليك مسألة مراحل حسب القوة والضعف والمناسب وغير المناسب في المواجهات العسكرية والسياسية، وبما أن الهدف المشترك للنصارى هو ضرب الإسلام والمسلمين وإضعافهم اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً، فليستمر التخطيط الكاثوليكي الماكر في فترة من الهدوء وعدم المواجهة المباشرة مع المسلمين عسكرياً في هذه الأوقات فقد كفاهم في ذلك البروتستانت[2]، وإلا فهناك مواجهات قوية مستمرة مع المسلمين من ناحية الغزو الفكري والتنصير، وحامل لوائها المستشرقون والمستغربون.

---

(١) والكلام في مواجهة أمريكا للإسلام والعبث بالمسلمين ومولاة أمريكا لليهودية العالمية بل تحكم اليهودية بها مما يطول الكلام عليه ويحتاج إلى مؤلفات في الإجمال فضلاً عن التفصيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

(٢) أما موقف بابا روما بولس يوحنا الثاني (١٦ تشرين الأول ١٩٧٨ - ٢ أبريل ٢٠٠٥م) المعارض لاحتلال أمريكا للعراق فذلك لمصلحة الكاثوليك أولاً وأخيراً، ومنها:
أ) طغيان الدولة البروتستانتية الكبرى (أمريكا) في غزوها واستنزافها لقلب العالم الإسلامي، وهو ما لم يكن هناك مجال لأي دولة كاثوليكية في هذا الأمر حتى الدولة الصليبية الكاثوليكية الكبرى فرنسا لم تجد لها موطنَ قدم واضح في استنزاف دول (قلب) العالم الإسلامي، حتى تلك التي كانت من مستعمراتها كلبنان وسورية.
ب) وهذا الأمر يضعف بل أضعف التنصير الكاثوليكي في منطقة حيوية يتمناها كل صليبي العالم (كاثوليك أو بروتستنت). وقد فاز بهذه المنطقة حالياً البروتستانت حسياً ومعنوياً.
جـ) خوف البابا على النصارى الكاثوليك في المنطقة من تدخلات البروتستانت العقائدية عليهم، وكما هو معلوم تاريخياً التنافس العقدي الداخلي، بل حتى العسكري في سنوات مضت بين الكاثوليك والبروتستانت.

الفصل الثاني: الغزو الفكري

وفيه: تمهيد، ومبحثان:

- التمهيد: الغزو الفكري: تعريفه، وخطورته.
- المبحث الأول: الاستشراق.
- المبحث الثاني: التغريب.



التمهيد: الغزو الفكري: تعريفه، وخطورته.

الغزو الفكري أسلوب من أساليب الغزاة، وهو مكمل لأساليب الغزو التقليدي الحربي حيناً، وبديل عنها أو عن بعضها حيناً آخر، مبذول ضد عدو ما لكسب معارك الحياة منه، ولتذليل قياده، وتحويل مساره، وضمان استمرار هذا التحويل حتى يصبح ذاتياً إن أمكن، وهذا هو أقسى مراحل الغزو الفكري بالنسبة للمغلوب، وإن كان في الوقت نفسه هو أقصى درجات نجاح الغزاة[1].

فالغزو الفكري يعمل لإذابة الشعوب، وانسلاخها من عقائدها، ومذاهبها، وحضارتها لتصبح مسخاً شائهاً تابعاً لغيره، يؤمر فيطيع...، وهو يعمل على خداع المجتمعات، والتمويه عليها وقلب الحقائق وتشويهها، عن طريق تصنيع الكلمة، وزخرفة القول والدخول إلى المخاطب من نقطة الضعف، والاستغفال لإغرائه، والإيقاع به، والإيحاء إليه بسلامة الفكرة، وصحة المفهوم[2].

والذي أريد أن أُبيّنه في هذه الأسطر هو الغزو الفكري الصليبي الكاثوليكي الموجه إلى الأمة الإسلامية.

فهذا الغزو كان ويكون بوسائل غير عسكرية اتخذها الغزاة الصليبيون الكاثوليكيون ثم لحقهم البروتستانتيون لإزالة مظاهر الحياة الإسلامية في المجتمعات المسلمة وصرف المسلمين عن التمسك بالإسلام، وما يتعلق بالعقيدة، وما يتصل بها من أفكار وتقاليد وأنماط سلوك[3].

---

(١) الغزو الفكري، والتيارات المعادية للإسلام، ص ٧، د. عبد الستار فتح الله سعيد، وندوة بحثية في مؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقد في جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض عام (١٣٩٦هـ) تحت عنوان (الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام)، ص ٨.

(٢) مواجهة الغزو الفكري ضرورة إسلامية، ص ١٦، د. أحمد عبد الرحيم السايح.

(٣) واقعنا المعاصر، ص ١٩٥، فضيلة الشيخ / محمد قطب.

فاستخدم الصليبيون في غزو المسلمين فكرياً: الفكرة، والمعلومة، والبرنامج، والمنهج في محاولة لتحطيم مقومات الأمة الإسلامية: العقدية، والفكرية، والثقافية، والحضارية، والتشكيك في تلك المقومات والحط من قيمتها، وتفضيل ما عندهم من الصليبيات والفلسفيات عليها وإحلالها محلها في الدستور، ومناهج التعليم، والبرامج الإعلامية والتثقيفية والأدب، بل في النظرة الكلية للدين والإنسان والحياة[1].

فالصليبيون النصارى يعلمون بأن العقيدة والفكرة الإسلامية الصحيحة هي أقوى سلاح ضدهم؛ فحاولوا طمسها، ووضع الحواجز بينها وبين المسلمين، ولم يجدوا في تنفيذ ذلك أجدر من سلوك سبل الغزو الفكري.

وتكمن خطورة الغزو الفكري الصليبي للأمة الإسلامية أنه يحاول أن يضرب الإسلام من الداخل عن طريق إضعاف فاعليته بالتشكيك في أسسه ومبانيه، وعزله عن التأثير في حياة المسلمين وذلك باسم التقدم، والحضارة والرقي، ومحاربة الرجعية، ومن ثم وقف المد الإسلامي، وحصر الإسلام داخل حدود لا يتجاوزها، وإلى تجزئة المسلمين أرضاً وأمةً وفكراً، وتشويه صورتهم التاريخية الغابرة والحالية، والحيلولة دون مستقبل مشرق للإسلام والمسلمين[2].

ولقد أدرك الصليبيون بعد التجارب الطويلة في صراعهم مع المسلمين أن الغزو العسكري قبل الغزو الفكري يولد رد فعل عنيف لم يتحقق به للصليبيين الفائدة المرجوة، والتي من أجلها خرجوا من ديارهم في الغرب، وبذلوا في حينها الأموال والدماء والنفوس.

ولهذا لم يكن للحروب الصليبية الأولى تأثير حضاري وفكري وإنما كانت (أشبه شيء بمرض عارض على جسد قوي، وأقرب الأمور إلى سنن الحياة؛ أن يستثير المرض كوامن المناعة فيه وأن

---

(١) تحديد مفهوم الغزو الثقافي، محاضرة لمعالي الشيخ الدكتور / عبد الله بن عبد المحسن التركي، ألقيت في ملتقى الفكر الإسلامي التاسع عشر بالجزائر (شوال ١٤٠٥هـ - يوليه ١٩٨٥م).

(٢) واقعنا المعاصر والغزو الفكري، ص ٣٥، د. صالح الرقب.

يستحثه إلى أسباب الوقاية والعلاج ليطرد العلة الوافدة، وكذلك كان)[1].

لذلك لما عاد النصارى الصليبيون لغزو العالم الإسلامي مرة أخرى لم يكتفوا بالسلاح وحده، ولكنهم استصحبوا معهم تلك الوسيلة الخبيثة التي نطلق عليها اسم (الغزو الفكري)[2]، ذلك الغزو الذي لا يلقى في الغالب أسباب المقاومة التي يلقاها الغزو العسكري من جهة المغزوين، فهو يدعو عند بعضهم زوراً وبهتاناً إلى محاربة الرجعية وإلى التقدم والرقي بالأمة، كما أنه ولو تبين للناس بعد ذلك حاله ومقصوده تبقى آثاره في قلوب بعض المغزوين وعقولهم.

ولا ننس أيضاً أن الغزو العسكري وسائله منفِّرة، وهي مصحوبة بالدمار والقتل والدم، بينما وسائل الغزو الفكري ناعمة وخادعة، ومصحوبة بالشهوات، فالاستجابة لها أسرع وأكثر وأنجح، كما أنه يستهدف أشرف ما في الإنسان: عقيدته وفكره، وقلبه وعقله[3].

لذلك كان الغزو الفكري في غاية الضراوة، وعنف التركيز والتأثير، وساعده استيلاء الكفار على مقدرات المسلمين، ومراكز الحكم والتوجيه، ثم بعد الجلاء والتحرر المزعوم، ساعده في المواصلة والتأثير موالاة بعض حكام المسلمين للغرب الصليبي، وكذلك بريق الحضارة المادية مع الدعاية المتقنة للنظم الغربية والتغرير بها وإتقان أصحابها لما خططوا له من ضرب الإسلام وأبنائه، ومبادرتهم إلى تشديد الكرة عليه، فتعددت مظاهره، وتكاد أن تشمل جوانب الحياة جميعها، وهذه المظاهر لم تكن إلاَّ بناءً على دراسات دقيقة لأحوال المجتمعات الإسلامية.

ونستطيع أن نتعرف إلى تلك المظاهر للغزو الفكري وتياراته في حملات التشويه للإسلام، لكتابه العزيز، ولسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولشخصه عليه الصلاة والسلام الكريم المعصوم، ولشريعته الإسلامية ونظامها في هذه الحياة، وللغته الفصحى، وللتاريخ الإسلامي....

---

(١) الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ص ٥٩، د. عبد الستار فتح الله سعيد.

(٢) واقعنا المعاصر، ص ١٩٦، فضيلة الشيخ/ محمد قطب.

(٣) واقعنا المعاصر والغزو الفكري، ص ٣٥، د. صالح الرقب.

كما نستطيع أن نُدرك مظاهر هذا الغزو في حملات التغريب لأبنائنا المسلمين من جهة التعليم والثقافة والنظم الاجتماعية والسياسية والقضائية والاقتصادية والإعلامية وفي الأخلاق والآداب، ثم تكون بتغريب اللسان؛ لقطعه عن لغة القرآن اللغة العربية الفصحى[1].

والغزو الفكري الصليبي الموجه للأمة الإسلامية يقوم على ركنين، هما: الاستشراق، ثم التغريب.

وقد كان الهدف الأعظم للصليبيين يظهر في كل مرحلة من مراحل الغزو الفكري ألا وهو التنصير.

وقبل أن أدخل في تفصيل هذه المسائل أذكر أن هذه المسائل الفكرية الموجهة للأمة الإسلامية بدأ النقاش فيها، ومحاولة استخدامها منذ وقت الحملة الصليبية المرقمة بالخامسة، في أواخر عام ١٢١٧م في تفاهم بين بابا روما هونوريوس الثالث (١٨ تموز ١٢١٦ - ١٨ آذار ١٢٢٧م)، ومؤسس الرهبنة الفرنسيسكانية فرنسيس الأسيزري[2]، ثم ازدادت أهميتها في نظر النصارى بعد فشل الحملة الصليبية المرقمة بالسابعة، وأسر قائدها الملك الفرنسي لويس التاسع في المنصورة، فعندما خرج من سجنه عام ١٢٥٠م أشار إلى النصارى بالاهتمام بحرب المسلمين من الداخل بضرب عقيدتهم مكمن القوة فيهم، وفي الدس بينهم وإثارة الخلافات بينهم والعمل على بقائها مستعرة مع تجنيد بعض الصليبيين لمحاربة تعاليم الإسلام[3]، كما أنها دخلت بقوة في دائرة التنفيذ والأهمية الكبرى بعد فشل الحملات الصليبية الثماني الكبرى وسقوط عكا من أيديهم إلى أيدي المسلمين في عام ١٢١٩م، وفتور المواجهة العسكرية عند الغرب بشكل عام ضد المسلمين،

---

(١) مواجهة الغزو الفكري ضرورة إسلامية، ص٣٢، د. أحمد السايح، الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ص ٦٧، د. عبد الستار سعيد، الندوة البحثية المنعقدة في جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض عام (١٣٩٦هـ) بعنوان: (الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام)، ص ٢٣.

(٢) الحرب المقدسة (الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم)، ص ٤٨٥، كارين آرمسترونغ.

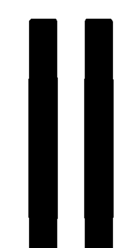
(٣) حقائق عن الغزو الفكري للإسلام، ص ٦، أنور الجندي، واقعنا المعاصر، ص ١٩٦، محمد قطب، احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، ص ٣٢، د. سعد الدين السيد صالح، واقع العالم الإسلامي، ص ٤٨، سعيد عبد الحكم زيد.

فقامت مشاريع صليبية تُبيّن الطريقة المناسبة للهجوم على المسلمين لا تجعل المواجهة العسكرية هي الأساس وإن كانت أغلبها متمسكة بالمواجهة العسكرية متى سنحت الفرصة لذلك، وأهم هذه المشاريع ما تقدم به ريموند لول سنة ١٣٠٥م لبابا الكاثوليك المتنقل من روما إلى أفينون بفرنسا البابا إكليمنضوس (كلمنت) الخامس (٥ حزيران ١٣٠٥ - ٢٠ نيسان ١٣١٤م)، وقد كانت قيمة هذا المشروع الصليبي في أن صاحبه (ريموند لول) له معرفة باللغة العربية، ودراية كبيرة بطبيعة بعض البلدان العربية والإسلامية، فقد كان مشروعه قائماً على كسب المسلمين من الناحية الفكرية مع تمسكه بإرسال حملة صليبية قوية إن أمكن ذلك [١].

ثم تجلّت هذه الأفكار بغزو المسلمين وبالطريقة التي كان يراها المنصّر والمستشرق ريموند لول على يد الملك الفرنسي نابليون بونابرت عندما غزا مصر بالطريقة العسكرية والفكرية عام ١٧٩٨م، فتمكّن الاستشراق الصليبي وبدأ يتسلل التغريب إلى المسلمين منذ ذلك الوقت، وفي المراحل كلها كان التنصير هو الهدف الأعظم للصليبيين.

---

(١) الحركة الصليبية، ٢/ ٩٤٤، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.



المبحث الأول: الاستشراق

* مفهوم الاستشراق.
* نشأة الاستشراق الكاثوليكي ومراحله.
* دوافع الاستشراق.
* وسائل المستشرقين.

مفهوم الاستشراق (Oientalism):

من الناحية اللغوية فإن الاستشراق اشتقه الغربيون من لفظة (الشرق)[١].

(الشين والراء والقاف) أصل واحد يدل على إضاءةٍ وفتح، ومن ذلك شرقت الشمس، إذا طلعت[٢]، والشرق: المشرق، والتشريق: الأخذ من ناحية المشرق[٣]، والشارق: الجانب الشرقي[٤]،

---

(١) وردت كلمة (مستشرق) منذ عام (١٧٩٩م) في أحد أعداد مجلة Encyclopediqe رقم (١٢٢) في ترجمة الأب بولينوس، وقد استخدم كبير المستشرقين الفرنسي سلفستر دي ساسي هذا المصطلح في عام ١٨١٠م، ثم وجد بعد ذلك في عام (١٨٢٤م) في تراجم الرجال الموتى الخاصة بـ(لويس لانجلي) المنشور في (المجلة الآسيوية) في العام ذاته، وقد جاء فيها ما يلي: (إن المعنى الجديد للمستشرقين الذي حاول البعض خلطه وتخصيصه لدارسي اللغات الآسيوية ولمن يبحثون عن تاريخ وثقافة هذا الجزء من العالم، هذا الاسم أي (المستشرق) هو من اختراع لانجلي)، ثم انتشر منذ عام (١٨٣٨م) على نطاق واسع ابتداءً من اللغة الفرنسية والانجليزية. انظر: نقد الخطاب الاستشراقي، ١/ ٢٤٣، د. سامي سالم الحاج، الإسلام في تصورات الاستشراق الإسباني، ص ٣٢، د. محمد العسري.

(٢) معجم مقاييس اللغة، ٣/ ٢٦٤، مادة (شرق)، لأحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون.

(٣) لسان العرب، ١٠/ ١٧٤، مادة (شرق)، لابن منظور.

(٤) القاموس المحيط، ص ١١٥٨، مادة (شرق) للفيروز آبادي.

والمشرق والمغرب إذا قيلا بالإفراد فإشارةٌ إلى ناحيتي الشرق والغرب [١].

ويبدو أن معنى (استشراق) أدخل نفسه في أهل الشرق وصار منهم [٢].

أما من الناحية الاصطلاحية، فقد عرّف قاموس أكسفورد الاستشراق بأنه: (دراسة الشخصية الشرقية، من ناحية الأسلوب والخواص والصفات وطرق التفكير والتعبير... الخاصة بتلك الأمم الشرقية، كما أنه يعني أيضاً دراسة العلوم الشرقية أو معرفة لغات الشرق)[٣].

وجاء في قاموس وبسترز الأمريكي أن الاستشراق هو تعلم الموضوعات الشرقية ودراستها وعادات الشرقيين وخواصهم وتقاليدهم[٤].

ويقول النصراني العربي إدوارد سعيد: (الاستشراق أسلوب غربي للسيطرة على الشرق، واستبنائه، وامتلاك السيطرة عليه)[٥]، واستبناؤه أي: بناء ذلك الشرق طبقاً للمفاهيم الغربية.

وكما هو ملاحظ أن مثل هذه التعريفات شديدة العموم، فالشرق هو مجموعة الأقطار المنتشرة في آسيا وبعض الأقطار في إفريقية وهو ما يطل على حوض البحر الأبيض المتوسط وبعض أجزاء من أوروبا الشرقية[٦]، وكثير من هذه الأقطار لا تدين بالإسلام.

ثم لا شك أن تسمية هذه المناطق بالشرق هو من ابتداعات أوروبا وهو ما يدل على غطرستها والنظر إلى الآخر بالنظرة الدونية له والإعجاب بنفسها، واستخدام مثل هذه المصطلحات

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، ص ٤٥١، مادة (شرق)، للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان داوودي.

(٢) فلسفة الاستشراق، ص ٢٢، د. أحمد سمايلو فتش.

(٣) انظر: قاموس اكسفورد Dictionay Englis oxfod :soce.: انظر: الاستشراق والتربية، ص ٢٦، د. هاني محمد بركات.

(٤) انظر: قاموس وبسترز الأمريكي: Dictionay colleginate new seventh webstes :soce .٥٩٥Page

(٥) الاستشراق (المعرفة السلطة الإنشاء)، ص٣٩، للمفكر النصراني الفلسطيني الأمريكي إدوارد سعيد، نقله إلى العربية: كمال أبو ديب.

(٦) منهج البحث في الإسلاميات لدى المستشرقين وعلماء الغرب، ص ٣٢، محمد البشير مغلي.

(الشرق)، (الشرق الأوسط) ليس تأييداً لها، أو اعترافاً بغطرسة ما يُسمى بالغرب بقدر ما فيه من مجاراة المفهوم العام، ثم بيان ما فيها من مكر وخديعة للآخرين في أنهم هم الأصل ومنهم يُجلب كل نفع.

والذي أقصده من مسألة الاستشراق هذه، هي الدراسات النصرانية للإسلام والمسلمين؛ لأن هذا هو المقصود الأعظم عند نصارى الغرب كما ذكر غير واحد من مستشرقيهم [1].

وفي هذا يقول إدوارد سعيد: (إلا أن الشرق العربي والإسلامي، بشكل عام، كانا الوحيدين اللذين واجها أوروبا بتحدٍّ لم تجد له حلاً على الأصعدة السياسية، والفكرية، ولزمن قصير، والاقتصادية أيضاً، فقد حمل الاستشراق في داخله، إذن، لمعظم تاريخه سمة موقف أوروبي إشكالي بإزاء الإسلام. لقد كان الإسلام، دون شك، استفزازاً حقيقاً بطرق عديدة. فقد كان قريباً من المسيحية قرباً مقلقاً جغرافياً وثقافياً... ولم يكن ممكناً أن يغيب عن ذهن أي أوروبي، ماضياً أو حاضراً، كون الإسلام قد فاق روما إشعاعاً وسما عليها)[2].

لذلك كان التعريف الذي أميل إليه للاستشراق والذي له علاقة بما سيكون في هذه الصفحات هو: أن الاستشراق دراسات متخصصة يقوم بها النصارى [3] للإسلام في شتى جوانبه: العقدية، والتشريعية، والتاريخية، واللغوية، والحضارية، وفي النظم والإمكانيات... بهدف تشويه الإسلام، ومحاولة تشكيك المسلمين فيه، وتضليلهم عنه، وادعاء تفوق حضارتهم النصرانية (الغربية) على الحضارة الإسلامية (الشرقية) ومحاولة فرض التبعية لهم على المسلمين، ومحاولة تبرير هذه التبعية

(١) انظر: الاستشراق، ص ١٠١ - ١٠٣، إدوارد سعيد.

(٢) المرجع السابق، ص ١٠١، إدوارد سعيد.

(٣) وسوف أقتصر من هؤلاء النصارى على طائفة الكاثوليك، أما الطائفة البروتستانتية فهي تبع الكاثوليك الذين تقدموا عنهم من الناحية الزمنية، ثم إني بهذا التعريف أخرجت الاستشراق اليهودي الصهيوني والذي يُعد من أمكر أنواع الاستشراق لعلوم الإسلام وحضارته، وكذلك الاستشراق الإلحادي الذي يعمل على نشر الإلحاد في البلاد الإسلامية.

بدراسات ونظريات تدّعي العلمية والموضوعية [1].

فهذا الاستشراق يمثل الخلفية الفكرية للصراع الديني بين الإسلام والنصرانية في الغرب والذي بدا واضحاً منذ الحروب الصليبية التي امتدت قرنين من الزمان (٤٨٩هـ-٦٩١هـ)، (١٠٩٥-١٢٩١م)، لم تنته، ولن تنتهي مصداقاً لقول الباري:(وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ)[2].

فالاستشراق النصراني كان له أكبر الأثر في صياغة التصورات النصرانية الأوروبية عن الإسلام وفي موقفهم من المسلمين على مدى قرون عديدة ولا يزال [3].

نشأة الاستشراق الكاثوليكي ومراحله:

تعددت آراء الباحثين والمهتمين بالدراسات الاستشراقية حول البداية الحقيقية للاستشراق بشكل عام، يقول الأستاذ أحمد غراب: (إن الاستشراق في جوهره موقف عقدي وفكري معادٍ للإسلام يقفه الكافرون بهذا الدين بوجه عام، وبعض أهل الكتاب من اليهود والنصارى بوجه خاص... هذا الموقف في جوهره النابع من العداوة في العقيدة ليس بجديد فهو موقف الكافرين بالإسلام من المشركين وأهل الكتاب منذ ظهور الإسلام) [4]، وهو يقصد هذه المسألة بشكلها العام.

كما أن بعض الباحثين يرون أن الاستشراق بدأ في القرن السابع الميلادي وذلك اعتماداً على كتابات يوحنا الدمشقي، ولكنه رأي يعتمد على دراسات نصرانية أرثوذكسية خارجة من أرض

---

(١) رؤية إسلامية للاستشراق، ص٧، أحمد غراب، الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وضلال الاستشراق، ص ٩٠، د. عبد الرحمن عميرة.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٢٠.

(٣) قضايا فكرية واجتماعية في ضوء الإسلام، ص ١٦٥، د. محمود حمدي زقزوق، المستشرقون والتنصير، ص ١٥، د. علي بن إبراهيم النملة.

(٤) رؤية إسلامية للاستشراق، ص ١١، أحمد غراب.

عربية إسلامية [١].

والذي أريد بيانه في هذه الأسطر هو الاستشراق الغربي النصراني الذي حملت لواءه الطائفة الكاثوليكية، وهي الطائفة التي كانت متزعمة الأراضي الأوروبية قبل عهد الإصلاح الديني عندهم، وخروج الطائفة البروتستانتية بفروعها منها.

وقد تعددت أيضاً آراء الباحثين في تحديد تاريخ معين لهذا الاستشراق الغربي، وإن كانت آراؤهم انحصرت ما بين القرنين العاشر الميلادي والثالث عشر الميلادي [٢].

---

(١) يوحنا الدمشقي هو حفيد منصور بن سرجون وزير معاوية بن أبي سفيان عاش ما بين (٦٧٦ - ٧٤٩م). انظر: الاستشراق أهدافه ووسائله، ص ٢٢٤، د. محمد فتح الله الزيادي.

(٢) ومن هذه الآراء ما ذهب إليه كل من:
أ) يرى الدكتور محمد البهي، أن الاستشراق بدأ في بعض البلدان الأوروبية في القرن الثالث عشر الميلادي (وربما كانت هناك محاولات فردية قبل ذلك، غير أن المصادر التي بين أيدينا لا تلقي الضوء الكافي على الموضوع وإن أشارت إلى بعض المستشرقين كأفراد)، ويرى أن الاستشراق انتشر في أوروبا بصفة جدية بعد فترة عهد الإصلاح الديني عندهم... انظر: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص ٥٣٢.
ب) ويقول الدكتور محمود حمدي زقزوق: (ترجع البدايات الأولى للاستشراق لدى بعض الباحثين إلى مطلع القرن الحادي عشر، ويرى المستشرق الألماني المعاصر رودي بارت أن بداية الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا تعود إلى القرن الثاني عشر).
ويرى أن الصراع الذي دار بين العالمين الإسلامي والنصراني في الأندلس وصقلية كان الدافع لبدايات الاستشراق، كما دفعت الحروب الصليبية بصفة خاصة إلى اشتغال الأوروبيين بتعاليم الإسلام وعاداته. انظر: قضايا فكرية واجتماعية في ضوء الإسلام، ص ١٦٦.
جـ) أما الدكتور ساسي سالم الحاج فيرى أن هناك فرقاً بين الاستشراق الديني والاستشراق العسكري الأوروبي؛ فالاستشراق الديني عنده بدأ في عهد بابا روما (سلفستر الثاني) عام ٩٩٩م الذي أسس أول مدرسة عربية بمدينة (ريمس) بفرنسا، أما الاستشراق العسكري فبدأ منذ نهاية الحروب الصليبية بطرد آخر الجنود الصليبيين من عكا عام ١٢٩١م، ورافق ذلك الرجوع أن قام النصارى بسلب آلاف الكتب والمخطوطات العربية إلى أوروبا فاتجهت بذلك الأنظار إلى اقتحام الديار الإسلامية بالطرق السلمية... انظر: نقد الخطاب الاستشراقي، الجزء الأول، ص ٤٢، ص ٤٩، ٥٠.
د) وذكر الدكتور أحمد سمايلوفيتش في كتابه (فلسفة الاستشراق) آراء عدة من الباحثين الغربيين في تحديد تاريخ بداية الاستشراق الغربي ولم يتفقوا على تحديد تاريخ معين له، فيقول المستشرق الألماني رودي بارت توفي عام ١٩٨٣م: إن بداية الدراسات العربية والإسلامية ترجع إلى القرن الثاني عشر إذ فيه ترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية لأول مرة عام ١١٤٣م، كما أنه ألف أول قاموس لاتيني عربي في القرن نفسه، ويرى المستشرق البلجيكي اليسوعي الأب (لامنس) توفي عام ١٨٦٢م أن بدايات هذه الدراسات في القرن الثالث عشر. انظر: فلسفة الاستشراق، ص ٥٧، موسوعة المستشرقين، ص ٦٢، ٥٠٣، د. عبد الرحمن بدوي.

ويمكن الجزم بأن الاستشراق الغربي النصراني بدأ من الفاتيكان باباوات وأساقفة ورهباناً، وذلك لأمور منها: أنهم الفئة المؤهلة فكرياً وثقافياً لمواجهة الانطلاقة الإسلامية داخل الأراضي الأوروبية، فشعور الغربيين بالخطر الإسلامي على زعمهم وإلا ما جاء به الإسلام ما هو إلا رحمة للعالمين عقدياً وفكرياً جعل الدائرة والمؤسسة الأكبر في أوروبا، وهي الفاتيكان تحاول أن تواجهه وتنظر فيما جاء به، مع المواجهة العسكرية كل ما سنحت لها الفرصة لذلك.

ثم إن في هذه المواجهة وهذه الدراسات تحسين لصورة الفاتيكان، والمنسوبين إليها أمام ملوك الغرب وأمرائه.

والناظر إلى طبيعة علاقة الغرب النصراني الكاثوليكي بالإسلام والمسلمين ثم تبعهم في ذلك البروتستانت بعد عمليات إصلاحاتهم الدينية؛ يجد أن هذه العلاقة مرّت بأطوار تغيّرت وتبدلت فيها المراكز الحضارية بينهم من قوةٍ وضعفٍ ومن تأثر وتأثير، ويمكن أن تُقسّم هذه العلاقة فيما بينهم إلى أربع مراحل، في كل مرحلة منها الشيء الكبير من المكر بالمسلمين على حسب استطاعة النصارى الغربيين وقدراتهم في ذلك، وأخطر هذه المراحل فيما أراه المرحلة الثالثة منها كما سيتضح ذلك إن شاء الله تعالى.

المرحلة الأولى: مرحلة الإعجاب بالحضارة الإسلامية الممزوج بالخوف والحقد الصليبي مع استخدام السلاح ضد المسلمين، من بداية فتح المسلمين لإسبانيا عام ٧١١م إلى خروج الصليبيين من عكا عام ١٢٩١م.

لقد حدث الالتقاء الأول بين الحضارة الإسلامية والغرب النصراني الكاثوليكي عن طريق الأندلس (إسبانيا) في بداية القرن الثاني الهجري في عام ٩٢هـ وبداية القرن الثامن الميلادي في عام ٧١١م عندما فتحها المسلمون[1].

وكانت إسبانيا في ذلك الوقت (لا تختلف عن بقية بلاد غرب أوروبا من حيث انتشار الجهل

---

(١) فجر الأندلس، ص ٦٧، د. حسين مؤنس.

والتأخر والفوضى ولكن المسلمين بعد أن فتحوها نقلوها إلى مرحلة استقرار وإنشاء، فاتجهوا نحو إحياء الأرض الميتة، وتعمير المدن الخربة، وتنشيط التجارة الراكدة، وإنعاش الصناعة المتأخرة، حتى أصبح الأندلس في ظل خلافة قرطبة أغنى الأقطار الأوروبية وأكثرها ازدحاماً بالسكان.

ثم اختار المسلمون أن يوطِّدوا سلطانهم في إسبانيا عن طريق العلم، فانصرفوا نحو العناية بالآداب والعلوم والفنون، وعندئذ لم يقنعوا بما وصل إليه إخوانهم في المشرق من تقدم، بل زادوا على ذلك وابتكروا وجددوا مما أتاح لأوروبا مورداً عذباً استساغت شرابه، فظلت تنهل منه)[1].

وقد ساعد أيضاً على النهضة العظيمة بالأندلس سياسة التسامح التي اتبعها المسلمون تجاه النصارى هناك، فأقبلوا بدورهم على استخدام اللغة العربية وفضّلوها على اللاتينية. وهكذا نشأت مدرسة كبيرة من النصارى استطاعوا أن يقوموا فيها بدور السفراء بين الحضارة الإسلامية من ناحية، وأهاليهم أتباع ملتهم النصارى في باقي أوروبا من ناحية أخرى[2].

وهناك طريق آخر انتقلت منه الحضارة الإسلامية إلى الغرب الكاثوليكي وهو طريق صقلية، فهذه الجزيرة هي أهم جزر البحر المتوسط، فهي صلة الوصل بين شمال إفريقية وإيطاليا فموقعها سهل الاتصال بالشعوب ذوات الحضارة على شواطئ المتوسط منذ القديم لذلك سميت (درة جزر البحر المتوسط)[3].

وكان فتح المسلمين لهذه الجزيرة في القرن الثالث الهجري (القرن التاسع الميلادي) فقد بدأت المحاولات الإسلامية لإخضاعها نهائياً منذ عام ٢١٢هـ - ٨٢٧م[4].

وعندما تمكّن المسلمون من جزيرة صقلية اهتموا بها كما اهتموا بإسبانيا من الناحية العلمية،

(١) المدنية الإسلامية وأثرها على الحضارة الأوروبية، ص ٤٩، ٥٠، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

(٢) المرجع السابق، ص ٥١، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

(٣) فتح صقلية، ص ٥٩، د. شوقي أبو خليل.

(٤) المرجع السابق، ص ٧١، د. شوقي أبو خليل.

والحضارية من زراعة وصناعة وتجارة[1]، فلقد قامت في جزيرة صقلية دولة إسلامية، ازدهرت في ظلّها حضارة رائعة في الجزيرة فانسابت إليها ألوان الثقافة والمدنية من العالم الإسلامي[2]، وهو ما جعلها مرجعاً وموطناً لطالبي العلم والحضارة والتقدم من الغربيين النصارى (الكاثوليك).

ولا شك في أن موقع هذه الجزيرة (الإسلامية) والتي أصبحت محل أفئدة النصارى المحبين للرقي بالقرب من مركز البابوية (الفاتيكان) في روما؛ أصاب الغرب الكاثوليكي وخاصةً الكنيسة الكاثوليكية برجالها جميعهم بالهلع والفزع.

ومنذ ذلك الاتصال بين المسلمين والغرب الكاثوليكي عن طريق الأندلس ثم صقلية بدأت البابوية وكنائسها ومفكروها يعادون المسلمين ويهاجمونهم وظلت هذه الطريقة متداولة ورائجة حتى عصرنا هذا[3].

ولكن البابوية ورجالاتها يعلمون في الوقت نفسه أنه لا سبيل لهم إلى إرساء نهضتهم إلاَّ على أساس من التراث العلمي العالمي والذي يمثله في ذلك الوقت الإسلام وحضارته فتعلموا العربية[4]، وبها أيضاً يستطيعون الوقوف في وجه الدين الإسلامي فقد شعروا بخطره العقدي والفكري على أبنائهم وعقيدتهم النصرانية الكاثوليكية لتغلغل تعاليمه الإسلامية الواضحة الموافقة للفطرة والعقل إلى قلوب شعوبهم الكاثوليكية وعقولهم.

فوجود الإسلام كان قد أثار في نفس البابوية وكنائسها في ذلك الوقت إحساسات عميقة بالخوف

(١) فالمسلمون عندما (ثبتوا أقدامهم في صقلية في القرن التاسع للميلاد اهتموا بالزراعة فحفروا الترع والقنوات وأنشؤوا المجاري المعقوفة التي كانت مجهولة قبلهم، كما أدخلوا زراعة القطن وقصب السكر، وفي الصناعة استغلوا ثروة الجزيرة الطبيعية فاستخرجوا منها الفضة والحديد والنحاس والكبريت، وأدخلوا فيها صناعة الحرير، أما تجارة صقلية فقد اتسع نطاقها على أيام العرب بعد أن بلغت الحضيض في العصر السابق مباشرةً). انظر: المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، ص ٥٣، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

(٢) فتح صقلية، ص ٧٩، د. شوقي أبو خليل.

(٣) فلسفة الاستشراق، ص ٧١، د. أحمد سمايلوفتش.

(٤) المستشرقون، ١/ ١٠٤، نجيب العقيقي.

والصدمة وعدم الرضا، ومن الناحية الواقعية أحدث الإسلام موجات غير متناهية من شعورهم بعدم الأمان، وتوقع الخطر[1]؛ لذلك فمواجهتهم له أصبحت ضرورية عندهم للحيلولة بينه وبين أن يستهوي أبناءهم النصارى أو ينال إعجابهم، كما أن البابوية وكنائسها سعت للإحاطة بعوامل قوة الإسلام الدافعة بأبنائه إلى الانتشار في العالم آنذاك[2]، (وعلى هذا النحو صار الاختلاف بين الشرق والغرب على أساس من الصراع بين الإسلام والمسيحية)[3].

لذلك كله كانت طلائع المستشرقين من الرهبان الكاثوليك، ومن أوائلهم في تلك الحقبة التاريخية راهب فرنسي يُدعى (Gebet) (جربرت) المولود عام ٩٣٨م، فقد قصد الأندلس، وأخذ من علمائها، وأتقن اللغة العربية، وقرأ في العلوم الإسلامية... وبفضل هذا النبوغ تدرج في السلك الكهنوتي حتى اعتلى عرش البابوية باسم (سلفستر الثاني) (٩٩٩ - ١٠٠٣م)، فأمر بإنشاء مدرستين لتعليم اللغة العربية، الأولى في روما مقر بابويته، والثانية في ريمس بوطنه فرنسا[4].

وكذلك ظهر الراهب أدلرد أوف باث (١٠٧٠ - ١١٣٥م) والذي طلب العلم في الأندلس، واهتم اهتماماً بالغاً بالترجمة من العربية إلى اللاتينية، وقد عُيّن مُعلماً للأمير الانجليزي هنري الذي أصبح فيما بعد الملك هنري الثاني[5].

وقد بدا واضحاً منذ عام ١١٣٠م أن آباء الكنيسة الكاثوليكية يعملون جاهدين على ترجمة الكتب الإسلامية، وكان لرئيس أساقفة طليطلة ريموندو الأول (توفي عام ١١٥٢م) الفضل في ذلك التوجه، فقد أنشأ مدرسة للمترجمين في طليطلة عام ١١٣٠م[6].

(١) صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى، ص ٣٩، ريتشارد سودرن، ترجمة: د. رضوان السيد.

(٢) الإسلام في تصورات الاستشراق الإسباني، ص ١٢٠، د. محمد عبد الواحد العسري.

(٣) منهج البحث في الإسلاميات لدى المستشرقين وعلماء الغرب، ص ٤٦، محمد البشير مغلي.

(٤)) نقد الخطاب الاستشراقي، ١/ ٤٢، د. ساسي سالم الحاج.

(٥) المستشرقون، ١/ ١١١، نجيب العقيقي.

(٦) الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، ص ٢٥، مصطفى نصر المسلاتي، بحث للدكتور: محمود حمدي زقزوق، بعنوان: الإسلام والاستشراق، ضمن بحوث كتاب: الإسلام والمستشرقون، ص ٧٤،

ثم كان الدور الأكبر في فتح الدراسات الإسلامية في الغرب الكاثوليكي للراهب الفرنسي المدعو (بطرس)، والذي يُنعت في الغرب بالموقر، أو المبجل، (١٠٩٢ - ١١٥٦م)، فقد عمل على إظهار أول ترجمة للقرآن الكريم باللاتينية في عام ١١٤٣م بمساعدة الراهب الإنجليزي روبرت كيتون [١]، كما قام الراهب بطرس بدراسات أخرى عن الإسلام فقد خطط لكتابة أربعة كتب، الأول: يبحث في حفظ النصارى لكتابهم المقدس، والثاني: يبحث في حياة نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم وفي القرآن الكريم والطعن فيهما، والثالث: يتناول خلو حياة النبي صلى الله عليه وسلم من المعجزات ويتكلم عن معاني النبوة، والرابع: يستمر في استخراج المطاعن والأمور المبتدعة (الهرطقة) على زعمه في الدين الإسلامي، وفي نهاية مطافه اكتفى بكتابة الكتابين الأولين.

وقد كانت من أهدافه خاصة بعد رجوعه من رحلته الإسبانية والتي مكث فيها من سنة ١١٤١م إلى سنة ١١٤٣م؛ هو الرد على علماء المسلمين، وعلى دينهم الإسلامي، ودعوة المسلمين إلى النصرانية؛ لذلك يعده المؤرخون من أوائل المنصرين الذين استخدموا العلم لتنصير المسلمين والرد على دينهم [٢].

والاستشراق أهدافه ووسائله، ص ٢٧، د. محمد فتح الله الزيادي.

(١) روبرت أوف تيشستر كيتون راهب انجليزي من الرهبنة البندكتية قصد الأندلس في تعلم العربية والرياضيات والفلك، عُين أسقفاً على بامبلونة عام ١١٤٣م، واختير مستشاراً في صقلية، ساعد بطرس في الترجمة الأولى للقرآن الكريم إلى اللاتينية.
انظر: المستشرقون، ١/ ١١٣، نجيب العقيقي، موسوعة المستشرقين، ص ١١٠، د. عبد الرحمن بدوي.
قول المستشرق الألماني يوهان فوك عن هذه الترجمة أنها: (تزخر بأخطاء جسيمة سواء في المعنى أو في المبنى، ولم يكن يقصد روبرت كيتون أميناً إذ أغفل ترجمة العديد من المفردات، كما لم يتقيد بأصل السياق، ولم يقم وزناً لخصوصيات الأسلوب). تاريخ الاستشراق، ص١٩، نقله عن الألمانية: عمر لطفي العالم.
وهذه الأخطاء المتعمدة في مثل هذه الترجمات للقرآن الكريم من قبل الكفار وخاصة الأعاجم منهم مما لا يشك فيه أحد، وذلك لأسباب من أهمها: كفرهم بهذا الدين وبكتابه الكريم وجهلهم بمعاني اللغة العربية، ومفرداتها. وإنما استشهادي بقول هذا المستشرق الألماني من باب (وشهد شاهد من أهلها) لا غير.

(٢) نقد الخطاب الاستشراقي، ١/ ٤٣، ٤٤، د. ساسي سالم الحاج، المستشرقون، ١/ ١١٢، نجيب العقيقي، موسوعة المستشرقين، ص ١١٠، د. عبد الرحمن بدوي.

فهذا الراهب الفرنسي بطرس وأمثاله من رجال الفاتيكان كانوا يرون في الإسلام (هرطقة مسيحية) وأشدها خطراً على نصرانيتهم، وكانوا يعتقدون أن التحدي الإسلامي لم يجد إجابات (مسيحية مناسبة) حتى في أيامهم، ولهذا فإنه من الضروري في اعتقادهم مواجهة هذا الدين الذي شكل الأصل والمنبع بالنسبة لهم لكل الهرطقات التي كانت تغزو نصرانيتهم الأوروبية الكاثوليكية... فالإسلام عندهم (يشكل خطورة فكرية شديدة لا بد من التعرف إليه لتمكن مكافحته)[1].

لذلك تحتم على رجال الدين في الفاتيكان أن يتعلموا اللغة العربية؛ لكي يستطيعوا الرد على فقهاء المسلمين وعلمائهم، وقام بهذا الدور الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان[2].

وبهذا يتبين أن من الحقائق التي لا ينكرها منكر أن الرأي العام الغربي قد تبلور بشكل يدعو إلى الدهشة، فالخوف كان مسيطراً على المجتمعات الغربية بسبب تقدم الزحف الإسلامي؛ لذا فقد دقّت الكنائسُ أجراسها معلنة حالة الذعر، وانتظمت صفوفُ الكنيسة ورجال الكهنوت والمهتمِّين بدراسة هذا الشرق، ولا أدل على مثل هذا من فقرات يسيرة كتبها المستشرق لوستير متأثراً بتلك الروح العقديَّة الذي سادت المجتمعات الغربية ولا تزال، فقال: (إن محمداً مؤسس دين المسلمين قد أمر أتباعه بأن يخضعوا العالَم وأن يُبدِّلوا دينَه بجميع الأديان، ما أعظم الفرق بين هؤلاء الوثنيين - ويقصد المسلمين - وبين النصارى! إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة، وقالوا للناس: إمّا أن تُسلِمُوا أو تموتوا... ماذا كان حالُ العالَم لو أن العرب انتصروا علينا)[3].

وظلت العقلية الأوروبية الكاثوليكية تُفكر بهذه الطريقة المعادية للإسلام والمسلمين وهو ما نتج عنه الحروب الصليبية الكبرى المرقّمة تاريخياً مع أن هذه العقلية الكاثوليكية كانت تُعايش المسلمين في الأندلس وصقلية وترى ما في دين الإسلام وتعامل المسلمين من تسامح ومحبة للآخرين وبذل

---

(١) صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى، ص٨١، ٨٢، ريتشارد سوذرن، ترجمة: د. رضوان السيد.

(٢) الاستشراق، ص ١٦، د. فتحية عبد الفتاح النبراوي.

(٣) الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، ص ٥٣، مصطفى نصر المسلاتي.

العلم لكل من يطلبه منهم نصرانياً أو يهودياً أو غيرهما، إلاَّ أن حقدها الصليبي وتعصبها الشديد لدينها النصراني لم يجعلها ترى نور الإسلام وسماحته فتفكر في حقيقته وتعاليمه.

ولو تتبعنا السرد التاريخي لآباء الكنيسة الكاثوليكية ومدى اهتمامهم بدراسة الإسلام ديناً وتاريخاً ولغةً للطعن فيه والرد عليه لطال بنا المقام[1].

ولكن الذي يهم في هذه المرحلة والتي عدت المرحلة الأولى للاستشراق الكاثوليكي الغربي، بيان أنها مرحلة اتسمت بالفهم القاصر للإسلام وتعاليمه، المبني على الخوف والفزع منه؛ لأنه تغلغل

---

(١) ومن أبرز هؤلاء في تلك المرحلة المبكرة:

- توما الأكويني (١٢٢٥م - ١٢٧٤م):

ولد بمدينة أكويني بألمانيا بدأ حياته العلمية في دير مونتي كاسينو للرهبان البندكتيين من (١٢٣٠م) إلى (١٢٣٩م) ثم انتقل إلى باريس في عام (١٢٤٥م) وتتلمذ على الراهب الدومنيكي والمستشرق الألماني ألبر الكبير (١٢٠٦م - ١٢٨٠م)، وانضم على إثر ذلك إلى الرهبان الدومينكيين. استدعي إلى روما عام (١٢٥٩م)، وتولى التدريس في مدرسة البلاط البابوي زهاء عشر سنين، اهتم باللغة العربية، وتعلمها، ورد على الفلاسفة المسلمين، وقد ألف كتاباً في ذلك سماه: خلاصة المذهب الكاثوليكي ضد الوثنيين ويُسمى أيضاً (في تفنيد الفلسفة الدينية) في أربعة مجلدات، وما زالت فلسفته أساس الدراسات اللاهوتية الكاثوليكية حتى اليوم، توفي عام (١٢٧٤م) وأعلنت الكنيسة الكاثوليكية قداسته عام (١٣٢٣م).

انظر: المستشرقون، ١/ ١١٧، ١١٨، نجيب العقيقي، الاستشراق السياسي، ص ٥٥، مصطفى المسلاتي، تاريخ حركة الاستشراق، ص ٢٥، يوهان فوك.

- ريموندو مارتيني (١٢٣٠ - ١٢٨٤م):

ولد بمدينة سوبرتس في مقاطعة كتالونيا (شمال شرق إسبانيا)، من الرهبان الدومنيكان بدأت اهتماماته بدراسة الإسلام ولغته العربية في عام (١٢٥٠م)، فسافر إلى تونس وتعلمها هناك، وقيل: إنه درس بعض أحكام القرآن واهتم بحفظ صحيحي البخاري ومسلم، وكان أجرأ المستشرقين في ذلك الوقت على تعاليم الإسلام وكتابه القرآن الكريم، شديد الكراهية لكل ما هو إسلامي، جادل الفلاسفة المسلمين وعلى رأسهم الإمام الغزالي في مسائل عدة في توحيد الله تعالى وخلود الروح، وألف في الرد على المسلمين كتاباً سماه: خنجر الإيمان، وصف فيه النبي صلى الله عليه وسلم بأنه معلم مجنون، وهذا الوصف والعياذ بالله كان سائداً في كتابات المستشرقين، واتهم المسلمين بأنهم قوم لا يفقهون، وأنهم يقبلون على الباطل والخرافات كأنها يقينية، وكان يذكر دائماً أن كل ما جاء الإسلام باطل من أساسه، وحاول معارضة القرآن الكريم بأقوال بيّن فيها سخافته الواضحة الوقحة وعجزه التام، فتطاول فيها على النبي صلى الله عليه وسلم، وألف في ذلك كتاباً سماه: (الخلاصة ضد القرآن).

اتخذ المستشرقون الكاثوليك بعده أقواله في القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم وفي المسلمين قواعد مسلمة، بنوا عليها دراستهم بعد ذلك. انظر: موسوعة المستشرقين، ص ٣٠٩، ٣١٠، د. عبد الرحمن بدوي، المستشرقون، ١/ ١١٩، نجيب العقيقي، الاستشراق، ص٥٢، ٥٣، د. السيد فرج، تاريخ حركة الاستشراق، ص٢٥، يوهان فوك.

في نفوس العقلاء من الغربيين وقلوبهم مما قد ينتج عنه في تصورهم زحزحة للدين النصراني في بلادهم النصرانية، فكانت النتيجة البدهية للاستشراق وضع صورة مشوهة مسبقاً عن الإسلام وتعاليمه، وإبرازها للعامة عندهم في أنحاء الغرب الكاثوليكي لوضع حاجز نفسي وذهني وحسي قوي بين شعوبهم النصرانية وبين الإسلام فيحلّوا بهذا من انتشاره بينهم، خاصةً إذا علمت العامة من النصارى وما أكثرهم في ذلك الوقت أن هذا الحكم على الإسلام مبني على دراسات قام بها آباء كنيستهم ورجال دينهم، وهم عندهم في تلك الأوقات محل ثقة واعتبار، وهذا ما يُفسر اهتمام البابوية ورجالها في الدراسات الاستشراقية عن الإسلام وتعلم لغته العربية منذ نشأتها.

وقد نتج عن هذه الدراسات المزوّرة لدين الإسلام وتعاليمه أن نجح باباوات روما ومن معهم من ملوك الغرب الكاثوليكي في حشد جيوش صليبية مكوّنة من طبقات مختلفة من الشعوب الغربية (عامة، وعساكر، ونبلاء...) ليس لإخراج المسلمين من البلاد الغربية التي نشروا في ربوعها الرحمة المهداة من تعاليم الإسلام السمحة لخيري الدنيا والآخرة فحسب بل في الهجوم على ديارهم الشرقية مهبط الرسالة الإسلامية في البلاد العربية، والتي استمرت أكثر من قرنين من الزمان (١٠٩٥ - ١٢٩١م)[١]، في أكثر من الحملات الصليبية الثماني المرقمة تاريخياً والتي استطاع بها الغرب الكاثوليكي أن يحتلوا بعض الإمارات الإسلامية المهمة خاصةً بلاد القدس الشريف... (فالحملات الصليبية أدت إلى انتشار الاستشراق على نطاق واسع جداً محمل بروح التعصب الديني، فقد بدأ الجاحدون للإسلام من الأوروبيين يتعلمون اللغة العربية، لا حباً فيها ولكن ليتخذها وسيلة إلى فهم القرآن، وسلاحاً في مناقشته)[٢].

وهذه المرحلة المبكرة للدراسات الاستشراقية الكاثوليكية الغربية لدين الإسلام وحضارته،

---

(١) أقصد في ذلك الوقت وإلاّ فإن الحروب الصليبية لم تنته ولن تنتهي مصداقاً لقول الباري: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ سورة البقرة، الآية: ١٢٠.

(٢) فلسفة الاستشراق، ص ٧٤، د. أحمد سمايلوفيتش.

ولغته، هي التي شكلت العقلية الأوروبية تجاه كل ما هو إسلامي من ناحية الحقد والكراهية والانتقام... وما زالت هذه العقلية الأوروبية المفزعة حيّة في الوجدان الغربي الأوروبي على مستوياتهم جميعها العلمية والشعبية والرسمية إلى زماننا هذا، ولكن قد تتوارى خلف بعض المصالح الاقتصادية الدبلوماسية ليس إلاَّ، والواقع أكبر دليل.

المرحلة الثانية: من مؤتمر فيينّا بفرنسا البابوي (المسكوني الخامس عشر)، في بداية القرن الرابع عشر الميلادي (١٦ تشرين الأوّل ١٣١١ - ٦ أيّار ١٣١٢م)، وإلى ظهور قوة الدول الغربية الكاثوليكية عن طريق الكشوفات الجغرافية في أواخر القرن الخامس عشر ١٤٩٢م، والقرن السادس عشر الميلادي.

بل إن بعض المهتمين بالدراسات الاستشراقية الغربية يرون أن البداية الرسمية للاستشراق قد انطلقت من مجمع فيينا الكنسي سنة (٧١٢هـ - ١٣١١م) فقد أصدر البابا إكليمنضوس (كلمينت) الخامس (٥ حزيران ١٣٠٥ - ٢٠ نيسان ١٣١٤ م) في هذا المجمع قراراً بإنشاء كراسٍ جامعية في الجامعات الخمس الكبرى في الغرب الكاثوليكي في ذلك الوقت (في جامعة باريس، وجامعة أكسفورد في لندن، وجامعة بولونيا، وجامعة سلمنكا، وجامعة الإدارة المركزية البابوية في روما) لتدريس اللغة العربية، وبعض العلوم الإسلامية، وبعض اللغات الحيّة في ذلك الوقت مثل: اليونانية والكلدانية [1].

وكان التوجه البابوي لدارسة اللغة العربية وبعض العلوم الإسلامية في جامعاتها، وعلى يد مدرسين كاثوليكيين [2]؛ لمقاومة الدين الإسلامي عن طريق الطعن فيه، وفي تاريخه ولغته، ولغرض بث النصرانية في قلوب المسلمين بطرق سلميّة بسبب فتور الروح الصليبية العسكرية في قلوب الشعوب الغربية؛ لانتصار الأمة الإسلامية عسكرياً في ذلك الوقت، وإخراجهم للصليبيين

---

(١) تاريخ حركة الاستشراق، ص ٣٢، المستشرق الألماني يوهان فوك، نقله عن الألمانية: عمر لطفي العالم، الاستشراق، ص ٨٠، إدوارد سعيد، ترجمة: كمال أبو ذيب.

(٢) المرجع السابق، تاريخ حركة الاستشراق، ص ٣٢.

من عكا عام ١٢٩١م خروجاً نهائياً لم يستطع الغرب الكاثوليكي بعدها أن يتقدم نحو الأراضي المقدسة في فلسطين، علماً بأنه قام بعدة هجمات صليبية على المسلمين إلاَّ أنها جميعاً باءت بالفشل فالاستشراق نال رعاية البابوية ومباركتها عندما ثبت فشل الحروب الصليبية العسكرية من خلال انحسار المد الغربي الصليبي بعد جهود قرنين من الزمان، فاتجهت البابوية وكنائسها الكاثوليكية إلى التنصير من خلال الفكر والثقافة والعلم، فكان التوجه إلى ما نسميه اليوم الغزو الفكري في تحقيق ما فشل فيه سلاح الغزو الحربي [١]، هذا الغزو الذي اتخذ من الاستشراق منطلقاً له، سعى من خلاله إلى تشويه الإسلام بطرق شتى، لا تتعدى كونها جملة من الإسقاطات [٢].

وهكذا قرر الغرب الكاثوليكي مواجهة الإسلام على نطاق أوسع من ذي قبل أي أوسع من المواجهة بالسيف فتمسك بتعلم اللغة العربية في مدارسه، وكاتدرائياته وأديرته وجامعاته، وحدث بعد فترة من الزمن أن خرّجت تلك المدارس والجامعات عدداً ضخماً من علماء اللغة العربية وآدابها، وكان هذا تقدماً جديداً في الاستشراق [٣].

وكان تبلور هذه المرحلة من الاستشراق الكاثوليكي الغربي بسبب توصيات بعض المستشرقين منهم، والذين نظروا في حال الأمة الإسلامية ومدى تفوقها على قومهم النصارى، مع فتور واضح من قومهم النصارى الغربيين لمواجهة الأمة الإسلامية على الأصعدة كلها عسكرياً وعلمياً واقتصادياً، فنادوا بالعلم سلاحاً للمواجهة مع المسلمين ولصد تقدمهم في بلادهم، مع قيام الحل العسكري إن استطاعت جيوشهم الغربية إلى ذلك سبيلاً.

---

(١) بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته، ص ١٢، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

(٢) المستشرقون والتنصير، ص ٢٣، د. علي إبراهيم النملة.

(٣) فلسفة الاستشراق، ص ٧٥، د. أحمد سمايلو فيتش.

ومن أوائل هؤلاء المستشرقين الذين نادوا بتعلم اللغة العربية لمواجهة المسلمين من الناحية العلمية هو روجر بيكون المتوفى سنة ١٢٩٢م(١)، فقد وجه رسالة إلى بابا روما إكليمنضوس (كلمينت) الرابع (٥ شباط ١٢٦٥ - ٢٩ تشرين الثاني ١٢٦٨م)، عام ١٢٦٦م ضمنها دعوة إلى وجوب إدخال اللغة العربية في مناهج الدراسات الجامعية؛ لأن تعلم اللغة العربية سيعين على معرفة منافذ التسرب إلى من يراد تنصيرهم من المسلمين، وكان يطلق عليهم الكفار(٢).

ثم كانت التوصية الأقوى في مسألة تعلم اللغة العربية لمواجهة المسلمين عقدياً وفكرياً، والعمل على تنصيرهم، أو تشكيكهم في دينهم الإسلامي من الراهب الفرنسيسكي الإسباني ريموندو لول المتوفى عام ١٣١٤م(٣).

---

(١) روجر بيكون (١٢١٤ - ١٢٩٢م): إنجليزي، من الرهبنة الفرنسيسكانية، تلقى العلم في أكسفورد ثم باريس عام (١٢٤٠م) حيث نال فيها الدكتوراه في اللاهوت، ثم انتقل إلى إيطاليا وتعلم فيها اللغة العربية ودرس الطب، كان من المقربين للبابا كليمنت الرابع، ومن آثاره: موجز الدراسات اللاهوتية.
انظر: المستشرقون، ١/ ١٢٠، نجيب العقيقي، المستشرقون والتنصير، ص ٧٢، د. علي إبراهيم النملة.

(٢) الاستشراق، ص ٥٤، د. السيد أحمد فرج، الإسلام والاستشراق، ص ٧٥، د. محمود حمدي زقزوق، ضمن بحوث كتاب الإسلام والمستشرقون، الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي، ص ٢٤، د. أحمد عبد الحليم السايح، أوروبا والمسيحية، ٢/ ٢٩٠، يان دوبرا تشينسكي، ترجمة: د. كبرو لحدو.

(٣) ريموندو لول (١٢٣٥ - ١٣١٤):
ولد في بالما من جزيرة ميورقة الإسبانيّة، قضى في تعلّم العربية وحفظ القرآن لمدة تسع سنوات (١٢٦٦ - ١٢٧٥)، ثمّ قصد باريس، وانضم إلى الرهبانيّة الفرنسيسكانيّة، وأقنع ملك أراغون في عام ١٢٧٦م بإنشاء مدرسة لتدريس العربية، وقد مهد بها إلى إنشاء معهد الدراسات الإسلاميّة في مدريد ومراكز الثقافة الإسبانيّة في الشرق، أبحر إلى تونس عام ١٢٩١م لدراسة التصوف، عُرف هناك بالصوفي النصراني، اعتقل وسجن ثم طرد من تونس، رحل إلى الجزائر منصّراً عام ١٣٠٦، فلاقى ما لاقاه في تونس من السجن ثم الطرد، اختار بعد ذلك أن ينتقل إلى ساحل بيزا بإيطاليا في كانون الثاني ١٣٠٧م، حضر مجمع فيينّا الكنسي عام ١٣١١ حيث شاهد مساعيه تكللت بالنجاح إذ أقرّ البابا كليمنت الخامس إنشاء الكراسيّ للعربيّة والكلدانيّة العبريّة، رجع رايموند لول إلى شمال إفريقيا وقتل فيها عام ١٣١٤م.
درس لول حياة مجموعة من المتصوفين المتسبين للإسلام، منهم: ابن عربي، وقد شُغف به، وابن سبعين، وابن هود، والششتري، وابن مدين.
من آثاره: الردود على فلسفة ابن رشد، عام ١٣٠٩م، وكتب في عام ١٣٠٨م مناظرات بين رايموند المسيحي، وعمر العربي، وترجم إلى اللاتينيّة، موسوعة (تأمّلات في الله)، وهي موسوعة في علوم الدين عام ١٢٧٢، وغيرها.
انظر: المستشرقون، ١ / ١٢٢، ١٢٣، نجيب العقيقي.

فقد عمل على وضع مشروع ضخم لخدمة نصرانيته ومذهبه الكاثوليكي، وسلك في ذلك مسلكين:

أولهما: بذل الجهد في تعلم اللغة العربية، والدعوة إلى تأسيس معاهد وجامعات لتعليم لغة الإسلام لتيسير سبل الاطلاع على الثقافة العقدية والتشريعية والصوفية والفلسفية لعلماء المسلمين.

وثانيها: الانخراط الدؤوب في مساجلة المسلمين، والرد على معتقداتهم، وتفكيرهم الديني؛ لنقد الإسلام، وإقناع كل من النصارى والمسلمين بصحة النصرانية.

وإلى جانب ذلك وبموازاته، فإنه لم يكل أبداً عن دعوة السلطات الدينية والسياسية إلى متابعة جهدها الحربي الصليبي ضد الأمة الإسلامية، بتنظيم مزيد من الحملات الصليبية شرقيها وغربيها في كُلِّ بقعة فيها مسلمون[1]، وكان يرى أن الإسلام هو العدو اللدود الأكبر للكنيسة[2]، وقد ساعده ملك أراغون في إسبانيا بإنشاء مدرسة لتعليم اللغة العربية في مملكته عام ١٢٧٦م أشرف عليها بنفسه، تخرج منها في دفعتها الأولى ثلاثة عشر راهباً يتقنون اللغة العربية، وقد كان هذا النجاح في مدرسته هذه مجرد بداية في نظره، لم تتوقف بعدها مساعيه لإقامة المزيد من المعاهد المشابهة، حيث إنه مهد بهذه المدرسة إلى إنشاء معهد الدراسات الإسلامية في مدريد[3].

وقد زاد في وضع خططه الاستشراقية التبشيرية التنصيريّة بمزيد من الكتابات في مؤلفات تقبلها الغرب الكـاثوليكي، ولا سيما مؤلفه الأدبي (Blangena) الذي ظهر بين سنتي (١٢٨٣م، ١٢٨٥م)، وهو عبارة عن رواية تنصيرية، وصف بطلها بخلاصة تجاربه، وطموحاته، وآماله، فهو يدير ظهره للدنيا، ويعتكف في زاوية، ثم يرتقي إلى أسقف ومن ثم يُصبح بابا، ويقوم بعرض برنامج تنصيري ضخم، ويرسل جيشاً من القساوسة إلى سائر أنحاء العالم بهدف الدعاية للعقيدة

(١) الإسلام في تصورات الاستشراق الإسباني، ص ١٥٩، د. محمد عبد الواحد العسري.

(٢) تاريخ حركة الاستشراق، ص ٢٨، يوهان فوك.

(٣) المستشرقون، ١/ ١٢٢، نجيب العقيقي، تاريخ حركة الاستشراق، ص ٢٨، يوهان فوك.

الكاثوليكية[1].

وعرض مشروعاً متكاملاً لمواجهة الإسلام فهو يرى أن تعاليم الاسلام ترجع إلى وسوسات الشيطان[2] على بابا روما نيقولا الرابع (١٢٨٨ - ١٢٩٢م)، ثم زاده وضوحاً واقتراحات وعرضه على خلفه البابا سلستين الخامس في سنة ١٢٩٤م[3].

وشهد في سنة ١٣١١م قرار المجمع الكنسي العام الملتئم في مدينة فيينا بإقرار تعيين تدريس اللغة العربية وغيرها من اللغات في الشرق في الجامعات الخمس الكاثوليكية في باريس، ولندن (إكسفورد)، وبولونيا، وسلمنكا، وجامعة الإدارة المركزية البابوية في روما[4].

وبذلك يكون هذا الراهب الإسباني قد نجح في فتح مرحلة جديدة للاستشراق الكاثوليكي الموجه ضد الدين الإسلامي بدراسة لغته وعقائده وتعاليمه للوقوف في وجهه ومنع تقدمه وغزوه لبلادهم الأوروبية النصرانية.

فتعمقت في هذه المرحلة أهداف البابوية وكنائسها والغرب الكاثوليكي في توسيع مصطلح الاستشراق حيث يمكن من خلال إتقانهم للغة العربية نفاذهم إلى مصادر الدين الإسلامي وحضارته، كما استعان الفاتيكان بالحُكّام والأمراء الغربيين الكاثوليك على تأسيس مدارس تساعدهم في تلك المواجهة العلمية الدينية والحضارية في العواصم الأوروبية[5].

وبهذا الجهد للبابوية أصبح الفاتيكان بل إيطاليا كلها في تلك المرحلة الاستشراقية موطن علم

---

(١) تاريخ حركة الاستشراق، ص ٢٩، للمستشرق الألماني يوهان فوك، ترجمة: عمر العالم.

(٢) الإسلام في تصورات الاستشراق الإسباني، ص ١٦٤، د. محمد العسري.

(٣) تاريخ حركة الاستشراق، ص ٢٩، ٣٢، يوهان فوك.
وورد في ترجمة الكتاب أن البابا الذي عرض عليه (لول) مشروعه هو سلستين الثالث، والصحيح أن البابا اسمه (سلستين الخامس) لأنه في سنة (١٢٩٤م) هو الذي كان يعتلي عرش البابوية، أما (سلستين الثالث) فكان قبله بنحو مئة سنة من سنة ١١٩١م إلى سنة ١١٩٨م. انظر: تاريخ الحروب الصليبية، ٣/ ٨٥٩، ٨٦٠، ستيفن رنسيمان، ترجمة: السيد الباز العريني.

(٤) تاريخ حركة الاستشراق، ص ٣٢، يوهان فوك.

(٥) الاستشراق، ص ١٧، د. فتحية عبد الفتاح النبراوي.

الاستشراق، فانتشرت العربية بين الطليان انتشاراً عظيماً حتى إن تجار البندقية وجنوى ونابولي كانوا يرون تعلمها من الأمور الضرورية للحياة على نحو ما ننظر اليوم إلى اللغة الانجليزية والفرنسية[1].

ومما لا شك فيه أن فتح القسطنطينية على يد المجاهد الكبير السلطان العثماني محمد الفاتح في عام ١٤٥٣م كان له الأثر الكبير في انتشار الدراسات الاستشراقية الكاثوليكية للحضارة الإسلامية؛ لما لهذا الحدث الكبير في العالمين الإسلامي والنصراني من صدى واسع وعظيم، أصاب الفرح والعزة قلوب شعوب الأمة الإسلامية، وانتاب النصارى شعوراً بالفزع والألم والخزي، وكان أشد الناس تأثراً بتقدم الجيوش الإسلامية بابا روما نيقولا الخامس، فقد عقد المؤتمرات في روما لمواجهة المد الإسلامي حيث كان يدق أبواب فيينا النمساوية، ويهدد روما نفسها، إلاَّ أنَّه لم يجد التفاعل الإيجابي من الغربيين الكاثوليك لمواجهة المسلمين فمات قهراً وكمداً عام ١٤٥٥م، وكذلك ما وجده البابا بيوس الثاني (١٩آب ١٤٥٨- ١٤آب ١٤٦٤م)[2]، فقد ضعفت الروح الصليبية لمواجهة المسلمين عسكرياً[3]، وهو ما حدا بالبابوية وكنائسها مواصلة الحث على دراسة هذا الدين الإسلامي لمواجهته علمياً ودينياً ولتشويه صورته وحضارته في عيون الغربيين وتزيين النصرانية في عيون المسلمين إن أمكنهم ذلك.

فهذ الطور الاستشراقي الكاثوليكي ولضعف النصارى الغربيين في مواجهة المسلمين في أغلب نقاط المواجهة العسكرية بينهم؛ كان دينياً تنصيرياً تمثل في العمل على (نشر المسيحية وتبليغ دعوتها، وتصوير الإسلام تصويراً يثبت فضل المسيحية، ورجحانها على الإسلام، ويبعث في الطبقة المثقفة إعجاباً بالمسيحية، وحرصاً عليها، ولذلك نرى أن الاستشراق والتبشير يسيران معاً في أغلب

---

(١) فلسفة الاستشراق، ص ٧٦، د. أحمد سمايلو فيتش.

(٢) الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط، ص ١١٠، ١١٨، ١١٩، د. علي محمد الصلابي.

(٣) تاريخ الحروب الصليبية، ٣/ ٧٨٠، ستيفن رنسيمان، ترجمة: السيد الباز العريني.

الأحوال وأن عدد المستشرقين الأكبر أساقفة»[1].

المرحلة الثالثة: من القرن السادس عشر الميلادي (بداية حلول القوة العسكرية والاقتصادية للغرب الكاثوليكي) إلى الثلث الأخير من القرن العشرين (في السبعينيات)، وبداية انعقاد المجمع الفاتيكاني الثاني عام (١٩٦٤م) وهو بداية حلول الضعف العسكري والسياسي لأوروبا الكاثوليكية.

وهذه المرحلة أطول مراحل الاستشراق الكاثوليكي، وقد ذهب إلى تقسيم هذه المرحلة إلى مراحل بعض المهتمين بالدراسات الاستشراقية الغربية.

والذي أذهب إليه أن هذه الفترة وإن كانت طويلة ولكن من الأنسب والأولى أن تبقى وحدة واحدة لا تتجزأ، وذلك لأمور:

أ) أن هذه المرحلة بأكملها مرحلة قوة عسكرية وسياسية للغرب الكاثوليكي، وكانت من أولى أهدافها منذ بدايتها التسلط العسكري على الأمة الإسلامية، واستنزاف خياراتها وإضعافها اقتصادياً إلى أن أفل نجم القوة العسكرية للدول الكاثوليكية الغربية في آخر هذه المرحلة، وظهور القوة العسكرية والسياسية للدول البرونستانتية الغربية فاستمرت في تطبيق الدور الكاثوليكي نفسه الموجه ضد الأمة الإسلامية.

ب) كان في هذه المرحلة منذ بدايتها النظرة الاستعلائية والتكبّرية للغرب الكاثوليكي ضد الأمة الإسلامية والمسلمين؛ وكان سبب ذلك تغيّر المكانة الحضارية والعلمية والاقتصادية لصالح الغرب الكاثوليكي وتخلف المسلمين عن تلك المكانات، حتى زاحمتها الدولة البروتستانتية في استمرارية هذه النظرة المتعالية الموجهة للأمة الإسلامية، فغيّر بشكل مؤقت الغرب الكاثوليكي وعلى رأسه الفاتيكان النظرة إلى الأمة الإسلامية في الآونة الأخيرة بعد المجمع الفاتيكاني الثاني عام ١٩٦٤م، وطلب الحوار مع المسلمين؛ للدخول عليهم من مدخل آخر يطلب فيه منهم تنازلاتٍ

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية، ص ١٨٣، أبو الحسن الندوي.

الله أعلم بما ستصل بالمسلمين إليه من دركات.

جـ) كان في هذه المرحلة استمرار العمل الاستشراقي الكاثوليكي مدعوماً بقوة حضارية واقتصادية وسياسية لتشويه الدين الإسلامي وتعاليمه وحضارته، ليس لوقف امتداده في الغرب الكاثوليكي فحسب، بل لبث هذا التشويه بين أبناء المسلمين أنفسهم خاصةً المعجبين منهم بالتمدن الغربي الكاثوليكي، وهذا ما ظهر واضحاً وأتى بنتائج مرضية للغرب الكاثوليكي بعد ظهور حركة التغريب التي مسكت زمام تشويه الدين الإسلامي وضرب في مسلّماته بأيدي المستشرقين الذين نفق ما عندهم من طعون وتجريح للدين الإسلامي في الآونة الأخيرة.

د) زيادة الطمع في هذه المرحلة من تنصير أبناء المسلمين وتحويلهم إلى الكاثوليكيّة خاصة بعد دخول البروتستانت في حلبة تنصير المسلمين.

هذه الأمور المشتركة في هذه المرحلة الطويلة من الاستشراق الكاثوليكي جعلتني أرى أن بقاءها وحدة واحدة لا تتجزأ هو الأنسب والأقرب للصواب من حيث النظر الشامل للتاريخ الغربي الكاثوليكي وأهدافه التي يسعى إلى تحقيقها في المسلمين، والله أعلم.

ثمَّ إنّ المرحلة هي حجر الزاوية للاستشراق الكاثوليكي الموجه ضد الأمة الإسلامية دينها وحضارتها ولغتها، فهي مرحلة مكر الكبّار، وهي المرحلة التي نشأ فيها وتقوى الركن الثاني من ركني الغزو الفكري الكاثوليكي الموجه ضد الأمة الإسلامية، وهو التغريب المكمل للركن الأول في عملية الغزو الفكري، وهو الاستشراق.

والذي زاد هذه المرحلة قوة من بدايتها أنه في نهاية المرحلة الاستشراقية السابقة عندما سقطت بلاد الأندلس الإسلامية وكانت من الحواضر العلمية في بلاد المسلمين في أيدي الإسبان الكاثوليك، وجد الغرب الكاثوليكي ثروة علمية إسلامية طائلة من نوادر المؤلفات باللغة العربية في شتى أنواع المعرفة، فاستولوا على هذا التراث، وجمعوه في مكتباتهم، وعكف عليه المستشرقون بحثاً وتحليلاً، وتكوَّنت لديهم أيضاً من خلال هذا التراث معارف واسعة عن البلاد الإسلامية من

حيث السكان والعادات والاقتصاد والطرق التجارية بل مواطن القوة والضعف بشكل أعطت للمستشرقين الكاثوليك صورة واضحة عن البلاد الإسلامية[1].

ومما زاد هذه المرحلة الاستشراقية خطوة مؤثرة أن أول مطبعة بالأحرف العربية والتي كانت في سبتمبر من سنة ١٥١٤م برعاية بابا روما يوليوس الثاني قد تحسنت وأصبحت أكثر جودة في إخراجها للحروف العربية وذلك في ثمانينيات القرن السادس عشر في روما بمباشرة أسقف ودوق توسكانا (فيردناند فون ميديشي) برعاية بابا روما جريجوري الخامس (١٥٧٢ - ١٥٨٥م) فتقدم بها الاستشراق الكاثوليكي.

أنتجت هذه المطبعة بادئ الأمر الأناجيل الأربعة باللغة العربية وترجمة الآجرومية في قواعد اللغة العربية وترجمة كتاب القانون في الطب لابن سينا وكان ذلك ابتداءً من سنة ١٥٨٦م، كما أنشئت مطبعة جديدة بمساعدة السفير الفرنسي (فرانسوا سافاري دي بريفيه) لدى الإدارة البابوية المركزية في روما (١٦٠٨ - ١٦١٤م)، ورعاية بابا روما بولس الرابع (١٦ أيار ١٦٠٥ - ٢٨ كانون الثاني ١٦٢١م) فتنشطت بها طموحات البابوية أكثر، وكان من أول إنتاجها في عام ١٦١٤م الترجمة العربية لأركان الدين النصراني للكاردينال بيلادمين[2]، وهكذا تتابع إنشاء المطابع باللغة العربية منذ بداية هذه المرحلة الاستشراقية.

(ومنذ ذلك الحين خطا الاستشراق خطوة جديدة نحو الانطلاق، فانتشرت المدارس لتعليم العربية في أوروبا كلها وأقيمت المطابع لإصدار نفائس العرب، وأخذ العلماء والرهبان يتسابقون في دراستها، ونشرها، والتعليق عليها، واهتم أباطرة الغرب بالمخطوطات العربية فلم يألوا جهداً في اقتنائها ثم طبعها على نفقتهم وبإشراف علمائهم وهو ما أدى إلى ازدهار الاستشراق)[3].

---

(١)) نقد الخطاب الاستشراقي، ١/ ٥٦، د. ساسي سالم الحاج.

(٢) تاريخ حركة الاستشراق، ص ٤٥، ٦٢، ٦٤، يوهان فوك، نقله إلى العربية: عمر لطفي العالم.

(٣) فلسفة الاستشراق، ص ٧٨، د. أحمد سمايلو فيتش.

فأصبح للغرب الكاثوليكي ثم لحقهم البروتستانت مؤسسات متعددة[1] تعرف من خلالها

---

(١) ومن هذه المؤسسات الاستشراقية في الغرب الكاثوليكي:
في إيطاليا، أنشأ البابا غريغوري الثالث عشر المدرسة المارونية في روما عام ١٥٨٤م، ثم تأسست مطبعتها عام ١٦٥٣م، وأنشأ البابا أوروبانوس الثامن (٦ آب ١٦٢٣ - ٢٩ تموز ١٦٤٤م) مدرسة نشر الإيمان ومطبعة لها عام ١٦٢٢م وفي السنة نفسها كلف مجمع نشر الإيمان التنصيري الرهبنات التابعة له بتأسيس مراكز للغات الشرقية وعلى رأسها اللغة العربية في روما، وعين الأب جارديان الفرنسيسكاني من القدس أول أستاذ للعربية في أحدها، ثم أنشأ الأب ريبا في نابولي مدرسة للغات الشرقية وفيها كرسي للغة العربية الفصحى ولهجاتها العامية وكان ذلك عام ١٧٢٧م.
وفي عام ١٩٠٥م تكوّن المعهد البابوي للدراسات الشرقية الملحق بكلية آداب جامعة روما، وأكبر أقسامه لتدريس اللغة العربية وآدابها والعلوم الإسلامية والآثار المصرية.
ولهذا المعهد نشرات ومحاضرات في ذلك منها مجلة الدراسات الشرقية صدرت عام ١٩٠٧م، وهي فصلية، ومجلة أركيون عام ١٩١٩م التي أصبحت عام ١٩٣٨م المجلة الرسمية لمجمع تاريخ العلوم العالمي.
وفي عام ١٩٠٩م تكون المعهد البابوي للكتاب المقدس، وفيه كليتان: للكتاب المقدس، وللدراسات الشرقية، وفي عام ١٩١٨م تكون المعهد البابوي للشرق، وكان يهتم بدراسات الشرق المسيحي، وفقه اللغات وعلى رأسها اللغة العربية، وقد ألحقت به مكتبة غنية بالمخطوطات العربية النادرة، وقد أصدر هذا المعهد عدة مجلات منها مجلة فلسطين عام ١٩٢٣م.
والمعهد البابوي المعروف بالمعهد الشرقي تكون عام ١٩٢٠م، يعنى بتعريف الشرق الإسلامي، ولديه مكتبة ثمينة وفيه فصول لتعليم العربية والفارسية والتركية ومحاضرات عامة، وقد أنشأ مركزاً للعلاقات الإيطالية العربية عام ١٩٥٢م فنظم تعليم الطلاب العرب في إيطاليا وعاونهم وأقام لرسّاميهم معرضاً عاماً ١٩٥٦م، وأتبعه عام ١٩٥٨م مركزاً لآثار الشرق الأدنى وتاريخه وفنونه، وينشر المعهد سلسلة الدراسات المشرقية التي بلغت عشرات المجلدات، منها مجلد كامل عن طه حسين، وأصدر مجلة شهرية (الشرق الحديث) عام ١٩٢١م، وقد اشتهرت هذه المجلة بدراسة العالم الإسلامي في تاريخه وتقويم بلدانه وأصول سكانه وتنوع ثقافته وتطور سياسته... وغيرها من المعاهد والجمعيات الإيطالية وبعضها بإشراف بابا روما مباشرةً، ومنها كرسي خاص باللغة العربية عام ١٩٢١م في الجامعة الكاثوليكية في ميلانو، وعام ١٩٥٨م في جامعة باليرمو.
أما فرنسا، فقد أنشأ الملك فرانسوا الأول كرسياً للعربية في ريمس عام ١٥١٩م، وأنشأ الملك هنري الثالث كرسياً للغة العربية عام ١٥٨٧م في معهد (دي فرانس) وأنشئت المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية في باريس عام ١٧٩٥م، وأكثر ما اهتمت به من اللغات اللغة العربية، وأصبحت هذه المدرسة زمن تدريس المستشرق (دي ساسي) (ت ١٨٣٨م) فيها محط أنظار كل العالم الغربي النصراني بقسميه الكاثوليكي والبروتستانتي. ومن أساتذة هذه المدرسة من العرب: ناصيف معلوف اللبناني (١٨٢٣ - ١٨٦٥م).
قسم اللغات في جامعة ليون أنشئ عام ١٨٠٨م، واهتم باللغة العربية والتمدين الإسلامي والآثار المصرية.
المدرسة العملية للدراسات العليا في باريس أنشئت في عام ١٨٦٨م، وفيها قسم العلوم الدينية الملحق بجامعة السوربون والمختص بدراسات الإسلام والأديان الوثنية في الجزيرة العربية وفقه اللغات الشرقية.
المعهد الكاثوليكي في باريس أنشئ في عام ١٨٧٥م، واهتم كثيراً باللغة العربية، ومعها السريانية والقبطية.
وأدخلت فرنسا في عام ١٩٥٧م على برامجها في التعليم الثانوي مواد جديدة عن الحضارات الكبرى وتطور

وبصورة أعمق ليس على تعاليم الدين الإسلامي وحضارته السابقة فحسب بل على حاضر الدول الإسلامية وتقاليد الشعوب الإسلامية وعاداتها المختلفة وهو ما مكّن للغرب النصراني فرض سيطرته على أهم الدول في العالم الإسلامي بل على أراضيها الإسلامية كوّن بعض مؤسساته الاستشراقية[1] التي استخدمها للدعوة إلى النصرانية والطعن في الدين الإسلامي ومقوماته،

الشرق التاريخي، فأصاب العرب والإسلام منها حظ موفور.

وفي إسبانيا بلغت الكراسي العلمية لتدريس اللغات الشرقية وأكثرها للغة العربية أكثر من ٢٥ كرسياً علمياً، ومنها في جامعة برشلونة في عام ١٤٥٠م، وفي جامعة بلنسية في عام ١٤٧٤م، وفي جامعة سرقسطة في عام ١٤٧٤م، وفي جامعة مدريد في عام ١٥٠٨م، وفي جامعة غرناطة في عام ١٥٤٠م، وفي جامعة سنتياجو دي كومبوستيلا في عام ١٥٤٤م، وفي جامعة أوبييدو في عام ١٥٥٧م، وفي جامعة لالاغونة في عام ١٩٥٠م، وكان أكثر الملوك الإسبان عناية باللغة العربية والعلوم الإسلامية هو الملك كارلوس الثالث (١٧١٦ - ١٧٨٨م)، فوسع المكتبة الملكية، ونظم مكتبة دير الأسكوريال، وجعل من معرفة اللغة العربية مبرراً لترقية الموظفين، واستدعى رهباناً موارنة من لبنان، وشجع الإسبان على التضلع في اللغة العربية ونشر تراثها.

وفي كليات الآداب في الجامعات الإسبانية كرسيان لليونانية والعربية يختار الطالب أحدهما، ويتخرج بها بعد سنتين.

وفي ثلاث جامعات: جامعة مدريد المركزية هي حالياً جامعة كومبلوتنس، وبرشلونة، وغرناطة، قسم للغات السامية وعلى رأسها اللغة العربية يقضي الطالب ثلاث سنوات للتخصص، وينال منها الماجستير والدكتوراه، وكذلك في جامعات أوتونوما ومرسيه وملقا.

وفي عام ١٩٧٤م صدرت قوانين تنظيم الجامعات، فوضعت اللغة العربية في قسم اللغات الحديثة مثل: الفرنسية، والإنجليزية، والألمانية، والإيطالية.

ويضاف إلى الجامعات: قسم خاص بالعربية في مدارس التجارة، وتبلغ نحو خمسين مدرسة في إسبانيا.

وقد أنشئت مدرسة الدراسات العربية في مدريد عام ١٩٣٣م، وألحق بها مركزان للأبحاث في مدريد وغرناطة، ثم أدمجت في المجلس الأعلى للأبحاث العلمية عام ١٩٣٩م، وأطلق عليه معهد أسين للدراسات العربية عام ١٩٤٤م، ويتبع المجلس الأعلى للأبحاث العلمية بمدريد: معهد الدراسات الإفريقية، ومعهد الدراسات السياسية، وفيه قسم لدراسة الإسلام المعاصر.

انظر: المستشرقون، ١/ ١٣٩ - ١٤١، ١/ ٤٠٥ - ٤٠٨، ٢/ ١٧٣، ١٧٤، نجيب العقيقي.

(١) معهد مصر: أسسه نابليون في عام ١٧٩٨م، والمعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة تأسس عام ١٨٨٠م، وكلية بورجاد في تونس عام ١٨٤١م أنشأها الأب بورجاد من الرهبان البيض، ثم تحولت إلى معهد الآداب العربية في عام ١٩٣٧م، ومعهد قرطاجة في تونس عام ١٨٩٥م، ومعهد الدراسات العليا في تونس تأسس في عام ١٩٤٥م، ومدرسة الآداب العالية في الجزائر في عام ١٨٨١م، ثم تحولت إلى جامعة الجزائر في عام ١٩٠٩م، وتعنى باللغة العربية العصرية وعلم الآثار الإسلامية والتاريخ، وألحق بها معهد للدراسات الشرقية، ومعهد الدراسات المغربية في الرباط تأسس في عام ١٩٣١م، وكلها فرنسية، والمعهد الفرنسي في دمشق في عام ١٩٢٢م، والمعهد الفرنسي في طهران في عام ١٩٤٨م. انظر: المستشرقون، ١/ ١٤١، نجيب العقيقي.

وحضارته، وتصويره على أنه عدو للعلم والتقدم والحضارة؛ ولا شك في أن الواقع السيئ الذي وصل إليه العالم الإسلامي من تفكك واختلاف وخور هو الذي ساعد الغرب النصراني في ذلك، فميزان القوة العالمي أصبح لصالح الغرب النصراني، فقد امتلك وسائل التقدم والسيطرة فتغيرت بذلك نظرته إلى العالم الإسلامي والمسلمين (فلم تعد نظرة الحقد القديمة التي تخفي الإعجاب، بل أصبحت نظرة استعلاء صادرة من خصم قوي عنيد، لم يتخلص من حقده القديم)[1].

لذلك يصلح أن نُسمّي الاستشراق في هذه المرحلة خاصة في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين باستشراق السلطة أو (الاستشراق السلطوي)[2]، فالغرب النصراني بقسميه الكاثوليكي والبروتستانتي رسّخ أقدامه في العالم الإسلامي وضيق عليه الحصار عسكرياً واقتصادياً وثقافياً، فأصيب بذلك كثير من أبناء المسلمين البعيدين عن يقين الإسلام وعزته بانهزامية وتبعية مقيتة؛ فترك ذلك في نفوسهم الإعجاب غير المتناهي بما عند الغرب النصراني وأنّ ما هم فيه نقص حضاري وضعف ثقافي يجب تقويته وتصحيح مساره، ولا يكون ذلك في زعمهم إلاَّ باتباع كل ما عند الغرب النصراني من ثقافة وحضارة وتوجه؛ فنتج عن ذلك الخديعة الكبرى للأمة الإسلامية، وهي (حركة التغريب) التي أخذت المعول من أيدي الغرب النصراني ووضعته في أيدي بعض أبناء المسلمين لضرب مقومات الدين الإسلامي القويم وأسسه ومحاولة هدمها.

المرحلة الرابعة: بداية التكافؤ في الموازين الثقافية والنقدية [3]، وبداية الانكسار وأفول نجم

وتأسس في مدريد بإسبانيا المعهد الإسباني العربي للثقافة في عام ١٩٥٤م، ثم وضع له قانون خاص وميزانية مستقلة في عام ١٩٧٥م، وأنشئت مراكز له في: طنجة، والرباط، والجزائر، والقاهرة، والإسكندرية، وعمان، وبيروت، ودمشق، وبغداد، وأنقرة. انظر: المستشرقون، ٢/ ١٧٥، نجيب العقيقي.

وقد أنشأت إيطاليا بمرسوم ملكي في يوم ١٧ أكتوبر ١٩١٥م المدارس الإيطالية العربية في ليبيا. انظر: الاستشراق السياسي، ص ٢٢٤، مصطفى نصر المسلاتي.

(١) الاستشراق، ص ٧، د. السيد أحمد فرج.

(٢) الاستشراق، ص ٣٨، د. إدوارد سعيد.

(٣) لا أقصد بهذا أن العقلية الثقافية للغرب النصراني مُتقدِّمة أستغفر الله من ذلك كيف تكون كذلك وهي قائمة على أصول منحرفة مخالفة للعقل والفطرة، وإنّما المتقدم هي العقلية الثقافية الإسلامية؛ لأنها تقوم على مسلمات

الإعجاب بالدراسات الاستشراقية الغربية لعلوم الإسلام ولغته.

فقد تشكل الوعي الثقافي وابتداءات العزة الفكرية لأبناء الأمة الإسلامية، فانكشف بذلك ما في تلك الدراسات الاستشراقية الغربية من خديعة ومكر وتزوير، حتى لكثير من أبناء المسلمين الدارسين في جامعاتهم الغربية والحمد لله رب العالمين.

تدارك الغرب النصراني هذه المسألة وهذه العودة الإسلامية في الفكر والثقافة التي تجعل مئات من السنين من عمر الغرب النصراني في الدراسة والتدوين والتزوير تذهب أدراج الرياح وتكون هباءً منثوراً، فبدأ بمسألة هي من الخطورة بمكان عظيم، فقد تحفظ له مكانة قد يرضى بها في عقول بعض المفكرين الإسلاميين وثقافتهم، وهي بدعة ما تُسمى بمسألة: (الحوار المسيحي الإسلامي) والذي سُمِّي بعد ذلك بشكل عام (الحوار بين الحضارات).

وقد كانت المبادرة في هذه العملية الجديدة صادرة عن الكنيسة الكاثوليكية في أجرأ مجمعاتهم الكنسية العامة وأشهرها وهو المجمع (الفاتيكاني الثاني) (١٩٦٢ - ١٩٦٥م) وقد كانت رسالة بابا روما بولس السادس الصادرة في أغسطس عام ١٩٦٤م، تسجل بداية هذه العملية الجديدة[(١)].

وفي هذه المرحلة استمر النشاط الاستشراقي المدعوم من قبل الدوائر السياسية الغربية، وزادت النشاطات الصحفية توسعاً وانتشاراً، وزادت المؤلفات والمؤتمرات، وتوافرت للمستشرقين إمكانيات مادية وتقنية كبيرة، إلاَّ إنّه كان بعد ظهور الوعي الثقافي والعزة الفكرية لكثير من أبناء المسلمين؛ لذلك تبدلت في هذه المرحلة شكل الكتابات الاستشراقية الغربية، فالهجوم السافر على الإسلام وتعاليمه وحضارته ولغته العربية وغيرها من السلبيات الاستشراقية التي تعرض لها المسلمون لم تعد ظاهرة كما كانت من قبل، وإنما أصبح التستر والتورية وقلب المفاهيم والاستنتاجات الخاطئة هي السمة العامة للبحوث الاستشراقية في هذه المرحلة، وهذا الأمر كان

وأصول لا تتغير مع تقادم الأزمنة، وهي موافقة للعقل والفطرة، وإنما أقصد أن هذا التكافؤ قد ظهر عياناً وبشكل واضح لمن لا يؤمن بالعقلية الثقافية الإسلامية، ويرى الفضل للعقلية الغربية النصرانية.

(١) الحوار الإسلامي المسيحي (الفرص والتحديات)، ص ٣٥، د. يوسف الحسن.

له دور في ترويج مفهوم جديد في أوساط بعض أبناء المسلمين أساسه أن الاستشراق لم يعد كما كان وإنما أصبح يميل إلى العلمية والموضوعية [1].

ولكن هيهات أن يكون الاستشراق الغربي النصراني بشكله العام والمؤسسي صاحب علمية صرفة وموضوعية بحتة وقد تمكنت منه منذ نشأته ناحية نفسية رهيبة ضد الإسلام والمسلمين، وأنهم يمثّلون له تحديداً على المستويات كافة ولو كان في عصر ضعف أتباعه المسلمين، ثُمّ إنه كيف يمثل الموضوعية والعلمية بشكله العام والمؤسسي، وهو الذي كوّن أساسات الغزو الفكري والاستعمار الثقافي، وبيّن للصليبي المحارب كيف تكون الحروب الصليبية الجديدة ضد العالم الإسلامي، ونهب ثرواته بأقصر الطرق وأقلها خسارة؟

دوافع الاستشراق:

تبين للقارئ الكريم إن شاء الله تعالى من عرض المراحل التي مر بها الاستشراق الغربي الكاثوليكي ثم تبعه البروتستانتي أن حجر الزاوية لتلك الدراسات الاستشراقية هو الدافع الديني الذي استمر وظهر واضحاً في مراحل تلك الدراسات كلها منذ بدايتها، ومع ضعف الغرب الكاثوليكي وعجزه عن مواجهة الأمة الإسلامية عسكرياً. وعندما تقوى ذلك الغرب الكاثوليكي عسكرياً، وبدأ الضعف يدب في الأمة الإسلامية ظهر دافع آخر للدراسات الاستشراقية الغربية، وهو الدافع السياسي العسكري، والذي جعل نُصب عينيه وفي مقدمته الدافع الديني لتسهيل طريق دوله الغربية النصرانية إلى العالم الإسلامي وترسيخ أقدامها في تلك البلاد الإسلامية.

ومما لا شك فيه أنه بسبب التسلط العسكري للغرب النصراني على الأمة الإسلامية استطاع هذا الغرب النصراني أن ينهب خيرات بلاد المسلمين، ويقوي من اقتصاديات بلاده النصرانية على حساب إضعاف اقتصاديات بلاد المسلمين، فنشأت بذلك الدوافع الاقتصادية للدراسات

---

(١) الاستشراق، أهدافه ووسائله، ص ٣٠، د. محمد فتح الله الزيادي.

الاستشراقية، فهي هدف ثانوي تابع للناحية العسكرية السياسية، فهما أمران متلازمان لا ينفكان، نهب خيرات البلاد المستعمَرة وإضعافها اقتصادياً بسبب تسلط البلاد المستعمِرة.

فالدافع الرئيس للدراسات الاستشراقية الغربية النصرانية هو الدافع الديني، ثم تبعه دافع آخر وهو السياسي، فهذان الدافعان عامّان لتلك الدراسات المؤسسية في الغرب النصراني، ثم مع ازدياد المعرفة بالتراث الإسلامي وظهور كنوزه وذخائره النفيسة ظهر من الدارسين الغربيين أصحابُ نزعاتٍ فردية مستقلة لم يدخلوا تحت تصرف الحكومات والهيئات الغربية النصرانية، بل مالوا إلى البحث العلمي المجرد فظهرت على أيديهم بعض الدراسات التي قد تُسمَّى دراسات استشراقية علمية بلون دوافع ماكرة مسبقاً، وهي فردية في توجهاتها قليلة في إنتاجياتها، لم تؤثر ولن تؤثر على التوجه العام والأغلب للدراسات الاستشراقية الغربية النصرانية؛ لذلك عد هذا الدافع أي الدافع العلمي دافعاً ثانوياً ضاعت أهميته وضاع تأثيره في خضم الدافع الديني ثم الدافع السياسي الملحق به.

أولاً: الدافع الديني[1]:

وهو الدافع الرئيس للدراسات الاستشراقية منذ بدايتها إلى يومنا هذا، فما نشأ الاستشراق وقوي أمره في الغرب الكاثوليكي إلا تحت عين الفاتيكان وبرعايته، فقد كانت طلائع المستشرقين من رجالاته الذين لم تكن أعمالهم ودراساتهم بمعزل عن دورهم الكنسي، كما مر واضحاً في الكلام عن مراحل الاستشراق الغربي.

فقد كان هَمّ تلك الدراسات منذ بدايتها على أيدي أتباع الكنيسة الكاثوليكية هو وقف المد الإسلامي الذي تغلغل في بلدانهم النصرانية (فالخوف كان مسيطراً على المجتمعات الغربية بسبب تقدم الزحف الإسلامي... لذا فقد دقّت الكنائسُ أجراسها معلنةً حالة الذعر، وانتظمت صفوفُ

(١) الكلام عن الدافع الديني مرّ بتفصيل يوضح للقارئ أهميته وأنه الأساس في الدراسات الاستشراقية الغربية النصرانية منذ بدايتها، وذكرته هنا لأمرين، الأول: تكميلي فأكمل به ما يزيد هذا الدافع وضوحاً وبياناً في أهميته ومكانته في تلك الدراسات، الثاني: أنه داخل مع غيره في منظومة واحدة تُسمى (الدوافع الاستشراقية).

الكنيسة ورجال الكهنوت والمهتمين بدراسة هذا الشرق)[1].

فكان رجالات دينهم الكهنوتيين يدركون جاذبية الدين الإسلامي الذي حط رحاله في بلدانهم لما يعلمون فيه من خصائص الدين السماوي الحق المتميز، والتي كانت أبرز سماته هي الخاتمية والشمول والمنهج الرباني المتكامل المنبثق عن عقيدة التوحيد الخالص، الذي صبغ كل التصورات، وفجّر القيم والمفاهيم الحيوية الجديدة التي كانت وسيلة لتحرر الإنسان الذي يتبعه ويؤمن به من شتى القيود والعبوديات، وإعادة الاعتبار إليه بالرفع من قيمته، وإشعاره بمسؤوليته الفاعلة في التعمير والبناء الحضاري[2].

وكذا الإسلام يُمثِّل لرجال الكهنوت النصراني المطلعين على حقائق الأمور أكبر دليل إلهي، وأوضح ثابت تاريخي لجريمتهم وغشهم بالعبث بدينهم الذي جاء به عيسى ﷺ وإدانته لكل أنواع التحريف التي قاموا بها[3].

وبذلك كان الإسلام بالنسبة للنصارى يُشكِّل تحدّياً مستمراً وشراً مستطيراً ومنافساً حقيقياً وخطراً مزدوجاً ليس للنصارى فقط بل لليهود أيضاً، جاء يُؤخرهم جميعاً عن مواقعهم الدينية والتاريخية، ويقتطع من أوساطهم جغرافيات بشرية هائلة، كما أن له أبعاداً سياسية وحضارية ورسالية مجتمعة تجعله ديناً من طرازٍ فريد لم تعهده البشرية من قبل خارج إطاره التعبدي المجرد[4].

هذه الحقيقة هي التي تفسر لنا أهمية العوامل النفسية والتاريخية التي كان لها الدور الأساسي في ذلك العداء النصراني المستحكم ضد الإسلام والمسلمين ولا زال، وذلك الغل النصراني الراسخ الذي لم يترك مجالاً إلاً واستغله لتشويه صورة الإسلام والمسلمين، والتي تكّونت بها الروح

(١) الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، ص ٥٣، مصطفى نصر المُسلاتي.

(٢) منهج البحث في الإسلاميات لدى المستشرقين وعلماء الغرب، ص ٤٢، محمد البشير مغلي.

(٣) حرب صليبية بكل المقاييس، ص ١٥٦، د. زينب عبد العزيز.

(٤) منهج البحث في الإسلاميات لدى المستشرقين وعلماء الغرب، ص ٤٢، محمد البشير مغلي.

النصرانية العدائية المتأصلة ضد الإسلام والمسلمين، والتي استطاعت أن تجند من أجل محاربتهم والقضاء عليهم جيوش الغزو الفكري والعسكري في تحالف بين الكنيسة والدولة[1].

والدافع الديني يسير في اتجاهات ثلاثة:

الاتجاه الأول: صد الإسلام عن أن ينتشر في أراضيهم النصرانية، وبين أبنائهم، وتحذير أتباعهم النصارى من خطر الاستسلام له والاقتناع به، وسلكوا في سبيل الوقوف في وجه انتشار الإسلام كل مسلك.

الاتجاه الثاني: محاربة الإسلام والطعن فيه، وتشويه محاسنه وتحريف حقائقه، والبحث عن أي نقطة يظنون أنها نقطة ضعف فيه فيبرزونها، والحط من قدر نبيه صلى الله عليه وسلم، وأنه استمد دين الإسلام من اليهودية والنصرانية.

الاتجاه الثالث: دعوة أتباعه المسلمين إلى النصرانية، وتمجيلها بينهم، فالمحاولات التنصيرية استفادت، وقامت على الدراسات الاستشراقية لمعرفة ماهيّة المجتمعات الإسلامية وكيفية احتوائها.

فالدافع الديني للدراسات الاستشراقية النصرانية هو المسيطر على باقي دوافعها، على اعتبار ذلك الباقي دوافعَ مستقلة.

ولقد طرقت تلك الدراسات الاستشراقية الكاثوليكية مواضيع متعددة لتحقيق ذلك الدافع الديني، ومن هذه المواضيع[2]:

افتراؤهم على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، الرحمة المهداة للعالمين، محمد بن عبد الله عليه أفضل

---

(١) حرب صليبية بكل المقاييس، ص ١٥٦، د. زينب عبد العزيز، منهج البحث في الإسلاميات لدى المستشرقين وعلماء الغرب، ص ٤٣، محمد البشير مغلي.

(٢) الهدف من ذكر هذه المواضيع التي تُحزِن كل مسلم وصاحب كل عقل وقلب يكره الظلم ويبحث عن العدل، يكره الافتراء ويحب الدليل والبرهان أن أبين إلى أيّ درجة وصل التفكير التعصبي المليء بالعداوة والحقد والكره عند النصارى للإسلام والمسلمين.

فالقصد إظهار التزوير والإسقاط عند علماء النصارى ومفكريهم لكل ما هو إسلامي، أما الرد وبيان ذلك بالتفصيل فيحتاج إلى مجلدات، وتتبع كامل لكل شبهة من شبهاتهم، ويحتاج ذلك إلى بحوث جامعية وكتب مستقلة متخصصة، والحمد لله قد قام بعض علماء الأمة الإسلامية ومفكريها وباحثيها بالوقوف بالمرصاد والضرب بيد من حديد بالعلم والمنطق والعقل والبرهان والدليل على يد كل مُزوّر ومُحرّف ومفترٍ من المستشرقين الغربيين النصارى وغيرهم من الملل الكافرة كالمستشرقين اليهود.

الصلاة وأتم التسليم، فقد قدّم المستشرقون ومنهم النصارى الكاثوليك بحوثاً متخمة بفواحش المغالطات عن سيرة خير البرية وأهدى البشرية ورسول الإنسانية محمد صلى الله عليه وسلم، فيها التهجم عليه واتهامه بالكذب والتشكيك في دعوته وادعائه الوحي من الله وأنه مبتدع الإسلام، أخذه من النصرانية واليهودية، ووصفوه بالسحر والشهوانية والعنف، ووصفوه بأوصاف لا تتفق والحقائق العلمية التي يتشدقون بالبحث عنها والسعي وراءها.

ومن أولئك الكاثوليك الراهب اليسوعي الأب هنري لامنس (لامون) (١٨٦٢ ١٩٣٧م)[١].

يقول عنه المستشرق الألماني يوهان فوك: (وبوصفه قسيساً كاثوليكياً فقد رفض لامون دعوى الرسول بالنبوة رفضاً تاماً ورفض القول بصدقه، وتناول بالنقد في كتابه (فاطمة ومحمد) الرسول وأسرته، وقدم روايات سلبية خاصة بهم، وأن سيرة الرسول رواية تاريخية مختلفة عن القرآن، وأنها تُعزى إلى بعض الذكريات الغامضة لأحداث الفترة المدنية)[٢].

فقدح هذا المستشرق (لامنس) في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وسيرة بناته، وخاصة فاطمة الزهراء رضي الله عنها وسيرة الخلفاء الراشدين، ولم يقم أي وزن لكتب الأحاديث والسيرة، وذكر أن كتب الأحاديث كلها موضوعة من أجل تحقيق غايات معينة، هي تمجيد حياة

---

(١) هنري لامنس (١٨٦٢- ١٩٣٧م):
مستشرق بلجيكي، وراهب يسوعي، ولد في مدينة (خنت) في بلجيكا في أول يوليو سنة ١٨٦٢م، وجاء إلى بيروت في صباه وتعلم في الكلية اليسوعية ببيروت (جامعة القديس يوسف)، وفي سنة ١٨٨٦م صار معلماً فيها، ثم سافر إلى إنجلترا وواصل دراسة اللاهوت، وفي عام ١٨٩٧م عاد إلى بيروت مدرساً في الكلية اليسوعية، وفي عام ١٩٢٧م أدار مجلة الشرق، وهي مجلة فصلية تصدر عن اليسوعيين في بيروت، وقبلها أدار مجلة تبشيرية أخرى تُسمى البشير تصدر من بيروت أيضاً بين أعوام (١٨٩٤ - ١٩٠٣م)، توفي عام ١٩٣٧م.
نتاجه في الدراسات الإسلامية تركزت في السيرة النبوية وحياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومن كتبه في ذلك: مهد الإسلام عام ١٩١٤م، مكة عشيّة الهجرة عام ١٩٢٤م، القرآن والسنة عام ١٩١٠م، هل كان محمد أميناً؟ عام ١٩١١م، فاطمة وبنات محمد عام ١٩١٢م، الحكومة الثلاثية من أبي بكر وعمر وأبي عبيدة عام ١٩٠٩م، وغيرها من الكتب.
انظر: موسوعة المستشرقين، ص٥٠٣ - ٥٠٥، د. عبد الرحمن بدوي، المستشرقون، ٣/ ٢٩٣ - ٢٩٥، نجيب العقيقي، تاريخ حركة الاستشراق، ٣٠٦ - ٣٠٧، يوهان فوك، ترجمة: عمر لطفي العالم.

(٢) تاريخ حركة المستشرقين، ص ٣٠٦، يوهان فوك، نقله عن الألمانية عمر لطفي العالم.

محمد صلى الله عليه وسلم[1].

يقول عنه الدكتور عبد الرحمن بدوي: (شديد التعصب ضد الإسلام، يفتقر افتقاراً تاماً إلى النزاهة في البحث والأمانة في نقل النصوص وفهمها، ويُعدّ نموذجاً سيئاً جدّاً للباحثين في الإسلام من بين المستشرقين)[2].

وهذا المستشرق الكاثوليكي (ليوني كيتاني) (١٨٦٩ - ١٩٣٥م)[3]، طعن في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ودرس سيرته وسيرة الخلفاء الراشدين الأربعة بنزعة حاقدة مُفرطة جعلت الشك أساساً في قبول أحداث تلك السير المباركة العطرة، ويزعم أن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم قام بدعوته ليس على أساس ديني، وإنما بفعل التصحر والجدب الحاصل في الجزيرة العربية، وأن انتشار الإسلام في الدول المجاورة ليس بقوة أثر الدين الجديد وإنما بقوة السبب السابق ذاته، فيُرجع قيام النبي صلى الله عليه وسلم بدعوته وانتشار الإسلام السريع إلى العوامل السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية والأحوال الجغرافية، ويُنكر أي أثر ديني وبُعد أخروي لذلك[4].

---

(١) المستشرقون والسنة، ص ٢١٩، أنور الجندي، المستشرقون والسيرة النبوية، ص ٢٢٩، أنور الجندي، من ضمن كتاب: الإسلام والمستشرقون، مجمع دار المصنفين في الهند، موسوعة المستشرقين، ص ٥٠٣ - ٥٠٥، د. عبد الرحمن بدوي.

(٢) موسوعة المستشرقين، ص ٥٠٣، د. عبد الرحمن بدوي.

(٣) الأمير ليوني كيتاني (١٨٦٩ - ١٩٣٥م):
مستشرق إيطالي، وأمير من آل كيتاني، وهي أسرة من كبار الأمراء في تاريخ إيطاليا الحديثة، ولد في روما في ١٢ سبتمبر سنة ١٨٦٩م، وتوفي في كندة في ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٣٥م، اشتهر خصوصاً بكتابه (حوليات الإسلام) وهو أوسع كتاب تاريخ ألفه مستشرق كاثوليكي تكلم عن سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين الأربعة.
كان وهو لا يزال طالباً في جامعة روما مشغوفاً بالتاريخ الإسلامي فتعلم العربية والفارسية، أنفق أكثر ثروته التي كانت تقدر بخمسة ملايين ليرة ذهبية في جمع المخطوطات خاصة العربية، والتي تتكلم عن تاريخ العالم الإسلامي، لذلك يعد أكبر مستشرق في التاريخ الإسلامي والعربي ومرجعاً لكثير من المستشرقين في ذلك.
انظر: موسوعة المستشرقين، ص ٤٩٣ - ٤٩٦، د. عبد الرحمن بدوي، المستشرقون، ١/ ٤٢٩، ٤٣٠، نجيب العقيقي، تاريخ حركة الاستشراق، ص ٣١١، ٣١٢، يوهان فوك، ترجمة: عمر لطفي العالم.

(٤) موسوعة المستشرقين، ص ٤٩٦، د. عبد الرحمن بدوي، تاريخ حركة الاستشراق، ص ٣١١، ٣١٢، يوهان فوك.

وهذا الشاعر الكاثوليكي (دانتي أليجيري) (١٢٦٥ - ١٣٢١م) يمثل الحقد النصراني على رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلّم، فقد صنف الرسول صلى الله عليه وسلم في الفئة التي أطلق عليها (باذري الفتنة والشقاق)، وهو يضع الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في أعماق الجحيم (في الوادي التاسع من الدائرة الثامنة للجحيم، في تقسيمه للنار) ويصور الرسولَ الكريم في صورة بلغت من القبح والحقد واللؤم والإسفاف درجة يعف القلم واللسان لأي إنسان كرّمه الله بالإنسانية فضلاً عن الإسلام عن مجرد ذكرها[1].

وذهب المستشرقان الكاثوليكيان درمنغم[2]، ورينيه[3] وغيرهما[4] إلى أن النبي محمداً

---

(١) رؤية إسلامية للاستشراق، ص ٢٩، أحمد غراب، نقد الخطاب الاستشراقي، ٢/ ٩، الدكتور: ساسي سالم الحاج، وانظر في شيء من تفصيل كلام هذا المستشرق من كتابه: (الملهاة الإلهية) عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في كتاب: الاستشراق، ص ٩٦ - ٩٨، إدوارد سعيد.

ودفيد صمويل مرجليوث (١٨٥٨ - ١٩٤٠م) زعم أن الباعث على بعثة الرسول إنما هو أعمال الشعوذة وأنه كان متقناً لحيل الروحانيين التي كان يستخدمها في دار الأرقم.

وغيرهم كثير من الحاقدين على نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم من أهل الملل الكافرة خاصة من النصارى، ومن ذلك في الآونة الأخيرة تصريح بابا روما الحالي بندكت السادس عشر عندما أساء للنبي صلى الله عليه وسلم وتعاليم الإسلام، وذلك في يوم الثلاثاء الموافق ١٩/ ٨/ ١٤٢٧ هـ ١٢/ ٩/ ٢٠٠٦م، وما حدث قبل ذلك مما نشرته صحيفة دنماركية تُسمى (جيلا ندز بوستن) في ٢٦ من شعبان سنة ١٤٢٦هـ وكذلك الصحيفة النرويجية المسماة ماكازنيت في يوم عيد الأضحى ١٠/ ١٢/ ١٤٢٦هـ من رسوم كاريكارتيرية تُصوّر النبي صلى الله عليه وسلم في أبشع الصور والحالات.

(٢) درمنغم: مدير مكتبة الجزائر، له كتاب (حياة محمد) صدر في باريس عام ١٩٢٩م، والطبعة الثانية عام ١٩٥٠م، وكتاب باسم (محمد والسنة الإسلامية)، صدر في باريس عام ١٩٥٥م، وسيرة الأولياء المسلمين نشر في الجزائر عام ١٩٥٦م، وغيرها من الكتب. انظر: المستشرقون، ١/ ٣٤٨، نجيب العقيقي.

(٣) رينيه ديسو: مستشرق فرنسي، ولد في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٦٨م، في إحدى ضواحي باريس، وتوفي في ١٧ مارس سنة ١٩٥٨م، دارت أكثر أبحاثه حول سوريا الطبيعية (سوريا، لبنان، فلسطين)، وله (العرب في سوريا قبل الإسلام) صدر في باريس عام ١٩٠٧م، (تاريخ النصرانية وديانتهم) صدر في عام ١٩٠٠م، (تقديم الأضاحي عند بني إسرائيل وعند الفينيقيين) صدر في عام ١٩١٤م، المدخل إلى تاريخ الأديان صدر في عام ١٩١٤م، انظر: موسوعة المستشرقين، ص ٢٦٩، د. عبد الرحمن بدوي.

(٤) وأنا أذكر هنا فقط نماذج للتوضيح من المستشرقين الكاثوليكيين وإلا فإن عناصر الاستشراق من بروتستانت ويهود وملاحدة مع الكاثوليكيين يُمثلون وحدة واحدة ويرمون عن قوس واحدة الطعن والتنقيص والسباب على رسول الإسلام المبعوث رحمة للعالمين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. ومن هؤلاء الحاقدين المستشرق

صلى الله عليه وسلم قد اقتبس الأفكار التي دعا إليها من اليهودية والنصرانية خاصة تلك الرحلة التي قام بها إلى الشام ومن لقائه بورقة بن نوفل في مكة[1].

وقد رفع بابا روما (بيوس الثاني عشر) (٢ آذار ١٩٣٩ - ٩ تشرين الأوّل ١٩٥٨م) الحرم الكنسي والخروج من رحمة الرب في وجه كل من نعت نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام أنه من الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية، هكذا فقط، فكيف بمن نعته أنه رسول من رب العالمين فهذا عند بابا روما أكثر جرماً وأبعد عن رحمة ربّه؟![2].

وفي سنة ١٦٩٧م نشر في فرنسا الكاثوليكية معجم تاريخي استشراقي ضخم بعنوان (المكتبة الشرقية)، بقلم المستشرق بارتلمي دير بيلو، وكان يعد من أهم المراجع الأوروبية عن الشرق وتاريخه حتى القرن التاسع عشر، بل ما زال يحظى بالإعجاب والثناء من المستشرقين المعاصرين حتى اليوم.

وهذا المعجم يقسم التاريخ البشري إلى قسمين:

قسم مقدس: ذكر فيه تاريخ اليهود والنصارى، وقسم مدنس: ذكر فيه تاريخ المسلمين، وتحت المدخل المتعلق بالنبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم في هذا المعجم يقول دير بيلو عن النبي المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم: (هذا هو المتحل المشهور ماهومت، المؤلِّف والمؤسِّس

اليهودي جولد تسهير (١٨٥٠ - ١٩٢١م)، والمستشرقون البروتستانت: صمويل زويمر (١٨٦٧ - ١٩٥٢م) والذي كان أكثر المستشرقين حقداً وعداوة على الإسلام والمسلمين على الإطلاق وأشهرهم في ذلك، وصديقه المستشرق دنكان بلاك ماكدونالد (١٨٦٣ - ١٩٤٣م)، ومونتجمري وات (معاصر) تقاعد عن التدريس الجامعي من جامعة أدنبره عام ١٩٧٩م، فهو يصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه غادر وشهواني وساحر، ولم يستطع المسلمون أن يقنعوا المجتمع الدولي والغرب المسيحي (المستنير) بأن رسولهم صلى الله عليه وسلم مثل أعلى في السلوك الأخلاقي، وهنري بريدو الإنجليزي (١٦٤٨ - ١٧٢٤م) الذي ألف كتاباً في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم أسماه: (حياة ذي البدع محمد)، وفيه يزعم أن الطبيعة الحقيقية للخداع تتجلى في حياة محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وسيد الأولين والآخرين.

(١) وحي الله حقائقه وخصائصه في الكتاب والسنة (نقض مزاعم المستشرقين)، ص، ١٤١، ١٦٣، د. حسن ضياء الدين عتر.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٢، د. حسن عتر.

لهرطقة اتخذت لها اسم الدين، نسميها نحن الماهومتية، وقد نسب مفسرو القرآن، وفقهاء الشريعة الإسلامية، أو الماهومتية، إلى هذا النبي المزيف كل المدائح التي نسبها الآريون، والبولسيون إلى يسوع المسيح، مجردين إيّاه في الوقت نفسه من ألوهيته)[1].

ففكرة التعصب والتحامل والتزوير في سيرة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم لم تختلف لدى رجال الدين المتعصبين ولا عند المستشرقين لا قديماً ولا حديثاً فقد بلغت مبلغاً غطى على الواقع وأخفى الصورة الحقيقية لرسول رب العالمين والنبي الكريم صلى الله عليه وسلم على عامة الغربيين النصارى، بل وصل أثر هذه الصور المشوهة إلى غير النصارى من أصحاب الملل الكافرة الأخرى، وهو ما أسقط كل ادعاء للمستشرقين باتباعهم منهج النقد النزيه وأساليب البحث العلمي المحايد.

ومن مواضيعهم أيضاً لتحقيق ذلك الدافع الديني:

إنكارهم أن القرآن وحي من الله تعالى أوحاه إلى النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم حيث إن إنكارهم لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم اقتضى بالضرورة إنكارهم أن القرآن وحي، وأن له قداسة إلاهية وأنه معجز، فقد ذهب المستشرقون جميعهم النصارى واليهود إلى أن القرآن من صنع محمد صلى الله عليه وسلم، اقتبسه من اليهودية والنصرانية وأوضاع البيئة العربية في ذلك الوقت.

وموقف القرآن في بيان الحق واضح لا لبس فيه في شأن التوراة والإنجيل بعد موسى عليه السلام، ورفع عيسى عليه السلام، وأنهما كتابان قد وقع فيهما التحريف والتزوير فأخرجهما عن كونهما كتابين مقدسين، وإبطاله العقائد الفاسدة خاصة في الإنجيل المُحرّف من صلب عيسى عليه السلام وفدائه وألوهيته... وبيانه أن الرسول الخاتم والدين الخاتم الذي يوصل إلى رضا الله والجنّة، ويُبعد عن سخط الله والنار ليس اليهودية وليس النصرانية، إنما هو الإسلام، ورسوله محمد صلى الله عليه وسلّم، ذلك كُلُّه جعل أولئك المستشرقين يُظهرون العداء لكتاب الله العزيز، ويحاولون إسقاط

(١) الاستشراق: المعرفة السلطة الإنشاء، ص ٩٣، ٩٤، إدوارد سعيد، رؤية إسلامية للاستشراق، ص ٣٠، أحمد غراب.

القداسة الإلهية والصفة الربّانيّة عنه.

فذهب المستشرق الكاثوليكي (ريجي بلاشير) (١٩٠٠ - ١٩٧٣م)[١] كغيره من المستشرقين النصارى واليهود في إنكارهم للدين الإسلامي ولنبوة محمد صلى الله عليه وسلّم، ولقداسة القرآن، ولكن كل مجموعة لها مخرج في هذا الحقد والإنكار[٢]؛ إلى أن محمداً صلى الله عليه وسلم ألّف القرآن مستمداً إياه من اليهودية والنصرانية؛ ودليله على ذلك التشابه الحاصل في القصص القرآني مع القصص اليهودي والنصراني، وذهب إلى أن التأثير النصراني واضح في السور المكيّة بسبب العلاقات المستمرة بين مؤلفه والفقراء النصارى في مكة[٣].

وذلك الراهب اليسوعي الأب (هنري لامنس) (١٨٦٢- ١٩٣٧م) الذي يدّعي أن مؤلف القرآن هو محمد صلى الله عليه وسلّم وقد ألّفه بعد ما مرّ بأزمة دينية خانقة في بلاده فالتجأ بسببها إلى المعتقدات اليهودية والنصرانية ونشرها بين العرب لتصحيح وضعهم الديني[٤].

---

(١) ريجي بلاشير (١٩٠٠ ١٩٧٣م):
ولد في ٣٠ يونيو ١٩٠٠م في إحدى ضواحي باريس، وسافر مع أبيه إلى المغرب فدرس الثانوية في الدار البيضاء عام ١٩١٥م، وحصل من الجامعة الجزائرية على الليسانس عام ١٩٢٢م عُيّن مدرساً في مدرسة (مولاي يوسف) في الرباط ثم عين في (معهد الدراسات العليا المغربية) إلى عام ١٩٣٥م، ثم حصل على الدكتوراه من جامعة باريس عن رسالته في أبي الطيب المتنبي، وترجمة فرنسية لطبقات الأمم لصاعد الأندلسي، له ترجمة للقرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية، أظهر فيها مكره وحقده وكرهه للنبي صلى الله عليه وسلم وعبثه بقداسة القرآن الكريم، وإظهاره بأنه من صنع محمد ليس له من القدسية والصفة الإلهية السماوية شيء، له كتاب عن حياة النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وهو عبارة عن تلخيص لأبحاث مستشرقين قبله.
انظر: موسوعة المستشرقين، ص ١٢٧، د. عبد الرحمن بدوي، المستشرقون، ١/ ٣٠٩ - ٣١٢، نجيب العقيقي.

(٢) ومنهم: المستشرق اليهودي (جولد زيهر) (١٨٥٠ - ١٩٢١م) واليهودي هرشفلد (١٨٥٤ - ١٩٣٤م) والمستشرق الإنجليزي هاملتون جب (١٨٩٥ - ١٩٧١م)، والمستشرق الإنجليزي مونتجمري وات، والمستشرق الفرنسي الملحد غوستاف لوبون في كتابه المشهور (حضارة العرب) الذي هو في حقيقته عدم إنصاف للإسلام، لا كما ذهب إليه بعض المسلمين، وللأسف، وغير هذا الكثير من الذين أثّروا ليس في عقول بعض عامة المسلمين فحسب بل في بعض مفكريهم بأطروحاتهم المنمقة والمزوّرة التي تذم الدين الإسلامي وتنقص من قدسيته وكتابه.

(٣) نقد الخطاب الاستشراقي، ١/ ٢٦٩، د. ساسي سالم الحاج.

(٤) المرجع السابق، ١/ ٢٧٠، د. ساسي سالم الحاج.

كما أن المستشرق الكاثوليكي (كرّا دي فو) (١٨٦٧ - ١٩٥٣م)[١] يزعم أن القرآن مرآة للبيئة العربية بهجيرها ورمالها، وأنه قد استوحى البيئة، وعكس أوضاعها وتقاليدها، ولم يكن كتاباً موحى به ليغيّر من عادات العرب الفاسدة وعقائدها الباطلة، ويقول أيضاً في كتابه (مفكرو الإسلام): (إن القرآن نص ساذج مبهم في صورة من صور البداوة)[٢].

كما أن المستشرق (بلاشير) يُظهر حِقده ومكره في ترجمته للقرآن الكريم حيث صرّح فيه أن مؤلفه هو العربي محمد صلى الله عليه وسلّم وأنه كان يؤلف القرآن سورة بعد سورة أو مجموعة من الآيات بعد أخرى على حسب الظروف التي تواجهه، وأنه تعمّد أن يكون مفرّقاً حتى يكون في مكنته أن يضيف إليه ما يحلو له حسبما يجدّ من أحوال أو يعترض من مشكلات فيكون في يديه دائماً زمام توجيه الأمور[٣].

ثم إن هذا المستشرق يعبث أحياناً بتقسيم الآيات على حسب ما يحلو لهواه[٤]، وعنده في الهوامش متسع للتعبير عن كل ما يخالج نفسه من أمور، وما يحمله من حقد على نبي الإسلام،

---

(١) البارون كرّا دي فو (١٨٦٧ ١٩٥٣م):
مستشرق كاثوليكي فرنسي، ولد في مدينة (بار) على نهر الأوب في ٣ فبراير سنة ١٨٦٧م وتوفي سنة ١٩٥٣م، درس العربية ودرّسها في المعهد الكاثوليكي بباريس، وكان أحد مؤسسي (مجلة الشرق المسيحي)، وتولى تنظيم مؤتمرات علمية دولية للكاثوليك، من كتبه (عقيدة الإسلام) سنة ١٩٠٩م، و (مفكرو الإسلام) في خمسة أجزاء من سنة ١٩٢١م إلى ١٩٢٦م، ونبذة عن الدراسات للأدب العربي المسيحي، و (الراهب بحيرة والقرآن) سنة ١٨٩٨م، وغيرها.
انظر: المستشرقون، ١/ ٢٣٨، ٢٣٩، نجيب العقيقي، موسوعة المستشرقين، ص ٤٦٢، ٤٦٣، د. عبد الرحمن بدوي، المستشرقون والتنصير، ص ٩٩، د. علي بن إبراهيم النملة.

(٢) نقد الخطاب الاستشراقي، ١/ ٣٧٩، د. ساسي سالم الحاج.

(٣) المستشرقون والقرآن، ص ٥٣، د. إبراهيم عوض.

(٤) مثلما فعل بآية ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَـئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [سورة البقرة الآية ٢٢١]، إذ قسّمها إلى آيتين: الأولى تبدأ من أول الآية، وتنتهي بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾، والثانية من بعد ذلك إلى آخر الآية. فهو بهذا لا يحترم أمانة العلم فيما يختص بالنصوص التي بين يديه، وهذه مخالفة لأوليات القواعد العلمية في البحث والتحقيق لمن ادّعى أنه من أهلها. انظر: المستشرقون والقرآن، ص ٥٣ - ٥٥، الدكتور. إبراهيم عوض.

وعلى القرآن العظيم.

وعبثه بكتاب الله العزيز لم يقف عند عدم احترام تقسيم الآيات القرآنية الذي يلتزم به المسلمون بل جاوزه إلى تقديم بعض الآيات أو تأخيرها عن مواضعها في المصحف الشريف[1].

وكان أيضاً يُضيف إلى القرآن ما ليس منه[2]، فهو يحاول دائماً في مقالاته وبحوثه أن ينتزع صفة النبوة من النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلّم، ويحاول إطفاء هالة القداسة المحيطة بالنص القرآني الكريم[3].

وهذا التزوير والعبث في ترجمات القرآن على أيدي المستشرقين من أتباع الملل الكافرة من يهودية ونصرانية كانت تحذو حذو أول ترجمة للقرآن الكريم تحت إشراف الراهب الكاثوليكي الفرنسي بطرس الذي يُدعى عندهم بالمبجل والمحترم وكانت في عام ١١٤٣م.

---

(١) ومن الأمثلة على ذلك العبث الكفري، عندما أورد هذا المستشرق (بلاشير) الآية الحادية عشرة (وهي الثانية عشرة عنده) من سورة النساء، قوله تعالى: (يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ) عقب الآية الثامنة (وهي التاسعة حسب تقسيمه) التي تنتهي بقوله تعالى: (صَبِيًّا مَفْرُوضًا)، أما التاسعة والعاشرة (وهما عنده العاشرة والحادية عشرة) فمكانهما في ترجمته متتابعتين بين السادسة والسابعة، كما أنه نزع من سورة (طه) الآيات (٦٢، ٦٣، ٦٤) التي هي عنده (٦٥، ٦٦، ٦٧) وأقحمها بين الآية ٦٠، والتي هي عنده ٦١...، وهو لا يكلف نفسه أن يشرح لقرائه سبب هذا التلاعب إلا بقوله (هذه الآية ترتبط بالآية السابقة)...، وهكذا، وما هذا العمل الذي فيه زيادة في الكفر من هذا المستشرق النصراني الكافر إلا إظهار لما يُكنّه من حقد ومكر على هذا الدين الخاتم، وعلى قرآنه المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.
انظر: المستشرقون والقرآن، ص ٥٣ - ٥٥، الدكتور. إبراهيم عوض.

(٢) كما فعل في سورة الشورى إذ أضاف كلمة (قبلاً) بعد قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ﴾ الآية ٥٢، المرجع السابق، ص ٥٥، د. إبراهيم عوض.

(٣) انظر: في دراسة لهذه الترجمة الماكرة والحاقدة إلى كتاب: المستشرقون والقرآن من ص ٥٣، إلى ص ٨٦، د. إبراهيم عوض، وهناك أيضاً دراسات استشراقية كاثوليكية لترجمة القرآن الكريم تحمل في صفحاتها القدح في نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم، والعبث بالنص القرآني الكريم المقدس، ومنها: ترجمة المستشرق سافاري التي ظهرت الطبعة الأولى منها سنة ١٧٨٢م، وترجمة المستشرق مونتيه، وقد صدرت بالفرنسية في باريس سنة ١٩٢٩م عن دار Payot، وفي السنة نفسها صدرت بالإيطالية... وغيرها من التراجم.
انظر: كتاب المستشرقون والقرآن، للدكتور: إبراهيم عوض، وموسوعة المستشرقين، ص ٤٣٨ - ٤٤٥، د. عبد الرحمن بدوي.

(فتلاحظ أن الغرض العام الذي حاول المستشرقون الوصول إليه من هذه الترجمة، هو تحقيق أهداف دينية صرفة، ذلك أن (بطرس المبجل)، الذي أشرف ورعى الترجمة اللاتينية الأولى للقرآن الكريم قصد من وراء ذلك إطْلاع علماء الغرب، ومثقفيه على الكتاب المقدس الإسلامي، حتى يتمكنوا من معارضته، ودحض أحكامه، واختلاق الثغرات في بنائه المتكامل المحكم، والافتئات على بلاغته المعجزة، والدَّس فيه بما يخدم مقاصدهم الخسيسة، ومن هنا جاءت تلك الترجمة مبتسرة ومغيِّرة للعديد من معاني الآيات وأحكامها، وصدرت وذُيِّلت بتعليقات وانتقادات متحيزة)[1].

ومن مواضيعهم أيضاً لتحقيق ذلك الدافع الديني:

طعنهم في السنة النبوية، ومحاولتهم المستمرة لإسقاطها من مكانتها الرفيعة بوصفها مصدراً تشريعياً ثانياً بعد كتاب الله العزيز.

وكان أولئك المستشرقين مع بذلهم غير المحدود للطعن في القرآن الكريم لم يستطيعوا أن ينالوا منه فهرعوا إلى السنة الشريفة محاولين النيل منها بالدس فيها، والتقليل والحط من شأنها، سالكين سُبلاً مختلفة لإنكار أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم جملة بعد التشكيك فيها، فادّعى بعضهم أن الحديث لم يحفظ كالقرآن فقد أهمل إلى زمن متأخر حتى جمعه بعض المصنفين في القرن الثالث الهجري؛ فلهذا عندهم أن الأحاديث لا يصلح الاحتجاج بها، فهي عديمة الجدوى، ولا تصلح أن تكون محط ثقة المسلمين بها[2]، ومن أصحاب تلك الدعاوى من المستشرقين الكاثوليكي مكسيم

---

(١) نقد الخطاب الاستشراقي، ١/ ٢٦٣، د. ساسي سالم الحاج.

(٢) المستشرقون والحديث النبوي، ص ٣٣-٣٤، د. محمد بهاء الدين.

رودنسون[1]، وكذلك الكاثوليكي سوفاجيه[2]، الذي حاول في كتابه (الحديث عند العرب) أن يأتي بأدلة على تدوين الحديث في أول القرن الثاني الهجري، فكانت منها طائفة من الأخبار التي تُشير إلى بعض الصحف التي دونت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لكنه أحاطها بكثير من التشكيك في أمرها، وهو يهدف بذلك إلى هدفين:

أولهما: إضعاف الثقة باستظهار الحديث وحفظه في الصدور.

ثانيهما: اتهام الحديث كله بالاختلاق والوضع على ألسنة المدوّنين الذين لم يجمعوا منه إلاً ما يوافق هواهم ووجهة نظرهم في الحياة[3].

وهذا المستشرق الكاثوليكي ليوني كيتاني (١٨٦٩ ١٩٣٥م) يزعم أن المسلمين بدأوا في استعمال

---

(١) مكسيم رودنسون:
ولد في باريس بتاريخ ٢٦/ ١/ ١٩١٥م، حصل على الدكتوراه في الآداب، عُين أستاذاً في المعهد الإسلامي بصيدا في لبنان عام ١٩٤٠م، ومقيماً في المعهد الفرنسي بدمشق، ومحاضراً في المدرسة العليا للآداب ببيروت في عام ١٩٤٦م، كوفئ بأوسمة متعددة منها: السعف المجمعية وخدمة التطوع في فرنسا الحرة، وبعضوية عدة جمعيات واتحادات، ومنها: الجمعية الآسيوية، واتحاد ترقي الدراسات الإسلامية والدين والعقل ومعهد الدراسات العربية الإسلامية ولجنة متخصص العربية لدى مجلس جامعة باريس وله كتب متعددة، منها: عن النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم صدر في باريس عام ١٩٦١م، والإسلام والرأسمالية صدر في باريس عام ١٩٦٦م، وله بحوث ومقالات متنوعة منها: دانتي والإسلام بحسب البحوث الحديثة في مجلة تاريخ الأديان عام ١٩٥١م، محمد وعلم الاجتماع وتقويم الدراسات المحمدية في المجلة التاريخية عام ١٩٦٣م، ومشكلة دراسة الصلات بين الإسلام والشيوعية، ودراسة عن الإسلام في مجلة علم اجتماع الأديان عام ١٩٦٣م، والفداء في دائرة المعارف الإسلامية جـ٢ عام ١٩٦٥م، والعالم الإسلامي وما حوله من عام ١٩٤٠م إلى ١٩٧٢م، وحال الاستشراق الإسلامي ومشاكله في اتحاد الناشرين باريس عام ١٩٧٦م. انظر: المستشرقون، ١/ ٣٥٩ - ٣٦١، نجيب العقيقي.

(٢) سوفاجه: ج (١٩٠١ - ١٩٥٠م):
مستشرق فرنسي عني بالتاريخ والآثار الإسلامية، تخرج بالدكتوراه عام ١٩٤١م في جامعة باريس، واختير عضواً في المعهد الفرنسي بدمشق عام ١٩٤٢م، ثم عُين مديراً لتاريخ الشرق الإسلامي في مدرسة الدراسات العليا الملحقة بالسوربون في باريس، كان يجيد اللغة العربية والتركية والفارسية، من أعماله: المدخل إلى تاريخ الشرق الإسلامي، صدر في باريس عام ١٩٤٣م، وملخص تاريخ مدينة دمشق عام ١٩٣٤م، وكتاب عن المؤرخين العرب...، وغيرها. انظر: المستشرقون، ١/ ٣١٢ - ٣١٥، نجيب العقيقي، موسوعة المستشرقين، ص٣٥٦، د. عبد الرحمن بدوي.

(٣) المستشرقون والحديث النبوي، ص ٦٥ ٦٦، د. محمد بهاء الدين.

الأسانيد في الأحاديث في الفترة ما بين عروة (ت ٩٤هـ) وابن اسحاق (ت ١٥١هـ) وعلى هذا في زعمه فإن الجزء الأعظم من الأسانيد الموجودة في كتب الحديث لا بد أن يكون قد اختلقها المحدثون في القرن الثاني بل في القرن الثالث أيضاً[1].

كما أن هذا الكاثوليكي يُبيّن للقرّاء جهله بالصناعة الحديثية في بيان صحة الحديث من ضعفه، فزعم أن المسلمين لم يحاولوا نقد المتون بل اكتفوا بنقد الأسانيد في بيان صحة الأحاديث من ضعفها، فقد جاء في كتابه (الحوليات الإسلامية)، قوله: كل قصد المحدثين ينحصر ويتركز في واد مجدب ممحل من سرد الأشخاص الذين نقلوا المروي ولا يشغل أحد نفسه بنقد العبارة والمتن نفسه، وقال أيضاً: إن المُحدِّثين والنقاد المسلمين لا يجسرون على الاندفاع في التحليل النقدي للسنة إلى ما وراء الإسناد، بل يمتنعون عن كل نقد للنص إذ يرونه احتقاراً لمشهوري الصحابة[2].

شُبَه من هؤلاء المستشرقين بعضها إثر بعضٍ يغزون بها أفكار بعض أبناء المسلمين وعقولهم لتشكيكهم في دينهم وأنه ليس مورداً صافياً يستقيون منه الحياة السعيدة في الدنيا والآخرة.

ومن هذه الشّبه في موضوع الأحاديث النبوية والخاصة بالتشريع الإسلامي فقد ذكر كثير من المستشرقين أن بعض الرواة استباحوا لأنفسهم اختراع أحاديث تتضمن أقوال الرسول صلى الله عليه وسلّم وأفعاله وينسبونها إليه ومعظمها ما يتناول الحلال والحرام والطهارة وأحكام الطعام وآداب السلوك ومكارم الأخلاق بل العقائد أيضاً[3].

وبعد هذه الدراسات المشبوهة للمستشرقين التي جعلت هدفها الأول محاولة إسقاط المكانة

---

(١) نقد الخطاب الاستشراقي، ١/ ٥١٥، د. سامي سالم الحاج، المستشرقون والحديث النبوي، ص ٩٤، د. محمد بهاء الدين.

(٢) وقد أخذ بترديد زعم هذا المستشرق وهو رأي بعض المستشرقين أيضاً، أمثال روبسون وجوينبول وشاخت وجولد زيهر بعض الكتاب المسلمين أمثال أحمد أمين وأبي ريه.
انظر: نقد الخطاب الاستشراقي، ١/ ٥٢٥ - ٥٣٠، المستشرقون والحديث النبوي، ص ١٢٨ - ١٣٠.

(٣) نقد الخطاب الاستشراقي، ٢/ ٢٢٠، د. سامي سالم الحاج.

العالية للقرآن والسنة وإطفاء نورهما من حياة المسلمين، يرى بعض مثقفي المسلمين أن المحُرّك الأول، والدافع الأكبر لأولئك المستشرقين هو البحث العلمي النزيه والحقيقة العلمية المجردة، سبحان الله العظيم! كيف لا يكون كذلك والعديد منهم قد تتلمذ (على أيدي هؤلاء المستشرقين عن طريق إيفادهم إلى خارج بلادهم واستقدام أعلام المستشرقين إلى البلاد العربية والإسلامية ليعملوا في مؤسساتها الفكرية ومناهج التربية والتعليم والمؤلفات الاستشراقية التي زخرت بترجمتها المكتبة العربية الإسلامية)[1].

بل يرون أن الإسلام بوصفه تعاليم وعقيدة وديناً جاء به محمد صلى الله عليه وسلّم هو العدو الأكبر للحضارة والعلم والحرية، وعلى رأس أولئك المستشرقين المستشرق الفرنسي أرنست رينان (١٨٢٣ - ١٨٩٢م)[2] والذي كان يقول دائماً في كتبه ومقالاته أن الإسلام اضطهد دائماً العلم والفلسفة، وأن العقيدة الإسلامية أثقل قيد حملته الإنسانية، وأن ما يميز المسلم تمييزاً جوهرياً هو كراهية العلم، والاقتناع أن البحث لا فائدة منه، وأنه عبث، وشبه كفر: علم الطبيعة؛ لأنه منافسة لله، والعلم التاريخي؛ لأنه وهو يتعلق بالأزمنة السابقة على الإسلام يستطيع أن يبعث أخطاء قديمة؛ ولهذا فإن المسلمين عنده هم أول ضحايا الإسلام، وتحريرهم من دينهم، هو أكبر

---

(١) السنة مع المستشرقين والمستغربين، ص ٣٥٤، د. تقي الدين الندوي، من ضمن بحوث كتاب: الإسلام والمستشرقون.

(٢) أرنست رينان (١٨٢٣ - ١٨٩٢م):
مستشرق ومفكر فرنسي، ولد في مدينة تريجيه من أعمال بريتانيا بفرنسا، ودخل المدارس اللاهوتية حيث برز فيها، رحل إلى المشرق ونزل بلبنان، اهتم بتاريخ المسيحية وتاريخ الشعب اليهودي وأتقن اللغة العبرية وكان قليل المعرفة باللغة العربية. من مؤلفاته: كتاب عن فلسفة ابن رشد، صدر في باريس عام ١٨٥٢م، وتاريخ الأديان في عام ١٨٥٧م، وترجمة سفر أيوب عام ١٨٥٩م، وترجمة نشيد الأنشاد عام ١٨٦٠م، وكتاب عن حياة يسوع صدر عام ١٨٦٣م، وكتاب عن بولس صدر عام ١٨٧٠م، أعلن كرهه للإسلام، ولنبي الإسلام عليه أفضل الصلاة والتسليم في عدة مواطن ومناقشات له، وكتب عن سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم والعناصر التي يزعم أنها أثرت في تكوين (أسطورة) عن النبي محمد صلى الله عليه وسلّم في أوروبا في العصور الوسطى وما تلاها، اسم الكتاب (أسطورة محمد في الغرب) سنة ١٨٨٩م.
انظر: المستشرقون،١/ ١٩١، نجيب العقيقي وموسوعة المستشرقين، ص ٣١١ - ٣٢٠، د. عبد الرحمن بدوي.

خدمة يمكن أن تُسدى لهم، ويرى رينان أن تحديد ميلاد البلاد العربيّة أو إعادته لن يتم بواسطة الإسلام، بل سيتم بإضعاف الإسلام، فالإسلام عنده السبب في اضمحلال الحضارة العربية [1].

ويرى بعض هؤلاء المستشرقين أن أول من فطن إلى المبدأ العدائي لهذا الدين هم الذين سماهم محمد صلى الله عليه وسلّم بالمنافقين، ولكن هم في حقيقتهم أبطال الوطنية القومية وجبهة المعارضة الإسلامية، ومن أولئك المستشرق اليسوعي القسيس هنري لامنس.

وإن من أخطر ما سلكه المستشرقون في دراساتهم وذلك بسبب سيطرة الدافع الديني عليهم تحطيم الوحدة الفكرية للمسلمين، وذلك بإثارة الخلافات الفكرية من آراء الفرق والمذاهب المخالفة لمذهب أهل السنة والجماعة، وتقويتها وتمجيدها ونشرها بين عامة المسلمين ليشغلوا أنفسهم بها عن التفكير في عظائم الأمور[2]؛ فتمزقت بهذا الأمة الإسلامية أشلاءً متناثرة هنا وهناك، وقام بين أبنائها الخلافات والمشاحنات لاختلاف النظم والمبادئ والمناهج، ولا سيما بعد اشتداد عزائم الأذناب في الاستمرار في إثارة تلك الخلافات [3].

ومن أشهر هؤلاء المستشرقين الذين سلكوا هذا المسلك الراهب الدومنيكي الأب جورج شحاته قنواتي مدير معهد الدراسات الشرقيّة للآباء الدومينيكان بالقاهرة فقد ركّز جهوده في نشر آراء ابن سينا وابن رشد الفلسفيّة، وآراء المعتزلة، وعظّم رجالاتها كعبد الجبار الهمداني، كما

---

(١) ولقد أثرت هذه الآراء المنحرفة كثيراً في عقول العلمانيين من أبناء المسلمين، بل بعض من ادعى العلم الشرعي في زمانه وافقه على كثير منها، وعلى رأس هؤلاء جمال الدين الأفغاني. يقول الفيلسوف العربي الدكتور عبد الرحمن بدوي: (وقد كان رد جمال الدين الأفغاني على رينان شديد الترفق إلى درجة أنه ساير رينان في كثيرٍ من الملاحظات التي أبداها عن اضطهاد الإسلام للعلماء... لقد كان جمال الدين الأفغاني (الأسد أبادي) سياسياً في المقام الأول، ومفكراً متحرراً من العقيدة الدينية، ولم يكن الإسلام عنده إلاّ وسيلة... ولم يهدف أبداً إلى الإصلاح الديني بالمعنى المفهوم الدقيق لهذا التعبير. والمسؤول عن تصويره الزائف بصورة المصلح الديني هو الشيخ محمد عبده وأصحاب مجلة المنار ومن شايعهم من السطحيين في مصر والشام). موسوعة المستشرقين، ص ٣١١ إلى ص ٣٢٠، د. عبد الرحمن بدوي.

(٢) الاستشراق والتبشير، ص ١٦، د. محمد السيد الجليند.

(٣) وحي الله، ص ٤٥، د. حسين ضياء الدين عتر.

أنه أبرز آراء القديس توما الأكويني الفلسفيّة والكنسيّة، وعمل على نشرها بين أوساط المسلمين، وكان له دور كبير في مسألة (بدعة) الحوار بين الإسلام والنصرانيّة، وبرز دوره أكثر في جلسات المجمع الفاتيكاني الثاني (المسكوني الحادي والعشرون) (١١ تشرين الأوّل ١٩٦٢ - ٨ كانون الأوّل ١٩٦٥م) حول الحوار مع الإسلام، وكان من أبرز تلامذته أستاذ الفلسفة في جامعة القاهرة عاطف العراقي، والذي سار على نهجه[1].

ومن ذلك اهتمامات المستشرقين في دراساتهم بالتراث الصوفي للغلاة من الصوفية أمثال الحلاج وابن عربي، وعلى رأس أولئك المستشرقين الفرنسي الكاثوليكي لويس

---

(١) الأب جورج شحاته قنواتي (١٩٠٥ - ١٩٩٤م):
ولد في الإسكندريّة من أصل سوري، انضم إلى الرهبانية الدومينيكيّة عام ١٩٣٤م، تضلّع من الفلسفة واللاهوت، أرسل إلى الجزائر، فحصل على ليسانس في الأدب العربيّة عام ١٩٤٤م، وبعد عودته عيّن عميداً للمعهد الدومينيكي للدراسات الشرقيّة في القاهرة، ومحرراً لمنوعاته، وانتخب عضواً في معهد مصر عام ١٩٥١م، وكلّفته اليونسكو بوضع دراسة عن الاتجاهات الفكريّة المعاصرة في العالم العربي عام ١٩٧٢م، وكان الأب قنواتي جوّابه يطوف بعدّة عواصم من كل عام أستاذاً زائراً في الجامعات، أو محاضراً في النوادي والجمعيّات، أو مشاركاً في معظم المؤتمرات. من أعماله: المدخل إلى علم أصول الدين الإسلامي عام ١٩٤٨م، ناقش فيه وجود الله تعالى وصفاته، وتحقيق وتعليق على كتاب (جوهرة التوحيد) لإبراهيم الباجوري الأشعري عام ١٩٥٠م، ومقالة بعنوان (إمام الحرمين بين المتقدمين والمتأخرين) عام ١٩٤٧م، وتحقيق على كتاب (المغني في أبواب التوحيد) لعبد الجبار الهمداني المعتزلي عام ١٩٦٣، واهتمام بالغ بكتب ابن سينا تحقيقاً وتعليقاً، مثل الشفاء والمنطق والإلهيّات والنفس، وله مقالة عن عقيدة ابن سينا في بعث الأجساد عام ١٩٥١، وعن مؤلفات ابن رشد عام ١٩٧٨م، وكتاب (التصوّف الإسلامي) عام ١٩٦٠م، ومقالة عن الفلسفة الإسلاميّة في العصور الوسطى عام ١٩٥٩م، وكيمياء السعادة لابن عربي الصوفي عام ١٩٥٩م، وعن الفخر الرازي في عام ١٩٦٢، وعن رسالته في أسماء الله عام ١٩٦٥م، ومقالة (علم أصول الدين المسيحي وأصول الدين لدى المعتزلة) في عام ١٩٦٤م، وكتبَ في دائرة المعارف العالميّة عن: الإسلام، والحلاج، ومقالة عن فكرة الخلق في الإسلام عام ١٩٦٩م، وهل فكرة الخطيئة الأصليّة موجودة في الإسلام عام ١٩٧٠م، والعصمة من الخطأ في الإسلام عام ١٩٧٠، ومقالة بعنوان (ثلاثة طلاسم إسلاميّة) عام ١٩٧٢م، وكتبَ سبعاً وخمسين مقالة عن تلاقي الثقافات والحوار الإسلامي المسيحي، وكتبَ مقالات متفرّقة عن كبار النصرانيّة، منها: عن البابا والبابويّة، وآريوس، ورروجر بيكون، والقدّيس أوغسطين من أوائل الدعاة إلى النصرانيّة، وغيرهم.
انظر: المستشرقون، ٣/ ٢٧٠ - ٢٧٣، نجيب العقيقي، والمستشرقون والتنصير، ص ١٢٧، ١٢٨، الدكتور علي بن إبراهيم النملة، والموقع الإلكتروني للمعهد الدومينيكي للدراسات الشرقيّة في القاهرة:. ptth: //www. ideo-caio.org

ماسينيون[1]، الذي تفرغ تماماً لإظهار آراء المذاهب المخالفة لما يعتقده المسلمون من آراء غلاة الصوفية كابن حلاج وابن سبعين، والشيعة بكل تطوراتها وفروعها وخصوصاً المغالية منها كالقرامطة، والنصيرية، والإسماعيلية.

وبعضهم اهتم بنشر كتب اللهو والمجون كقصص ألف ليلة وليلة، وكتاب الأغاني، ومن أشهرهم في هذه الاهتمامات كبير مستشرقي فرنسا الكاثوليكي البارون سلفستر دي ساسي[2]

---

(1) لويس ماسينيون (١٨٨٣ - ١٩٦٢م):
مستشرق كاثوليكي فرنسي قيل عنه: إنه من بين المستشرقين في مكانة لا يضارعه فيها إلاَّ (نيلدكه) و(نلينو) و(جولد زيهر). من أكبر أصدقائه الأب شارل دي فوكو، والشاعر الفرنسي الكاثوليكي المتعصب بول كلودل. ولد في ضاحية نوجان على نهر المارن إحدى ضواحي باريس في ٢٥ من شهر يوليو عام ١٨٨٣م، حصل على دبلوم في اللغة العربية الفصحى والعامية في ١٠ فبراير عام ١٩٠٦م من المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية، وتابع محاضرات المستشرق لوشاتلييه في الكوليج دي فرانس عن الإسلام من الناحية الاجتماعية، عُيِّن في عام ١٩٠٦م عضواً في المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة رحل إلى بغداد في شتاء ١٩٠٧م، وزار مشاهد الشيعة في جنوبي العراق كربلاء والنجف والكوفة، وعندما أنشئت الجامعة المصرية القديمة في عام ١٩١٠م أوصى المستشرقان جولد زيهر واسنوك هورخرونية بماسينيون لهذا المنصب، فدُعي ماسينيون وألقى أربعين محاضرة باللغة العربية على طلاب الجامعة المصرية، وكان من طلابه طه حسين.
كان ماسينيون ضمن الجيش الذي دخل القدس في ١٩١٧م تحت قيادة اللبني العليا.
قدم رسالته الدكتوراه بعنوان: (عذاب الحلاج، شهيد التصوف في الإسلام) في ٢٤ مايو سنة ١٩٢٢م، واختار هذا التاريخ عن قصد ليوافق مرور ألف عام على صلب الحلاج.
اهتم اهتماماً خاصاً بالحلاج وتصوّفه منذ شهر مارس عام ١٩٠٧م عندما قرأ أشعاراً لفريد الدين العطار الشاعر الفارسي الصوفي تدور حول مصرع الحلاج وفيها تمجيد عظيم له، وكتب في عام ١٩٠٩م بحثاً بعنوان: (عذاب الحلاج والطريقة الحلاجية)، ثم في عام ١٩١١م بحثاً بعنوان: (الحلاج الشبح المصلوب والشيطان عند اليزيدية) وعلاقتة بالحلاج لم تنقطع لحظة واحدة حتى مات، فنشر في عام ١٩٣١م (ديوان الحلاج)، وفي عام ١٩٤٦م بحثاً عن حياة الحلاج بعد وفاته، كما أن اشتغاله بالحلاج لم يصرفه عن الاهتمام بغيره من الصوفية، فكتب عن ابن سبعين، كما أنه اهتم اهتماماً كبيراً بمذهب الشيعة وما تفرع عنها، بخاصة مذاهبها الغالية في دائرة المعارف الإسلامية، مباحث عن: القرامطة، والنصيرية، والخطابية، والزندقة، والكندي، والمحاسبي، وغيرها من المباحث، توفي في ٣١ أكتوبر عام ١٩٦٢م بعدما بذل جهوداً كبيرة في نشر مذاهب منحرفة وآراء خارجة عن الإسلام بين أوساط المسلمين. انظر: موسوعة المستشرقين، ص ٥٢٩ - ٥٣٥، د. بدوي، المستشرقون، ١/ ٢٦٣ - ٢٦٨، العقيقي.

(2) سلفستر دي ساسي (١٧٥٨ - ١٨٣٨م):
هو أنطوان إسحاق سيلفستر دي ساسي، ولد في باريس في ٢١ سبتمبر سنة ١٧٥٨م، أول ما تعلم من اللغات كانت العبرية، وهو في سن الثانية عشرة، ثم تعرّف إلى الراهب البندكتي برترو الذي شجعه على دراسة اللغات السامية الأخرى، وعلى رأسها العربية، فبدأ بتعلمها، ثم أخذ بتعلم اللغات الأوروبية الأخرى الألمانية، والإنجليزية،

المستشار في وزارتي الخارجية والحربية الفرنسية، و هو من الأساتذة المباشرين لأحد أئمة التغريب، وهو رفاعة رافع الطهطاوي.

وبشكل عام فإن مكر المستشرقين الكُتّار في دراساتهم الاستشراقية، الذي يثبت أن الدافع الديني هو المتفق عليه بينهم، والسبب الأعظم لهم، أنهم مثلاً في أبحاثهم عن الدين الإسلامي، وكُل ما له صلة بهم يذكرون عيباً واحداً، ويجوّدون لتمكينه في النفوس، بذكر عدة محاسن ليست لها أهمية كبيرة، وذلك كي يقف القارئ خاشعاً مؤدباً أمام سعة قلوبهم وسماحتهم، ويسيغ ذلك العيب الواحد الذي يكفي لطمس المحاسن جميعها. فهؤلاء المستشرقون الموصوفون بالحيادية

والإسبانية، والإيطالية.
وفي ٣٠ مارس عام ١٧٩٥م قررت الجمعية الثورية التي تدعى الوفاق الوطني والتي كونت أول جمهورية، وحكمت فرنسا ٢١ عاماً إنشاء مدرسة عامة لتدريس اللغات الشرقية الحية، وأسندت تدريس العربية إلى سلفستر ساسي، فبدأ دروسه فيها في ٢٢ يونيو عام ١٧٩٦م، وحمله هذا التدريس على تكريس كل جهد للتعمق في اللغة العربية وآدابها، والإسلام وعقائده، ومذاهبه، وتاريخه.
منحه نابليون لقب بارون في مارس عام ١٨١٤م، وعندما سقط نابليون وأُعيدت الملكية إلى فرنسا عُيّن سيلفستر دي ساسي في ٢٤ أكتوبر عام ١٨١٤م مراقباً ملكياً، ثم عُيّن في ١٧ فبراير عام ١٨١٥م مديراً لجامعة باريس، وفي أغسطس عام ١٨١٥م عُيّن عضواً في لجنة التعليم العام.
يُعد سيلفستر دي ساسي أول مستشرق أوروبي في العصر الحديث يمثل الاستشراق كمؤسسة سياسية تعمل لخدمة الاستعمار الغربي، وتثبيت أقدامه في العالم الإسلامي، فقد كان حلقة الوصل بين الاستشراق والسياسة الفرنسية الخاصة بالمسلمين، فكان يستشار بانتظام من قبل وزارة الخارجية الفرنسية، وكذلك وزارة الحربية. وكان من مهامه أن يترجم نشرات الجيش الفرنسي إلى المسلمين، وهو الذي قام بترجمة الإعلان الفرنسي إلى الجزائريين باحتلال فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠م.
كان يعلن إعجابه الحقيقي بالأدب اليهودي، ويصف الشعر العبري بأنه (شعر مقدس حقيقة) وثقافته الأصلية التي تلقاها في دير بندكتي ثقافة لاهوتية عميقة، تعتمد على العهدين القديم والجديد.
أسس (المجلة الآسيوية) في عام ١٨٢٢م، ولا تزال حتى اليوم من أهم المجلات الاستشراقية، وكذلك أسس (الجمعية الآسيوية)، وصار مديراً للكوليج دي فرانس في ٣٠ ديسمبر عام ١٨٢٣م، ومديراً للمدرسة الخاصة باللغات الشرقية في ٢٦ أغسطس عام ١٨٢٤م. أصيب بنوبة مفاجئة توفي على إثرها في ٢١ فبراير عام ١٨٣٨م.
من أعماله: كتاب (النحو العربي)، أشهر كتاب في أوروبا في ذلك الوقت، مقامات الحريري، الإفادة والاعتبار بما في مصر من الآثار لموفق الدين البغدادي، كليلة ودمنة، وأشرف على إخراج كتاب الأغاني.
انظر: موسوعة المستشرقين، ص ٣٣٤ - ٣٣٩، د. عبد الرحمن بدوي، المستشرقون، ١/ ١٦٢ - ١٦٥، نجيب العقيقي، تاريخ حركة الاستشراق، ص ١٤١ - ١٥٦، يوهان فوك، رؤية إسلامية للاستشراق، ص ١٠٧ - ١٠٨، أحمد غراب، الاستشراق، ص ٦، السيد أحمد فراج.

والنزاهة العلمية يدسّون في كتاباتهم مقداراً خاصاً من (السُّمّ) ويحترسون في ذلك، فلا يزيد على النسبة المعينة لديهم، حتى لا يستوحش القارئ، ولا يثير ذلك فيه الحذر، ولا يضعف ثقته بنزاهة ذلك المستشرق.

إن كتابات هؤلاء المستشرقين أشد خطراً على القارئ المسلم والنصراني وغيرهم في الدين الإسلامي من كتابات المستشرقين الذين يكاشفون العداء للأمة الإسلامية ويشحنون كتبهم بالكذب والافتراء عليها، وعلى دينها وحضارتها، ويصعب على رجل متوسط في عقليته أن يخرج منها سليم الفكرة أو ينتهي في قراءتها دون الخضوع لها[1].

فأبحاث المستشرقين أبحاث منتقاة، ودراساتهم دراسات مختارة لمواضيع أساسية في الدين الإسلامي. يحاولون من خلالها أن يضربوا الأمة الإسلامية في دينها، وعقيدتها وعباداتها. وأخلاقها؛ لتتزلزل بذلك أساسيات الدين الإسلامي في قلوب أبنائه وعقولهم، فالمطمع التنصيري مطمع

---

(١) مقالات وبحوث حول الاستشراق والمستشرقين، ص ٨، ٣١، لأبي الحسن الندوي (بتصرف).
ومن ذلك: ما يفعله المستشرق الهولندي دوزي (١٨٢٠ـ ١٨٨٣م)، الذي انخدع بأبحاثه بعض المسلمين، ووصفوه بالإنصاف، فكان يذهب إلى القول بصحة قسم كبير من الأحاديث النبوية التي حفظت في الصدور قبل التدوين ثم دونت بدقة في الكتب، ولكنه في أثناء كلامه يرى أنها أحاديث لها نظرات في الكون والحياة والإنسان مخالفة للعقل والميزان الصحيح. انظر: المستشرقون والحديث النبوي، ص ٦٦، د. محمد بهاء الدين.
وما ذهب إليه المستشرق لويس مايو في كتابه (مدخل لدراسة القانون الإسلامي) أن القرآن يعد المصدر الرئيس للشريعة الإسلامية، ثم ذهب إلى صحته وأن فيه قداسة وأن جمعه كان صحيحاً من قبل الصحابة، ولكنه يذكر بأن القرآن مصدر ضيق للشريعة الإسلامية، فيرى أن القواعد القانونية تتحدث عنها ستمائة آية فقط!. انظر: نقد الخطاب الإستشراقي، ٢/ ٢١٣، د. ساسي سالم الحاج.
وما يقوم به المستشرق الهولندي هادريان ريلاند (توفي ١٧١٨م)، فهو يدس السم، فيرى أن بعض تعاليم محمد صحيحة (لاحظ أنه ينسب تعاليم الإسلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم، ولذلك يسمي كتابه الديانة المحمدية)، وهو يدعو إلى الرجوع إلى المصادر العربية لفهم الإسلام فيقول: (ينبغي على المرء أن يتعلم اللغة العربية وأن يسمع محمداً نفسه وهو يتحدث في لغته، كما ينبغي على المرء أن يقتني الكتب العربية، وأن يرى بعينيه هو وليس بعيون الآخرين، وحينئذ سيتضح له أن المسلمين ليسوا مجانين كما تظن، وقد كان في رأيي دائماً أن ذلك الدين الذي انتشر انتشاراً بعيداً في آسيا وإفريقيا وفي أوروبا أيضاً ليس ديناً ماجناً أو سخيفاً كما يتخيل كثير من الناس إلاّ أنه دين سيئ ضار بالمسيحية إلى حد بعيد). فهذا المستشرق يدافع أولاً عن الإسلام بأنه ليس ماجناً ولا سخيفاً ولكنه مع ذلك يقدح فيه بقوله أنه دين سيئ وضار بالمسيحية إلى حد بعيد. انظر: رؤية إسلامية للاستشراق، ص ١٠٥، أحمد غراب.

أساسي للدافع الديني للدراسات الاستشراقية التنصيرية، إن كانت كاثوليكية أو بروتستانتية.

فالارتباط واضح، ومستمر بين الهيئات الاستشراقية، والإرساليات التنصيرية التي استفادت كثيراً من الاستشراق الذي يعد الهيئة الاستشارية للتنصير، فبحوث المستشرقين التي لا تحصى عن الدين الإسلامي، وكل ما يتعلق به كانت ولا تزال أفضل زاد للمنصرين في استعمالها، وإشاعتها في الأوساط الثقافية في العالم الإسلامي[1].

هذا كله يدفع بالباحث والمطلع على توجيهات الدراسات الاستشراقية أن يؤمن إيماناً جازماً بأن الدافع الديني هو حجر الزاوية للمستشرقين.

ثانياً: الدافع السياسي والاستعماري:

إن واقع الدراسات الاستشراقية تُبيّن أن حركة الاستشراق كانت تسير جنباً إلى جنب مع التحولات والتغيرات السياسية التي شهدها أولئك المستشرقون، والتي انتهت بأكثر دراساتهم إلى ضعف ملحوظ متمثل في التحامل البشع الذي غذته (التحولات) الاستعمارية في فكر المركزية الأوروبية بالنسبة لموقفهم من الإسلام والمسلمين وأطماعهم في البلدان الإسلامية[2].

ولا شك أن تنقل المستشرقين وترحالهم في بلدان العالم الإسلامي، وما نتج عن هذه الرحلات من مؤلفات، يُقصد بها إعطاء صورة واضحة قد تكون مزورة لصناع القرار الغربي في اختيار الأمكنة الملائمة لتوجيه جيوشهم[3]، وفي توزيع رقعة العالم الإسلامي بينهم، قد كانت مغرية للحكومات النصرانية الغربية لغزو العالم الإسلامي ونهب خيراته وموارده.

فمثلاً نابليون بونابرت قد تأثر في وضع خطته للهجوم على مصر وسوريا بكتاب (رحلة إلى مصر وسوريا) للمستشرق الفرنسي (الكونت دي فولني)[4]، والذي ظهر في مجلدين عام ١٧٨٧م، وقد

---

(١) الاستشراق أهدافه ووسائله، ص ٣٧، د. محمد فتح الله الزيادي.

(٢) الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، ص ٩٨، مصطفى نصر المسلاتي (بتصرف).

(٣) الاستشراق أهدافه ووسائله، ص ٣٩، د. الزيادي، نقد الخطاب الاستشراقي، ١/ ٥٧، د. ساسي الحاج.

(٤) دي فولني: مستشرق فرنسي رحل إلى مصر وسوريا سنة ١٧٨٢م، ودون آراءه في كتاب لم يلبث أن نال

تعرض هذا المستشرق في الجزء الثاني من كتابه للإسلام، وتحامل عليه كثيراً من حيث إنه دين ومن حيث إنه نسق من النظم السياسية، فأدى به ذلك في نهاية الأمر إلى أن عدّ تلك الأجزاء الإسلامية ليست أكثر من مكان يمكن لفرنسا أن تحقق فيها مطامعها الاستعمارية[١].

ويُبيّن المستشرق الفرنسي غوستاف دوجا [٢] أن هناك صلة وثيقة بين الاستعمار والحركة الاستشراقية، وأنّه يجب على الحكومات الغربيّة أن تعرف كيف تشجّع وتستخدم المستشرقين[٣].

وهذه الحكومة الإيطالية حين قررت غزو ليبيا لجأت إلى المستشرقين، فجهزوا لها منشوراً يحوي من المكر الشيء العظيم، اختاروا لها عبارات بدقة عالية مراعين ظروف المسلمين هناك، وأوضاعهم السياسية، والاجتماعية، والدينية، ومما جاء فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على كافة المرسلين صلى الله وسلم عليهم أجمعين: فيا سكان طرابلس وبرقة، اذكروا أن الله قال في كتابه العزيز: (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)[٤].

ثم بعد الاستشهاد خمس مرات بالآيات القرآنية خلص المنشور إلى القول التالي: (إرادة الله

شهرة واسعة عد بها أحد كتاب الرحلات المشهورين، أهدى منه نسخة إلى قيصرة روسيا الثانية كاترين، وأهدى نسخة أخرى إلى نابليون الذي تأثر به في حملته على مصر. انظر: الاستشراق أهدافه ووسائله، ص٣٩، د. محمد الزيادي.

(١) الاستشراق، ص٣٩، د. محمد الزيادي، وبتوسع إلى: نقد الخطاب الاستشراقي،١/ ٦٢ - ٦٥، د. ساسي سالم الحاج

(٢) غوستاف دوجا (١٨٢٤ - ١٨٩٤م):
مستشرق فرنسي، ولد في ١٨٢٤م، ودخل مدرسة اللغات الشرقية في باريس، وسافر في بعثة إلى الجزائر في عام ١٨٤٥م، وفي ١٨٨٢م كلف بتدريس جغرافيا الشعوب الإسلامية وتاريخها في مدرسة اللغات الشرقية، توفي عام ١٨٩٤م، ومن كتبه: دراسة عن كتاب زاد المسافر لأبي جعفر أحمد، وهو كتاب في الطب، ونفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب للمقري، تحقيق المجلد الأول، ومقدمة للمجلد الثاني، تاريخ الفلاسفة والمتكلمين المسلمين من بدايتهم إلى عام ١٢٥٨هـ تاريخ المستشرقين في أوروبا من القرن الثاني عشر حتى القرن التاسع عشر. انظر: موسوعة المستشرقين، ص ٢٥٣، د. بدوي، المستشرقون، ١/ ١٩٣، نجيب العقيقي.

(٣) الاستشراق في السيرة النبوية، ص ٢٤، عبد الله محمد الأمين النعيم.

(٤) سورة الممتحنة، الآية (٨).

ومشيئته سبحانه قضتا أن تحتل إيطاليا هذه البلاد؛ لأنه لا يجري في ملكه إلاّ ما يريد فهو مالك الملك رب العالمين المنفرد بتصرفاته بملكه، الذي لا شريك له فيه، وبناء عليه يلزم علىٰ كل مؤمن أن يرضى ويسلم بما تعلقت به الإرادة الربانية وأبرزته القدرة الإلهية، فالملك له سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء)[1].

ومن قبل قد استفاد نابليون في حملته الفرنسية عام ١٧٩٨م علىٰ مصر من المستشرقين في صياغة منشور بنظرية دينية، وسياسية قد ينخدع بها بعض المسلمين هناك[2].

وقد اعترف المستشرق الإسباني بيدور مارتينيث مونتابيث[3]، أن الاستشراق يقوم بخدمة المصالح الاستعمارية: (ظاهرة تاريخية معروفة، وهي أن معظم المستشرقين الغربيين كان مرتبطاً بشكل ما مع النفوذ الاستعماري الغربي في المنطقة، وعلينا أن نعترف بهذا فنحن نتكلم عن التاريخ وليس عن أشياء خيالية أو بعيدة عن الحقيقة)[4].

---

(١) الاستشراق، أهدافه ووسائله، ص ٤٣، د. محمد فتح الله الزيادي.

(٢) ومما جاء في هذا المنشور: (بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلاّ الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه من طرف الفرنساوية، المبني على أساس الحرية والتسوية... قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه! وقولوا للمفترين إنني ما قدمت إليكم إلاّ لأخلص حقكم من يد الظالمين. وإنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم!..
أيها المشايخ والقضاة والأئمة، قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون، وإثبات ذلك أنهم نزلوا في رومية الكبرى وخرّبوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام (!!)، ومع ذلك، الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني، وأعداء أعدائه، أدام الله ملكه...). انظر: واقعنا المعاصر، ص ١٩٩، الأستاذ: محمد قطب.

(٣) بيدور مارتينيث مونتابيث (المولود عام ١٩٣٣م):
مستشرق أسباني، متخرج من قسمي التاريخ واللغات السامية بجامعة مدريد عام ١٩٥٦م، والتحق بجامعة القاهرة لإعداد رسالة دكتوراه عن المجاعة في مصر أيام المماليك وتبدل الأسعار عام ١٩٥٧م، وعُيّن مديراً للمركز الثقافي الإسباني في القاهرة عام ١٩٥٨م، ولمجلة الرابطة التي أصدرها المركز عام ١٩٥٨م، ثم مديراً لجامعة مدريد المستقلة، من بحوثه: رسالة الماجستير عن أمراء الأندلس وخلفائها عام ١٩٥٦م، والشعر العربي الحديث في مدريد عام ١٩٥٨م، والفونسو العاشر وسلاطين المماليك في عام ١٩٥٩م، وشخصية المنصور في نصوص المؤلفين النصارى في عام ١٩٦٠م. انظر: المستشرقون، ٢/ ٢٤٣ - ٢٤٤، نجيب العقيقي.

(٤) الاستشراق، أهدافه ووسائله، ص ٤٢، د. محمد فتح الله الزيادي.

وذكر المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون، أنه إبّان فترة التوسع الاستعماري في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي كان من آثار ارتباط الاستعمار بالاستشراق أن استفاد الاستعمار بما خلفه له الفكر الاستشراقي، ومن هذا الارتباط أيضاً عزز الاستعمار موقف المستشرقين في البلاد الشرقية الإسلامية لينشروا فيها آراءهم ويحققوا أهدافهم[1].

فالذي يخشاه الاستعمار هو الدين الإسلامي وانتشاره ومقاومته له، فإن له قوة وإرادة وجلالة تستطيع أن توقف الأطماع الاستعمارية ليست كغيره من الأديان والإيديولوجيات والمذاهب. فلن يستطيع الاستعمار أن يسيطر على المسلمين إلاَّ بالتعاون المتماسك والقوي مع الاستشراق والتنصير، فالعدو المشترك لهم جميعاً هو الإسلام، فلا بد إذن للغرب المستعمر من معرفة ما يمكنه معرفته من أحوال هذه البلاد الإسلامية ومداخل السيطرة عليها والاستبداد بها [2]، وضرب وحدة المسلمين مناط عزتهم وسؤددهم ببث الفتن والفرقة وإثارة الشبهات والتشكيك، فيستفيد المنصرون من ذلك لمحاولة تحويل المسلمين عن دينهم، وإشاعة البلبلة الاعتقادية والفكرية في صفوفهم لتصير بلادهم وخيراتهم لقمة سائغة للغرب. وأقل مطمع للغربيين في هذا أن تعينهم دراسات الاستشراق على إضعاف العالم الإسلامي، وتمكين التبعية السياسية له فيه والنهب الامبريالي [3].

وازدادت المشاركة بين ثالوث الشر (الاستشراق، والتنصير، والاستعمار) على استنزاف الثروات المادية للعالم الإسلامي، وبث بعض الزلازل العقائدية والفكرية في عقول بعض أبنائه المسلمين وقلوبهم فامتدت إلى نهب الثروات العلمية والحضارية للأمة الإسلامية المتمثلة في المخطوطات، والوثائق، والكتب النادرة، ونقلها إلى عواصمهم الغربية النصرانية. فقد استفاد المستشرقون منها من الناحية العلمية كالنّواحي التجريبية مثلاً كالطب أو في الدراسات المقارنة للغات والأديان

---

(١) المستشرقون وتوجيه السياسة التعليمية في العالم الغربي، ص ٣٩، نايف بن ثنيان آل سعود.

(٢) فلسفة الاستشراق، ص ٥٠، أحمد سمايلو فتش.

(٣) منهج البحث في الإسلاميات لدى المستشرقين وعلماء الغرب، ص ٥٩، محمد البشير مغلي.

مثلاً...، وهم قد عكفوا على دراساتها للاختيار منها ما يكون أعون لهم على تكوين صورة مشوهة عن الإسلام والمسلمين[1].

كما أن هؤلاء المستشرقين قاموا بالترجمة، والدراسة، واستخلاص النتائج واستخدامها في تبرير سيطرة الغرب على المسلمين، وكتابة التقارير التي تُعين الحكومات الغربية على (صنع القرار السياسي) تجاه العالم الإسلامي[2].

هذا هو الدافع السياسي والاستعماري للدراسات الاستشراقية فهي سندٌ للاستعمار تمهيداً وتثبيتاً، فتُؤوِّل الجهاد وتصرف أنظار المسلمين إلى الدعة والقعود عن الجهاد في سبيل الله، تحطيماً لروح المقاومة الإسلامية، ومدافعة للغزاة بالاقتصار على الاشتغال بالعبادة والزهد، على أن ذلك هو الجهاد الأكبر، وغير ذلك مما من شأنه أن يسلس القياد للاستعمار وهيمنته الثقافية والفكرية بحيث يستبد تأثيرها في نفوس المسلمين فيخلخل عقائدهم، ويزلزل ثقتهم بأنفسهم، ومن ثم يتخذ التنصير الغربي من دونهم وليجة لتحويل بعض المرتبكين منهم إلى تبع وملاحدة[3].

ثم إنه لتأكيد هذا الدافع فإن هناك نوعاً من الدراسات الاستشراقية ركّزت على دراسة الفرق الإسلامية، والتي شغلت حيزاً كبيراً من نشاط المستشرقين، ولم يكن لها بالمقابل أية دراسة تستهدف البحث في الإسلام الموحد الذي جسّده عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، ويضاف إلى ذلك دراسات أخرى استهدفت التركيز على إثارة النعرات الطائفية والحزبية والمذهبية، ومحاولة تجذيرها، ولا شك في أن هذه الدراسات كانت عاملاً مهماً ساعد الاستعمار الغربي النصراني في

---

(١) رؤية إسلامية للاستشراق، ص ٤١، أحمد غراب.
فهذا النهب للثروات العلمية والحضارية لتراث الأمة الإسلامية إبان الاستعمار الغربي الذي قام به المستشرقون يُفسر لنا ذلك اللغز المحيّر، وهو وجود الآلاف من هذه المخطوطات في حوزة الدول الأوروبية حتى يومنا هذا.
انظر: نقد الخطاب الاستشراقي، ١/ ٧١، د. ساسي سالم الحاج.

(٢) رؤية إسلامية للاستشراق، ص ٤١، أحمد غراب.

(٣) منهج البحث في الإسلاميات لدى المستشرقين وعلماء الغرب، ص ٦١، محمد البشير مغلي.

استخدام سياسة (فرق تسد) وبالتالي إحكام قبضته على مناطق العالم الإسلامي[1].

ثالثاً: الدافع العلمي:

الناظر إلى واقع الدراسات الاستشراقية بشكل عام، وإلى الدراسات النصرانية الغربية بشكل خاص؛ يجزم جزماً أن الدافع العلمي ليس دافعاً أصيلاً في جملتها، كيف يكون الدافع العلمي النزيه المجرد في تلك الدراسات دافعاً أصيلاً ذاتياً، والمستشرقون كلهم يجمعهم أمور تؤدي بهم إلى تشويه الحقيقة العلمية لدراستهم عن الإسلام وعلومه، وحضارته؟! وهذه الأمور هي:

1. أنهم لا يعترفون بالإسلام ديناً ربّانياً، بل هو عندهم إمّا من صنع محمد صلى الله عليه وسلم والذي أيضاً لا يعترفون بأنه نبي يُوحى إليه من عند الله تعالى، وإمّا أنّه اقتباسات متناثرة من اليهود والنصارى لملمها محمد صلى الله عليه وسلّم وأكمل بعضها رفاقه عليهم رضوان الله أجمعين.
2. أنهم لا يعترفون بالإسلام بوصفه رسالة إلى العالم أجمع، بل هو تعاليم ووصايا جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم للعرب فقط.
3. أنهم لا يعترفون بأي فضل للعرب المسلمين في رُقيّ الحضارة الإسلامية التي تُسمى عندهم الحضارة العربية ويرون أن الفضل في ازدهار هذه الحضارة للنصارى العرب[2]، وأن الحضارة الإسلامية العربية عندهم في الأندلس إنما يرجع الفضل فيها إلى نصارى إسبانيا، ومن أمثلة أولئك المستشرقين فرانشيسكو سيمونت[3].

---

(1) الاستشراق أهدافه ووسائله، ص ٤٤، د. محمد فتح الله الزيادي.

(2) الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، ص ٦٢، مصطفى نصر المسلاتي. (بتصرف).

(3) فرانشيسكو سيمونت (١٨٢٩ - ١٨٩١م):
مستشرق أسباني عني خصوصاً بتاريخ غرناطة وتاريخ المستعربين، أي النصارى الذين اعتنقوا الإسلام في إسبانيا، ولد في ملقة (على الساحل الجنوبي الشرقي من إسبانيا) في أول يونيو عام ١٨٢٩م، أتقن العربية في عام ١٨٥١م، وفي عام ١٨٥٥م أتم دراسة القانون وحصل على إجازة فيه، حصل على وظيفة مدرس للغة العربية في المعهد العلمي في مدريد، وبدأ فيه عام ١٨٥٧م يُدرّس حول التاريخ الأدبي للعرب في إسبانيا، وفي السنة التالية ١٨٥٨م أخذ يدرس اللغة العربية وآدابها، حصل على الليسانس في الفلسفة والآداب في عام ١٨٦٠م، وشغل

ولا شك في أن الخلفيات الدينية المتمثلة في كره الإسلام والمسلمين الممتلئ به الجو العام في الغرب النصراني كانت ولا تزال مؤثرة على كثير من دراسات المستشرقين للإسلام وتعاليمه وحضارته(1).

في السنة نفسها كرسي اللغة العربية في جامعة غرناطة، ثم اختير عضواً في أكاديمية التاريخ في عام ١٨٦٢م، ومن ذلك التاريخ ركز على الدراسات العربية وحدها، حتى آخر عمره في ٩ يوليو عام ١٨٩٧م.

كان سيمونت شديد التعصب للكاثوليكية، وتجلى ذلك خصوصاً في مقالات نشرها في مجلتين دينيتين نصرانيتين هما (مدينة الله) و (العلم المسيحي)، يزعم أن تفوق الحضارة العربية في إسبانيا إنما يرجع الفضل فيه إلى العنصر المحلي الإسباني المسيحي الذي كان يسكن في إسبانيا قبل الفتح العربي، ويزعم أن هؤلاء السكان الأصليين المسيحيين هم الذين استطاعوا بمواهبهم إغناء الحضارة العربية في الأندلس، وهم الذين ثقفوا العناصر العربية والبربرية الداخلة على الأندلس بعد الفتح الإسلامي....

وهو شديد الكره للإسلام والمسلمين يقول عنه د. بدوي: (وإن باحثاً هذا تصوره للإسلام لا يمكن أن تكون أحكامه على الثقافة الإسلامية في الأندلس إلا نابعة من نفس التصور، ولهذا ينبغي تقويم آرائه على ضوء هذا التعصب الأعمى الذي سيطر على كل ما كتبه سيمونت).

انظر: موسوعة المستشرقين، ص ٣٦٠ - ٣٦٥، د. عبد الرحمن بدوي، المستشرقون، ٢/ ١٨٥، نجيب العقيقي.

وكذلك المستشرق الانجليزي هاملتون جب (١٨٩٥ - ١٩٧١م): ولد في مدينة الإسكندرية (مصر) في ٢ يناير عام ١٨٩٥م، وتوفي في ٢٢ أكتوبر عام ١٩٧١م في اكسفورد (إنجلترا)، وتعلم في اسكتلندة في المدرسة الثانوية الملكية في أدنبره، وفي عام ١٩١٢م دخل جامعة أدنبره، حيث تخصص في اللغات السامية: العربية، والعبرية، والآرامية، وفي عام ١٩١٤م إلى ١٩١٨م كان جندياً في مدفعية الميدان الملكية وخاض الحرب في جبهتي فرنسا وإيطاليا، وفي عام ١٩٢٢م حصل على درجة الماجستير من جامعة لندن، تعيّن أستاذ كرسي اللغة العربية في جامعة لندن عام ١٩٣٠م، ثم في عام ١٩٣٧م أستاذاً للغة العربية في جامعة أكسفورد، وفي عام ١٩٥٥م دعته جامعة هارفرد في أمريكا ليكون أستاذاً بها في كرسي اللغة العربية، كان عضواً في المجمع العلمي العربي في دمشق، والمجمع اللغوي في القاهرة.

يقول عنه د. بدوي: (كانت شهرته فوق قيمته العلمية، طابعه في كل ما يكتب العموم والسطحية).

يزعم أن الحضارة الإسلامية التي يُسميها العربية يرجع الفضل في رُقيّها إلى النصارى العرب، ومن أقواله في ذلك في كتابه دراسة في حضارة الإسلام: (ليس يخفى أن نصارى سوريا والموصل والعراق كانوا قد بلغوا شأواً كبيراً وبعيداً من التمدّن والرقيّ بسبب مركزهم الجغرافي واحتكامهم بالروم، ومعرفتهم اللغات اليونانية واللاتينية بينما كان العرب قبل الإسلام في أحط دركات الجهل)، كما أن له تصورات مسيئة للإسلام ومشاعره المقدسة والطعن في القرآن الكريم.

انظر: الاستشراق السياسي، ص ٦٢، ٦٣، مصطفى نصر المسلاتي، موسوعة المستشرقين، ص ١٧٤، ١٧٥، د. عبد الرحمن بدوي، المستشرقون، ٢/ ١٢٩ - ١٣١، نجيب العقيقي.

(1) وكذلك الحال بالاستشراق اليهودي. فهو أخبث وأمكر وأحقد على الأمة الإسلامية ودينها، وعلى رأس مستشرقيهم: المستشرق اليهودي جولد زيهر (١٨٥٠ - ١٩٢١م). والاستشراق الإلحادي كذلك فيه من الخبث والحقد على الدين الإسلامي والأمة الإسلامية الشيء الكبير، وعلى رأسهم المستشرق الملحد الفرنسي غوستاف

(إن العقيدة تكمن في هذا الجانب، فالمستشرقون إذا درسوا قضية لا علاقة لها بالإسلام والمسلمين نجدهم ذوي منهج علمي وذوي التزام بالموضوعية والحيدة في الإطار الذي تسمح به القدرة البشرية، أما حين الاقتراب من الدائرة الإسلامية عقيدةً أو تطبيقاً فإنّ مؤثرات مختلفة تتدافع لتنحرف بالمنهج الاستشراقي وتدفع به إلى دوائر اللامنهجية واللاموضوعية)[1].

وقد أثبت كثير من العلماء الغربيين أنفسِهم ولا سيما من المهتدين إلى الإسلام تعصب المستشرقين وعداوتهم الشديدة للإسلام، مما ينفي عنهم صفة الموضوعية والأمانة العلمية، ويجردهم من أهلية البحث العلمي النزيه في مجال الدراسات الإسلامية[2].

فهذا المفكر الغربي المهتدي محمد أسد أكد في كتابه: (الإسلام على مفترق الطرق) أن المستشرقين في الحقيقة لا يقومون بدراسة الإسلام بل بمحاكمته، وليست نتيجة هذه المحاكمة سوى صورة مشوهة للإسلام وللأمور الإسلامية، تواجهنا في جميع ما كتبه مستشرقو أوروبا، وليس ذلك قاصراً على بلد دون آخر، إنك تجده في إنجلترا، وألمانيا، في روسيا، وفرنسا، وفي إيطاليا، وهولندا، وبكلمة واحدة: في كل صقع يتجه المستشرقون فيه بأبصارهم نحو الإسلام[3].

والمسلمون لا يطلبون من كل مستشرق أن يُغيّر معتقده، ويعتقد ما يعتقدون عندما يكتب عن الإسلام، ولكن هناك أوليات بديهية يتطلبها المنهج العلمي السليم. فعندما يرفض المستشرقون وجهة نظر معينة لا بد أن يُبيّنوا أولاً وجهة النظر هذه من خلال فهم أصحابها لها، ثم لهم بعد ذلك أن يخالفوها، فالمستشرقون يعلمون أن المسلمين يقوم دينهم على أساس الإيمان بالله وأنه

لوبون، صاحب كتاب (حضارة العرب).

(١) الاستشراق، أهدافه ووسائله، ص ٨، د. محمد فتح الله الزيادي.

(٢) رؤية إسلامية للاستشراق، ص ١٧٢، أحمد غراب.

(٣) الإسلام على مفترق الطرق، ص ٥٢ - ٥٤، محمد أسد، ترجمة: عمر فروخ.
وكذلك في أمريكا، فهي في زماننا هذا حاملة لواء التهجم على الإسلام والمسلمين، ففيها أكبر المراكز الاستشراقية للطعن في الإسلام، ومنها أقسام الدراسات الإسلامية في جامعاتها خاصة في جامعتي برنستون، وهارفارد اللتين حصلتا على إعانات مادية من بعض الأوساط العربية المسلمة مع الأسف الشديد. انظر: ص ١٧٣، أحمد غراب.

واحد أحد لا شريك له، وأن محمداً رسول من عنده سبحانه، وأن القرآن وحي من الله أوحى به إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلّم، وغيرها من الأساسيات. فيجب عليهم أولاً إن كانوا يدّعون العلم النزيه والبحث المحايد أن يصوروا الإسلام من منظور أتباعه من المسلمين بكل أمانة وصدق، ثم لهم بعد ذلك أن يخالفوا المسلمين في معتقداتهم وتصوراتهم، حتى يكون القارئ لبحوثهم ودراساتهم على علم بكلا الأمرين والاعتقادين، أما أن يتكلموا عن الإسلام بادئ ذي بدء من خلال تصوراتهم واعتقاداتهم هم، ويوهموا القارئ أن هذا هو التصور الصحيح الذي يجب عليه أن يتصوره عن الدين الإسلامي، فهذا افتراء، وتزوير، ولا يقره علم ولا خلق[1].

فأغلب اتجاه الدراسات الاستشراقية للإسلام، وتعاليمه، وحضارته إلى التشكيك، والإنكار، والتخبط في التحليل، والتفسير الغريب، والتأويل الذاتي، واعتماد القوالب الجاهزة، واللجوء إلى شتى النظريات، وعرض المفاهيم بتوجيه إيديولوجي أو سياسي مبيت[2].

هذا كله يجعل من الجزم بأن الدافع العلمي النزيه للدراسات الاستشراقية للإسلام وتعاليمه وحضارته؛ دافع ثانوي ضعيف آحادي غير مؤثر في سير الدراسات الاستشراقية العام جزماً صحيحاً، ثمّ إن أغلب من يقوم بمثل هذه الدراسات العلمية النزيهة يعتنق الإسلام ويؤمن بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلّم نبياً ورسولاً.

أما إذا كان المقصود أن هناك بحوثاً علمية قوية مثل إخراج مخطوطات نادرة وتحقيقها، وعمل فهرسات مفيدة، وتكوين معاجم ميسرة للبحث والتخريج، فهذا لا يشك فيه أحد من المُطّلعين، ولكن القول بخلوها من الأغراض الدينية والسياسية الاستعمارية غير صحيح، وهو ضرب من المحال، ولا يقوله مُطّلع على حقيقة أعمال أولئك القوم وأهدافهم.

---

(١) الإسلام والاستشراق، ص ٨٩، د. محمود حمدي زقزوق، من ضمن بحوث كتاب: الإسلام والمستشرقون، بعناية مجمع دار المصنفين في الهند.

(٢) منهج البحث في الإسلاميات لدى المستشرقين وعلماء الغرب، ص ٦٣، محمد البشير مغلي.

منافذ الفكر الاستشراقي إلى العالم الإسلامي:

لقد استطاع المستشرقون بمعاونة الحكومات المحتلة (الاستعمارية) وعملائهم من أبناء الأمة الإسلامية أن يجدوا وسائل ومنافذ استطاعوا من خلالها أن ينقلوا إلى أبناء المسلمين أفكارهم المنحرفة وأطروحاتهم المشبوهة، ومن هذه المنافذ:

١) التدريس في جامعات البلدان الإسلامية:

فقد استطاع بعض المستشرقين الوصول إلى عقول أبناء المسلمين عن طريق تدريسهم في جامعات بلدانهم الإسلامية، بل إن بعض الجامعات في البلدان الإسلامية ما تشكلت نواتها إلاّ على جهود بعض المستشرقين الغربيين، وهذا ما جعل عقول أبناء المسلمين سهلة المنال لأولئك المستشرقين الكفار يَعبثون بها كيفما يشاؤون، ومما ساعدهم في التمكين من عبثهم بعقول كثير من أبناء المسلمين؛ انبهار المحيط الإسلامي بشكل عام بما يملكه الغرب النصراني من تقدم تكنولوجي صناعي وحضاري يفوق إمكانياتهم الحاضرة والمستقبلية.

ومن أولئك المستشرقين الكاثوليك الذين تمكنوا من التدريس في جامعات البلدان الإسلامية، أذكر على سبيل المثال في مصر: جويدي الأب[1]، وجويدي الابن[2] ونلينو[3]، وهم إيطاليون، والفرنسي كازانوفا[4]، وغيرهم.

---

(١) اجنتيسو جويدي (١٨٤٤ - ١٩٣٥م) (جويدي الكبير):
ولد في مدينة روما في ٣١ يوليو عام ١٨٤٤م من أسرة مشهورة في إيطاليا، منهم العلماء، وأرباب المهن الحرة، ورجال في الكنيسة الكاثوليكية، كان في وقته من أبرز علماء اللغات السامية في العالم الغربي أجمع، وكان يتقن اللغة العربية إتقاناً تاماً، وفي عام ١٨٦٩م زار مالطة ومصر وفلسطين ودمشق واستانبول، كلف بالتدريس في جامعة روما، ثم في عام ١٨٨٥م عُيّن أستاذاً ذا كرسي في الجامعة نفسها، ودُعي في عامي ١٩٠٨ - ١٩٠٩م ليكون أستاذاً في الجامعة المصرية القديمة، حيث ألقى دروساً في الأدب العربي، وفقه اللغات العربية الجنوبية، وكان من أبرز تلاميذه طه حسين، كما أنه اهتم بنشر بعض كتب الأدب، خاصة تلك الكتب الماجنة مثل كتاب (الأغاني) للأصبهاني. انظر: موسوعة المستشرقين، ص٢١٢، د. عبد الرحمن بدوي، المستشرقون، ١/ ٤٢٥، نجيب العقيقي.

(٢) ميكلنجلو بن اجنتيسو جويدي (١٨٨٦ - ١٩٤٠م): ولد في مدينة روما في ١٩ مارس عام ١٨٨٦م، برز في التاريخ الديني، أتقن العربية والقبطية، في عام ١٩١٤م استدعي للخدمة العسكرية في الجيش الإيطالي إبّان الحرب الأولى، وفي عام ١٩١٧م حصل على إجازة التأهيل للتدريس من جامعة روما في فقه اللغات السامية، وفي ١٩١٩م كُلف بتدريس اللغة العربية، والأدب العربي في جامعة روما، وفي الوقت نفسه قام بتدريس اللغة القبطية في الجامعة البابوية، وصار أستاذ كرسي في جامعة روما عام ١٩٢٥م، ثم دعته الجامعة المصرية للتدريس فيها لمدة ثلاث سنوات من ١٩٢٦م إلى ١٩٢٩م، كان من أصدقائه المقربين الدكتور طه حسين، اهتم ميكلنجلو جويدي بدراسة التيارات والآراء الشاذة والمنحرفة في الدين الإسلامي التي تدّعي نسبتها إلى الإسلام وإبرازها. انظر: موسوعة المستشرقين، ص ٢١٨، د. عبد الرحمن بدوي، المستشرقون، ١/ ٤٤١، نجيب العقيقي.

(٣) كارلو الفونسو نلّينو (١٨٧٢ - ١٩٣٨م): ولد في ١٦ فبراير عام ١٨٧٢م في مدينة تورينو، بدأ بتعلم العربية قبل أن يدخل الجامعة وأتقنها في جامعة تورينو على يد المستشرق إيتالوبتسي كان يميل كثيراً إلى دراسة الجغرافيا، أخرج كتاب: قياس الجغرافيين العرب لخطوط الزوال، وهو لم يبلغ الثامنة عشرة من عمره، ثم اهتم بدراسة القبائل العربية قبل الإسلام، واهتم كذلك بدراسة الفرق المتسبة للإسلام كالقدرية والمعتزلة، وألف في موضوع جمع القرآن وترتيب السور، استدعي إلى التدريس في الجامعة المصرية في عام ١٩٠٩م، وكان لتدريسه أكبر الأثر في تكوين كبار الأدباء في مصر، أمثال طه حسين، اهتم في الجزء الأخير من حياته منذ عام ١٩٣٧م بالمملكة العربية السعودية ورحل إليها ومكث في جدة زمناً، وكذلك الطائف. انظر: موسوعة المستشرقين، ص٥٨٣، د. بدوي، المستشرقون، ١/ ٤٣٢، العقيقي.

(٤) كازانوفا: مستشرق فرنسي توفي عام ١٩٢٦م، تعلم العربية وعلّمها في فرنسا. قدم مصر فانتدبته الجامعة المصرية أستاذاً لفقه اللغة العربية، له مؤلفات كثيرة، منها: محمد وانتهاء العالم في عقيدة الإسلام، عام ١٩١٠م، وعقيدة الفاطميين السريّة في مصر عام ١٩٢١م، وعلم الفلك في رسائل إخوان الصفا، في عام ١٩١٥م. انظر: المستشرقون، ١/ ٢١٩، نجيب العقيقي.

وفي الجزائر: بلتيه[1]، وهوداس[2]، ورينه باسه[3]، وهناك قائمة طويلة جداً تجمع اختلاف توجهات المستشرقين النصارى من كاثوليك، وبروتستانت، ومستشرقين يهود، وملاحدة... عملوا في جامعاتنا الإسلامية أساتذة وقياديين في مؤسساتنا العلمية، وكان لهم أثر كبير في وضع أجواء ثقافية منحرفة، وتربية جيل جديد تشبع بتيار الثقافة الغربي، تمكّن من عقولهم وأذهانهم أطروحات أساتذتهم المستشرقين المشبوهة والماكرة، فنشروها هم بدورهم بين أوساط المسلمين عامة، وحسبنا الله ونعم الوكيل[4].

يقول الأستاذ نذير حمدان: (... ومهما قيل من ضعف الأثر الفكري والعقدي في شبان الجامعة بالنسبة إلى المراحل الثانوية فإن الالتزام بأفكار معينة، ومشبوهة، ومطروحة في أساليب مقنعة يلاحظ في أحيان كثيرة داخل الجامعة وخارجها.

والأستاذ الجامعي الذي اعتلى منبرها وهو معني بمهمة تشويهية للتراث، أو مهتم بتوهين القيم الفكرية الأصلية لا يصعب عليه النفوذ إلى ذهنية الشباب لأداء مهمته التي بعث أو استقدم من أجلها.

---

(١) بلتيه: مستشرق فرنسي درّس في الجامعة الجزائرية في كلية الحقوق، من كتبه: ترجَمَ من صحيح البخاري: الوصايا في عام ١٩٠٩م، وكتاب البيوع والسلم والخيار عام ١٩١٠م، وكتاب البيوع من موطأ الإمام مالك بن أنس عام ١٩١١م. المستشرقون، ١/ ٢٠٦، نجيب العقيقي.

(٢) هوداس: مستشرق فرنسي ولد عام ١٨٤٠م، وتوفي عام ١٩١٦م، اهتم بقضايا المغرب الأقصى، ثم عني بتاريخ السودان، وخلف في تاريخ هاتين المنطقتين أعمالاً، منها: تاريخ المغرب الحديث، وترجم كتاب تاريخ الفتّاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، تأليف محمود كاتي. انظر: موسوعة المستشرقين، ص ٦١٧، د. عبد الرحمن بدوي، الاستشراق، ص ٤٩، د. محمد الزيادي.

(٣) رينه باسه: مستشرق فرنسي ولد في مدينة لونيفيل عام ١٨٥٥م، وتوفي عام ١٩٢٤م، أُجيز بالآداب من جامعة نانسي عام ١٨٧٨م، وقصد باريس، وتخرج في مدرسة اللغات الشرقية، أسند إليه كرسي العربية في مدرسة الآداب العالية بالجزائر عام ١٨٨٥م، ورأس مؤتمر المستشرقين في الجزائر عام ١٩٠٥م، ولما تحوّلت تلك المدرسة إلى كلية عام ١٩٠٩م انتخب عميداً لها، من كتبه: الشعر العربي قبل الإسلام عام ١٨٨٠م، ورحلة علمية إلى تونس في جزأين عام ١٨٨٦م، وقصيدة البردة للبوصيري مع سيرة صاحبها عام ١٨٩٤م. انظر: المستشرقون، ١/ ٢١٦، نجيب العقيقي.

(٤) الاستشراق أهدافه ووسائله، ص ٥١، د. محمد فتح الله الزيادي.
وانظر: في موضوع تدريسهم في جامعاتنا، إلى كتاب (مستشرقون) ص ٧٩ - ١٣٥، نذير حمدان، فهو مهم في هذا الموضوع.

والمشكلة القائمة هي أن المستشرقين الذين يفترض فيهم أن يُقدِّموا معارفهم ودراساتهم الموضوعية ينحرفون عن الوجهة السليمة إلى تعليم الشبهات والافتراءات ضمن المعايير الأجنبية التي يكثر حولها النقاش والجدل.

ومهما اشتد تأثير المستشرقين الجامعيين أو خف فإن فئة من تلامذتهم تحرص على إكمال وجهتهم والمضي في خطتهم...

وإذا نجت بلدان عربية من غزو المستشرقين الفكري بشكل مباشر وحيّ فإن تلامذتهم ومؤلفاتهم كفيلة أن تؤدي الدور المطلوب وتحقق الأغراض الاستشراقية وبأشكالها غير المباشرة)[1].

ثم إن هؤلاء المستشرقين لم يُستقدموا إلى جامعاتنا في بلداننا الإسلامية لتدريس العلوم، والطب، والرياضيات، التي كان الغرب متفوقاً فيها، وإنما كانوا يُدرِّسون علومنا، وما له صلة بعقيدتنا الإسلامية، وشريعتنا، ولغتنا العربية، وتاريخنا، ومسائل في الحقوق، والمرأة بأساليب استشراقية مغرضة[2]، وهو ما يبين وبوضوح الأهداف المخطط لها مسبقاً باستقدام أولئك المستشرقين للمكر بالأمة الإسلامية متمثلاً بغزو عقول أبنائها بأفكار منحرفة وأطروحات مشبوهة ضد دينهم الإسلامي وتعاليمه وما يمت له بصلة من لغة وتاريخ حتى يكونوا لقمة سائغة للمنصّرين، ويكون أولئك المستشرقون حجر عثرة في فهم الإسلام فهماً صحيحاً.

٢) من خلال التعليم العام (وزارات المعارف والتربية والتعليم) في البلدان الإسلامية:

فقد استطاع المستشرقون أن يَصِلوا بأفكارهم المنحرفة إلى عقول أبناء المسلمين منذ الصّغر في بعض البلدان الإسلامية وذلك بقوة المستعمر (المستخرب)، ولكن بقدر مُعيّن، وكميات مدروسة، حتى لا يُثيروا عليهم حفيظة الآباء المسلمين.

وأنا لا أقصد بهذه المدارس، المدارس التنصيرية للبعثات النصرانية، وإنما أقصد المدارس

(١) مستشرقون، ص ١٢٧، نذير حمدان.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢٨، نذير حمدان.

الإسلامية التي وضعت في تصرفات بعض المستشرقين للعبث من خلالها بمناهج التربية والتعليم الموجهة لأبناء المسلمين من الطبقات جميعها في المراحل السنية التي هي دون المرحلة الجامعية، فهذه مصيبة عظمى أنزلها المستعمرون (المستخربون) على الأمة الإسلامية لتشويه الدين الإسلامي، وتعاليمه في نفوس أبنائه (الجيل الجديد للأمة الإسلامية)، قادة المستقبل الإسلامي فكرياً وسياسياً واجتماعياً.

يقول المستشرق ليوتي في تقريره إلى وزارة الخارجية الفرنسية إبّان احتلالها للمغرب: (أما التعليم فعن طريقه يمكن أن يتمّ فيه العملُ الأكثر عمقاً والأشد أثراً في تطوّر الفكر المغربي الجديد، وإن في هذا الميدان لشغلاً كبيراً يلزم الاعتناء به جداً، فبالمدارس وحدها يمكننا أن نُهيئ النخبة المتأهلة للمشاركة معنا)[1].

وها هي إيطاليا في وقت احتلالها لليبيا اهتمت اهتماماً بالغاً بوضع الخطط التعليمية والتربوية لأبناء المسلمين في ليبيا، وقد صدرت قرارات في هذا الشأن موقّعة باسم وزير المستعمرات (موسو ليني)، ومن ضمن هذه القرارات: وجوب تأسيس مدرسة إسلامية عليا في طرابلس لدراسة العلوم الفقهية، والدينية الإسلامية، والمعارف اللازمة لإعداد معلمي المدارس الابتدائية في ليبيا، ومنها أيضاً: وجوب إعلام وزير المعارف الإيطالي بجميع قرارات مجلس الأساتذة، وسير الدراسة، ومما جاء في هذه القرارات: (ولكي نتمكن من تحويل المدرسة إلى أداة إيجابية فعّالة فلابد من ضرورة تكييفها بصورة تكون منسجمة مع الظروف الاقتصادية والاجتماعية للبلاد)[2].

---

(١) الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، ص ١٤٣، مصطفى نصر المسلاتي.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥٥، مصطفى نصر المسلاتي.
وفي مصر تسلم وزارة المعارف وهو الذي رسم سياسة التعليم فيها لتدريس أبناء المسلمين «القس الإنجليزي (دنلوب)، وحين يكون قسيس نصراني على رأس السلطة في وزارة التربية والتعليم في بلد إسلامي كبير، ومؤثر على غيره من البلدان الإسلامية؛ فما الذي يتوقع أن يكون في أمر التعليم وأمر تربية الناشئة المسلمين؟! انظر: واقعنا المعاصر، ص٢١٧، الأستاذ: محمد قطب، الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ص ٦٩، د. عبد الستار فتح الله سعيد.

وقد تمكن الأثر السيئ للمستشرقين في نفوس أبناء المسلمين عن طريق مناهج الوزارات التعليمية والتربوية عندما أمسك زمامها في البلدان الإسلامية تلامذة أولئك المستشرقين من أبناء الوطن، فحاربوا عقيدتهم الإسلامية، وضيّعوا أبناءهم بسلاح أعدائهم الكفار، ولا حول ولا قوة إلاً بالله العليّ العظيم.

٣) عن طريق تأليف الكتب والموسوعات العلمية وإصدار المجلات:

فقد اهتم المستشرقون بمسألة التأليف، وإصدار المجلات الموجّهة للعالم الإسلامي اهتماماً بالغاً، وقد شغلت هذه المسألة أكبر نشاطات المستشرقين، حيث من خلال هذا الطريق قد بثوا سمومهم وأطروحاتهم المشبوهة، وقد ساعدهم في ذلك أمور، منها:

- وجود زخم كبير من المخطوطات الإسلامية التي سُرقت من البلدان الإسلامية عن طريق الحكومات الغربية الاستعمارية، فأتاح لهم هذا النهب وهذه السرقة للثروات العلمية والفكرية لعلماء المسلمين الأقدمين؛ الاطلاع علىٰ تفصيل مسائل علمية وتحقيقها، ما لم يتح لعلماء المسلمين في تلك الأوقات للاطلاع عليه، وهو ما جعل لكتب المستشرقين الانتشار في البلدان الإسلامية علىٰ ما فيها من تزوير وتحريف وشبهات.

- تقدم الطباعة عندهم؛ فيسر لهم هذا الإنتاج المتسارع في تأليف الكتب ونشرها في البلدان الإسلامية، والتي كانت خاضعة لقوة الاحتلال النصراني.

- تدريس بعض المستشرقين في جامعات البلدان الإسلامية؛ وهو ما جعل المقررات المشبوهة والمحرَّفة واجبة الاقتناء للطالب المسلم في الجامعة، ومفروض عليه قراءتها ومذاكرتها، وكم من الطلبة المسلمين يستطيعون أن يدفعوا التأثير الحاصل من جرّاء حِفظ هذه الكتب المغلوطة والمشبوهة عن أنفسهم؟!.

بل أصبحت كتب المستشرقين الماكرة والمشبوهة في بدايات تكوين الجامعات في البلاد

الإسلامية كتباً معتمدة ومقررة رسمياً من إدارتها[1]، وكان يُخيّل إلى بعض أهل الفكر و أصحاب الشهادات من المسلمين أنها مما ينفرد في موضوعه، ويعد مصدراً علمياً له أهميته وقيمته، وعليه أكبر اعتماد المؤلفين في قسم الدراسات الإسلامية في بعض جامعاتنا الإسلامية فمثلاً (دائرة المعارف الإسلامية) التي ألّفها أمكر المستشرقين وإن كان فيها لبعض المسلمين إسهام ضئيل تعد وللأسف في بعض البلدان الإسلامية والدوائر التعليمية أكبر مصدر للمعلومات والحقائق الإسلامية، وأثمن ذخيرة لها، وأساساً للمعلومات الإسلامية؛ لذلك تقوم بعض البلاد الإسلامية بترجمتها إلى لغاتها بنصها وفصّها[2]. والله المستعان.

كما أنهم استغلوا طريق الصحافة والإعلام في نشر أفكارهم الخبيثة، فعن طريق المجلات الخاصة بنشر بحوثهم عن الإسلام، وما يتعلق به وببلدانه وشعوبه، واستطاعوا أن يصلوا إلى صحافتنا المحلية بل إن أوّلها إصداراً كان بجهودهم ونشاطهم فكتبوا العديد من المقالات المشبوهة وعرضوا أفكارهم الماكرة على القراء المسلمين باختلاف طبقاتهم ومستوياتهم الفكرية والتعليمية[3].

---

(١) فمثلاً: كتاب (ر.ا. نكلسن) في موضوع تاريخ آداب العرب، وكتاب الدكتور (فيليب حتى) عن تاريخ العرب والإسلام، وكتاب (كارل بروكلمان) في تاريخ الآداب العربية، وكتاب (جولد تسهير) في العقيدة والشريعة الإسلامية، وكتابه دراسات إسلامية، وكتاب (شاخت) في مصادر الفقه الإسلامي، وكتاب (و.س اسمث) في الإسلام المعاصر واتجاهاته وحركاته، وكتاب وجهة الإسلام، وكتب (مونتجمري وات) في السيرة النبوية، ومحمد في مكة، ومحمد في المدينة....

(٢) مقالات وبحوث حول الاستشراق والمستشرقين، ص ٣٢، لأبي الحسن علي الحسيني الندوي.

(٣) الاستشراق والتربية، ص ٥٤، د. هاني محمد يونس بركات.



المبحث الثاني: التغريب

التغريب هو الدعامة الثانية، والركن الثاني من ركني الغزو الفكري الموجه إلى الأمة الإسلامية.

التغريب: انقلاب فكري، وتربوي، وتحول اجتماعي، وخنوع نفسي لبعض المسلمين مخالف لما جاءت به الشريعة الإسلامية، خطط له الاستشراق بأطروحاته المشبوهة، وأعماله الماكرة، وحماه الاستعمار (الاستخراب) الصليبي، بنفوذه، وسيطرته على الأراضي الإسلامية.

فالتغريب: نقل للحضارة الغربية بسلوكيّاتها وأفكارها إلى العالم الإسلامي لتنافس الحضارة الإسلامية، عقيدةً، وشريعةً، وسلوكاً في قلوب المسلمين وعقولهم، بل لكي تحلّ محلّها عند بعضهم، وذلك بأيدٍ إسلامية أو كان بعضها إسلامياً متربية على المنهج الغربي النصراني المنحل والمخالف للدين الإسلامي.

فالغرب النصراني استخدم بعض أبناء المسلمين من الذين تلوّثت عقولهم وأفئدتهم بالفكر والمنهج الغربي لجرّ أبناء دينهم ووطنهم من المسلمين إلى ما يمليه عليه الغرب النصراني، وتربى عليه عندهم من فكر وسلوك ومنهج حياة مخالف لما جاء به الإسلام، وقرره القرآن الكريم والسنة المطهرة وأجمع عليه سلف الأمة الكرام.

(إن مفهوم مصطلح التغريب في عشرات من تعاريفه، إنما يعني: خلق عقلية جديدة تعتمد على تصورات الفكر الغربي ومقاييسه؛ لتحاكم الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي من خلالها بهدف سيادة الحضارة الغربية وتسييدها على حضارات الأمم، ولا سيما الحضارة الإسلامية)[1].

---

(١) التغريب أخطر التحديات في وجه الإسلام، ص ١٠، أنور الجندي.

فعمليات التغريب هذه هي أقسى ما واجهه الفكر الإسلامي في عصوره المختلفة؛ لأنه جاء في غيبة إرادته الحرة، وفي ظل إرادة الاستعمار (الاستخراب) المسيطرة التي عملت منذ أن بدأت سيطرتها على العالم الإسلامي على غزو العقل الإسلامي والنفس الإسلامية[1].

وقد ساعد على ظهور التغريب بين المسلمين أسباب من أبرزها سببان، وربما غيرها من الأسباب يدخل ضمناً فيها:

السبب الأول: ظهور التخلف العقدي، والذي ترتب عليه التخلف العلمي، والحضاري، والاقتصادي، والسياسي، والحربي في حياة الأمة الإسلامية في قرونها المتأخرة[2].

لقد وصلت أُمتنا الإسلامية إلى أعلى المراتب الحضارية من علم، وصلاح، ورقي، وتقدم، ثم لمّا انحرفت عن الطريق المستقيم الذي تعبدنا الله بسلوكه، وغيّرت المنهج القويم الذي جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلّم، واتبعت الأهواء وحكّمت العقول، وقدّمتها على نصوص الوحي، فجهلت أمور عقيدتها وقضايا شريعتها، رمى بها ذلك إلى أحط دركات التخلف والرجعية بين الأمم.

لقد قامت على يد الأمة الإسلامية حركة حضارية ضخمة، اعترف بفضلها كثير من الغربيين النصارى على النهضة الأوروبية، وليس هذا مجال حديث مفصل عن تلك الحضارة الإسلامية، وشمولها جوانب الحياة كلها: السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والعلمية، والفكرية، والفنية، والمادية، وعنايتها بألوان النشاط البشري، فمجال ذلك بحوث متخصصة في تلك المسألة.

لقد كانت الحضارة الإسلامية حضارة روحية، ومادية في الوقت ذاته، حضارة ملتزمة بما أنزل الله، تمارس نشاطها الإنساني في الاتجاهات كافة دون أن تحتاج لتحقيق ذلك أن تكفر بالله، ولا

---

(١) شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي، ص ٣، أنور الجندي.

(٢) انظر في تفصيل هذا السبب وبيان كيفية ظهوره، إلى: واقعنا المعاصر، ص ١٦٥ - ١٨٦، للأستاذ محمد قطب، كما أن في بيان هذا السبب تكوّنت رسالة جامعية مستقلة بقلم الدكتور: علي بن بخيت الزهراني، أسماها: الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، وآثارها في حياة الأمة. من قسم العقيدة، جامعة أم القرى.

أن تنبذ أخلاقها وتقاليدها، ولا تُحوّل جزءاً من حياتها إلى آلية رتيبة، وجزءاً آخر إلى مجون حيواني صاخب خليع، كما تصنع الجاهلية المعاصرة بحجة التحضر والتقدم والرُّقي[1]، كانت عزيزة بإسلامها ولا تبتغي العزة في غيره، كما تمثل هذا المعنى في قول الفاروق عمر رضي الله عنه: (أعزنا الله بالإسلام وإذ ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله)[2]، كانت مستعلية بإيمانها مصداقاً لقوله تعالى: (ولاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ)[3].

ومن هذه القمة الشامخة التي وصلت إليها أمة الإسلام في أوج حضارتها وازدهارها؛ بدأ التحول والانحراف يظهر في الأمة رويداً رويداً، حتى وصلت في القرون الأخيرة إلى الحضيض[4]، (مسافة هائلة تبعث على الذهول، كيف تأتى للأمة التي ارتفعت إلى تلك القمم السامقة التي لم تسبقها إليها أمة في التاريخ، ولا أدركتها بعدها أمة في التاريخ؛ أن تتدنى إلى هذا الدرك من الضياع، والذل، والهوان، والهبوط المسف الذي وصلت إليه اليوم)[5]، ولكنّها سنة الله، فإذا اتبع الناس أهواءهم، وحكّموا عقولهم، وغيّروا ما بأنفسهم؛ غيّر الله ما بهم، فمِن عِز إلى ذُلٍّ ومِن عِلم إلى جَهلٍ، ومِن تَقدّم إلى تَأخُّرٍ، وما كان التخلف والانحطاط في الأمة إلاَّ بسبب ما وقعت فيه من انحرافات كبيرة، من أخطرها ما كان في قضايا العقيدة، ومن ذلك إهمال الأمة لمعاني توحيد الألوهية وهو ما ترتب عليه شيوع الشرك وانتشاره في كثير من بلاد الإسلام، والانحراف في مفهوم القضاء والقدر ففُهم أن معناه الاستسلام للواقع، حيث هو نتيجة تقدير الله السابق وقضائه النافذ، فلا يجوز تغييره، فأدى بهم هذا الفهم إلى نتائج سيئة، فترك الجد في العمل، وتركت محاولات تغيير الواقع السيء، وكان السكوت عن المنكر بحجة أن هذا قضاء الله وقدره، وعلى أثر ذلك ظهرت البطالة

---

(١) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، ص ١٧٣، الأستاذ: محمد قطب.

(٢) البداية والنهاية، ٧/ ٦١، للحافظ ابن كثير.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٣٩.

(٤) الاتجاه العقلاني لدى المفكرين الإسلاميين المعاصرين، عرض ونقد، ١/ ١٢٣، د. سعيد بن عيضة الزهراني.

(٥) واقعنا المعاصر، ص ١١٣، الأستاذ: محمد قطب.

وانتشر الفساد، وقويت الصوفية فروّجت لمفاهيم مغلوطة، ومنها أن الأخذ بالأسباب للوصول إلى نتائجها ينافي التوكل على الله، وساعد هذا الفهم الخاطئ على مزيد من الانحطاط والتخلف الذي تعانيه الأمة بسبب تعطيل العمل، وغيرها من الانحرافات في أمور العقيدة.

ومن الانحرافات أيضاً في المجالات العلمية: إبعاد العلوم الدنيوية؛ من طب، وفلك وصناعة، وتجارة، ونحوها من المعاهد العلمية بعد أن كانت تُدرَّس إلى جانب العلوم الشرعية...، وغيرها من الانحرافات في مجالات الحياة المختلفة[1].

كان العالم الإسلامي في تلك الأوقات من شرقه إلى غربه مصاباً بالجرب العلمي، وشبه شلل فكري، قد أخذه الإعياء والفتور، واستولى عليه النعاس، فترى هذا الخمود عاماً شاملاً للعلوم الدينية، والفنون الأدبية، والمعاني الشعرية، والإنشاء، والتاريخ، ومناهج التعليم. فالمسلمون وللأسف لم يُضيّعوا ساعات وأياماً، بل ضيعوا أحقاباً وأجيالاً، انتهزت فيها الشعوب الأوروبية النصرانية كل دقيقة وثانية، وسارت سيراً حثيثاً في كل ميدان من ميادين الحياة، وقطعت في أعوام مسافة قرون[2].

السبب الثاني: الانبهار بحضارة الغرب، وهو ما أدى إلى الأخذ عنها بلا تمييز:

وهذا الانبهار بحضارة الغرب النصراني حدث للمسلمين بوصفه ردة فعل بسبب ما وجدوه من تقدم غربي نصراني كبير علمياً وحضارياً، وهم متخلفون عنهم في ذلك مع وجود جهل عام

---

(١) الاتجاه العقلاني لدى المفكرين الإسلاميين المعاصرين، ١/ ١٢٥، ١٢٦، د. سعيد بن عيضة الزهراني، وراجع كتاب (الانحرافات العقدية والعلمية) د. علي بن بخيت الزهراني ففيه الموضوع بتوسع.

ومن القصص المحزنة في الانحرافات العلمية: ما حدث في المدينة المنورة أن الشيخ حسن بن حسين الأسكوبي أقام على سطح منزله مرصداً فلكياً، جلبه من أوروبا فثار عليه علماء المدينة، ونظم أحدهم (عبد الجليل برادة) رجزاً فيه، أوله:

ما قولكم في شيخنا الأسكوبي	يبيت طول الليل في الراقوب
يرقب منه الفلك الدّوارا	مشابهاً في فعله النصارى

وهاجموا بيته فأنزلوا ما على سطحه من مناظير وإصطرلابات وزوايا، فاعتزل الناس ومرض حتى توفي عام ١٣٠٣م. انظر: الانحرافات العقدية والعلمية، ص ٧٨٦، د. الزهراني.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ ص ١٦٥، ١٦٧، أبو الحسن علي الحسيني الندوي.

بين المسلمين في مسلمات أمور العقيدة الإسلامية؛ وهو ما جعل هذا الانبهار يتقدم أثره إلى أن يصير هزيمة نفسية وإعجاباً أعمى بكل ما عند الغرب النصراني من أمور. حتى لقد دعى أحد أبناء المسلمين، وهو الدكتور طه حسين، إلى تناول الحضارة الغربية بقضّها وقضيضها، حلوها ومرها[1]، وذهب آخر، وهو الشيخ الأزهري (الفرنسي) رفاعة رافع الطهطاوي، إلى أنه لا بد أن تتوثّق العلاقات بين المسلمين وبين الدول الغربية النصرانية وعدّ ذلك شرطاً لتحقيق التمدن المنشود[2].

وهذه المناداة بالتقليد والتبعية حولت شعور كثير من المسلمين من العداوة إلى الشعور بالمحبة، والصداقة، والارتياح، والرضا، بل إلى ما هو أكثر من ذلك بالانبهار بالغرب النصراني والشعور بأن أبناءه أصبحوا هم السادة والقادة والروّاد، وتلك هي الطامة الحقيقية، فماذا يريد العدو من عدوه أكثر من أن يشعر هو بمحض إرادته وبكامل قواه العقلية بعلو قدر عدوه، وعِظم شأنه، وكونه الأجدر بالريادة، والأحق بالسيادة[3]؟!

ولا شك في أنّ هذا الانبهار والإعجاب بحضارة الغرب النصراني، الذي يطول الحديث عنه؛ لَيدل دلالة واضحة على الجهل بالدين، الذي جعل الله العزة والرفعة لأهله كما في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[4]. وقد أمر الله عز وجل ببذل الأسباب للوصول إلى الحياة الكريمة، كما أمر بإعداد القوة لتبقى الرفعة والهيبة لأهل هذا الدين، وتكون

---

(١) مستقبل الثقافة في مصر، ص ٤٦، الدكتور طه حسين.

(٢) جذور الانحراف في الفكر الإسلامي المعاصر، ص ١٤، جمال سلطان.
وطلب الخضوع للغرب النصراني انتشر بين كثير من أبناء المسلمين الذين درسوا في جامعات الغرب النصراني ومعاهده في القرن العشرين، حتى لا نستطيع أن تستثني دولة إسلامية نجت من هذه المطالبات الماكرة، وهذه المناداة والمطالبات أوقعت علماء الأمة الصادقين ورجالها المخلصين في ضيق وحرج مع حكوماتهم وبعض أبناء شعوبهم المستغفلين.

(٣) المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية، ص ٦، عبد الله بن حمد الشبانة.

(٤) سورة آل عمران، الآية ١٣٩.

الذلة والهوان لمن حاد عنه أو عاداه، قال تعالى: (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ)[1].

وقد كان هذا الانبهار بالغرب وحضارته بين عموم المسلمين سبباً في تجرؤ أصحاب المنهج التغريبي بإبراز ما عندهم من آراء وأفكار تدعو إلى تغيير المجتمع المسلم بالاقتداء بالغرب النصراني وحضارته الفكرية والمادية، وأن يتجاهلوا الإسلام بالكلية في أطروحاتهم وآرائهم[2].

وقد كان للغرب النصراني أهداف من عملية التغريب هذه، وتسخير فئة من الضّالين أو المُضلِّلين من أبناء المسلمين للهجوم على عقيدة أتباع دينهم الإسلامي وأبناء وطنهم من المسلمين وأفكارهم ومنهجهم بسلاح عدوهم الغربي النصراني، وهذه الأهداف هي:

١. حراسة مصالح الدول الغربية النصرانية المستعمِرة (المستخربة)، ويكمن ذلك في تقريب الهوة التي تفصل بينها وبين المسلمين، نتيجة لاختلاف القيم، ونتيجة للمرارة التي يحسها المسلم إزاء المحتلين لبلاده ممن يفرض عليه دينه جهادهم.

٢. إضعاف الرابطة الدينية التي تجمع المسلمين، والعمل على تفريق جماعتهم، والتي تلتقي على وحدة القيم الفكرية والثقافية[3].

٣. التمكين للعمليات التنصيرية في بلاد المسلمين، وفتح المجالات لها بين أبناء الأمة الإسلامية.

ولتحقيق هذه الأهداف فقد نشأ عند مخططي الاستعمار من المستشرقين والمنصّرين، وساسة الغرب النصراني، قاعدة تدعو إلى الاعتماد على الصداقة من أبناء المسلمين بدلاً بالاعتماد على الجيوش في أغلب الحالات، وإيصال أصدقائهم هؤلاء أو بالأحرى التابعين لهم المنفّذين لأوامرهم إلى مراكز قيادية في بلدانهم الإسلامية، وتمرير مشاريع إصلاحية حضارية عمرانية عن

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٦٠.

(٢) الاتجاه العقلاني لدى المفكرين الإسلاميين المعاصرين، ١/ ١٣٥، ١٣٩، د. سعيد بن عيضة الزهراني.

(٣) الإسلام والحضارة الغربية، ص ٤٥، د. محمد محمد حسين.

طريقهم؛ لإقناع عامة الشعب من المسلمين بهم وتحسين صورتهم أمامهم، مع استبعاد أبناء هذا الشعب من الغيورين على دينهم الإسلامي وأمتهم، المعارضين لهذا الاحتلال الغربي النصراني، فوضعت أمامهم العراقيل وصدّ الناس عنهم بمختلف السبل، مع تسلط هذه الحكومات الغربية النصرانية على برامج التعليم وأجهزة الإعلام والثقافة إما مباشرةً أو عن طريق عملائهم من أبناء المسلمين، وتوجيه هذه البرامج للمناداة بتمجيد الحضارة الغربية، ونقل أفكارها وسلوكياتها إلى أبناء المسلمين مع تفسير الإسلام وشرائعه تفسيراً جديداً، يخدم أهداف هذا المستعمِر الغربي النصراني في بلاد المسلمين[1].

والمشكلة العظيمة التي تواجه علماء الشريعة الحقيقيين والغيورين في هذا العصر هي قيام بعض رجالات الحكومات في البلدان الإسلامية من الذين تربوا في الغرب النصراني أو تسلط عليهم الغرب النصراني بإبراز رجال من طينتهم، وعلى منهجهم، وتربيتهم، مِمَّن يتسمّون بمشائخ أو مفكرين إسلاميين يقومون بتفسير الإسلام وشرائعه على وفق هواهم المنحرف تفسيراً لم يكن معروفاً من قبل عند المسلمين.

وفي هذه التفسيرات الجديدة الخطر على الإسلام والمسلمين من وجهين:

الأول: أنّ فيه إفساداً للإسلام يُشوّشُ قيمه ومفاهيمه الأصلية بإدخال الزيف على الصحيح، ويُثبِّت الغريب الدخيل ويؤكده، فبعد أن كان الناس يعرفون أن هذه التفسيرات ليست من الإسلام، وهي أمور غُلبوا على أمرهم فيها؛ أصبحوا يرونها أنها هي الإسلام، وإذا جاءهم من

---

(١) أزمة العصر، ص ١٧٥، ١٧٦، د. محمد محمد حسين.

وهذا معلوم ومقروء في تاريخ العالم الإسلامي منذ بدأ الغرب النصراني يعمل على تطبيق هذه القاعدة بين المسلمين، ومن ذلك في فترة الحملة الفرنسية البونابرتية على مصر وسوريا في عام ١٧٩٨م، وتجلى أمر هذا المكر أكثر بعد الحرب العالمية الثانية ١٩٤٨م، وفي فترة الانسحابات العسكرية الغربية من أراضي المسلمين.

ولا يزال هذا المكر يُطبق على المسلمين إلى الآن، ونحن في بدايات القرن الحادي والعشرين، ولكن بحنكة أعلى ومقدرة فائقة؛ وذلك بسبب تراكم خبرات السنين في عقل الغرب النصراني، وعملائهم من أبناء المسلمين.

وينطبق على مكرهم وظلمهم هذا قول الشاعر حافظ إبراهيم:

لقد كان هذا الظلم فوضى فهذبت ... حواشيه حتى بات ظلماً منظماً

يَرُدّهم إلى الإسلام ومعانيه ومفاهيمه الصحيحة أنكروا عليه ما يقول، واتهموه بالجمود والتمسك بظاهر النصوص دون روحها.

الثاني: أنها تُؤدي إلى اختلاف المسلمين وتفرقهم؛ لأنه من يقوم بها إمّا عنده بعض العلم الشرعي، أو علماني مستغرب بالكامل، ويقوم بها على حسب ما يُملَى عليه، أو على حسب مصلحته القومية والوطنية، أو يعدها تفسيرات مرحلية تتغير حسب المصلحة وما يستجد من أمور، ومن أخطرها أن بعض هذه التفسيرات لمعاني الإسلام تكون خاضعة في بعض المجتمعات الإسلامية لمواريث تاريخية سابقة على الإسلام، والتي يحرص المشرفون على التغريب على إحيائها وخلق نوع من العصبية لها[1].

وقد كان يلزم المستعمر الغربي النصراني لتنفيذ هذه الخطة الخبيثة، ولهذا المكر الكبار؛ وسائل، من أخطرها:

- تربية جيل جديد من أبناء المسلمين في محاضن الغرب النصراني، في معاهده وجامعاته، يختارون له ما يشاؤون، ويُخرِجونه على ما يريدون من الناحية الفكرية والثقافية، دينية كانت، أو سياسية، أو اجتماعية، أو أدبية.

- تحريك العنصر النصراني في البلدان الإسلامية (الأقلية النصرانية)، وإبرازه في صورة الوطني، والقومي، والغيور، والصادق المصلح، والذي يعمل على رقي وطنه وتقدّمه، لا فرق عنده بين المسلمين والنصارى الكافرين، والعمل على إقناع عامة الشعب المسلم به وبدوره الحضاري والفكري للمصلحة القومية والوطنية.

فأما عن الوسيلة الأولى: تربية جيل جديد من أبناء المسلمين في محاضن الغرب النصراني؛ فلا أحد يُنكر فائدة الدراسة على يد أصحاب الصناعات والتكنولوجيا الحديثة والمتقدمة، والتعلم مما عندهم في فن الصنعة، وفي هذا التقدم المنشود والرُّقي المأمول لتلك الأمة التي بعثت بأبنائها إلى

---

(1) أزمة العصر، ص ١٧٧، ١٧٨، د. محمد محمود حسين.

أولئك القوم المتقدمين في تلك العلوم الحديثة، وهذا ما حدث، مثلاً لليابان (الوثني) عند ابتعاث أبنائه إلى الغرب النصراني لدراسة تلك العلوم الحديثة. ولكن للأسف عكس ذلك ما حدث لأبناء الأمة الإسلامية؛ وذلك بسبب التخطيط الماكر للغرب النصراني المستعمر، فجاءت هذه البعثات لأبناء الأمة الإسلامية بنتائج خيّبت آمال الشعب المسلم البريء، بل ضربته في أعز ما يملك، وهو عقيدته وتصوراته الإسلامية الصافية، فقد ابتعث أبناؤه إلى بلاد الغرب النصراني، ليس لدراسة علوم التكنولوجيا والصناعات الحديثة، بل لدراسة علوم فكرية، وفلسفية، وتاريخية، ولغوية، مُخطط لها من قبل لزرع البلبلة والتشكيك في نُفوس أولئك الطلبة المبتعثين، ومن ثم هم بدورهم ينقلون ما تعلّموه من انحرافات فكرية وشذوذ سلوكي في دراساتهم تلك إلى عامة شعوبهم المسلمة، وما ذلك إلاّ لإضعاف الإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة في عقول تلك الشعوب المسلمة المغلوبة على أمرها وقلوبهم، وهذا ما حدث تماماً.

فهذه البعثات التغريبية تعمل على (محاولة صنع (دائرة فكر) تهدم بناء المسلمين وتنقض فكرهم، وتشيع فيهم الشبهات والمثالب، ثم لا تدفعهم إلى أي جانب من جوانب البناء أو النهضة)[1].

فهؤلاء الطلاب المبتعثون يزدادون جهلاً بدينهم وقيمهم ومثلهم الإسلامية، كما أنه في المقابل يزدادون تعلقاً بقيم الغرب النصراني ومُثله، ويتطبعون بطباع غير إسلامية، ثم يصير التطبع مع الزمن طبعاً، فينسلخ الطالب من حيث يشعر أو لا يشعر من كل ما له علاقة بالإسلام حتى التقاليد في الملبس، والمأكل، والمشرب، وطريقة التعامل، وبهذه الطريقة تنسحب كتل شعبية إسلامية إلى الغرب النصراني.

ولقد بدأ هذا السبيل مبكراً، ربما ليسارعوا إلى تخريج الأساتذة الذين يجري (تفريخ) مبادئهم بعد ذلك في بلادهم بغير حاجة إلى ابتعاث الجدد، وبغير حاجة إلى جهد غير وطني، وبهذا يكون قد قبلت التأثيرات الغربية النصرانية في البلدان الإسلامية، إلى درجة تجعل من الصعب التحقق

(١) شبهات التغريب، ص ١٥، أنور الجندي.

من أن شخصاً قد ذهب أو لم يذهب إلى أوروبا أصلاً، فقد أصبح بعض المسلمين متغربين بدون أن يتكلفوا عبء الذهاب إلى أوروبا[١].

ثم لا ننس أن انقطاع الصلة بين المبعوث وبلده يساعد كثيراً على التحول من الولاء لبلده، ودينه، وأمته، إلى ولاء للمجتمع الجديد الغربي النصراني[٢].

قد كان للدول الكاثوليكية اليد الطولى في التأثير على المسلمين عن طريق هذه البعثات، بل هي التي علقت الجرس كما يُقال في هذه المسألة الخطيرة، والتي جنت من ورائها الأمة الإسلامية آثاراً نكلة ضد عقيدتها، وشريعتها، وآدابها، وتاريخها بفعل عودة أبنائها إليها، وأخذ زمام التغيير الماكر من أيدي أساتذتهم الغربيين النصارى الموجه ضد أمتهم الإسلامية وشعوبهم المسلمة التي وثقت بهم في بادئ الأمر، ورجت منهم خيراً.

فهذه مصر، مثلاً، بعثت بأبنائها إلى محاضن عدوتها الكاثوليكية فرنسا أو هكذا يظهر لنا أنها عدوتها. فقد عبث الفرنسيون بمصر أيّما عبث، وأتوا بفظائع مستنكرة، وولغوا في دماء الآمنين من المسلمين في مصر فكيف تعمد حكومة مصر بعد أن تخلصت ديارها من الاحتلال الفرنسي، إلى أن ترسل أبناءها إلى فرنسا الغازية؟!، وكانت أول بعثة في عام ١٨٢٦م، ثم تلتها بعثات أخرجت للأمة الإسلامية أُناساً حاربوا الدين الإسلامي وتمسك المسلمين به باسم التقدم والرقي والحضارة فغيروا مفاهيم، ووضعوا مفاهيم، وبدلوا، وحرفوا تحت رعاية ذلك النصراني الماكر.

فكان أول وزير لوزارة المعارف في مصر، هو أحد أفراد بعثة ١٨٢٦م، وهو مصطفى مختار المولود سنة ١٨٠٢م، والمتوفى سنة ١٨٣٩م، وقد عاد إلى بلاده سنة ١٨٣٢م، أي رحل إلى فرنسا وهو ابن أربع وعشرين سنة، وأقام هناك ست سنوات وهي الفترة التي يتم فيها تكوين شخصية المرء وثقافته، وكان في سن هي ذروة شُعلة الشباب.

(١) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، ص ٦٤، ٦٥، د. علي محمد جديشه، ومحمد شريف الزيبق.

(٢) الابتعاث ومخاطره، ص ٢٥، محمد الصباغ.

وقد كان المجلس الذي أشرف على التعليم أيام محمد علي من الغربيين النصارى، والأرمن، ومن المصريين الذين أتموا دراساتهم في فرنسا[1].

فلنتصور، بعد هذا كيف يكون تعليم أبناء المسلمين في بلادهم الإسلامية من البعد عن الخط الإسلامي عقيدة وشريعة ومنهاجاً والقرب من الخط الغربي النصراني.

ومن هؤلاء الذين خلفتهم هذه البعثات المفسدة، والتي أثرت في عقول أبناء المسلمين وقلوبهم بعد عودتها إلى ديارها الإسلامية: رفاعة رافع الطهطاوي، وقاسم أمين، وطه حسين، وغيرهم، ومن جاء بعدهم يتتبع آثارهم، بل إنّ في قلوب بعضهم حقداً أسود على الإسلام، يتحدّثون عن المسلمين في شماتة ظاهرة لا حياء فيها، ويتحدثون عن الإسلام كأنه العدو الأكبر الذي لا بد من إزالته من الأرض.

وكذلك طبقت فرنسا الكاثوليكية الخطط التعليمية نفسها من بعثات ماكرة على دول الشمال الإفريقي: المغرب وتونس والجزائر منذ عام ١٨٧١م،[2] وكذلك باقي الدول الإفريقية، فكان أول ما عملته هذه البعثات بعد رجوعها أن حاربت اللغة العربية، ورفضت أن تكون لغة رسمية في البلاد، ونادت بأن تحل محلّها اللغة الفرنسية فضلاً عن المطالبة بإبعاد الشريعة الإسلامية عن التطبيق في الحياة اليومية[3]، وكذلك ما عملته الدول الإيطالية عندما احتلت ليبيا من إرسال بعثات إلى روما[4].

---

(١) الابتعاث ومخاطره، ص ٣٢٣٠، محمد الصباغ.

(٢) الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، ص ١٢٣، مصطفى نصر المسلاتي.

(٣) تشاد والإسلام، ومعركة التحديات، ص ١١٠ - ١١٥، آدم كردي شمس.

(٤) الاستشراق السياسي، ص ١٤٤ ١٤٧، مصطفى نصر المسلاتي.

وما زالت هذه البعثات تؤدي دورها في إفساد المجتمعات الإسلامية، واستشرى فسادها وعظم أثرها على الأمة الإسلامية عندما تساعدت الدول الغربية النصرانية بقسميها الكاثوليك والبروتستانت في ضرب أصول الأمة الإسلامية عن طريق أبنائها حتى ونحن في بدايات القرن الحادي والعشرين، الذي يدّعون فيه وصول الحوار بين الأديان إلى قمته، والعلمانية إلى نضوجها.

الوسيلة الثانية: تحريك العنصر النصراني، المشترك في الوطنية، في البلدان الإسلامية[1]:

كان هؤلاء النصارى، وفي مقدمتهم الموارنة، أول من فتح صدورهم للحضارة الغربية؛ وذلك بسبب طبيعة دينهم النصرانية، وعلاقتهم بنصارى الغرب الكاثوليك، كما أن بابوات روما تعتني بهم عناية خاصة. وبرز هذا الاهتمام بشكل أكبر في عهد بابا روما غريغوريوس (جريجوري) الثالث عشر (١٣ أيّار ١٥٧٢ - ١٠ نيسان ١٥٨٥م)، الذي أسس في روما أوّل مركز علمي ديني للشرقيين، المدرسة المارونية الشهيرة عام ١٥٨٤م، بإدارة الرهبنة اليسوعية، وكان لتأسيس هذه المدرسة أثر بعيد في تكوين شخصية النصراني في الشرق الإسلامي فكرياً[2].

وكانوا يشجعون الاتجاهات العلمانية التحررية، ويدعون إلى ما أسموه بالفكر الحر، ولم يتعرضوا مباشرة إلى نقد أحكام الشريعة الإسلامية[3]، ابتداءً حتى يحافظوا على مكانتهم الوطنية والقومية بين عامة المسلمين.

وقد كان هناك عمل مشترك بين أصحاب اللوثات التغريبية من أبناء المسلمين وبين النصارى من أهل وطنهم وقوميتهم في رعاية برامج وأهداف لإدخال التبعية للغرب النصارى في بلاد المسلمين.

كما كان لجرأة النصارى العرب الوطنيين في المناداة بالتبعية للغرب النصارى الدور الأساس في تسميتهم بمؤسسي النهضة الفكرية العربية، خاصة نصارى لبنان من موارنة وغيرهم[4].

في مصر مثلاً، كان قوام الدعوة إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية عدد من أصحاب الثقافة الأوروبية، بعضهم من الشاميين النصارى الذين استقرّوا في مصر، وبعضهم من المصريين الذين

---

(١) انظر في تفصيل هذه الوسيلة إلى رسالة الدكتوراه للباحث الأخ حافظ بن موسى الحكمي بعنوان (دور الأقليات غير الإسلامية في انحراف الفكر العربي).

(٢) دور المسيحيين الثقافي في العالم العربي، ص ٥، الأب سمير خليل سمير اليسوعي.

(٣) الإسلام والحضارة الغربية، ص ٥٥، د. محمد محمد حسين.

(٤) النصارى في الشرق، ص ٢٣، ٢٤، بيير روندو.

تلقوا دراستهم في أوروبا، أو في المدارس الأوروبية العلمانية، أو مدارس الإرساليات الدينية التي كان عددها في مصر في ازدياد مطرد[1].

وقد كانت حلب الشام في مطلع القرن السابع عشر مركزاً لانطلاقة أولئك النصارى الكاثوليك في تأثيرهم على العالم الإسلامي لوجود مجموعة كبيرة من المرسلين الكاثوليك الغربيين، فرنسيسكان، وكبوشيون، ويسوعيون[2].

ومن هؤلاء المطران الماروني جرمانس فرحات (١٦٧٠ - ١٧٣٢م)، والذي وصم بأنه من الذين مهدوا الطريق للنهضة العربية في القرن التاسع عشر[3].

وبعض النصارى اللبنانيّين الذين هاجروا إلى مصر، فأنشؤوا فيها الصحافة العربية في القاهرة، والإسكندرية، قبل أن يعودوا إلى لبنان بعد إنجاز المهمة المقررة لهم في التأثير على العالم الإسلامي ثقافياً وفكرياً، انطلاقاً من مصر صاحبة الأثر الأكبر على العالم الإسلامي والعالم العربي بشكل خاص.

ومن أشهر صحافتهم هناك جريدة الأهرام التي أنشئت عام ١٨٧٥م في الإسكندرية على يد سليم وبشارة تقلا، ثم انتقلت إلى القاهرة، ومن أشهر رؤسائها أيضاً جبرائيل بن بشارة تقلا، وأنشؤوا أيضاً المسرح، والقصة التاريخية، والشعر غير الموزون، والسينما، وكل ما هو جديد آت من الغرب النصارى في الناحية الثقافية والفكرية[4].

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، ١/ ٢٥٦، د. محمد محمد حسين.

(٢) دور المسيحيين الثقافي في العالم العربي، ص ٣٥، الأب سمير خليل اليسوعي.

(٣) المرجع السابق، ص ٤١، الأب سمير خليل اليسوعي.

(٤) دور المسيحيين الثقافي في العالم العربي، ص ٤٨، الأب سمير اليسوعي، النصارى في الشرق، ص ٢٤، بيير روندو، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، ١/ ٢٥٦، د. محمد محمد حسين.
سليم بن خليل بن إبراهيم تقلا (١٢٦٥- ١٣١٠هـ = ١٨٤٩- ١٨٩٢م)، مؤسس جريدة الأهرام المصرية، مولده في كفر شيمة (لبنان)، وأسرته معروفة ببني البردويل، إلا أن أباه نسب إلى أمه (تقلا)، تعلم في بلدته ثم بالمدرسة الوطنية ببيروت، درّس العربية مدة في (البطريركية)، وألف كتاب (مدخل الطلاب إلى فردوس لغة الأعراب)، سافر إلى الإسكندرية عام ١٨٧٤م، نال الامتياز بإنشاء جريدة الأهرام عام ١٨٧٥م، عاد إلى لبنان

فالنصارى العرب بمختلف اتجاهاتهم العقديّة هم الذين تزعّموا الدعوة إلى العلمانية والتحرُّرية في الفكر العربي الحديث، وتلك المجالات التي أدخلوا من خلالها الفكر التغريبي لا ترجع خطورتها إلى ما كانت تذيعه من آراء فحسب، ولكن خطورتها الكبرى ترجع إلى أنها كانت مراكز لتنشئة الجيل التالي من الأدباء، والصحفيين، والكُتّاب على هذه المبادئ العلمانية، وهو الجيل الذي ربى بدوره جيلاً آخر، جاءت وتجيء من بعده أجيال على شاكلته، فلم نبلغ منتصف القرن العشرين، حتى كانت تلك المجالات الفكرية والأدبية في أيدي العلمانيين، ليس في مصر وحدها ولكن في كل أنحاء العـالم الإسـلامي[1].

فالتغريب حركة ارتبطت بالاستعمار ارتباطاً عضوياً، قوامها عمل استعماري (استخرابي) فكري بعيد المدى قصد به القضاء على معالم شخصية الأمة الإسلامية، وتحويلها إلى صورة غربية مشوّهة الملامح غريبة عن مجتمعاتنا وآدابنا الإسلامية.

فالاستعمار (الاستخراب) النصراني الغربي أبقى نفوذه في العالم الإسلامي من خلال عمليات التغريب، فكوّن طلائع من أبناء المسلمين تؤمن بفكره وتسير في اتجاهه، وتخدم مصالحه، كوّنها عن طريق التعليم في مدارسه إن كانت داخلية في أوطانهم الإسلامية، أو خارجية عنده مباشرةً،

ومات فيها عام ١٨٩٢م. انظر: الأعلام، ٣/ ١١٧، خير الدين الزركلي.

=بشارة بن خليل بن إبراهيم تقلا (١٢٦٨ - ١٣١٩هـ = ١٨٥٢ - ١٩٠١م)، أحد مؤسسي جريدة الأهرام، ولد في كفر شيمة (لبنان)، وتعلم في بيروت وعلّم في مدرسة (عنيطورة) نحو سنتين، وانتقل إلى الإسكندرية عام ١٨٧٥م. أصدر مع أخيه سليم جريدة الأهرام، وبعد وفاة أخيه عام ١٨٩٢م، استقل بها، ونقل مقرها إلى القاهرة عام ١٨٩٨م، ووسّع حجمها، توفي بالقاهرة عام ١٩٠١م، وكانت فيه جرأة، وله بالفرنسيين صلة. الأعلام، ٢/ ٥٢، خير الدين الزركلي.

جبرائيل (باشا) بن بشارة بن خليل تقلا (١٣٠٧ - ١٣٦٢هـ = ١٨٩٠ - ١٩٤٣م): من أصحاب جريدة الأهرام، لبناني الأصل مصري المولد والوفاة، تعلم في المدرسة اليسوعية بالقاهرة، ومات أبوه بشارة (صاحب الأهرام وأحد مؤسسيها)، وهو صغير السن، فتولت أمه الإشراف على إدارتها إلى أن قام بأعبائها عام ١٩١٢م، صرف جهده إلى توسيع الجريدة، وإتقان طباعتها، فتقدمت في أيامه تقدماً بارزاً، وانتخب نقيباً للصحافة المصرية عام ١٩١٩م. الأعلام، ٢/ ١٠٩، خير الدين الزركلي.

(١) الإسلام والحضارة الغربية، ص ٥٦، د. محمد محمد حسين.

وعبر وسائل التأثير الأخرى، التي استطاع من خلالها الغرب النصراني الوصول إلى عقول أبناء المسلمين وقلوبهم، كوّنهم وفق أهدافه بحيث تكون أمانتهم له أكثر من أمانتهم لأوطانهم[1].

فبعد أن تمكّن الغرب النصراني من فئة من أبناء المسلمين، بمعاونة نصارى العرب والأقلية النصرانية في البلاد الإسلامية ومشاركتهم، وإيصالهم إلى مراكز قيادية استطاع من خلالهم أن ينشر أفكاره وتوجهاته المشبوهة ضد الإسلام، وعقيدته، وشرائعه، ولغته، وتاريخه، عبر وسائل التأثير العام على الشعوب الإسلامية من خلال التعليم العام للفئات السنّيّة المختلفة لأبناء المسلمين، ومن خلال التعليم العالي في الجامعات، ومن خلال وسائل النشر والإعلان من صحافة وكتاب، ومن خلال وسائل الترفيه والتسلية من مسرح، وسينما، وإذاعة، وتلفاز، وقنوات فضائية (البث المباشر)، وهذه أشد مكراً لأنها أكثر تشويقاً[2].

وقد تطرق رجالات التغريب (من أبناء المسلمين نسباً وجسداً، وهم أبناء الغربيين النصارى فكراً وثقافةً ومنهجاً)، إلى مواضيع متشعبة خطيرة وحساسة فيما يتعلق بالدين الإسلامي، وعقيدته، وشرائعه، وآدابه، فضلاً عن لغته، وتاريخه، ومروراً بمجالات الحياة المختلفة، مرجعهم في الكلام حولها إنّما هو معتمد على الدراسات الاستشراقية المشبوهة والمزورة والماكرة في المجالات الإسلامية، والوقوف عندها، وعدم الالتفاف إلى الدراسات والمراجع الإسلامية الأصيلة، وأخفّ

---

(١) وليس كل من تعلّم في الغرب، أو اتصل بالمستشرقين، ودوائر الفكر الغربي، هو كذلك، كما أنّ ليس كل من اتصل بالغرب، وآمن به استمر على هذا الإيمان، فإن الحقائق لا تلبث أن تتكشف عن زيف الاستعمار ومغالطته، فلا يلبث الأمر أن يظهر أن هناك خداعاً قوامه كلمات برّاقة، وشعارات تقول بتنوير الشعوب وتمدينها، وتدعو إلى الحرية أو الإخاء، أو المساواة، أو ما شابه ذلك، ثم لا تلبث الأحداث أن تثبت تعصب الغرب وتناقضه، واتهامه بهذه الأمة، وفرض سلطانه بالحديد والنار، هناك تتحول الأفكار عنه، ويكفر به من كان قد خُدع من قبل. انظر: التغريب أخطر التحديات في وجه الإسلام، ص ١٧، ١٨، أنور الجندي.

(٢) انظر: عقبات في طريقة النهضة، ص١٦٩ - ١٨٨، أنور الجندي، واتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر، ١/ ٤٠٣ - ٤١٦،د. حمد بن صادق الجمال.

وقد قُسمت هذه الوسائل والأدوات إلى مدارس تغريبية ثلاث: مدرسة الاستعمار (وهم الطلبة المبتعثون إلى الغرب النصراني، أو الدارسون في مدارس الغرب النصراني في داخل بلدانهم الإسلامية)، ومدرسة الصحافة، ومدرسة الترفيه والتسلية.

ازدراء منهم لها أنها تراث قديم خدم عصراً غير العصر الذي نعيشه الآن.

فقدحوا في القرآن العزيز، وشككوا في بعض أحكامه وقصصه، وقدحوا في النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وطعنوا في سنته المطهرة، وردّوا بعض العقائد الثابتة بدليل الكتاب والسنة وللأسف هم من أبناء المسلمين وأسقطوا بعض المسائل الفقهية المجمع عليها، ونالوا من قيمة لغة القرآن اللغة العربية، ونادوا بإبعادها، أو تهجينها وتغيير ملامحها وأصولها.

فهي عندهم ليست لغة حضارية، فلا تصلح لهذا الزمان المتحضر المتفرنج، وعملوا على تشويه التاريخ الإسلامي الناصع البياض، وإظهاره بمظهر التاريخ الأسود الحاقد على البشرية، وتشويه صورة أبطال الإسلام الحقيقيين، لا الملمّعين زوراً وبهتاناً، خاصة من له دور في الفتوحات الإسلامية المشرّفة، وهزيمة الصليبيين، وهم كُثر، والحمد لله أسأل الله أن يُكثّرهم كخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعماد الدين زنكي، ونور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، والظاهر بيبرس، ومحمد الفاتح... وغيرهم من جنود الله المجاهدين، وإظهار هؤلاء الأبطال بمظهر غير لائق، وغير حضاري.

كما أنهم بحثوا في أُمورٍ كثيرة تتعلق بالمجتمع الإسلامي؛ لتحويله إلى مجتمع مدني علماني، لا يُقيم للشريعة وزناً في حياته اليومية، ومن هذه الأمور: الدعوة إلى فتح المجالات للاختلاط، والسفور، والبرامج الهابطة للمرأة المسلمة العفيفة باسم تحرّرها، تحرّرها من ماذا؟! تحرّرها من أحكام الشريعة الطاهرة التي تصنع مجتمعاً عفيفاً طاهراً متماسكاً، وأُسرةً مصونةً طاهرةً! وغيرها من المواضيع التي طرقها أولئك التغريبيون من أبناء المسلمين ضد أُمّتهم الإسلامية، والتي تحتاج إلى رسائل جامعية مستقلة، وكتب مجتمعة[1]؛ لبيان أثرهم، وأثر أطروحاتهم المشبوهة الماكرة على الأصعدة كُلّها، وفي المجالات جميعها الدينية، والسياسية، والوطنيّة، وغيرها من المجالات التي

(١) وقد حدث هذا منذ زمن، وما زالت مثل هذه الكتب القيمة المباركة في الخروج والظهور لبيان مكر أولئك المستغربين وبيان عبثهم بمقدرات الأمة الإسلامية عقيدةً، وفكراً، وشريعةً، ومنهج حياة، والحمد لله رب العالمين.

يدعون أنهم دُعاةُ إصلاحٍ فيها، ومريدو خيرٍ لأمتهم من خلالها، وهم في حقيقتهم دُعاة فسادٍ فيها، ومريدو شرٍّ لأمتهم من خلالها بضياع هُويتهم الإسلامية، وعدم استقلالهم بما عندهم من خيرٍ عميم، ووضوحٍ لا يشوبه غبش، ومنهج مستقيم لا يعتريه اعوجاج، وسحبهم أمتهم الإسلامية إلى تبعية مقيتة للغرب النصراني، وتربيتهم على هزيمة نفسية قد تُؤثِّر بل أثَّرت في أجيال إسلامية عديدة حاضراً، ومستقبلاً، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم لاَ تُفسِدُوا فِي الأَرضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحنُ مُصلِحُونَ (١١) أَلاَ إِنَّهُم هُم المُفسِدُونَ وَلَكِن لاَ يَشعُرُونَ (١٢)﴾[1].

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١١، ١٢.

الفصل الثالث: التنصيـر

وفيـه مبـحثان:

- **المبحث الأول: تعريف التنصير، وأهدافه.**
- **المبحث الثاني: الكنيسة الكاثوليكية والتنصير، وفيه مطلبان:**

المطلب الأول: اهتمام الكنيسة الكاثوليكية بالتنصير.

المطلب الثاني: وسائل الكنيسة الكاثوليكية التنصيرية، ونشاطها في البلدان الإسلاميّة.

المبحث الأول: تعريف التنصير، وأهدافه

تعريف التنصير:

التنصير لغة: نصَّرَهُ تنصيراً: جعلَهُ نصرانياً[1]. فالتنصير والتنصُّرُ: الدخول في النصرانية[2].

فالتنصير في مفهومه اللغوي هو الدعوة إلى اعتناق النصرانية، أو إدخال غير النصارى في النصرانية، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ما من مولود يُولدُ إلاَّ يُولَدُ على الفطرة، فأبواهُ يُهوِّدانه أو يُنصِّرانِه أو يُمجِّسانه كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاءَ هل تُحِسُّون فيها من جدعاءَ[3]، ثم يقول أبو هريرةَ رضي الله عنه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[4].

والفطرة هنا الإسلام[5]، فقال النبي ﷺ: (أو ينصرانه) أيّ تُغيِّر الفطرة السوية التي خُلق الإنسانُ عليها إلى أُمور منحرفة منها تنصيره وإدخاله في النصرانية.

---

(١) القاموس المحيط، مادة (نَصرَ) ص ٦٢٢، الفيروز آبادي.

(٢) لسان العرب، مادة (نَصرَ)، ٥/ ٢١٢، لابن منظور.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبيُّ فمات هل يُصلَّى عليه وهل يُعرَضُ على الصبيِّ الإسلامُ؟ الجزء الأول، رقم الحديث (١٣٥٨)، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي. وصحيح مسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، الجزء الرابع، رقم الحديث (٢٦٥٨) ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي.

(٤) سورة الروم الآية ٣٠.

(٥) والفطرة في الآية والحديث هي الإسلام، وذهب إلى ذلك عامة السلف وأكثر المفسرين وعلى رأسهم: أبو هريرة، وعكرمة، ومجاهد، والحسن، وإبراهيم النخعي، والضحاك، والزهري، وقتادة، وأحمد بن حنبل، والبخاري. انظر: التمهيد لابن عبد البر، ١٨/ ٧٢، وتجريد التمهيد لابن عبد البر، ٢٩٧، ودرء تعارض العقل والنقل ٨/ ٤١٠.

والتنصير في مفهومه الاصطلاحي: هو قيام مجموعة من المنصّرين بالتركيز على منطقة معينة ثم العمل على تنصير سكانها بشتى الطرق التي توصلهم إلى تلك الغاية.

والتنصير في المحيط الإسلامي، هو: حركة بدأت بالظهور في واقع المسلمين إثر فشل الحروب الصليبية ضدهم وبالتحديد من وقت الحملة الصليبية الخامسة عام ١٢١٩م بهدف السيطرة على المسلمين دينياً، وسياسياً، واستعمارياً.

وعملية التنصير هذه سميت عند النصارى بعدة أسماء، منها: التبشير.

والتبشير لغةً: (الباء والشين والراء أصل واحد: ظهور الشيء مع حُسن وجمال)[١]، وتبشير هي المصدر للفعل بشّر يبشر، واسم المصدر منه (البشارة) أو (البُشرى)[٢] ويقال بَشَرْتُ فلاناً أُبَشِّرُهُ تبشيراً، وذلك يكون بالخير، وربما حُمِل عليه غيره من الشر، وقد يكون جنساً من التَّبكيت[٣]، كقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[٤]، ونحو قولهم: تحيتك الضَّرْبُ وعتابك السَّيْفُ[٥].

فالتبشير هو الخبر الذي يُؤثر في البشرة تغيراً، وهذا يكون للحزن أيضاً، ولكن إذا أُطلق الكلام إطلاقاً فالبِشارة بالخير والنِّذارةُ بغيره[٦]، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ﴾[٧]، وقال تعالى مخبراً عن حقيقة النبي ﷺ في دعوته إلى الناس كافة عربهم وعجمهم:

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، ١/ ٢٥١، مادة (بشر)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون.

(٢) النصرانية والتنصير أم المسيحية والتبشير، ص٤١، د. محمد عثمان صالح.

(٣) معجم مقاييس اللغة، مادة (بشر)، ١/ ٢٥١.

(٤) سورة التوبة، الآية ٣.

(٥) لسان العرب، مادة (بشر)، ٤/ ٦١، لابن منظور.

(٦) معجم مقاييس اللغة، مادة (بشر)، ١/ ٢٥١.

(٧) سورة يوسف، الآية ٩٦.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴾[1].

والتبشير عند النصارى هو الدعوة إلى النصرانية، فهو مرادف لكلمة (التنصير)، وفي هذا مكر كبير في استخدام المصطلحات. (لذا لا يستخدم مصطلح (تبشير) إلاّ من لا يدرك أبعاد ما يريده المنصرون من فرض هذه المصطلحات المبهرجة المنتقاة من بين عدد من العبارات؛ ليسهل استخدامها عند المسلمين، حتى إذا شاعت وألفتها الأجيال المقبلة من المسلمين انتقلوا لخطوة أخرى تكشف مزيداً من الأهداف الصليبية)[2]، فهذه الكلمة (تبشير) عند المسلمين تجافي الحقيقة تماماً إذا أطلقت على نشاطات المنصرين. على أن كلمة (التبشير) Evangelism مشتقةٌ من معنى كلمة (إنجيل) في اللغة اليونانية والتي تعني (الأخبار السارة) أو (البشرى)[3].

ومن مسميات عملية التنصير أيضاً:

(إنقاذ أرواح البشر من الجحيم)، ثم اختصرت إلى عبارة (إنقاذ الأرواح)، وقد اشتهر هذا المسمى في القرن السادس عشر الميلادي، وفي مطلع القرن العشرين عُرفت عملية التنصير بـ (غرس الكنيسة) ثم تحولت إلى (غرس الإنجيل)، وفي المجمع الفاتيكاني الثاني عام ١٩٦٤م عُرفت حركة التنصير (بتوصيل الإنجيل لكافة البشر)[4]، وأقدم اسم لعملية التنصير هو (الكرازة) التكريز بالإنجيل، جاءت من الفعل أكرز والذي ورد في إنجيل مرقس وأعمال الرسل: (اذهبوا إلى العالم أجمع وأكرِزوا بالإنجيل للخليقة كُلِّها)[5]، (... وللوقت جعل يَكْرِزُ في المجامع بالمسيح)[6]، ومأخوذ هذا الاسم من الفعل اليوناني (كيريسو) أي (أعلن، نادى، كرز)، والاسم

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٤٥.

(٢) النصرانية والتنصير أم المسيحية والتبشير، ص ٤٢، د. محمد عثمان صالح.

(٣) تفسير كلمات الكتاب المقدس، ص ٤٣٩، سعيد مرقص، الإذاعات التنصيرية، ص ١٧، د. كرم شلبي.

(٤) تنصير العالم، ص ١٤١، أ.د. زينب عبد العزيز.

(٥) مرقس، ١٦: ١٦.

(٦) أعمال الرسل، ٩: ٢٠.

السرياني (كيريغما) أي (إعلان، مناداة، كرازة)، وفعله (انغالو) (بَشر)، وكُلّها تدل على معنى الوعظ والتبليغ وإعلان الإنجيل[1].

أهداف التنصير:

إن الهدف الأول للمنصّرين في عملياتهم التنصيرية ضد غير النصارى: هو دعوتهم إلى النصرانية ومحاولة إدخالهم فيها، إلاَّ أن المنصرين وجدوا أن هذه العمليات التنصيرية بالغة الصعوبة في تطبيقها على المسلمين بشكل عام؛ لتمسكهم بدينهم الإسلامي بخلاف غيرهم من أصحاب الملل والطوائف الأخرى وغير الدينيين. واكتشف المنصرون هذا التمسك الشديد عند المسلمين بدينهم منذ وقت مبكر من خلال التجارب الأولى من محاولة تنصيرهم في عهد رئيس الرهبنة الفرنسيسكانية فرنسيس سيزي في أثناء الحملة الصليبية الخامسة عام ١٢١٩م عندما طمع في تنصير السلطان الكامل الأيوبي وشعبه المسلم في مصر ففشل فشلاً ذريعاً في ذلك.

لذلك خطط النصارى لتحقيق أهداف أخرى من خلال محاولاتهم التنصيرية بين المسلمين على أن هدف إدخال المسلمين في النصرانية وتركهم دينهم الإسلامي يبقى على رأس هرم أهداف النصارى.

ومن أهم تلك الأهداف التي يحاول المنصِّرون تحقيقها من خلال محاولاتهم وعملياتهم التنصيرية بين المسلمين التي أعتقد أنها غالباً ما تكون موازية السير والخُطى مع الدعوة المباشرة إلى النصرانية، هي:

أولاً: محاولة وقف انتشار الإسلام:

سبَّبَ انتشار الإسلام التصاعدي أينما حلَّ قلقاً كبيراً وخوفاً شديداً في نفوس المنصِّرين على مستوياتهم جميعها الرسمية وغير الرسمية، الفردية والجماعية، خاصة أن أولئك المنصِّرين يعلمون تماماً بأن انتشار الإسلام هو انتشار تلقائي بدون أن يبذل المسلمون جهوداً جبارة أو يدفعوا أموالاً

---

(١) المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم، ص ١٠١٦، مادة (كرازة) الدكتور الخوري بولس الفغالي.

طائلة في ذلك فكيف لو وُجد للإسلام رجال وأموال فهل يستطيع وقتها أن يوقفه أحد أو تخلو منه بقعة من الأرض صغرت أو كبرت؟ الله أكبر.

فالإسلام (هو الدين الوحيد الخطر عليهم فهم لا يخشون البوذية ولا الهندوكية ولا اليهودية، إذ إنها جميعاً ديانات قومية لا تستطيع الامتداد خارج أقوامها وأهلها، وهي في الوقت نفسه أقل من النصرانية رقياً، أما الإسلام فهو كما يسمونه دين متحرك زاحف، وهو يمتد بنفسه وبلا أية قوة تساعده، وهذا هو وجه الخطر فيه)[١].

وتعد هذه الحقيقة المحرك الأول للفاتيكان لوقف هذا التقدم الإسلامي الذي يشكل خطراً داهماً وعائقاً بشرياً للطموح الغربي وديانته النصرانية في سيادته السياسية والعقدية على العالم، فخصص الغرب النصراني بكنائسه الكاثوليكية والبروتستانتية مبالغ طائلة لصد هذا الزحف الإسلامي، ومنها أن الفاتيكان خصص أكثر من ثلاثة مليارات من الدولارات من أجل تنصير قارة إفريقيا المسلمة وحدها، وتم توظيف أكثر من (١٥٠, ٠٠٠) منصِّر كاثوليكي من أجل القيام بمهمة التنصير[٢]، حيث قاموا بدراسة إحصائية عن نمو المسلمين فوجدوا أن المسلمين بحلول سنة (٢٠٢٥م) سيشكلون ربع سكان العالم أي أن واحداً من كلّ أربعة أشخاص في العالم سيكون مسلماً، كما أن مجلة (ليبدو) السويسرية أضافت أن العالم الإسلامي يشهد نمواً في ولادة الأطفال، وهو الأمر الذي سيترتب عليه مضاعفة عدد المسلمين في السنوات القادمة بحيث قد يصبح عدد المسلمين ما بعد سنة (٢٠٢٠م) بليوني نسمة إسلامية في العالم[٣]، أي أنه قد يتعدى عدد المسلمين في تلك السنوات المستقبلية ثلث سكان العالم.

---

(١) التبشير الغربي، ص ٢٠، أنور الجندي، دار الاعتصام.

(٢) وجاء الدور على الإسلام، ص١٥، رضا محمد العراقي، التنصير والتغلغل الاستعماري في إفريقيا (ندوة عن التنصير) عُقدت بجامعة إفريقيا العالمية، ورقة مقدمة من الأستاذ عطية محمد سعيد بعنوان (التبشير المسيحي في إفريقيا)، ص ١٧٣.

(٣) وجاء الدور على الإسلام، ص ١٣، رضاء محمد العراقي.

يقول المنصِّر (لورانس بروان): (إن الخطر الحقيقي يكمن في نظام الإسلام، وفي قُدرة هذا الدين على التوسع والإخضاع، وفي حيويته، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي).

ويقول الدكتور (راطسون) مدير الجامعة الأمريكية الأسبق في القاهرة: (إننا نراقب سير القرآن في المدارس الإسلامية، ونجد فيه الخطر الداهم. فالقرآن وتاريخ الإسلام هما الخطران العظيمان اللذان تخشاهما سياسة التبشير المسيحية)[1].

كما دعى الأب (ديبونت) المنصِّر الكاثوليكي، والخبير في الإحصاء زملاءه المنصرين ألاّ يكتفوا بالتبرم من امتداد الإسلام المستمر في إفريقيا وإنما يجب عليهم العمل لوقف الامتداد[2].

ويحث المستشرق الفرنسي فيليب فونداسي الدولة الفرنسية على مقاومة الإسلام وأن تنتهج سياسية عدائية للإسلام، وأن تحاول على الأقل إيقاف انتشاره [3].

ويذكر المستشرق روبرت باين بأن لديهم أسباباً قوية لدراسة العرب والتعرف إلى طريقتهم؛ فقد غزوا الدنيا كلها من قبل، وقد يفعلونها ثانيةً: (إن النار التي أشعلها محمد ﷺ ما تزال تشتعل بقوة، وهناك ألف سبب للاعتقاد بأنها شعلة غير قابلة للانطفاء)[4].

ونشرت صحيفة هيرالد تريبون الأمريكية في ٨/٨/ ١٩٨٥م تقريراً عن رحلة البابا إلى إفريقيا حيث يقول لورين جينكز: (يقوم البابا بولس الثاني بثالث رحلة له لإفريقيا في غضون خمسة أعوام، بأمل أن يُرسي قواعد الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ضد النهضة الإسلامية المتزايدة في القارة، الأمر الذي يعده الفاتيكان أمراً هاماً من أمور هذا القرن)[5].

---

(١) قوى الشر المتحالفة (الاستشراق، التبشير، الاستعمار)، ص ١٢٣، محمد محمد الدهان.

(٢) وذلك في كتابه: هل إفريقية أرض مسيحية؟، انظر: المرجع السابق، ص ١٢٦، محمد الدهان.

(٣) وذلك في كتابه: (الاستعمار الفرنسي في إفريقيا السوداء)، انظر: قادة الغرب يقولون: (دمِّروا الإسلام أبيدوا أهله)، ص ٤٤، جلال العالم.

(٤) التنصير والتغلغل الاستعماري في إفريقيا، ص ١٧٤.

(٥) التنصير الطبي الخفي في البلاد الإسلامية، ص ١٩، د. عبد العزيز الفهد.

وبهذا يتبين أن من الأهداف الأساسية التي يسعى المنصِّرون إلى تحقيقها من خلال محاولاتهم التنصيرية المكثفة هو وقف انتشار الإسلام.

ثانياً: القضاء على وحدة العالم الإسلامي:

أدرك الغرب النصراني من خلال التحاماتهم مع العالم الإسلامي أنّ تجمع المسلمين ووحدتهم هو سبب قوتهم وانتصاراتهم السابقة على الغرب النصراني، وأن سبب هذا التجمع وهذه الوحدة هو الإسلام، فانتهج الغرب النصراني منهجية لتفريق وحدة المسلمين وتمزيق اتحادهم من خلال طرق عديدة من أخطرها بث العمليات التنصيرية بين المسلمين وفي وسطهم حتى لا يتجمعوا تحت مظلة الإسلام والعقيدة الإسلامية.

فهذا المنصر القس سيمون يبين خطر الوحدة الإسلامية على الغرب النصراني بقوله: (إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب الإسلامية وتساعد على التملص من السيطرة الأوروبية. والتبشير عامل مهم في كسر شوكة هذه الحركة، من أجل ذلك يجب أن نحّول بالتبشير اتجاه المسلمين عن الوحدة الإسلامية)[1].

ويقول مورو بيرجر: (إن الخوف من العرب واهتمامنا بالأمة العربية ليس ناتجاً عن وجود البترول بغزارة عند العرب بل بسبب الإسلام.

يجب محاربة الإسلام للحيلولة دون وحدة العرب التي تؤدي إلى قوة العرب؛ لأن قوة العرب تتصاحب دائماً مع قوة الإسلام وعزته وانتشاره)[2].

لذلك فإنّ المنصرين قاموا بزرع الفتن والعداوة في دولة الخلافة العثمانية قبل سقوطها وبعدها في المجتمعات الإسلامية المنفصلة سواء كانت فتناً وعداوات طائفية دينية أو مذهبية أو عرقية أو غيرها حتى يتسنى لهم التأكد من عدم رجوع الوحدة الإسلامية بين المسلمين، حيث إنه

---

(١) دمّروا الإسلام أبيدوا أهله، ص٥٤، جلال العالم، التبشير والاستعمار، ص٣٧، خالدي و فرّوخ.

(٢) مجلة روز اليوسف في عددها الصادر بتاريخ (٢٩/ ٦/ ١٩٦٣م)، دمروا الإسلام أبيدوا أهله، ص ٣٩، جلال العالم، قوى الشر المتحالفة، ص ١٢٣، محمد محمد الدهان.

بهذا التفرق والتمزق لن يكون للمسلمين وزن ولا تأثير في المجتمع الدولي، ولا يخشى على الغرب النصراني منهم، كما صرح بذلك المنصر لورانس براون في (أن يظل المسلمون متفرقين بلا قوة ولا تأثير)[١].

فالدول الغربية النصرانية كانت تهدف من وراء إقامة علاقات مع دولة الخلافة العثمانية وما حققته من امتيازات روحية وثقافية داخل دولة الخلافة؛ إلى زرع الفتن، وتفتيت البنية الاجتماعية الملتفة حول العقيدة الإسلامية، وتكوين قوى اجتماعية مختلفة الولاء العقدي والقومي، فلا تجتمع على الإسلام، فيسهل ركوبها وتسييرها، وهذا للأسف ما حدث في الواقع. يقول وزير المستعمرات البريطانية إبّان سقوط الخلافة الإسلامية: (إن الحرب علّمتنا أن الوحدة الإسلامية هي الخطر الأعظم الذي يجب أن نحاربه وأن نقاومه، وليست بريطانيا وحدها هي التي تلتزم بذلك بل فرنسا أيضاً... إن سياستنا تهدف دائماً وأبداً إلى منع قيام الوحدة الإسلامية أو التضامن الإسلامي ويجب أن تبقى هذه السياسة كذلك)[٢].

ولهذا انسجمت الخطط الاستعمارية في الحرب ضد الإسلام وديار المسلمين مع قوى التنصير الكاثوليكي بقيادة الكرسي البابوي في روما، وقوى التنصير البروتستانتي بقيادة اليهودية العالمية وتوجيهها.

ويجب أن يدرك المسلمون أن للكرسي البابوي في روما مجرى سياسياً لا يتغير، وهو بها يسعى لتحقيق ما بدأته الحروب الصليبية من حرب بالسلاح وبالغزو الفكري وبالتنصير، وقد استخدم في ذلك الوسائل التي أُتيحت له كلها، ومنها استخدام رهبانياته المنتشرة في أنحاء العالم جميعها.

ويعترف المسيو أوجين يونغ أن اكليروس بابا روما يسير على خطى اليهود في التجسس وبث الدسائس والفتن والتسلط على الأشخاص ذوي المكانة العالية بالتهديد بإفشاء أسرارهم

---

(١) جذور البلاء، ص ٢٠٢، عبد الله التل.

(٢) أفيقوا أيها المسلمون قبل أن تدفعوا الجزية، ص ٧، د. عبد الودود شلبي.

الشخصية[1]، هذا العمل يقوم به الكرسي الرسولي البابوي مع أعدائه من العلمانيين والنصارى فكيف حال هذه النيافة التي تدَّعي القدسية عندما تتعامل مع المسلمين؟! لا شك تنقلب أكثر خبثاً ومكراً وشراسةً ضد الإسلام والمسلمين، فإن الكرسي البابوي يعد الإسلام هو العدو الحقيقي الذي يجب مواجهته بكل سلاح ممكن وبكل وسيلة ممكنة، فقُوى التنصير لا تكل ولا تمل، والكرسي البابوي لا يتحول عن خطته لطمس آثار الإسلام.

ثالثاً: زعزعة العقيدة الإسلامية في قلوب المسلمين:

وقد سلك النصارى في خلخلة العقيدة الإسلامية الصحيحة وزعزعتها في قلوب المسلمين مسالك شتى، ومنها: العمل على تجهيل من استطاعوا تجهيله من أبناء المسلمين، وقطع صلته عن ثقافته الإسلامية وعن القرآن الكريم، ومنها: تربية بعض أبناء المسلمين على مناهج تغريبية علمانية لا تبعده عن إسلامه فقط، بل تجعله يحارب أساسيات الإسلام، ويعمل على إسقاطها، ويطالب بتهميشها في مجتمعه الإسلامي، ومنها: إلقاء الشبهات والشكوك في المجتمعات الإسلامية حول الإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة، وإدخال المجتمعات الإسلامية في دائرة الملذات والشهوات التي لا تنقطع عنهم صباحاً ومساءً؛ لقتل التمسك بالإسلام وفضائله وقتل علو الهمة والجهاد في سبيل الله في نفوس الأجيال الجديدة من أبناء المسلمين، حتى يصبحوا مسخاً بلا هوية إسلامية واضحة المعالم.

وقد استطاعت العمليات التنصيرية أن تسلك هذه السبل وتحقق هذا الهدف وتؤثّر في بعض المسلمين عن طريق الغزو الفكري بركنيه: الاستشراق والتغريب.

فالمعركة على أبناء الأمة الإسلامية كانت مشتركة بين الغزو الفكري خاصة الدراسات الاستشراقية منها، حيث إنها الأصل للأطروحات التغريبية، وبين العمليات التنصيرية، فذلك الغزو الفكري اختار المجالات العلمية والعقلية لِعلْية القوم والمثقفين، وفي مجالات راقية من

---

(١) جذور البلاء، ص ٢٠٤، عبد الله التل، وانظر في ذلك بشيء من التفصيل إلى كتاب: أسرار الفاتيكان، ليو بولد ليدل، ترجمة: تحسين حجازي.

البحث العلمي والدراسات الأكاديمية، بينما العمليات التنصيرية اختارت المجالات العلمية والعقلية المحدودة لعامة الشعب، والمراحل السنية التعليمية، والمحتاجين، والفقراء والمساعدات الطبية، والاجتماعية، حيث كان هذا طريقاً واضحاً لها في التأثير.

يقول لو شاتلييه: (ولا شك أن إرساليات التبشير من بروتستانتية وكاثوليكية تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية من نفوس متحليها، ولا يتم لها ذلك إلاَّ ببث الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوروبية، فبنشرها اللغات الإنجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية يتحكك الإسلام بصحف أوروبا وتتمهد السبل لتقدم إسلامي مادي، وتقضي إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية)[1].

فالمنصرون يعترفون بأن التنصير الرسمي و جذب المسلمين إلى صفوف النصرانية قد خاب، كما صرح بذلك مدير الجامعة الأمريكية الأسبق ببيروت الدكتور بنروز (١٩٤٨ - ١٩٥٤م)[2]، من أجل ذلك ركّز المنصرون جهودهم على بث التشويه والتشكيك مع الشهوات في عقول المسلمين وقلوبهم؛ لزعزعة العقيدة الإسلامية في قلوبهم.

فهذا القس البروتستانتي الدكتور صموئيل زويمر كان مركزاً على هذه الفكرة عندما خاطب جمعاً من المنصرين المجتمعين في المؤتمر التنصيري المنعقد في القدس الشريف عام (١٩٢٨م): (أيها الإخوان الأبطال والزملاء الذين كتب الله لهم الجهاد في سبيل المسيحية واستعمارها لبلاد الإسلام... إني أُقركم على أن الذين دخلوا من المسلمين في حظيرة المسيحية لم يكونوا مسلمين حقيقيين. لقد كانوا أحد ثلاثة:

إمّا صغير لم يكن له من أهله من يعرفه ما هو الإسلام.

أو رجل مستخف بالأديان لا يبغي غير الحصول على قوت يومه وقد اشتد به الفقر وعزت

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي (افتراءات المبشرين)، ص ١٢، ترجمة: محب الدين الخطيب ومساعد اليافي.

(٢) التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص ٤٥، ٤٦، مصطفى خالدي وعمر فروخ.

عليه لقمة العيش.

وآخر يبغي الوصول إلى غاية من الغايات الشخصية.

ولكن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية... أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، وبالتالي فلا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها...

لقد قبضنا أيها الإخوة في هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية... أيها الزملاء إنكم أعددتم بوسائلكم جميع العقول في الممالك الإسلامية إلى قبول السير في الطريق الذي مهدتم له كل التمهيد، إنكم أعددتم شباباً في ديار المسلمين لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها... وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقاً لما أرداه الاستعمار لا يهتم للعظائم، ويحب الراحة والكسل ولا يصرف همه في دنياه إلاَّ في الشهوات، فإذا تعلم فللشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات، وإن تبوء أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات، يجود بكل شيء. إن مهمتكم تمت على أكمل الوجوه وانتهيتم إلى خير النتائج وباركتكم المسيحية ورضي عنكم الاستعمار فاستمروا في أداء رسالتكم...)[1].

وهذا المنصر الأب شارل دي فوكو الفرنسي الكاثوليكي والذي قضى جُل عمره في محاولات تنصيرية بين المسلمين في إفريقيا خاصة في الجزائر، ومراكش، وبلاد الطوارق حتى قتل هناك في عام ١٩١٦م، يُوصي الحكومة الفرنسية بوجوب إبعاد المسلمين عن الإسلام بعدم تعليمهم مبادئ القرآن الكريم والسنة النبوية وغير ذلك من اجتهادات الأئمة، حتى يستمروا في جهل بالإسلام، ويسهل قيادهم، والتأثير فيهم، وتحويلهم إلى النصرانيّة الكاثوليكية.

وهذا ما فعلته فعلاً فرنسا في مستعمراتها في شمال إفريقيا فحولت أكثر المساجد إلى كنائس، وأقفلت المعاهد الدينية الإسلامية، واستولت على الأوقاف التي كانت يصرف منها على نشر

---

(١) المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام، ص ٥٨، ٥٩، محمد محمود الصوّاف، حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، ص ١٦٠، ١٦١، أحمد عبد الوهاب.

الإسلام ومبادئه، وصرفوا أغلب أموالهم على التنصير الكاثوليكي هناك[1].

كما أن الحكومة البريطانية والإيطالية لم تكن أحسن حالاً من الحكومة الفرنسية، فقد عمد البريطانيون والإيطاليون في مستعمراتهم في القرن الإفريقي (الصومال وما حولها) إلى تفريق كلمة المسلمين، وتشتيت شملهم في زعامات عميلة مستغربة عملت على حصر العلم الشرعي والثقافة الإسلامية وجعلتها تحت سيطرة الكنيسة، فنشأ جيل من أبناء المسلمين هناك لا يعرف من الإسلام إلاَّ اسمه، ومن القرآن إلاَّ رسمه[2].

وهكذا يصرح الفرنسي الكاثوليكي لوشاتلييه أن: (نزع الاعتقادات الإسلامية ملازم دائماً للمجهودات التي تبذل في سبيل التربية النصرانية)[3].

---

(١) الإسلام والغزو الفكري، ص ١٦١ – ١٧٧، د. محمد عبد المنعم خفاجي، د. عبد العزيز شرف.

(٢) التنصير في القرن الإفريقي ومقاومته، ص ١٠٣، سيد أحمد يحيى.

(٣) الغارة على العالم الإسلامي، ص ١٣، ترجمة: محب الدين الخطيب، مساعد اليافي.

المبحث الثاني: الكنيسة الكاثوليكية والتنصير

وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: اهتمام الكنيسة الكاثوليكية بالتنصير.
- المطلب الثاني: وسائل الكنيسة الكاثوليكية التنصيرية.

المطلب الأول: اهتمام الكنيسة الكاثوليكية بالتنصير (تنصير المسلمين):

بدأت اهتمامات الغرب النصراني بمحاولات تنصير المسلمين في بداية القرن الثالث عشر الميلادي. وكانت القيادة الفعلية الروحية والزمنية في الغرب النصراني في تلك الأوقات للكرسي البابوي واكليروسه الكاثوليكي.

بدأ التفكير عند الغربيين النصارى في مسألة غزو الأمة الإسلامية من الناحية العقدية والفكرية في أثناء اشتداد الحروب الصليبية على المسلمين، خاصة عندما بدت في الأفق علامات فشل تلك الحروب الصليبية العسكرية الموجهة ضد المسلمين.

وقد اهتمت البابوية بهذه الطريقة الجديدة (الغزو الفكري) لغزو المسلمين كما اهتمت من قبل بغزوهم عسكرياً وحربياً. فكما أن بابا روما غريغوريوس (جريجوري) السابع (٢٢ نيسان ١٠٧٣ - ٢٥ أيار ١٠٨٥م)، هو المخطط لغزو المسلمين عسكرياً وإخراجهم من بيت المقدس، وكما أنه جاء بعده البابا أوروبان الثاني (١٢ آذار ١٠٨٨ - ٢٩ تموز ١٠٩٩م)، وهو المنفِّذ الفعلي والداعم المعنوي والمادي لذلك المخطط الصليبي، وكما أنّه كان في وقته رجل هو الداعية الأول، والأنشط لتلك الحروب الصليبية، وحامل لوائها والدعوة إليها، خاصة بين الشعوب والعامة في الغرب

النصراني وهو بطرس الناسك، فإن المخطط لفكرة غزو المسلمين غزواً عقائدياً بتنصيرهم هو بابا روما إنّوشنتيوس (أنوسنت) الثالث (٨ كانون الثاني ١١٩٨ - ١٦ تموز ١٢١٦م)، والمنفّذ الفعلي لذلك المخطط النصراني والداعم له مادياً ومعنوياً هو البابا هورنوريوس الثالث (١٨ تمّوز ١٢١٦ - ١٨ آذار ١٢٢٧م)، وكان الداعية الأول والأنشط لتلك الحرب الصليبية الجديدة هو رئيس الرهبنة الفرنسسكانية فرنسيس الأسيزي، فكانت أول خطوات هذا المنصر أنه قابل سلطان مصر الكامل الأيوبي طمعاً في تنصيره ومن يتبعه من شعب مصر، فسمح له السلطان الكامل الأيوبي أن يبسط ما عنده من وسائل وأمور للدعوة إلى عظمة دينه النصراني وما يمتاز به من مميزات على حسب اعتقادهم، بشرط ألاَّ يتعرض بسوءٍ للنبي محمد ﷺ ولا لدينه الإسلامي.

وهكذا ظهرت فكرة التنصير مُعاوِنة لفكرة الاستعمار والحرب الصليبية ضد المسلمين لضربهم في عقيدتهم ودينهم واحتلال أراضيهم. وكانت هذه الخطوات ابتداءً من وقت الحملة الصليبية الخامسة، خاصة في عام ١٢١٩م.

لم يكتف فرنسيس الأسيزي بهذه الخطوة الجريئة لتنصير المسلمين في مصر، بل إنه أرسل مجموعة من الرهبان الفرنسيسكان الكاثوليك لتنصير المسلمين في إسبانيا والمغرب الأقصى، ومجموعة أخرى إلى إفريقيا، ومجموعة ثالثة أشد حماسة إلى الأراضي المقدسة في فلسطين وما حولها [1].

وقد أُعدمت المجموعة التي أرسلت لتنصير المسلمين في المغرب الأقصى في مراكش في ١٦ يناير سنة ١٢٢٠م، والمصير نفسه لقيته بعثة أخرى أرسلت هناك من الفرنسيسكان في عام ١٢٢٧م، وكان عددهم سبعة من المنصرين أُعدموا في ١٠ أكتوبر من ذلك العام [2].

وبعد فشل الحملة الصليبية السابعة في عام ١٢٥٠م، وعلى مدار عشرين عاماً في العهود التالية:

---

(١) الحروب المقدسة، ص ٤٨١ - ٤٨٥، كارين آرمسترونغ، أوروبا المسيحية، ٢/ ٢١٠، يان دوبرا تشينسكي، الكنيسة الكاثوليكية والإسلام، ص ٢٧، ٢٨، الأب ميشال لولون، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص ٢٠٠، الأب جان كمبي.

(٢) مدخل إلى تاريخ حركة التنصير، ص ٣٥، ٣٦، د. ممدوح حسين.

نهاية فترة البابا إنّوشنتيوس (أنوسنت) الرابع (٢٥ حزيران ١٢٤٣ - ٧ كانون الأوّل ١٢٥٤م)، والبابا الإسكندر الرابع (١٢ كانون الأوّل ١٢٥٤ - ٢٥ أيّار ١٢٦١م)، والبابا أوروبان الرابع (٢٩ آب ١٢٦١ - ٢ تشرين الأوّل ١٢٦٤م)، والبابا إكليمنضوس (كليمنت) الرابع (٥ شباط ١٢٦٥ - ٢٩ تشرين الثاني ١٢٦٨م) وبعد عجز البابويّة عن إقناع الغرب الكاثوليكي للقيام بحملة صليبية كبيرة ومنظمة ضد المسلمين في بيت المقدس، ظهرت في أثناء ذلك فكرة الاهتمام وأخذ الأولوية لمسألة القيام بمحاولات لتنصير المسلمين (غزوهم عقدياً) مع استمرار فكرة الحرب الصليبية المسلحة كلما استطاع الغرب الكاثوليكي إلى ذلك سبيلاً. وأخذت هذه الفكرة تتضخم في رأس البابوية والكنائس الكاثوليكية في عهد بابا روما كليمنت الرابع وذلك بفضل جهود الفليسوف الانجليزي والراهب الفرنسيسكاني روجيه (روجر) بيكون (١٢١٤ - ١٢٩٢م) والذي كانت له مكانة عالية في نفس البابا كليمنت الرابع [١].

ثم كانت هناك محطات رئيسة ومهمة في مسألة اهتمام الطائفة الكاثوليكية لتنصير المسلمين، وهي:

أولاً: المجمع المسكوني الرابع عشر (مجمع ليون الثاني) (٧ أيار - ١٧ تموز ١٢٧٤م):

وقد افتتحه بابا روما جريجوري العاشر (١٢٧١ - ١٢٧٦م) في مدينة ليون في ٧ أيار (مايو) عام ١٢٧٤م، وذلك عقب فشل الحملة الصليبية الثامنة والأخيرة من جهة الترقيم التاريخي.

اختلفت آراء الحاضرين وتباينت توجهاتهم بالنسبة لمسألة التعامل مع المسلمين وتوجيه حملة صليبية قوية يشترك فيها ملوك أوروبا الكاثوليكية وأمراؤها للقضاء على المسلمين في عقر دارهم، مع العلم أن البابا جريجوري العاشر ممن كان يذهب إلى تجهيز حملة صليبية عسكرية لغزو البلاد الإسلامية.

ولكن مع استمرار المطارحات وتداول الأفكار برز رأي الراهب الدومينيكاني فيلهلم

(١) أوروبا المسيحية، ٢/ ٢٩٠، يان دوبرا تشينسكي، تاريخ الحروب الصليبية، ٣/ ٨٦٠، ستيفن رنسيمان.

الطرابلسي، وقد وضّح للبابا والحاضرين عدم جدوى تجهيز حملة صليبية عسكرية لا تسبقها عمليات تنصيرية مباشرة للمسلمين، حيث إن وضع المسلمين في الديار المقدسة وما حولها قد تغير من الضعف إلى القوة، ومن الاختلاف إلى الاجتماع، فهو أخبر بهم وأدرى بشؤونهم؛ لأنه كان يعمل في التنصير بين المسلمين في عكا لسنوات مضت، كما أن وضع الصليبيين في أوروبا قد تغيّر أيضاً من الحماسة الصليبية إلى الفتور، وحب الدعة، وكراهية القتال، وقد ذكّر الحاضرين بآراء اللاهوتي روجر بيكون عندما طرح مسألة الاهتمام بغزو المسلمين غزواً عقائدياً على البابا اكليمنت الرابع في عام ١٢٦٦م، وهو الآن في هذا المجمع يعيد أهمية ما ذهب إليه بيكون [١].

ومع مرور الوقت برز صدق رأي فيلهلم الطرابلسي في عدم استطاعة الغرب الكاثوليكي الانتصار من الناحية العسكرية على المسلمين، وفي الوقت نفسه برزت أهمية غزو المسلمين غزواً عقائدياً من جهة تنصيرهم، وناصره من بعده كثير من المفكرين واللاهوتيين الكاثوليك. وكان أبرزهم: (ريموندو لول) خاصة في مجمع فيينا الكنسي، والذي يعد المحطة الرئيسة الثانية لمسألة الاهتمام بتنصير المسلمين.

ثانياً: المجمع الكنسي المسكوني الخامس عشر (١٦ تشرين الأول ١٣١١ - ٦ أيار ١٣١٢م):

وقد افتتح هذا المجمع بابا روما إكليمنضوس (كليمنت) الخامس (٥ حزيران ١٣٠٥ - ٢٠ نيسان ١٣١٤م) في فينّا بفرنسا في ١٦ تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٣١١م، وذلك بعد أن فشلت الجهود الصليبية العسكرية ضد المسلمين في تلك الأوقات وما حدث من خروج نهائي للصليبيين وطردهم من أرض بيت المقدس عام ١٢٩١م، فتحطمت بذلك آمال الصليبيين في أن يكون لها شيء يذكر على أرض فلسطين وما حولها.

لهذا كله كانت فكرة غزو الأمة الإسلامية غزواً عقائدياً بعمليات تنصيرية مكثّفة مع إلمام ودراسة للغة الإسلام، اللغة العربية؛ حتى يكون سلاحاً فعّالاً في أيدي المنصّرين يستطيعون من

(١) أوروبا والمسيحية، ٢/ ٢٨٩، ٢٩٠، يان دويرا تشينسكي.

خلاله أن يغزوا المسلمين في عقيدتهم ويشككوهم في إسلامهم؛ هي المسيطرة علىٰ ذلك المجمع المسكوني الخامس عشر في فرنسا، وذلك مع وجود دعاة ولاهوتيين مطالبين باستخدام هذه الطريقة (التنصير) في غزو المسلمين. أمثال الراهب الفرنسيسكي الإسباني ريموند لول (١٢٣٥-١٣١٤م)، فقد عمل مشروعاً ضخماً لخدمة هذه المسألة [١]، والذي علىٰ أساسه وافق البابا علىٰ أخذ مسألة تنصير المسلمين مأخذ الجد، والتي قد تعوّضه وطائفته الكاثوليكية ما خسروه من العساكر الصليبيين في حروبهم العسكرية ضد المسلمين علىٰ امتداد أكثر من قرنين من الزمان، فأصدر مرسومه البابوي بإنشاء كراسٍ جامعية في الجامعات الخمس الكبرى في أوروبا آنذاك: في جامعة باريس، وأكسفورد في لندن، وجامعة بولونيا، وجامعة سلمنكا، وجامعة الإدارة المركزية البابوية في روما لتدريس اللغة العربية وبعض العلوم الأساسية لفهم الدين الإسلامي [٢].

كما أن هذا الراهب الفرنسيسكاني قد استطاع أن يحصل على إذن من الملك يعقوب صاحب أرغونة ليقوم بعرض العقيدة النصرانية على المسلمين في مساجد برشلونة محتمياً بالسلطة النصرانية في إسبانيا [٣].

ثالثاً: مجمع انتشار الإيمان:

وقد أنشأت البابوية في عام ١٦٢٢م مجمعاً أسمته (مجمع انتشار الإيمان) يتولى الكرسي البابوي الإشراف عليه مباشرةً.

وهذا المجمع عبارة عن وزارة تتولى زمام التنصير وتهتم بالإرساليات، وقد أطلقت عمليات تحقيق واسعة عن النشاط الإرسالي في العالم، وقدّم لإرساليات التنصير إمكانيات عديدة في بداية

---

(١) وهذا المشروع الضخم الذي وضعه الراهب ريموند لول سلك فيه مسلكين:
المسلك الأول: الدعوة إلى تأسيس معاهد وجامعات لتعليم لغة الإسلام (اللغة العربية) ودراسة بعض علوم الإسلام الأساسية.
المسلك الثاني: الانخراط في مساجلة المسلمين والرد على معتقداتهم وتفكيرهم الديني الإسلامي، مع حثه على الاستعداد العسكري المتواصل لمجابهة المسلمين إذا سنحت الفرصة لذلك.
انظر في ذلك إلى: الإسلام في تصورات الاستشراق الإسباني، ص ١٥٩، الدكتور محمد عبد الواحد العسري.

(٢) تاريخ حركة الاستشراق، ص ٣٢، يوهان فوك.

(٣) التبشير والاستعمار، ص ١١٥، مصطفى الخالدي وعمر فروخ.

تأسيسه، أهمها: مطبعة متعدّدة اللغات. كما أنشأ نظام (النوّاب الرسوليين) وهم أساقفة مرسلون مهتمون بالتنصير مرتبطون مباشرةً بالبابا[1].

فكل الإرساليات وعمليات التنصير الكاثوليكية من أيّ جهة (رهبانية) تابعة للكرسي البابوي بعد إنشاء هذا المجمع (مجمع انتشار الإيمان) أي بعد تاريخ ١٦٢٢م يجب أن تكون خاضعة لتنظيم هذا المجمع وموافقته[2].

رابعاً: المجمع الفاتيكاني الثاني (المسكوني الكنسي الحادي والعشرون) من ١١ تشرين الأول ١٩٦٢م إلى ٨ كانون الأول ١٩٦٥م[3]:

بدأ المجمع برئاسة بابا روما يوحنا الثالث والعشرين (١٩٥٨ - ١٩٦٣م) وبدأ فيه بدورة واحدة فقط في خريف ١٩٦٢م، ثم أكمله خلفه بابا روما بولس السادس (١٩٦٣ - ١٩٧٨م) وأكمله بثلاث دورات أخرى، والدورة الثانية خريف ١٩٦٣م، والدورة الثالثة خريف ١٩٦٤م، والدورة الرابعة والأخيرة في سبتمبر ديسمبر ١٩٦٥م[4].

وقد أعلن هذا المجمع (المجمع الفاتيكاني الثاني) عن اتخاذه قرارات خطيرة ومهمة لم تتخذ في مجامع مسكونية كنسية من قبل، غيّرت بعض الشيء من منهجية الكنائس الكاثوليكية في العالم المعاصر، وهي:

١. العمل على توصيل الإنجيل للبشر كافة، أي (تنصير العالم)، وأوّل ذلك تنصير المسلمين.

جاء في وثيقة من وثائقه في هذا الأمر: (وأمّا الذين لم يتقبلوا الإنجيل بعدُ فهم أيضاً مدعوُّون بطرقٍ مختلفةٍ إلى شعب الله، وأوّلهم ذلك الشعب الذي أُوتي العهودَ والمواعيدَ، والذي منه خرج المسيح بحسب الجسد... بيد أن تدبيرَ الخلاص يشمل أيضاً أولئك الذين يؤمنون

(١) دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص ٢٦٧، الأب جان كمبي.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٦٧، ٢٧٧، الأب جان كمبي.

(٣) الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ص ٩٠٦.

(٤) دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص ٣٧٩، ٣٨٠، الأب جان كمبي.

بالخالق، وأوّلهم المسلمون الذين يُعلنون أنهم على إيمان إبراهيم، ويعبدون معنا الله الواحد، الرحمن الرحيم، الذي يدين الناس في اليوم الآخر،... من أجل ذلك تُعنى الكنيسة العناية الحارّة بتعزيز الرسالات لأجل مجد الله وخلاص جميع الناس متذكّرة وصيةَ الربِّ القائل: (بشّروا بالإنجيل الخليقة كُلّها) مرقس: ١٦ ١٥)[1].

وجاء في وثيقة أخرى تحت عنوان: (طابع الكنيسة الإرسالي): (فكما أن الابن قد أرسلَه الأب، كذلك أرسل هو أيضاً الرسل (يوحنا ٢٠: ٢١) قائلاً لهم: (فاذهبوا إذن وعلّموا جميع الأمم عمّدُوهم باسم الأب والابن والروح القدس، ولقّنوهم أن يحفظوا كُلّ ما أوصَيتكم به...) (متى ٢٨: ١٨ - ٢٠) وهذه الوصية الرسمية من المسيح بنشر حقيقة الخلاص قد تسلّمتها الكنيسةُ من الرسل لِتواصلَ القيامَ بها حتى أقاصي الأرض (أعمال الرسل ١: ٨)، لذلك تتبنّى قولَ الرسول: (الويل لي إن لم أُبَشِّرْ بالإنجيل) (الرسالة الأولى لأهل كورنثوس ٩: ١٦) ولذلك لا تني تبعث قوافلَ المرسلين إلى أن يتم إنشاء الكنائس الحديثة فتتولّى هي بنفسها مُواصلةَ التبشير بالإنجيل... إنّ واجب نشرِ الإيمان منوطٌ بكلّ تلميذ للمسيح على حسب طاقته...)[2].

فمثل هذه الوثائق المقرّرة في المجمع الفاتيكاني الثاني أصبح لزاماً على كل كاثوليكي أن يُكرّز الإنجيل (يعمل على تنصير الآخرين) لا فرق في هذا الواجب عندهم بين من هو منخرط في السلك الاكليروسي للطائفة الكاثوليكية، أو غيره من الكاثوليكيين الآخرين الذين يُسمّونهم بالعلمانيين[3].

---

(١) الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، وثائق المجمع الفاتيكاني الثاني، ص ٩٤٠، وثيقة رقم (١٦) في الجلسة الخامسة العلنية، ٢١ تشرين الثاني (١٩٦٤م): دستور عقائدي في الكنيسة.

(٢) المرجع السابق، ص ٩٤، وثيقة رقم (١٧) في الجلسة الخامسة العلنية، ٢١ تشرين الثاني (١٩٦٤م): دستور عقائدي في الكنيسة.

(٣) المقصود بالعلمانيين عند الكاثوليك هم: مجموعة النصارى الذين ليسوا أعضاءً في الدرجات المقدسة عندهم ولا في الحالة الرهبانية التي أقرتها الكنيسة. انظر: إلى وثيقة رقم (٣١) في الجلسة الخامسة العلنية، ٢١ تشرين الثاني (١٩٦٤م) دستور عقائدي في الكنيسة، من وثائق المجمع الفاتيكاني الثاني. كتاب: الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ترجمة: المطران يوحنا منصور، والأب حنا الفاخوري، ص ٩٥٦.

فجاء في إحدى وثائق المجمع الفاتيكاني الثاني: (إن العلمانيين، وقد جُمِّعوا في شعبِ الله ويكوّنون جسد المسيح الواحد تحت رأسٍ واحد؛ لمدعوُّون، أيّاً كانوا، للإسهام، كأعضاءٍ حيّةٍ، في نمو الكنيسة وتقديسِها باستمرار...

فجميعُ العلمانيين إذن مُلتزِمون بهذا الواجب النبيل، واجب العمل على أن تبلغ مقاصدُ الله الخلاصية، أكثرَ فأكثر، جميعَ الناس في جميع الأزمنة وفي الأرض كُلِّها...)[1].

٢. ابتداع طريقة ماكرة وخبيثة في مواجهة المسلمين وغزوهم عقدياً وفكرياً تُنجّيهم من المواجهة العسكرية مع المسلمين والتي تُكلِّفهم كثيراً من الأموال والأرواح ولا يجنون منها فائدة كبيرة، وهذه الطريقة الجديدة التي ابتدعها المجمع الفاتيكاني الثاني هي: (مسألة الحوار مع المسلمين).

جاء في إحدى وثائق هذا المجمع: (والكنيسةُ الكاثوليكيّةُ لا تَنْبذُ شيئاً مما هو في هذه الديانات حقٌّ ومقدّسٌ، وتُولي تقديرَها باحترام صادقٍ هذه الطرقَ المسلوكة في العملِ والحياةِ، وهذه القواعد والتعاليم، التي، وإن اختلفت في أمور كثيرةٍ عمّا تقول به هي وتُعلِّمُه، تحمِلُ غير مرة قبساً من شعاع الحقيقة التي تُنيرُ جميعَ الناس. غير أنها تُبشِّرُ، ويجب أن تُبشِّرَ بلا انقطاعٍ، بالمسيح الذي هو (الصراطُ والحقيقةُ والحياةُ) (يوحنا ١٤: ٦)...

وتنظر الكنيسةُ بتقديرٍ إلى المسلمين الذين يعبدون الله الواحد، الحيَّ القيوم... وإنّهم على كونهم لا يعترفون بيسوع إلهاً، يكرمونه نبياً، ويكرمون أمّه العذراءَ مريم، مبتهلين إليها أحياناً بإيمان....

ولئن كان قد وقعَ، في غُضُونِ الزمنِ كثيرٌ من المنازعات والعداوات بين المسيحيين والمسلمين فإنّ المجمع يَحرِّضُهم جميعاً على نسيان الماضي، والعمل باجتهاد صادقٍ في سبيل التفاهم في ما بينهم...)[2].

---

(١) وثيقة رقم (٣٣) في الجلسة الخامسة العلنية، ٢١ تشرين الثاني ١٩٦٤م في (دستور عقائدي في الكنيسة)، من وثائق المجمع الفاتيكاني الثاني، كتاب: الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ص ٩٥٨، ٩٥٩.

(٢) الجلسة السابعة العلنيّة، ٢٨ تشرين الأول ١٩٦٥م: بيان في علاقات الكنيسة بالديانات غير المسيحية، وثيقة رقم (٢) ورقم (٣). المجمع الفاتيكاني الثاني، كتاب: الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ص ٩٩٠، ٩٩١.

٣. تبرئة اليهود من دم المسيح عيسى في زعمهم أنه صُلب، وهي وثيقة خطيرة قلبت اعتقاد النصارى القديم في اليهود رأساً على عقب، مما يدل دلالة واضحة إلى المدى البعيد الذي وصل إليه الاختراق اليهودي للبابوية وكنائسها الكاثوليكية ودرجاتها الكهنوتية المقدسة [١].

جاء في إحدى وثائق المجمع الفاتيكاني الثاني: (... فكنيسة المسيح تعترفُ بأنّ بواكيرَ إيمانها ودعوتها تُوجَدُ من قبيل سرِّ الخلاص الإلهي في الآباء وموسى والأنبياء... وأن خلاص الكنيسة مرموز إليه بوجه سريٍّ بخروج الشعب المختار من أرض العبودية... ولا تني الكنيسةُ تجعلُ نُصْبَ عينيها كلماتِ الرسولِ بولس في ذوي قُرْباهُ الذين (لهم التبنّي، ولهم المجدُ والعهودُ والشريعةُ، ولهم العبادةُ المواعيدُ والأباءُ، ومنهم وُلِدَ، بحسب الجسد، المسيح) (رومية ٩: ٤ ٥)، ابنُ العذراء مريم. وتُذكِّر أيضاً بأن الرسلَ، وهم أساسُ الكنيسة وعمادُها، قد وُلِدوا في الشعب اليهودي، وكذلك أيضاً عددٌ كبير من التلاميذ الأوّلين الذين دَعَوا في العالم بإنجيل المسيح....

وبإزاءِ هذا الواقعِ، واقع التراثِ الروحيِّ العظيم، المشترك بين المسيحيين واليهود، يريدُ المجمعُ أن يشجّعَ ويُحرّض على التعاونِ والتقدير المتبادل بين الملتين....

ولئن يكن ذوو السلطان من اليهود ومشايعوهم هم الذين دفعوا على قتل المسيح، فإنّ ما اقترفَتْهُ الأيدي إبّان الأمة لا يمكنُ إسناده، في غير تمييز، إلى جميع اليهود الذين عاشوا آنذاك، ولا إلى اليهود العائشين في عصرنا. من أجل ذلك لا يجوز على كون الكنيسة هي الشعب الجديد لله أن يُشهَّر باليهود بأنهم منبوذُون من الله وأنهم ملعونون، كما لو كان ذلك يُستنجُ من الكتاب المقدس) [٢].

ولا شك في أن هذا التقارب بين النصارى واليهود دليل على فشل الحوار المزعوم بين النصارى

(١) انظر: عقيدة اليهود في الوعد بفلسطين، ص ٦٧ ٨٣، محمد بن علي آل عمر.

(٢) الجلسة السابعة العلنيّة، ٢٨ تشرين الأول ١٩٦٥: بيان في علاقات الكنيسة بالديانات غير المسيحية، وثيقة رقم (٤)، المجمع الفاتيكاني الثاني، الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ص ٩٩١، ٩٩٢.

والمسلمين، والذي تزعم فيه الكنيسة الكاثوليكيّة أنّه سوف يُنسي العداوة بين النصارى والمسلمين، وهي، أي الكنيسة الكاثوليكيّة، في الوقت نفسه تمد يدها لمن يطعن المسلمين في صدورهم وظهورهم، واحتلّوا أراضيهم المقدسة، وهم اليهود.

خامساً: قرارات بابوية ما بعد المجمع الفاتيكاني الثاني في حث أتباع الطائفة الكاثوليكية لمواصلة التنصير:

أ) وثيقة صدرت بموافقة بابا روما بولس السادس (١٩٦٣ - ١٩٧٨م) بمسمى (التحريض الرسولي nntiandi Evangelii) في ٨ كانون الأول ١٩٧٥م[1].

وهذه مقتطفات من هذه الوثيقة البابوية:

(إن الشهادة التي يعطيها المسيح الرب لنفسه، والتي التقطها القديس لوقا في إنجيله (لا بد لي من إعلان البشارة بملكوت الله)، لها بلا ريب مؤدى كبير، إذ إنّها تحدد بكلمة كل رسالة يسوع: (لذلك أرسلت)...).

(... تعلم الكنيسة جيداً أنّ عليها نقل الإنجيل لأنها تعي وعياً شديداً أن كلام المخلص: (لابد لي أن أُبشّر بملكوت الله) ينطبق تماماً عليها بحق. وتضيف مع القديس بولس: (إن التبشير بالإنجيل ليس لي موضوع فخر، إن ذلك ضرورة موضوعة عليّ والويل لي إن لم أُبشر)، فالتبشير بالإنجيل هو نعمة الكنيسة ودعوتها الخاصة والتعبير عن أعمق ماهيتها. الكنيسة موجودة لأجل البشارة، أي لأجل الكرازة وتعليم كلام الله...).

(إن التبشير بالنسبة إلى الكنيسة، هو في الحقيقة شيء واحد مع نقل البشارة إلى جميع الأوساط البشرية...).

(... والأمر بالنسبة إلى الكنيسة ليس فقط في إعلان الإنجيل في أقطار تتسع دوماً، أو لجماهير بشرية تزداد دوماً عدداً، ولكن أيضاً في أن تبلغ بل تقلب بقوة الإنجيل ذاتها، مقاييس الحكم،

---

(١) الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ص ١٠٩٦ - ١٠٩٩.

والقيم المسيرة، ونقاط الاهتمام وخطوط الفكر ومصادر الوحي، وأنماط حياة البشرية المضادة لكلام الله وقصده الخلاصي).

(إن القطيعة بين الإنجيل والثقافة هي بلا ريب مأساة في عصرنا، كما كانت في عصور أخرى. لذلك يجب بذل كل الجهود في سبيل تبشير كريم للثقافة البشرية، أو بكلام أصح للثقافات ذاتها. فلا بد من تجديد لها بالبشارة. إلاَّ أنّ هذا التلاقي لن يتم إذا لم تعلن البشارة).

ب) وثيقة الجمعية العمومية في الفاتيكان لأساقفة أمريكا اللاّتينية في بويبلا (المكسيك) في ١٣ شباط ١٩٧٩م بموافقة بابا روما يوحنا بولس الثاني (١٦ تشرين ١٩٧٨ - ٢ أبريل ٢٠٠٥م)[1].

وهذه مقتطفات من هذه الوثيقة البابوية:

(إن شعب الله، بما أنه سِرّ الخلاص الشامل، هو بكليته في خدمة المشاركة بين البشر والله، والمشاركة بين أبناء الجنس البشري كله. لذلك فالكنيسة هي شعب من الخُدّام. وطريقتها الخاصة في الخدمة هي التبشير).

(والجميع الرؤساء والعلمانيون والرهبان في شعب الله هم خدام الإنجيل، كل واحد بحسب مهمته وموهبته الخاصة. والكنيسة كخادمة للإنجيل تخدم الله والبشر معاً، ولكن لتقود هؤلاء إلى ملكوت الرب).

(لا بد من أن يلج التبشير عمق قلب البشر والشعوب. لذلك تقصد حركيته الاهتداء الشخصي والتحول الاجتماعي. ولا بد أن يمتد التبشير إلى كل الشعوب. ولذلك تقصد حركيته الجنس البشري بأسره...).

ج) وثيقة صدرت بموافقة بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثاني (١٩٧٨ - ٢٠٠٥م) بمسمى

---

(١) الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ص ١١٠٧، ١١٠٩، ١١١٠ - ١١١٢.

(إرشاد رسولي بعد المجمع) Iaici Chistifideles في ٣٠ كانون الأول ١٩٨٨م[١].

وفيها: (إن رسالة الكنيسة الخلاصيّة في العالم لا تتحقق فقط بواسطة الخُدّام الذين نالوا سرّ الكهنوت، بل بواسطة جميع المؤمنين العلمانيين أيضاً، وهؤلاء بصفتهم معمدين ومدعوّين للقيام برسالة نوعيّة، يشاركون المسيح، كلّ بحسب طاقته، في خدمة الكهنوتيّة والنبويّة والملوكيّة... بحيث يضعون مواهبهم وطاقاتهم في خدمة التبشير...).

وهناك وثائق بابوية أخرى في شأن أهمية التنصير والحث عليه، وهي بموافقة بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثاني، وهي:

- وثيقة بعنوان (الرسالة العامة) (missio edemptois) في ٧ كانون الأول عام ١٩٩٠م[٢].

- الوثيقة النهائية لمؤتمر أساقفة أمريكا اللاّتينيّة في سان دومينغو، والمسماة: (يسوع المسيح المبشر الحي في الكنيسة) من ١٢ إلى ١٨ تشرين الأول عام ١٩٩٢م[٣].

- وثيقة بعنوان (الرسالة الرسولية) (Afica in Eccesia) في ١٤ أيلول عام ١٩٩٥م[٤].

التنصير والاستعمار (المصالح المشتركة):

بدأت أطماع الغرب النصراني لما أصبحت بيد القوة تنفذ في العالم الإسلامي عندما أصبح ضعيفاً عن طريق الحروب الصليبية الاستعمار القديم، ثم لما فشل ذلك الغزو العسكري الصليبي انقلب إلى غزو فكري، عقائدي، تنصيري، موجّه للأمة الإسلامية إبّان قوتها، ثم لما ضعفت عسكرياً وتقوّت الدول الغربية النصرانية استأنفت حروبها العسكرية الصليبية على الأمة الإسلامية، ولكنّها لم تترك غزوها الفكري العقدي التنصيري على الأمة الإسلامية، بل وجدت له طرقاً

(١) الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ص ١١٦٢، ١١٦٦.

(٢) الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ص ١١٧٢، ١١٧٤، ١١٧٥.

(٣) الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ص ١١٨٥ - ١١٨٦.

(٤) الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، ص ١٢٠٦ - ١٢٠٧.

وأساليب جديدة. فأصبحت لذلك مصالح مشتركة بين حركة الغزو الفكري العقدي التنصيري وبين حركة الاستعمار، كل منهما يتكئ على الآخر ويتعاون معه للقضاء على الأمة الإسلامية.

وأهم تلك الخطوات في هذا التعاون المشترك كانت في عهد الكشوفات الجغرافية النصرانية الأولى البرتغالية والإسبانية.

يقول الأب جان كمبي: (إن الاكتشافات الكبرى التي تمّت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر كانت نقطة الانطلاق في تبشير العالم، فأصبحت الكنيسة جامعة بالفعل. على أن التبشير اختلط بالتجارة والاستعمار، وتقلّبات السياسة والنزاعات العالمية. في خلال القرن الخامس عشر منح الكرسي الرسولي في سلسلة من البراءات الولاية الزمنية والروحية على الأراضي المكتشفة والتي ستُكتشف... فحدّد حقل الاكتشافات: الغرب للإسبانيين، والشرق للبرتغاليين، وتخلّى البابا لصالح الملِكَين، كل في أراضيه، عن مسؤولية تنظيم الكنيسة، من تحديد الأبرشيات وتعيين الأساقفة... إلخ فأصبح الملِكان إلى حد ما رئيسي الكنائس الجديدة، واكتفى البابا بالتصديق على التعيينات)[1].

وعندما وجد ساسة الدول الغربية النصرانية طريقاً على حُكّام الدولة الإسلامية العثمانية، وجدت بسبب ذلك جحافل المنصِّرين طريقاً على الشعوب الإسلامية.

(وليس من المستغرب أن تستجيب الدول الغربية لرغبة مبشريها، أليس في ذلك تأييد للنفوذ السياسي؟ من أجل ذلك كانت هذه الدول تضغط على الدولة العثمانية بين الحين والآخر من أجل مبشريها، فتلين الدولة العثمانية أمام هؤلاء المبشرين.

أراد الأتراك مرة إغلاق بعض مدارس المبشرين، ولكنّهم تراجعوا أمام ضغط سياسي[2].

فقد استفاد كل من الآخر في تحقيق أهدافه، وهذا ما أشار إليه أحد الفرنسيين المعاصرين

(١) دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص ٢٦٥، ٢٦٦، الأب جان كمبي.

(٢) التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص ١١٧، مصطفى الخالدي وعمر فروخ.

للنشاط التنصيري حيث يقول: (لقد وجد كل طرف مصلحته في هذا الاتفاق بين الحكومات الفرنسية والجماعات الكاثوليكية، فحيث ينشط تأثيرها يفتح حقل جديد لنشاط المرسلين، وعلى عكس ذلك تماماً، فإن الأهالي الذين يكسبهم المرسلون يتحولون إلى أنصار جدد يُضحّون في سبيل مصالحنا، ونمارس عليهم حمايتنا الرسمية أو في الأقل وصايتنا)[1].

لذلك انطلقت الإرساليات التنصيرية الكاثوليكية تجوب أنحاء الدولة العثمانية، ثم بعدها الدول الإسلامية المنفصلة، بكُلّ حرية واطمئنان تبث سمومها، وتنشر عقائدها؛ لأن الدول الغربية النصرانية عموماً، وفرنسا وإيطاليا والبابوية خصوصاً كانت تحميهم وتؤيّدهم[2].

ففي بداية القرن السابع عشر، حصلت فرنسا على حق حماية الكاثوليك الأوروبيين مع كنائسهم ورجال دينهم المقيمين في الدولة العثمانية، ثم أخذت تتوسع هذه الحملة الفرنسية لتشمل أيضاً الكاثوليك العثمانيين أنفسهم أي العرب وغير العرب الخاضعين للسلطة العثمانية والإرساليات الأوروبية العاملة بينهم[3].

كما أن الانتداب الفرنسي أتاح حرية واسعة المدى للتنصير في سورية ولبنان، وكانت الكنيسة الكاثوليكية تضع لنفسها حدود هذه الحرية بالتعاون مع الموظفين الفرنسيين الذين كانوا كاثوليكاً، فمدارسهم الكاثوليكية، ومستشفياتهم، وهيئاتهم الاجتماعية، وأعمالهم التنصيرية المباشرة كانت كلها تمضي في أعمالها التنصيرية من غير أن تلقى من الحكومة أي عرقلة تُذكر[4].

وقد فتحت الحكومة الفرنسية المجال للإرساليات التنصيرية الكاثوليكية لإنشاء مدارس تابعة لها في شمال إفريقيا (المغرب وتونس والجزائر) خاصة في عهد الجنرال ليوتي Ltty. فقد كان هذا

(١) التبشير بين الأصولية المسيحية وسلطة التغريب، ص ٦، عدنان عويّد.

(٢) التبشير والاستعمار، ص ١٢١، الخالدي وفروخ، الانحرافات العقدية والعلمية، ص ٩٣٣، علي بخيت الزهراني.

(٣) التبشير بين الأصولية المسيحية وسلطة التغريب، ص ٤٢، عدنان عويّد.

(٤) التبشير والاستعمار، ص ١٢٥، مصطفى الخالدي وعمر فروخ.

الرجل العسكري مستميتاً في تكوين مشروع يهدف إلى تنصير أبناء المنطقة، وقد قال رئيس تحرير صحيفة الصليب الباريسية مسيو جان كروا عن هذا الجنرال: (تلك سياسة رجل بعيد النظر وجديرة بأن تكون سياسة من استحقَّ لقب (ليوتي الإفريقي) كما استحقه من قبل سيبون sipont القائد الروماني العظيم)[١].

وقد استفادت تلك الإرساليات التنصيرية من دعم الحكومة الفرنسية لها لأقصى حد تستطيع الاستفادة منه، فركّزت في دعوتها على الأيتام والفقراء، ولكن العدد بقي ضئيلاً بالنسبة لمقاصد الحكومة الفرنسية وأطماع الإرساليات الكاثوليكية، فأخذت فرنسا تحارب التعليم الديني الإسلامي واللغة العربية بقوة السلاح[٢].

ثم إن الحكومة الفرنسية الاستعمارية وغيرها من الحكومات النصرانية تتكفل بطباعة الأناجيل والكتب النصرانية للإرساليات التنصيرية بلغات الأقوام الإسلامية المحتلة إن كانت عربية أو بربرية أو غيرها[٣].

كما أن الحكومة الإيطالية الكاثوليكية تحاول أن تمسك زمام المبادرة للاستفادة من الإرساليات الكاثوليكية في المناطق التي احتلتها، وذلك لوجود السلطة الروحية الأكبر في أوروبا على أراضيها وهي (الفاتيكان).

فقد كانت تلك الإرساليات التنصيرية هي الطلائع الأولى التي سبقت الاحتلال الإيطالي ليبيا وجزء من القرن الإفريقي (الصومال وما حوله) وباقي مستعمراتها الأخرى[٤].

يقول التقرير الذي رفعه الأسقف (colombo salvato .M) إلى مقر عمله في الكنيسة

---

(١) مجلة المغرب الكاثوليكي، العدد (٣) نوفمبر ١٩٢٣م، نقلاً عن: الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، ص ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، مصطفى نصر المسلاتي.

(٢) الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، ص ١٣٤، ١٦١، مصطفى المسلاتي.

(٣) الإسلام الغزو الفكري، ص ١٧٥، د. محمد عبد المنعم خفاجي، د. عبد العزيز شرف.

(٤) الاستشراق السياسي، ص ١٦١، ١٦٢، مصطفى المسلاتي، التنصير في القرن الإفريقي ومقاومته، ص ٧٢، سيد أحمد يحيى.

الكاثوليكية بروما بأنه غادر القسيس (basili lendro) ليندرو باسيلي مدينة روما في ٢١/ ١٠/ ١٩٠٤م، وذلك على رأس بعثة تبشيرية إلى كسمايو، كان هدفها غزو العقيدة الإسلامية في المناطق الصومالية، وتنصير أولاد المسلمين الفقراء، وتمهيد الطريق لاستعمار البلاد، وسيطرة إيطاليا على مكاسبها وثروات أراضيها.

وتمكن القسيس ليندور باسيلي الذي يُعد مؤسس المدارس التنصيرية الكاثوليكية في جنوب الصومال أن يؤسس عدداً كبيراً من المراكز التنصيرية في كل من كسمايو، وجلب، ونيتوى، وذلك بتاريخ ١٢/ ٢/ ١٩٠٦م [١].

وكذلك فإن الحكومة الإيطالية فتحت المجال للرهبنة الفرنسيسكانية للعمل بحرية في ليبيا[٢].

ولقد كانت الحكومة الإيطالية تحاول دائماً عبر إرسالياتها التنصيرية ومستشرقيها وبكلِّ الطرق أن تبث بين الشعوب الإسلامية التي احتلتها أن الإسلام دين التخلّف وأن العنصر الإسلامي والعربي قاصر في مجالات التقدُّم الحضاري، كما كانت تحاول تشويه تاريخ تلك البلدان المحتلة مرتكزة على التاريخ الروماني وأمجاد روما القديمة، فلم تدع وسيلة إلاَّ استخدمتها في سبيل إبرازِ التفوُّق النصراني والروماني على الإسلام والعروبة [٣].

وهذا الكاردينال لافيجري (١٨٢٥ - ١٨٩٢م) وكان قد عمل مع الحكومة الفرنسية الاستعمارية في الشمال الإفريقي خاصةً في الجزائر يرى ضرورة التعاون بين الاستعمار والتنصير، فالقوة العسكرية واستعمال العنف عنده ضرورة لازمة في مبدأ الأمر مع الأهالي المسلمين حتى يخضعوا تماماً، ثم يأتي دور الإرساليات التنصيرية لتفتح أعين أولئك الأهالي على تأخرهم وسوء حالهم ووجوب الخروج من هذه الحالة المتأخرة بالدخول في النصرانية، وبهذا يشعر الأهالي بالرفق والرحمة بعد القوة والقسوة والعنف، وأن هذه الإرساليات يمكن أن تنجح حتى في فشل العمل

(١) التنصير في القرن الإفريقي ومقاومته، ص ٧٢، سيد أحمد يحيى.

(٢) الاستشراق السياسي، ص ١٦٣، مصطفى نصر المسلاتي.

(٣) المرجع السابق، ص ١٦٢، مصطفى نصر المسلاتي.

العسكري والإداري[1].

وكان البابا بيوس التاسع (١٦ حزيران ١٨٤٦ - ٧ شباط ١٨٧٨م)، والكاردينال لافيجري يحدوهما أمل تحقيق حلم الحركة الصليبية القديمة منذ الحرب الصليبية الثامنة بقيادة الملك الفرنسي لويس التاسع عام ١٢٧٠م على شمال إفريقيا والمتمثل في وجوب بعث النصرانية في الشمال الإفريقي. لذلك كتب الكادرينال لافيجري في ٥ مايو عام ١٨٦٧م إلى الإرساليات التنصيرية هناك قائلاً: (سآتيكم إخواني الأعزاء في ساعة مشهورة في تاريخ إفريقية المسيحية، الكنيسة وفرنسا متفقتان على إحياء أمجاد الماضي)[2].

ومن الدعم والحماية للنشاط التنصيري، أنه لا يُلقى القبض على أي راهب أو راهبة حتى تقوم الدول الاستعمارية بمساعيها الجادة المتواصلة لحماية هذا الشخص خاصة في قارة مثل إفريقيا، فقد كان القانون فيها ضعيفاً إلى حد ما في تلك الأوقات، وبها حركات معارضة وثورات عامة بها حالة غليان مستمر. ومن المعلوم أن الكنائس العاملة في إفريقيا متعددة الجنسيات، ورغم الاختلافات المذهبية فيما بينها فإنّها تتعاون في مجال التنصير، وتقسم فيما بينها المناطق والمقاطعات حتى لا تتضارب مصالحهم وتتصادم[3].

ولمصلحة الدول الاستعمارية النصرانية جُنّدت كلُّ الجهود التنصيرية والدراسات الاستشراقية لتحليل الأمة الإسلامية والعربية إلى شرائح.

وقد جنّد الاستعمار الفرنسي الرهبان الكاثوليك، وصنع منهم أداة ثقافيّة لتنفيذ مخططاته.

ولقد رحّب الرهبانُ النصارى العرب مثلاً بسقوط مدينة الجزائر في يد فرنسا عام ١٩٣٠م وعُدَّ ذلك عندهم أعظم فتح، ومن أهم الحوادث العالمية على الإطلاق. وابتهجوا لذلك وهم الذين

---

(١) الإسلام والغزو الفكري، ص ١٧٧، ١٧٩، د. محمد خفاجي، ود. عبد العزيز شرف

(٢) مدخل إلى تاريخ حركة التنصير، ص ٧٥، د. ممدوح حسين.

(٣) التنصير والتغلغل الاستعماري في إفريقيا، ندوة بحثية تحت إشراف جامعة إفريقيا العالمية، ورقة الدكتور: خالد سر الختم، بعنوان: صور الاختراق الاستعماري والكنسي في إفريقيا، ص ٢٨٠.

ناصبوا تركيا العداءَ منتقدين العرب أن يبقوا ضمن الحلف أو الخلافة الإسلامية، في حين أنهم امتدحوا وطالبوا بأن تنضوي الأقليات النصرانيّة في المشرق تحت علم فرنسا وقداسة البابا الروحية[1].

فالبابوية وكنائسها تمتلك علاقات قوية ومصالح مشتركة مع دول الغرب الاستعماري ولكن خارج نطاق أراضيها الأوروبية، أي علاقات مميزة خارجياً فقط، فالعلاقة بينهم داخل النطاق الأوروبي سيئة منذ عهد الثورة الفرنسية التحررية عام ١٧٩٨م.

ولا شك في أن البابوية وكنائسها استفادت من تلك العلاقة الخارجية في دعم إرسالياتها التنصيرية في ظل تلك الحكومات الاستعمارية لأغلب أجزاء العالم الإسلامي، كما أن تلك الحكومات النصرانية الغربية استفادت من البابوية وكنائسها لتركيع الشعوب المحتلة عقائدياً ونفسياً لأطماعها الاستعمارية.

وهذا القائد العسكري الجنرال الفرنسي بيجو، كان دائماً يقول للقسس والرهبان المرافقين له عندما يُحضرون أمامه بعض الأطفال الجزائريين المسلمين الذين قُتل أهلهم في المعارك أو في حملات الإبادة التي كان يقوم بها ضد الجزائريين: (حاول يا أبتي أن تجعلهم مسيحيين، وإذا فعلت فلن يعودوا إلى دينهم ليطلقوا علينا النار)[2].

(ويستغرب المبشر هنري جسب كيف أن فرنسا قد طردت اليسوعيين من بلادها ثم هي تنفق عليهم في الخارج ملايين الفرنكات ذهباً. ولا غرو فإن فرنسا كانت ترسل اليسوعيين إلى الخارج عُمّالاً سياسيين لها ودعامة اجتماعية لآرائها وخالقي مشاكل في سبيل مصالحها. ومع أن فرنسا كانت عدواً لليسوعيين في بلادها فإنها كانت لليسوعيين في الخارج الصنم الذي يعبدونه، وكان اليسوعيون يعدُّون كل تعرض لفرنسا تعرضاً للبابا نفسه)[3].

ويقول جاك مندلسون: (حينما تكون حالة الشبان الإفريقيين سعيدة، فإنهم لا يتعبون من ترديد

---

(١) الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، ص ١٢٦، ١٢٧، مصطفى نصر المسلاتي.

(٢) التبشير بين الأصولية المسيحية وسلطة التغريب، ص ٢١، عدنان عويّد.

(٣) التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص ١٢١، مصطفى خالدي، وعمر فروخ.

القصة القديمة: إن المبشرين جاؤوا إلينا وقالوا إننا نريد أن نعلمكم العبادة، وقلنا حسناً، إننا نريد أن نتعلم العبادة. وطلب المبشرون مِنَّا أن نغلقَ أعيُننا، وفعلنا ذلك وتعلمنا التعبد. وحينما فتحنا أعيننا، وجدنا الإنجيل في يدنا، ووجدنا أراضينا قد اغتصبت.

ولكن هناك أيضاً الكلمات المريرة، كلمات تكررت بلا توقف في إفريقيا كلها: إن حركة التبشير المسيحية كانت محاولة لإخماد الروح الإفريقية)[١].

فالإرساليات التنصيرية تساعد الحكومات الاستعمارية في تطويع الأهالي وإقناعهم بالخضوع لها، ومقابل ذلك تدفع الحكومات إعانات للإرساليات وتمنحها تسهيلات وامتيازات (فدعاوى التبشير تعد أهم مداخل الاستعمار على المستعمَرين، فهي تدّعي بأنها المنقذ من الضلال والقائد إلى التحضر والمدنية)[٢].

وبهذا الارتباط الوثيق بين التنصير والاستعمار وعملهما المشترك على الشعوب المستمعرة (لا تتحقق حالة اغتصاب الروح فحسب، بل وتستلب أيضاً، لتحقق فيما بعد خيانتها لذاتها وتاريخها)[٣].

لذلك قالت صحيفة الجهاد المصرية: (الواقع أن التبشير حركة استعمارية، وليست حركة هداية إلى دين إلهي أيّاً كان الذي تدعو إليه، فإننا لا نعرف ديناً من الأديان يوصي بالغدر والخيانة، إنها أحابيل للعيش ينصبها المستعمرون لخدمة المطامع السياسية ويتوسلون إليها بأناس يرتزقون من هذه المواد)[٤].

لذا عرّف كثير من الباحثين التنصير بأنه حركة: سياسية استعمارية مع كونها حركة دينية.

---

(١) جاك مندلسون صاحب كتاب: الرب والله وجوجو. يتكلم فيه عن الأديان في إفريقيا. انظر: حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، ص ١٣٣، أحمد عبد الوهاب.

(٢) التنصير والتغلغل الاستعماري في إفريقيا، ص ٢٧٧، ورقة بحث بقلم: د. خالد سر الختم، بعنوان: صور الاختراق الاستعماري والكنسي في إفريقيا.

(٣) التبشير بين الأصولية المسيحية وسلطة التغريب، ص ٧، عدنان عويّد.

(٤) صحيفة الجهاد عدد يونيو عام ١٩٣٢م نقلاً عن الإسلام والغزو الفكري، ص ١٨٧، د. محمد عبد المنعم خفاجي، د. عبد العزيز شرف.

الكنيسة الكاثوليكية والإرساليات التنصيرية:

لقد اهتمت البابوية وطوائفها الكاثوليكية بالإرساليات التنصيرية إلى العالم الإسلامي اهتماماً بالغاً، وقد كانت هذه الإرساليات تمارس أعمالها التنصيرية من خلال تخطيط مركزي وقيادة صارمة تتمثل في البابوية [1].

وقد كانت هذه الإرساليات التنصيرية الخيار الأمثل للكنيسة الكاثوليكية في ظل ضعف دولها الغربية النصرانية عسكرياً، بل قد كانت كذلك حتى في قوتها.

والإرساليات التنصيرية تعمل على تحقيق هدف مزدوج في البلاد الإسلامية، أحد طرفيه هدم أو ما تسميه هذه الإرساليات تحليل، والمقصود به تشويه عقيدة الإسلام ومبادئه الأخلاقية في عقول أبناء المسلمين، والطرف الآخر من هذا الهدف المزدوج هو ما تسميه تلك الإرساليات تشييداً أو تركيباً، والمقصود به إدخال أولئك الذين تشوشت في عقولهم العقيدة والمبادئ الإسلامية من أبناء المسلمين إلى النصرانية [2].

فهم بذلك يجلون صعوبة بالغة في تنصير أبناء المسلمين، ولكن عندهم أن هذه المهمة ليست مستحيلة ولأجلها جيشوا الجيوش من الرهبان والراهبات، وضخوا الأموال الطائلة لدعم هذا الهدف (تنصير المسلمين) وتحقيقه.

لذا يجب ألاَّ يستهين المسلمون بأعمال الإرساليات التنصيرية (كاثوليكية كانت أو بروتستانتية أو أرثوذكسية أو غيرها من الجماعات النصرانية المختلفة)، وألاَّ نراهن على الثقافة الإسلامية في قلوب أبناء المسلمين وعقولهم، ونعتقد، ونحن جالسون، أن هذا كفيل بإحباط كل المحاولات التنصيرية الموجهة إلى الأمة الإسلامية، خاصة إذا علمنا أن كثيراً من الدول الإسلامية لا تهتم في خططها التعليمية التنموية بترسيخ الثقافة الإسلامية الصحيحة في عقول أبنائها المسلمين وقلوبهم، وإلاَّ

---

(١) حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، ص ٢٠٣، أحمد عبد الوهاب.

(٢) الغارة على العالم الإسلامي، ص ١٢، لوشا تليه (بتصرف).

كيف ذهبت أجزاء وأجزاء من العالم الإسلامي إلى النصرانية؟! ففي الفلبين، إندونيسيا وغيرها من باقي آسيا، وإفريقيا، وحتى في الوطن العربي تغيّرت النسبة في أتباع الديانات إلى ما يفرح بها النصارى ويحزن عليها المسلمون.

ابتدأت الإرساليات التنصيرية الكاثوليكية تقوى مع بداية الخروج الفعلي المدعوم بالقوة العسكرية للدول الكاثوليكية الغربية أثناء التوسع الاستعماري من خلال الكشوفات الجغرافية، وعلى رأسها البرتغال وإسبانيا، وذلك منذ القرن الخامس عشر الميلادي، وإلاّ فإن طمع النصارى في تنصير المسلمين بدأ باكراً من وقت الحملة الصليبية الخامسة وبالتحديد في عام ١٢١٩م، عندما خرج الراهب فرانسيس الاسيزي إلى مصر يدعو المسلمين هناك إلى اعتناق النصرانية، ثم تتابعت الإرساليات التنصيرية إلى بلاد المسلمين كما في سنة ١٢٢٧م، خرجت بعثة فرانسيسكانية من إيطاليا إلى المغرب، وكذلك في عام ١٢٣٥م بعثة دومينكانية إلى إفريقيا أيضاً، وفي عام ١٢٤٦م خروج الراهب لوب فيرناندو دي إين في مجموعة معه باختيار بابا روما أنوسنت الرابع إلى مراكش.

كما أنّ المغرب العربي ماج بأصناف الرهبان المنصِّرين مستفيدين في ذلك من تدهور أوضاع دولة الموحدين الإسلاميّة، منذ عام ٦٠٨ هـ-١٢١٢م، وقد بلغ نشاط هؤلاء المنصِّرين أوجهاً منذ مطلع العقد السابع من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، حتى تكوّنت لدى المنصِّرين، وخاصة الدومنيكان في إفريقيا، قناعة بأن تحقيق هدفهم أصبح قريب المنال[1]، وبسبب هذا التفاؤل الذي عكسته الإرساليات الكاثوليكية للبابوية ولملك فرنسا لويس التاسع؛ انطلقت الحملة الصليبية الثامنة متجهة إلى تونس بدلاً من أراضي الشام، فأصيبت بانتكاسات وفشلت في تحقيق مرادها، فتبيّن لتلك الإرساليات التنصيرية أنّ ما تصوّروه من إمكانية الظفر بمسلمين يتنصّرون ويُغيّرون وجه البلاد الإسلامية إلى نصرانية ما هو إلاّ أوهام ارتدت عليهم.

---

(١) مدخل إلى تاريخ حركة التنصير، ص ٣٦، ٣٧، ٤٣، د. ممدوح حسين.

ولكن تلك الإرساليات لم تكن بتلك القوة والتنظيم التي أرادت البابوية أن تكون عليها إلاَّ بعد أن امتلكت الدول الغربية النصرانية زمام القوة العالمية وساحت في بلاد العالم مستعمرة ومنتهبة لخيراتها، فحصل توقيع عقد (المصالح المشتركة) بين الكنيسة ودولها الغربية النصرانية الغاصبة، بين من يطمع في أراضي الآخر ونهب خيراته ومن يطمع في نهب عقول أبنائه وأفئدتهم وإدخالهم في عقيدة التثليث.

فإرساليات الآباء الكبوتشين، والفرانسيسكان، والدومنيكان، واليسوعيين، وغيرها من الإرساليات الكاثوليكية سعت بالوسائل كافة وبعناية البابوية إلى أن تواكب الفتوحات العسكرية لدولها النصرانية، خاصة في بلاد فيها مسلمون؛ لما يرونه أن الإسلام هو حجر العثرة الحقيقي في سبيل انتشارهم في العالم، كما أنّه الحاجز الحقيقي في وجه المستعمر الغربي النصراني منذ قرون مضت، وهو حاله في القرون الحاضرة، كما أنه سيبقى كذلك في القرون المستقبلية.

ففي إفريقيا مثلاً وصل النشاط الإرسالي الذي تزامن والاكتشافات البرتغالية الأولى والذي استمر ثلاثة قرون (١٤٩٢ - ١٧٨٩م)؛ أي إلى وقت تَمكّن الخلافة العثمانية الإسلامية من القوة العالمية خاصة في بلدانها الإسلامية إلى فشل تام بسبب اصطدامه بالدين الإسلامي النقي في بعض الدول الإفريقية[١].

فلمّا تمكنت الخلافة الإسلامية العثمانية من قُوتِها العالمية ازداد الوضع سوءاً بالنسبة للإرساليات التنصيرية، ولكن هذا الوضع زاد البابوية وكنائسها الكاثوليكية إصراراً على الاستمرار في بعث البعوث التنصيرية إلى البلدان الإسلامية.

فترافقت دعوات الآباء والرهبان مع انتشار البعثات الإرسالية في أنحاء العالم الإسلامي حتى في قوة الخلافة الإسلامية العثمانية (أملاً في التمكن من توجيه الضربة إلى إمبراطورية الشيطان) كما

(١) البعثات اليسوعية، ص ٢٢، د. طلال عتريسي.

تُسمّيها تلك الإرساليات [1].

وهذه الإرساليات كما أنّها تهتم بتنصير المسلمين فهي كذلك بل من أولوياتها لضمان استمرارها وحمايتها أن تقيم جسراً معنوياً ومادياً بين مصالح المستعمر الغربي والأقليات الدينية التابعة لها في العالم الإسلامي [2]، فهي بذلك تُعد خطراً على الأمن القومي في بلدان العالم الإسلامي [3].

تغلغلت بذلك الإرساليات التنصيرية في البلدان الإسلامية تغلغلاً مسنوداً بالأطماع الاستعمارية، متسربلاً بتقديم خدمات صحية وتعليمية مع غفلة الحُكّام المسلمين وتواطؤ القوى العلمانية في البلدان الإسلامية معها [4].

والإرساليات الكاثوليكية إلى بلدان العالم الإسلامي لم تتوقف من وقت ما بدأت منذ عام ١٢١٩م في وقت الحملة الصليبية الخامسة، وازدادت تسارعاً وإصراراً وبإشراف البابوية نفسها من وقت فشل الحملة الصليبية السابعة عام ١٢٥٠م عندما أوصى باستمرارها والثبات عليها ملك فرنسا لويس التاسع.

كما أن الإرساليّات تقوّت إبان الكشوفات الجغرافية الكاثوليكية الأولى وذلك بعد سقوط الأندلس المسلمة في أيدي النصارى الكاثوليك في عام ١٤٩٢م، ثم ضعفت بعض الشيء مع تصاعد قوة الخلافة العثمانية الإسلامية، ثم رجعت إلى قوتها مع ضعف الخلافة الإسلامية وتصاعد قوة الدول الغربية النصرانية وتسلطها على بلاد الإسلام، وازدادت الإرساليّات شراسة مع دخول البروتستانت حلبة التنافس التنصيري للظفر بأبناء الأمة الإسلامية في عهد دويلات المسلمين الضعيفة والممزقة، بل المتناحرة فيما بينها بسبب تسلط فئة من العلمانيين عليها مادياً ومعنوياً. فإلى الله المشتكى.

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٣، د. طلال عتريسي.

(٢) موقع الإسلام في صراع الحضارات والنظام العالمي الجديد، ص ٢١٠، محمد السماك.

(٣) غارة تبشيرية على أندونيسيا، ص ٦، أبو هلال الأندونيسي.

(٤) الجذور التاريخية لإرساليات التنصير الأجنبية في مصر، د. خالد محمد نعيم، مقدمة د. محمد ملحي، ص٨.

وسأذكر بعض هذه الإرساليات الكاثوليكية كأمثلة، منها:

إرسالية للكبوشيين الكاثوليك إلى مدينة حلب عام ١٦٣٠م، حيث كوّنوا فيها مركزاً لهم، وعملوا على الدعوة إلى العقيدة الكاثوليكية ليس بين أبناء المسلمين فقط بل حتى بين الطوائف النصرانية في الشام كالنسطورية وغيرها.

وتبعهم للغرض نفسه في محاولة تنصير المسلمين وتوحيد النصارى على الكاثوليكية الإرسالية اليسوعية في عام ١٦٥٠م إلى حلب أيضاً.

وأرسلت البابوية من جهتها مباشرة ثلاث إرساليات في عام ١٦٥٤م، واحدة إلى القسطنطينية واليونان، وأخرى إلى صيدا امتدت منها إلى سوريا ومصر، وثالثة إلى بلاد فارس [١].

وفي إفريقيا اشتد التنافس بين الإرساليات الكاثوليكية القديمة من يسوعية ودومنيكانية مع الإرساليات الجديدة للبروتستانت خاصة منذ عام ١٦٦٥م، وذلك في علو كعب الدولة الهولندية البروتستانتية الاستعمارية وتمكّنها من منطقة رأس الرجاء الصالح [٢].

واشتد عُود الإرساليات الكاثوليكية مرة أخرى مع دخول إسبانيا وفرنسا ميدان التنصير الاستعماري في القرن الثامن عشر الموجّهة للأمة الإسلامية، وكانت تلك الإرساليات الكاثوليكية متتالية ومركّزة على إفريقيا أكثر [٣]، ومن أشهر تلك الإرساليات الكاثوليكية إرساليّة كانت موجّهة إلى مصر الإسلامية أثناء الغزو الفرنسي الكاثوليكي لها في عام ١٧٩٨م.

فعندما وصلت الحملة الفرنسية إلى الإسكندرية في ٢٨ يونية عام ١٧٩٨م، كانت برفقتها مجموعة من العلماء، بلغوا (١٧٥ عالماً)، كان من بينهم أعضاء بعض الهيئات المهتمة بالدارسات الخاصة بها وراء البحار وعدد من المستشرقين الذين درسوا اللغة العربية، في مدرسة اللغات

---

(١) البعثات اليسوعية، ص ٢٤، د. طلال عتريسي.

(٢) مجلة البيان، العدد ١٥٤ جمادى الآخرة ١٤٢١هـ سبتمبر ٢٠٠٠م، تاريخ الوجود التنصيري في إفريقيا بقلم: أبو إسلام أحمد عبد الله.

(٣) تاريخ الوجود التنصيري في إفريقيا، مجلة البيان العدد ١٥٤.

الشرقية الحيّة بباريس؛ لوضع أُسس أول إرسالية تنصيرية كاثوليكية فرنسية في مصر.

وتكوّنت تلك الإرسالية من الرهبان الفرنسيسكان، وقد امتد نشاطها إلى الصعيد، وبلغ بهم الأمر أنهم كانوا يمسكون بالأطفال من المسلمين ومن الأرثوذكس الأقباط ويرسلونهم إلى روما لتعلم النصرانية الكاثوليكية[(١)].

ثم كان الهجوم المكثف للإرساليات التنصيرية الكاثوليكية والبروتستانتية على العالم الإسلامي في بداية القرن التاسع عشر الميلادي، حيث إنه يعد العصر الذهبي للإرساليات التنصيرية، خاصة في إفريقيا، فلم يبدأ القرن العشرين إلاّ وكان للنصرانية وجودها المحسوس، والملموس، والمرئي، بشتى مذاهبها وكنائسها[(٢)].

أبرمت الدول الاستعمارية اتفاقية بينهم عُرفت بمذكرة (بكستين) عام ١٨٣٨م، القصد منها أن تفتح المجال للإرساليات التنصيرية في القارة الإفريقية[(٣)]، أملاً في جعل إفريقيا المحضن الرئيس للنصرانية في العالم بعد القارة الأوروبية، وأن تُغيّر هذه الإرساليات الإفريقيين وتجعل منهم نسخة من الغربيين النصارى في كل شيء حتى في الشعور[(٤)].

فبدأت إفريقيا تستقبل وفود المنصّرين الكاثوليك الإيطاليين والفرنسيين وغيرهم من الرهبان والراهبات الفرانسيسكان، والدومنيكان، واليسوعيين، والآباء البيض، والكبوتشيين وغيرهم، كما أخذت تستقبل المنصرين والقساوسة البروتستانت من الإنجليز والألمان والأمريكان وغيرهم، وانطلقت مسيرة المخطط التنصيري[(٥)].

---

(١) الجذور التاريخية لإرساليات التنصير الأجنبية في مصر، ص ٤١، د. خالد محمد نعيم.

(٢) تاريخ الوجود التنصيري في إفريقيا، مجلة البيان، العدد ١٥٤، جمادى الآخرة ١٤٢١هـ - سبتمبر ٢٠٠٠م، بقلم أبو اسلام أحمد عبد الله، التنصير في القرن الإفريقي ومقاومته، ص ٧٠، سيد أحمد يحي.

(٣) ندوة التنصير والتغلغل الاستعماري في إفريقيا، جامعة إفريقيا العالمية، ورقة بحث بعنوان: أفرقة الكنائس الوطنية، ص ٢١٦، بقلم الدكتور: إبراهيم عكاشة علي.

(٤) التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص ٢٤١، د. مصطفى الخالدي، ود. عمر فروخ.

(٥) ندوة التنصير والتغلغل الاستعماري في إفريقيا، ورقة بحث بعنوان: أفرقة الكنائس الوطنية، ص ٢١٦، بقلم الدكتور: إبراهيم عكاشة علي.

ففي مصر وصلت الإرسالية الكاثوليكية (إرسالية الآباء لارنست) في عام ١٨٤٠م، وكوّنت في الإسكندرية مدرسة لهم سُمِّيت فيما بعد (الكلية الفرنسية) وذلك في عهد محمد علي باشا، كما أنه في العام نفسه وصلت إرسالية كاثوليكية أخرى تابعة للعازريين قادمة من الشام برئاسة الأب إتين الفرنسي، فأخذ بما أُعطي من امتيازات أجنبية في إقامة عدة مراكز تنصيرية كاثوليكية في أنحاء مصر وثلاث مدارس كاثوليكية، وهي: مدرسة الراعي الصالح (بون باستور) للبنات في القاهرة عام ١٨٤٥م، ومدرسة فتيان الإحسان، في العام ذاته، ثم مدرسة للعازريين في عام ١٨٤٦م. ومع هذه المدارس أخذت عملية التعاون تأخذ طريقها إلى مدن وقرى الصعيد بين الرهبان والراهبات الفرنسيسكان الذين مارسوا نشاطاً تنصيرياً خطيراً تحت ستار التطبيب، وامتد هذا النشاط إلى بقية قرى ومدن البحري[1].

وفي عهد عباس الأول (١٨٤٨ - ١٨٥٤م) أخذت الإرساليات الفرنسية الكاثوليكية تتوغل أكثر وأكثر في صعيد مصر، تُنشئ المدارس، متذرعة بالمساهمة في تنمية الحركة التعليمية في مصر، فاستطاع الرهبان الفرنسيسكان في عام ١٨٥٠م افتتاح مدرسة لهم في منطقة (نقادة)، وبعد ثلاثة أعوام واصلوا تقدمهم وأنشؤوا مدرسة أخرى في (جرجا) في عام ١٨٥٣م. وبعد هذا التمركز المتعمد في جنوب البلاد، توجهت جهود الإرساليات الفرنسية الكاثوليكية إلى الوجه البحري.

كما أنها أخذت تُكثّف جهودها في بور سعيد، فأنشأت بها مدرسة (الراعي الصالح) الداخلية في عام ١٨٥٣م، ثم أضافت في نهاية عهد (عباس الأول) مدرسة (الفرير) عام ١٨٥٤م[2].

وفي ولاية (محمد سعيد) على مصر (١٨٥٤ - ١٨٦٣م) فتح المجال بشكل أوسع للإرساليات الفرنسية الكاثوليكية؛ بحجة المساهمة في الحركة التعليمية في مصر فهذا الوالي الجديد لمصر قد تربى تربية فرنسية خالصة وبهذا أسدى الخديوي محمد سعيد خدمة جليلة في منح الحرية كاملة

---

(١) الجذور التاريخية لإرساليات التنصير الأجنبية في مصر، ص ٢٤، ٤٢، ٤٣، الدكتور: خالد محمد نعيم.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٣ - ٤٥، د. خالد نعيم.

للإرساليات الكاثوليكية في مصر، بفتح مراكز تنصيرية بلا رقابة حكومية تعبث بعقول أبناء المسلمين وقلوبهم هناك، حتى إنه سُمِّي القديس الحامي للإرساليات، ففوق أنه وهب لتلك الإرساليات مباني حكومية مجاناً، ومساعدات مالية من خزينة الدولة المصرية، فإنه اتخذ في عام ١٨٦٠م كل الاحتياطات اللازمة لحماية المُنصِّرين الفرنسيين وباقي الأجانب في مصر، بمناسبة المذابح التي حدثت بين الموارنة والدروز في جبل لبنان وسورية، وهو ما أدّى إلى التجاء نحو خمسة آلاف نصراني من أقاليم الشام إلى الإسكندرية معظمهم دخل في حماية الإرساليات التنصيرية الأجنبية[1].

وفي عام ١٨٤٨م وصلت إرساليات كاثوليكية متعددة إلى شرق إفريقيا وغربها. من أهمها إرساليات تابعة للآباء البيض الكاثوليكية. وقد بدأت حملتها في ساحل القرن الإفريقي كينيا، والصومال، وجيبوتي، وإريتريا، والسودان، كما ظهرت في المنطقة نفسها هيئات تنصيرية عديدة تابعة للمذهب الكاثوليكي.

وفي عام ١٨٦٠م أسست إرسالية كاثوليكية مركزاً لها في مدينة (بوجا مايو) على الساحل المواجه لجزيرة زنجبار، ولكن هذه الجهود جميعها لزمت الساحل في تلك الفترة، ولم تستطع التوغل في الداخل إذ كان بالداخل محيط إسلامي قوي، ولم تحقق أي نجاح طالما كان اهتمامها متجهاً للتنصير المباشر، ولذلك اتخذت خطوة مهمة بالتعاون مع السلطات الاستعمارية، وهي أن تترك لهذه الإرساليات مجال التعليم والخدمات الطبية، ومن هنا فتحت هذه البعثات المدارس والمستشفيات، وبذلك استولت على مادة من البشر أصبح من السهل التحكم فيها[2].

إلا أن هذه الإرساليات الكاثوليكية استطاعت في عام ١٨٨٩م أن تبسط سيطرتها على

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٤ - ٤٨، د. خالد نعيم.
وفي عهد خليفته (إسماعيل باشا) (١٨٦٣ - ١٨٧٩م) انقلب الصولجان الموهوب للإرساليات التنصيرية من الكاثوليكية إلى البروتستانتية، خاصة الإرساليات الأمريكية. انظر: الجذور التاريخية لإرساليات التنصير الأجنبية في مصر، ص ٤٨، ٧١، ٨٨، ١٠٩، د. خالد محمد نعيم.

(٢) التنصير في القرن الإفريقي ومقاومته، ص ٧٢، ٧٤، سيد أحمد يحيى.

جيبوتي، فاستطاعت أن تبني كنيسة فخمة وسط المنطقة الآهلة بالسكّان المسلمين، ولقد شاع أن ذوي الأمر في فرنسا خائفون على رجال تلك الإرسالية في هذه المنطقة المسلمة، إلاّ أن حاكم جيبوتي آنذاك طمأن الأسقف (هارتزل) وصرّح له بأنه ينظر إلى أعمال المنصرين بنظرة استحسان [1].

ووصلت إرسالية كاثوليكية صغيرة عام ١٨٥١م إلى أريتريا، مدعومة من قبل الحكومة الإيطالية، واستطاعت أن تُؤسس محطات دينية ومراكز للدعاية الكاثوليكية، وهذه الإرسالية أداة طيّعة في أيدي المستعمر الإيطالي، فكانت تمهد لاستعمار المنطقة، فتصدر لإيطاليا آراء وتقارير تحثها على استعمار المنطقة، ومن ضمن هذه التقارير أنها ترى أن موانئ الساحل الجنوبي لشبه جزيرة العرب القريبة من مضيق باب المندب، وكذلك موانئ ساحل البحر الأحمر الغربي القريبة من هذا المضيق أيضاً تصلح لخدمة أغراض إيطاليا السياسية، والبحرية، والتجارية في شرق إفريقيا. فتقدمت الحكومة الإيطالية بسبب هذه التقارير إلى تلك المنطقة واشترت الموانئ المطلّة على ساحل بنادر من سلطان زنجبار الذي كانت المنطقة تخضع لسلطانه، وكان ذلك عام ١٩٠٥م، فبدأ بذلك احتلال السلطات الإيطالية. كما أنّها توصلت مع حكومة بريطانيا إلى اتفاق على أن تكون لها السيادة على منطقة ساحل البحر الأحمر الغربي، فابتدأ بذلك التدخل الإيطالي في الأراضي الإريترية [2].

وفي المغرب العربي تُعدُّ الإرسالية الكاثوليكية التي تزعمها فرانسوا بورغاد (١٨٠٦ - ١٨٦٦م) من أنشط من قام بعمليات تنصيرية هناك، فقد استهلت عملها في الجزائر، ثم انتقلت إلى تونس في سنة ١٨٤٠م مشتركة مع إرسالية أُخرى تُسمَّى أخوات الصفاء في عمليات التنصير في تونس.

أسس هذا المنصر (فرانسوا بورغاد) مدرسة، ومستشفى، ومطبعة حجرية، وشرع في تأليف كتب تركز موضوعاتها على صحة النصرانية الكاثوليكية، وبطلان الإسلام وزيفه، كما أنه كوّن

---

(١) المرجع السابق، ص ٧٣، سيد أحمد يحيى.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٨، ٧٩، سيد أحمد يحيى.

معهداً في سنة ١٨٤٧م للأغراض التنصيرية أسماه (معهد سان لويس) أي القديس لويس، إحياءً لذكرى لويس التاسع ملك فرنسا الذي قام بالحملة الصليبية السابعة على بيت المقدس، والحملة الصليبية الثامنة على تونس، وغادر المنصر (فرانسوا بورغاد) تونس بعد إقامة قاربت عشر سنوات عمل جاهداً فيها على نشر الكاثوليكية بين المسلمين [١].

وخلف (بورغاد) في ميدان التنصير في المغرب العربي الكاردينال (لافيجيري) (١٨٢٥ - ١٨٩٢م) الذي بدأ اتصاله بالعالم الإسلامي في سنة ١٨٦٠م، حين زار بلاد الشام مصطحباً معه إعانة جمعت في أوروبا لمساعدة النصارى في الفتنة التي احتدمت بينهم وبين الدروز وقتئذ. وعند انتهاء مهمته مرَّ في طريق عودته إلى باريس بالفاتيكان، وقابل البابا وأطلعه على أفكاره في تنصير المسلمين بمساعدة الحكومة الفرنسية وطلب منه مساعدته، فحصل على كل ما يريد من البابوية من دعم مادي ومعنوي، وفي سنة ١٨٦٧م عيَّنه حاكم الجزائر العام الفرنسي الماريشال (ماكماهون) أسقفاً لتلك البلاد. ويحمل هذا الكاردينال كره الإسلام والحقد على المسلمين، وكان يعتقد بأن الأمة الإسلامية أخطر أعداء النصارى في كل مكان.

وعند وصوله للجزائر في ١٥ مايو سنة ١٨٦٧م تحت عناية البابوية والحكومة الفرنسية عمل بنشاط على تنصير المسلمين ووضع مشروعاً متكاملاً يتلخص في وجوب تربية أطفال المسلمين تربية نصرانية وقد أنشأ لذلك المحاضن المناسبة لتنفيذ هذا المشروع التنصيري [٢].

كما أنّ الإرساليات الكاثوليكية نشطت أيضاً في القارة الآسيوية في القرن التاسع عشر ففي أندونيسيا مثلاً في القطاع الشرقي من جزر السوندا الصغرى وتُسمى حالياً (نوسا تبنقارا تيمور) (تيمور الشرقية) تعيّن أول قاصد رسولي عام١٨٠٢م، وأقيم أول قدّاس علني رسمياً في يوم (١٠/ ٤/ ١٨٠٨م)، ثم أقيمت قصادة رسولية أخرى في جاكرتا عام ١٨٠٧م، وكان أول قاصد

---

(١) مدخل إلى تاريخ حركة التنصير، ص ٧٣، ٧٤، د. ممدوح حسين.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٥، ٧٦، د. ممدوح حسين.

رسولي في جاكرتا هو المطران (ي. قوف)، الذي وصل إلى جاكرتا عام ١٨٤٥م يصحبه ثلاثة قسس لكل من سمارانغ وسرابايا[١].

وفي عام ١٨٣٢م أسس بابا روما غريغوريوس (جرجوري) السادس عشر (٢ شباط ١٨٣١ - ١ حزيران ١٨٤٦م) بعثة بابوية في بلاد ما بين النهرين، وكردستان، وأرمينيا الصغرى، وألحقها بعد سنتين ببعثة إلى اليونان وتركيا، وعام ١٨٣٩م بثالثة إلى مصر والجزيرة العربية.

ومن باريس وصل سبعة عشر مبعوثاً عازارياً إلى القسطنطينية بين عام ١٨٣٠م و عام ١٨٣٥م، وأعادوا افتتاح مدرستهم المقفلة منذ عام ١٨١٢م.

وفي عام ١٨٣٩م افتتحت بعثة (أخوات المحبة) الكاثوليكية مركزاً للتربية في القسطنطينية، وآخر في زامير، ووصلت إلى بيروت عام ١٨٤٧م، ثم لحقت بها بعثة (أخوات مار يوسف الظهور).

ووصلت إرسالية (الدومينيكان الطليان) عام ١٨٤٠م إلى كردستان والموصل، وفي عام ١٨٤١م وصل الكبوشيون الإسبان إلى ديار بكر، وفي عام ١٨٨١م افتتحوا في القسطنطينية حلقة دراسية، وفي عام ١٨٨٢م افتتح الدومينيكان حلقة دراسية في الموصل، وكذلك افتتحت حلقة دراسية للآباء البيض في القدس عام ١٨٨٢م[٢].

ثم تفاقمت الإرساليات التنصيرية في بداية القرن العشرين لتطويق الأمة الإسلامية، وبالأخص ما حول الجزيرة العربية.

ومن أكثر باباوات روما اهتماماً بالإرساليات التنصيرية البابا بندكت الخامس عشر (٣ أيلول ١٩١٤ - ٢٢ كانون الثاني ١٩٢٢م)[٣]، حتى إنّه عُرف باسم بابا الإرساليات[٤].

(١) غارة تبشيرية جديدة على أندونيسيا، ص ١٧، أبو هلال الأندونيسي.

(٢) البعثات اليسوعية، ص ٢٥، ٢٦، د. طلال عتريسي.

(٣) دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص ٤٠٤، الأب جان كمبي.

(٤) التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص ١٩٥، د. مصطفى الخالدي، د. عمر فروخ.

وفي مؤتمر المنصِّرين المنعقد في بيروت قبيل عام ١٩١١م، قرَّروا فيه أن يبدؤوا التنصير بين المسلمين بطريقة مباشرة على أرض الشام، حيث كانت محطة نموذجية لنشاط الإرساليات التنصيرية[١]؛ لوجود الأرض المقدسة فيها وقربها أيضاً من قلب العالم الإسلامي ومقدسات المسلمين الكبرى في أرض الحجاز.

وقد كان لجبل لبنان قبل أن تلحق به مناطق من سوريا، ويتحول إلى (دولة لبنان الكبرى) عام ١٩٢٠م، وبعد ذلك أيضاً حصة وفيرة من نشاط البعثات وأهدافها، ليس هذا فحسب، بل هي نقطة جذب قوية لها، بسبب كاثوليكيتها من جهة، والحضور الفرنسي السياسي والعسكري والاقتصادي من جهة أخرى، وهي عوامل أدت إلى إلحاق سكان الجبل النصارى بفرنسا على المستويات جميعها، وانعكس ذلك بطبيعة الحال على المسلمين في تلك البلاد، الذين أُلحقوا قسراً بالكيانات الحديثة، بعد أن تقطعت أوصالهم الجغرافية وانكفأت وحدتهم المعنويّة، ثُمَّ إنّ هذا الإلحاق لم يكن عبثاً أو صُدفةً، فقد حُددت أُطره ومعالمه مسبقاً منذ عشرات السنين بعد أن مهدت له الطائفة المارونية عسكرياً وثقافياً[٢].

كما أنّ الإرساليات التنصيرية الكاثوليكية استفادت كثيراً من الامتيازات التي أعطتها الحكومة

---

(١) البعثات اليسوعية، ص٢٧، د. طلال عتريسي، التبشير والاستعمار، ص٥٣، د. الخالدي، ود. فروخ.

(٢) البعثات اليسوعية، ص ٢٧، د. طلال عتريسي.
علماً بأن أصول الإرساليات التنصيرية إلى أرض الشام كانت في القرن التاسع عشر الميلادي، كما مر ذكره، وأزيد هنا بياناً ببعض تواريخ تلك الإرساليات الكاثوليكية:
أ) في عام ١٨٣١م وصلت بعثة يسوعية فرنسية إلى جبل لبنان تولت إنشاء عدد من المدارس في عدد من القرى. انظر: موقع الإسلام في صراع الحضارات، ص ٢١٠، محمد السماك.
ب) أصدرت الدول الأوروبية وعلى رأسها فرنسا قانوناً في عام ١٨٤١م يحمي الإرساليات التنصيرية وينشرها على أرض الشام.
ج) وصول إرسالية نسويّة كاثوليكية تسمى (أخوات القديس يوسف) إلى بيروت بإشراف الأب ديللو في عام ١٨٤٦م.
د) إرسالية كاثوليكية فرنسية تسمى (سيدات الناصرة) وصلت إلى بيروت عام ١٨٦٨م، إرسالية تُسمّى (البون باستور) وصلت إلى لبنان عام ١٨٩٣م...، وغيرها كثير. انظر: البعثات اليسوعية، ص ٧٨، ٩١، ١٠٨، ١٦٤، ١٦٥، د. طلال عتريسي.

الفرنسية المنتدبة على سوريا ولبنان للإرساليات التنصيرية المختلفة، واستفادت أكثر عندما نقلت الحكومة الفرنسية امتيازات الإرساليات المختلفة إلى الإرساليات الفرنسية وحدها، والتي كان أكثرها تابعاً للكنيسة الكاثوليكية وذلك في تشرين الثاني من عام ١٩٢٥م (١).

ومن قبل لما فتحت الهدنة عام ١٩١٨م للمنصرين الكاثوليك طريق سوريا من جديد. ولم تكن الدولة الفرنسية المنتدبة وحدها عوناً للإرساليات الكاثوليكية في العمل على تنصير المسلمين، بل إن الحكومة المحلية التي لم تكن إلاَّ وجهاً آخر لدولة الانتداب كانت تساعد في ذلك (٢).

ولو انتقلنا إلى جنوب الجزيرة العربية، وأقصد اليمن؛ لوجدنا أن الإرساليات التنصيرية البروتستانتية هي المهيمنة على الوضع التنصيري هناك في القرن العشرين، إلاَّ أنّ هناك إرساليات كاثوليكية تعمل في اليمن، منها: جمعية رسولات المحبة (بعثة الإحسان)، يمتد نشاطها الواضح في صنعاء وتعز والحديدة وخصوصاً بين المرضى بالجذام والأمراض العقلية، ولها ارتباط مباشر مع جمعيات الأم تريزا الكاثوليكية الهندية المشهورة (٣).

وإذا نظرنا إلى مصر فإنّ الامتيازات الأجنبية التي استفادت منها الإرساليات التنصيرية استمرت في مصر سارية المفعول حتى عام ١٩٣٧م، وهو ما كان له الضرر الأكبر على الشعب المسلم هناك (٤).

وفي السودان أعدت الإرساليات التنصيرية عدتها في بداية القرن العشرين، أي منذ عام ١٩٠٠م، وأصبحت علنية بحماية الدولة البريطانية التي شجعت الكاثوليك والبروتستانت على ذلك، وقد كانت الخطوات الأولى لهم التمركز في جنوب السودان حيث يكثر الوثنيون، ومن الانتقال بالتأثير

(١) التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص ٥٧، د. مصطفى خالدي، د. عمر فروخ.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥١، د. خالدي، د. فروخ.

(٣) مجلة البيان، العدد (١٥٥)، رجب ١٤٢١هـ أكتوبر ٢٠٠٠م، التنصير هل أصاب الهدف الخيامون في جنوب الجزيرة؟ بقلم بشير البعداني.

(٤) الجذور التاريخية لإرساليات التنصير الأجنبية في مصر، ص ٣١، د. خالد محمد نعيم.

إلى مناطق السودان الباقية خاصة في الشمال [1].

وإن كانت أكثر الإرساليات التنصيرية، وخاصة في الجنوب، بروتستانتية، إلا أنّ للكاثوليك حضوراً أيضاً، ومن أخطرها، منظمة كاريتاس الكاثوليكية الذي يزيد طاقمها التنصيري عن المائتين من المُنَصِّرين [2].

واقترن الوجود الإيطالي في غزوه المسلح لليبيا سنة ١٩١١م بفيالق على شكل إرساليات تنصيرية دفعت بها البابوية بالتعاون مع الحكومة الإيطالية إلى هناك... إلا أنّه من المؤكد أنّ هذه الإرساليات التنصيرية ذات النزعات السياسية قد سبقت الجيوش المحتلة بزمن، وكسلسلة متصلة الحلقات، فقد فعلت إيطاليا في أسلوبها التنصيري كما فعلت فرنسا في القرن التاسع عشر في تونس والجزائر والمغرب [3].

وفي عام ١٩٣٠م أرادت البابوية أن تُقيم عيداً لمناسبة مرور ألف وستمئة سنة على موت القديس أغسطينوس، ولكنّها أرادت أن يكون لهذا العيد طابعاً خاصاً، فاختارت أن تدعو إلى مؤتمر (أفخارستي) في مدينة قرطاجة لأن القديس اغسطينوس كان من البربر من تلك الناحية.

وأُجبرت تونس، المستعبدة يومذاك على قبول هذا الوضع المُذِل الذي يرفضه المسلمون هناك، على أن تدفع أيضاً من خزينتها الخالية ميلونين من الفرنكات، يوم كان الفرنك لا يزال يساوي قرشاً من الذهب، وعلى أن تقبل بوضع الأسِرّة في المساجد ليرقد عليها الرهبان الذين جاؤوا من أطراف الأرض ليعلنوا حرباً صليبية جديدة في بلد مسلم [4].

وفي الوقت الذي كان المؤتمر الأفخارستي ينعقد في تونس، كانت فرنسا تقوم في مراكش بعمل

---

(١) التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص ١٤٩، ١٥٠، د. مصطفى خالدي، د. عمر فروخ.

(٢) دارفور... صرخة نذير من خطر التنصير، بقلم نجاح شوشة، موقع مفكرة الإسلام www.islammemo.com

(٣) الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، ص ١٦١، مصطفى نصر المسلاتي.

(٤) التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص ١٥٧، د. مصطفى خالدي، د. عمر فروخ.

مماثل من حيث النتائج الدينية الاستعمارية، وهي مظالم ترتكبها فرنسا أكثر من أن تذكر، ثم هي تستوحي الفاتيكان (مقر بابا روما) سياستها الدينية لتثبت بها أقدامها في مستعمراتها[1].

وكذلك فإنّ الإرساليات الكاثوليكية وجدت لها مكاناً في شبه الجزيرة العربية تُنافس به الإرساليات البروتستانتية لتنصير المسلمين هناك، ولكن ليس بقوة البروتستانت الذين لهم اليد الطولى في شبه الجزيرة العربية.

فقد أنشأت البابوية في عهد يوحنا بولس الثاني في ٢٨ من يونيو عام ١٩٨٩م ما يُسمى بـ(إدارة شؤون النيابة الرسوليّة في شبه الجزيرة العربية)، والتي تشمل البحرين، والسعودية، والكويت، وقطر، والإمارات العربية المتحدة، وعُمان، واليمن، والتي تتخذ من العاصمة الإماراتية أبو ظبي مقراً لها، ويعدها الفاتيكان إحدى المقاطعات الكنسيّة الأكثر أهمية وامتداداً في العالم، ويعمل فيها نحو ٤٠ كاهناً و ٧٠ راهبة[2].

وعلى باقي أجزاء القارة الآسيوية والإفريقية توالت الإرساليات الكاثوليكية، والتي وجدت منافسة قوية من الإرساليات البروتستانتية، بل فاقت الكاثوليكية في أجزاء مهمة في العالم الإسلامي كشبه الجزيرة العربية والعراق، في العمل على تنصير المسلمين، ولا ننس النشاط التنصيري للكنيسة الأرثوذكسية (القبطية) في مصر، فقد استطاعت هذه الكنيسة خلال ربع قرن من الزمان يبدأ مع اتفاقية السلام بين السادات واليهود تحت مظلّة الهيمنة الأمريكية؛ أن تُنشئ أكثر من مئة وخمسين كنيسة أرثوذكسية على مستوى العالم حتى عام ١٩٩٧م، بالتنسيق مع من يُعرَفون بأقباط المهجر الذين يتبعون في طقوسهم ونظمهم وانتمائهم الروحي للكنيسة المصرية، وتعقد المؤتمرات العالمية والإقليمية والمحلية، وتُنشئ في أنحاء مصر الكليات والمعاهد والمدارس اللاهوتية المتخصصة، وتُقيم المستشفيات الضخمة والمكتبات، وتجدد أديرتها وتعيد بناء أسوار

(١) المرجع السابق، ص ١٠٨، د. خالدي، د. فروخ.

(٢) بابا الفاتيكان.. الرحيل والأثر، بقلم التحرير في موقع مفكرة الإسلام com.islammemo.www

كنائسها وتوسع منشآتها[1].

فالإرساليات التنصيرية الكاثوليكية، أو غيرها من الفرق النصرانية؛ لم يتوقف تدفّقها إلى العالم الإسلامي، حتى الآن، ونحن في بدايات القرن الحادي والعشرين، فبعضها تحضر بمسمياتها الصريحة، وبكشف واضح لهدفها، وبعضها تأتي بمسميات مبهمة تحت غطاء المعونات الإنسانية الإغاثة، أو الطبية، أو التعاون التعليمي بين البلدان النصرانية وبلدان المسلمين، مثل التعاون التعليمي المشترك بين الدول النصرانية والدول الإسلامية.

ثم إنّ هذه الإرساليات التنصيرية في العالم الإسلامي تلعب دوراً خطيراً وماكراً في محاربتها للإسلام، وتزييف مفاهيمه، وقلب حقائقه، واحتواء معتنقيه، خاصة بعد أن توسعت واقتحمت مجال الثقافة والصحافة بعد المدرسة والجامعة، فقد كانت هذه الإرساليات المصانع التي خرّجت أجيالاً من أبناء المسلمين جعلتهم عملاء وتابعين للنفوذ الأجنبي الكافر خاصة النصراني [2].

المطلب الثاني: وسائل الكنيسة الكاثوليكية التنصيرية:

إن التطور في العمل المنهجي للمنصرين جعلهم يكتشفون وسائل متعددة وخاضعة لمناسبة الزمان والمكان والثقافات، يدخلون من خلالها إلى قلوب وعقول المستهدفين.

ولا شك في أن قوة هذا التطور للحركة التنصيرية وتسارعه يستمد من إمكانياتها المادية الكبرى التي أتاحت لها إقامة مشروعات مباني الكنائس، ودور التعليم، والمستوصفات، والمستشفيات، ودور رعايات اجتماعية وإغاثية ضخمة ومتطورة، ومن القائمين على شؤون الحركة التنصيرية المختارين بدقة من ذوي التأهيل الديني، والعلمي والتربوي، والثقافي، من القساوسة، ورجال التعليم، والأطباء، ومسؤولي الإغاثات والشؤون الاجتماعية.

(١) مجلة البيان، العدد (١١٩)، رجب ١٤١٨هـ/ نوفمبر ١٩٩٧م، أحلام يوحنا بولس.. هل تتحقق؟ بقلم: أبو إسلام أحمد عبد الله.

(٢) التبشير الغربي، ص ٧، ٩، أنور الجندي.

فالحركة التنصيرية أصبح لها نشاطٌ جماعي دولي تقوم به جمعيات ومنظمات مزوّدة بهالة من الطاقات البشرية والماديّة.

لهذا كله يصعب على الباحث أن يُحدِّد كل الوسائل التي يستخدمها المنصّرون لتنصير المسلمين من وسائل مباشرة وغير مباشرة في ظل هذا التطور المنهجي المستمر للعمليات التنصيرية، فهم لا يدعون فرصة أو شبه فرصة للقيام بأي محاولة تنصيرية إلاّ واستغلت، ولا ننس أن هذه العمليات التنصيرية خاضعة لدراسات استراتيجية لطبيعة الجمهور المستهدف في المنطقة التي يجري فيها التنصير، من حيث ظروفه وأحواله السياسية والاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية... إلخ.

ولكن أكثر هذه الوسائل التنصيرية فيما أرى تدور حول ثلاثة مجالات رئيسة، وهي: المؤثّرات الفكرية، والخدمات الطبية، والمساعدات الإغاثية والإنسانية، وذلك إذا استثنينا الطريقة التقليديّة القديمة وهي المواجهة المباشرة لمن يُراد تنصيرهم عن طريق المناقشات، والدعوات المباشرة للدخول في النصرانية، وذلك إذا استثنينا الطريقة الوحشية التي استخدمها المنصِّرون، وهي التنصير بالقوة والسلاح والإرهاب، فالنصرانية ابتداءً ما انتشرت إلا بحد السيف، وعلى أصوات القنابل والمدافع وبوحشية محاكم التفتيش الكاثوليكية.

أولاً: المؤثّرات الفكرية:

ويمكن مناقشة هذا المجال من خلال زاويتين:

أ) زاوية التعليم. ب) زاوية الإعلام المقروء والمسموع والمرئي.

أ) من خلال التعليم:

عُبّر عن التعليم بأنّه الحامض الذي يُذيب شخصية الكائن الحي المُتَعلِّم ثم يُكوِّنها المُعلم، أو الجهة المُشرفة على التعليم كيف شاء.

لذلك اهتم المُنصِّرون بالتعليم اهتماماً بالغاً وباتجاهاته كلها كالتعليم في مدارس الإرساليات التنصيرية (التعليم الإرسالي)، وهو الوجه المكشوف للمنصِّرين والحكومات الاستعمارية

النصرانية المُتسلِّطة على بلدان المسلمين، وكذلك التعليم الوطني الذي أقامته الحكومات الإسلامية المستعمَرة المغلوبة على أمرها لتعليم أبنائها المسلمين، فاستغله المُنصِّرون بمساعدة الحكومات الاستعمارية استغلالاً قبيحاً يخدم أهدافهم التنصيرية بتمجيد النصرانية، والقدح في الإسلام، والقرآن، والنبي محمد ﷺ، في الشريعة الإسلامية وما تأمُر به وتنهى عنه من أمور الدين لأجل رضا الله واليوم الآخر.

فاستغلال المنصِّرين لهذا الاتجاه التعليمي في البلدان الإسلامية الممكور بها، هو الوجه النفاقي الماكر للمنصِّرين لحكوماتهم الاستعمارية المتسلِّطة على الشعوب الإسلامية.

فوضع المنصِّرون كل ثقلهم لاستغلال التعليم الاستغلال الذي يخدم أهدافَهم في العبث بعقول أبناء المسلمين ابتداءً من عهد الطفولة والبراءة في رياض الأطفال، ومروراً بالمدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية والمرحلة الجامعية، وانتهاءً بمراحل الدراسات العليا من ماجستير ودكتوراة لمن دخل في دائرتهم إعجاباً بهم وانخداعاً بعقولهم وتصرفاتهم الماكرة.

فالحركة التنصيرية تكسب من ذلك في أغلب الحالات إمّا أن يتنصّر المسلم أو تتزعزع عقيدته الإسلامية وتُشوّش، فيُعجب بما عند الغرب النصراني من أمور أخلاقية وتصرفات سلوكية. ومن خلال هذه النوعية من أبناء المسلمين يستطيعون أن يُمرروا ما يشاؤون من مكرٍ كبار مُخطط له أن يحيق بالبقية الباقية من أبناء المسلمين.

قال المُنصِّر هنري هريس جسب في عام ١٨٧٠م: (لنبتهل إلى الله في سبيلِ تعميد نفوس أولئك الشبان الذين يترددون على الكليات... إنّ التعليم في مدارس الإرساليات المسيحية إنّما هو واسطة إلى غاية فقط. هذه الغاية هي قيادة الناس إلى المسيح وتعليمهم حتى يُصبحوا أفراداً مسيحيين وشعوباً مسيحية... فالمدارس شرط أساسي لنجاح التبشير، ولقد كانت تُسمى (دق الإسفين)، وكانت على الحقيقية كذلك في إدخال الإنجيل إلى مناطق كثيرة، لم يكن بالإمكان أن يصل إليها

الإنجيل أو المبشرون من طريق آخر)[١].

ولا شك أن للتعليم قوة تأثير غير طبيعية في أكثر المتعلمين لا تقارنها أي قوة تأثيرية أخرى؛ لذلك استغل المنصِّرون مسألة التعليم استغلالاً مكّنهم من الوصول إلى عقول أبناء المسلمين وقلوبهم.

يقول المنصِّر جون موط: (يجب أن نُؤكد في جميعِ ميادين التبشير جانب العمل بين الصغار وللصغار... إن الأثر المُفسد في الإسلام يبدأ باكراً جداً، من أجل ذلك يجب أن يُحمل الصغار إلى المسيح قبل بلوغهم الرشد وقبل أن تأخذ طبائعهم أشكالها الإسلامية... وهكذا نجد أن وجود التعليم في يد المسيحيين لا يزالُ وسيلةً من أحسنِ الوسائل للوصول إلى المسلمين)[٢].

ولقد أثبتت المدارس التي تمكّن منها المُنصِّرون ومدارس الإرساليات التنصيرية في بلاد المسلمين على مر السنين أنّها تعملُ في دُجى الليل، وفي وضح النهار، ضد الإسلام عقيدةً وشريعةً ومنهج حياةٍ، ومحاولة إبعاد الطلبة من أبناء المسلمين الذين تحت أيديهم عنه، بشتى الوسائل، والعمل على تخريج أجيال منهم معوجّة السلوك، مطموسة البصيرة.

فالمنصِّرون، والحكومات الاستعماريّة لذلك يشجعون الحكومات الإسلامية المغلوبة على أمرها، على إنشاء مدارس علمانية يتسلَّطون عليها من وقت إنشائها. يقولُ المُنصِّر تكلي: (يجب أن نُشجع إنشاء المدارس على النمط الغربي العلماني؛ لأن كثيراً من المسلمين قد زُعزع اعتقادهم بالإسلام والقرآن، حينما درسوا الكتب المدرسية الغربية، وتعلموا اللغات الأجنبية)[٣].

فعمل المنصِّرون على نشر التعليم بهذه الأشكال الماكرة والمُخطط لها ليبثّوا من خلاله رسالتها التنصيرية، فأنشؤوا مؤسسات تعليمية كبرى في بلاد المسلمين...، وهنا يتمّ توفير كل وسائل التعليم الحديثة التي تُغري الآباء والأبناء معاً للدراسة فيها، فيختارونها دون غيرها من مؤسسات إسلامية، وتسود هذه الطريقة في كثيرٍ من بلدان العالم الإسلامي، مثل: السودان، ومصر، وسوريا،

---

(١) التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص ٦٦، ٦٧، د. مصطفى خالدي، د. عمر فرّوخ.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٨، د. خالدي، د. فروخ.

(٣) الجذور التاريخية لإرساليات التنصير الأجنبية في مصر، ص ١٠٧، د. خالد محمد نعيم.

ولبنان، وتونس، والمغرب، وتركيا وغيرها.

وقد نجحت النصرانية في تشكيك بعض أبناء المسلمين في دينهم وإمالة بعضهم إلى العلمانية، كما عمل التنصير على انتقاء أبناء الأعيان، وأهل الكلمة في بلاد المسلمين، وفتح باب التعليم لهم في بلادهم النصرانيّة الغربيّة، وذلك بمنحٍ مُغرية وحياةٍ طيبة يَتمّ فيها تلقينهم التعليم العلماني، والإعجاب بالدين النصراني إمّا عقيدةً وسلوكاً، معاً، أو سلوكاً فقط، تذيب شخصيتهم الإسلامية وتبعدهم عن دينهم الإسلامي.

وبهذا رجع كثيرٌ من أبناء المسلمين إلى بلده ومعه شهادات عالية من بلاد النصارى، فأضحى أحد الذين يُعتمد عليهم في تسيير أمور بلاده، فسار بها نحو الوجهة الغربية النصرانية، وأضحى علواً لدوداً للشرع الإسلامي إلاّ من رحم الله منهم [1].

ولا يخفى ما للحكومة الغربية النصرانية الاستعماريّة من دور كبير في استغلال التعليم سواء كان الإرسالي التنصيري، أو المدني العلماني لتثبيت أقدامها في بلدان المسلمين المستعمَرة والمغلوبة على أمرها في وقت احتلالها، ثم واصلت هذه البلاد المسيرة بعد تحررها المزعوم واستقلالها الظاهري، بمحض إرادة بعض قادتها المُهيّئين مُسبقاً للقيام بمثل هذا الدور المشبوه على أبناء المسلمين، ولا شك في أنهم بهذا يكونون غاشّين لرعيتهم من المسلمين في أعز ما يملكون، في دينهم وإيمانهم، وقد قال الرسول ﷺ: (ما من عبد يسترعيه الله رعيّةً، يموتُ يومَ يموتُ وهو غاشٌ لرعيته إلاّ حرّمَ اللهُ عليه الجنة) [2].

ثم إن التعليم انقسم في عهود الاستعمار الجاثم على بلدان المسلمين، إلى ثلاثة أقسام:

- قسم غايته التنصير الصريح، وذلك في مدارس الإرساليات التنصيرية.

---

(١) انظر في التركيز على هذه النقطة إلى: التنصير والتغلغل الاستعماري في إفريقيا، ندوات بحثية عُقدت تحت إشراف جامعة إفريقيا العالمية، ورقة بحثية بعنوان: (وسائل تنصير المسلمين وموقف الدعوة إلى الإسلام منها)، ص ٨٥، الأستاذ: بابكر حسن محمد قدر ماري.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب من استُرعى رعيّة فلم ينصح، ح٧١٥١، ٧١٥٠، صحيح مسلم، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعيّة، والنهي عن إدخال المشقة عليهم، ح١٤٢.

- وقسم في مدارس التعليم المدني الوطني، المشرف عليه الحكومات الاستعمارية بطريقة مباشرة أو عن طريق الحكومات الوطنية المستضعفة أو العميلة، فغايته ذات شقين، فمن ناحية يُخرِّج الكوادر الوطنية المساعدة التي تقوم بالأعمال الوسيطة في الجهاز الحكومي تحت قيادة النصراني المستعمِر، ومن ناحية أخرى يفصل المُتعلم عن تعاليم دينه الإسلامي الحنيف وصبّه في قالب الحضارة العلمانية الأوروبية التي لم تُعطه إلاّ قشور الثقافة الوافدة دون النفاذ إلى لباب التقدم العلمي الأوروبي؛ ليصبح هذا المتعلم أشبه بالمنبت، لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، فلا هو واقف على أرضية ثقافته الإسلامية التي نشأ عليها، ولا هو متأطر تأطراً كاملاً في العلوم التكنولوجية الحديثة، حاملاً علماً حقيقياً في العلوم التجريبية منافساً لعلماء أوروبا في مجالات مثل الطب والفلك والرياضيات والهندسة وغيرها، وإنّما غاية ما وصل إليه (تحصيل الفلسفة الغربية العلمانية وإجادة لغاتهم، ثم اقتضى ذلك بالضرورة التشبه بهم في الزي والكلام والعادات مما زاد من غربة المتعلمين وغربة الطبقة النافذة في المجتمع عن جذورها الإسلامية السامية، بل إن المبشرين ومن معهم الذين وضعوا أسس هذا التعليم في ديار الإسلام حرصوا على تغيير نفسية الطفل المسلم لتتجه اتجاهاً غربياً نصرانياً، فكانت المدرسة وطريقة الجلوس فيها أشبه بالجلوس في الكنيسة... وأجراسها التي تُنبّه للمواعيد أشبه بجرس الكنيسة)[(١)].

- أما القسم الثالث فهو التعليم الإسلامي التقليدي الذي انحصر في دراسة القرآن وعلومه والشريعة الإسلامية وأحكامها، والذي انحصر في المساجد والخلاوي، وقد عملت الحكومات الاستعمارية النصرانية والحكومات الوطنية العميلة على محاولة عزله عن حركة المجتمع الفاعلة، وقد نجحت في ذلك في كثير من دول العالم الإسلامي[(٢)].

---

(١) ندوة بحثية بعنوان: التنصير والتغلغل الاستعماري في إفريقيا، إشراف جامعة إفريقيا العالمية، ورقة بحثية بعنوان: (التنصير الحديث في إفريقيا خلفيته التاريخية وبعض وسائله)، ص١٤٣، بقلم الدكتور: الناصر أبو كروق.

(٢) المرجع السابق، ص ١٤٣، التنصير والتغلغل الاستعماري في إفريقيا، والاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، ص ١٥٠، مصطفى نصر المسلاتي.

وإذا وقفنا قليلاً مع اهتمام الحركة التنصيرية بالتعليم الإرسالي التي غايتها التنصير الصريح وبطرق مكشوفة تماماً، مدعومة من الحكومات الاستعمارية النصرانية، ومصرحاً لها من قبل الحكومات الوطنية في البلدان الإسلامية؛ التي إمّا لأنها مغلوبة علىٰ أمرها أو لأنها عميلة متواطئة، لوجدنا العجب من انتشار مدارس الإرساليات في أكثر من بلدان المسلمين خاصةً في الثلاثة القرون الماضية، في نهاية القرن الثامن عشر، وفي القرن التاسع عشر، وفي النصف الأول من القرن العشرين، وهذا يُبيّن لنا حقيقة وضعنا الحاضر المؤسف في تمكّن التنصير ورجالاته من كثير وكثير من بلدان العالم الإسلامي في عصور تدّعي أوروبا وأمريكا وباقي العالم النصراني أنها قائمة علىٰ العلمانية والتحرر من القيود التشريعية السماوية.

فالتعليم الإرسالي التنصيري المباشر حظي باهتمام بالغ من البابوية وكنائسها الكاثوليكية في العالم؛ لذلك انتشرت مدارسه في كل مكان وصلت إليه الكاثوليكية بمساعدة حكوماتها الاستعمارية المتسلطة علىٰ العالم الإسلامي، إما بطريقة مباشرة أو من وراء الكواليس. فما وطئت قدم إرسالية من إرسالياتهم التنصيرية أرضاً إلاَّ وكان تكوين مدرسة تابعة لها من أول أعمالها التي تقوم بها بل إن بعض الحكومات الإسلامية وللأسى كانت تُقدِّم المساعدات المباشرة لمدارس تلك الإرساليات وتدعمها إمّا بإعطاء أراضٍ شاسعة هبةً لها، أو تحميها من غضب الشعب المسلم، كما حصل في مصر في عهد الخديوي محمد سعيد (١٨٥٤ - ١٨٦٣م)، فقد قام بإهداء مقر دائم لبيت (الأخوات الفرنسيسكان) في القاهرة عام ١٨٥٩م، وسمح كذلك للإرسالية الفرنسية، خلال الفترة من (١٨٥٥ - ١٨٦٣م) بإنشاء عشر مدارس للفرنسيسكان بالوجه القبلي والوجه البحري، وامتدت هذه المدارس إلىٰ بور سعيد، وأغدق عليها بلا حساب، كما أنّه تكفّل في عام ١٨٦٠م بكل الاحتياجات اللازمة لحماية الإرساليات الكاثوليكية خاصة الفرنسيّة منها في مصر[(١)].

وبرز التعليم الإرسالي الكاثوليكي بروزاً واضحاً في بعض البلاد الإسلامية كلبنان مثلاً، فقد

---

(١) الجذور التاريخية لإرساليات التنصير الأجنبية في مصر، ص ٤٦، ٤٧، د. خالد محمد نعيم.

استطاعت الإرسالية اليسوعية من تكوين جامعة بأكملها في لبنان منفتحة على الشعب المسلم هناك، وقد تكوّنت هذه الجامعة اليسوعية باسم جامعة القديس يوسف، وقد صادق على إنشائها بابا روما لاوُن الثالث عشر في عام ١٨٧٥م. بدأت نواة هذه الجامعة الكاثوليكية في سنة ١٨٣٩م بمدرسة للإرسالية اليسوعية في بيروت، ثم بمعهد إكليركي سنة ١٨٤٦م، فمدرسة أخرى سنة ١٨٥٥م، ثم جُمعت جميعاً وأُطلق عليها لقب جامعة القديس يوسف في سنة ١٨٧٥م، وخولها لاوُن الثالث عشر بمنح الدرجات الأكاديمية، ولا سيما الدكتوراه في الفلسفة واللاّهوت، ثم ألحق بها كليات تجريبية مثل كلية الطب في عام ١٨٨٣م [١]. وقد اهتمت هذه الجامعة ببعث البعوث التنصيرية من خريجيها إلى بلدان العالم الإسلامي خاصة إلى مصر [٢].

ونجحت الإرسالية الفرنسسكانية منذ عهد احتلال فرنسا بقيادة نابليون بونابرت مصر في عام ١٧٩٨م، من تكوين معهد فرنسي تنصيري.

تطوّر هذا المعهد الإرسالي التنصيري في مصر بفرعيه بالمنيرة في القاهرة وفي الإسكندرية. ففي الإسكندرية تحوّل اسم المعهد الإرسالي إلى اسم (المركز الفرنسي للثقافة والتعاون)، ويستقبل مريديه في مكانه القديم في فيلا من القرن التاسع عشر التي حوت لمدة طويلة (بيت فرنسا)، تحيط بالفيلا حديقة من الطراز الإيطالي تملكها الدولة الفرنسية منذ (١٩/ ٩/ ١٨٨٦م). وفي عام ١٩٩٦م تحول اسم المعهد الذي في حي المنيرة بالقاهرة إلى الاسم نفسه الذي في الإسكندريّة (المركز الفرنسي للثقافة والتعاون)، وكذلك أنشأ له فرعاً جديداً بمصر الجديدة بالاسم نفسه. وفي عام ٢٠٠٢م استطاعت هذه الفروع الإرسالية

(١) البعثات اليسوعية، ص ١٢٩، د. طلال عتريسي، موقع جامعة القديس يوسف على الانترنت.

(٢) الجذور التاريخية لإرساليات التنصير الأجنبية في مصر، ص ٥٣، د. خالد محمد نعيم.

الفرنسيسكانية من تكوين جامعة تسمّت باسم (الجامعة الفرنسية بمصر)[1].

أما في المغرب العربي (شمال إفريقيا) فقد انتشرت المدارس والمعاهد الإرسالية الكاثوليكية بشكل كبير إبّان الاحتلال الفرنسي والإيطالي لتلك الدول العربية الإسلامية.

وبهذا الاحتلال وجد الكاثوليك أنفسهم أمام ميدان رحب للعمل التنصيري الميداني الكبير الذي مكّنهم من أن يبدؤوا (بالفعل بالخطوة الأولى لتحقيق حلمهم القديم ولم تكن هذه الخطوة الأولى سوى التخطيط لنشر الثقافة والتعليم... لقد لعبت المدارس الأجنبية والإرساليات التي أنشأتها دوراً خطيراً. وتحوّلت هذه الإرساليات التبشيرية إلى آلات سياسية طيّعة تخدم أهداف الاستعمار الثقافيّ والسياسيّ والديني)[2].

فليبيا، مثلاً، بدأت فيها المدارس الإرسالية لتعليم النصرانية بطريقة مباشرة بمدرسة للإرسالية الفرنسيسكانية في عام ١٨١٠م، ثم تكوّنت أول مدرسة للبنات عن طريق الإرسالية الكاثوليكية

---

(١) انظر موقع المعهد والجامعة الفرنسية:(tth:www.ambafrance-ge.org/cfcc)
كما أن للطائفة البروتستانتية الباع الطويل في استغلال التعليم في مجال تحقيق أهدافها التنصيرية، خاصة في مجال التعليم العالي، فمثلا: الجامعة الأمريكية البروتستانتية كوّنت لنفسها فروعاً عديدة في أهم دول العالم الإسلامي، مثل: مصر، ولبنان، وسوريا، ودبي، وغيرها.
وقد كان المدّرسون الذين يعلّمون في تلك المعاهد والجامعات المواد غير الدينية يكلَّفون بأن يُقسموا يميناً بأن يُوجِّهُوا أعمالهم جميعَها نحو هدف واحد، هو التنصير؛ الأمر الذي جعل هؤلاء لا يألون جُهداً في تعليم الطلاب المبادئ النصرانية، وتحبيبها إليهم، وذلك في الدروس التي لا صلة لها بالدين، فضلا عن المواد الدينية النصرانية.
فكان يُستغل كل درس في سبيل تأويل مسيحي لفروع العلوم كالتاريخ، وعلم النبات، وغيرها، حتى درس اللغات، كان يُستغل في ترجمة أجزاء من نصوصهم المقدسة خاصة إلى اللغة العربية، وكان عندما يحتج بعض الطلبة على هذا التوجيه التعليمي لصالح الدعوة إلى التنصير؛ كان احتجاجهم يُرَدُّ عليه من قِبل المسؤولين على تلك المعاهد والجامعات، كما حدث في الجامعة الأمريكية في بيروت، فأصدرت الجامعة منشوراً جاء فيه: (إن هذه كلية مسيحية، أُسِّستْ بأموال شعب مسيحي، هم اشتروا الأرض، وهم أقاموا الأبنية، وهم أنشؤوا المستشفى وجهّزوه، ولا يمكن للمؤسسة أن تستمر إذا لم يسندها هؤلاء، وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليماً يكون الإنجيل من موارده، فتفرض منافع الدين المسيحي على كل تلميذ، وأنّ كل طالب يدخل إلى مؤسستنا يجب أن يعرف ماذا يطلب منه). انظر: مدخل إلى تاريخ حركة التنصير، ص ٦٨. د. ممدوح حسين.

(٢) الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، ص ١٤٤، مصطفى نصر المسلاتي.

المسماة بإرسالية (إخوان الراعي) سنة ١٨٤٦م، ثم تتابعت مدارس الإرساليات الكاثوليكية في ليبيا خاصة عندما تمكّنت إيطاليا من السيطرة عليها تماماً في عام ١٩١١م[١].

وكذلك باقي دول المغرب العربي (الشمال الإفريقي)، فمدارس الإرساليات الكاثوليكية مدعومة تماماً من قبل الحكومة الفرنسية؛ تطبيقاً لآراء المنصِّر الكاثوليكي الأب فوكول الذي نادى بأن المغرب لا يكون لفرنسا ما دام فيه المسلمون.

ولقد عُثِرَ على تقرير سريّ وُجِد في مكاتب الإقامة الفرنسية العامة بالرباط، ومكاتب (ك. دورسي) بباريس، نشر سنة ١٩٢٧م، بعد رحيل رجل فرنسا الخطير المشير ليوتي كانت له علاقة بدول المغرب العربي من سنة ١٨٨٢ - ١٩٢٠م، وفيه أن هذا الجنرال قد ركّز إبّان إشرافه على القوات الفرنسية هناك على التعليم الإرسالي الكاثوليكي، فعن طريقه كما يرى (يمكن أن يتمّ فيه العمل الأكثر عمقاً والأشدُّ أثراً)[٢].

أمّا في إفريقيا السمراء فكانت الكنيسة بتعليمها الإرسالي وراء (٩٥٪) من حركة التعليم العام هناك حتى عام ١٩٦٠م[٣].

فمثلاً في غرب إفريقيا (السنغال وما حولها) كانت أكثر الإرساليات الكاثوليكيّة انتشاراً ونشاطاً هي إرساليات الآباء البيض، فقد جعلوا المدرسة المحور الرئيس الذي كان يدور حوله نشاطهم التنصيري، فقد اهتموا بتعليم الكبار، وركّزوا أكثر على الأطفال؛ لأنّهم أكثر تقبلاً لتعاليمهم النصرانية، وقد حذا المنصِّرون هناك حذو الطرق الصوفية المنتسبة للإسلام، في شراء العبيد ثُمّ الشروع في تكوينهم وتعليمهم[٤].

---

(١) المرجع السابق، ص ١٤٤ - ١٤٥، مصطفى نصر المسلاتي.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣٥، ١٤٢، ١٤٣، مصطفى نصر المسلاتي.

(٣) التنصير والتغلغل الاستعماري في إفريقيا، ص ١٣٧٣، إصدار جامعة إفريقيا العالمية.

(٤) دراسة في حركات التبشير والتنصير بمنطقة إفريقيا فيما وراء الصحراء، ص ٧٤، ٧٥، د. الهادي الدالي، د. عمار هلال.

وفي السودان وجدت الإرساليات التنصيرية طريقها ممهداً تماماً منذ احتلال السودان بواسطة الجيش الإنجليزي عام ١٨٩٨م، فوضعت الخطط والمشروعات لرفع النشاط التنصيري عن طريق تكثيف بناء الكنائس والمدارس التابعة لها، علماً بأن اللغة العربية اعتمدت في بداية الأمر لكسب العامّة لغة الإرساليات التنصيرية، كما أنّ التعليم الإرسالي ركّز نشاطه في جنوب السودان أكثر من شماله خوفاً من غضب المسلمين.

وقد استطاع التعليم الإرسالي في مناطق جبال النوبة وجنوب السودان أن يُؤثر على كثير من السكان ويحد من انتشار الإسلام هناك.

علماً بأنّه ليس للحكومة السودانية الحق في الإشراف على تلك المدارس، ففتحت أول مدرسة في الجنوب تابعة للتعليم الإرسالي الكاثوليكي عام ١٩٠٣م، وبعدها انتشر التعليم الإرسالي هناك، حتى أنهم خصصوا لكل إرسالية كاثوليكية كانت أو بروتستانتية منطقة من مناطق الجنوب لممارسة نشاطها فيها[١].

وكذلك الحال في كل منطقة وصلت إليها المدارس الإرسالية في العمل على زعزعة العقيدة الإسلامية في قلوب الناشئة من المسلمين، ومحاولة إدخالهم إلى النصرانية، وخطورة المسألة على القارة الإفريقية أنها تعج بآلاف المنظمات التنصيرية، والتي تضم في مسيرتها جيوشاً ضخمة من الرهبان والراهبات والأطباء وغيرهم، والذين تمكّنوا من المجتمعات الإسلامية هناك مستغلين الفقر والجهل والمرض المتفشي. ففتحت الإرساليات مدارسها للعبث بعقول أبناء المسلمين، ووضعوا لها الخطط المبرمجة لإنجاحها ثم استمرارها بعد ذلك فعملوا على تكوين نمط متسلسل محكم، يبدأ من تحديد الهدف بدقة، ثم وضع خطة فكرية واضحة لتحقيقه، ثم إخراجها إلى حيز التنفيذ بالدعوة ومحاولة الإقناع[٢].

وتقوم هذه الإرساليات باسم العلم ونشر التعليم والقضاء على الجهل زوراً وبهتاناً بأعمال

---

(١) التنصير والتغلغل الاستعماري في إفريقيا، ص ٣٤٩ - ٣٥٠، إصدار جامعة إفريقيا العالمية.

(٢) المرجع السابق ص ١٨٧، والتنصير في القرن الإفريقي ومقاومته، ص ١١١، سيد أحمد يحيى.

مُخزية، وذلك للوصول إلى هدفها التنصيري، وزعزعة العقيدة الإسلامية في قلوب معتنقيها، ومن تلك الأعمال:

أنّ تلك الإرساليات تقوم بتوقيع عقودٍ مع عدد من الأسر الفقيرة المسلمة تقدم بموجبها تلك الإرساليات إليها مساعدات عينية كل شهر، على أن يكون للإرساليات الحق في اختيار طفل من أطفال الأسرة تُربّيه وتقوم بتعليمه على حسابها، ويكون في العقد مادة تنص على أن الأسرة مجبرة على ردّ ثمن المساعدات، وعلى دفع نفقات ابنها، ونفقات تعليمه إذا هي خالفت شروط العقد (بطلب استرداد ابنها مثلاً).

والأمثلة على ذلك عديدة، منها: ما حدث في دولة السنغال، فرئيس جمهوريتها في فترة من الفترات، في بداية الستينيات من القرن العشرين وبتلك الطريقة التي سلكتها الإرساليات في شراء الأطفال من أسرهم المسلمة كان نصرانياً مع أنّ أبويه وإخوانه مسلمون، وسُمّي (سانجو) ومعناه سان جورج أي القديس جورج[1].

أمّا في جيوب المقاومة الجهادية الإسلامية ضد المستعمر الغربي النصراني؛ فإنّ تلك الدول النصرانية الغاصبة تنتهج نهجاً شرساً لمساعدة الإرساليات التنصيرية في الاستيلاء على أولاد المسلمين، فقد تقوم بقتل بعض الأُسر المسلمة، وتُسلِّم أطفالهم إلى تلك الإرساليات لكي تُدخلهم في مدارسها التنصيرية وتُنشئهم على النصرانية إمّا على الطريقة الكاثوليكية أو البروتستانتية، كما حدث في القرن الإفريقي (الصومال وما حوله) بواسطة القوات الإيطالية الكاثوليكية، والقوات البريطانية البروتستانتية[2].

كما أنّ هذه الإرساليات تقوم ببناء قُرى نصرانية جديدة مستقلة في محيط إسلامي، تعتني بها عناية فائقة من الناحية التعليمية والطبية، كما حدث في بعض البلدان الإفريقية، في نيجيريا والكونغو

(١) التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص ٣، مصطفى خالدي، وعمر فروخ.

(٢) التنصير في القرن الإفريقي ومقاومته، ص ٣١، ٧١، سيد أحمد يحيى.

مثلاً فقد قامت الإرساليات الكاثوليكية بشراء عدد كبير جداً من الأطفال في الربع الأخير من القرن التاسع الميلادي لتعمير قُرى مستقلة مع من استطاعوا تنصيرهم من أهل البلد لجعلها نواة محلية تنطلق منها العمليات التنصيرية، وفي الوقت نفسه لوقف انتشار الإسلام في تلك البلدان.

وقد بيّنت تلك الإرساليات جدوى هذه الخطوة عندما أرسلت خطاباً إلى الكاردينال بيروكت عميد كلية الإعلام والدعوة في روما في عام ١٨٨٢م، جاء فيه: (لقد جمع آباؤنا عدداً كبيراً من الأطفال من الجنسين ذكوراً وإناثاً، جمعوهم بمبالغ طائلة، ولذا يُفترض أن نرعاهم إلى عدد من السنين حتى نستطيع أن نجعلهم خدماً للمسيحية، يعينوننا في بناء القرى المسيحية)، وبهذه الطريقة تم جمع ١٨٨٠ طفلاً من الكونغو في عام ١٨٩٦م و١٨٣٠ طفلاً من أوبانقي فيما بين ١٨٩٤م إلى ١٨٩٩م، وبالتالي استطاعت الكاثوليكية الرومانية أن تُنشئ مجموعة من القرى النصرانية التي أصبحت نواة لمدن كاملة فيما بعد[1].

كما أن هذه الطريقة استخدمتها الإرساليات التنصيرية في آسيا، فمثلاً في أندونيسيا، بنت قُرى جديدة حول المدن الكبيرة، مثل جاوا، وقد نجحت تلك الإرساليات في محافظات منها محافظة لامبونغ بجنوبي سومطرة[2].

ومن أول الأماكن التي انتشرت فيها الكاثوليكية في أندونيسيا وهي أكثرها تمكّناً وعدداً وذلك بسبب قوة التعليم الإرسالي هناك مع الخدمات الأخرى كالطبية، وغيرها هو القطاع الشرقي من جزر السوندا الصغرى (وتُسمّى حالياً نوسا تينقارا تيمور) (تيمور الشرقية)، وذلك منذ القرن السادس عشر الميلادي، ثم ازدادت الكاثوليكية ازدهاراً فيها منذ عام ١٨٠٢م عندما تَمّ تعيين أول قاصد رسولي في أمبون، وقد أقيم أول قدّاس علني رسمياً في يوم (١٠/ ٤/ ١٨٠٨م). تيمور الشرقية تلك التي تضافرت كل القوى الغربية وعلى رأسها الفاتيكان من أجل انفصالها عن جسد

(١) التنصير والتغلغل الاستعماري في إفريقيا، ص ٣٣، جامعة إفريقيا العالمية.

(٢) غارة تبشيرية جديدة على أندونيسيا، ص ١٩٢، أبو هلال الأندونيسي.

الدولة الإسلامية الإندونيسية.

وقد أُقيمت قصادة رسوليّة أخرى في جاكرتا عام ١٨٠٧م، وكانت أول انتشار ملاحظ للمدارس الكاثوليكية خاصة الخاضعة للإرساليات اليسوعية (الجزويت) منذ عام ١٩٠٤م. وقد انتشر التعليم الإرسالي الكاثوليكي هناك ابتداءً من رياض الأطفال إلى الجامعات، وأصبح لديهم ثمانية (٨) معاهد عُليا للاهوت وعشرات المعاهد الثانوية اللاهوتية، وذلك في حلول عام ١٩٧٩م.

وفي عام ١٩٧٠م زار البابا بولس السادس (٢١ حزيران ١٩٦٢ - ٨ كانون الأوّل ١٩٦٥م) جاكرتا لحضور الاحتفال بعيد المُنصِّر اكسافيريوس (٤/١٢/١٩٧٠م) واستقبله الرئيس سوهارتو.

وقد أقام الكاثوليك في تلك الفترة مجلساً أسموه (مجلس رعاة الكنائس بأندونيسيا) له رئاسة وأمانة عامة، وتضم هذه الأمانة أقساماً للموظفين ولشؤون التعليم والشؤون المالية، والخدمات العامة وشؤون المستندات والإعلام، كما يضم المجلس معهدين، أحدهما معهد البحوث والتنمية، والآخر المعهد الإنجليزي الإندونيسي، وثماني لجان هي: لجنة الشؤون الاجتماعية والاقتصادية، ولجنة معاهد اللاهوت، ولجنة الطقوس والعبادات، ولجنة معلّمي الدين، ولجنة الشؤون التربوية، ولجنة الاتصالات الشعبية، ولجنة الايكوميني (أي إعادة وحدة الكنائس النصرانية)[1].

ومن أخطر طرق التعليم الإرسالي، أخذهم طريقة تكوين المدارس الداخلية، فيتقطع الصبي عن أسرته أسابيع متتالية، فهو بهذه الطريقة إن لم يعتنق النصرانية فعلاً، فإنه ولا شك تتحقق فيه غاية من غايات التنصير، وهي إفساده وجعله مماثلاً للنصارى في زيه وأخلاقه وممارساته وتفكيره[2].

(١) المرجع السابق، ص ١٧ ٢٠، أبو هلال الأندونيسي.

(٢) التنصير في القرن الإفريقي ومقاومته، ص ١١٧، سيد أحمد يحيى.

ومن أكثر ما اهتمت به الإرساليات التنصيرية عن طريق المدارس الداخلية؛ المرأة المسلمة. فقد كونوا كثيراً من الأقسام الداخلية الخاصة بالبنات المسلمات، واهتموا بإنشاء دور لإيوائهن، حيث يؤدي ذلك إلى انتزاعهن من بيئتهن المسلمة، ووقوعهن تحت سيطرة التنصير مباشرةً.

وقد قالت المُنصِّرة آنا ميلجان: (يوجد في صفوف كلية البنات بالقاهرة بنات آباؤهن باشوات وبكوات، وليس ثمَّة مكان آخر يمكن أن يجمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحي، وليس ثمة طريق إلى دحض الإسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة)[1].

ولقد قال الشيخ محمد عبده محذراً من العواقب الوخيمة التي تترتب على الالتحاق بتلك المؤسسات التعليمية،: (... فلا ترى من البقاع إلاّ فيها مدرسة للأمريكان أو اليسوعيين أو العزارية أو لجمعية أخرى من الجمعيات الدينية الأوروبية.

والمسلمون لا يستنكفون من إرسال أولادهم إلى تلك المدارس طمعاً في تعليمهم بعض العلوم المظنون نفعها في معيشتهم، أو تحصيلهم بعض اللغات الأوروبية التي يحسبونها ضرورية لسعادتهم في مستقبل حياتهم.

ولم يختص هذا التساهل المحزن بالعامة والجهال، بل تعدّى المعروفين بالتعصب في دينهم، بل لبعض ذوي المناصب الدينية الإسلامية.

أولئك الضعفاء أولاد المسلمين، يدخلون إلى تلك المدارس الأجنبية في سن السذاجة وغرار الصبا والحداثة، ولا يسمعون إلا ما يخالف أحكام الشرع المحمدي، بل لا يطرق أسماعهم إلاّ ما يزري على دينهم وعقائد آبائهم... فلا تنقضي سنوات تعليمهم، إلا وقد خوت قلوبهم من كل عقد إسلامي، وأصبحوا كفاراً تحت حجاب اسمه الإسلام، ولا يقف الأمر عند ذلك بل تعقد قلوبهم على محبة الأجانب، وتنجذب أهواؤهم إلى مجاراتهم، ويكونون طوعاً لهم فيما يُريدونه منهم، ثم ينفثون ما تدنست به نفوسهم بين العامة بالقول والعمل، فيصيرون بذلك ويلاً على

---

(١) حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، ص ١٦٦، أحمد عبد الوهاب.

الأمة، ورزية على الدولة نعوذ بالله)[1].

فالتعليم الإرسالي، ومدارسه ومعاهده وجامعاته التنصيرية، أشد ضرراً على العقول والأفئدة وأعمق تدميراً على الأفكار من التعليم العلماني.

ب) من خلال الإعلام:

استغلّ المنصِّرون وسائل الإعلام المختلفة (المرئية، والمسموعة، والمقروءة) استغلالاً تاماً يفوق التصورات كلها في سبيل إنجاح عملياتهم التنصيرية الموجّهة؛ وذلك لإدراكهم أن تأثيره أخطر وأقوى وأعمّ حتى من التعليم وطرقه، فالتعليم يُخاطب مجموعة قليلة من الشعب مقارنة بما تخاطبه وسائل الإعلام، والتي قد لا يستثنى من تأثيرها إلا القلة القليلة من أبناء الشعب، حيث إنّها تدخل البيوت، وبطرق جذّابة لا يستطيع أحد مقاومتها، إلا من رحم الله من المثقفين الثقافة الإسلامية الصحيحة، والذين قد يتنازلون في بعض الأحيان عن أمور قد يكون الخلاف فيها قويّاً، بل قد تكون من المسلّمات من أجل ضغط الجماهير المتأثرة بوسائل الإعلام المُسيّرة بطرق ماكرة خبيثة تعمل ضد الإسلام وقيمه وحضارته.

لذلك نجد أن الإرساليات التنصيرية ومنظماتها وهيئاتها فضلاً عن الاتجاه التغريبي العلماني، كل يعمل على حسب أهدافه ومبتغاه من الأمة الإسلامية لم يغب عنها استخدام وسائل الإعلام، أو ما يُسمّى (بوسائل الاتصال الجماهيري) مرئيةً كانت مثل (التلفزيون، والأفلام، والسينما، والمسرح)، أو مسموعة كانت مثل (الراديو، وأشرطة التسجيل المسموعة)، أو مقروءة مطبوعة كانت مثل (الصحف، والنشرات، والكتب، والمجلات).

ولقد انطلقت الكنيسة ومؤسساتها التنصيرية في اهتمامها بهذه الوسائل من حقيقة مهمة أكدت عليها كثيراً، وهي أنّ هذه الوسائل عندهم تُساهم بصورة فعّالة في تثقيف العقل والترويح عنه، وتساعد على انتشار ملكوت المسيح وتدعيمه، وعلى هذا الأساس عندهم وانطلاقاً منه،

---

(١) قوى الشر المتحالفة، وموقفها من الإسلام والمسلمين، ص ١٠٢، محمد محمد الدهان، المدير العام بالأزهر الشريف سابقاً.

شهدت ساحة التنصير العالمية طوال القرن الماضي وحتى الآن وبمؤتمرات إعلامية عديدة ضمت صحفيين وإذاعيين وخبراء إعلام وأساقفة من كل أنحاء العالم، والتي بحثت موضوع وسائل الإعلام وتطوير استخدامها والتوسع في إنشاء مؤسساتها وأنشطتها في مجال التنصير [١].

وقد عمل المنصِّرون من خلال مؤتمراتهم واجتماعاتهم استراتيجية متكاملة لمخطط العمل الإعلامي التنصيري، وتوصيات لدعم العمل الإعلامي واستمراريته، ومن أشهر هذه التوصيات ما أصدره المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، فجاءت هذه الاستراتيجية الإعلامية التنصيرية على النحو التالي:

- إن استخدام وسائل (التعبير) يعد واجباً من واجبات الكنيسة لنشر رسالة الخلاص بين الناس.
- من الضروري أن تستخدم الكنيسة وسائل الاتصال بالجماهير، وأن تمتلكها لأنها ضرورية للتربية المسيحية وللأعمال الدعائية الأخرى كافة.
- ينبغي استخدام هذه الوسائل استخداماً صحيحاً على ضوء طبيعة الوسيلة والظروف التي تستخدم فيها، والغاية من استخدامها والأشخاص والزمان والمكان الذي تستخدمه فيه.
- على أبناء الكنيسة جميعهم أن يوحّدوا جهودهم، وأن يتعاونوا على استخدام وسائل التعبير بصورة فعّالة ودون إبطاء وبأعظم قدر من الاهتمام في خدمة أعمال (الرسالة) مراعين مقتضيات الزمان والمكان الخاصة.
- على الدعاة أن يُبادروا في هذا الميدان إلى استخدام هذه الوسائل للقيام بواجب التبشير بالإنجيل الذي هو من صميم مهمتهم.
- ينبغي إنشاء محطات إذاعية كاثوليكية كلما سنحت الفرصة لذلك، والاهتمام بأن تكون على مستوى عالٍ من الكفاءة والجودة.

---

(١) الإذاعات التنصيرية الموجهة إلى المسلمين العرب، ص ٥٧، دكتور كرم شلبي.

- الإسراع في إعداد الكهنة والرهبان القادرين والمؤهلين لاستخدام هذه الوسائل لتحقيق أهداف (الرسالة)، وهنا يجب الالتزام بإعدادهم إعداداً فنّياً وعقدياً وأدبياً مناسباً.

- يجب الاهتمام بإنشاء العديد من المدارس والمعاهد والكليات التي تتيح للصحفيين ومنتجي الأفلام ومذيعي الراديو والتلفزيون ولكل المعنيين بهذه الأمور تحصيل ثقافة كاملة مشبّعة بالروح المسيحية تنصبّ بوجه خاص على التعليم الاجتماعي للكنيسة.

- على أبناء الكنيسة القيام بواجبهم في مساندة الصحف الكاثوليكية ومساعدتها، وتدعيم النشرات والدوريات والأفلام السينمائية ومحطات الراديو التلفزيون؛ حتى لا تواجه الفشل بسبب الصعوبات الفنية أو نقص الأموال التي تحتاج إليها.

- إنشاء مؤسسات محلية لإنتاج الأفلام السينمائية وبرامج الراديو والتلفزيون وتدعيم هذه المكاتب وتزويدها بكافة الإمكانيات.

- يجب استخدام هذه الوسائل (لتوعية المسلمين) أي تنصيرهم، ولإعداد وتدريب المنصّرين في نفس الوقت وتزويدهم بكل ما يحتاجونه من معلومات في هذا المجال.

- ينبغي ترجمة المطبوعات إلى مختلف اللغات وتبادلها مع مختلف الجهات التي تحتاج إليها في أي مكان في العالم.

ومما لا شك فيه أن الهيئات والمنظمات التنصيرية أفادت فائدة عظمى من جراء استخدام هذه الوسائل الجماهيرية، فمثلاً في إحصائية عام ١٩٨٦م تمكّنت الإرساليات التنصيريّة عبر هذه الوسائل أن تصل بصوتها إلى ٤٨ مليون شخص، وكان هذا الاتصال يتم بواسطة توزيع الكتب والنشرات التنصيرية والإذاعية وعرض الأفلام، كما أنهم خططوا في أواخر التسعينيات للوصول بالتنصير عبر هذه الوسائل الإعلامية إلى ٤٠٠ مليون شخص في ١٧٠ دولة، وعملوا جاهدين على إنجاح التغطية التنصيرية لكل أجزاء الكرة الأرضية عبر الأقمار الصناعية في بداية القرن

الحادي والعشرين، وهذا ما يحصل الآن حقيقةً وليس خيالاً وأمنية [1].

وقد كانت من أهم المعاهد الإعلامية في كيفية نشر الإنجيل في العالم؛ معهد الدراسات الإعلامية الذي تم افتتاحه في شهر يونيو عام ١٩٩٠م بمدينة بروكسل، ويقوم هذا المعهد بتكوين فريق متكامل من الإعلاميين المنصِّرين يجيدون تناول المواد الدينية إعلامياً [2].

فوسائل الإعلام (وسائل الاتصال الجماهيري) من أهم الميادين التي استغلتها الحركة التنصيرية في العالم لتنصير المسلمين وغيرهم، ووجهتها بطريقة مدروسة ودقيقة بحيث تتجه نحو المراد تنصيرهم في كثافة وتنوّع منقطع النظير، ومن ثم تخضعهم لعملية إعادة تشكيل عقلي أو غسل دماغ مستمر ليل نهار قد لا يفيقون منه، وبكل لهجاتهم المحلية والقبلية ولغاتهم المعروفة [3].

الوسائل المرئية:

وهذه الوسائل من أكثر الوسائل الإعلامية تأثيراً (التلفزيون والسينما والأفلام)؛ لذا فقد اهتم بها المنصّرون أيّما اهتمام لنشر النصرانية، وقد صرح المنصّر الجنرال شاهي بونارسيا تورياغ في عام ١٩٧٨م: (إنه يجب السيطرة على وسائل الإعلام وخاصة التلفزيون) [4].

ومن أخطر وسائلهم المرئية التنصيرية، ذلك المشروع التنصيري الخاص بالفاتيكان والمسمى بمشروع (لومين ٢٠٠٠) أي (نور سنة ٢٠٠٠)، فهو الأداة الطاغية التي يتعين عليها أن تمطر الإنجيل على العالم بأسره، عبر الأثير، وهذا المشروع التنصيري يُعد الأول من نوعه من حيث الحجم واتساع رقعة البث وإمكانية السيطرة إعلامياً تلفزيونياً على قارات العالم كافة، وبالخصوص

---

(١) الإذاعات التنصيرية، ص ٥٨، الدكتور كرم شلبي، في الغزو الفكري، ص ١٣٤، نذير حمدان، مجلة البيان، العدد (١٥٣)، جمادى الأولى ١٤٢١هـ - أغسطس ٢٠٠٠، أحمد عبد الله الرفاعي.

(٢) الفاتيكان والإسلام، ص ١٩، د. زينب عبد العزيز.

(٣) التنصير والتغلغل الاستعماري في إفريقيا، بحث بعنوان: (التنصير الحديث في إفريقيا خلفيته التاريخية وبعض وسائله)، ص ١٤٢، بقلم د. الناصر أبو كروق (ندوة بحثية، جامعة إفريقيا العالمية).

(٤) بحث بعنوان: (التنصير والاختراق الأخلاقي الاستعماري لإفريقيا)، ص ٢٩٠، د. إبراهيم علي محمد أحمد، ضمن بحوث الندوة المسماة (التنصير والتغلغل الاستعماري في إفريقيا)، جامعة إفريقيا العالمية.

قارتي إفريقيا وآسيا اللتين يوجد فيهما المسلمون بشكل مكثّف، ويتمثل هذا المشروع في بناء محطة تلفزيونية كبيرة للبث في كافة أنحاء العالم للتنصير بتعاليم الإنجيل بواسطة ثلاثة أقمار صناعية، هذا بالإضافة إلى إحدى وعشرين ومائتي محطة للبث التلفزيوني التنصيري [(١)].

كما إن إحدى أشهر القنوات التلفزيونية الكاثوليكية هي تلفزيون العائلة (Tv Family) [(٢)].

كما أنّ هناك عدة قنوات تنصيرية عربية تُعرض على القمر الأوروبي (الهوت بيرد) من أبرزها: النور، والحياة، ومعجزة، وسات سفن، وإن كانت بعض هذه القنوات العربية ذات خطاب أُرثوذكسي إلاّ أنّها تُناقش أساسيات أصول العقيدة النصرانية بمنظار عام، وتهاجم الإسلام ونبي الإسلام بشكل دائم، وببرامج ثابتة، وتسعى بوضوح لتنصير المسلمين، وتشكيكهم في دينهم الإسلامي [(٣)].

كما أن المنصّرين اهتموا اهتماماً كبيراً بالسينما المتجولة لبث الأفلام التنصيرية في الريف، وسط الأمين خاصة في إفريقيا، وتأتي خطورة السينما المتجولة لكونها تخاطب أُناساً بسطاء ليس لهم ما يُحصّنهم من العلم ولا الدراية (المقبولة) بتعاليم الدين الإسلامي، وهو الأمر الذي يجعلهم صيداً سهلاً للمنصّرين عبر تلك الوسيلة، وهناك دور متخصصة في إنتاج هذه الأفلام وترجمتها إلى معظم لغات أهل الأرياف ولهجاتهم، وهنا تكمن الخطورة التي تستوجب الانتباه والحذر من قبل المنظمات الدعوية الإسلاميّة العاملة في مجال الدعوة فتحاول توعية المسلمين وتثقيفهم وبخاصة

---

(١) الفاتيكان والإسلام، ص ٢٠، أ. د. زينب عبد العزيز، التنصير والاختراق الأخلاقي الاستعماري لإفريقيا، ص ٢٩١، د. إبراهيم علي محمد أحمد، ومن ضمن بحوث ندوة (التنصير والتغلغل الاستعماري في إفريقيا)، جامعة إفريقيا العالمية.

(٢) كينيا بين عجز المسلمين وشراسة المنصرين، ٢/٢، بقلم: نجاح شوشة، موقع مفكرة الإسلام www.omemmalsi.com

(٣) الفضائيات المسيحية الغربية... هل تتحول إلى أحزاب دينية بديلة؟! بقلم: محمد جمال عرفة، مجلة المجتمع بتاريخ (٣٠/ ٧/ ٢٠٠٥م)، موقع نسيج www.naseej.com

الأميين وسكان الريف [1].

الوسائل المسموعة (الإذاعة):

اهتم المنصرون اهتماماً بالغاً بالوسيلة السمعية في مجال التنصير، فهي عندهم من الوسائل المثلى لمخاطبة الجماهير العريضة على اختلاف مستوياتهم الثقافية والتعليمية، فضلاً عما تتمتع به من إمكانيات وقدرات تيسر لها الوصول إلى هذه الجماهير العريضة المتنوّعة في أماكن متعددة على مساحات واسعة في الأرض والبحر، متخطية حواجز المسافات وحواجز الرقابة وحواجز الأمّية في آن واحد [2]، ولعل هذا ما جعل أحد المنصرين والباحثين في مجال العمل التنصيري يقول: (يبدو أن الإذاعة هي إحدى الوسائل الرئيسية التي يمكن بواسطتها الوصول إلى المسلمين في بلدان الشرق الأوسط وشمال إفريقيا المغلقة، حيث الإذاعة يمكنها كما نعلم أن تخترق الحواجز الحدودية، وأن تعبر البحار وتقفز الصحاري وأن تنفذ إلى مجتمعات المسلمين المغلقة والذين لم تسنح الفرصة لأغلبيتهم لأن تسمع عن رحمة التخليص التي أودعها الرب يسوع... إذا أردنا الوصول بصورة مؤثّرة برسالة ربّنا عيسى المسيح إلى العالم الإسلامي في هذا الجزء الأخير من القرن العشرين. فالإذاعة ضرورة قصوى وجزء مهم جداً من برامجنا)[3].

وقد جاء التعبير عن ذلك أيضاً بقولهم: (إنّ كلّ جهاز ترانزستور قد يصبح مبشراً بالمسيح، وأنّ هذا الجهاز الذي ساعد الناس على سماع كلمة الإنجيل ينبغي أن يُكرّس لخدمة الله وإنجيله الطاهر ولخير البشرية جمعاء)[4].

وتأكيداً لهذا الاهتمام بالإذاعة وتجسيداً له قامت عشرات الهيئات والمنظمات الإذاعية التنصيرية

---

(1) التنصير والاختراق الأخلاقي الاستعماري لإفريقيا، ص ٢٩١، د. إبراهيم علي محمد أحمد، من ضمن بحوث ندوة (التنصير والتغلغل الاستعماري في إفريقيا)، جامعة إفريقيا العالمية.

(2) الإذاعات التنصيرية المواجهة إلى المسلمين العرب، ص ٦٢، د. كرم شلبي.

(3) التنصير والاختراق الأخلاقي الاستعماري لإفريقيا، ص ٢٩١، بقلم د. إبراهيم علي محمد أحمد، من ضمن بحوث ندوة (التنصير والتغلغل الاستعماري في إفريقيا)، جامعة إفريقيا العالمية.

(4) الإذاعات التنصيرية الموجهة إلى المسلمين العرب، ص ٦٣، د. كرم شلبي.

في أنحاء متفرقة من العالم بإنشاء المحطات الإذاعية، والتخطيط لها، وتبادل الخبرات والبرامج والاستشارات، وعقد المؤتمرات والندوات العلمية، وتنفيذ التوصيات، وإقامة الدورات التأهيلية والتدريبية للكوادر والعناصر التي تعمل في هذه المحطات، وإجراء البحوث والدراسات على جماهير المستمعين للكشف عن مدى تأثير هذه المحطات وفاعليتها، فضلاً عن تقويم خططها وبرامجها وتقييمها.

ومن المنظمات النشطة في هذا المجال، منظمات ومؤسسات تنصيرية كاثوليكية، منها:

الرابطة الكاثوليكية للراديو والتلفزيون:

ومقرها سويسرا، وهي رابطة تضم مئة محطة إذاعية كاثوليكية وينصب نشاطها على خدمة التنصير والذي تطلق عليه مصطلح التبشير، وعقد المؤتمرات، وتبادل الخبرات والمعلومات في هذا المجال، فضلاً عن التعاون المنظم مع الروابط والهيئات والمنظمات الإذاعية التنصيرية الأخرى، وإجراء البحوث والدراسات وتقديم التوصيات اللازمة.

الاتحاد الفلبيني للإذاعيين الكاثوليك:

مقره تايلند، ويتولى الإشراف على عدد من المحطات التنصيرية، ويُقدم لها المعلومات وخدمات التدريب والتخطيط[1].

ومن أشهر المؤتمرات في هذا المجال الإعلامي الخطير، المؤتمر الذي عقد في زامبيا عام ١٩٦١م، والذي حضره مندوبون في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا وإفريقيا، جرت مناقشات مسهبة حول (أفضل الطرق التي يمكن للكنائس الإفريقية اتباعها للإفادة من وسائل الاتصال الجماهيرية في مجال التبشير)، وكان أهم ما توصل إليه المؤتمرون في هذا الصدد قرارهم بإنشاء مركز للتدريب

(١) المرجع السابق، ص ٦٣ - ٦٥، د. كرم شلبي، الإذاعات التنصيرية في إفريقيا، ص ١٠٦، ١٠٧، بقلم: عبد الله علي الصافي، من ضمن بحوث ندوة: (التنصير والتغلغل الاستعماري في إفريقيا) جامعة إفريقيا العالمية، ومقالة بعنوان: (إشكاليات العمل الإعلامي بين الثوابت والمعطيات العصرية) تحت زاوية: سلسلة كتب الأمة، إعداد موقع الشبكة الإسلامية www.islamweb.net

الإذاعي يكون مقره (كينيا) من أكبر التجمعات الكاثوليكية في إفريقيا، وقد تم إنشاء هذا المركز الذي أكد فاعليته الهائلة في هذا المجال، ونجح في إعداد الدورات المتنوعة (دورات قصيرة المدى، ودورات طويلة المدى تستغرق الدورة الواحدة ستة أشهر)، ومن ثم تمكن من استقطاب العديد من الخبراء، وإعداد العديد من الكوادر الإفريقية في مجالات العمل المحتك بالإذاعة المسموعة والمرئية.

وفي عام ١٩٦٥م عُقد مؤتمر آخر في روما، وقد اتخذ قراراً بالقيام بحملة دعائية واسعة تدعو لجمع التبرعات من أجل تدعيم هذه الإذاعات...، وهكذا توالت المؤتمرات النصرانية لتدعيم هذا المجال التنصيري الواسع الانتشار [١].

وهناك أعداد كثيرة من الإذاعات الغربية العاملة في المجال التنصيري، كاثوليكية وغيرها من الفرق النصرانية، ومن أشهر الإذاعات التنصيرية الكاثوليكية، وهي:

إذاعة راديو الفاتيكان:

افتتحت هذه الإذاعة (راديو الفاتيكان) في فبراير عام ١٩٣١م، وقد أنشأها مخترع الراديو الشهير (ماركوني)، وقدّمها هدية لبابا الفاتيكان بيوس التاسع (١٦ حزيران ١٨٤٦ - ٧ شباط ١٨٧٨م)، وتولى ماركوني تقديمها للبابا في مناسبة الافتتاح، وبدأ البابا حديثه قائلاً: (إنّ هذه الإذاعة قامت لتخدم عالم يسوع المسيح)، وتحقيقاً لهذا الهدف اهتمت برامج المحطة بإذاعة خطب البابا ورسائله، وبث أخبار الفاتيكان، والاحتفالات والمناسبات الدينية، فهي الوسيلة المثلى آنذاك التي تتيح للبابا وتمكنه من الاتصال بأبناء الطائفة الكاثوليكية في أنحاء العالم [٢].

واستمر القائمون على هذه المحطة التنصيرية في تطويرها وتحقيق أهدافها التنصيرية، ففي عام

---

(١) الإذاعات التنصيرية الموجهة إلى المسلمين العرب، ص ٦٧، د. كرم شلبي.

(٢) الإذاعات التنصيرية في إفريقيا، ص ١٠٥، ١٠٦، عبد الله علي الصافي، الإذاعات التنصيرية الموجهة إلى المسلمين العرب، ص ٨١، د. كرم شلبي، إشكاليات العمل الإعلامي بين الثوابت والمعطيات العصرية، ضمن سلسلة كتب الأمة، موقع الشبكة الإسلامية www.islamweb.com

١٩٧٠م حقق راديو الفاتيكان طفرة هائلة بإنشائه واحداً من أضخم مراكز الإنتاج (داخل المحطة نفسها الذي يعرف باسم بلا زوبيو)، ويشتمل هذا المركز علىٰ ١٤ أستوديو مزوّدة بإمكانيات تمكّنها من إنتاج برامج ناطقة بأربع وثلاثين لغة، وتصل أحياناً إلى خمس وأربعين لغة عند الحاجة إلى إنتاج برامج خاصة بلغات خاصة غير المستخدمة في المحطة لمواجهة أو تغطية مناسبات معيّنة، ويكون المشرف علىٰ رأس كل أستوديو أحد القساوسة ويكون عادة من أبناء المنطقة التي توجه إليها الإذاعة، أو منتمياً للجنسية نفسها، فهناك القسم الإيطالي، والإنجليزي، والفرنسي، والروسي، والصيني، والعربي، والياباني والسويدي... إلخ، ويتولّى كل قسم وضع خطته البرامجية علىٰ أساس طبيعة الجمهور المستهدف، غير أنّ هذه الأقسام المختلفة، تتوحد في الأغراض والمنطلقات، وتحكمها قواعد معينة تتمثل في التالي:

١. ربط الكنائس الكاثوليكية المحلية في مختلف أنحاء العالم بمركز النصرانية في الفاتيكان.
٢. نشر كلمة (الخلاص) والتبشير بالإنجيل علىٰ أوسع نطاق ممكن.
٣. عدم التعرض للقضايا والموضوعات الخلافية السائدة داخل الكنيسة الكاثوليكية.
٤. إحياء روح النصرانيّة وغرسها في نفوس الشباب باعتبارهم جيل المستقبل.
٥. تناول العقائد والأفكار والقضايا والموضوعات (الدنيوية) وتفسيرها علىٰ ضوء نظرة كاثوليكيّة لها، وموقفها منها[١].

ولمزيد من ربط المستمع بالإذاعة يصدر راديو الفاتيكان العديد من النشرات، إلى جانب مجلة برامجية فصلية تصدر مع بداية كل دورة إذاعية كل ثلاثة أشهر، وتحمل اسم (برامج راديو الفاتيكان)، وتقع هذه المجلة في ٦٤ صفحة في طباعة ملونة فاخرة، وتنشر تفاصيل ومواعيد برامج الخدمات الإذاعية المختلفة التي تقدمها المحطة وأطوال الموجات فضلاً عن العديد من الموضوعات والقضايا التي ستعرضها هذه البرامج وبعض الأخبار الخاصة بالكنيسة والبابا، ولعل أهم ما يلفت النظر في هذه

---

(١) الإذاعات التنصيرية الموجهة إلى المسلمين العرب، ص ٨٣، ٨٨، د. كرم شلبي.

المجلة ليس فقط أنها توزّع مجاناً، بل أنها أيضاً تنشر مواعيد هذه الخدمات الإذاعية وتفاصيلها باللغة نفسها التي تبث بها الخدمة ومن ثم تصدر بأربع وثلاثين لغة [١].

إذاعة حول العالم من مونت كارلو:

إذاعة مونت كارلو (الفرنسية) إذاعة تبدو في ظاهرها مجرد إذاعة تجارية، لكنّها في حقيقة الأمر إذاعة لها توجهاتها السياسية المعادية والموجّهة، وتوجهاتها التنصيرية الواضحة والماكرة، وتلك التوجهات التنصيرية من خلال محطة إذاعية مستقلة تابعة لها يبدأ العمل فيها بعد منتصف الليل تُسمى (إذاعة حول العالم من مونت كارلو) أي أنّها تبدأ عقب انتهاء إرسال المحطة الأساسية مباشرة، وعلى عكس الكثير من المحطات الدينية التنصيرية فإن إذاعة (حول العالم) لم ترتبط بأية طائفة دينية نصرانية (كاثوليكية بروتستنتية أرثوذكسية)، أو تحمل اسمها أو تُعبّر عنها، أو تقصر نشاطها عليها أو تخصها بخدماتها وحدها دون الطوائف الأخرى، وإنما وضعت نفسها في خدمة كل من يريدها تعمل لحسابه في المجالات التنصيرية، فكما استغلها الكاثوليك فكذلك استغلتها البروتستانت.

وقد أتاح لها ذلك النهج من تحقيق دخل هائل من الناحية المالية فقفزت بذلك قفزة هائلة في الانتشار والتوسع والاستحواذ على الإمكانيات التقنية كافة. فبعد أن كانت تملك جهازاً واحداً في وقت إنشائها عام ١٩٦٠م، أصبحت، وخلال أقل من خمسة عشر عاماً، تملك ستة أجهزة، وبعد أن كانت قد بدأت بثها بلغة واحدة، إذ بها ترتفع إلى عشرين لغة، ثم إلى ستين إلى أن وصل عدد اللغات التي تبث بها براجحها إلى خمس وسبعين لغة منذ عام ١٩٨٢م إلى الآن [٢].

---

(١) المرجع السابق، ص ٨٩، د. كرم شلبي.

(٢) الإذاعات التنصيرية في إفريقيا، ص ١٠٩، ١١٧، عبد الله علي الصافي، ضمن بحوث ندوة: (التنصير والتغلغل الاستعماري في إفريقيا) جامعة إفريقيا العالمية، الإذاعات التنصيرية الموجهة إلى المسلمين العرب، ص ١١٧، د. كرم شلبي، إشكاليات العمل الإعلامي بين الثوابت والمعطيات العصرية، ضمن سلسلة كتب الأمة، موقع الشبكة الإسلامية www.islamweb.com

الوسائل المقروءة: (الصحف والمجلات):

لقد اهتم النصارى اهتماماً بالغاً بالوسائل المقروءة وسخّروها لغزو المسلمين فكرياً وعقائدياً، فهي من أول أسلحتهم لتنفيذ خططهم العابثة بعقول بعض المسلمين.

وكانت الصحافة واحدة من أخطر هذه الوسائل التي استعان بها القائمون على نشاط الإرساليات التنصيرية في البلدان الإسلامية، فقد استعانوا بنوعين من الصحافة:

أولاً: الصحافة التنصيرية الصريحة.

ثانياً: بعض الصحف المحلية، والتي كان لها الولاء للإرساليات التنصيرية. فإنّ بعض هذه الصحف كانت تحصل على مبالغ مالية ضخمة من جهات نصرانية متعددة في سبيل نشر مقالات معينة ذات توجهات وأهداف معينة، أقلها شأناً أن تصرف المسلمين عن الاهتمام بنشاط الإرساليات التنصيرية، وتحويل اهتماماتهم عن وجود الاحتلال من أساسه، هذا الاحتلال الذي يرعى ويحمي الوجود التنصيري في بلدان المسلمين [1].

لذلك ركّزوا على الصحافة واهتموا بأعمال الطبع والنشر، وقد اعتمدوا مدينتين كبيرتين من بلدان المسلمين في نشر صحفهم ومجلاتهم، وهما القاهرة وبيروت.

أما الكاثوليك فقد اتخذوا بيروت مركزاً لتوزيع منشوراتهم إلى جميع بلدان العالم الإسلامي، كما أنهم ركّزوا جميع جهودهم في المطبعة الكاثوليكية في بيروت منذ عام ١٨٧١م، كما أنّ البروتستانت ركّزوا جهودهم في القاهرة [2].

ومن أشهر الجرائد الكاثوليكية، جريدة (البشير) تصدر من بيروت، تهتم اهتماماً بالغاً بأخبار البابا والفاتيكان، وأما العمل الرئيس لجريدة البشير فهو ردودها غير المتراخية على أعداء البابوية، وأعداء الإيمان الكاثوليكية، ولقد كانت روما دائماً نصب عيني هذه الجريدة [3].

---

(١) الجذور التاريخية لإرساليات التنصير الأجنبية في مصر، ص ١٤٨ - ١٥٠، د. خالد محمد نعيم.

(٢) حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، ص ١٦٧، ١٦٨، أحمد عبد الوهاب.

(٣) التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص ٢١٣، مصطفى خالدي، وعمر فروخ.

وهناك جريدة أخرى لها دور تنصيري كبير في العالم الإسلامي، اتخذت من مصر وليبيا مركزاً للدعاية والنشر والتوزيع، وهي جريدة (النادي) الإيطالية الكاثوليكية[1].

كما أنّ من أشهر المجلات الكاثوليكية، والتي تُعد لسان حال الكثلكة في الشرق، هي مجلة (الشراع)، وكان أوّل من أصدرها هم اليسوعيون الكاثوليك [2].

وفي الوقت الحاضر تنفق المنظمات التنصيرية الملايين من الدولارات في نشر ملايين من المطبوعات والكتب التنصيرية، وهذه النشرات والمطبوعات والكتب تُطبع بمطابع خاصة وبكافة لغات العالم الحية، وأغلبها توزع مجاناً وبكل قارات العالم، والله المستعان[3].

التنصير والانترنت:

اهتم المنصّرون اهتماماً كبيراً بالتقنيات الحديثة لوسائل الإعلام، ومن تلك التقنيات وسيلة الشبكة العنكبوتية (الانترنت).

وقد استعانت الكنيسة الكاثوليكية بالانترنت كوسيلة إعلام واتصال لرسم صورة معيّنة موجهة إلى العالم الإسلامي، كما أنها استفادت كثيراً بإقامة علاقات عن طريق مواقعها التنصيرية عبر البريد الالكتروني (E- mail)، وعبر التخاطب الآلي (Chat) وعرض المستجدات والأحداث والأخبار عبر (News)، وذلك تعبيراً وتنفيذاً لمطالبات بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثاني بالاستفادة من مجال الإعلام الحديث والاتصال الاجتماعي، والتي وردت في العدد (١١١) من الإرشاد الرسولي المعنون بـ (رجاء جديد للبنان)، وتفاعلات هذه المطالبات عند زيارة يوحنا بولس الثاني إلى لبنان في (١٠/ ٥/ ١٩٩٧م)، فأنشأت موقعاً خاصاً بالكنيسة الكاثوليكية في لبنان على الشبكة العنكبوتية، وتوالت المواقع التنصيرية الكاثوليكية باللغة العربية [4].

(١) الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، ص ١٩٧، مصطفى نصر المسلاتي.

(٢) التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص ١٦٣، مصطفى خالدي، وعمر فروخ.

(٣) التنصير الطبي الخفي في البلاد الإسلامية، ٣١، د. عبد العزيز الفهد.

(٤) دراسة بعنوان: الكنيسة والإنترنت، من موقع www.porinabils.org.bi

التنصير بالمراسلة:

ومن الأساليب التي اعتمدها المنصِّرون حديثاً في التنصير: الدروس بالمراسلة، فيوجد اليوم عدد كبير من المؤسسات التنصيرية متخصصة في هذا المجال.

أذكر منها على سبيل المثال: مؤسسة (التاريخ والحياة) مقرها مرسيليا بفرنسا، وهذه المؤسسة تُمارس التنصير في أنها توزع عنوانها في بعض الإذاعات والمجلات والمراكز الثقافية، وترسل سلسلة دروسهم النصرانية والأناجيل عن طريق البريد الجوي إلى المدعوين، والذين استجابوا لهم وتواصلوا معهم، حيث يمدّون دارسيهم بالظروف وبدل الطوابع البريدية، وللدارس جائزة كلما أنهى مرحلة من سلسلتهم التعليمية ونجح في اختبارها، ويحصل الدارس في نهاية كل ثلاثة أشهر على مجلة مجاناً تسمى (مفتاح المعرفة) تحتوي على القصص ومشكلات الحياة وحلولهم لها، والتوعيات النصرانية، وتقارير إنجازاتهم المُضلِّلة في تنصير الأفراد والأسر في المجتمعات الإسلامية خاصة في شمال إفريقيا، وللمؤسسة محطة إذاعية تشرح فيها دروسهم التعليمية صباحاً ومساءً.

ومن إرشادات المؤسسة في أول بريدهم إلى الدارس:

١) جميع دروسنا مجانية وهي بالمراسلة لا حضورياً.

٢) نعطي دروسنا بلغة واحدة: العربية أو الفرنسية، وننصحك أن تدرس باللغة التي تتقنها أكثر، أما إذا اخترت لغة ووجدت ثقافتك بهذه اللغة غير كافية فيمكنك تبديلها.

٣) نحن مستعدون دائماً للجواب عن كل سؤال تطرحه بشرط أن يكون متعلقاً بالدرس.

٤) إن استحسنت هذه الدروس واستفدت منها، فلماذا لا تُعرِّف بها أهلك وأصدقاؤك،

والباحث في محركات البحث عن المواقع النصرانية (التنصيرية)، التي اهتمت بمخاطبة المسلمين ودعوتهم للنصرانية باللغات المشهورة العربية والإنجليزية والفرنسية يجد العجب العجاب من كثرة هذه المواقع، ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى.

وتُعطيهم عنواننا لنرسل إليهم بعض دروسنا[١].

فالمنصِّرون استغلوا تكنولوجيا الاتصال بقوة في هذا العصر، وبصورة واضحة في نشر ديانتهم وتنصير العالم وبخاصة المسلمين.

ثانياً: الخدمات الطبية:

إن الخدمات الطبية تُعد من أهم الوسائل التنصيرية، وتحظى دوماً بالأولوية في مهمات المنصِّرين، وقد لعبت هذه الخدمات دوماً الدور الأكبر بين أنشطة الإرساليات الاجتماعية، ولا شك في أنّ هذه الأولوية لهذه الخدمات كان بسبب احتياج الناس وحاجتهم الملحة إلى التطبيب والعلاج الطبي.

فإنّ هذه الوسيلة أقرب الوسائل إلى نفوس الناس، ففيها مدخل وأسلوب إنساني يحظى بتقدير الناس، ويقف حائلاً أمام ردود الفعل السلبية سواء كانت دوافعها دينية أو سياسية.

وفي هذه الوسيلة مزايا عدة أهمها الأثر النفسي الإيجابي الذي تتركه في نفوس الناس، فالناس في المجتمعات كافة ينظرون إلى الطبيب المعالج بنظرة احترام ومحبة لأنهم يرون أنه يسعى لمصلحتهم في علاجهم والعمل على إسعادهم في أبدانهم وصحتهم.

لذلك فإن الإرساليات التنصيرية كانت تهتم بهذه الوسيلة، فهي أفضل وسيلة وأفضل طريق لصنع جو اجتماعي ودي مع الناس، يقول هـ. ستورم أحد قادة مثل هذه الإرساليات التنصيرية بين المسلمين: (لقد ثبت أن العمل الطبي هو مفتاح القلوب المغلقة، ووسيلة لتوثيق عُرى الصداقة وأداة لتحطيم المعارضة)[٢].

ويقول أحد الكاثوليك اليسوعيين: (في بلاد الشرق هذه، وأكثر من أيّ مكان آخر يعتبر الطبيب شخصاً هاماً. إن تعليمه والاحترام الذي يحيط بمهنته وحياته الكريمة، يكسبه، خصوصاً

---

(١) مجلة البيان، العدد (١٦٧)، شهر رجب (١٤٢٢هـ)، أكتوبر (٢٠٠١م)، دراسة بعنوان: التنصير بالمراسلة أسف مزدوج، بقلم: أبو بكر بن عبد القادر سيسي.

(٢) التبشير في منطقة الخليج العربي، ص ٧٦، د. عبد المالك خلف التميمي.

في القرى، سلطة معنوية وحجة لا تُناقش، تُمكّنه من الدخول إلى أكثر الأماكن انغلاقاً بسبب الدين والتقاليد. إن الطبيب يستطيع أن يمارس تأثيراً حقيقاً)[1].

أدرك المنصرون هذه المكانة العالية للطبيب ولمهنة الطب في قلوب الناس (فخرجوا عن كل نبل في الطبيعة الإنسانية، وسخّروا الطب في سبيل غايات، حسبك دليلاً على نوعها قولهم هم: حيث تجد بشراً تجد آلاماً، وحيث تكون الآلام تكون الحاجة إلى الطبيب، وحيث تكون الحاجة إلى الطبيب، فهناك فرصة مناسبة للتبشير. وهكذا اتخذ المبشرون الطب ستاراً يقتربون تحته من المرضى)[2].

وقد أكد القس جيرت د. فان برسيوم على ذلك: (إن المبشر الطبيب لا يجب ولا يمكن أن يتخلى عن العمل التبشيري النشيط، فالطب ليس هو غاية الطبيب في حقل العمل التبشيري... بل يجب أن يتضمن العمل التبشيري بالإضافة إلى غيره من أعمال)[3].

ويقول الدكتور أراهاس، وهو طبيب إرسالية تنصيرية في طرابلس الشام عام ١٩٠٦م: (يجب على طبيب إرساليات التبشير أن لا ينسى ولا في لحظة واحدة أنه مُبشِّر قبل كل شيء، ثم هو طبيب بعد ذلك)[4].

وتقول المنصرة إيد هاريس في كلامها مع أطباء مُنصِّرين: (يجب على الطبيب أن ينتهز الفُرص؛ ليصل إلى آذان المسلمين وقلوبهم، فعليك أيها الطبيب أن تُكرِّز لهم بالإنجيل، إيّاك أن تُضيِّع التطبيب في المستوصفات والمستشفيات، فإنه أثمن تلك الفُرص على الإطلاق، ولعل الشيطان يريد أن يفتنك، فيقول لك: إن واجبك التطبيب فقط لا التبشير فلا تسمع منه)[5].

---

(١) البعثات اليسوعية: (مهمة إعداد النخبة السياسية في لبنان)، ص ٨١، د. طلال عتريسي.

(٢) التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص ٥٩، د. مصطفى خالدي، د. عمر فروخ.

(٣) التبشير في منطقة الخليج العربي، ص ٧٧، د. عبد المالك خلف التميمي.

(٤) الغارة على العالم الإسلامي، ص ٢٤، أ. لو شاتلييه، اعتناء: محب الدين الخطيب، مساعد اليافي.

(٥) مدخل إلى تاريخ حركة التنصير، ص ٦٥، د. ممدوح حسين.

وكتب س. ا. موريسون في مجلة العالم الإسلامي التنصيرية يقول: (نحن متفقون بلا ريب على أنّ الغاية الأساسية من أعمال التنصير بين المرضى أن نأتي بهم إلى المعرفة المُنقِذة، معرفة ربّنا يسوع المسيح، وأن نُدخلهم أعضاء عاملين في الكنيسة المسيحية الحية)[1].

وأكد ذلك الدكتور كووك في كتاب له عن الإرساليات الطبية التنصيرية (medical mi-sions) في عام ١٩١٨م بقوله: (إنّ أهداف هذا النوع من الإرساليات هو إضفاء روح الشفقة الدينية على بعثات التنصير الحديثة، وتأكيد حقيقة القرابة المشتركة بين أفراد الأسرة العالمية، ثم تمهيد الطريق للإنجيل إلى قلوب بني البشر، وأخيراً معالجة الناس من الأمراض)[2].

وحول ضرورة تغليب الهدف التنصيري على النشاط الطبي، قالت المُنصِّرة دورثي فان ايس: (الإغراء بتبني خط أكثر فاعلية، وأوسع انتشاراً من الأمور التي تُدرس بعناية لتحقيق التوازن مع التأكيد على التبشير الذي هو الهدف الحقيقي لوجود الإرسالية...، لا بد أن السيد المسيح قد ترك بعض المرضى بدون شفاء ليقوم بعمل ما يعتقد أنه أهم، وترك هؤلاء ليقوم أتباعه بمهمة علاجهم)[3].

فالعمل عند المنصِّرين في مستشفيات الإرساليات التنصيرية مُكرَّس لجعل من يأتيها من المرضى المسلمين يحسّون على حسب اعتقاد هؤلاء النصارى بوجود حقيقي للمسيح عليه السلام في شفائه لأمراضهم، فالمسلمون يأتون إلى مستشفياتهم ليتعالجوا من أمراضهم الجسدية، فيُوجِب عليهم النصارى أن يسمعوا ما يعتقده هؤلاء النصارى عن المسيح عليه السلام أنه الرب الشافي عندهم لا يشفي فقط من آلام الجسد بل من عذاب الروح أيضاً، فالمنصِّرون كما بيّنوا كثيراً أنه ليس هدفهم هو أن يجعلوا الإرساليات التنصيرية مؤسسات مُفيدة في خدماتها الاجتماعية، ولكن هدفهم الأكبر أن

---

(١) التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص ٥٩، د. مصطفى خالدي، د. عمر فروخ، مدخل إلى تاريخ حركة التنصير، ص ٦٥، د. ممدوح حسين.

(٢) التنصير الطبي الخفي في البلاد الإسلامية، ص ٢٧، د. عبد العزيز الفهد.

(٣) التبشير في منطقة الخليج العربي، ص ٧٨، د. عبد المالك خلف التميمي.

يقيموا كنائسهم على كل أرض وصَلُوا إليها ووطئتها أقدامهم، لذلك يقول الدكتور: س. ت تومس: (إن طموحنا هو إعطاء العرب شيئاً أفضل لحاجاتهم الروحية بإخبارهم عن الطبيب الأعظم)[1].

ففي مستشفياتهم التنصيرية عدة طرق لتنصير المسلمين، منها:

أنّ في بعض هذه المستشفيات يُذكرُ الإنجيل للمرضى بأسلوب بسيط لا يدعو إلى التطرف في المناقشة[2].

وفي بعض مستشفياتهم لا يعالجون المريض أبداً إلاّ بعد أن يحمِلوه على الاعتراف بأنّ الذي يشفيه هو المسيح، وكانت المعالجة لا تبدأ إلا بعد أن يركع المرضى ويسألوا المسيح أن يشفيهم كما كان يحصل في السودان والحبشة.

ومن الحيل التي كان يستخدمها المنصِّرون أنّهم كانوا يستخدمون بعض المراكب ويجعلوها مستوصفات نقّالة، وكانوا يعلنون عن مجيء الطبيب قبل أن يصل بوقت طويل، فيأتي الناس من كل صوب يحملون مرضاهم، وينتظر الجميع قدوم الطبيب، وفي هذه الأثناء يقوم فيهم من يدعوهم إلى النصرانية، ويقرأ عليهم الإنجيل، وهو فرح بهذا الجمع، من غير أن يتحرك ضميره لهذه الآلام التي يتحملها المرضى في وضح الشمس ومضض الانتظار عمداً وخداعاً، كما حصل في وادي النيل.

ومثل هذا كانوا يفعلونه في اليمن، كان الناس يأتون من مكان بعيد يحملون مرضاهم، وكان أولئك الأطباء الذين لم يضع الله في قلوبهم شيئاً من معاني الإنسانية، لا يبدؤون بعلاج المرضى إلا بعد أن يكرِّزوا عليهم، أي يدعونهم إلى النصرانية.

ومن القصص المؤلمة التي حدثت بسبب هذه الطريقة الجشعة الانتهازية، ما حدث في السودان،

---

(١) المرجع السابق، ص ٧٨، د. التميمي.

(٢)حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، ص ١٨١، أحمد عبد الوهاب.

أن إحدى الأمَّهات حملت طفلها المريض وجاءت به إلى مستوصف من مستوصفاتهم، ولكن الطفل مات في أثناء الطريق الطويل، فلم يُعزِّ الطبيب هذه الأم الثكلى بل جلس يكرز عليها، أي يدعوها إلى النصرانية [1].

ومن طرقهم أيضاً أنهم يرسلون الطبيبات المنصرات إلى بيوت المسلمين للاتصال مباشرةً بالنساء المسلمات، والاهتمام بهم أيضاً في العيادات النسائية بشكل مُكثّف.

وممرضات الإرساليّات يقمن بدور تنصيري مثلهن مثل الطبيبات والأطباء المنصِّرين. فهن يأتين يحملن معهن رسالة الدعوة إلى النصرانية يغزون بها بيوت المسلمين، كما أن بعض الإرساليات التنصيرية حرصت على إنشاء مدارس للتمريض يدخلون من خلالها إلى عقول بعض الفتيات المسلمات وقلوبهنّ للعبث بدينهن [2].

وهكذا حوّل المنصرون الطب وهو واحد من أكرم المهن الإنسانية إلى وسيلة خداع وأداة رق لا تأسر البدن فحسب، وإنّما تسرق الروح، فتفتن فقراء المسلمين في دينهم [3].

وقد استغل المُنصِّرون منظمة الصحة العالمية لصالح منهجهم التنصيري، فقد قامت في جنيف المركز الرئيس لمنظمة الصحة العالمية لجنة مشتركة من المنصِّرين، ومنظمة الصحة العالمية، وأخذ هذا التعاون صورة خطيرة للغاية فيما يجري مثلاً في المجتمعات الإسلامية الفقيرة، وخاصة في قارة إفريقيا المسلمة.

وتقوم هذه اللجنة المشتركة التنصيرية بأمور تنسيقية مع الإرساليات التنصيرية وكنائسها في العالم الإسلامي في مجال الطب التنصيري، علماً بأن هذه المنظمة منظمة الصحة العالمية تزعم في

(١) التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص ٦٢، د. مصطفى خالدي، و د. عمر فرّوخ، التنصير الطبي الخفي في البلاد العربية، ص ٩٠، د. عبد العزيز الفهد.

(٢) التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ٦٤، د. مصطفى خالدي، د. عمر فروخ.

(٣) التنصير الطبي الخفي في البلاد الإسلامية، ص ٩١، د. عبد العزيز الفهد حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، ص ١٨١، أحمد عبد الوهاب.

دستور إنشائها أنها لا تخضع لأي اعتبارات سياسية، أو عنصرية، أو قبلية، أو دينية، أو عقدية، وهي بعيدة في كثير من تعاملاتها عن هذا الإعلان المزعوم، وللأسف فإن الدول الإسلاميّة خاصة الغنيّة منها من أسرع الدول التي تقوم بسداد اشتراك عضويتها بها. ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم [1].

ثالثاً: المساعدات الإغاثية والإنسانية:

وممّا يركز عليه المنصرون في دعوتهم إلى النصرانية، وللتأثير على المدعويين خاصة المسلمين منهم، هي المساعدات الإغاثية والإنسانية.

فتدني المستوى المادي والمعيشي والثقافي لكثير من الدول الإسلامية كان سبباً قوياً لأطماع المنظمات التنصيرية في نشر النصرانية بينهم، فتقدم لهؤلاء المحتاجين الغِذاء، والكساء، والعلاج، وتبني لهم المراكز الاجتماعية والمعونات الاقتصادية باسم الصليب، وتحت رايته، ولا شك أن المنكوب ممن تنزل به النوازل من جراء الأمطار والسيول، أو الحروب، أو الأوبئة أو الجفاف، أو المرض يكون في أشد الحاجة لمن يمد له يد العون في المأكل، والمشرب، والمأوى، والدواء، لذلك تهرع المنظمات التنصيرية إلى إغاثة هؤلاء المنكوبين، ومن ثم التأثير عليهم لتشكيكهم في دينهم.

فاستغل المنصِّرون ذلك الثالوث المخيف الفقر والجهل والمرض في التغلغل للشعوب المحتاجة، وكثير منها إسلامية.

(ويشير تقرير لمنظمة الفاو إلى أنه حتى منتصف الثمانينات كان نحو ٥١٢ مليون نسمة من سكان البلدان النامية يُعانون من الجوع، أي نحو ٢١٪ من مجموع السكان، وقد ارتفعت هذه الأرقام في عام ١٩٩٢م إلى حد مخيف، ومن مضمن هذا السياق وجود نحو أربعة ملايين صومالي، ونحو ٥٠٠ ألف من مسلمي البوسنة، ومثلهم من مسلمي بورما الذين ما زالوا يعيشون في أكواخ على

---

(١) التنصير الطبي الخفي في البلاد الإسلامية، ص ٩٥، د. عبد العزيز الفهد.

شاطئ بنجلاديش)[1].

فإفريقيا هي الغنيمة الباردة التي استغلها المُنصِّرون أيّما استغلال، فالحروب الداخلية والمجاعات والأمراض فيها فتحت مجالات واسعة للمنصِّرين، كما أنّ التعاون بين القوى العسكرية الغربية، والقوى البابوية والكنيسة، قد فتح المجال أكثر للمنصرين في إفريقيا، فمن المنظمات الإغاثية الكاثوليكية في الصومال: منظمة (أخوات كونسولانا)، فقد أعدت في عام ٢٠٠٢م برنامجاً للإغاثة الكاثوليكية بالتعاون مع منظمة الصحة العالمية يتضمن برامج غذائية إضافية للأطفال المصابين بالسل الوباء الأكثر انتشاراً في الصومال ومستشفى للأطفال في العاصمة مقديشو.

ويهدف هذا المشروع إلى الوصول إلى تنصير ٣٠٠ طفل سنوياً، ويوزع على الأهالي الأرز والذرة والسكر والحليب، وكذلك منظمة (آباء كونسولانا) تمارس عملها التنصيري في ثوب إغاثي عبر إدارة وحدات طبية، ودور أيتام ومدارس، ومنظمة (ريليف) الكاثوليكية فهمّها مساعدة المنظمات التنصيرية العاملة في الصومال منذ عام ٢٠٠٢م[2].

---

(١) وجاء الدور على الإسلام، ص ١٦، رضا محمد العراقي.

(٢) ومن أخطر المنظمات الإغاثية في الصومال، منظمة (المينونايتيون): وهي طائفة نصرانية تنتسب إلى القس الهولندي (مينوسمونس) الذي تحوّل من الكاثوليكية إلى البروتستانتية.
وهذه المنظمة (المينونايتيون) تمارس نشاطها في الصومال منذ أكثر من خمسين عاماً، حيث يعلنون عمّا يُسمّونه (طريق يسوع بين الصوماليين) عبر الوسائل الإغاثية التي تتركز في:
١) توزيع البذور والأغذية على شيوخ القبائل، دفع تكاليف المراقبة الصحية غير الحكومية لوباء الكوليرا الذي تفشى في منطقة (جوبا)، ويُركزون على التعليم بدعم المدارس المحلية وإمدادها بالكتب الدراسية والمناضد والكراسي والأدوات التعليمية، وأحياناً بدفع رواتب المعلمين.
٢) الاهتمام الخاص بـ (الأيتام) كعادة المنصِّرين وذلك عبر مشروعهم المسمى (البرنامج العائلي العالمي)، كما يهتم هذا البرنامج بالنساء، فأقام لهم مركزاً في مقديشو، يقوم بتعليم القراءة والكتابة والحياكة، أما النساء المتعلمات فيعلمهن مهارات الحاسب الآلي.
٣) تقديم خدمات اجتماعية، فيدربون شباب البدو فيها على أمور، مثل الصحة الإنسانية، والصحة الحيوانية والبيئية، بالإضافة إلى تعليم الشباب.
٤) توزيع كتب موجّهة عقدياً تستعمل في قاعات التدريس الصومالية.
انظر: الصومال بين مطرقة التنصير، وسندان الفقر، بقلم نجاح شوشة، يوم الأحد ١٨ محرم ١٤٢٦هـ ٢٧ فبراير ٢٠٠٥م، من موقع مفكرة الإسلام www.islamweb.com

وفي السودان فإن الكنيسة الكاثوليكية، وهي أكبر المجموعات الكنسية هناك وأقدمها، قد عبأت بشكل منتظم أعداداً كبيرة من الشباب، وربطتهم بمدارس التعليم ومعاهده النصرانية وبالكنيسة نفسها في نشاطات شبابية أكاديمية وغير أكاديمية، فهي تستفيد من كون كثير من الجنوبيين، غير المسلمين، موجودين في الشمال ذات الصبغة الإسلامية.

وكان أكثر الأمور التي ساعدت على زيادة النشاط الكنسي في السودان كما في كثير من بلدان العالم الإسلامي غلبة الفقر والعوز وتفشي الجهل بالعقيدة الإسلامية الصحيحة في بعض المناطق هناك، وقد نجح النشاط الكنسي التنصيري في الطواف على كثير من مدن الشمال العربي الإسلامي وقراه، واستطاعوا شراء مساحات كبيرة من الأراضي في تلك المناحي بغية استغلالها كنسياً وتعليمياً في المستقبل.

ومن أهم الوسائل التنصيرية هناك المنظمات التنصيرية والداعمة للنشاط الكنسي، وهي تزيد على (٣٩) منظمة تعمل في مجال التنصير تحت ستار العمل الإنساني والتطوعي، وتقديم الخدمات الصحية، ولا شك أنّ هذا استغلال لآلام الناس وحاجتهم، كما أنّ النشاط النسوي له دور بارز في المجال التنصيري في السودان. فقد ركّزت عليه الكنائس وسط النساء لتحقيق أجندتها الخفية عبر المرأة، لاسيما اللائي يقطن في الأماكن الطرفية والنائية بتمويل ضخم من منظمات العون الكنسي[(١)].

أما في السنغال فتوجد عشرات المنظمات المزعومة بأنّها خيرية ترعى التنصير هناك، وبعض هذه المنظمات كاثوليكية، منها: شبيبة العمال الكاثوليك، وتعمل في السنغال منذ عام ١٩٣٩م، وهيئة الإغاثة العالمية الكاثوليكية، وتعمل في السنغال منذ سنة ١٩٤٧م، ومنظمة الإغاثة الكاثوليكية الأمريكية، والتي دخلت السنغال سنة ١٩٧٣م.

وقد استغلت هذه المنظمات أحوال الناس في السنغال من جهل ومرض وفقر وكوارث، فقامت من

(١) طوفان التنصير هل يهدد هوية السودان، مصعب الطيب بابكر، ملف من إعداد مجلة البيان بعنوان (ملف التنصير هل أصاب الهدف) العدد ١٥٤.

خلالها بالأعمال التنصيرية تحت ستار الخدمة الإنسانية والإغاثية، فأقاموا على طول السنغال وعرضها مستوصفات ومستشفيات، وملاجئ للأيتام، ودوراً للُقطاء، ومراكز للرعاية الاجتماعية، كما أنشؤوا عدة جمعيات شبابية ونسوية تُوظَّف لأغراض تنصيرية، وتقوم المنظمات التنصيرية بتوظيف آلاف من الشباب وتدريبهم في شتى المجالات ودعم مشروعاتهم الاستثمارية[1].

ومنذ سنوات بعيدة كان اهتمام المنصِّرين منصباً على كينيا حتى أصبحت في الأوقات الأخيرة معقل الكثلكة في القارة الإفريقية، ومن آخر عملياتهم التنصيرية هناك دخولاً من باب الخدمات الإغاثية والإنسانية؛ كان في بداية هذا القرن الميلادي، حيث أُعلن في كينيا حالة الطوارئ بسبب النقص الحاد في المواد الغذائية الناتج عن موجة الجفاف التي عمت منطقة القرن الإفريقي، فثلاثة ملايين وثلاثمائة ألف كيني بينهم مليون وخمسمائة ألف طفل يتضوّرون جوعاً من النقص الحاد في المواد الغذائية في ست وعشرين محافظة، وهنا برز دور ذباب التنصير الذين أطلقوا حملة لجمع ثلاثة وثمانين دولاراً لتقديم الغوث، وما ذلك إلا لممارسة الابتزاز العقائدي[2].

وقد اهتم المنصِّرون كثيراً بتنصير شعوب جنوب الصحراء الكبرى، ووجدوا الفرصة سانحة في السبعينيات من القرن الماضي، إذ توالت على جنوب الصحراء عِدّة سنين من الجفاف والقحط، كان أشدها عامي ١٩٧٣م، ١٩٨٥م، اللذين نفقت فيهما الثروة الحيوانية لشعوب الصحراء وتردت أحوالهم الاقتصادية، وهو الأمر الذي أدّى وبسرعة مذهلة إلى تغير نمط حياتهم الاجتماعية كما مهد الطريق للغارات الصليبية على هذه المنطقة المنكوبة، والتي جاءت في صورة جمعيات للإغاثة والنجدة هدفها الوحيد تنصير هذه الشعوب مقابل كسرة خبز وشرطة طبيب، كما أنّ أهم مخطط تنصيري لتلك المنظمات التنصيرية العمل من أجل تنصير الشريط الصحراوي الفاصل بين شمال إفريقيا العربي المسلم، وغرب إفريقيا الأسود المسلم، والممتد من شرق جمهورية النيجر إلى حدود

---

(١) التنصير في إفريقيا، السنغال أنموذجاً، سيدي غالي لو، مجلة البيان، العدد ١٥٤، جمادى الآخرة ١٤٢١هـ سبتمبر ٢٠٠٠م.

(٢) كينيا بين عجز المسلمين وشراسة المنصرين، نجاح شوشة، مفكرة الإسلامwww.islamme.com

مالي مع موريتانيا.

وهناك عوامل شجعت المنصّرين على القيام بغاراتهم التنصيرية على منطقة الصحراء الكبرى، ومن هذه العوامل:

- الإمكانيات المادية والمعنوية الهائلة الموجودة لدى المنظمات التنصيرية.
- النية المبيّتة لدى المنظمات التنصيرية للغارة التنصيرية على العالم الإسلامي خاصة.
- الظروف الاقتصادية الصعبة التي تعيشها منطقة الصحراء الكبرى.
- تغيّر وتبدّل نمط الحياة الاجتماعية لشعوب الصحراء من حياة الترحال إلى حياة الاستقرار.
- فعالية سلاح المنفعة الذي دخلوا به ميدان المعركة [1].
- خلو المنطقة من منظمات إغاثية إسلاميّة متمركزة بها ومستقرة فيها.

واستخدام الخدمات الإغاثية والإنسانية لإنجاح العمليات التنصيرية هو ديدن المنصرين، فكما استخدموها في إفريقيا كذلك في آسيا.

مثلاً: استغلت المنظمات التنصيرية، القضية الكردية، وما حصل من اضطراب في إقليم كردستان العراق، خاصة في أثناء وبعيد حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١م فالقضية في اضطراب منذ بداية القرن الماضي بين الحكومات العراقية المتعاقبة والأكراد والطائفة النسطورية النصرانية.

وبحجة المساعدات الإغاثية والإنسانية دخلت عشرات المنظمات التنصيرية إلى كردستان، وعلى رأسها منظمة (كاريتاس الكاثوليكية)[2]، وأخذت هذه المنظمات توزِّع الطحين، والأرز،

---

(١) مجلة البيان، حملة لتنصير الطوارق جنوب الصحراء الكبرى، العدد ٣٣ ربيع الآخر ١٤١١هـ نوفمبر ١٩٩٠م.

(٢) ومن هذه المنظمات التنصيرية منظمة (شلترناو انترناشنال الأمريكية)، ومنظمة (مساعدة الشعوب المضطهدة)، ومنظمة (العالم بحاجة)، ومنظمة (رعاية الكرد)، ومنظمة (الكنائس العالمية)، ومنظمة (الصليب الأحمر السويدي)، ومنظمة (الكنيسة الأسقفية الانجليزية)، ومنظمة (كير الأسترالية)، وغيرها. انظر: مجلة البيان، النشاط التنصيري في كردستان العراق، د. فرست مرعي الدهوكي، العدد ١٥٣ جمادى الأولى ١٤٢١هـ أغسطس ٢٠٠٠م.

والزيوت على الكرد، مع كتب تنصيرية، وعلى رأسها الأناجيل، وكتب تخص حياة السيد المسيح عليه السلام من وجهة نظر الكنيسة، وبعض الكتب التي تلقي ظلالاً من الشك والريبة حول صحة القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة.

كما بدأت هذه المنظمات تتوغل شيئاً فشيئاً داخل النسيج الاجتماعي للمجتمع الكردي المسلم، وأخذت تحث الشباب المراهق على الهجرة وترك كردستان فارغة تعبث بها المنظمات كيف تشاء، وهكذا تسابق مئات الشباب نحو الالتحاق بمنطقة سلوبي التركية تمهيداً لنقلهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وكندا، وفرنسا، ودول أوروبية أخرى[1].

وقد استغلت المنظمات التنصيرية بمختلف توجهاتها العقدية خاصة البروتستانتية منها، ثم الكاثوليكية، وباسم المساعدات الإنسانية والإغاثية ما حصل في العراق من حروب واضطرابات وتفلت أمني وتدخل عسكري سافر قهر الأمة الإسلامية عن بكرة أبيها من القوات النصرانية الغربية وعلى رأسها القوات الأمريكية والبريطانية، فأخذت تعمل في أوساط الشعب المسلم العراقي بنشر الإنجيل وكلمة الخلاص المسيحي وباسم الصليب والرب يسوع المسيح على ما يعتقدون وبكل همة ونشاط مع كل حبة أرز للإطعام ومع كل ضربة حقنة للعلاج[2].

ولو نظرنا إلى الدولة البنجلاديشية لوجدنا أن المنظمات التنصيرية انقضت عليها منذ إنشائها، كالنسور الجائعة، ومن هذه المنظمات: منظمة (قوة الإنقاذ) (Amy Salvation) و (كنيسة اليوم السابع) (Chch Adventist Day Seventh) وهما من المنظمات التي أعلنت نشاطاتها التنصيرية، وإن كان بعض تلك المنظمات تخفي نشاطها التنصيري تحت مسمّيات أخرى.

وتلك المنظمات تجمع تبرعات هائلة من مؤسسات غربية ذات صلة تنصيرية، وقد بلغت المعونات أكثر من نصف المساعدات الخارجية لحكومة بنجلاديش، تنفق جزءاً ضئيلاً منها لصالح الفقراء،

(١) المرجع السابق، مجلة البيان العدد (١٥٣).

(٢) للإغاثة أم التنصير.. أمريكا تبحث إرسال (٩) منظمات أمريكية للعراق بزعم الإغاثة، مفكرة الإسلام www.islamweb.com

والجزء الأكبر، وهو ما يصل ما بين ٨٠٪ إلى ٩٠٪ منها في مجالات نشر النصرانية، وللمتنصرين من المسلمين، وفي مجالات الهيمنة على محاولات الإسكان والصحة والتعليم، والقيام بحملات ضد القرآن الكريم والسنة النبوية.

وبسبب هذا النشاط التنصيري للمنظمات الإغاثية ارتفع عدد السكان النصارى من مئات معدودة في عام ١٩٧٢م إلى خمسة ملايين نسمة في عام ١٩٩١م، ومن المخطط له عندهم أن يرتفع العدد إلى عشرين مليون نصراني بنجلاديشي في عام ٢٠٢٠م[١].

فمجال المساعدات الإغاثية والإنسانية استغلته المنظمات التنصيرية الاستغلال الأكبر في خطتهم التنصيرية، فقامت تلك المنظمات بتقديم المساعدات المالية والعينية لفقراء المسلمين ممزوجة بالدعوة إلى النصرانية (بالتنصير)، واستغلت تلك المنظمات إقامة المشروعات الزراعية والصناعية، ومشروعات إنعاش القرى والأرياف بالدعوة إلى النصرانية، ونجحوا في ذلك نجاحاً مخيفاً على عوام المسلمين. كما أنّ الخطورة متمثلة في زيارة الراهبات التابعات لتلك المنظمات والإرساليات للأسر المسلمة في الفترات الصباحية وتقديم الهدايا، واللعب، والملابس السنوية، ومنها كسوة الشتاء المهمة في بعض البلدان وفي أيام الأعياد وخلاف ذلك من المساعدات التي جُعلت لتكون سُلّماً للتنصير.

---

(١) النصارى في بنجلاديش (دراسة عن دور المنظمات غير الحكومية في نموهم غير العادي)، بقلم محمد نور الدين، مجلة البيان، العدد ١١٤، صفر ١٤١٨هـ يونيو ١٩٩٧م.



الخاتمة

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، على ما يسّر لي ووفقني للانتهاء من الكتابة في هذا الموضوع، وأسأله سبحانه أن يتقبّل منّي هذا البحث، ويجعله في ميزان حسناتي، وميزان حسنات مشرفي فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور محمود مزروعة، الذي صبر عليّ في أمور كثيرة، ومنها اختراقي لأوقاته. اللّهم آمين.

وتتكوّن هذه الخاتمة من جزأين:

الجزء الأوّل: أهم نتائج البحث.

الجزء الثاني: بعض التوصيات.

الجزء الأوّل: أهم نتائج البحث:

أولاً: أنّه لا تلاقي أصلاً بين الدين الذي جاء به النبي عيسى عليه السلام رسالة موحى بها إليه من الله لهداية البشريّة، رسالة مبنيّة على توحيد الله خالصة وبين النصرانيّة التي ينتسب إليها النصارى اليوم، فهي رسالة تثليثيّة، أشركت بالله تعالى، وجعلت له ولداً وشركاء، كما أنّ فيها بعض التشريعات المخالفة لهدي عيسى عليه السلام. والسبب الأكبر في ذلك التحوّل الجذري دخول شاؤل اليهودي في دين عيسى عليه السلام، باسم (بولس)، والذي اشتهر من قبل بشدة عدائه لأتباع عيسى عليه السلام، وكانت قصة دخوله في دين عيسى عليه السلام قصة مريبة يحوم حولها كثير من الشك، وكثير من المكر اليهودي المدروس؛ لذا أعتقد أن النصارى يجب أن يُسمُّوا دينهم بالبولسيّة، وليس المسيحيّة؛ فبولس

اليهودي هو الذي ابتدع لهم أصول دينهم. فألوهيّة عيسى، وانّه ابن الله، والتثليث، والصلب، والفداء، والكفّارة، ما هي إلاّ من نتاج عقليّة بولس اليهوديّة الماكرة، فهو حجر الزاوية في تحريف ديانة النبي عيسى ﷺ. ولكن لم تثبت هذه الانحرافات الشركيّة، و لم تكن لها الهيمنة على اعتقاد النصارى إلاّ بعد مجمّع نيقيّة الأوّل (المجمع المسكوني الأوّل ١٩ حزيران - ٢٥ آب ٣٢٥ م)، واقتناع الإمبراطور قسطنطين بفرقة بولس التثليثيّة، دون باقي الفرق المنتسبة لدين عيسى والتي حضرت مجمع نيقيّة، وما ذلك إلاّ لتوافق أقوال فرقة بولس التثليثيّة مع اعتقادات الإمبراطور قسطنطين التثليثيّة في ديانته الرومانيّة القديمة.

ثانياً: أن النصارى لا يملكون أسانيد متصلة لكتبهم المقدّسة، لا صحيحة، ولا حتى باطلة، فلا أسانيد أصلاً لهم، وهذا باعتراف قُسسهم، وأساقفتهم، ورجال دينهم. وحجتهم في ذلك تلك الاضطرابات والاضطهادات التي وجدوها في حياة كنيستهم من أعدائهم، ولمدة ثلاثة قرون، علماً بأنّه في هذه الفترة العصيبة التي مرّت على النصارى قد دوّنت فيها أناجيلهم وكتبت فيها رسائلهم، خاصة من سنة ٧٠م إلى سنة ١١٠م. فسبحان الله، كتب للاعتقاد والتعبّد لا يعرف المعتقد بها والمتعبّد بها أسانيدها، ومن هو واضعها على الصحيح!

ثالثاً: من أهم الأماكن التي تمكّنت منها النصرانيّة (المسيحيّة المُحرَّفة التثليثيّة): مدينة روما الإيطاليّة، حيث إنّها مقر الإمبراطورية الرومانيّة القويّة المتحكّمة في العالم الغربي، في تلك الأوقات، ويزعم أهل تلك المدينة، أنّ بطرس (أحد الحواريين) وبولس قد سكنا فيها وأقاما كنيسة المسيح بها، فزعموا بذلك أن كنيسة روما هي أم الكنائس، وأنّ كرسيّها الكنسي مُقدّم على الكراسي الكنسيّة الباقية في العالم كُلها وهي أربعة: الإسكندريّة، الأورشليميّة، الأنطاكيّة، ثُمّ القسطنطينيّة، وأنّ أساقفة كرسيّها (أساقفة كنيسة روما) هم خُلفاء القديس بطرس، فكما أن القديس بطرس مُقدّم على باقي حواري المسيح، فكذلك أساقفة (بابوات) كنيسة روما مُقدّمون على باقي أساقفة الكراسي الكنسية الأخرى.

رابعاً: البابويّة أعلىٰ رتبة أسقفيّة وسلطويّة في الكنيسة الكاثوليكيّة، والبابا رأس الطائفة الكاثوليكيّة، مقرّه في دولة الفاتيكان، وهو رئيسها.

وقد وصلت البابويّة إلى أعلىٰ مراتبها من الناحية السياسيّة الزمنيّة، والناحية الدينيّة الروحيّة في العالم الغربي، في العصور الوسطى خاصة، وقد بدأت قوة البابويّة تظهر عندما تبنى الإمبراطور قسطنطين الديانة النصرانيّة علىٰ المذهب البولسي التثليثي في القرن الرابع الميلادي، واستمرّت قوتها وسلطانها في الصعود حتى القرن الرابع عشر الميلادي، وكان لهذا السلطان والصعود أسباب ذكرتها أثناء البحث.

ثم بدأت مكانة البابوية تتهاوى من عليائها من وقت موت البابا (بونيفاس الثامن) سنة ١٣٠٣م، وتركها روما، وانتقالها إلى أفينون الفرنسية عام (١٣٠٥م)، فكانت بداية القرن الرابع عشر الميلادي بداية انهيار السلطة البابوية الروحية بشكل عام، وبداية تلاشي سلطتها الزمنية، ثُمّ كان القرنان الخامس عشر والسادس عشر المرحلة الحقيقيّة لتفكك الوحدة النصرانيّة تحت سلطة البابويّة بالمعنيين الروحي الديني، والزمني السياسي معاً، وكان، ولا شك، لهذا أسباب، بعضها داخلية من مركز البابوية والكنيسة نفسه، وبعضها أسباب خارجية.

خامساً: من أهم ما يُميّز الطائفة الكاثوليكيّة، أنّ عقيدتها خلقيدونيّة. فقد اعتقدت أن ربّهم عيسى ﷺ له طبيعتان ومشيئتان، إحداهما إلاهيّة، والأخرى بشريّة، طبيعتان غير مختلطتين، وغير متغيرتين، ولا منقسمتان، ولا منفصلتان، وإن اختلاف الطبيعتين لم يُلغه اتحادهما، فاحتفظت كلٌ واحدة بميزاتها. فطبيعته الإلهيّة كاملة، وكذلك طبيعته البشريّة كاملة، فهو إله كامل، وإنسان كامل، وهو مساوٍ للبشر في الجوهر بالنسبة لطبيعته البشرية، ومساوٍ لله الأب في الجوهر بالنسبة لطبيعته الإلهيّة، ثُمّ إنّ إرادته ومشيئته البشرية تابعة لإرادته ومشيئته الإلهيّة وخاضعة لها، واجتمعت الطبيعتان في شخص واحد وأقنوم واحد من الأقانيم الثلاثة، أقنوم الله الابن. والعذاب والصلب إنّما وقع علىٰ الجسد أي علىٰ الطبيعة البشريّة، وبقي غير مُتألّم بطبيعته اللاهوتيّة.

وأن الله الروح القدس منبثق من الله الأب ومن الله الابن، فالله الأب غير مولود، والله الابن مولود غير مخلوق، والله الروح القدس غير مولود ولكنّه منبثق من الأب والابن.

فهذه عندهم هي الثالوث الإلهي المُقدّس ولهم وحدة الجوهر، فهم غير منقسمين، غير متمازجين، أزليّون بغير زمان متساوون بلا اختلاف. والثالوث الإلهيّ، هي أقانيم إلهية، لا يتقاسمون ألوهيّة واحدة، ولكن كُلّ واحد منهم هو الله كاملاً.

وأسرار الكنيسة الكاثوليك، كما هي عند الكنيسة الأرثوذكسيّة المرقسيّة، سبعة أسرار، وهي أسرار الناموس: المعموديّة، والتثبيت، والأفخارستيا، والتوبة، ومسحة المرضى، والكهنوت، والزواج. إلاّ أنّ الكاثوليك زادوا سرّاً ثامناً، وهو سرّ عصمة البابا. والمجمع الفاتيكاني الثاني (المسكوني الحادي والعشرون) ١١ تشرين الأوّل ١٩٦٢- ٨ كانون الأوّل ١٩٦٥ م، وإن كان قد أثبت أوليّة الحبر الروماني، وعصمته، فإنّه أدرج عقيدة عصمة البابا "الحبر الروماني" في إطار أوسع، إطار مسؤوليّة الهيئة الأسقفية جمعاء، وعصمتها في التعاليم الكنسيّة في العقيدة والأخلاق.

فالهيئة الأسقفيّة، بالاتحاد مع البابا، وليس بمعزل عنه، أيضاً لها هذه القداسة، لها السلطان الأعلى والكامل على الكنيسة كُلّها.

ومن عقائد الكاثوليك، عقيدة (المطْهر). والمطهر مكان تذهب إليه نفوس الأموات التي ارتكبت بعض السيئات، فلم تطهر بأعمالها في الحياة التطهير الكامل بالحسنات، فالمطهر مكان للتّنقية، لتنقية النفوس من خطاياها حتى تصل إلى الملكوت السماوي بأعمال كاملة من الحسنات.

كما أنّ من عقائد الكاثوليك الخاصة في مريم أمّ عيسى عليه السلام، عقيدة (الحبل بلا دنس)، وظهرت هذه العقيدة عام ١٤٨٣م عندهم، ولكن في وسط خلافات شديدة بين البابويّة المؤيدة للعقيدة، وبعض الكاثوليك المعترضين عليها، ولم يُحلّ الخلاف إلاّ في عام ١٧٠٨م بتأييد مطلق لهذه العقيدة في عهد البابا (اكليمنت الحادي عشر)، ثُم ثبتت هذه العقيدة كعقيدة كاثوليكيّة أصيلة،

وفُسّر معناها في عهد البابا (بيوس التاسع) عام ١٨٥٤م. ومعنى عقيدة الحبل بلا دنس: أنّ مريم عُصمت من كُلّ دنس للخطيئة الأصليّة منذ اللحظة الأولى للحبل بها، فلم يُحبل بها كسائر النّاس في حالة من البعد عن الله، وكذلك عاشت حياتها من دون أي خطيئة شخصيّة، فهي كُلّيّة القداسة منذ البدء.

وكذلك عقيدة (انتقال مريم في جسدها إلى السماء)، وقد جعل بعض الكاثوليك لهذه العقيدة عيداً في ١٥ آب من كُلّ سنة، ابتدؤوا في الاحتفال بهذا العيد في القرن الخامس الميلادي، إلاّ أنّ البابويّة ثبّتت هذه العقيدة، وأوجبت الإيمان بها على كُل الكاثوليك في عهد البابا (بيوس الثاني عشر) بدستور رسولي في ١ تشرين الثاني عام ١٩٥٠م.

كما أن الطائفة الكاثوليكيّة تعتقد بوجوب تقديس صور ربّهم المسيح، ووالدته، وقدّيسهم، وإكرامها، وتعليقها، والوقوف أمامها.

فهي عندهم علامة للحب، ووسيلة للذكرى، وتقوّي العبادة؛ لأنها تشرك العين في العبادة، وتُذكّر الإنسان بمشاهد تقوية مهمة.

كتمثال ربّهم المصلوب، فيرون أنّه يُذكّرهم بسرّ الفداء، وصور القيامة والصعود والبشارة، وصور العذراء المختلفة... يعتقدون في هذا كلّه ترسيخاً لمبادئ إيمانهم، وفضائل قدّيسهم، وتشجيعهم على الاقتداء بهم ليشاركوهم في مجدهم الذي يعتقدونه.

كما أنّهم يرون أنّ هذه الصور والتماثيل (الإيقونات) لغة للتعليم، خاصة لتعليم الأطفال والبسطاء.

سادساً: وقد عملت الطائفة الكاثوليكيّة بمنسوبيها كلهم ابتداءً من البابويّة وكنائسها المحليّة ومفكّريها على التأثير على العالم الإسلامي في كل مجال يستطيعون أن يصلوا إليه وينفذوا من خلاله للأمة الإسلاميّة. ومن تلك المجالات والمنافذ الحروب الصليبيّة المتواصلة على الأمّة الإسلاميّة منذ أن نجح المسلمون في الخروج من منطقتهم العربيّة في القرن الأول الهجري، أواخر القرن

السادس الميلادي ابتداءً بمعركة مؤتة، ثم فتح الأندلس وصقلّية...

ومن أوائل بابوات روما الذين حملوا لواء نشر الحقد الصليبي وسط الشعوب النصرانية على المسلمين، ومواجهتم عسكرياً هو البابا (هادريان الأوّل) عندما حث الإمبراطور شارلمان في عام ٧٧٨م على مواجهة المسلمين في الأندلس. ومن أبرز البابوات في إذكاء المواجهات ضد المسلمين هو البابا غريغوريوس (جريجوري) السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥م) فهو المنظّر الفعلي لمواجهة المسلمين، ثُمّ كان ابتداء التطبيق الفعلي لتلك الحروب المتواصلة على الأمّة الإسلاميّة نداء البابا (أوروبان الثاني) عام ١٠٩٥م للقيام بأوّل حملة صليبية (مرقّمة تاريخيّاً) متوجهة إلى بلاد المسلمين، وتوالت الحملات الصليبيّة في الشرق والغرب على الأمّة الإسلاميّة بغية كسرها والقضاء عليها، وهذا ما نجحت فيه الطائفة الكاثوليكيّة، فكسرت شوكة الأمة الإسلاميّة في الغرب في بلاد الأندلس، وإخرجتهم من أهم موقع استراتيجي وحضاري حيث إنّ بلاد الأندلس تُمثّل البوابة الغربية للقارة الأوروبيّة وذلك في عام ١٤٩٢م. إلاّ أنها بجيوشها الصليبيّة الجرّارة فشلت في حروبها ضد المسلمين في بلاد المشرق، وخاصة على أرض فلسطين المسلمة وما حولها، فخرجت فلولهم مهزومة منكسرة عام (٦٤٢ هـ - ١٢٤٤ م) على يد الجيوش الإسلاميّة بقيادة (ركن الدين بيبرس) في موقعة (غزة الثانية)، والتي سُمِّيت لقوتها على الصليبيين بـ(حطين الثانية)، حيث لم يقم للصليبيين بعدها في أرض فلسطين قياماً عسكرياً حقيقيّاً إلا بعد الحرب العالمية الأولى، وسقوط الخلافة الإسلامية العثمانيّة، ولكن هؤلاء الصليبيين لم يكونوا كاثوليك، وإنّما بروتستانت، فالطائفة البروتستانتيّة استلمت الراية واضحة وبقوة من الكاثوليك في مواجهة الأمة الإسلاميّة.

وإذا نظرنا إلى الكشوفات الجغرافيّة التي قامت بها البحريّة الصليبيّة الكاثوليكيّة لوجدناها حلقة من حلقات الحروب الصليبيّة على الأمة الإسلاميّة، وقد كان أوّل المشرفين على تلك الكشوفات الجغرافيّة هو (البابا نيقولا الخامس) (١٤٤٧ - ١٤٥٥م)، فرفعت البابويّة من شأن

القادة البحريين الذين تولّوا شأن هذه الحروب الصليبيّة، وعلى رأسهم (فاسكو دي غاما)، وتلميذه الخطير (البركرك)، و (خرستوف كولومبس)، و (ماجلاّن) الحاقد، وغيرهم، حتى قال قائلهم وهو فاسكو دي غاما عندما اكتشف رأس الرجاء الصالح والغريب أنّ اكتشافه ذلك كان بمساعدة البحري المسلم ابن ماجد، فالله أعلم ما كانت ظروف ابن ماجد في تلك الأوقات قال: (الآن طوّقنا رقبة الإسلام ولم يبق إلاّ جذبه فيختنق).

ثُمّ كان منتصف القرن الثاني عشر الهجري (منتصف القرن الثامن عشر الميلادي)، ومطلع القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) بداية عهد الحروب الصليبية الجديدة على العالم الإسلامي، والمسمّاة بعهود الاستعمار، والتي تقاسمتها الدول الكاثوليكيّة، والدول البروتستانتيّة، ثُمّ علا شأن الدول الاستعماريّة البروتستانتيّة بعد ذلك في استمرار قتال الأمة الإسلاميّة، والعمل على كسر شوكتها في كلّ المجالات المتاحة.

بدأت الحروب الصليبية الحديثة (الاستعمار) وهي أشد خُبثاً وأدهى مكراً؛ فقد أراد المحارب الصليبي الحديث أن يقنع المسلم المحتلة أراضيه أنه أنفع له من نفسه تقدماً وحضارةً ومعيشةً، فإذا أراد أن يعيش عيشة حضارية مرَفَّهة فعليه أن يتبع هذا الصليبي في أقواله وأفعاله، فإن لم يرض بدينه النصراني، فلا أقلّ من أن يرتضي بتوجهاته في الحياة أخلاقياً وفكرياً، ويرضى بنظرياته وفلسفاته الحياتية.

وبهذا تركت الحروب الصليبية الحديثة (الاستعمار) كثيراً من المجتمعات الإسلامية في عاداتها وتقاليدها مسخاً بعيلةً عن المنهج الإسلامي في كثيرٍ من أُمور الحياة من التحاكم بغير شرع الله، والخلل في عقيدة الولاء والبراء، والتعامل مع الكفار خاصة إذا كان هذا الكافر نصرانياً صليبياً، ونزع حجاب المرأة، وقتل الغَيرة على الأعراض والمحارم، والتعامل بالربا بشكل رسمي ومحميّ من الحكومات، وغيرها من أمور أتى بها المنهج الإسلامي فخالفتها المجتمعات الإسلامية بفعل مكر الصليبي الخبيث، وعلى رأسها زلزلة العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين. نسألُ الله أن

يعيدنا ويُعيد المجتمعات الإسلامية إليه عوداً حميداً، آمين.

ثُمّ إنّ البابويّة وكنائسها ودولها الكاثوليكيّة لم تُسلِّم مهمة الحرب ضد الإسلام والمسلمين للدولتين الخارجتين عن نطاقها وعقيدتها (أمريكا وبريطانيا)، ولكن المسألة بالنسبة للكاثوليك مسألة مراحل، حسب القوة والضعف والمناسب وغير المناسب في المواجهات العسكرية والسياسية. وبما أن الهدف المشترك للنصارى هو ضرب الإسلام والمسلمين وإضعافهم اقتصادياً، وسياسياً، وعسكرياً، فليستمر التخطيط الكاثوليكي الماكر في فترة من الهدوء وعدم المواجهة المباشرة مع المسلمين عسكرياً في هذه الأوقات فقد كفاهم في ذلك البروتستانت، وإلا فهناك مواجهات قوية مستمرة مع المسلمين من ناحية الغزو الفكري والتنصير، وحامل لوائها المستشرقون والمستغربون.

سابعاً: أن الطائفة الكاثوليكيّة استغلّت أسلوباً آخر في التأثير علىٰ الأمّة الإسلاميّة، وهو أسلوب الغزو الفكري، أسلوب مكمّل للأسلوب الحربي الصليبي حيناً، وبديل عنه حيناً آخر.

وأسلوب الغزو الفكري أسلوب خطير يعمل علىٰ إذابة الشعوب، وانسلاخها من عقائدها، وهويتها، وحضارتها، لتصبح مسخاً شائهاً تابعاً لغيرها، تؤمر فتطيع.

فقد أدرك الصليبيون بعد التجارب الطويلة في صراعهم مع المسلمين أنّ الغزو العسكري ولّد ردّة فعل عنيفة، فلم يتحقق به لهم ما كانوا يتمنّونه ويرجونه؛ لذا استصحبوا معهم وسيلة ماكرة خبيثة، هي وسيلة الغزو الفكري.

فالغزو الفكري الصليبي الموجّه للأمة الإسلاميّة يقوم علىٰ ركنين، هما: الاستشراق، والتغريب.

فالاستشراق: دراسات متخصصة يقوم بها النصارى للإسلام في شتى جوانبه، العقدية، والتشريعية، والتاريخية، واللغوية، والحضارية وفي النظم والإمكانيات...؛ بهدف تشويه الإسلام، ومحاولة تشكيك المسلمين فيه، وتضليلهم عنه، وادعاء تفوق حضارتهم النصرانية (الغربية) علىٰ

الحضارة الإسلامية (الشرقية) ومحاولة فرض التبعية لهم على المسلمين، ومحاولة تبرير هذه التبعية بدراسات ونظريات تدّعي العلمية والموضوعية.

فهذا الاستشراق يمثل الخلفية الفكرية للصراع الديني بين الإسلام والنصرانية في الغرب، والذي بدأ واضحاً منذ الحروب الصليبية التي امتدت قرنين من الزمان من سنة ٤٨٩ - ٦٩١هـ ١٠٩٥ - ١٢٩١م، ولم تنته، ولن تنتهي مصداقاً لقول الباري عزو جل: (وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ)[1].

فالاستشراق النصراني كان له أكبر الأثر في صياغة التصورات النصرانية الأوروبية عن الإسلام، وفي موقفهم من المسلمين على مدى قرون عديدة ولا يزال.

وقد بدأ الاستشراق الغربي النصراني من الفاتيكان: باباوات وأساقفة ورهباناً؛ وذلك لأمور منها: أنهم الفئة المؤهلة فكرياً وثقافياً لمواجهة الانطلاقة الإسلامية داخل الأراضي الأوروبية، فشعور الغربيين بالخطر الإسلامي على زعمهم، وإلا ما جاء به الإسلام ما هو إلا رحمة للعالمين عقدياً وفكرياً جعل الدائرة والمؤسسة الأكبر في أوروبا، وهي الفاتيكان، تحاول أن تواجهه وتنظر فيما جاء به، مع المواجهة العسكرية كل ما سنحت لها الفرصة لذلك.

وأمّا الركن الثاني من ركني الغزو الفكري، فهو التغريب.

التغريب: انقلاب فكري، وتربوي، وتحول اجتماعي، وخنوع نفسي لبعض المسلمين مخالف لما جاءت به الشريعة الإسلامية، خطط له الاستشراق بأطروحاته المشبوهة، وأعماله الماكرة، وحماه الاستعمار (الاستخراب) الصليبي، بنفوذه، وسيطرته على الأراضي الإسلامية.

فالتغريب، نقل للحضارة الغربية بسلوكيّاتها، وأفكارها إلى العالم الإسلامي؛ لتنافس الحضارة الإسلامية، عقيدةً، وشريعةً، وسلوكاً في قلوب المسلمين وعقولهم، لكي تحلّ محلّها عند بعضهم،

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٢٠.

وذلك بأيدي إسلامية، أو كان بعضها إسلامياً، متربية علىٰ المنهج الغربي النصراني المنحل والمخالف للدين الإسلامي.

والتغريب حركة ارتبطت بالاستعمار ارتباطاً عضوياً. قوامها عمل استعماري (استخرابي) فكري بعيد المدى قصد به القضاء علىٰ معالم شخصية الأمة الإسلامية، وتحويلها إلى صورة غربية مشوّهة الملامح غريبة عن مجمعاتنا وآدابنا الإسلامية.

ثامناً: وقد كان المكر الكُبّار للنصارى الغربيين الكاثوليك (ثُمّ تبعهم بعد ذلك البروتستانت) علىٰ المسلمين، وهو دعوتهم للدخول في دينهم النصراني، إلاَّ أن المنصرين وجدوا أن هذه العمليات التنصيرية بالغة الصعوبة في تطبيقها علىٰ المسلمين بشكل عام لتمسكهم بدينهم الإسلامي بخلاف غيرهم من أصحاب الملل والطوائف الأخرى و غير الدينيين.

لذلك خطط النصارى لتحقيق أهداف أخرى من خلال محاولاتهم التنصيرية بين المسلمين، علىٰ أن هدف إدخال المسلمين في النصرانية، وتركهم دينهم الإسلامي يبقى علىٰ رأس هرم أهداف النصارى.

ومن أهم تلك الأهداف التي يحاول المنصِّرون تحقيقها من خلال محاولاتهم وعملياتهم التنصيرية بين المسلمين والتي أعتقد أنها غالباً ما تكون موازية السير والخُطى مع الدعوة المباشرة إلى النصرانية، هي، **أولاً: محاولة وقف انتشار الإسلام، ثانياً: القضاء على وحدة العالم الإسلامي، ثالثاً: زعزعة العقيدة الإسلامية من قلوب المسلمين.**

وقد كانت هناك محطات رئيسة ومهمة في مسألة اهتمام الطائفة الكاثوليكية لتنصير المسلمين، ومن أهمها في القرن العشرين: المجمع الفاتيكاني الثاني (المسكوني الكنسي الحادي والعشرون) من ١١ تشرين الأول ١٩٦٢م إلى ٨ كانون الأول ١٩٦٥م.

فقد أعلن هذا المجمع (المجمع الفاتيكاني الثاني) عن اتخاذه لقرارات خطيرة ومهمة لم تتخذ في مجامع مسكونية كنسية من قبل، غيّرت بعض الشيء من منهجية الكنائس الكاثوليكية في العالم

المعاصر. ومن أهم هذه القرارات العمل على توصيل الإنجيل للبشر كافة، أي (تنصير العالم)، وأوّل ذلك تنصير المسلمين، وابتداع طريقة ماكرة وخبيثة في مواجهة المسلمين وغزوهم عقائدياً وفكرياً تُنجّيهم من المواجهة العسكرية مع المسلمين، والتي تُكلّفهم كثيراً من الأموال والأرواح ولا يجنون منها فائدة كبيرة، وهذه الطريقة الجديدة التي ابتدعها المجمع الفاتيكاني الثاني، هي: (مسألة الحوار مع المسلمين).

ثُمّ إنّ الكنيسة الكاثوليكيّة، وعلى رأسها البابويّة، اهتمت اهتماماً بالغاً بالإرساليات التنصيريّة إلى بلاد المسلمين في ظل حماية المستعمر النصراني.

فالإرساليات التنصيريّة تعمل على تحقيق هدف مزدوج في البلاد الإسلامية، أحد طرفيه هدم أو ما تسميه هذه الإرساليات تحليلاً، والمقصود به تشويه عقيدة الإسلام ومبادئه الأخلاقية في عقول أبناء المسلمين، والطرف الآخر من هذا الهدف المزدوج هو ما تسميه تلك الإرساليات تشييداً أو تركيباً، والمقصود به إدخال أولئك الذين تشوشت في عقولهم العقيدة والمبادئ الإسلامية من أبناء المسلمين إلى النصرانية.

ثُمّ إن التطور في العمل المنهجي للمنصّرين جعلهم يكتشفون وسائل متعددة وخاضعة لمناسبة الزمان والمكان والثقافات يدخلون من خلالها إلى قلوب المستهدفين وعقولهم.

ولا شك في أن قوة هذا التطور للحركة التنصيرية وتسارعه يستمد من إمكانياتها المادية الكبرى، والتي أتاحت لها إقامة مشروعات مباني الكنائس، ودور التعليم، والمستوصفات، والمستشفيات، ودور رعايات اجتماعية وإغاثية ضخمة ومتطورة. كما يستمد من القائمين على شؤون الحركة التنصيرية المختارين بدقة من ذوي التأهيل الديني والعلمي، والتربوي، والثقافي من القساوسة، ورجال التعليم، والأطباء، ومسؤولي الإغاثات والشؤون الاجتماعية.

فالحركة التنصيرية أصبح لها نشاط جماعي دولي تقوم به جمعيات ومنظمات مزوّدة بهالة من الطاقات البشرية والماديّة.

وأرى أن أكثر الوسائل التنصيريّة تدور حول ثلاثة مجالات رئيسة، وهي: المؤثّرات الفكرية (أبرز مجالاتها: التعليم، والإعلام بأقسامه المقروء والمسموع والمرئي)، والخدمات الطبية، والمساعدات الإغاثية والإنسانية، فاستغل المنصّرون الثالوث المخيف الفقر والجهل والمرض الذي أحاط بكثير من الشعوب الإسلاميّة. وذلك إذا استثنينا الطريقة التقليديّة القديمة وهي المواجهة المباشرة لمن يُراد تنصيرهم عن طريق المناقشات، والدعوات المباشرة للدخول في النصرانية، واستثنينا الطريقة الوحشية التي استخدمها المنصِّرون، وهي التنصير بالقوة والسلاح والإرهاب. فالنصرانية ابتداءً ما انتشرت إلا بحد السيف، وعلى أصوات القنابل والمدافع وبوحشية محاكم التفتيش الكاثوليكية.

الجزء الثاني: بعض التوصيات:

أوّلاً: تطوير جهود الإغاثة الإسلاميّة في أنحاء العالم الإسلامي، بل العالم أجمع إن أمكن ذلك، مع الدعاء و الالتجاء إلى الله، أن تؤتي هذه الجهود ثمرتها، وتكون سدّاً منيعاً في وجه العمليّات التنصيريّة.

ثانياً: عدم الاستهانة بجهود النصارى التنصيريّة في المؤسسات التعليميّة، والطبيّة، والإغاثيّة، في بلاد المسلمين، ونشر التوعية بين المسلمين أن يقفوا ضدّ هذه النشاطات بأي وسيلة ممكنة، ومنها إبلاغ المسؤولين في الدولة الإسلاميّة إن اكتشفت مثل هذه الجهود التنصيريّة.

ثالثاً: الاهتمام بالناحية الإعلاميّة، عن طريق القنوات الفضائيّة، وغيرها من وسائل الإعلام، لعلاج أمور دعويّة وتوعويّة مهمة، ومنها:

أ) الوقوف في وجه الدعوات التنصيريّة التي أخذت بالانتشار، بتكثيف برامج مرئيّة وسمعيّة، حواريّة، ومقاليّة؛ لبيان بطلان العقيدة النصرانيّة، بطرق مختصرة في بعض البرامج، وبطرق موسّعة في بعضها الآخر.

ب) عمل برامج خاصة لبيان نصاعة الدين الإسلامي، وأنّه الدين الحق المُنزّل من عند الله تعالى، ولبيان موافقته للعقل والمنطق، وذكر محاسنه، وأخلاقيّاته، وللتذكير ببعض مفاهيمه الإسلاميّة،

والتي أخذت بالاندثار والنسيان، ولتصحيح مفاهيم أخرى فهمها بعض المسلمين فهماً خاطئاً فأدّت إلى نتائج خاطئة، إمّا ميّعت بعض أمور الدين ففرح بها العلمانيّون والماكرون، وإمّا أنها صوّرتها بطريقة نفّرت من أراد الاطلاع على محاسن هذا الدين المبارك، فلا إفراط، ولا تفريط.

رابعاً: أعتقد أنّ المجمع الفاتيكاني الثاني (المسكوني الكنسي الحادي والعشرون) المنعقد في الفترة من ١١ تشرين الأول ١٩٦٢م إلى ٨ كانون الأول ١٩٦٥م، يحتاج إلى دراسة مستقلّة لما يحويه من قرارات كنسيّة خطيرة، المقصود بها أن تؤثِر على العالم الإسلامي خاصة من الناحية الدينيّة، والفكريّة، كما أنّها قد تؤثّر على العالم أجمع، حتى من الناحية السياسيّة.

هذا وأسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق والسداد والإعانة، إنّه نعم المولى ونعم النصير، وآخر دعوانا أن الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كُنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وصلِّ اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.



- فهرس الأعلام.
- فهرس المصطلحات والألفاظ.
- فهرس المراجع.
- فهرس الموضوعات.

فهرس الأعلام الذين ترجم لهم في هامش حاشية البحث

الكلوسيوم

الفرقة الآريوسيّة

الفرقة البوليانيّة

الفرقة الأبيونيّة

الطائفة

المذهب النسطوري

الصلاة الربانيّة

الأيقونيّة

فهرس المصطلحات المذكورة أثناء البحث

المضافات إلى الله

يوم العنصرة

الهلنستيّة

مجلس السهندرين اليهودي

الكلوسيوم

الفرقة الآريوسيّة

الفرقة البوليانيّة

الفرقة الأبيونيّة

الطائفة

المذهب النسطوري

الصلاة الربانيّة

الأيقونيّة

السِّيمونيّة

البرابرة

الثورة الفرنسيّة

الاستشراق

الفطرة

العلمانيون الكاثوليك

فهرس المراجع

(أ)

١) الابتعاث ومخاطره، تأليف: محمد الصبّاغ، الناشر: إدارة البحوث العلميّة والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، والمكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الثالثة ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م.

٢) الانتصارات الإسلاميّة في كشف شبه النصرانيّة، تأليف العلاّمة: سليمان بن عبد القوي الطوفي الصرصري الحنبلي، دراسة وتحقيق الدكتور: سالم بن محمد القرني، الناشر: مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.

٣) ابن حزم ومنهجه في دراسة الأديان، تأليف الدكتور: محمود علي حماية، الناشر: دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٨٣ م.

٤) الاتجاه العقلاني لدى المفكرين الإسلاميين المعاصرين (عرض.. ونقد)، بحث لنيل درجة الدكتوراة، إعداد الباحث: سعيد بن عيضه بن عبد الله الزهراني، إشراف فضيلة الأستاذ الدكتور: ناصر بن عبد الكريم العقل، مقدَّم لقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، مكتوب بالآلة الكاتبة.

٥) اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر (في النصف الأوّل من القرن الرابع عشر الهجري)، تأليف الدكتور: محمد بن صادق الجمال، الناشر: دار عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

٦) الاتجاهات الوطنيّة في الأدب المعاصر، تأليف الدكتور: محمد محمد حسين، الناشر: دار الرسالة للنشر والتوزيع، مكة، الطبعة التاسعة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

٧) الاتجاهات الفكريّة المعاصرة، تأليف المستشار الدكتور: علي جريشة، الناشر: دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الثالثة ١٤١١ هـ ١٩٩٠ م.

٨) أثر الاستشراق في الفكر العربي المعاصر عند إدوارد سعيد، حسن حنفي، عبد الله العروي، تأليف الدكتور: نديم نجدي، الناشر: دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٥ م.

٩) أثر الكنيسة على الفكر الأوروبي، تأليف الدكتور: أحمد علي عجيبة، الناشر: دار الآفاق العربيّة، مدينة نصر، القاهرة، الطبعة الأولي ٢٠٠٤ م.

١٠) أجنحة المكر الثلاثة، وخوافيها، التبشير، والاستشراق، والاستعمار، تأليف الشيخ: عبد الرحمن حسن الميداني، الناشر: دار القلم، دمشق، الطبعة السادسة ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م.

١١) احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، تأليف الأستاذ الدكتور: سعد الدين السيد صالح، النشر: مكتبة الصحابة، الشارقة، الطبعة الأولى: ١٤١٩ هـ ١٩٩٨م.

١٢) اختلافات في تراجم الكتاب المقدس، و تطورات هامة في المسيحيّة، تأليف اللواء: أحمد عبد الوهاب، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م.

١٣) أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي (بحوث حول العقائد الوافدة)، تأليف الدكتور: صابر طعيمة، الناشر: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م.

١٤) أخطر المناظرات هل مات المسيح على الصليب؟ مناظرة بين الداعية الشيخ أحمد ديدات، والبرفسور فلويد كلارك، ترجمة: علي الجوهري، الناشر: دار البشير، القاهرة.

١٥) أديان وفرق، تأليف: الدكتور أمين القضاة، الدكتور محمد الخطيب، الدكتور عوض الهزايمة، الناشر: دار عمّار، ومكتبة الأقصى، ومكتبة الحرمين، عمّان، الأردن، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ ١٩٩٠ م.

١٦) الإذاعات التنصيريّة الموجّهة إلى المسلمين والعرب، تأليف الدكتور: كرم شلبي، الناشر: مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩١م.

١٧) أربعون سبباً في سقوط الأندلس، تأليف الدكتور: عبد الحليم عويس، الناشر: دار الصحوة للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م.

١٨) أزمة العصر، تأليف الدكتور: محمد محمد حسين، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م.

١٩) أساسيّات مسيحيّة، تأليف الدكتور: زكريا استاورو، الناشر: مكتبة الأخوّة، شبرا، القاهرة، طبعة عام ٢٠٠١ م.

٢٠) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، تأليف الدكتور: علي محمد جريشة، محمد شريف الزيبق، الناشر: دار الاعتصام، القاهرة.

٢١) استراتيجيّة التنصير في العالم الإسلامي (دراسة في أعمال مؤتمر كولورادو لتنصير المسلمين)، تأليف الدكتور: محمد عمارة، الناشر: مركز دراسات العالم الإسلامي، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.

٢٢) الاستشراق، تأليف الدكتورة: فتحيّة عبد الفتاح النبراوي، الناشر: الدار السعوديّة، الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٥ م.

٢٣) الاستشراق (الذرائع، النشأة، المحتوى)، تأليف الدكتور: السيد أحمد فرج، الناشر: دتر طويق للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ ١٩٩٣ م.

٢٤) الاستشراق أهدافه ووسائله، ودراسة تطبيقيّة حول منهج الغربيين في دراسة ابن خلدون، تأليف الدكتور: محمد فتح الله الزيّادي، الناشر: دار قتيبة، دمشق، الطبعة الثانية عام ٢٠٠٢ م.

٢٥) الاستشراق السياسي في النصف الأوّل من القرن العشرين، تأليف: مصطفى نصر المسلاّتي، الناشر: اقرأ للطباعة والترجمة والنشر، طرابلس، الطبعة الأولى ربيع الأوّل ١٣٩٦ م.

٢٦) الاستشراق في السّيرة النبويّة (دراسة تاريخيّة لآراء وات، وبروكلمان، وفلهاوزن) مقارنة بالرؤية الإسلاميّة، تأليف: عبد الله محمد الأمين النعيم، الناشر: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكيّة، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ ١٩٩٧ م.

٢٧) الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي، تأليف الدكتور: أحمد عبد الرحيم السايح، الناشر: الدار المصريّة اللبنانيّة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ ١٩٩٦م.

٢٨) الاستشراق (المعرفة، السلطة، الانشاء)، تأليف الدكتور: إدوارد سعيد، نقله إلى العربية كمال أبو ذيب، الناشر: مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، الطبعة العربية السادسة ٢٠٠٣ م.

٢٩) الاستشراق والتربية، تأليف الدكتور: هاني محمد يونس بركات، دار الفكر، عمّان، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م.

٣٠) الاستشراق والتبشير (قراءة تاريخيّة موجزة)، تأليف الأستاذ الدكتور: محمد السيّد الجليند، الناشر: دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، طباعة عام ١٩٩٩ م.

٣١) الاستشراق وجه الاستعمار الفكري، تأليف الدكتور: عبد المتعال محمد الجبري، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ ١٩٩٥ م.

٣٢) الاستعمار في جنوب شرقي آسيا، تأليف الدكتور: فايز صالح أبو جابر، الناشر: دار البشير للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى ١٤١١هـ ١٩٩١ م.

٣٣) إسرائيل حرّفت الأناجيل واخترعت أسطورة السامية، تأليف اللواء: أحمد عبد الوهاب، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ ١٩٩٧ م.

٣٤) أسرار حملة نابليون على مصر والشام، تأليف: حُسني أدهم جرّار، الناشر: دار الضياء، وشركة الشرق الأوسط للطباعة، عمّان، الأردن.

٣٥) أسرار الفاتيكان، تأليف: ليو بولد ليدل، ترجمة: تحسين حجازي، الناشر: دار التضامن، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٠ م.

٣٦) أسرار الكنيسة السبعة، تأليف: الأرشيدياكون حبيب جرجس، الناشر: مكتبة المحبّة، القاهرة، الطبعة السادسة.

٣٧) أسس الإيمان (دليل المؤمن الممتلئ من الروح)، تأليف: ديريك برنس، ترجمة: صلاح

عباسي، الناشر: W.T.P، المطبعة Gaphics MD، الموقع الإلكتروني www.wtp-me.com

٣٨) أسطورة تجسّد الإله في السيد المسيح، بحوث تحت إشراف البروفسور: جون هك، تعريب الدكتور: نبيل صبحي، الناشر: دار القلم، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

٣٩) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، تأليف الدكتور: علي عبد الواحد وافي، الناشر: دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة.

٤٠) الأسفار المقدّسة قبل الإسلام، تأليف الدكتور: صابر طعيمة، الناشر: عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ ١٩٨٥ م.

٤١) الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين، تأليف الدكتور: شوقي أبو خليل، الناشر: دار الفكر المعاصر، بيروت، طبعة ١٤١٩ هـ ١٩٩٨ م.

٤٢) الأسقف بين الأمس واليوم، تأليف المطران: أنطوان طَربَيه، الناشر: دار المشرق، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٤ م.

٤٣) أسقف رومَة، تأليف: ج. م. ر. تِيّار، نقله إلى العربيّة: الأب جورج خوّام البولسيّ، الناشر: المكتبة البولسيّة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٧ م.

٤٤) الإسلام بعيون مسيحيّة، تأليف لطفي حداد، الناشر: الدار العربيّة للعلوم، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٥ م.

٤٥) الاسلام بين الواقع والتحديات والمستقبل، تأليف: أحمد إسماعيل يحي، الناشر: مكتبة الدار العربيّة للكتاب، الطبعة الأولى ربيع الأول ١٤٢٣ هـ مايو ٢٠٠٢ م.

٤٦) الإسلام في تصورات الإستشراق الإسباني، تأليف الدكتور: محمد عبد الواحد العسري، الناشر: مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، طبعة عام ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م.

٤٧) الإسلام في تصورات الغرب، تأليف الدكتور: محمود حمدي زقزوق، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م.

٤٨) الإسلام والغرب الحاضر والمستقبل، تأليف: زكي الميلاد، تركي علي الربيعو، دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م.

٤٩) الإسلام والأديان الأخرى (نقاط الاتفاق والاختلاف)، تأليف اللواء: أحمد عبد الوهاب، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤١٩ هـ ١٩٨٩ م.

٥٠) الإسلام والعرب، تأليف رُوم لاندو، نقله عن الإنكليزيّة: منير البعلبكي، الناشر: دار العالم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٧ م.

٥١) الإسلام والمعتقدات الدينيّة القديمة، تأليف: أحمد إسماعيل يحيى، الناشر: مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٣، ٢٠٠٢ م.

٥٢) الاسلام وتحدِّي الاستعمار الأوروبي في إفريقيا، تأليف الأستاذ الدكتور: عبد الله عبد الرزاق، الناشر: المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، الطبعة الثانيّة ١٩٩٧ م.

٥٣) الإسلام والحضارة الغربيّة، تأليف الدكتور: محمد محمد حسين، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م.

٥٤) الإسلام والغزو الفكري، تأليف الدكتور: محمد عبد المنعم خفاجي، والدكتور: عبد العزيز شرف، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ ١٩٩١م.

٥٥) الإسلام والمستشرقون، إشراف مجمع دار المصنفين في الهند، الناشر: عالم المعرفة، جلة، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.

٥٦) الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وظلال الاستشراق، تأليف الدكتور: عبد الرحمن عميرة، الناشر: دار الجيل بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩م.

٥٧) الإسلام والمسيحيّة من التنافس والتصادم والحوار والتفاهم، تأليف: أليكسي جورافسكي، ترجمة الدكتور: خلف محمد الجراد، الناشر: دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، الطبعة الثانية ١٤٢١ هـ ٢٠٠٠ م.

٥٨) الإسلام والنصرانيّة دراسة مقارنة، تأليف الدكتور: محمد علي الخولي، الناشر: دار الفلاح للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى ٢٠٠٠ م.

٥٩) أصول التنصير في الخليج العربي، دراسة ميدانية وثائقية نشاط البعثة البروتستانتيّة (١٨٨٩ ١٩٧٣ م)، تأليف: هـ. كونوي زيقلر، ترجمة: مازن صلاح مطبقاني، الناشر: مكتبة ابن القيم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى: ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م.

٦٠) اضمحلال الإمبراطوريّة الرومانيّة وسقوطها، تأليف: إدوارد جيبون، ترجمة: محمد علي أبو درة، الناشر: الهيئة المصريّة العامة للكتاب، الطبعة الثانية ١٩٩٧ م.

٦١) اضمحلال العصور الوسطى، تأليف: يوهان هويزنجا، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، الناشر: الهيئة المصريّة العامة للكتاب، الطبعة الثانية ١٩٩٨ م.

٦٢) إظهار الحق، تأليف: الشيخ رحمت الله بن خليل الرحمن الهندي، دراسة وتحقيق وتعليق الدكتور: محمد أحمد عبد القادر ملكاوي، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلميّة والإفتاء والدعوة والإرشاد، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ١٩٨٩م.

٦٣) افتراءات المستشرقين على الإسلام (عرض ونقد)، تأليف الدكتور: عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م.

٦٤) أفكار وآراء الحوار المسيحي الإسلامي والعيش المشترك، تأليف المطران: كيرلّس سليم بسترس، رئيس أساقفة بعلبك وتوابعها للرّوم الملكيّين الكاثوليك، الناشر: المكتبة البولسيّة المسيحيّة، جونيه، لبنان، طبعة عام ١٩٩٩ م.

٦٥) أفيقوا أيّها المسلمون قبل أن تدفعوا الجزية، تأليف الدكتور: عبد الودود شلبي، الناشر: الدار السعوديّة، الطبعة الأولى.

٦٦) إقرار الإيمان (الوستمنستري)، عقيدة الكنيسة الإنجيليّة المشيخيّة، الناشر: دار الثقافة المسيحيّة، شبرا، القاهرة.

٦٧) الإلحاد وأسبابه (الصفحة السوداء للكنيسة)، تأليف: الأستاذة الدكتورة: زينب عبد العزيز، الناشر: دار الكتاب العربي، دمشق، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٤ م.

٦٨) الله جلّ جلاله بين التثليث والتوحيد، تأليف السفير: محمد أمين جبر، الناشر: دار النهار للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، طبعة عام ١٤٢٠ هـ ١٩٩٠ م.

٦٩) الله واحد أم ثالوث، تأليف المستشار الدكتور: محمد مجدي مرجان، الناشر: مكتبة النافذة، الجيزة، ٢ شارع الشهيد أحمد حمدي الثلاثيني، فيصل، الطبعة الثانية ٢٠٠٤ م.

٧٠) الإنجيل والصليب، تأليف: الأب عبد الواحد داود الأشوري العراقي، نقله من التركيّة إلى العربيّة مسلم عراقي، طُبع في القاهرة عام ١٣٥١ هـ.

٧١) الانحرافات العقديّة والعلميّة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، تأليف: علي بن بخيت الزهراني، تقديم الشيخ: محمد قطب، الناشر: دار الرسالة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة.

٧٢) الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود (٩١ - ٨٩٧ هـ ٧١٠ - ١٤٩٢م)، تأليف الدكتور: عصام محمد شبارو، الناشر: دار النهضة العربيّة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢ م.

٧٣) انزعوا قناع بولس عن وجه المسيح، تأليف: أحمد زكي، الناشر: مكتبة الشقري، ودار الحداثة، الطبعة الأولى ١٩٩٥ م.

٧٤) أوربّا العصور الوسطى، الجزء الأول، التاريخ السياسي، تأليف الدكتور: سعيد عبد الفتاح عاشور، الناشر: مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، الطبعة الثامنة ١٩٩٧م.

٧٥) أوروبا والإسلام، تأليف الدكتور: عبد الحليم محمود، الناشر: دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة.

٧٦) أوروبا وفلسطين من الحروب الصليبيّة حتى اليوم، تأليف الدكتور: بشارة خضر، الناشر:

مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٣ م.

٧٧) أوروبا والمسيحيّة، تأليف: يان دوبراتشينسكي، ترجمة الدكتور: كبرو لحدو، الناشر: دار الحصاد للطباعة والنشر، سوريّة، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.

٧٨) أيعيد التاريخ نفسه؟ تأليف: محمد العبدة، الناشر: المنتدى الإسلامي، طبعة عام ١٤١١م.

(ب)

٧٩) بابوات يهود من غيتو روما، تأليف: واكيم برنز، ترجمة الأستاذ الدكتور: سهيل زكّار، الناشر: دار قتيبة، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥ م.

٨٠) البحث الصريح في أيّما هو الدين الصحيح، تأليف الشيخ: زيادة بن يحي الراسي، تحقيق ودراسة الدكتور: سعود بن عبد العزيز الخلف، الناشر: عمادة البحث العلمي، الجامعة الإسلاميّة بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٣ م.

٨١) البحث عن الحقيقة الكبرى، تأليف المهندس: عصام قصاب، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثالثة ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢ م.

٨٢) البرهان المبين في تحريف أسفار السابقين، تأليف اللواء: أحمد عبد الوهاب، الناشر: مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.

٨٣) بشريّة المسيح ونُبوّة محمد صلى الله عليهما وسلم في نصوص العهدين، تأليف الدكتور: محمد أحمد عبد القادر خليل ملكاوي، الناشر: مكتبة عالم المعرفة، جدة، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م.

٨٤) البعثات اليسوعيّة (مهمّة إعداد النخبة السياسيّة في لبنان) دراسة وثائقيّة تاريخيّة، تأليف الدكتور: طلال عتريسي، الناشر: الوكالة العالميّة للتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ١٨٨٧م.

٨٥) بولس وتحريف المسيحيّة، تأليف هيم ماكبي، ترجمة: سميرة عزمي الزين، الناشر: المعهد

الدولي للدراسات الإنسانيّة، الطبعة العربية الأولى ١٤١١ هـ ١٩٩١ م.

٨٦) بين الإسلام والمسيحيّة، لأبي عبيدة الخزرجي، حققه وقدَّم له وعلّق عليه الدكتور: محمد شامة، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة.

(ت)

٨٧) تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، تأليف الدكتور: جعفر عبّاس حميدى، الناشر: دار الفكر، عمّان، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ ٢٠٠٢ م.

٨٨) تاريخ أقطار المغرب العربي السياسي الحديث والمعاصر، تأليف الدكتور: أحمد إسماعيل راشد، الناشر: دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م.

٨٩) التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، تأليف الأستاذ الدكتور: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتاب الجامعي، القاهرة، الطبعة الخامسة ١٤١٦ هـ ١٩٩٥ م.

٩٠) تاريخ الإمبراطوريّة العثمانيّة من التأسيس إلى السقوط، تأليف: وديع أبو زيدون، الناشر: الأهليّة للنشر والتوزيع، الطبعة العربية الأولى عام ٢٠٠٣ م.

٩١) التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، تأليف الأستاذ الدكتور: عبد الحميد البطريق، الدكتور: عبد العزيز نوَّار، الناشر: دار النهضة العربية، بيروت.

٩٢) تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، تأليف الدكتور: عبد الفتاح أبو علية، والدكتور: إسماعيل أحمد ياغي، الناشر: دار المريخ، الرياض، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

٩٣) تاريخ أوروبا (العصور الوسطى)، تأليف الدكتور: السيّد الباز العريني، الناشر: دار النهضة العربية، بيروت.

٩٤) تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، تأليف الدكتور: سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية، بيروت.

٩٥) تاريخ أوروبا في العصر الحديث، تأليف هـ. ل. فشر، تعريب أحمد نجيب هاشم، وديع

الضبع، الناشر: دار المعارف، الطبعة التاسعة.

٩٦) تاريخ البشرية، تأليف: أرنولد توينبي، نقله إلى العربية الدكتور: نقولا زيادة، الناشر: الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الرابعة ٢٠٠٣ م.

٩٧) تاريخ التعذيب، تأليف: براين اينز، ترجمة: مركز التعريب والبرمجة، الدار العربية للعلوم، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ ٢٠٠٠ م.

٩٨) تاريخ حركة الاستشراق، تأليف: يوهان فوك، نقله عن الألمانيّة عمر لطفي العالم، الناشر: دار المدار الإسلامي، الطبعة الثانية ٢٠٠١ م.

٩٩) تاريخ الحروب الصليبيّة، تأليف: ستيفن رنسيمان، نقله إلى العربية الدكتور: السيّد الباز العريني، الناشر: دار الثقافة، بيروت، طبعة عام ١٤١٧ هـ ١٩٩٧ م.

١٠٠) تاريخ الحروب الصليبيّة (١٠٩٥ - ١٢٩١م)، تأليف الدكتور: محمود سعيد عمران، الناشر: دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، طبعة عام ١٩٩٩م.

١٠١) تاريخ الحضارات العام، إشراف: موريس كروزيه، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، بموجب الاتفاق المعقود مع المطبوعات الجامعيّة الفرنسيّة في ٢٢/ ١/ ١٩٦٤ م.

١٠٢) تاريخ الحملات الصليبيّة، تأليف: إتش. إ. ماير، نقله إلى الإنجليزية: ج. جلينجهام، تعريب الدكتور: محمد فتحي الشاعر، الناشر: دار الأمين، بور سعيد، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.

١٠٣) تاريخ الدولة العثمانيّة، تأليف الأستاذ الدكتور: محمود السيد، الناشر: مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندريّة، طبعة عام ٢٠٠٤ م.

١٠٤) تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي، تأليف الدكتور: علي بن محمد الصلابي، الناشر: دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥ م.

١٠٥) تاريخ العالم، المجلّد الرابع، نشره بالإنجليزيّة السير جون. ا. هامرتن، أشرفت على ترجمته للعربيّة إدارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم، مصر، نشر: مكتبة النهضة المصريّة.

١٠٦) تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، تأليف: الدكتور خليل إبراهيم السامرائي، والدكتور عبد الواحد ذنّوب طه، والدكتور صالح مطلوب، الناشر: دار المدار الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٤ م.

١٠٧) تاريخ عصر النهضة الأوروبيّة، تأليف الدكتور: نور الدين حاطوم، الناشر: دار الفكر، دمشق، طباعة عام ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.

١٠٨) تاريخ العصر الوسيط في أوروبة، تأليف الدكتور: نور الدين حاطوم، الناشر: دار الفكر، دمشق، طباعة ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م.

١٠٩) تاريخ الفكر الديني المسيحي ما بين الإسكندريّة وروما وبيزنطه، تأليف الأنبا: غريغوريوس أسقف عام للدراسات العليا اللاهوتيّة والثقافة القبطيّة والبحث العلمي، الناشر: لجنة النشر للثقافة القبطيّة والأرثوذكسيّة، طبعة عام ١٩٩٢ م.

١١٠) تاريخ الفكر المسيحي، تأليف الدكتور القس: حنّا جرجس الخضري، الناشر: دار الثقافة المسيحيّة، القاهرة، طبعة عام ١٩٨١ م.

١١١) تاريخ القرن السابع عشر في أوربة، تأليف الدكتور: نور الدين حاطوم، الناشر: دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م.

١١٢) تاريخ الكنيسة، تأليف الدكتور القس: جون لوريمر، ترجمة: عزرا مرجان، الناشر: دار الثقافة المسيحيّة، الطبعة الأولى ١٩٩٠ م.

١١٣) تاريخ الكنيسة، تأليف: يوسابيوس القيصري، ترجمة: القمص مرقس داود، الناشر: مكتبة المحبّة المسيحيّة، شبرا، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٩٨ م.

تاريخ الكنيسة المسيحيّة، نقله من اللغة الروسيّة إلى العربية، الكسندروس (مطران حمص وتوابعها)، الناشر: مكتبة السائح، طبعة عام ١٩٦٤ م.

١١٤) تاريخ المسيحيّة، فجر المسيحيّة، تأليف: حبيب سعيد، الناشر: دار التأليف والنشر

للكنيسة الأسقفيّة.

١١٥) تاريخ المسيحيّة (المسيحيّة في العصور الوسطى)، تأليف: جاد المنفلوطي، الناشر: دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفيّة، القاهرة.

١١٦) التاريخ المعاصر (أوروبا من الثورة الفرنسيّة إلى الحرب العالميّة الثانية)، تأليف الدكتور: عبد العزيز سليمان نوّار، والدكتور عبد المجيد نعنعي، الناشر: دار النهضة العربية، بيروت.

١١٧) تأريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، تأليف الدكتور: خاشع المعاضيدي، الدكتور: سوادي محمد، الدكتور: دريد عبد القادر نوري، الطبعة الثانيّة ١٩٨٦م.

١١٨) تأصيل الحوار الديني، مع مثال تطبيقي (السودان نموذجاً)، تأليف الدكتور: محمد الفاضل بن عليّ الأَلفي، الناشر: دار الكلمة، المنصورة، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

١١٩) تباشير الإنجيل والتوراة بالإسلام ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، تأليف الدكتور: نصر الله عبد الرحمن أبو طالب، الناشر: دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢م.

١٢٠) التبشير بين الأصوليّة المسيحيّة وسلطة التغريب، تأليف: عدنان عويّد، الناشر: دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.

١٢١) التبشير الغربي، تأليف: أنور الجندي، الناشر: دار الاعتصام، القاهرة.

١٢٢) التبشير في منطقة الخليج العربي (دراسة في التاريخ الاجتماعي والسياسي)، تأليف الدكتور: عبد المالك التميمي، الناشر: دار الشباب، قبرص، مؤسسة الكميل، الكويت، الطبعة الأولى ١٩٨٢ م.

١٢٣) التبشير والاستعمار في البلاد العربيّة، تأليف الدكتور: مصطفى خالدي، والدكتور: عمر فرّوخ، الناشر: المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت، طبعة ١٩٨٦ م.

١٢٤) التجسّد الإلهي، تأليف الدكتور: حليم حسب الله، الناشر: لجنة خلاص النفوس للنشر،

طبعة ١٩٩٧ م.

١٢٥) تجسّد الكلمة، تأليف القديس: اثناسيوس الرسولي، نقله إلى العربية القمص مرقس داود، الناشر: دار النشر الأسقفيّة، شبرا، القاهرة، الطبعة الحادية عشر.

١٢٦) التجسّد والصلب بين الحقيقة والافتراء، تأليف الدكتور: محمود علي حماية، الناشر: مكتبة مروة، القاهرة، طبعة ١٤١٠ هـ.

١٢٧) تحريف رسالة المسيح ﷺ عبر التاريخ أسبابُهُ ونتائجُهُ، تأليف: بسمة أحمد جستنيَّة، الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشاميّة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠ م.

١٢٨) التراث العربي والمستشرقون، تأليف الدكتور: عادل الآلوسي، الناشر: دار الفكر العربي، مدينة نصر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١ م.

١٢٩) التربية الخاطئة للغرب كيف يشوّه الإعلام الغربي صورة الإسلام، تحرير: جوكينشلو وشيرلي شتاينبرغ، ترجمة: حسّان بستاني، الناشر دار الساقي، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م.

١٣٠) تشاد والإسلام ومعركة التحديات، تأليف: آدم كردي شمس، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٧ م.

١٣١) تطوير الإنجيل (المسيح ابن الله أم ملك من نسل داود؟)، تأليف: إينوك باول، ترجمة ودراسة أحمد ايبش، الناشر: دار قتيبة، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م.

١٣٢) التعصب والتسامح بين المسيحيّة والإسلام، تأليف الشيخ: محمد الغزالي، الناشر: دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١ م.

١٣٣) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عرّبه الطبعة اللاتينيّة الأصليّة المنشورة عن دار الفاتيكان للنشر، حاضرة الفاتيكان، عام ١٩٩٧ م، المتروبوليت حبيب باشا، والمطران يوحنّا منصور، والمطران كيرلّس سليم بسترس، الأب حنّا الفاخوري، الناشر: المكتبة البولسيّة جونيه لبنان.

١٣٤) التغريب أخطر التحديات في وجه الإسلام، تأليف: أنور الجندي، الناشر: دار الاعتصام،

القاهرة.

١٣٥) التغريب في الفكر والسياسية والاقتصاد، تأليف: محمد سليم قلالة، الناشر: دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.

١٣٦) تفسير العهد الجديد، تأليف الدكتور: وليم باركلي أستاذ العهد الجديد بجامعة جلاسجو، الناشر: دار الثقافة المسيحيّة، القاهرة.

١٣٧) تفسير كلمات المقدّس (معجم الألفاظ العسرة)، تأليف: سعيد مرقص إبراهيم، راجعه الدكتور القس: منيس عبد النور، الطبعة السادسة ٢٠٠٤ م.

١٣٨) التنصير الطبي الخفي في البلاد الإسلاميّة، تأليف الدكتور: عبد العزيز الفهد، الناشر: دار القاسم للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥ م.

١٣٩) تنصير العالم (مناقشة لخطاب البابا يوحنّا بولس الثاني "روعة الحقيقة")، تأليف الأستاذة الدكتورة: الناشر الكتاب العربي، دمشق، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ ٢٠٠٢ م.

١٤٠) تنصير المسلمين، بحث في أخطر استراتيجيّة طرحها مؤتمر كُولورادو التنصيري، تأليف: عبد الرزاق ديار بكرلي، دار النفائس، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ ١٩٨٩م، الطبعة الثانية ١٤١١ هـ ١٩٩١ م.

١٤١) التنصير الأمريكي في بلاد الشام (١٨٣٤ - ١٩١٤ م)، تأليف الدكتور: عبد الرزاق عبد الرزاق عيسى، الناشر: مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٥ م.

١٤٢) التنصير والتغلغل الاستعماري في إفريقيا، جامعة إفريقيا العالميّة، مركز البحوث والدراسات الإفريقيّة.

١٤٣) التنصير، خطة لغزو العالم الإسلامي، الترجمة الكاملة لأعمال المؤتمر التبشيري الذي عُقد في مدينة جلين آيري بولاية كولورادو في الولايات المتحدة الأمريكيّة سنة ١٩٧٨م، ونشرته دار للنشر.

١٤٤) التنصير في القرن الإفريقي ومقاومته، تأليف: سيد أحمد يحي، دار العمير للثقافة والنشر،

الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م.

١٤٥) التنصير مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته، تأليف الأستاذ الدكتور: عليٌ بن إبراهيم الحمد النملة، الناشر: مكتبة التوبة، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

١٤٦) التوحيد في الأناجيل الأربعة وفي رسائل القديسين بولس ويوحنّا، تأليف: سعد رستم، الناشر: الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى ٢٠٠٢ م.

١٤٧) التوحيد والتثليث في حوار المسيحيّة والإسلام، تأليف: محمد عبد الحميد الحمد، الناشر: دار الأوائل، دمشق، الطبعة الأولى ٢٠٠٣ م.

(ث)

١٤٨) ثرثرة فوق دجلة (حكايات التبشير المسيحي في العراق ١٩٠٠ ١٩٣٥ م)، إعداد وترجمة: خالد البسّام، الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٤ م.

١٤٩) ثقافة المسلم بين الأصالة والتحديات، تأليف: موسى إبراهيم الإبراهيم، الناشر: دار عمّار، الطبعة الثانية ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م.

١٥٠) الثقافة العربيّة إسلاميّة أصولها وانتمائها، تأليف: أنور الجندي، الناشر: دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٢ م.

(ج)

١٥١) الجانب المظلم في التاريخ المسيحي، تأليف: هيلين إيليربي، ترجمة الأستاذ الدكتور: سهيل زكّار، دار قتيبة، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥ م.

١٥٢) الجاهليّة الجديدة وآثارها النكدة في المسلمين، تاليف: ناصر عبد الكريم العقل، الناشر: دار الأصمعي، طبعة عام ١٤١٣ هـ

١٥٣) الجدل الديني بين المسلمين وأهل الكتاب بالأندلس (ابن حزم، الخزرجي)، تأليف الدكتور: خالد عبد الحليم السيوطي، الناشر: دار قباء، القاهرة.

١٥٤) جذور الانحراف في الفكر الإسلامي الحديث، تاليف: جمال سلطان، الناشر: مركز الدراسات الإسلاميّة، برمنجهام، بريطانيا، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ ١٩٩١م.

١٥٥) جذور الفكر القومي والعلماني، تأليف الدكتور: عدنان محمد زرزور، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، الطبعة الثالثة ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م.

١٥٦) جذور البلاء، تأليف: عبد الله التل، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.

١٥٧) الجذور التاريخيّة لإرساليات التنصير الأجنبيّة في مصر (دراسة وثائقيّة)، تأليف الدكتور: خالد محمد نعيم، الناشر: المختار الإسلامي، القاهرة.

١٥٨) جغرافيّة الأديان، تأليف: دافيد سوفير، ترجمة: أحمد غسّان سبانو، الناشر: دار قتيبة، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٠ م.

١٥٩) جنوب السودان (مراحل انهيار الثقة بينه وبين الشمال ١٩٥٥ - ١٩٨٣ م)، الناشر: دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م.

١٦٠) جنون الخطر الأخضر وحملة التشويه على الإسلام، تأليف: إبراهيم نافع، الناشر: مكتبة الإهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م.

١٦١) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الأوسط، تأليف: مسفر سالم بن عريج الغامدي، الناشر: دار المطبوعات الحديثة، جدة، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م.

١٦٢) جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى خلال عصري المرابطين والموحدين، تأليف الدكتور: محمد بن إبراهيم صالح الحسين أبا الخيل، الناشر: دار أصداء المجتمع، بريدة، السعوديّة، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ ١٩٩٨ م.

١٦٣) جيل العمالقة والقمم الشوامخ في ضوء الإسلام، تأليف: أنور الجندي، الناشر: دار الاعتصام.

(ح)

١٦٤) حاضر العالم الإسلامي، تأليف الدكتور: علي جريشة، الناشر: دار المجتمع للنشر والتوزيع، الطبعة الرابع ١٤١٠ هـ ١٩٨٩ م.

١٦٥) حاضر العالم الإسلامي، تأليف الدكتور: فرغلي علي الهريدي، الناشر: دار إشبيليا، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م.

١٦٦) حاضر العالم الإسلامي الواقع والتحديات، تأليف الأستاذة الدكتورة: عفاف سيد صبرة، والدكتور: مصطفى محمد الحنّاوي، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة ألولى ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م.

١٦٧) حرب صليبيّة بكل المقاييس، تأليف الأستاذة الدكتورة: زينب عبد العزيز، الناشر: دار الكتاب العربي، دمشق، والقاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٣ م.

١٦٨) الحرب في الكتب المقدَّسة (دراسة مقارنه)، تأليف الدكتورة: نجوى عمر كامل، الناشر: مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١ م.

١٦٩) حرب في الكنائس، تأليف الدكتور: أسد رستم، الناشر: قسم الدراسات التاريخيّة في الجامعة اللبنانيّة، بيروت، طبعة عام ١٩٥٨ م.

١٧٠) الحرب المقدّسة (الحملات الصليبيّة وأثرها على العالم اليوم)، تأليف: كارين آرمسترونغ، ترجمة: سامي الكعكي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة العربية عام ٢٠٠٤ م.

١٧١) الحركة الصليبيّة، تأليف الدكتور: سعيد عبد الفتاح عاشور، الناشر: مكتبة الأنجلو المصريّة، الطبعة السادسة ١٩٩٦ م.

١٧٢) الحركة الصليبيّة، تأليف الدكتور: علي حبيبة، الناشر: مكتبة الشباب، القاهرة، طبعة عام ١٩٩٧ م.

١٧٣) حركة المقاومة العربية الإسلاميّة في الأندلس بعد سقوط غرناطة، تأليف الأستاذ

الدكتور: عبد الواحد ذنوب طه، الناشر: دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.

١٧٤) الحروب الصليبيّة، تأليف: ارنست باركر، نقله إلى العربية الدكتور: السيّد الباز العريني، الناشر: دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الرابعة.

١٧٥) الحروب الصليبيّة، تأليف: ر. سي. سميل، ترجمة: سامي هاشم، الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى ١٩٨٢ م.

١٧٦) الحروب الصليبيّة (دراسات تاريخيّة ونقديّة)، تأليف الدكتور: محمد مؤنس عوض، تقديم الدكتور: سعيد عبد الله البيشاوي، الناشر: دار الشروق، عمّان، الأردن، الطبعة الأولى ١٩٩٩ م.

١٧٧) الحروب الصليبيّة (صراع الشرق والغرب)، تأليف: رينه كروسيه، ترجمه عن الفرنسيّة وعلق عليه: أحمد ايبش، الناشر: دار قتيبة، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢م.

١٧٨) الحروب الصليبيّة في الأندلس، تأليف الدكتور: عبد المحسن طه رمضان، الناشر: مكتبة الأنجلو المصريّة، طبعة عام ٢٠٠١ م.

١٧٩) الحروب الصليبيّة هل انتهت؟؟ تأليف: عبد الوهاب زيتون، الناشر: دار المعرفة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

١٨٠) الحروب الصليبيّة مواقف وتحديات، تأليف: سهيلة الحسيني، تقديم الأستاذ الدكتور: محمد عمارة، دار التوزيع والنشر الإسلاميّة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م.

١٨١) حصن بابليُون (ذات الصواري)، تأليف الدكتور: شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، طبعة عام ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م.

١٨٢) حصُوننا مهدَّدة من داخلها، تأليف الدكتور: محمد محمد حسين، الناشر: دار الرسالة للنشر والتوزيع، مكة، الطبعة الثانية عشر ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م.

١٨٣) حقائق عن الغزو الفكري للإسلام، تأليف: أنور الجندي، الناشر: دار الاعتصام، القاهرة.

١٨٤) حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، تأليف اللواء: أحمد عبد الوهاب، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م.

١٨٥) حقيقة العلاقة بين اليهود والنصارى وأثرها على العالم الإسلامي، تأليف: أحمد محمد زايد، الناشر: دار المعالي، عمّان، الأردن، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠م.

١٨٦) حقيقة عيسى المسيح، تأليف الدكتور: محمد علي الخولي، الناشر: مطابع الفرردق التجارية، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م.

١٨٧) حكم بناء الكنائس والمعابد الشركيّة في بلاد المسلمين، تأليف الشيخ: إسماعيل بن محمد الأنصاري، الناشر: رئاسة إدارة البحوث والعلميّة والإفتاء، الرياض، الطبعة الثانية ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م.

١٨٨) حملة المنافقين الفرنسيس، تأليف الأستاذة الدكتورة: زينب عبد العزيز، الناشر: النهار للطبع والنشر والتوزيع، طبعة عام ١٩٩٨ م.

١٨٩) الحوار الإسلامي المسيحي، تأليف: بسّام داود عجك، الناشر: دار قتيبة، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م.

١٩٠) الحوار الإسلامي المسيحي (الفرص والتحديات)، تأليف الدكتور: يوسف الحسن، الناشر: المجمع الثقافي، أبو ظبي، الطبعة الأولى ١٩٩٧ م.

١٩١) حوار الأديان في الأندلس لأبي العباس القرطبي، تقديم وتعليق وتحقيق أحمد حجازي السقا، الناشر: مكتبة مدبولي الصغير، القاهرة.

١٩٢) الحوار الخفي (الدين الإسلامي في كليّات اللاهوت)، تأليف الدكتور: محمد الحسيني إسماعيل، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤م.

١٩٣) حوار صريح بين عبد الله وعبد المسيح، تأليف الدكتور: عبد الودود شلبي، الناشر: الدار السعوديّة للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م.

١٩٤) حياة قسطنطين العظيم، تأليف الأسقف المؤرخ: يوسابيوس القيصري، تعريب القمص: مرقس داود، الناشر: مكتبة المحبة القبطيّة الأرثوذكسيّة بالقاهرة.

(خ)

١٩٥) الخطيئة الأولى بين اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام (دراسة مقارنة)، تأليف الدكتورة: أميمة بنت أحمد شاهين الجلاهمة، تقديم الأستاذ الدكتور: محمود عبد السميع شعلان، الناشر: مكتبة زهراء الشرق، القاهرة.

١٩٦) الخلفيّة الأيديولوجيّة للحروب الصليبيّة (دراسة عن الحملة الأولى) ١٠٩٥ - ١٠٩٩م، الناشر: ذات السلاسل، الطبعة الثانية ١٩٨٨ م.

(د)

١٩٧) دراسات في الأديان اليهوديّة والنصرانيّة، تأليف: سعود بن عبد العزيز الخلف، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنوّرة، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ.

١٩٨) دراسات في تاريخ الحروب الصليبيّة، تأليف الدكتوره: عفاف سيّد صبره، الناشر: دار الكتاب الجامعي، القاهرة، طبعة ١٤٠٦ هـ ١٩٨٥ م.

١٩٩) الدراسات الموريسكيّة الأندلسيّة بين الواقع والمأمول، تأليف الدكتور: عبد الجليل التميمي، الناشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلاميّة.

٢٠٠) دراسة في حركات التبشير والتنصير بمنطقة إفريقيا فيما وراء الصحراء، تأليف الدكتور ك الهادي الدالي، والدكتور: عمار هلال، الناشر: الدار المصريّة اللبنانيّة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ٢٠٠٢ م.

٢٠١) دفاع عن السنة، تأليف الدكتور: محمد بن محمد أبوشَهبة، الناشر: مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩ م.

٢٠٢) دفاع عن ثقافتنا، تأليف: جمال سلطان، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة

الأولى ١٤١٢ هـ

٢٠٣) دليل إلى تاريخ الكنيسة، تأليف الأب: جان كُمبي، الناشر: دار المشرق، والمكتبة الشرقيّة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٤ م.

٢٠٤) دليل إلى تاريخ الكنيسة، جزء الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة، الناشر: دار المشرق، المكتبة الشرقيّة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٧ م.

٢٠٥) الدولة العثمانيّة (١٧٠٠ - ١٩٢٢م)، تأليف: دونالد كواترت، تعريب: أيمن أرمنازي، الناشر: مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة العربية الأولى ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤ م.

٢٠٦) الدولة العثمانيّة، عوامل النهوض وأسباب السقوط)، تأليف الدكتور: علي محمد الصلابي، الناشر: دار التوزيع والنشر الإسلاميّة، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٤ م.

٢٠٧) الدولة والكنيسة، تأليف الدكتور: رأفت عبد الحميد، الناشر: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، طباعة عام ٢٠٠٠ م.

(ر)

٢٠٨) رؤية إسلاميّة لأحوال العالم المعاصر، تأليف الشيخ: محمد قطب، الناشر: دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١١هـ ١٩٩١ م.

٢٠٩) رؤية إسلاميّة للأستشراق، تأليف: أحمد غراب، الناشر المنتدى الإسلامي، لندن.

٢١٠) الردُّ الجميل لألهيّة عيسى بصريح الإنجيل، لحجة الإسلام الإمام أبي حامد الغزالي، تقديم وتحقيق وتعليق الدكتور: محمد عبد الله الشرقاوي، الناشر: مكتبة دار الجيل بيروت، مكتبة الزهراء، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م.

٢١١) الرد على أصناف النصارى، تأليف: علي بن زبن الطبري، تحقيق: خالد محمد عبده، الناشر: مكتبة النافذة، الطبعة الأولى ٢٠٠٥ م.

٢١٢) رد على اليهوديّة واليهوديّة المسيحيّة، تأليف: ندره اليازجي، الناشر: دار طلاس

للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، الطبعة الثانية ١٩٨٤ م.

٢١٣) رسائل روحيّة ورؤية لتأليه المسيح، تأليف الدكتور: زينب عبد العزيز، الناشر: مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهوريّة عابدين، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٥ م.

٢١٤) الرهبانية المسيحيّة وموقف الإسلام منها، تأليف الدكتور: أحمد علي عجيبة، الناشر: دار الآفاق العربية، مدينة نصر، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٤ م.

٢١٥) الروح القدس، تأليف: بلي جراهام، تعريب: ناجي حافظ، الناشر: لجنة خلاص النفوس، الطبعة الثانية ١٩٩٥ م.

٢١٦) الروح القدس والكنيسة، تأليف الدكتور القس: مكرم نجيب، الناشر: دار الثقافة المسيحيّة، الطبعة الأولى ٢٠٠٣ م.

٢١٧) الروم في سياستهم، وحضارتهم، ودينهم، وثقافتهم، وصلاتهم بالعرب، تأليف الدكتور: أسد رستم، الناشر: دار المكشوف، بيروت، الطبعة الأولى أيار ١٩٥٦.

(س)

٢١٨) سقوط الدولة العثمانيّة وأثرها على الدعوة الإسلاميّة، تأليف: مجدي عبد المجيد الصافوري، الناشر: دار الصحوة للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ ١٩٩١م.

٢١٩) السيد المسيح (عابر سبيل أم صانع قرار)، تأليف: حنّا عبد المسيح، الناشر: مكتبة دار الكلمة، القاهرة، الطبعة الأولى عام ٢٠٠١ م.

٢٢٠) سيّدنا عيسى عليه السلام بشر رسول، وليس إلهاً في التوراة والإنجيل والقرآن، تأليف: أحمد السيد موسى الجندي، الناشر: دار الإيمان، الإسكندريّة، طبعة عام ٢٠٠٢م.

(ش)

٢٢١) شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي، تأليف: أنور الجندي، الناشر: المكتب الإسلامي، دمشق، وبيروت، طبعة عام ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م.

٢٢٢) شبهات وهميّة حول الكتاب المقدَّس، تأليف: الدكتور القس: منيس عبد النور، الناشر: كنيسة قصر الدوبارة الإنجيليّة، جاردن سيتي، مصر، الطبعة الثانية ١٩٩٢ م.

٢٢٣) الشرق الإسلامي والغرب المسيحي (١٤٥٠ - ١٥١٧م)، تأليف: سمير علي الخادم، الناشر: مؤسسة دار الريحاني للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٩٨٩ م.

٢٢٤) الشريعة الإسلاميّة والعلمانيّة الغربية، تأليف الدكتور: محمد عمارة، الناشر: دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٣ م.

٢٢٥) الشريعة الإلهيّة لا القوانين الجاهليّة، تأليف الدكتور: عمر سليمان الأشقر، الناشر: دار النفائس، الأردن، مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الثالثة ١٤١٢هـ ١٩٩١ م.

٢٢٦) شرع الجهاد في الحروب الصليبيّة في بلاد الشام، تأليف الدكتور: محمد علي الهرفي، الناشر: دار الإصلاح، ودار النصر للطباعة الإسلاميّة، شبرا، القاهرة.

٢٢٧) شهادات عن لاهوت المسيح، تأليف الدكتور: حليم حسب الله، الناشر: لجنة خلاص النفوس للنشر، شبرا، الطبعة الثانية ١٩٩٨ م.

(ص)

٢٢٨) الصحافة والأقلام المسمومة، تأليف: أنور الجندي، الناشر: دار الاعتصام، القاهرة.

٢٢٩) صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، تأليف: صموئيل هنتنغتون، نقله إلى العربيّة الدكتور: مالك عبيد أبو شهيوة، والدكتور: محمود محمد خلف، الناشر: الدار الجماهيريّة، ليبيا، الطبعة الأولى ١٩٩٩ م.

٢٣٠) الصراع بين الإسلام والعلمانيّة، تأليف: حسن حسين جيلان، ترجمة: كمال خوجة، الناشر: دار القبلة للثقافة الإسلاميّة، جدة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

٢٣١) الصراع بين الفكرة الإسلاميّة والفكرة الغربيّة في الأقطار الإسلاميّة، للشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، الناشر: دار القلم، الكويت، الطبعة الخامسة ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.

٢٣٢) الصراع على القدس (الفاتيكان في اللعبة الدوليّة)، تأليف: صادق عفيفي النابلسي، الناشر: دار الهادي للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥ م.

٢٣٣) الصراع الفكري في البلاد المستعمَرة، تأليف: مالك بن نبي، الناشر: دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، طباعة ١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠ م.

٢٣٤) الصراع مع الصليبيين، تأليف الدكتور: محمد عبد القادر أبو فارس، الناشر: دار البشير للثقافة والعلوم، طنطا، الطبعة الأولى ١٩٩٩ م.

٢٣٥) صفحات من تاريخ المدن الأندلسيّة، تأليف: توفيق محمد علي الحاج، الناشر: دار الضياء، عمّان، الأردن، الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥ م.

٢٣٦) الصلاة الربّانيّة، تأليف القس: مرقس داود، الناشر: مكتبة المحبّة، شبرا، القاهرة.

٢٣٧) الصليب والصلب قبل الميلاد وبعده، تأليف الأب: سامي حلاّق اليسوعي، الناشر: دار المشرق، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٥ م.

٢٣٨) الصليب وكلمات المصلوب، تأليف: يوسف رياض، الناشر: مكتبة الأخوّة، شبرا، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٠ م.

٢٣٩) صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى، تأليف: ريتشارد سوذرن، ترجمة الكتور: رضوان السيّد، الناشر: دار المدار الإسلامي، الطبعة الثانية ٢٠٠٦ م.

٢٤٠) صورة الإسلام في العالم الغربي، تأليف الدكتور: محمد بشاري، الناشر: دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م.

٢٤١) صيحة تحذير من دعاة التنصير، تأليف الشيخ: محمد الغزالي، الناشر: دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ ٢٠٠٠ م.

(ط)

٢٤٢) طبيعة المسيح، تأليف: الباب شنوده الثالث، الناشر: الكلّية الإكليريكيّة للأقباط

الأرثوذكس، القاهرة، الطبعة التاسعة ٢٠٠٤ م.

٢٤٣) الطوائف المسيحيّة في مصر والعالم، تأليف: ماهر يونان عبد الله روفائيل، تقديم ومراجعة القس: جرجس صبحي، الناشر: ماهر يونان عبد الله، شركة سبكترام، الطبعة الثالثة ٢٠٠١م.

(ع)

٢٤٤) العبادات في الأديان السماويّة (اليهودية، والمسيحية، والإسلام)، تأليف: عبد الرزاق رحيم صلال الموحي، الناشر: الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعيّة، دمشق، الطبعة الأولى ٢٠٠١ م.

٢٤٥) العبادة المسيحيّة كتابياً، إعداد القس: صفاء داود فهمي، الناشر: شركة الطباعة المصريّة، طباعة عام ٢٠٠٣ م.

٢٤٦) العدوان الصليبي علىٰ بلاد الشام (هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدَّسة)، تأليف الدكتور: جوزيف نسيم يوسف، الناشر: دار النهضة العربية، بيروت، طباعة عام ١٩٨١ م.

٢٤٧) العدوان الصليبي علىٰ مصر (هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور)، تأليف الدكتور: جوزيف نسيم يوسف، الناشر: دار النهضة العربية، بيروت، طبعة عام ١٩٨١ م.

٢٤٨) العرب والرُّوم واللاّتين في الحرب الصليبيّة الأولى، تأليف الدكتور: جوزيف نسيم يوسف، الناشر: دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨١ م.

٢٤٩) عشرون قرناً في موكب التاريخ (عرض موجز للحوادث الهامة في تاريخ الكنيسة المسيحيّة)، تأليف: حبيب سعيد، الناشر: دار الشرق والغرب، ومطبعة الكاتب المصري.

٢٥٠) عصر الإلحاد (خلفيته التاريخية وبداية نهايته)، تأليف: محمد تقي الأميني الندوي، ترجمة الدكتور: مقتدى حسن ياسين، مراجعة وتقديم الدكتور: عبد الحليم عويس، الناشر: دار الصحوة للنشر والتوزيع.

٢٥١) عقائد النصارى الموحدين بين الإسلام والمسيحيّة، تأليف: حسني يوسف الأطير،

الناشر: مكتبة النافذة، الجيزة، القاهرة، الطبعة الثالثة ٢٠٠٤ م.

٢٥٢) العقائد الوثنيّة في الديانة النصرانيّة، تأليف: محمد بن طاهر التنّير البيروتي، تحقيق ودراسة الدكتور: محمد عبد الله الشرقاوي، الناشر: دار عمران بيروت، مكتبة الزهراء في محيط جامعة القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ١٩٩٣م.

٢٥٣) عقبات في طريق النهضة، تأليف: أنور الجندي، الناشر: دار الاعتصام، مصر.

٢٥٤) العقيدة النصرانيّة بين القران والأناجيل، تأليف: حسن الباش، الناشر: دار قتيبة، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ ٢٠٠١ م.

٢٥٥) عقيدة اليهود في الوعد بفلسطين، تأليف: محمد بن علي آل عمر، الناشر: مجلة البيان، لندن، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م.

٢٥٦) العلاقات الإسلاميّة المسيحيّة في إسبانيا (عهد الملك ألفونسو الأول)، تأليف الدكتورة: نادية مرسي صالح، الناشر: عين للدراسات البحوث الإنسانيّة والاجتماعية، القاهرة، الطبعة الأولى عام ٢٠٠٠ م.

٢٥٧) العلاقات السياسيّة والكنسيّة بين الشرق والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، تأليف الدكتور: عادل زيتون، الناشر: دار دمشق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.

٢٥٨) علم اللاهوت الكتابي (الإعلان الإلهي في العهدين القديم والجديد)، اليف: جرهاردوس فوس، ترجمة الدكتور: عزت زكي، دار الثقافة المسيحية، القاهرة.

٢٥٩) العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلاميّة المعاصرة، تأليف الشيخ الدكتور: سفر بن عبد الرحمن الحوالي، الناشر: مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م.

٢٦٠) العلمانيّة والممانعة الإسلاميّة (محاورات في النهضة والحداثة)، إشراف: علي العميم، الناشر: دار الساقي، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٩ م.

٢٦١) علىٰ ضفاف الحقيقيّة (تجربة كاثوليكي مع شهود يهوه)، تأليف الدكتور: خليل كفوري، الناشر: منشورات مكتبة السائح، طرابلس، لبنان، الطبعة الثانية ١٩٩٧ م.

٢٦٢) عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي، تأليف: شوقي أبو خليل، الناشر: دار الفكر، دمشق، طبعة عام ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م.

(غ)

٢٦٣) غارة تبشيريّة جديدة علىٰ أندونيسيا، تأليف: أبو هلال الأندونيسي، الناشر: دار الشروق، الطبعة الرابعة ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م.

٢٦٤) الغارة الجديدة علىٰ الإسلام (بروتوكولات قساوسة التنصير)، تأليف الدكتور: محمد عمارة، الناشر: دار الرشاد، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ ١٩٩٨ م.

٢٦٥) الغارة علىٰ العالم الإسلامي (افتراءات المبشرين)، تأليف: ا. لو شاتليه، لخصها ونقلها إلى العربيّة: محب الدين الخطيب، و مساعد اليافي، الناشر: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م.

٢٦٦) الغزو الثقافي والمجتمع العربي المعاصر، تأليف الدكتور: محمد سيد محمد، الناشر: دار الفكر العربي، مدينة نصر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ ١٩٩٤ م.

٢٦٧) الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، تأليف الدكتور: عليّ عبد الحليم محمود، الناشر: دار التوزيع والنشر الإسلاميّة، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ ١٩٩٣ م.

٢٦٨) الغزو الفكري للتاريخ والسيرة بين اليمين واليسار، تأليف: سالم عليّ البهنساوي، الناشر: دار القلم، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ ١٩٨٥ م.

٢٦٩) الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، تأليف الدكتور: عبد الستار فتح الله سعيد، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الثانية ١٣٩٩ م.

٢٧٠) الغزو الفكري وهم أم حقيقة، تأليف الدكتور: محمّد عمّارة، الناشر: دار الشروق،

القاهرة، الطبعة الثانية ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م.

٢٧١) غزو في الصميم، تأليف الشيخ: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، الناشر: دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م.

٢٧٢) غفران الذنوب (فلسفة الغفران في المسيحيّة)، تأليف: عوض سمعان، الناشر: مكتبة الأخوة، شبرا، مصر.

٢٧٣) الغفران بين الإسلام والمسيحيّة، تأليف: إبراهيم خليل أحمد، الناشر: دار المنارة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩ م.

(ف)

٢٧٤) الفاتيكان والإسلام، تأليف الأستاذة والدكتورة: زينب عبد العزيز، الناشر: دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ٢٠٠٥ م.

٢٧٥) فتح الأندلس، تأليف الدكتور: شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، طبعة عام ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م.

٢٧٦) فجر الأندلس (دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأمويَّة) ٧١١ - ٧٥٦ م، تأليف الدكتور: حسين مؤنس، الناشر: دار الرشاد، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥ م.

٢٧٧) الفرق والمذاهب المسيحيّة منذ البدايات حتى ظهور الإسلام، تأليف: نهاد خياطة، الناشر: دار الأوائل، دمشق، الطبعة الأولى ٢٠٠٢ م.

٢٧٨) الفرق والمذاهب المسيحيّة منذ ظهور الإسلام حتى اليوم (دراسة تاريخيّة دينيّة سياسيّة اجتماعيّة)، تأليف: سعد رستم، الناشر: الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م.

٢٧٩) فرنسا والأديان السماويّة، تأليف: حسين عبد القادر، الناشر: مركز الدراسات العربي

الأوروبي، الطبعة الأولى ١٩٩٨ م.

٢٨٠) الفروق العقيديّة بين المذاهب المسيحيّة، تأليف القس: إبراهيم عبد السيد ميخائيل، الناشر: مكتبة المحبة، الطبعة الثالثة عشرة ١٩٩٦ م.

٢٨١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، للإمام أبي محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري، تحقيق الدكتور: محمد إبراهيم نصر، الدكتور: عبد الرحمن عميرة، الناشر: شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعوديّة، الطبعة الأولى١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

٢٨٢) فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبيّة، تأليف الدكتور: عزّ الدّين فرّاج، الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة، طبعة عام ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢ م.

٢٨٣) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، تأليف الدكتور: محمد البهي، الناشر: الفيصليّة، مكة المكرمة، الطبعة السادسة ١٩٧٣ م.

٢٨٤) فكر التنصير في مسرحيّات شكسبير، تأليف الدكتور: عدنان محمد وزّان، الناشر: دار اشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ ١٩٩٨ م.

٢٨٥) الفكر السياسي الأوروبي في العصور الوسطى، تأليف الدكتور: رأفت عبد الحميد، الناشر: دار قباء، القاهرة، طبعة عام ٢٠٠٢ م.

٢٨٦) الفكر اللاهوتي للقوّة (رؤية مسيحيّة عربية للحرب والسلام)، تأليف الدكتور القس: مكرم نجيب، الناشر: دار الثقافة المسيحيّة، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٣ م.

٢٨٧) فكرة القوميّة العربيّة على ضوء الإسلام، تأليف الدكتور: صالح بن عبد الله العبود، الناشر: دار طيبة، الرياض.

٢٨٨) فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، تأليف الدكتور: أحمد سمايلوفتش، صُوّرت من مكتبة جامعة الملك عبد العزيز المركزيّة، تحت رقم (سم أ ٨١٠).

٢٨٩) فلسفة العقائد المسيحيّة، تأليف الدكتور: محمد عثمان الخشت، الناشر: دار قباء، القاهرة،

طباعة عام ١٩٩٨ م.

٢٩٠) فهرس الكتاب المقدَّس، تأليف الدكتور: جورج بوست، الناشر: دار الثقافة المسيحيّة، القاهرة، الطبعة الثامنة.

٢٩١) في الحوار اللاهوتي (اللاهوت المقارن)، تأليف: البابا شنودة الثالث، الناشر: الكليّة الإكليريكيّة للأقباط الأرثوذكس، القاهرة، الطبعة الثالثة عشر ٢٠٠٤ م.

٢٩٢) في تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، تأليف الدكتور: محمد علي القوزي، الناشر: دار النهضة العربيّة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٦ م.

٢٩٣) في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب (السياسة الصليبيّة للبابا إنوسنت الثالث ١١٩٨ ١٢١٦ م)، تأليف الدكتور: عبد اللطيف عبد الهادي السيد، الناشر: المكتب الجامعي الحديث، الإسكندريّة، طبعة عام ٢٠٠٥ م.

٢٩٤) في مهب المعركة، تأليف: مالك بن نبي، الناشر: دار الفكر، بيروت، دمشق، طبعة عام ١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠ م.

(ق)

٢٩٥) القاموس السياسي، تأليف: أحمد عطيّة، الناشر: دار النهضة العربيّة، القاهرة، الطبعة الثالثة.

٢٩٦) القدس في الوثائق الفاتيكانيّة، تأليف: ادمون فرحان، الناشر: دار النهار.

٢٩٧) قذائف الحق، تأليف الشيخ: محمد الغزالي، الناشر: ذات السلاسل، الطبعة الخامسة ١٩٨٤م.

٢٩٨) قراءة في فكر التبعيّة، تأليف: محمد جلال كشك، تقديم الأستاذ الدكتور: عبد الصبور شاهين، الناشر: مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م.

٢٩٩) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، تأليف الدكتور: موريس بوكاي، الناشر:

مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٦ م.

٣٠٠) القرآن وتصديق التوراة والإنجيل، تأليف الدكتور: ممدوح جاد، طُبع بالمطبعة الفنيّة، القاهرة.

٣٠١) قصة الاضطهاد الديني في المسيحيّة والإسلام، تأليف الدكتور: توفيق الطويل، الناشر: الزهراء للإعلام العربي، مدينة نصر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ ١٩٩١ م.

٣٠٢) قصة الهجوم على السنّة، تأليف الدكتور: علي أحمد السّالوس، الناشر: دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ١٩٨٧ م.

٣٠٣) قصة الحضارة، تأليف: وِل دايريل ديورانت، ترجمة: محمّد بدران، الناشر: دار الجليل، بيروت.

٣٠٤) قضايا فكريّة واجتماعيّة في ضوء الإسلام، تأليف الدكتور: محمود حمدي زقزوق، الناشر: دار المنار، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ ١٩٨٨ م.

٣٠٥) قضية صلب المسيح بين مؤيد ومعارض، تأليف: عوض سمعان، الناشر: دار النشر الأسقفيّة.

٣٠٦) قضية التنوير في العالم الإسلامي، تأليف الشيخ الأستاذ: محمد قطب، الناشر: دار الشروق، الطبعة الثانية ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٣ م.

٣٠٧) قوانين ملكوت السموات ومبادؤه كما جاءت في الموعظة على الجبل، تأليف القس: ا. ل. هملتون، تعريب الأستاذ: عدلي فام، الناشر: مطبعة النيل المسيحيّة.

٣٠٨) قوى الشر المتحالفة (الاستشراق، التبشير، الاستعمار) وموقفها من الإسلام والمسلمين، تأليف: محمد محمد الدهان، الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.

٣٠٩) قيامة المسيح والأدلّة على صدقها، تأليف: عوض سمعان، الناشر: الكنيسة الإنجيليّة

بقصر الدوبارة، جاردن سيتي، مصر.

(ك)

٣١٠) الكامل في التاريخ، للعلاّمة عمدة المؤرخين عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري، راجعه وصححه الدكتور: محمد يوسف الدقاق، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ١٩٩٥م.

٣١١) كتاب الأشعة اللاهوتيّة في مبادئ التعاليم المسيحيّة، تأليف نيافة الدكتور: مول مطران دورهم، ترجم عن الإنكليزيّة بواسطة جمعيّة المرسلين الأسقفيين بالقاهرة، الناشر: المطبعة الإنكليزيّة الأمريكية بشارع المناخ بمصر، الطبعة الثانية ١٩١٨ م.

٣١٢) الكتاب المقدّس في الميزان، تأليف: عبد السلام محمد، الناشر: دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ ١٩٩١ م.

٣١٣) الكتب السماويّة وشروط صحتها، تأليف: عبد الوهاب عبد السلام طويله، الناشر: دار القبلة للثقافة الإسلاميّة، جدة، مؤسسة علوم القرآن بيروت، طبعة عام ١٤١٠ هـ ١٩٩٠م.

٣١٤) الكتب المقدَّسة في ميزان التوثيق، تأليف: عبد الوهاب عبد السلام طويلة، الناشر: دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م.

٣١٥) الكشوف الجغرافية دوافعها، حقيقتها، تأليف: محمود شاكر، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ.

٣١٦) كفارة المسيح، تأليف: عوض سمعان، الناشر: كنيسة قصر الدوبارة، جاردن سيتي، مصر، طبعة عام ٢٠٠٣ م.

٣١٧) كل الصلوات في الكتاب المقدّس، تأليف: هربرت لوكير، ترجمة: بهيج يوسف، الناشر: دار الثقافة المسيحيّة، شبرا، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٩٦م.

٣١٨) كنائس المشرق، تأليف الدكتور: عزّت زكي، الناشر: دار الثقافة المسيحيّة، شبرا، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩١ م.

٣١٩) كنائس بغداد ودياراتها، تأليف الدكتور الأب: بطرس حداد، الناشر: شركة الديوان للطباعة، بغداد، طبعة عام ١٩٩٤ م.

٣٢٠) الكنائس العربيّة في السجل الكنسي العثماني (١٨٦٩ ١٩٢٢م)، جمع وترجمة وتحقيق: عبد الرحيم أبو حسين، صالح سعداوي، الناشر: المعهد الملكي للدراسات الدينيّة، عمّان، الأردن، الطبعة الأولى ١٩٩٨ م.

٣٢١) الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها (دنتسنغر، بيتر هونرمان)، ترجمة: المطران يوحنّا منصور، النائب البطريركي للرّوم الكاثوليك، والأب حَنّا الفاخوري، وحقق الترجمة الأب: عادل ثيودور خُوري، الناشر: منشورات المكتبة البولسيّة، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠١ م.

٣٢٢) الكنيسة الكاثوليكيّة والإسلام، تأليف: الأب ميشال لولوُن، ترجمة: فاطمة الجامعي الجبابي، وعادل بن محمد الجبابي، الناشر: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، والمعهد الملكي للدراسات الدينيّة، الأردن، دار الفارس للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة العربيّة الأولى ٢٠٠١م.

(ل)

٣٢٣) اللآلي النفيسة في شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، تأليف المتنيح القمص يوحنّا سلامة، الناشر: مكتبة مار جرجس، شبرا، مصر، طبعة عام ١٩٩٩م.

٣٢٤) اللاهوت المقارن، تأليف التنيح الأنبا: غريغوريوس أسقف عام للدراسات العليا اللاهوتيّة والثقافة القبطيّة والبحث العلمي، الناشر: مكتبة التنيح الأنبا: غريغوريوس، دير الأنبا رويس بالعباسيّة، مصر، طبعة عام ٢٠٠٣ م.

٣٢٥) لماذا أسلم صديقي، ورأي الفاتيكان في تحديات القرآن، تأليف الدكتور: إبراهيم خليل،

الناشر: مكتبة التراث الإسلامي.

٣٢٦) لماذا نرفض المطهر؟ تأليف: البابا شنوده الثالث، الناشر: مطبعة الأنبا رويس الأوفست الكاتدرائيّة العبّاسيّة، القاهرة، الطبعة الخامسة ٢٠٠٤ م.

(م)

٣٢٧) المؤامرة على المرأة المسلمة (تاريخ ووثائق)، تأليف الدكتور: السيد أحمد فرج، الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، الطبعة الرابعة ١٤١٣ هـ ١٩٩٢م.

٣٢٨) مؤامرة الغرب على الإسلام والمسلمين اعتداء وتشويه، تأليف: محمد عثمان عثمان، الناشر: دار المحبّة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، طبعة عام ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م.

٣٢٩) ما معنى أن يسوع المسيح هو ابن الله؟، تأليف الدكتور: هاني رزق الله، الناشر: دار النشر الأسقفيّة، مصر الجديدة.

٣٣٠) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، للشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، الناشر: دار القلم، دمشق، دار البشير، جدة، الطبعة الثانية ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٣ م.

٣٣١) المجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند، تأليف الدكتور: علي محمد عودة الغامدي تقديم الشيخ الدكتور: سفر بن عبد الرحمن الحوالي، الناشر: مكتبة الصديق، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

٣٣٢) محاربة الإسلام من داخله، تأليف الدكتورة: سارة بنت عبد المحسن بن جلوي آل سعود، الناشر: مركز البحوث والدراسات الإسلاميّة للأمير عبد المحسن بن جلوي، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢ م.

٣٣٣) محاضرات في النصرانيّة، تأليف فضيلة الشيخ: محمد أبو زهرة، الناشر: الرئاسة العامة لإدارت البحوث العلميّة والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، الطبعة الرابعة ١٤٠٤ هـ.

٣٣٤) محاكم التفتيش في إيطاليا، تأليف الدكتور: رمسيس عوض، الناشر: دار الهلال، القاهرة.

٣٣٥) محاور الالتقاء، ومحاور الافتراق بين المسيحيّة والإسلام، تأليف: غسّان سليم سالم، الناشر: دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٤ م.

٣٣٦) المحيط الجامع في الكتاب المقدّس، تأليف الدكتور: الخوري بُولس الفغالي، الناشر: المكتبة البولسيّة، جونيه، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٣ م.

٣٣٧) المختار في الرد على النصارى، تأليف: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق ودراسة الدكتور: محمد عبد الله الشرقاوي، الناشر: دار الجيل بيروت، مكتبة الزهراء في محيط جامعة القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١١هـ ١٩٩١م.

٣٣٨) مختصر تاريخ الكنيسة، تأليف أندرو مِلر، الناشر: مكتبة الأخوّة، شبرا، القاهرة، الطبعة الرابعة ٢٠٠٣ م.

٣٣٩) مختصر كتاب إظهار الحق، للعلاّمة الشيخ: رحمت الله بن خليل الرحمن الهندي، اختصار وتدقيق محقق الكتاب الدكتور: محمد أحمد عبد القادر ملكاوي، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلميّة والإفتاء والدعوة والإرشاد، طبع ١٤١٦هـ ١٩٩٥م.

٣٤٠) المخططات الاستعماريّة لمكافحة الإسلام، تأليف: محمد محمود الصوّاف، الناشر: دار الاعتصام، القاهرة، دار الإصلاح، الدمام.

٣٤١) مدخل إلى الحوار الإسلامي المسيحي، تأليف: الحدّاد، الناشر: المكتبة البولسيّة المسيحيّة، الطبعة الثانية ١٩٨٦ م.

٣٤٢) مدخل إلى تاريخ حركة التنصير، تأليف الدكتور: ممدوح حسين، الناشر: دار عمّار، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ ١٩٩٥ م.

٣٤٣) مدخل إلى تاريخ الكنيسة، إعداد: القمص: مرقس البرموسي، أمير نصر، زكريا عبد السيّد، تقديم الأنبا: موسى، الأسقف العام، الناشر: مكتبة أسقفيّة الشباب، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.

٣٤٤) المدنية الإسلاميّة وأثرها على الحضارة الأوروبيّة، تأليف الدكتور: سعيد عبد الفتاح عاشور، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٨٢م، طبعة جديدة ومنقحة ٢٠٠٤.

٣٤٥) مذاهب فكريّة معاصرة، تأليف الشيخ: محمد قطب، الناشر: دار الشروق، بيروت، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ، ١٩٨٣ م.

٣٤٦) المرأة في اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام، تأليف: زكي علي السيد أبو غضة، الناشر: دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٣ م.

٣٤٧) مراجعة الاستشراق ثنائيّة الذات / الآخر (نموذج يوغسلافيا)، تأليف الدكتور: محمد م. الأرناؤوط، الناشر: دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى ٢٠٠٢ هـ.

٣٤٨) المرشد إلى الكتاب المقدّس، تقديم الأب: جان كوربون، الناشر: دار الكتاب المقدّس في الشرق الأوسط، ومجلس كنائس الشرق الأوسط، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ٢٠٠ م.

٣٤٩) مريم العذراء في التاريخ والطقس والعقيدة، تأليف القمص: سيداروس عبد المسيح، الناشر: مكتبة مار جرجس، شبرا، مصر، طبعة عام ٢٠٠٤ م.

٣٥٠) مريم والمسيح عليهما السلام، لفضيلة الشيخ محمد متولّي الشعراوي، الناشر: مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٢١ هـ، ٢٠٠٠ م.

٣٥١) مسالة الله في التّاريخ (من الكتاب المقدّس إلى الظاهرة الدينيّة المعاصرة)، تأليف الأب: فيكتور شِلحُت، إشراف النائب الرسولي للطائفة اللاّتينيّة بولس باسيم، الناشر: دار المشرق، والمكتبة المشرقيّة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٨ م.

٣٥٢) مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والأوهام، للداعية أحمد ديدات، ترجمة: جمال نادر، الناشر: دار الإسراء للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، الطبعة الأولى ١٩٩٥ م.

٣٥٣) المستشرقون، تأليف: نجيب العقيقي، الناشر: دار المعارف، القاهرة.

٣٥٤) مستشرقون (سياسيّون، جامعيّون، مجمعيّون)، تأليف: نذير حمدان، الناشر: مكتبة

الصديق، الطائف، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.

٣٥٥) المستشرقون والتنصير، تأليف الأستاذ الدكتور: عليّ بن إبراهيم الحمد النملة، الناشر: مكتبة التوبة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م.

٣٥٦) المستشرقون والقرآن، تأليف الدكتور: إبراهيم عوض، الناشر: دار القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٣ م.

٣٥٧) المستشرقون ومن تابعهم وموقفهم من ثبات الشريعة وشمولها (دراسةً و تطبيقاً)، تأليف الدكتور: عابد بن محمد السفياني، الناشر: مكتبة المنارة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٩٠٨هـ ١٩٨٨ م.

٣٥٨) المستشرقون وتوجيه السياسة التعليميّة في العالم العربي، مع دراسة تطبيقيّة على دول الخليج العربي، تأليف: نايف بن ثنيّان بن محمد آل سعود، الناشر: دار أميّة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ.

٣٥٩) المستشرقون والحديث النبوي، تأليف الدكتور: محمد بهاء الدين، الناشر: دار النفائس، عمّان، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م.

٣٦٠) المستشرقون ونشر التراث، تأليف: عليّ بن إبراهيم النملة، الناشر: مكتبة التوبة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م.

٣٦١) المسلمون في أمريكا ومعوقات التحالف مع اليمين المسيحي، تأليف: دي جيسون بيرغرين، الناشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلاميّة، طبعة عام ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م.

٣٦٢) المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسيّة، تأليف: عبد الله بن حمد الشبانة، الناشر: دار طيبة، الرياض، طبعة عام ١٤١٩ هـ ١٩٨٩ م.

٣٦٣) المسيح إنسان أم إله، تأليف المستشار الدكتور: محمد مجدي مرجان، الناشر: مكتبة النافذة،

القاهرة، الطبعة الثانية ٢٠٠٤ م.

٣٦٤) المسيح بين المعرفة والجهل، تأليف الدكتور: حليم حسب الله، الناشر: لجنة خلاص النفوس للنشر، شبرا، مصر، طبعة عام ١٩٩٩ م.

٣٦٥) المسيح ﷺ في دين الإسلام، تأليف عبد الملك علي الكليب، الناشر: دار إيلاف الدوليّة للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ ١٩٩٦ م.

٣٦٦) المسيح عند اليهود والنصارى والمسلمين وحقيقة الثالوث، تأليف الدكتور: عبد المنعم جبري، الناشر: الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى ٢٠٠٥ م.

٣٦٧) المسيح في مصادر العقائد المسيحيّة، تأليف اللواء: أحمد عبد الوهاب، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.

٣٦٨) المسيح والتثليث، تأليف الدكتور: محمد وصفي، تقديم: محمد عبد الله السمّان، الناشر: دار الفضيلة، القاهرة، طبعة عام ٢٠٠٣ م.

٣٦٩) المسيح والسياسة، تأليف جون يودر، ترجمة: بهيج يوسف، الناشر: دار الثقافة المسيحيّة، القاهرة

٣٧٠) المسيحيّ والطلاق، تأليف الأب: كميل حشيمه اليسوعيّ، الناشر: دار المشرق، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٢ م.

٣٧١) المسيحيّة، تأليف الدكتور: أحمد شلبي، الناشر: مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة، الطبعة التاسعة ١٩٩٠ م.

٣٧٢) المسيحيّة الأصليّة، تأليف: جان ستوت، تعريب القس: ريد زخاري، الناشر: دار منشورات النفير، بيروت، الطبعة الرابع ١٩٩٥ م.

٣٧٣) مسيحيّة بلا مسيح، تأليف الدكتور: كامل سعفان، الناشر: دار الفضيلة.

٣٧٤) المسيحيّة بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، تأليف الدكتور: عبد المنعم فؤاد،

الناشر: مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م.

٣٧٥) المسيحيّة الحقة كما جاء بها المسيح، تأليف: علاء أبوبكر، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م.

٣٧٦) مسيحيّة ضد الإسلام حوار انتهى إلى الإخفاق، تأليف: لودفيغ هاغِمَن، ترجمة: محمد جديد، تقديم: رضوان السيّد، التوزيع في العالم: شركة قَدْمُس للنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية ٢٠٠٥ م.

٣٧٧) المسيحيّة العربيّة وتطوّراتها، تأليف الدكتور: سلوى بالحاج صالح العايب، الناشر: دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٨م.

٣٧٨) المسيحيّة في عقائدها (التعليم المسيحي الكاثوليكي)، نقله من الألمانيّة إلى العربيّة: المطران كيرلس سليم بسترس، رئيس أساقفة بعلبك وتوابعها للروم الملكيين الكاثوليك، الناشر: منشورات المكتبة البولسيّة، الطبعة الأولى ١٩٩٨ م.

٣٧٩) المسيحيّة نشأتها وتطورها، تأليف البرفسور: شارل جينيبير، ترجمة واختصار: الدكتور عبد الحليم محمود، الناشر: دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة.

٣٨٠) المسيحيّة (النصرانيّة) دراسة وتحليل، تأليف الأستاذ: ساجد مير، الناشر: دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢ م.

٣٨١) المسيحيّة والإسلام والاستشراق، تأليف: محمد فاروق الزين، الناشر: دار الفكر، دمشق.

٣٨٢) مسيحيّون أم بولسيون، تأليف الدكتور: محمد نادر عفيفي، الناشر: دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ.

٣٨٣) المشائخ والاستعمار، تأليف: حسني شيخ عثمان، الناشر: دار طيبة، مكة، الرياض، الطبعة الخامسة ١٤١٣ هـ.

٣٨٤) مشكلات الغزو الفكري في غرب إفريقيا، تأليف: علي حسن كمارا، تقديم: الأستاذ الدكتور: مصطفى منجود، الناشر: دار النهار للطبع والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢م.

٣٨٥) مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، تأليف الدكتور: سعيد عبد الفتاح عاشور، الناشر: دار النهضة العربية، بيروت.

٣٨٦) معجزات المسيح، تأليف الدكتور القس: منيس عبد النور، الناشر: الكنيسة الإنجيليّة بقصر الدوبارة، جاردن سيتي، مصر.

٣٨٧) معجم الأيمان المسيحي، تأليف: الأب صُبحي حَموي اليسوعي، أعاد النظر فيه من الناحية المسكوني الأب جان كُوربون، الناشر: دار المشرق، بيروت بالتعاون مع مجلس كنائس الشرق الأوسط.

٣٨٨) المعجم الموسوعي للديانات والعقائد والمذاهب والفرق والطوائف والنحل في العالم منذ فجر التاريخ حتى العصر الحالي، تعريب وتصنيف وتقديم الأستاذ الدكتور: سهيل زكّار، الناشر: دار الكتاب العربي، دمشق، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م.

٣٨٩) معركة الأرَك، تأليف الدكتور: شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، طبعة عام ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م.

٣٩٠) مفاتيح أورشليم القدس (حملتان صليبيتان على مصر) ١٢٠٠ - ١٢٥٠ م، تأليف: ريمون ستانبلوي، ترجمة: عايدة الباجوري، مراجعة وتقديم: إسحاق عبيد، الناشر: المجلس الأعلى للثقافة، الجيزة، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٤ م.

٣٩١) مقالات وبحوث حول الاستشراق والمستشرقين للعلاّمة أبي الحسن علي الندوي، إعداد: سيد عبد الماجد الغوري، الناشر: دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢ م.

٣٩٢) مقالة قصيرة في العشاء المقدّس، تأليف: جون كالفن، ترجمة وتقديم: جورج صبرا،

الناشر: دار الثقافة المسيحيّة، القاهرة، طبعة ٢٠٠٤ م.

٣٩٣) المقاومة الإسلاميّة للغزو الصليبي (عصر ولاة السلاجقة في الموصل)، تأليف الدكتور: عماد الدين خليل، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م.

٣٩٤) الملائكة رسل الله المختفون، تأليف: بلي جراهام، تعريب: فؤاد زكي، الناشر: لجنة خلاص النفوس للنشر، شبرا، القاهرة، طبعة عام ١٩٨٩ م.

٣٩٥) الملل والنّحل، للعلاّمة أبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهر ستاني، تحقيق: عبد الأمير علي مهنا، علي حسن فاعور، الناشر: دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م.

٣٩٦) من أنت أيّها الكنيسة؟ تأليف: الأب فاضل سيداروس، الناشر: دار المشرق المسيحيّة، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٦ م.

٣٩٧) مناظرة بين الإسلام والنصرانيّة، الناشر: الرئاسة العامة لإدارت البحوث العلميّة والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، طبعة عام ١٤٠٧ هـ.

٣٩٨) مناهج البحث في الإسلاميّات لدى المستشرقين وعلماء الغرب، تأليف: محمد البشير مغلي، الناشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلاميّة، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ ٢٠٠٢م.

٣٩٩) منحة القريب المجيب في الرد على عُبّاد الصليب، تأليف: الشيخ عبد العزيز بن حمد بن ناصر بن معمر، تحقيق الدكتور: محمد بن عبد الله بن حمد السكاكر، الناشر: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربيّة السعوديّة، طبعة عام ١٤١٩ هـ ١٩٩٩م.

٤٠٠) منهجيّة جمع السنة، وجمع الأناجيل (دراسة مقارنة)، تأليف الدكتورة: عزّية علي طه، الطبعة الثانية ١٤١٧ هـ ١٩٩٦ م.

٤٠١) مواجهة الغزو الفكري ضرورة إسلاميّة، تأليف الدكتور: أحمد عبد الرحيم السايح،

الناشر: مركز الكتاب للنشر، مصر الجديدة، القاهرة.

٤٠٢) موجز تاريخ المسيحيّة، تأليف الأنبا: ديوسقورس، أستاذ التاريخ بالاكليريكيّة وأسقف المنوفيّة، إعداد ومراجعة دياكون الدكتور ميخائيل مكسى إسكندر، الناشر: مكتبة المحبّة، طبعة عام ٢٠٠٣ م.

٤٠٣) موسوعة الأديان في العالم، جزء (الكنائس الشرقية)، إشراف: جميل مدبك، طبعة عام ٢٠٠٠ م.

٤٠٤) موسوعة الأديان في العالم، جزء (المارونيّة)، إشراف: جميل مدبك، طبعة عام ٢٠٠٠ م.

٤٠٥) موسوعة الأديان في العالم، جزء (المسيحيّة)، إشراف: جميل مدبك، طبعة عام ٢٠٠٠ م.

٤٠٦) موسوعة الأديان والمذاهب، تأليف العميد: عبد الرزاق محمد أسود، الناشر: الدار العربيّة للموسوعات، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠ م.

٤٠٧) موسوعة التاريخ الإسلامي، الجزء الثامن، تأليف الدكتور: أحمد شلبي، الناشر: مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الرابعة ١٩٩٦ م.

٤٠٨) موسوعة التاريخ الإسلامي، الجزء الخامس (عن الحروب الصليبيّة، والجولة العثمانيّة)، تأليف الدكتور: أحمد شلبي، الناشر: مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة، الطبعة التاسعة ١٩٩٩ م.

٤٠٩) موسوعة تاريخ الحروب الصليبيّة، تأليف الدكتور: مفيد الزيدي، الناشر: دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى ٢٠٠٤ م.

٤١٠) موسوعة تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، تأليف الدكتور: مفيد الزيدي، الناشر: دار أسامة للنشر والتوزيع، عمّان، الطبعة الأولى ٢٠٠٤ م.

٤١١) موسوعة تاريخ العالم، إصدار: وليام لانجر، أشرف على الترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة، الناشر: مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة.

٤١٢) موسوعة التاريخ العربي المعاصر والحديث، تأليف الدكتور: مفيد الزيدي، الناشر: دار

أسامة، عمّان، الأردن، الطبعة الأولى ٢٠٠٤ م.

٤١٣) موسوعة السياسة، إشراف الدكتور: عبد الوهاب الكيالي، الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٤ م.

٤١٤) الموسوعة العربية العالميّة، الناشر: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، إشراف السمو الملكي الأمير سلطان بن عبد العزيز آل سعود.

٤١٥) الموسوعة العربية الميسّرة، إشراف: محمد شفيق غِربال، الناشر: دار الجيل، والجمعيّة المصريّة لنشر المعرفة والثقافة العالميّة، مصر، طبعة عام ١٤١٦هـ ١٩٩٥م.

٤١٦) موسوعة المستشرقين، تأليف الدكتور: عبد الرحمن بدوي، الناشر: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الرابعة ٢٠٠٣ م.

٤١٧) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف وتخطيط ومراجعة الدكتور: مانع بن حمّاد الجهني، الناشر: دار الندوة العالميّة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة ١٤٢٠ هـ.

٤١٨) موقع الإسلام في صراع الحضارات والنظام العالمي الجديد، تأليف: محمد السماك، الناشر: دار النفائس، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م.

٤١٩) موقف ابن تيميّة من النصرانيّة، تأليف الدكتورة: مريم عبد الرحمن الزامل، الناشر: معهد البحوث العلميّة وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، طبعة عام ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

٤٢٠) موقف الغرب من الإسلام (محاصرة وإبادة)، تأليف الأستاذة الدكتورة: زينب عبد العزيز، الناشر: دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ٢٠٠٤ م.

٤٢١) موقف اليهود والنصارى من المسيح ﷺ وإبطال شبهاتهم حوله، تأليف الدكتور: ساره بنت حامد بن محمد العبادي، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ

٢٠٠٥م.

٤٢٢) الميزان في مقارنة الأديان (حقائق ووثائق)، تأليف المستشار: محمد عزت الطهطاوي، الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشاميّة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م.

٤٢٣) ميلاد العصور الوسطى، تأليف: هـ. سانت موس، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة الدكتور: السيد الباز العريني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة عام ١٩٩٨م.

(ن)

٤٢٤) نابليون والإسلام (من الوثائق العربية والفرنسيّة)، تأليف: كريستيان تشير فيلز، تعريب الدكتور: زين نجاتي، الناشر: مكتبة الشروق الدوليّة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ ٢٠٠٢م.

٤٢٥) نبلاء ودراويش (تاريخ الحروب الصليبيّة ١٠٩٥ ١٢٩١م)، تأليف الدكتور: إسماعيل نوري الربيعي، الناشر: الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة العربية الأولى ٢٠٠٣م.

٤٢٦) النبوّة والأنبياء في اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام، تأليف اللواء: أحمد عبد الوهاب، الناشر: مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهوريّة عابدين، القاهرة، الطبعة الثانيّة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

٤٢٧) النصارى في الشرق، تأليف: بيرو روندو، الناشر: منشورات دار المكشوف، الطبعة الأولى كانون ١٩٤٧ م.

٤٢٨) النصرانيّة في الميزان، تأليف المستشار: محمد عزّت الطهطاوي، الناشر: دار القلم دمشق، الدار الشاميّة بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ ١٩٩٥م.

٤٢٩) النصرانيّة في ميزان العقل والإسلام، تأليف: محمد سليم القاضي، مراجعة وتحقيق: نبيل حامد خضر، الناشر: دار الكتاب الثقافي، الطبعة ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.

٤٣٠) النصرانيّة من التوحيد إلى التثليث، تأليف: الدكتور محمد أحمد الحاج، الناشر: دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

٤٣١) النصرانيّة والتنصير، أم المسيحيّة والتبشير، دراسة مقارنة حول المصطلحات والدلالات، تأليف الدكتور: محمد عثمان صالح، الناشر: مكتبة ابن القيم، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ ١٩٨٩م.

٤٣٢) نصوص من أدب الحروب الصليبيّة، تأليف الدكتور: عمر عبد الرحمن الساريسي، الناشر: دار المنارة، جدة، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.

٤٣٣) نظام الأسرة بين المسيحيّة والإسلام (دراسة مقارنة)، تأليف الدكتور: محمود عبد السميع شعلان، الناشر: دار العلوم للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

٤٣٤) نظرات في إنجيل برنابا المبشّر بنبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلّم، تأليف: محمد علي قطب، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة.

٤٣٥) نقد الخطاب الاستشراقي (الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلاميّة)، تأليف الدكتور: ساسي سالم الحاج، الناشر: دار المدى الإسلامي، طرابلس، ليبيا، الطبعة الأولى٢٠٠٢م.

٤٣٦) نقض دعوى عالمية النصرانيّة، تأليف الدكتور: فرج الله عبد الباري، الناشر: دار الآفاق العربيّة، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.

(هـ)

٤٣٧) الهجمة الصليبيّة على البلاد الإسلاميّة، تأليف الدكتور: محمد ناصر الشثري، الناشر: دار الحبيب، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

٤٣٨) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، للعلاّمة أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزيّة، تحقيق ودراسة الدكتور: محمد أحمد الحاج، الناشر: دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ١٩٩٦ م.

٤٣٩) هدم الإسلام بالمصطلحات المستوردة (الحداثة والأصولية)، تأليف الأستاذة الدكتورة:

زينب عبد العزيز، الناشر: دار الكتاب العربي، القاهرة، ودمشق، الطبعة الأولى ٢٠٠٤ م.

٤٤٠) الهرطقة في الغرب، تأليف الدكتور: رمسيس عوض، الناشر سينا للنشر، ومؤسسة الأنتشار العربي بيروت.

٤٤١) هل المسيح هو الله، المسيح في الإنجيل بشر، تأليف الدكتور: ممدوح جاد، الناشر: مهندس أسامة نصر.

٤٤٢) هل المسيح هو الله؟ أم ابن الله؟ أم هو بشر؟ تأليف القس: عبد المسيح بسيط أبو الخير كاهن كنيسة السيدة العذراء الأثرية بمسطرد، الناشر: مطبعة المصريين.

٤٤٣) هل انتشر الإسلام بالسيف، تأليف الدكتور: عبد الودود شلبي، الناشر: مركز الراية للنشر والإعلام، الطبعة الثانية ٢٠٠ م.

(و)

٤٤٤) واقع العالم الإسلامي بين تغريب التعليم وكشف تخريب المتآمرين، تأليف: سعيد عبد الحكيم زيد، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

٤٤٥) واقعنا المعاصر، تأليف الشيخ: محمد قطب، الناشر: مؤسسة المدينة للصحافة، جدة، الطبعة الثالثة ١٤١١ هـ ١٩٩٠ م.

٤٤٦) واقعنا المعاصر والغزو الفكري، تأليف الدكتور: صالح الرقب، الناشر: مكتبة الطالب الجامعي، الجامعة الإسلاميّة في غزة، وفي خان يونس، الطبعة السادسة ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م.

٤٤٧) وجاء الدور على الإسلام، تأليف: رضا محمد العراقي، الناشر: دار طويق، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ.

٤٤٨) الوجود المسيحي في القدس خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، تأليف الدكتور: رؤوف سعد أبو جابر، الناشر: مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.

٤٤٩) وحي الله حقائقه وخصائصه في الكتاب والسنة ونقض مزاعم المستشرقين، تأليف

الأستاذ الدكتور: حسن ضياء الدين عتر، الناشر: دار المكتبي، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ ١٩٩٩ م.

٤٥٠) الوحي والملائكة في اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام، تأليف اللواء: أحمد عبد الوهاب، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م.

(ي)

٤٥١) يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء (دراسة مقارن للمسيحيّة)، تأليف الدكتور: رؤوف شلبي، الناشر: دار ثابت للنشر والتوزيع، القاهرة، طبعة عام ١٤١٠ هـ ١٩٨٩ م.

٤٥٢) اليقظة الإسلاميّة في مواجهة الاستعمار، تأليف: أنور الجندي، الناشر: دار الاعتصام، القاهرة.

٤٥٣) اليوم الآخر بين اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام، تأليف الدكتور: فرج الله عبد الباري أبو عطا الله، الناشر: دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

فهرس الموضوعات


تم بحمد الله